

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد الأول السنة الأولى محرم ١٤٣٨هـ الموافق أكتوبر ٢٠١٦م

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص: ٢٩)



موضوعات العدد:



مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بتدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد الأول السنة الأولى محرم ١٤٣٨هـ الموافق أكتوبر ٢٠١٦م





مجلة تدبر

ص٤٠٠؛ ١٧×٢٤سم

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٥٨٨٣

بتاريخ: ١٤٣٨/٦/٢٤

ردمد: ١٦٥٨-٧٦٤٢



سعر المجلة (٢٠ ريالاً سعودياً أو ما يعادلها)

المجلة مصرحة من وزارة الثقافة والإعلام بالمملكة العربية السعودية بالرياض

برقم ٣٧٠٨ وتاريخ ٠٤/ ٠٣/ ١٤٣٧هـ

للمراسلات والاشتراكات

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم:

رئيس التحرير

للمراسلة:

البريد الإلكتروني: tjs@tadabbor.com

جوال وواتس أب: ٩٦٦٥٠٣٠٧٢٣٣٣+

جوجل بلس، تويتر، فيسبوك، انستجرام، تليجرام: @tjstadabbor

الموقع الإلكتروني: http://tjs.tadabborq.com/











دورية علمية محكَّمة، تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات العلمية المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة.

الرُّؤْيَة:

أن تكون المجلة خيار الباحثين الأول لنشر بحوثهم في تدبر القرآن الكريم.

الرِّسَالَة:

أن تكون وعاءً علميًا محكّمًا للباحثين لنشر أعمالهم العلمية في تدبر القرآن الكريم وما اتصل به وفق معايير مهنية عالمية للنشر.

الأَهْدَاف:

- **تشجيع** البحث العلمي المتصل بتدبر القرآن الكريم.
- **نشر** البحوث العلمية والدراسات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.
- **تحقيق التواصل العلمي** بين المعنيين بالدراسات القرآنية من خلال تبادل الخبرات.
- **فتح آفاق جديدة** للبحث العلمي المتخصص في مجالات تدبر القرآن.

مَجَالَاتُ النَّشْرِ فِي المَجَلَّة

أولًا: البحوث والدراسات في مجالات تدبر القرآن الكريم:

- التأصيل العلمي في تدبر القرآن الكريم.
- الموضوعات القرآنية.



* المقاصد القرآنية.
* الإعجاز القرآني.
* البلاغة القرآنية.
* تعليم تدبر القرآن الكريم.
* الاستنباط من القرآن الكريم.

ثانيًا: تقارير الملتقيات والمؤتمرات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

ثالثًا: ملخصات الرسائل العلمية المتميزة في المجالات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

رابعًا: ما تطرحه هيئة التحرير من قضايا تستكتب فيها المتخصصين في المجالات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.







قواعد ونشر وطرق النشر

أولًا: طبيعة المواد المنشورة:

تهدف المجلة إلى إتاحة الفرصة للباحثين في جميع بلدان العالم لنشر إنتاجهم العلمي في مجال تدبر القرآن الكريم، الذي تتوافر فيه الأصالة والجدة، وأخلاقيات البحث العلمي، والمنهجية العلمية.

وتقوم المجلة بنشر المواد التي لم يسبق نشرها باللغة العربية، وتقبل المواد في أي الفئات التالية:

* البحوث الأصيلة.
* المراجعات العلمية.
* مستخلصات الرسائل العلمية المتميزة.
* تقارير الملتقيات والمؤتمرات العلمية.

ثانيًا: إرشادات للباحثين لتقديم بحوثهم:

١. لا يتجاوز عدد صفحات البحث (٥٠) صفحة مقاس (١٧×٢٤) متضمنة الملخصين العربي والإنجليزي، والمراجع، ولا يقل عن (٢٥) صفحة.

٢. هوامش الصفحة تكون ٢ سم من (أعلى، وأسفل، ويمين، ويسار)، ويكون تباعد الأسطر مفردًا.

٣. يستخدم خط (Lotus Linotype) للغة العربية بحجم (١٦)، وبحجم (١٢) للحاشية والمستخلص، وبحجم (١١) للجداول والأشكال.

٤. يستخدم خط (Times New Roman) للغة الإنجليزية بحجم (١٢)، وبحجم (١٠) للحاشية والمستخلص والجداول والأشكال.



٥. تكتب الآيات القرآنية وفق المصحف الإلكتروني لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بحجم (١٦) بلون عادي (غير مسوَّد).

٦. توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة، ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلًا، وتضبط الحواشي آليًّا لا يدويًّا.

٧. تكتب بيانات البحث باللغتين العربية والإنجليزية، وتحتوي على: (عنوان البحث، اسم الباحث والتعريف به، بيانات التواصل معه، عناوين رسائله العلمية).

٨. لا يتجاوز عدد كلمات المستخلص (٢٥٠) كلمة، ويتضمن العناصر التالية: (موضوع البحث، وأهدافه، ومنهجه، وأهم النتائج، وأهم التوصيات) مع العناية بتحريرها بشكل دقيق.

٩. يُتبع كل مستخلص (عربي/ إنجليزي) بالكلمات الدالة (المفتاحية) المعبرة بدقة عن موضوع البحث، والقضايا الرئيسة التي تناولها، بحيث لا يتجاوز عددها (٦) كلمات.

١٠. سلامة البحث من الأخطاء اللغوية والنحوية.





عناصر البحث

يَنظِمُ الباحِثُ بَحْثَه وَفْقَ مُقْتَضَيَاتِ (مَنْهَجِ البَحْثِ العِلْمِيّ) كالتّالي:

١- كتابة مقدمة تحتوي على: (موضوع البحث، وحدوده، وأهدافه، ومنهجه، وإجراءاته، وخطة البحث).

٢- تبيين الدراسات السابقة - إن وجدت - وإضافته العلمية عليها.

٣- تقسيم البحث إلى أقسام (مباحث) وفق (خطة البحث)، بحيث تكون مترابطة.

٤- عرض فكرة محددة في كل قسم (مبحث) تكون جزءًا من الفكرة المركزية للبحث.

٥- يكتب البحث بصياغة علمية متقنة، خالية من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع الدقة في التوثيق.

٦- كتابة خاتمة بخلاصة شاملة للبحث تتضمن أهم (النتائج) و(التوصيات).

٧- كتابة الحاشية السفلية يكون بذكر (عنوان الكتاب، واسم المؤلف، والجزء/ الصفحة) حسب المنهج العلمي المعمول به في توثيق الدراسات الشرعية واللغة العربية.

مثال: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٢٣٣).

أما الآية القرآنية: فيشار إليها في المتن فقط باسم السورة يتبعه نقطتان: ثم رقم الآية [النساء: ٥٥].

❁ يُوَثِّقُ البَاحِثُ المَرَاجِعَ فِي نِهَايَةِ البَحْثِ حَسَبَ النِّظَامِ التَّالي:

١- **إذا كان المرجع (كتابًا):** («عنوان الكتاب». فالاسم الأخير للمؤلف (اسم الشهرة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى، فاسم المحقق - إن وجد-، فبيان الطبعة، فمدينة النشر، فاسم الناشر، فسنة النشر).

مثال: «الجامع الصحيح». الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخرين. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٤م.

٢- **إذا كان المرجع (رسالة علمية لم تطبع):** («عنوان الرسالة». فالاسم الأخير للباحث (اسم العائلة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى. فنوع الرسالة (ماجستير/ دكتوراه)، فالمكان: فاسم الكلية، فاسم الجامعة، فالسنة).

مثال: «يعقوب بن شيبة السدوسي: آثاره ومنهجه في الجرح والتعديل». المطيري، علي بن عبد الله. رسالة ماجستير، السعودية: كلية التربية، جامعة الملك سعود، ١٤١٨هـ.

٣- **إذا كان المرجع (مقالًا من دورية):** («عنوان المقال»، فالاسم الأخير للمؤلف (اسم العائلة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى، فاسم الدورية، فالمكان، فرقم المجلد (رقم العدد)، فسنة النشر، فالصفحة من ص... - إلى ص...).

مثال: «الإمام عفان بن مسلم الصفار ومنهجه في التلقي والأداء والنقد». المطيري، علي بن عبد الله. مجلة جامعة القصيم: العلوم الشرعية، القصيم. م (٣)، (١)، ١٤٣١هـ، ٣٥ - ٨٥.



٤- **هذا بالإضافة إلى ذكر بعض الاختصارات** إن لم يوجد لها أي بيان في بيانات المرجع، وهي كالتالي:

* بدون اسم الناشر: (د. ن).
* بدون رقم الطبعة: (د. ط).
* بدون تاريخ النشر: (د. ت).

يوثق الباحث المراجع في نهاية البحث حسب النظام التالي:

١ - **إرسال البحث لموقع المجلة** يُعد تعهدًا من الباحث بأن البحث لم يسبق نشره، وأنه غير مقدم للنشر، ولن يقدم للنشر في جهة أخرى حتى تنتهي إجراءات تحكيمه في المجلة.

٢ - **لهيئة تحرير المجلة** حق الفحص الأولي للبحث، وتقرير أهليته للتحكيم، أو رفضه.

٣ - **يطلع الباحث على خلاصة تقارير المُحكّمين** ليعدل بحثه وفقها، ويبين رأيه فيما لا يؤخذ به من أقوالهم، وتحسم الهيئة الخلاف بينهما.

٤ - **في حال (قبول البحث للنشر)** يتم إرسال رسالة للباحث بـ(قبول البحث للنشر)، وعند رفض البحث للنشر يتم إرسال رسالة (اعتذار) للباحث.

٥ - **للباحث بعد نشر عمله في المجلة** أن ينشره مرة أخرى بعد مضي ستة أشهر من صدورها، على أن يشير إلى نشره في المجلة.

٦- **إرسال البحث عبر الموقع الإلكتروني للمجلة** يُعد قبولًا من الباحث بـ(شروط النشر في المجلة)، ولهيئة التحرير الحق في تحديد أولويات نشر البحوث.



٧ - **الآراء الواردة في البحوث المنشورة** تعبر عن وجهة نظر الباحثين فقط، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

٨ - **نظام التوثيق المعتمد في المجلة** بالنسبة للمراجع الأجنبية هو نظام (جامعة شيكاغو).

٩ - **في حال (نشر البحث)** يمنح الباحث نسختين من المجلة مع عشر نسخ مستلة من عدد المجلة التي تم نشر بحثه فيها.

المواد العلمية المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها





الفهرس





افتتاحية العدد





كلمة رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين أنعم علينا بإنزال القرآن المبين، ودعانا لأن نكون له متدبرين، ولآياته تالين، ولعِبره متذكرين.

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمدٍ الهادي الأمين، الذي قام بالقرآن وكان خيرَ المتأثرين بكلام ربِّ العالمين.

وعلى آله الغُرِّ الميامين، الذين كانوا هُداةً للعالمين، ونشروا القرآن المبين، وكانوا سادة المتدبرين، وعلى منهاجه سالكين، وبهديه مستنيرين.

وبعد:

فإن القرآن هو حجة الله تعالى على المرءِ، حيث بلغه كتاب الله تعالى، ووقف على آياته وتوجيهاته، ولا تزال تلك الحجة قائمة عليه حتى يستجيب لأمر الله تعالى الوارد في آياته، ولن يصل إلى دلالات تلك الآيات ويعرف مضامينها حتى يشغل عقله بتدبرها، ويُعمل ذهنه لاستشراف معانيها، ومعرفة أبعادها ومراميها، وتتبع حكمةِ الله تعالى في آياته وكلماته، ومن خلال ذلك التأمل يشعر المرء بلذة التلاوة وجمال القراءة، ويقف على إبداع النظم وبلاغته، وجمال التوجيه وبراعته، وجمال المقصد وحسنه، فما يملك إلاَّ أن ينقاد إلى أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه.

ومن هنا نعلم أن القرآن إنما أنزل لحكمة بالغة، ألا وهي العمل به، ولا طريق إلى ذلك إلاَّ بتدبر آياته، والاشتغال بمعرفة مضامينه، ومن ثم متابعة أوامره، والحذر من الوقوع في نواهيه أو الاقتراب من زواجره، وذلك تأويل قول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص:٢٩].

ونظراً لحاجة الباحثين والعلماء لمجلة علمية متخصصة تسهم في تحكيم ونشر الأبحاث العلمية المتعلقة بمجال تدبر القرآن الكريم.

وإشارة إلى توصية المجامع العلميّة والمؤتمرات والندوات بالحاجة إلى «تأسيس مجلة علمية محكمة متخصصة في النشر العلمي لبحوث تدبر القرآن الكريم»[(١)].

تمَّ بحمد الله الترخيص من وزارة الثقافة والإعلام بالمملكة العربية السعودية باسم **(مجلة تدبر)** وهي تُعنى بمجالات تدبر القرآن الكريم.

وبين يديكم باكورة أعدادها المباركة؛ وتهدف المجلة إلى تنشيط البحث العلمي، والإسهام في نشر الدراسات والبحوث المعنيّة بالقرآن الكريم وعلومه، مما يثري مكتبة الدراسات القرآنية، ويدعو إلى التواصل العلمي بين المختصين في هذا المضمار.

وتحقيقًا لهذا المقصد، فإنَّ مجال النشر في المجلة يشمل:

* **الدراسات والبحوث.**
* **تحقيق المخطوطات.**
* **ملخصات الرسائل العلمية المتميزة.**
* **تقارير المؤتمرات والملتقيات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم ومتعلقاته.**

---

(١) ومنها: توصية المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم في الدوحة في الفترة من ٢٣-٢٥/ شعبان/ ١٤٣٤هـ الموافق ٢-٤/ يوليو/ ٢٠١٣م والتي نصت على ذلك في (تاسعًا).

والأمل معقودٌ عليها بعد توفيق الله تعالى أن تكون لبنةً مباركةً في الدراسات القرآنية؛ محققةً النفع لعموم الأمة، ومرجعًا للباحثين في الدراسات القرآنية والشرعية، وليستفيدوا من الجهود المبذولة في التحكيم والنشر والنقد؛ لتنال أعمالهم الأصالة والتحرير العلمي المنشود.

ويسرني أن أدعو الباحثين المتخصصين أن يسهموا في الكتابة للمجلة بما لديهم من بحوث رصينة، ومقالات علميّة متخصصة. وإثراء المجلة بالجديد والمفيد في مجالاتها، إذ لن يتحقق للمجلة الرقي والتميز إلاَّ بتظافر الجهود بين الباحثين والفاحصين في اختيار الموضوعات وتقويمها، فإن المجلة منهم، ولهم، وبهم. وبتوفيق الله وجهد الجميع يستمر العطاء ويتحقق التميز والارتقاء.

وأدعو الله لهيئة تحرير المجلة بالتوفيق والسداد، وأن يكونوا عند حسن الظنِّ بهم، لما يبذلونه من جهودٍ حثيثةٍ للارتقاء بالمجلة وأبحاثها.

والحمد لله، والشكر له سبحانه، ابتداءً وانتهاءً على التوفيق والسداد.

ثم الشكر لكل من ساهم ودعم بفكره أو ماله أو جهده، والله لا يضيع أجر المحسنين.



أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي

الأستاذ بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة





أولًا: البُحُوث





باحث متفرغ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - الجزائر

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين – جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - الجزائر ، بأطروحته: طعون المعاصرين في أحاديث الصحيحين بدعوى مخالفة القرآن (دراسة نقدية).
- يناقش رسالة الدكتوراه من كلية أصول الدين - جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - الجزائر ، بأطروحته: مسالك نقد المتن عند نقاد الحديث في القرن الثالث الهجري.
- له من الأبحاث: «التعقبات على ما أورده المستشرق شاخت في ترجمة الإمام مالك من دائرة المعارف الإسلامية» (بحث محكم منشور)، «شبهات المعاصرين حول حديث (لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم) - عرض ونقد» (بحث محكم منشور)، «الأسس الأخلاقية لإدارة أجور العمال في السنة النبوية وأثرها في سوق العمل» (بحث محكم منشور)، «تحقيق كتاب (الورع) لعبد الملك بن حبيب الأندلسي ٢٣٨هـ» (قيد الإعداد).





ملخص البحث

لما كان القرآن الكريم معجزة علمية خالدة تَدُلُّ على مصدرِهِ الربَّانِي، اجتهد ابن باديس في استنباط أوجه إعجاز القرآن الكريم أثناء تفسيره، ليعزِّزَ الثقة في نفوس المؤمنين بكتاب الله وعلومه، في زمن شاع فيه الانبهار بحضارة الغرب الماديَّة، فجاء هذا البحث ليجمع ما تناثر من آراء هذا العالم الرباني في إعجاز القرآن ووجوهه مقرونا بأمثلته التطبيقية، وإبراز نظرته المتكاملة إلى هذا النوع من علوم القرآن، وقد اعتمدت لتحقيق ذلك المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث استقرأت تفسيره، ثم حلَّلت أفكاره وعباراته المتعلقة بإعجاز القرآن؛ فكان من أهم نتائج البحث: أن ابن باديس كان متذوقا لفنون إعجاز القرآن، ذا نظرة شمولية متَّزِنَةٍ لوجوه إعجازه، قد أحسن توظيف هذا العلم في تربية الأجيال بالقرآن؛ لذلك كان من أهم التوصيات: ضرورة بحث قضية إعجاز القرآن عند العلماء المصلحين من «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ودورها في النهضة الإسلامية وإصلاح الأمة، فإنَّه جانب مهم لم يعط حقَّهُ من البحث والتحليل.

الكلمات المفتاحية:

ابن باديس، إعجاز القرآن، شروط المعجزة، الإعجاز البلاغي، الإعجاز العلمي.





المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فلا زال علماء الإسلام يعتنُون بإبراز وجوه إعجاز القرآن الكريم، ويستخرجون عجائب هذا التنزيل، للدِّلالة على مصدرِهِ الربَّاني، وأنَّه كلام ربُّ العالمين، الذي يَعجز البشر أن يأتوا بمثله في نظمه وبلاغته، وأحكامه وتشريعاته، وأخباره وعلومه، فقد ألَّف علماء الإسلام في ذلك كتبًا صغارا وكبارًا.

وفي العصر الحديث الذي واكب تطورًا صناعيًّا وعلميًّا مذهلًا، كثرتْ الشُّبه والسهام الموجَّهة نحو القرآن الكريم، تَتَّهِمُهُ بالعجز والقصور، فانبرى العلماء المصلحون لبيان دلائل صدق القرآن وإعجازه الشامل، وكثُرَتْ العناية بإبراز وجوهٍ جديدة لإعجازه.

وكان من روَّاد هذا المضمار الإمام المفسِّر عبد الحميد بن باديس الصنهاجي (١٣٠٨هـ - ١٣٥٩هـ)، الذي عايش المرحلة الاستعمارية للبلدان الإسلامية، التي عمَّ فيها الجهل، حتَّى انبهر كثير من المسلمين بالتقدُّم الغربي في ميدان العلوم التجريبية وغيرها، وقلَّ الاعتناء بالقرآن تدبرا وعملا، فتوجهَت الكتابات الإصلاحية في هذا العصر إلى ردِّ الاعتبار للقرآن، وبيان علوِّ منزلته ودلائل صدقه، يظهر ذلك فيما كتبه: محمد رشيد رضا في «تفسير المنار»، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، وغيرهما كثير.

ولما كان الشيخ ابن باديس خِرِّيجَ هذه المدرسة الإصلاحية، كان ولا بُدَّ أن يُسْهِمَ في هذا الميدان اتباعًا لأسلافه من المصلحين، إلا أنَّ تفسيره الشفوي

للقرآن المفقود الذي لم يدوَّن منه إلا القليل، قد زَهَّدَ الباحثين في أن يعثروا على مادةٍ علميةٍ متكاملة عن إعجاز القرآن عند هذه الشخصية العلمية الفذَّة، من هذا المنطلق قمتُ باستقراءِ تفسير ابن باديس المطبوع استقراءً تامًّا، مع النظر في كتبه الأخرى(١)؛ فوجدت مادة علمية لا بأس بها في هذا الباب، ووجدتُ له إسهامًا واضحًا في بيان وجوه إعجاز القرآن، يستحقُّ أن يجمع ويُدْرَس، وأن يشاع بين الناس ويُبْرز، فكان هذا البحث بعنوان: «إعجاز القرآن عند عبد الحميد بن باديس (جمعًا ودراسة)».

الدراسات السابقة:

لقد كُتِبَ حول الإمام ابن باديس وشخصيته العلمية كتابات ليست بالقليلة، كلٌّ منها عُنِيَ بجانب من جوانب الجهود العلمية التي قدَّمها، إلا أن الموضوع الذي نحن بصدد الكتابة فيه لم أجد من أفرده بالتتبُّع والدراسة، وهو حَقِيقٌ أن لا يُهمل، فإنَّ موضوع الإعجاز القرآني أصبح مطروحًا بشدَّة في هذا العصر، الذي كثرتْ في التحدِّيات للقرآن الكريم.

وبعد البحث والتنقيب فيما كُتب حول الدرس القرآني عند ابن باديس، تحصَّل عندي بعض الدراسات حول منهجية ابن باديس في تفسيره عمومًا، تناولتْ الجهود التفسيرية لهذا الإمام، وفي ثنايا هذه البحوث، وجدتُ إشاراتٍ إلى اعتناء ابن باديس بإعجاز القرآن العلمي خاصَّة، لكن دون استقراء وتمحيص، وهذه الدراسات هي:

(١) مجمل كلام ابن باديس حول إعجاز القرآن في تفسيره، لذلك كانت هذه الدراسة مركزة عليه، وهناك كلام قليل متناثر في كتبه الأخرى مثل: «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية»، و«مجالس التذكير من أحاديث البشير النذير» أشرت إلى مواضعها في البحث.

أولاً: رسالة ماجستير بعنوان: «منهجية التفسير عند الإمام ابن باديس» من إعداد: عبد الرحيم صالحي، بإشراف: د. محمد مقبول حسين. قدِّمَتْ إلى المعهد الوطني العالي لأصول الدين، جامعة الجزائر، سنة ١٩٩١م. تطرَّق فيها صاحبها إلى دراسة المنهج النقلي والعقلي في التفسير عند ابن باديس، وجعل فصلا في هذا الباب الأخير عن (مظاهر إعجاز القرآن في تفسير ابن باديس) وتكلَّم عن إعجاز الترتيب والمناسبات في مبحث، والإعجاز العلمي في مبحث آخر، ولم يتكلَّم على الوجوه الأخرى لإعجاز القرآن المبثوثة في تفسير الإمام على كثرتها، كما أنَّه أوجز القول في الإعجاز الترتيبي ولم يوضحه بالأمثلة من التفسير، وركَّز على بيان مشروعية التفسير العلمي الذي نهجه ابن باديس.

ثانيًا: كتاب بعنوان: «عبد الحميد بن باديس مفسِّرا» لمؤلفه: حسن عبدالرحمن سلوادي. تعرَّض المؤلف فيه إلى الصور العامة لتفسير ابن باديس (من الناحية العقدية، ومن الناحية الفقهية) وفي آخره فصل بعنوان: «الصور العامة لتفسير ابن باديس»، تكلَّم على التفسير العلمي عند الشيخ، المرتبط بالإعجاز العلمي للقرآن عنده، من دون أن يعرِّج على وجوه الإعجاز الأخرى التي ذكرها الشيخ، ولا بيان التصوُّر العام لنظرية الإعجاز القرآني عند ابن باديس.

أما هذا البحث فمن شأنه أن يستقرئ وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها ابن باديس في تفسيره وبعض مقالاته، مع ذكر التأصيل العلمي لها وأمثلتها في ثنايا تفسيره للقرآن، ثم مقارنتها بكلام غيره من العلماء، خاصَّة الذين تأثَّر بهم كمحمد رشيد رضا، والطاهر بن عاشور.

كما يهدف هذا البحث إلى إبراز النظرة الشمولية لإعجاز القرآن عند ابن باديس، وتوظيفه إيَّاها في تربية الأمة وإصلاح الأجيال ومدى أهميته في هذا

المجال، علاوة على بيان جهود ابن باديس في ميدان إعجاز القرآن ووجوهه، حيث خَلَتْ معظم الكتب المعاصرة من الإشارة إلى جهوده واختياراته في هذا المجال.

وقد سلكتُ لتحقيق هذا الغرض خطة علمية هذا هو بيانها:

خطة البحث:

* **المقدمة**: إشكالية البحث، والدراسات السابقة، وأهميته، وأهدافه.
* **المبحث الأول: ابن باديس ونظرته العامة لإعجاز القرآن.**
  - المطلب الأول: نبذة عن حياة ابن باديس.
  - المطلب الثاني: التعريف بتفسير ابن باديس.
  - المطلب الثالث: معنى معجزات الأنبياء عند ابن باديس.
  - المطلب الرابع: شمولية نظرية إعجاز القرآن عند ابن باديس.
* **المبحث الثاني: أوجه إعجاز القرآن التي أبرزها ابن باديس.**
  - المطلب الأول: الإعجاز اللغوي والبلاغي للقرآن
  - المطلب الثاني: الإعجاز الغيبي للقرآن.
  - المطلب الثالث: الإعجاز في ترتيب نزول القرآن (الإعجاز النظمي)
  - المطلب الرابع: الإعجاز التشريعي.
  - المطلب الخامس: الإعجاز العلمي للقرآن.
* **الخاتمة: نتائج البحث وتوصياته.**

المبحث الأول

ابن باديس ونظرته العامة لإعجاز القرآن

المطلب الأول

نبذة عن حياة ابن باديس

هو الإمام العلَّامة الرئيس عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكِّي بن باديس الصنهاجي نسبًا، الجزائري موطنا. ينتهي نسبه إلى المعزِّ بن باديس مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى، ولد ابن باديس بمدينة (قسنطينة) في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٠٨هـ، الموافق لـ ٤ ديسمبر ١٨٨٩م.

حفظ القرآن الكريم قبل الثالثة عشر على يد شيخه (المدَّاسي)، وأخذ مبادئ العلوم الشرعية والعربية في محلَّتِهِ فكان من أبرز شيوخه هناك حمدان الونيسي، ثم سافر إلى جامع الزيتونة ليتتلمذ على خِيرة علمائها: كالشيخ محمد النخلي، والشيخ الطاهر بن عاشور؛ حيث نال هناك شهادة التطويع (العالمية) سنة ١٩١١م.

وفي سنة ١٩١٣م ذهب الشيخ إلى أرض الحجاز حاجًّا، والتقى هناك بابن بلده (البشير الإبراهيمي) واتفقا هناك على مباشرة العمل الإصلاحي في الجزائر بعد تخطيط طويل، فلمَّا رجع إلى وطنه باشر التعليم في الجامع الأخضر (بقسنطينة)، فختم هناك القرآن تدريسا في ربع قرن (٢٥ سنة). كما أتم هناك شرح موطأ مالك بن أنس، كما درَّس كتاب الشفا للقاضي عياض.

وكان له الفضل في تأسيس جمعيات ودور للحديث والقرآن، كجمعية التربية والتعليم، ودار الحديث في (تلمسان)، هدفها نشر العلم الشرعي المستمدِّ من الكتاب والسنة، بعيدا عن التعصُّب المذهبي والخرافات الشركية المنتشرة في ذلك الوقت.

وقد أثمرت هذه الدعوة الإصلاحية فتخرج على يديه تلاميذ كثر، من أبرزهم: الشيخ مبارك الميلي، صاحب كتاب «رسالة الشرك ومظاهره»، وأحمد حماني، ومحمد الصالح رمضان، الفضيل الورتيلاني، وغيرهم كثير.

أصدر عدَّة جرائد تُعْنى بالإصلاح أشهرها (المنتقد، الشهاب، السنَّة، الشريعة، الصراط، البصائر).

وفي سنة ١٩٣١م أسَّس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» مع ثلَّة من إخوانه المصلحين، وانتُخِبَ رئيسا لها.

وكان ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مذهب السلف وعقيدة أهل السنة والجماعة، فعمل على محاربة الخرافة ورد الاعتبار للوحيين، وتربية الأمة بالقرآن والسنن؛ فوجد تضييقا شديدا من السلطات الاستعمارية الفرنسية التي أحسَّت بخطر الوعي الذي ينشره؛ فصادرت بعض مجلاته وأوقفتها، وأصدرت قوانين منع تدريس اللغة العربية، فتصدَّى لهم ابن باديس بقلمه وخطبه، وظلَّ محاربا لخططهم التغريبية حتى وافاه الأجل، فكان له ما أراد حيث قامت دعوة إصلاحية كبيرة عمَّت معظم ربوع الوطن، مهدت لثورة مجيدة دحرت الاستعمار وأخرجته يجر أذيال الهزيمة، ولا يزال أثره في وطنه وإصلاح الأوضاع إلى يوم الناس هذا.

من جميل شعره بيتان شعريان من أشهر ما أثر عنه يقول فيهما:

شَعْبُ الجَزَائِرِ مُسْلِمُ ... وَإِلَى العُرُوبَةِ يَنْتَسِبْ

مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ ... أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبْ

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد حياة حافلة بالجدِّ والنشاط، وبعد أن تخرَّج على يديه ثلَّة من الرجال المصلحين، وذلك يوم: ٨ ربيع الأول ١٣٥٩هـ، الموافق لـ١٦/ ٤/ ١٩٤٠م[(١)].

۞ وقد خلَّف آثارا في هذا المجال، نذكر منها بعض ما وصلنا منها:

١ - **التفسير:** «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير».

٢ - **شرح الحديث:** «مجالس التذكير من حديث البشير النذير».

٣ - **العقائد الإسلامية** من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

٤ - **تحقيق كتاب «العواصم من القواصم»** لابن العربي.



(١) انظر ترجمة ابن باديس في: معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض (١/ ٢٨ - ٢٩). الأعلام، خير الدين الزركلي (٣/ ٢٨٩). معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة (٥/ ١٠٥). ابن باديس حياته وآثاره (آثار ابن باديس)، عمّار طالبي (١/ ٧٢ - ٩٥). عبد الحميد ابن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، مازن مطبقاني (ص٢٧ - ٣٦).

المطلب الثاني

التعريف بتفسير ابن باديس

لقد ذكرت المصادر أن ابن باديس لم يكتبْ تفسيرًا محرَّرًا لكتاب الله، وأما الكتاب الذي هو بين أيدينا اليوم، والموسوم بـ: «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» هو في الحقيقة مقتطفات من تفسيره الشفوي الذي أملاه على طلبته في دروس المسجد، طلبته في دروس المسجد، ثم أُلْهِمَ كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس في فواتح أعداد مجلة الشهاب مسميا إياها مجالس التذكير.

والسبب في عدم كتابة ابن باديس لتفسيره أنَّه آثر المنفعة العاجلة بتفسيره دَرْسًا تسمعه الجماهير في المسجد، لتربية الجيل وإصلاحه من خلال هدايات القرآن الكريم، فمكث رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير كتاب الله تدريسًا نحوًا من خمس وعشرين سنة حتَّى ختمه سنة (١٣٥٧هـ)، ولقد وضَّح صديقه العلَّامة: محمد البشير الإبراهيمي ذلك فقال: «كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذوقٌ خاصٌ في فهم القرآن، كأنَّه حاسَّة زائدة خُصَّ بها، يرفده - بعد الذكاء المشرِق والقريحة الوقَّادة والبصيرة النافذة - بيانٌ ناصعٌ، واطلاعٌ واسع، وذرعٌ فسيحٌ في العلوم النفسية والكونية، وباعٌ مديد في علم الاجتماع، ورأي سديدٌ في عوارضه وأمراضه...

وكان يرى - حين تصدَّى لتفسير القرآن - أنَّ في تدوين التفسير بالكتابة مشغلةٌ عن العمل المقدَّم وإضاعة لعمر الضلال، لذلك آثر البدءَ بتفسيره درسًا تسمعُهُ الجماهير فتتعجَّل من الاهتداء به ما يتعجَّلُهُ المريض المنهَك من الدواء، وما يتعجَّلُه المسافر العجلان من الزاد، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستطيع أن يجمع بين الحسنيين لولا أنَّه كان مشغولًا مع ذلك بتعليم جيلٍ وتربية أمَّة، ومكافحة أميَّة، ومعالجة

أمراض اجتماعية، ومصارعة استعمار يؤيِّدها، فاقتصر على تفسير القرآن درسًا ينهل منه الصادي، ويتزود منه الرائح والغادي، وعكف عليه إلى أن ختمَهُ في خمسٍ وعشرين سنة، ولم يختم التفسير درسًا ودراية بهذا الوطن غيره منذ ختمه أبو عبد الله الشريف التلمساني في المائة الثامنة»[١].

ومع هذا فإن القطعة الموجودة من هذا التفسير التي طبعت مؤخرا في مجلدين[٢]، أبانتْ عن ملكة عظيمة في تفسير كتاب الله، وعن أسلوب بديع لابن باديس في تدبر القرآن واستنباط المعاني الحيَّة التي تبعث الروح في جسد الأمة، على طريقة العلماء المجتهدين في تفاعلهم مع كتاب الله، واستنباط الأسرار الكونية والهدايات الربانية[٣].

وخلاصة القول في تفسيره هذا أنه تفسير أثري إصلاحي، انتهج فيه ابن باديس طريقة تفسير القرآن بالقرآن، والسنة الصحيحة، وأقوال الصحابة والتابعين، ثم التوسع في المعاني اللغوية والنكت البلاغية لآي التنزيل، مع الحرص على إنزال هذه المعاني والهدايات القرآنية على الواقع لإصلاحه وعلاج المشكلات التي يعاني منها الفرد المسلم في مجتمعه، ومن حسن صنيعه أنه كان يبوِّب لكلامه ولا يستطرد في الكلام من غير بيان لاتجاهه، فيقول مثلا: (بيان القرآن للقرآن)، أو (تفسير نبوي)، أو (بيان وتوجيه)، أو (التراكيب)، أو (الأحكام)، ثم يذكر تحت الباب ما فتح الله عليه باختصار أحيانا، وبإسهاب أحيانا أخرى، كما كانت له عناية ظاهرة بعلم المناسبات بين الآيات وتوجيه ذلك، واستنباط الأحكام العقدية

---

(١) آثار محمد البشير الإبراهيمي (٢/ ٢٥٢).

(٢) هي الطبعة التي اعتنى بها الفاضل: أبو عبد الرحمن المحمود، والتي صدرت عن دار الرشيد بالجزائر، ودار ابن حزم ببيروت، سنة (١٤٣٠هـ).

(٣) انظر، اتجاهات التفسير في العصر الراهن، عبد المجيد المحتسب (ص٢٧٧ - ٢٧٩). تفسير عبد الحميد بن باديس منهجه وخصائصه، باي زكوب عبد العالي (ص١١٦) فما بعدها.

والفقهية والتربوية.

وقد اعتمد في تفسيره هذا على عدَّة كتب كانت مصادر لتفسيره، أهمها: تفسير ابن جرير الطبري، «أحكام القرآن» لابن العربي، تفسير «الكشاف» للزمخشري، «مفاتيح الغيب» للرازي، وغيرها، ينهل من كل تفسير أحسن ما تميز به مؤلفه، كما نجد له تأثرا واضحا بطريقة محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار»، وإن لم يعتمده كمرجع أساس؛ لأنه لم يكمل بعد في وقته(١).



(١) انظر، محاضرات ومقالات العلاَّمة أحمد حماني، عبد الرحمن دويب (٣/ ١٥٦).



معنى معجزات الأنبياء عند ابن باديس

لقد جرى ابن باديس مجرى العلماء قبله - في بيان معنى معجزة الأنبياء - بكونها: «أمرٌ خارق للعادة مقرونٌ بالتحدي سالم من المعارضة»[(١)]، يجريه الله على يدي نبي من أنبيائه تأييدًا له. ففي معرض كلامه على معجزات الرسل، ساق كلاما يُلْمِحُ فيه إلى شروط المعجزة عنده وبيان حدِّها، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما أرسل الله الرسل لهداية خلقه وإقامة حجَّته أيَّدهم بالبينات، وهي كلُّ ما تبيَّن به الحقُّ من كمال سيرتهم في قومهم ووضوح بيانهم وقوَّة حجتهم، وأيَّدهم بالآيات المعجزات الخارقة للعادة المعجوز عن معارضتها، فكانوا يدْعُون الخلق بالحجج والبراهين، فإذا سألوهم آية ردُّوا الأمر إلى الله وتبرؤوا من أن يكون لهم معه تصرُّفٌ في الكون حتَّى يأتوا بالآيات؛ فيعطيهم الله الآيات تأييدًا لهم وتخويفا لقومهم فيخضع قوم فيؤمنون، ويستمرُّ الأكثرون على العناد فتحقُّ عليهم كلمة العذاب»[(٢)].

كما بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الغرض من إجراء هذه المعجزات على أيدي الأنبياء، هو تأييد رسله بالبينات، وإظهار عجز مخالفيهم، فليست المعجزة ابتكارا من عندهم، بل هي آية ينزلها الله لنصرة أنبيائه، لذلك كان الأنبياء إذا سُئِلوا تنزيل بعض الآيات، تبرؤوا من قدرتهم على ذلك، وأخبروا أنَّها من فعل الله عَزَّوَجَلَّ المتعلِّق بمشيئته.

يقول ابن باديس: «وإذا قرأتَ ما قصَّهُ علينا القرآن العظيم من مواقف الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم؛ رأيت كيف أنهم كانوا يدْعون الناس بالحجج والبراهين، والأدلة

---

(١) انظر، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٥/ ١٨٧٣).

(٢) العقائد الإسلامية، ابن باديس (ص٨٨ - ٨٩).

العقلية الجليَّة، وأنهم كانوا إذا سُئِلوا الآيات المعجزات الخارقة للعادة رَدُّوا الأمر إلى الله، ونفوا أن تكون لهم قدرة على الإتيان بها إلا بإذن الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ فيظهِرُ الله على أيديهم الآيات تأييدًا لهم وتخويفًا لأقوامهم، وقطعًا لمشاغبتهم، فيخضع لها بعضهم، ويستمرُّ الأكثرون على العناد، فما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطاه الله من الآيات والمعجزات ما مثله في وضوحه وظهوره، والعجز عن معارضته ما يؤمن عليه العباد، ويتفقون عليه لولا ما يصدُّهم عنه من العناد، وهو معنى قوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ»[1][2].

من خلال ما سبق نستطيع أن نقول إن معنى المعجزة عند ابن باديس يتضمن ثلاثة أشياء[3]:

- **١- أمر خارقٌ للعادة:**

فلا بدَّ أن تكون المعجزة خارجة عمَّا أَلِفَهُ الناس حتَّى يذعنوا لها ويصدِّقُوا صاحبها.

- **٢- العجز عن معارضتها:**

فمن شرط المعجزة السلامة من المعارضة، فلا يستطيع أحدٌ الإتيان بمثلها، إذ لو جاء بمثلها أحدٌ لم تصلح أن تكون معجزة.

- **٣- لا يقدر النبي على الاتيان بها إلا بإذن الله:**

فالمعجزة لا يدَّعِي النبيُّ التصرُّفَ فيها بنفسه، بل يعلِّقها بإذن الله ومشيئته، فلا يستطيع الإتيان بها إلا أن يأذن له ربه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب: كيف كان نزول الوحي وأول ما نزل، برقم (٤٦٩٦).
ومسلم: كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس، برقم (٢٣٩).

(٢) آثار ابن باديس، جمع: عمار طالبي (٢/ ٢٢٤).

(٣) انظر، إعجاز القرآن، د. فضل حسن عباس و د. سناء فضل عباس (ص٢٠ - ٢١).



المطلب الرابع

شمولية نظرية إعجاز القرآن عند ابن باديس

يرى الشيخ ابن باديس أن المعجزة القرآنية معجزة علمية خالدة لا تختصُّ بزمنٍ دون زمن، كما لا تختصُّ بوجه واحدٍ من وجوه الإعجاز، بل هي معجزة علمية عقلية باهرة من حيث: الأسلوب والمعنى والبلاغة، والتشريع الذي يضمن سعادة البشر، والعلوم الكونية التي دلَّ عليها القرآن قبل أن تكتشف، كما يرى أنَّ التحدِّي بهذه المعجزة باقٍ مستمر ما بقي القرآن الكريم، وهذا بعكس آيات الأنبياء من قبل؛ كانت معجزات كونية لا يشهدها إلا من حضرها، يقول ابن باديس في هذا الصدد:

«آيات الرسل - صلوات الله عليهم - كانت معجزات كونية لا يشهدها إلا من حضرها، ثم تبقى أخبارا يمكن للجاحد إنكارها، ويتأتَّى للمشاغب أن يصنع من الخزعبلات والمخارق ما يموِّهُ به على ضعفة العقول ويدَّعي مُمَاثلتها، وآية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهي القرآن العظيم معجزةٌ علميةٌ عقليةٌ يخضع لسلطانها كلُّ من يسمعها ويفهمها ولا يستطيع معارضتها، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عجزت عن معارضة أقصر سوره العرب، على ما كان من حمِيَّتها وأنفتها وشدَّة رغبتها في إبطالها لو وجدت سبيلا إليها فقط - بل لا تستطاع معارضتها فيما اشتملت عليه من أصول العلوم التي يحتاج إليها البشر في كمالهم وسعادتهم أفرادا وجماعات وأمما، وما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة والحكم الباهرة في كلِّ ما دعتْ إليه، إلى ما اشتملت عليه من حقائق كونية كانت مجهولة عند البشر حتَّى كشفها العلم في هذا العصر، مثل: بِنَاء الخلق كلِّه على أساس الزوجية في أشياء كثيرة، مصداق قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا

﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]. فبهذا كانت آية النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – أعظم الآيات وأبقاها، وكانت مغنية عن غيرها كافية عمَّا عداها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٥١]»[١].

وهذه الخصِّيصة لمعجزة نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ سبق (القاضي عياض) ابن باديس إلى التنبيه عليها، ولعلَّه استقاها من عنده، فقد قال في كتابه الشفا: «ومن وجوه إعجازه المعدودة كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفُّل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ الآية [فصلت: ٤٢]، وسائر معجزات الأنبياء انقضتْ بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته الظاهرة معجزاته، على ما كان عليه اليوم مدَّة خمسمائة عام وخمس وثلاثين سنة لأول نزوله إلى وقتنا هذا»[٢].

والنظرة الشمولية لإعجاز القرآن عند ابن باديس تُظْهِرُ أنَّه ينحى منحى التعميم في وجه إعجاز القرآن، وهي مسألة اختلف فيها العلماء قديمًا وحديثًا[٣]، فمنهم من قصر الإعجاز على وجهٍ واحد، ومنهم من اختار وجهين أو أكثر، ومنهم من عدَّد الوجوه:

فذهبت طائفة من المعتزلة على رأسها النظَّام المعتزلي، إلى القول بالصِرْفَةِ،

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس (ص٣٢ – ٣٣).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٨٧).

(٣) انظر عن المسألة: البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٢/ ٩٣ – ٩٧). الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٥/ ١٨٧٩). فما بعدها. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (ص١٢١ – ١٢٦). دراسات في علوم القرآن، فهد بن عبد الرحمن الرومي (ص٢٩٧ – ٣٠٧).

ومعناها: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم على ذلك، فالقرآن عندهم ليس معجزا في ذاته، وإنما المعجزة في منع الله لهم عن الإتيان بمثله، وهذا قول باطل يردُّهُ العقل والنقل.

وذهب بعضهم إلى أن وجه الإعجاز القرآني هو ما جاء فيه من الأخبار الغيبية التي يستحيل أن يأتي بها البشر، وقيل كذلك: إن وجه الإعجاز هو النظم القرآني المؤلف من الألفاظ والمعاني، وهو الذي تحدَّى الله به العرب أن يأتوا بمثله، وإلى هذا القول ذهب أهل اللغة والبيان، كالجرجاني والخطَّابي. وقيل: إن وجه الإعجاز هو ما اشتمل عليه القرآن من علوم ومعارف. فوجوه الإعجاز متعددة على هذا القول، فالقرآن معجز في لفظه وبلاغته، ونظمه، وتشريعاته، وأخباره والعلوم التي جاء بها مما يستطيع أن يأتي به بشر[1].

وهذا القول الأخير هو الذي عليه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا، فلقد اختاره ابن تيمية، والزركشي، والسيوطي، والرافعي، وهو ما جنح إليه محمد رشيد رضا في تفسيره[2]، وهو الذي اختاره ابن باديس اختيار محقِّقٍ في المسألة، عارفٍ بمذاهب العلماء فيها، فقد بيَّنَ أن الإعجاز في بلاغة القرآن المشتملة على النظم والأسلوب هو الأصل الذي تحدَّى الله به العرب، ثم يتسع وجه الإعجاز ليشمل جميع العلوم والمعارف المبثوثة في القرآن، التي تبيِّن استحالة كونه من كلام البشر، وأنَّه يقينًا من كلام ربِّ البشر.

---

(١) انظر، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٧٤). الإعجاز البياني للقرآن، عائشة بنت الشاطئ (ص٦٩ - ٨٩). إعجاز القرآن، د. فضل حسن عباس و د. سناء فضل عباس (ص٣٥ - ٨٢).

(٢) انظر هذه الاختيارات في: إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية، لمحمد العواجي (ص١١٥ - ١٥٠). البرهان في علوم القرآن للزركشي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (١/ ١١). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (ص١٣١ - ١٣٢). تفسير المنار، محمد رشيد رضا (١/ ١٦٥) فما بعدها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضحًا هذه النظرة: «القرآن أعجز العرب ببلاغته، حتَّى عرفوا – وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم – أنَّه ليس مثله من طوق البشر، هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتي به صلى الله عليه وآله وسلم، وهنالك ناحية أخرى هي أعظمُ وأعمُّ: وهي ناحيته العلمية التي يذعن لها كلُّ ذي فهم من جميع الأمم، في كلِّ قطر وفي كلِّ زمن، وهذه الناحية هي التي احتجَّ بها في هذا الموطن؛ فقد استدلَّ على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنَّه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك:

- **ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية،** وبيّن من أسرار الكتب الماضية.
- **وما أنبأ من أحداث مستقبلة،** وما ذكر من حقائق كونية، كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة؛ كالزوجية في كلِّ شيء، وسبْح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهولٍ معين عند الله لها.
- **وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع،** وما تصلح عليه حياة الإنسان، مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم، فكتاب اشتمل على كلِّ هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق»[١].

فمن خلال هذا النصِّ نستخلص نظرة ابن باديس لإعجاز القرآن، فهو يرى أن الناحية الظاهرة التي تحدَّى بها العرب هي إعجازه البلاغي، وهناك نواحٍ أخرى أعظم تكمن في العلوم المنثورة في القرآن، التي يُسْتَخْلَصُ منها الإعجاز التشريعي، والعلمي التجريبي، والغيبي، وأسرار الكون والعمران والمجتمع،

(١) مجالس التذكر من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩ – ٢٠).

فالقرآن الكريم عنده معجز من جميع هذه النواحي، يقول تلميذه (أحمد حمَّاني)[(١)]: «وللقرآن وجوه إعجاز لفظي وعلمي، وتاريخي وإخباري، وما زالت العصور تبين ذلك، فلا معنى لحصره في نوع من أنواع الإعجاز»[(٢)].

قلت: وفي المبحث الموالي سأبين وجوه إعجاز القرآن الكريم التي أظهرها ابن باديس مع التمثيل لها من مظانها في تفسيره.



(١) هو: الشيخ أحمد بن مسعود بن محمد حَمَّاني الجزائري، ولد سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٥م)، أخذ مبادئ العلم في المعهد الباديسي في قسنطينة، ثم ارتحل إلى الزيتونة في تونس وحصل على الشهادة الأهلية، ورجع إلى وطنه وانخرط في مجال الإصلاح والتعليم حتى قبض عليه من قبل الاستعمار وسجن وعذِّب، وبعد الاستقلال أشرف على التعليم العربي في الجزائر، وعُيِّنَ رئيسا للمجلس الإسلامي الأعلى، وبقي في مهمة الافتاء والتدريس حتى توفي سنة (١٩٩٨م/ ١٤١٩هـ). يعدُّ من تلامذة ابن باديس وحامل راية الإصلاح بعده. انظر ترجمته في: محاضرات ومقالات العلَّامة أحمد حماني، عبد الرحمن دويب (١/ ٢٦ - ٦٠).

(٢) محاضرات ومقالات العلاَّمة أحمد حماني، عبد الرحمن دويب (٣/ ١٧٤).

المبحث الثاني

أوجه الإعجاز القرآني عند ابن باديس

المطلب الأول

الإعجاز البلاغي للقرآن

إنَّ أعظم وجهٍ من وجوه الإعجاز القرآني وأظهره، هو الإعجاز البلاغي (البياني)؛ لأنَّه يشمل القرآن كلَّه بجميع آياته، وهو الذي وقع التحدِّي به في جميع سور القرآن، فما من آية إلا وفيها من البلاغة وحسن البيان ما يعجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله نظمًا وأسلوبًا ومعنى؛ فدلَّ ذلك على صدق نبوَّته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما جاء بهذا القرآن[1]؛ لذلك جعله الشيخ ابن باديس أقوى وأظهر وجوه الإعجاز القرآني فقال: «القرآن أعجز العرب ببلاغته، حتَّى عرفوا - وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم - أنَّه ليس مثله من طوق البشر، هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتي به صلى الله عليه وآله وسلم»[2].

والإعجاز البلاغي يرجع في لبِّهِ وأصله إلى النظم المتضمِّن للألفاظ والمعاني، والربط بينها وترتيبها وطريقة تصويرها، وغير ذلك من البيان والبديع، على نحوٍ عجز العرب أن يأتوا بمثله، وهم أقدر الناس على الفصاحة والبلاغة، فوقع التحدِّي في تلك العملية العقلية التي أتقنوها في التأليف بين الكلمات والتأثير في السامع، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

---

(١) انظر عن الإعجاز البياني للقرآن: إعجاز القرآن، الباقلاني (ص٥١ - ٧١). بيان إعجاز القرآن، الخطابي (ص٢٤ - ٢٨). الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٧٤ - ١٨٠). الإعجاز البياني للقرآن، عائشة بنت الشاطئ (ص٧٠ - ١٢٠). إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص١٠٣) فما بعدها.

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩).

يقول ابن باديس مبينًا ذلك: «وآية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهي القرآن العظيم معجزة علمية عقلية، يخضع لسلطانها كلُّ من يسمعها ويفهمها، ولا يستطيع معارضتها، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عجزت عن معارضة أقصر سوره العرب، على ما كان من حميَّتها وأنَفَتها وشدَّة رغبتها في إبطالها لو وَجَدَتْ سبيلا إليها فقط»[١].

ووجه الإعجاز في بلاغة القرآن وبيانِهِ، أنَّ العرب على فصاحتها وقوَّة بلاغتها عجزت أن تُؤلِّف كلامًا يضاهي القرآن، فلا هو يشبه أشعارهم ولا أرجازهم، وقد كانوا حريصين على محاكاته حفظًا لشرفهم، فهم يأنفون الانهزام عند التحدي، ولكنَّهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا؛ فظهر يقينًا بعد ذلك أن كلاما بهذه القوَّة في التأثير، والفصاحة في التعبير، لا يمكن أن يكون إلا من قِبَل اللطيف الخبير، الذي أحاط بالكلام كلِّه، لفظه ومعناه، فوجب بعد العجز أن يؤمن العاجزون وغيرهم أنَّه كلام الله الذي لا يُجَارَى، وقامت الحجة على وجوب اتباع ما جاء في هذا القرآن، والإيمان بالرسول الذي بلغ كلام الرحمن.

فليس القرآن كلام محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم يعرفون محمدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأنَّه أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فلقد نشأ بينهم وترعرع في أكنافهم، ويعرفون كلامه من مخالطته لهم، فالقرآن لا يشبه كلامه البشري ولا كلامهم، والأدهى من ذلك أنه مؤلَّف من الكلمات والألفاظ التي يعرفونها ويتكلمون بها، ومع ذلك عجزوا أن ينظموا نظما متناسقا في اللفظ والمعنى والأسلوب كما هو عليه القرآن الكريم، فلما بُهِرُوا ادَّعوا زورا أن هناك من يُعِينُهُ على تأليف هذا الكلام، ولقد علموا أنَّهم لن يستطيعوا الإتيان بهذا الكلام ولو اجتمعوا على ذلك، كما قال الله تعالى في

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس (ص٣٢ - ٣٣).



حقِّهم متحديًا لهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨].

يقول ابن باديس في بيان هذا المعنى: «ومن كلامه مثل كلامهم في ألفاظه وفي تراكيبه، ثم هم يعجزون عن معارضته بمثل أقصر سورة منه، ثم يشهدون الفرق بينه وبين كلام محمد نفسه؛ فهو إذا حدَّثهم بما اعتادوا من حديثه معهم، حتَّى إذا تلا عليهم القرآن جاءهم بما هو فوق كلامه وكلامهم، وما تقصر عن معارضته ألسنتهم، بهرهم هذا وهذا، وأخذ العناد بعقولهم، واستحوذتْ عليهم شياطينهم؛ فحاروا فيما يقذفون به هذا الرسول وهذا الكتاب، فأخذوا يقولون عن الكتاب: إنَّه إفكٌ مفترى!! ورأوه أكبر مما كانوا يسمعون من كلام محمد، فلم يكن ليأتي به وحده وهو فوق المعتاد من كلامه، فإذًا هنالك أقوام يعينونه، ومن هم الأقوام؟ وهو - بعد - في نفرٍ قليل ممن آمن به، وهم هم في كثرتهم وتساندهم، وقد عجزوا عن الإتيان بشيء مثله، فالقليل أحرى بالعجز من الكثير»(١).

وبالرغم من أن الإعجاز البياني للقرآن له ضروب يصعب حصرها، إلا أن ابن باديس اعتنى في تفسيره ببيان بعض تلك النواحي الإعجازية في التعبير القرآني، خاصَّة أنَّه معروف بنزعته البلاغية، وتذوُّقِهِ لفنون الكلام، فكان يتعرض في بعض المواضع في تفسيره لبيان هذا اللون من الإعجاز، ولا بأس أن أذكر بعض الأمثلة التي وقفت عليها:

أولًا: إعجاز الألفاظ القرآنية:

إنَّ المتأمِّل في الألفاظ القرآنية يدرك إعجازًا بلاغيًا في اختيارها واستعمالها وتركيبها، وقد نَبَّهَ ابن باديس على هذا الوجه فقال في تفسير سورة الفلق، مبينًا

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٧ - ١٨).

الإعجاز في استعمال لفظة «الفَلَقِ» ما يلي:

«**وممَّا وصف به ربُّنا نفسه في القرآن** ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، و﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ [الأنعام: ٩٥]، فهُما من أسمائه تعالى، ومواقع هذه الألفاظ التي تضاف إلى كلمة ربٍّ في القرآن، كمواقع أسماء المخلوقات التي أقسم بها الله؛ كلاهُمَا عجيبٌ معجزٌ، فكلُّ لفظة تستعملُ في المقام الذي يناسبها وتناسبه، وكلُّ لفظة تبعث في الأسلوب الذي وقعتْ فيه متانة وقوَّة، وفي معناها وضوحًا وجلاء»[١].

ومن العجيب أن نجد الفكرة نفسها عند غيره ممن اعتنى بالإعجاز في هذه الآية، يقول محمد شيخون: «وابحث عن أيِّ كلمة أخرى تقوم مقام ﴿فَالِقُ﴾ تؤدِّي معناها وتقوم مقامها في تصوير المراد وتجسيم الفكرة، وابحث عن أيِّ كلمة أخرى تضعها موضع ﴿ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ في دلالتها على الحركة والانبثاق، وفي بثِّ حقيقة المعنى المطلوب، ثم فتِّش في اللغة كلِّها عن كلمة تضعها في مكان ﴿سَكَنًا﴾ فيها هدوؤها، ولينها المنبعث من فتحاتها المتتابعة، وفيها ما تبثُّهُ من الصورة في الخيال والنفس، ثم ابحث ما شئت عن كلمة أخصر وأدل وأجمع من هذه الكلمة العجيبة: ﴿حُسۡبَانٗاۚ﴾، ابحث عن كلِّ ذلك، وقلِّب الآية على ما تختاره من الوجوه، فستجد أنَّ اللُّغة كلها أعجز من أن تأتي لها بألفاظ مثلها أو خير منها، ومهما غيَّرت في الآية أفسدت من بهائها، ونقَّصت من روعتها وإشراقها، والقرآن كلُّه مثال على ذلك»[٢].

۞ ثانيًا: الإعجاز في قصص القرآن:

اعتنى ابن باديس ببيان وجه الإعجاز في التعبير والتصوير القرآني، عند كلامه

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٣٥٠).

(٢) الإعجاز في نظم القرآن، محمود السيد شيخون (ص٦٥).

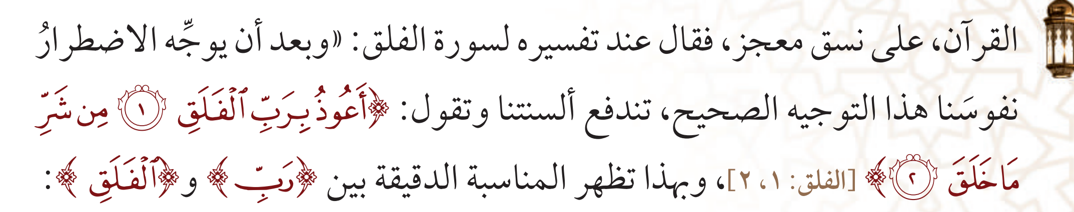
عن الإعجاز في القصة القرآنية، وكيف أنَّ القرآن الكريم كان يختصر الكلام على مراحل تاريخية مديدة بأسلوب متين وتصوير بياني عجيب، حتَّى إن القارئ يعيش تلك المرحلة نفسيًّا من قوَّة التعبير، كلُّ ذلك في كلمات معدودات، وجمل قليلة، مما لا يستطيعه أيُّ بشرٍ مهما أوتي من بلاغة وفصاحة، ولقد مثَّل لذلك ابن باديس بقصَّة سبأ في القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٥ – ١٩].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينا ذلك: «ليس المقامُ مقامَ تَبَسُّط في وجوه البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الآيات؛ فقد استوعبت تاريخ أمة في سطور، وصورت لنا أطوارًا اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة، لا أظن غير اللسان العربي يَتَّسِع لحملها، كقوله: ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾، وكقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، وكقوله: ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ حتى إذا وصل القارئ إلى مصير الأمة التي سمع ما هاله من وصفها، واجهه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾، وأدركه الغرق في لجج البلاغة الزاخرة»[1].

۞ ثالثًا: الإعجاز في ترتيب كلمات القرآن:

ومن وجوه الإعجاز البلاغي التي أظهرها ابن باديس البلاغة في ترتيب كلمات

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٤١٢).



القرآن، على نسق معجز، فقال عند تفسيره لسورة الفلق: «وبعد أن يوجِّه الاضطرارُ نفوسَنا هذا التوجيه الصحيح، تندفع ألسنتنا وتقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١، ٢]، وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين ﴿رَبِّ﴾ و﴿ٱلْفَلَقِ﴾:

١- **فإنَّ ربَّ الناس ومربيهم وسائقهم إلى ما يكمل وجودهم**، هو الذي تنكشف لعلمه سرائرهم، والفلق نور يكشف للعيان كل المبصرات فترى على حقائقها ومقاديرها، لا يزيغ البصر في شيء منها ولا يطغى، والإنسان مهما يكن عالما فقد تخفى عليه حقائق من المعقولات فيزيغ فكره ويطغى.

٢- **ومناسبة أخرى، وهي أنَّ الشرَّ ظلام**، وقد أجرى الله في فطر البشر تصور الشرِّ كالظلام، وأجرى على ألستهم تشبيه الشرِّ بالظلام؛ ذلك أن ما يلابس إحساسهم من الأنس بالنور والبشاشة له، هو عين ما يلابسه من الأنس والبشاشة للخير، وأنَّ ما يضايقهم من وحشة الظلام وتوقع الهلاك فيه، هو عين ما يضايقهم من ذلك الشر.

هذا كلُّه في الشر على عمومه، ثم خصَّص تعالى من هذا العموم ثلاثة أنواع من الشر، لشدة تعلُّقها بحياة الإنسان وكثرة عروضها له، ويجيء أكثرها من أخيه الإنسان، ورتبها ترتيبًا بديعًا لا يستغرب في جنب بلاغة القرآن، ودقَّته في رعاية المراتب وتنسيقها في عرض الأذهان»(١).

رابعًا: الإعجاز في القراءات القرآنية:

ومما أبرزه الشيخ ابن باديس من بلاغة القرآن المعجزة، ذلك السرُّ العظيم في استعمال القرآن لألفاظ ذات معاني متنوعة، ويكون معنى الآية صحيحًا في

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس: (٢/ ٣٥٢ - ٣٥٣).



استعماله على جميع تلك المعاني للفظ الواحد، وهذا لا يدركه إلا من أحاط بالكلام كلِّه لفظه ومعناه، ولا يستطيعه البشر القاصر.

يقول الإمام السيوطي: «ومن المبالغة في إعجازه بإيجازه، إذ تنوُّع القراءات بمنزل الآيات، ولو جعلت دلالة كلُّ لفظة آية على حجَّة لم يَخْفَ ما كان من التطويل، ولهذا كان قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ مُنَزَّلًا لغسل الرجل، والمسح على الخفِّ، واللفظ واحد، لكن باختلاف إعرابه»[(١)].

ولقد نبَّه ابن باديس على هذا الوجه من الإعجاز فقال: «على أنَّه من بلاغة القرآن أنْ تأتي مثل هذه الآيات بوجوه من الاحتمالات متناسبات غير متناقضات؛ فتكون الآية الواحدة بتلك الاحتمالات كأنها آيات؛ نظير مجيء الآية بقراءتين، فتكون كآيتين، مثل قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وقوله تعالى في آية الوضوء: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] بالنصب عطفًا على الوجه فيفيد غسل الأرجل، وتلك هي الحالة الأصيلة العامة، وبالخفض عطفًا على الرؤوس فيفيد مسح الأرجل وتلك هي حالة الرخصة عند لبس الخفاف، فتكون هذه الآية باحتمالها مفيدة تنزههم عن شهود الباطل، وعن شهادته»[(٢)].



(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (١/ ١٢٧).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٥٤ - ١٥٥).



المطلب الثاني

الإعجاز الغيبي

من وجوه الإعجاز الذي ذكرها ابن باديس، واستنبطها في تفسيره للقرآن، الإعجاز الغيبي: وهو تلك الأخبار التي جاءت في القرآن الكريم الذي بلَّغَهُ الرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي تتحدث عن وقائع وأحداث غاب عنها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يحضر مجرياتها ولا علم بتفصيلاتها، ثم هو يخبر عنها خبر من حضَرَ وعَلِمَ.

والمراد بالغيب هنا: هو كلُّ ما غُيِّبَ عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخبار الماضي: كقصص الأنبياء السابقين، وقضية نشأة الكون وغيرها، كما يدخل في الغيب الأحداث التي عاصرها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنَّه لم يحضرها: كإخبار القرآن عن كيد الكافرين والمنافقين في عهده، وكذلك أخبار المستقبل التي جاء بها القرآن ثم وقعت كما أخبر في حياته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بعد موته: كأشراط الساعة، ومصير الأمم والأفراد(١).

ووجه الإعجاز في أخبار الغيب أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أُمِّيًّا لم يقرأ ولم يكتب، ثم هو يخبر - بما أوحي إليه من القرآن - عن مغيبات في الماضي والحاضر والمستقبل، خبرًا صادقًا مطابقًا للواقع، بوصف دقيق لا يتقنه إلا من حضر تلك الأحداث ورآها رأيَ العين؛ فدلَّ ذلك أن القرآن الكريم وحيٌ من عند الله، الذي أحاط علمه بجميع الغيوب، ولا يمكن أن يكون من اصطناع البشر، لضعف مداركهم على الإحاطة بمثل هذه الأمور.

(١) انظر عن الإعجاز الغيبي: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص ٣٣ - ٣٤). الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٨٠ - ١٨٤). معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي (١/ ١٨٠ - ١٨٢). مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص ٢٣٥ - ٢٦١).

يقول ابن باديس مبينًا ذلك: «فقد استدلَّ على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنَّه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك: ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبيّن من أسرار الكتب الماضية، وما أنبأ من أحداث مستقبلة»[1].

ولقد اعتنى ابن باديس باستنباط هذا اللون من الإعجاز في تفسيره للقرآن الكريم، من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: ٩٦] حين تكلَّم عن سبب نزول الآية فقال: «كان السابقون الأوَّلون من المؤمنين في أوَّل الإسلام بمكة مبغوضين من أهل مكَّة المشركين، مهجورين منهم، مزهودًا فيهم. ومن أشدِّ الآلام على النفس وأشقها أن يعيش الإنسان بين قومه مبغوضًا مهجورًا، مزهودًا فيه، خصوصًا مثل تلك النفوس الحيَّة الأبيَّة، فأنزل الله هذه الآية تأنيسًا لأولئك السادة، ووعدًا لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنَّه سيجعل لهم وُدًّا، فيصيرون محبوبين مرغوبًا فيهم. وقد حقَّقَ الله وعده؛ فكان أولئك النفر بعدُ، السادة المقدَّمين من أقوامهم وعشائرهم، لسبقهم وفضلهم، وكانوا - وهم قادة الجيوش في الفتوحات الإسلامية - المحبوبين هم وجيوشهم، المرغوب فيهم من الأمم التي فتحوها؛ لعدلهم ورحمتهم، ورفعهم لنير الاستعباد الديني والدنيوي، الذي كانت تَئِنُّ تحته تلك الأمم، وأثبت التاريخ أن بعض الأمم الأجنبية دعتهم إلى إنقاذها من أيدي رؤسائها، فكانتْ هذه الآية من آيات الإعجاز بالإعلام بما يتحقق في الاستقبال مما هو كالمحال في الحال، فكان على وِفْق ما قال»[2].

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩ - ٢٠).
(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ٣٧٣).

وهكذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، بَيَّنَ إعجاز القرآن بصدق وعد الله فيه، أنَّه سيمكن لعباده الصالحين، فوقع ما وعد به، فظهر الإعجاز الغيبي للقرآن بتصديق الواقع له، وتصديق الأحاديث النبوية الأخرى له كذلك، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذي يقوّي به قلوبهم، ويثبت إيمانهم، ويظهر به صدق نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - بما أعلمه به من غيب، أحاديث صحيحة... وقد امتدَّتْ به الحياة حتَّى رأى ذلك. ومثل هذا أحاديث أخرى في الصحيح، فقد تطابقت الآيات والأحاديث في هذا الوعد»[١].



(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ٣٩٦ - ٣٩٨).

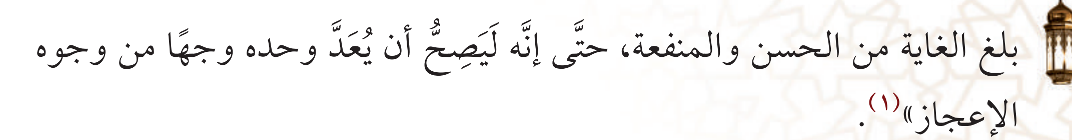
المطلب الثالث

الإعجاز في ترتيب نزول القرآن

لم يكتف الشيخ ابن باديس باستنباط الوجوه المعتادة لإعجاز القرآن التي أفاض في ذكرها العلماء، بل أطلق العنان لقريحته ليستنبط أوجها أخرى من الإعجاز القرآني، التي لا تظهر إلا لمن تذوّق أسلوب القرآن وغاص في معانيه، فتكلَّم عن الإعجاز في ترتيب نزول القرآن وتفريقه في تفسيره لسورة الفرقان، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢]، تجلَّى له الوجه العظيم من وجوه عظمة القرآن وإعجازه، المتمثل في كونه نزل مفرقًا على حسب الوقائع، مرتبًا ترتيبًا عجيبًا، بحيث يعالج القضايا المستجدَّة، فيؤثِّر في النفوس، ويزيل الشُّبَه[1].

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا هذا الأمر: «وكانت الوقائع تقع، والحوادث تحدث، والشُّبه تَعْرِض، والاعتراضات تَرِدُ... فكانت الآيات تنزل بما تتطلَّبُهُ تلك الوقائع من بيان، وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام، وما تستدعيه تلك الشُّبه من ردٍّ، وتلك الاعتراضات من إبطال، إلى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المعروفة بأسباب النزول. وفي بيان الواقعة عند وقوعها، وذكر حكم الحادثة عند حدوثها، وردِّ الشبهة عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده - ما فيه من تأثير في النفوس، ووقع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التطبيق، واستيلاء على السامعين، وما كان هذا كلُّه ليأتي لولا تفريق الآيات في التنزيل، وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب، وهذا التنضيد الغريب، الذي

(١) انظر: عن هذا الوجه من الإعجاز، نزول القرآن الكريم، د. محمد بن عبد الرحمن الشايع (ص٤٥ - ٤٦).



بلغ الغاية من الحسن والمنفعة، حتَّى إنَّه لَيَصِحُّ أن يُعَدَّ وحده وجهًا من وجوه الإعجاز»[١].

وقال في موضع آخر: «وهم لما عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه، أخذوا يباهتون بالباطل، ويعترضون بمثل هذا الاعتراض، وأمَّا الجواب فكان ببيان حكمتين في إنزاله مُفرَّقًا: الحكمة الأولى: تثبيت قلبه صلى الله عليه وآله وسلم. والحكمة الثانية: تفريقه مرتَّبا على الواقع، وكان في تينك الحكمتين مزيَّتان عظيمتان للقرآن العظيم على غيره من كتب الله تعالى؛ فكان ما اعترضوا به على أنَّه نقص فيه عنها هو كمال له عليها»[٢].

وهذه الإشارة إلى عظمة القرآن في تفريق نزوله وترتيب ذلك، قضية قَلَّ من نَبَّهَ عليها من المفسرين، ولعلَّ ابن باديس استقاها من كلام الزمخشري في تفسيره، فقد صرَّح أنَّ كتاب «الكشَّاف» هو أحد مصادره في التفسير.

يقول الزمخشري منبِّهًا على عظمة ترتيب نزول القرآن: «يعني أن تنزيله مفرقًا وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كما نزل شيء منها، أدخلُ في الإعجاز وأنورُ للحُجَّة من أن ينزل كلُّه جملة ويقال لهم: جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بُعد ما بين طرفيه، كأنَّه قيل لهم: إن حاملكم على هذه السؤالات أنَّكم تضلِّلون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته، ولو نظرتم بعين الإنصاف - وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم - لعلمتم أن مكانكم شرّ من مكانه، وسبيلكم أضلّ من سبيله»[٣].

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٥٧ - ٥٨).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٥٣ - ٥٤).

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (٣/ ٢٨٤).

كما سبق الطاهر بن عاشور - وهو شيخ ابن باديس - إلى التنبيه على هذا النوع من الإعجاز، فقال: «وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادَّعوا أنه أساطير الأولين»(١).



(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١/ ٥٠). و(١٩/ ٢٠). وانظر: إعجاز القرآن عند ابن عاشور، محمود علي أحمد (ص٣٤١).



المطلب الرابع

الإعجاز التشريعي

يُعَدُّ إعجاز القرآن في جانبه التشريعي من أعظم وجوه الإعجاز التي يُستدلُّ بها على مصدره الربَّاني.

والمقصود بالإعجاز التشريعي: هو تلك التشريعات والأحكام القرآنية الشاملة الكاملة المتقنة، التي جاءت لإصلاح العلاقة بين العبد وربه، وبين الأفراد والجماعات، على وجهٍ متكامل لا نقص فيه من جميع الجواب، بما يحقِّقُ المصلحة ويدفع المفسدة(١).

هذه التشريعات التي عجز البشر على مرِّ القرون على الإتيان بمثلها، أو ما يدانيها، رغم اجتهادهم في سنِّ القوانين وتعديلها، إلا أن تلك الأنظمة والتشريعات أثبتتْ فشلها، وبان عوزها، وقصورها عن تحقيق المصلحة والسعادة للبشرية، وهذا يدلُّ أن تشريعات القرآن تشريعات ربَّانية لا يمكن أن تكون من وضع البشر، بل هي من وضع خالق البشر الذي يعلم مصلحتهم في الدنيا والآخرة.

والإعجاز التشريعي ينطلق من تلك الهدايات القرآنية للتي هي أقوم في جميع مجالات الحياة، بما يحقِّقُ مصلحة العباد في الحال والمآل، المضمَّن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهذا يشمل جانب العقيدة الذي يمثل علاقة العبد بربه، وجانب الشريعة وجانب الأخلاق الذي يمثِّل علاقة العبد بالفرد والمجتمع.

---

(١) انظر: إعجاز القرآن، فضل حسن عباس و د. سناء فضل عباس (ص٢٨١ – ٣١٣). مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص٢٠٥ – ٢٣١).

يقول ابن باديس: «العقيدة الثانية القرآن كلام الله ووحيه، ودليلها: أنَّه حكيم، فما فيه من العلم وأصول العمل لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، في عقائدِهِ ودلائلها وأحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها»[1].

ووجه الإعجاز في هذه الهدايات والتشريعات القرآنية يكمن في كون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ثم هو يأتي بقرآنٍ متضمِّنٍ لتشريعات متقنة وسياسات محكمة، متكاملة فيما بينها، تنظِّم شتَّى مناحي الحياة الدينية العقدية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، على وجه الكمال لا نقص فيه ولا خلل، ما لو اجتمع عقلاءُ البشر بمختلف تخصُّصاتهم على الإتيان بمثل هذا النظام التشريعي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، بل لقد حاول البشر على مَرِّ الأزمان وضع القوانين والتشريعات، ولكنَّهم عجزوا أن يأتوا بمثل ما جاء به القرآن من الكمال والشمول؛ فدلَّ هذا كلُّه على أنَّ هذا القرآن هو كلام ربِّ العالمين، وأنَّ تشريعاته هي أحكام العليم الحكيم، وليست من صنع البشر.

يقول ابن باديس: «وقد وضع عقلاء الأمم شرائع في بعض نواحي أعمال الإنسان، ولكنَّها بإجماع المتشرعين لا تخلو من نقصٍ واعوجاجٍ واضطراب، فهم ما يفتؤون يتعبونها بالتكميل والتقويم والتعديل على مرِّ الأيام. ولو عرضتَ كلَّ حكم من أحكامه على الأصل العام الذي ذكرناه، لوجدته منطبقًا عليه ظاهرًا فيه، حتَّى ما خفي وجهه على الأمم الأجنبية من الإسلام أيام تأخُّرها، قد ظهر لها فضله ونفعه أيام تقدُّمها، فجاء كبراء عقلائها يعترفون فيها بصواب ما شرعه فيها الإسلام. ثم هم يعجزون عن تطبيقها على أممهم؛ للعادة الغالبة والوراثة القديمة، منها: مسألة الطلاق، وتعدُّد الزوجات، وتحريم الربا تحريمًا باتًّا. فكم

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٧٠).

من عالم غير مسلم صرَّح بأنَّ الحقَّ والعدل والخير للإنسانية في هذه المسائل هو ما شرعه الإسلام، على الوجه الذي شرعه الإسلام. بهذه الاستقامة التامَّة العامَّة المضطردة في شرع ما جاء به رجل أُمِّي، من أمَّة أمِّيَة جاهلية، يجزم كلُّ عاقل بأنه ليس من وضع العباد، وإنَّما هو من وضع خالق العباد»(١).

وقد اعتنى ابن باديس بإبراز هذا الوجه العظيم لإعجاز القرآن الكريم في معرض كلامه على أصول الهداية التي جاء بها القرآن، عند تفسيره لسورة الإسراء، فقال: «قد أوتي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جوامع الكلم واختُصر له الكلام اختصارًا؛ فالآية من كتاب الله، والأثر من حديث رسول الله، تجد فيهما من أصول الهداية، ودقيق العلم، ولطيف الإشارة في لفظ بيِّن وكلام بيِّن - ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتي العلم ومُنح التوفيق.

فهذه ثماني عشرة آية من سورة الإسراء قد أتتْ في إيجاز ووضوح على أصول الهداية الإسلامية كلِّها، وأحاطت بأسباب السعادة في الدارين من جميع وجوهها. وهي - فوق بلاغتها التي عرف العرب إعجازها بسليقتهم وأدركه علماء البيان بعلمهم ومرانهم - قد جاءت معجزة للخلق من أي جنس كانوا، أو بأيِّ لغة نطقوا، بما جمعت من أصول الهداية التي تدركها الفِطَر وتسلمها العقول. وإنَّك لست واجدًا مثلها في مقدارها وأضعاف مقدارها من كلام الخلق بجمع ما جمعت من هدى وبيان، وهذا أحد وجوه إعجاز القرآن العامة التي تقوم بها حجته على الناس أجمعين»(٢).

وهكذا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. بَيَّنَ ابن باديس أن تشريعات القرآن

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٧٢).
(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ١٨٢ - ١٨٣).

هي شفاء المجتمعات، وأنها كاملة معجزة فقال: «... وجاء أيضًا مبينًا للأخلاق الفاسدة، وذاكرًا سوء أثرها وقبح مغبتها، مبينًا كذلك الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها، وحسن عاقبتها. فهذا شفاؤه للنفوس والعقول، وهو راجع إلى تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، وبهما سلامة الأرواح وكمالها، وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها. على أن القرآن هو شفاء للاجتماع البشري كما هو شفاء لأفراده؛ فقد شرع من أصول العدل، وقواعد العمران، ونظم التعامل، وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعلله، فهذه الأمم الغربية بسجونها، ومشانقها، ومحاكمها، وقوتها، قد امتلأت بالجنايات والفظائع المنكرة التي تقشعِرُّ منها الأبدان. وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية: كالمملكة الحجازية، والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرَّت السكينة فيهما دون سجون ولا مشانق، مثل أولئك؛ وما ذلك إلا لأنهم داووا المُلْكَ بدواء القرآن؛ فكان الشفاء التامُّ»[(١)].

وفي موضع آخر يبيِّنُ ابن باديس أن تشريعات القرآن جاءت لتحقيق السعادتين الدنيوية والأخروية، فيقول: «﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحقِّ، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان... كلُّ هذا فُصِّلَ في القرآن تفصيلا: كلَّ فصل على غاية البيان والأحكام. وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كلَّه من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به؛ فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان»[(٢)].

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ٣٥٦ - ٣٥٧).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ١٥٩).

ثم يبين ابن باديس أن أصول العلوم والتشريعات التي جاء بها القرآن، قد أعجز البشر عن معارضته، أو الإتيان بما يدانيه، فقال: «القرآن العظيم معجزة علمية عقلية يخضع لسلطانها كلُّ من يسمعها ويفهمها ولا يستطيع معارضتها، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عجزت عن معارضة أقصر سوره العرب، على ما كان من حميتها وأنفتها وشدة رغبتها في إبطالها لو وجدت سبيلا إليها فقط - بل لا تستطاع معارضتها فيما اشتملت عليه من أصول العلوم التي يحتاج إليها البشر في كمالهم وسعادتهم أفرادا وجماعات، وأمما...»[١].



(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس (ص٣٢ - ٣٣).

المطلب الخامس

الإعجاز العلمي

يعدُّ الشيخ ابن باديس من المؤيِّدين لفكرة الإعجاز العلمي في القرآن، بل ومن المتحمسين لها، على اعتبار أنَّه وجه عظيم وشامل من وجوه إعجاز القرآن، وأنَّه سلاح قويٌّ في هذا العصر الذي تميز بالتطور العلمي الهائل، وذلك لبيان عظمة القرآن ومصدره الرباني.

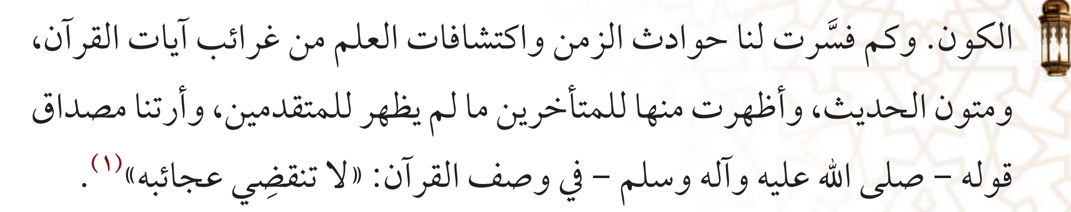
والمقصود بالإعجاز العلمي: هو موافقة الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم، لما توصل إليه العلم الحديث من اكتشافات علمية، كانت مجهولة منذ قرون(١).

وهذا اللون من الإعجاز أغفله جُلُّ من تكلم في الإعجاز من المتقدمين، سوى بعض الإشارات المتناثرة في كلام بعض السلف، وأما ابن باديس فقد جعله أهمَّ وأعظم ناحية من نواحي الإعجاز؛ لأنَّه في نظره يدخل في إدراكه كلُّ الناس مؤمنهم وكافرهم، فهو يرى أن كتاب الله قد حوى أسرارًا للكون والفرد والمجتمع، مما لا يستطيع الاطِّلاع عليه أحد إلا مع مرور الزمن.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا ذلك: «إنَّ القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة، فلا يستقلُّ بتفسيره إلا الزمن، وكذلك كلام نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - المبين له، فكثير من متون الكتاب والسنَّة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة، وظهور ما يصدِّقها من سنن الله في

---

(١) انظر عن الإعجاز العلمي: دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي (ص٣١٦). الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد السلام حمدان اللوح (ص١١٥). مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص١٣١ - ١٣٤).



الكون. وكم فسَّرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن، ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - في وصف القرآن: «لا تنقضِي عجائبه»[(١)].

والعلماء القوَّامون على كتاب الله وسنَّة رسوله لا يتلقَّونها بالفكر الخامد والفهم الجامد، إنما يترقَّبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم.

وقد أُثِرَ عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: «لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد» يعنون أنه آت، وأن الآتي به حوادث الزمان، ووقائع الأكوان، وكل عالم بعدهم فإنما يعطي صورة زمنه بعد أن يكيف بها نفسه»[(٢)].

والذي يظهر أن ابن باديس قد تأثر في هذا بما كتبه قبله محمد رشيد رضا[(٣)]، وشيخه الطاهر بن عاشور[(٤)]. ومما يميِّز طرح ابن باديس في هذا الاتجاه تقيُّدُه بالضوابط العلمية، فهو لا يتكلَّف في تنزيل آيات القرآن على الحقائق العلمية كما وقع لغيره، فنظرته للإعجاز العلمي نظرة متوازنة منضبطة.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الترمذي: أبواب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن. برقم (٢٩٠٦).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٣٥٩ - ٣٦١).

(٣) جعل محمد رشيد رضا في تفسيره الإعجاز العلمي الوجه السابع، فقال: «(الوجه السابع): اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق، وهذه مرتبة فوق ما ذكره في الوجه السادس من عدم نقض العلوم لشيء مما فيه». انظر تفسير المنار (١/ ١٧٥).

(٤) عدَّه الطاهر بن عاشور من وجه الإعجاز؛ فقال في تفسيره (١/ ١٤٠): «الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض».

يقول حسن سلوادي: «أمّا عبد الحميد بن باديس فله وجهة نظر خاصَّة في هذا الموضوع، تتلخَّص في أنَّ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم أمر لا يجرؤ أيُّ مكابر أو ملحد أن يجد موضعا للتشكيك فيه... إنَّ من يطالع رأي ابن باديس السابق في الإعجاز العلمي في القرآن، يتوقع أن يجد في تفسيره محاولات تدلُّ على نزعته العلمية في التفسير، ولكننا مع ذلك لا نجد له من هذا القبيل أي محاولات يتعسَّف بها الربط والتوفيق بين آيات القرآن الكريم ونظريات العلم الحديث، بل إن أكثر ما أورده من مسائل العلوم، لا يعدوا كونه إشارات مجملة لبعض الحقائق العلمية التي ثبتَتْ صحَّتها على وجه اليقين في هذا العصر»[(١)].

ووجه دلالة الإعجاز العلمي على مصدرية القرآن[(٢)] هو: أنَّ تلك الإشارات العلمية التي جاء ذكرها في ثنايا الذكر الحكيم، فيما يتعلق بالكون الذي يعيش فيه الإنسان من نجوم، وكواكب، وجبال، وبحار، وفي جسم الإنسان وتكوينه كذلك، بلغتْ مبلغًا عظيما في السعة والشمولية والدقَّة في التعبير، شهدت بصدقه التجارب العلمية الحديثة، وأكَّدتها الاكتشافات العلمية التي كانت غائبة عنَّا منذ قرون، وأعظم من ذلك أنَّه لم تأت أبحاث العلم التجريبي على سعتها وتطورها بشيء يخالف ما جاء في القرآن الكريم، بل القرآن الكريم أخبر في وقت نزوله قبل قرون عن أشياء يعجز عن الإتيان بها جماعة من العلماء مهما تكاملوا فيما بينهم، ومهما أوتوا من وسائل ضخمة ودقيقة، فلا يمكن أن يكون هذا القرآن الذي حوى هذه الإشارات العلمية الدقيقة إلا من عند الله عَزَّوَجَلَّ الذي أحاط بكل شيء علما، فوجب الإيمان بأنَّ القرآن كلام الله، وأنَّ النبيِّ الأميِّ الذي بلَّغ هذا القرآن رسول الله، بعثه ربُّه بالحق ليكون للعالمين نذيرا. كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ

(١) عبد الحميد بن باديس مفسرا، حسن عبد الرحمن سلوادي (ص١٢٢ - ١٢٣). وانظر: اتجاهات التفسير في العصر الراهن، د. عبد المجيد المحتسب (ص٢٧٧ - ٢٧٩).

(٢) انظر، مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص٢٤٦ - ٢٤٧).

ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٥ – ٦].

يقول ابن باديس وهو يعدِّد نواحي الإعجاز: «وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعمُّ: وهي ناحيتُهُ العلمية التي يذعنُ لها كل ذي فهمٍ من جميع الأمم، في كلِّ قطر وفي كلِّ زمن. وهذه الناحية هي التي احتجَّ بها في هذا الموطن: فقد استدلَّ على أنَّ القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنَّه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك: ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبيّن من أسرار الكتب الماضية، وما أنبأ من أحداث مستقبلة، وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة: كالزوجية في كل شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهول معين عند الله لها، وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع، وما تصلح عليه حياة الإنسان، مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم، فكتاب اشتمل على كلِّ هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق»[(١)].

وهكذا يبرز ابن باديس جهة أخرى تظهر فيها الحجة العلمية لمصدرية هذا القرآن الرباني، وهي أن القرآن دعا إلى العلم والتعلم، والتفكر والتدبر في النفس وفي الكون والمخلوقات التي برأها، ثم بيَّن بعض هذه الحقائق الكونية في آيات القرآن الكريم؛ ليعلم الخلق أجمعين أن الذي أنزل هذه الآيات القرآنية، هو الذي أودع هذه الأسرار الكونية، فيرتبط العلم التجريبي بالوحي المنزل.

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩ – ٢٠).

يقول ابن باديس: «قد دعانا الله إلى العلم ورغَّبنا فيه في غير ما آية، وأعلمنا أنَّه خلق لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعًا، وأمرنا بالنظر فيما خلقه لنا، وأعلمنا هنا أن هذه المخلوقات أسرار بيَّنَها القرآن واشتمل عليها، وكان ذلك من حجَّته العلمية على الخلق؛ فكان في هذا ترغيب لنا في التقصِّي في العلم، والتعمُّق في البحث، لنطَّلِع على كل ما نستطيع الاطلاع عليه من تلك الأسرار (أسرار آيات الأكوان والعمران، وآيات القرآن)؛ فنزداد علمًا وعرفانًا، ونزيد الدين حجة وبرهانًا، ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم؛ فيعظم شكرنا للربِّ الكريم المنعم»[1].

ولقد ضرب ابن باديس في تفسيره مثالًا عمليًا بآيات أشارت إلى دقائق علمية في الكون، تبين إعجاز هذا القرآن، وأنَّه كلام الحكيم الخبير الذي خلق هذا الكون، فهو يعلم أدقَّ تفاصيله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

فلقد استنبط إعجازًا علميًا في جرم القمر الذي تحدثت عنه آية الإسراء بأدقِّ تعبير وأدقِّ تفصيل، وهي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء: ١٢]، ثم خلص إلى أن هذه الإشارة العلمية في هذه الآية التي ما تبيَّن أمرها إلا بعد قرون من تطور العلم، لدليل قاطع على أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مبعوث من قبل ربه بوحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول ابن باديس في تفسير هذه الآية: «المحو هو الإزالة: إزالة الكتابة من اللوح، وإزالة الآثار من الديار. فمحو ﴿ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ إزالة الضوء منها، وهذا يقتضي

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٠).

أنَّه كان فيها ضوء ثم أزيل؛ فتفيد الآية أن القمر كان مضيئًا، ثم أزيل ضوؤه فصار مظلمًا، وقد تقرَّر في علم الهيئة أن القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس، واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أنَّ جرم القمر - كالأرض - كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحموِّ والحرارة، ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموِّه وزالت لما برد. لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله الله حجَّة لنبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - وبرهانًا لدينه على البشر، مهما ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان؛ فإنَّ ظلام جرم القمر لم يكن معروفًا أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفرادًا قليلين من علماء الفلك، وإن حمو جرمه أولًا، وزواله بالبرودة ثانيًا، ما عرف إلا في هذا العهد الأخير، والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرنًا نبيٌّ أميٌّ، من أمة أمية، كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم؛ فلم يكن ليعلم هذا إلا بوحي من الله الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها»[(١)].

وهكذا بيَّنَ ابن باديس أنَّه من العقائد المتقرِّرة عند المسلمين أن القرآن وحي من الله، وجعل الدليل على ذلك الحقائق الكونية التي جاء ذكرها في كثير من الآيات التي ما اكتشفها العلماء إلا بعد زمن طويل من تطور العلم والبحث، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا ذلك: «العقيدة الثانية: القرآن كلام الله ووحيه: ودليلها أنَّه حكيم، فما فيه من العلم وأصول العمل، لا يمكن أن يكون إلا عند الله، في عقائده ودلائلها وأحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها إلى ما فيه من حقائق كونية، كانت مجهولة عند جميع البشر، وما عرفت لهم إلا في هذا العصر الأخير.

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ١٥٥ - ١٥٦). وانظر: عن هذا الإعجاز العلمي في ضوء القمر في: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد (ص٣٠٧ - ٣٠٨). ومباحث إعجاز القرآن الكريم، مصطفى مسلم (ص١٩٦ - ١٩٧).

ومن أشهرها: مسألة الزوجية الموجودة في جميع هذا الكون حتَّى أصغر جزء منه، وهو الجوهر الفرد المركب من قوَّتين: موجبة وسالبة، جاءت هذه المسألة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩].

ومنها مسألة حياة النبات، التي جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ومنها مسألة تلاقح النباتات بواسطة الرياح التي تنقل مادة التكوين من الذكر إلى الأنثى، جاءت في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]. فهذه حقائق علمية كونية، أجمع عليها علماء العصر أنها من المكتشفات الحديثة، ولم تكن معلومة عند أحدٍ من الخلق قبل اكتشافها، ولا كانت عندهم الآلات الموصلة إلى معرفتها، وكفى بهذا القلّ من الكثر دليلًا على أن هذا القرآن ما كان إلا من عند الله الذي خلق الأشياء ويعلم حقائقها»(١).

فهذه باختصار وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها ابن باديس في تفسيره، وفي كلامه على بعض الآيات في مقالاته، تظهر لنا مدى عنايته وتأثره بالقرآن الكريم تدبرا وعملا، وتظهر لنا أنه على خطى مشايخه في إثراء هذا الميدان وتربية الأمة بالقرآن، ورفع مكانته في قلوبهم، فرحم الله الجميع.



(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٧٠ - ٢٧١). ولقد ذكر هذه الأمثلة محمد رشيد رضا كذلك في كلامه عن الإعجاز العلمي في تفسيره، انظر (١/ ١٧٥ - ١٧٦).



الخاتمة ونتائج البحث

الحمد لله أولًا وآخرًا، أما بعد:

فبعد هذه الإطلالة على وجوه إعجاز القرآن التي أبرزها عبد الحميد بن باديس في تفسيره، يمكننا أن نلخص نتائج هذا البحث فيما يلي:

١- أن عبد الحميد بن باديس قد اعتنى عناية فائقة باستنباط وجوه إعجاز القرآن الكريم من خلال تفسيره، الذي - على صغر حجمه - أبان فيه عن نظرة شاملة متميزة في هذا الموضوع المهمِّ من مواضيع علوم القرآن.

٢- أنَّ ابن باديس قد أتى على بيان معظم وجوه إعجاز القرآن، ونثرها في تفسيره وهي: (الإعجاز البلاغي، الإعجاز الغيبي، الإعجاز التشريعي، الإعجاز العلمي)، بل أكثر من ذلك: استنبط وجها آخر للإعجاز وهو (الإعجاز في ترتيب نزول القرآن) وجعله قسمًا منفردا.

٣- أن ابن باديس له عناية خاصة بالإعجاز البلاغي اللغوي؛ لكونه ذا نزعة بيانية، متذوقة لفنون البلاغة والكلام؛ لذلك أكثر من أمثلته في تفسيره. ومما خصَّهُ ابن باديس كذلك بالعناية (الإعجاز العلمي) حيث أولاه عناية كبيرة، حتَّى إننا نستطيع أن نقول: إنَّه من فرسان هذا الميدان في عصره، حيث كان يشرح ما بدا له من نكات بلاغية في الآيات التي يعرض لتفسيرها، كما كان يصنع شيخه من قبله الطاهر بن عاشور.

٤- أنَّ عبد الحميد بن باديس تأثر تأثرا واضحا بما كتبه (محمد رشيد رضا) في مقدمة تفسيره عن إعجاز القرآن، كما تأثر بكتابات شيخه (الطاهر بن عاشور) في تفسيره عن إعجاز القرآن، كما نجد أنه قد تأثر بالقاضي



عياض وما كتبه عن إعجاز القرآن في كتابه «الشفا في أحوال المصطفى».

٥- **أن ابن باديس** كان موضوعيا إلى حدٍّ كبير في طرحه وبيانه لوجوه إعجاز القرآن الكريم، بعيدا عن التكلف وتحميل الآيات ما لا تحتمل، متقيدا بأصول وقواعد التفسير؛ لذلك نراه في طرحه للإعجاز العلمي متوازنا من غير إفراط ولا تفريط.





توصيات البحث

وأما عن توصيات البحث:

* **يوصي الباحث بتتبع واستقراء كامل لمؤلفات ومقالات ابن باديس،** واستخراج ما يتعلق بإعجاز القرآن، في رسالة علمية أكاديمية؛ فإن له جهودا في هذا الميدان تستحق الجمع والدراسة.

* **كما يوصي الباحث بإجراء دراسات مقارنة بين تفسير ابن باديس،** وتفسير الطاهر بن عاشور، وتفسير محمد رشيد رضا؛ لمعرفة مدى التأثر والتأثير بين علماء المدرسة الإصلاحية المعاصرة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



المصادر والمراجع

١ – «الإتقان في علوم القرآن». السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، (ط ١)، المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٦هـ.

٢ – «اتجاهات التفسير في العصر الراهن». د. عبد المجيد عبد السلام المحتسب. (ط ٣)، عمان: منشورات مكتبة النهضة الإسلامية، ١٤٠٨هـ.

٣ – «آثار ابن باديس». ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي. تحقيق: عمار طالبي، (ط ١)، الجزائر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ١٣٨٨هـ.

٤ – «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي». البشير الإبراهيمي، محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، (ط ١)، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م.

٥ – «الإعجاز البياني للقرآن». عائشة بنت الشاطئ، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، (د. ط)، القاهرة: دار المعارف، ١٣٩١هـ.

٦ – «الإعجاز في نظم القرآن». شيخون، محمود السيد. (ط ١)، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ.

٧ – «إعجاز القرآن». الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. تحقيق: السيد أحمد صقر، (ط ٥)، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٧م.

٨ – «إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني». الخالدي، صلاح عبدالفتاح، (ط ١)، عمان: دار عمار، ١٤٢١هـ.



٩- «**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**». الرافعي، مصطفى صادق. راجعه واعتنى به: د. درويش الجويدي، (د. ط)، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٤هـ.

١٠- «**إعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (عرضا ودراسة)**». علي صالح، محمود علي أحمد. رسالة ماجستير، السعودية، قسم التفسير، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، العام الدراسي ١٤٣٠هـ.

١١- «**إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني**». العواجي، محمد بن عبد العزيز. (ط ١)، الرياض: دار المنهاج، ١٤٢٧هـ.

١٢- «**الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**». عبد السلام حمدان اللوح، (ط ٢)، غزة: آفاق للطبع والنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ.

١٣- «**البرهان في علوم القرآن**». الزركشي، بدر الدين بن محمد بن عبد الله. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط ٣)، القاهرة: مكتبة دار التراث، ١٤٠٤هـ.

١٤- «**تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)**». محمد رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني. (د. ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٥- «**تفسير عبد الحميد بن باديس منهجه وخصائصه**». باي زكوب، عبدالعالي. (د. ط)، ماليزيا: مجلة الإسلام في آسيا، (م ٨)، ٢ ديسمبر ٢٠١١م.

١٦- «**دراسات في علوم القرآن**». الرومي، فهد بن عبد الرحمن، (ط ١٤)، الرياض (د.ن)، ١٤٢٦هـ.

١٧- «**الشفا بتعريف حقوق المصطفى**». القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي. تحقيق: عامر الجزار، (د. ط)، القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٥هـ.

١٨- «**مباحث في إعجاز القرآن**». د. مصطفى مسلم. (ط ٢)، الرياض: دار المسلم، ١٤١٦هـ.

١٩- «**مجالس التذكير من حديث البشير النذير**». ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي. (ط ١)، الجزائر: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ١٤٠٣هـ.

٢٠- «**مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (تفسير ابن باديس)**». ابن باديس، عبد الحميد بن باديس. اعتنى به وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبد الرحمن محمود، (ط ١)، الجزائر: دار الرشيد، ١٤٣٠هـ.

٢١- «**التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**». الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. (د. ط)، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.

٢٢- «**عبد الحميد ابن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي (ضمن سلسلة أعلام المسلمين)**». المطبقاني، مازن صلاح. (ط ٢)، دمشق: دار القلم، ١٤٢٠هـ.



٢٣- «**عبد الحميد بن باديس مفسرا**». سلوادي، حسن عبد الرحمن. (د. ط)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٨م.

٢٤- «**العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية**». ابن باديس، عبد الحميد بن باديس الصنهاجي. تحقيق: محمد الصالح رمضان، (ط ١)، الشارقة: دار الفتح، ١٩٩٥م.

٢٥- «**محاضرات ومقالات العلَّامة أحمد حماني**». حماني، أحمد بن مسعود بن محمد. جمعها وأعتنى بها: عبد الرحمن دويب، (ط ٢)، الجزائر: عالم المعرفة، ٢٠١٥م.

٢٧- «**معترك الأقران في إعجاز القرآن**». جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، (ط ١)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.

٢٨- «**معجم أعلام الجزائِر (من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر)**». عادل نويهض. (ط ٢)، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ١٤٠٠هـ.

٢٩- «**منهجية التفسير عند الإمام ابن باديس**». صالحي، عبد الرحيم. رسالة ماجستير، الجزائر: جامعة الجزائر، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، ١٩٩٢م.

٣٠- «**موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة**». يوسف الحاج أحمد. (ط ٢)، دمشق: مكتبة دار ابن حجر، ١٣٤٣هـ.

٣١- «**نزول القرآن الكريم**». الشايع، محمد بن عبد الرحمن، (ط ١)، (د. ن)، ١٤١٧هـ.



الفهرس

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة





مجلة تدبر



البحث الثاني:

الاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم

أ.د. إسماعيل سعيد رضوان

وزير الأوقاف الفلسطيني السابق، وأستاذ دكتور بقسم الحديث الشريف وعلومه بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية - غزة.

- **حصل على درجة الماجستير** في الحديث الشريف وعلومه من الجامعة الأردنية، بأطروحته بعنوان: «مقولات ابن خزيمة في صحيحه».
- **حصل على درجة الدكتوراه** في الحديث الشريف وعلومه من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في السودان، بأطروحته بعنوان: «عناية السنة بصحة الإنسان».

وله العديد من الكتب والأبحاث العلمية:

- **الكتب:** (طرق تخريج الحديث، منهج الحكم على الأسانيد، دراسات في الحديث النبوي، دراسات في السيرة النبوية).
- **الأبحاث، منها:** (العقل في السنة النبوية دراسة تحليلية تربوية، منهج الإمام عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي «دُحَيْم» في توثيق الرواة، هشيم بن بشير تدليسه ومروياته في صحيح البخاري، تواتر حديث: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور، أو قال شهادة الزور»، حصين بن عبد الرحمن السلمي ورواياته في الصحيحين، الأحاديث المرفوعة في نزول المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الكتب الستة ومسند أحمد).



ملخص البحث

هذا البحث بعنوان «**الاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم**»، وهو أحد علوم بلاغة القرآن الكريم، ضمن القسم الإنشائي منه، في أحد أغراض الاستفهام غير الاستعلامي، وقد تمت الدراسة في إطار المنهج الوصفي التحليلي، وقد تناول البحث مقدمةً، تم خلالها استعراض أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف الدراسة والغاية منها، والدراسات السابقة، ومنهج الباحث، وخطة البحث.

وقد تم تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث: حيث كان المبحث الأول يعالج مفهوم الاستفهام الإنكاري؛ حيث تم تعريفه كمصطلح مركّب، بتناول كل مفردة على حدة، لغةً واصطلاحًا، وذِكر ما كتبه أصحاب مؤلفات علوم القرآن، وكذلك أهل اللغة العربية في هذا الموضوع الدقيق، وكذلك معرفة كيفية تناول القرآن الكريم لهذا الموضوع الدقيق؛ حيث تبيَّن أن الأمثلة التطبيقية للاستفهام الإنكاري في القرآن الكريم، تجاوزت المائة وخمسين موضعًا، كما تناول المبحث الثاني أمثلة على الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكفر، من الأمم الغابرة، ومشركي العرب، وأهل الكتاب والمنافقين، وأما المبحث الثالث، فقد ذكر أمثلة على الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الإيمان، من الملائكة، والأنبياء، والمؤمنين.

وقد بيَّنت الخاتمة سبع نتائج، وثلاث توصيات، وقد تم الرجوع إلى واحد وسبعين مرجعًا.

الكلمات المفتاحية:

الاستفهام ـ الإنكار ـ القرآن ـ النفي ـ التوبيخ ـ التعجب



﴿ المقدمة ﴾

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبده ورسوله، وبعد:

فمعلوم أن القرآن الكريم هو دستور هذه الأمة، ومصدر عزتها؛ لما تشتمل عليه آياته وسوره من هداية للناس، وإعجازهم كافة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد تعددت وجوه إعجاز القرآن الكريم، وإشارات هداياته، لكن الوجه الأبرز الذي لا يتقدم عليه وجه معجز دالٌّ على أن القرآن الكريم من عند الله، إنما هو الوجه البلاغي، المتمثل في البيان والبديع والمعاني(١)؛ ومن تفرُّعات علوم المعاني الأسلوب الإنشائي، الذي ينقسم إلى: إنشاء طلبي، وآخر غير طلبي، ومن الأساليب الإنشائية الطلبية الاستفهام الذي تتعدد معانيه وأغراضه ودلالاته، ومنها الإنكار(٢).

ويركز هذا البحث على الاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم؛ لما يترتب على معرفة هذا الموضوع المراد البحث فيه من كثير من الأحكام والعبر

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني (ص١٠).

(٢) هذه خلاصة قراءة كتاب: علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، د. محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب.

والعظات التي يثريها تفرعات هذا الموضوع.

والله أسأل أن يوفقني إلى عمل هذا البحث القرآني، وأن يقدِّرني لاستخراج اللآلئ المرجو إخراجها من هذا البحث، إنه وليُّ ذلك ومولاه.

أولًا: أهمية الموضوع:

تبرز أهمية الموضوع من خلال النقاط الآتية:

١) هذا الموضوع له الأهمية الكبيرة في بيان أعظم وجوه الإعجاز القرآني، وهو الإعجاز البلاغي؛ حيث يركز على أبرز تفرعات الجمل الإنشائية الطلبية - وهو الاستفهام - التي تهدف إلى ترسيخ مفاهيم الهداية.

٢) البحث في هذا الموضوع يثري المعنى التفسيري للقرآن الكريم، لا سيما في الجانب اللغوي.

٣) البحث في هذا الموضوع فيه تعمق في تدبر القرآن الكريم وآياته.

ثانيًا: أسباب اختيار الموضوع:

١) نيل رضا الله تعالى، من خلال التدبر في أحد موضوعات علم المعاني التي ذكرها القرآن الكريم، وهو الاستفهام الإنكاري.

٢) مثّلت أهمية الموضوع سببًا من أسباب اختياره.

٣) رغبة الباحث في الاستفادة الشخصية، ومن ثَمَّ الإفادة لأمة الإسلام بخلاصة هذا الموضوع الدقيق الذي يعمق الهداية لدى المسلم.

٤) تهيئة جميع أدوات البحث لهذا الجهد البحثي.



❁ ثالثًا: أهداف الدراسة والغاية منها:

للدراسة أهداف وغايات، أذكر منها:

١) بيان حدِّ الاستفهام الإنكاري؛ ليكون جامعًا مانعًا.

٢) ذكر خلاصة استعمالات القرآن الكريم لهذا الموضوع، واللطائف المستفادة.

٣) ذكر أنواع المخاطبين في جمل الاستفهام الإنكاري، ومن ثَمَّ معرفة الأحكام المترتبة على ذلك.

❁ رابعًا: الدراسات السابقة:

بعد البحث والمطالعة وجد الباحث أن كثيرًا من الأبحاث والدراسات العلمية والكتب القيِّمة والمقالات قد تناولت هذا الموضوع، سواء أكان ذلك بطريق التعرض المباشر له، أم بالتعرض له في ثنايا الدراسة، لكنني لم أعثر على بحث علميٍّ محكّم يعالج هذا الموضوع، من خلال التفصيل الدقيق لجميع ما ذكر في القرآن الكريم في الاستفهام الإنكاري، وبيان أحوال المخاطبين في الجمل الاستفهامية الإنكارية؛ لذا يركز هذا البحث على ما لم يتم استدراكه - فيما وقفنا عليه - في الأبحاث والدراسات السابقة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

❁ خامسًا: منهج الباحث:

المنهج في هذا البحث هو المنهج الوصفي التحليلي، وذلك من خلال وصف موضوع الاستفهام الإنكاري، كما ذُكِر في المصادر الأصلية المعتمدة، مع ذكر بعض النماذج له في القرآن الكريم، وتحليلها التزامًا ببيان أحوال المخاطبين في الجمل القرآنية التي تناولت ذكر الاستفهام الإنكاري والأحكام المترتبة على ذلك.



سادسًا: خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن تكون خطته مشتملة على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، موزعة على النحو الآتي:

المقدمة

وتشتمل على: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف الدراسة والغاية منها، والدراسات السابقة، ومنهج الباحث، وخطة البحث.

المبحث الأول

مفهوم الاستفهام الإنكاري

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** تعريف الاستفهام الإنكاري لغةً، واصطلاحًا.
- **المطلب الثاني:** الاستفهام الإنكاري في كتب علوم القرآن واللغة العربية.
- **المطلب الثالث:** الاستفهام الإنكاري في الاستعمال القرآني.

المبحث الثاني

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكفر

وفيه أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الكفار من الأمم الغابرة.
- **المطلب الثاني:** الاستفهام الإنكاري في مخاطبة مشركي العرب.
- **المطلب الثالث:** الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكتاب.
- **المطلب الرابع:** الاستفهام الإنكاري في مخاطبة المنافقين.



المبحث الثالث

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الإيمان

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول**: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الملائكة.
- **المطلب الثاني**: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الأنبياء.
- **المطلب الثالث**: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة المؤمنين.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.



المبحث الأول

مفهوم الاستفهام الإنكاري

يركز هذا المبحث على ذكر التعريف الدقيق للاستفهام الإنكاري، وكذلك التعرف إلى ما ذكره أهل اللغة العربية، وأهل علوم القرآن، فيما يتعلق بالاستفهام الإنكاري، ويركز هذا المبحث - أيضًا - على بيان طريقة استعمال الخطاب القرآني لهذا الموضوع.

وقد مثَّل هذا المبحث توضيحًا عمليًّا لذلك، من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

تعريف الاستفهام الإنكاري لغةً واصطلاحًا

يستفاد التعريف الاصطلاحي للاستفهام الإنكاري من الأصل اللغوي والمعاني اللغوية والاصطلاحية لمفردات هذا المصطلح المركَّب، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: تعريف الاستفهام:

الاستفهام لغةً:

الفاء والهاء والميم أصلٌ يدلُّ على العلم بالشيء[(١)]، **واستفهم:** طلب علم الشيء[(٢)]، **واستفهمه:** سأله أن يفهِّمه، أي: يعلِّمه[(٣)]، **ويتبين مما سبق أن الاستفهام في اللغة يعني:** سؤال آخر طلب العلم بشيءٍ معين، وهذا يحمل معنى التصور للشيء، وليس الاكتفاء بعلمه من مصدرٍ.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس (٤/ ٤٥٧) مادة (ف هـ م)، المصباح المنير، الفيومي (٢/ ٤٨٢) مادة (ف هـ م).

(٢) ينظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي (ص١١٤٦) مادة (فهم).

(٣) ينظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٤٥٩) مادة (فهم).



۞ الاستفهام اصطلاحًا:

تعددت تعريفات الاستفهام اصطلاحًا عند أهل العربية والاختصاص، وتفصيل ذلك في ذكر بعض منها فيما يأتي:

* **تعريف الجرجاني وكذا المناوي والجرجاني بأنه:** طلب فهم الشيء، واستعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن [أي: بأدوات مخصوصة]؛ فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين [مطابقة للواقع] أو لا وقوعها [غير مطابقة للواقع]؛ فحصولها هو التصديق [إدراك مطابقة النسبة الكلامية للواقع أو عدم مطابقتها له]، وإلا فهو التصور [إدراك الموضوع، أو المحمول، أو النسبة المجردة، أو اثنين من هذه الثلاثة، أو الثلاثة][(١)].

* **تعريف ابن القاضي التهانوي بأنه:** «عند أهل العربية من أنواع الطلب الذي هو من أقسام الإنشاء، وهو كلام يدل على طلب فهم ما اتصل به أداة الطلب»، وشرح ذلك بقوله: «فلا يصدق على افهم؛ فإن المطلوب ليس فهم ما اتصلت به؛ لأن أداة الطلب صيغة الأمر، وقد اتصلت بالفهم، وليس المطلوب به طلب فهم الفهم»[(٢)].

* **تعريف السيوطي بأنه:** طلب الفهم، وهو بمعنى الاستخبار، وذكر قولًا لابن فارس بأن الاستخبار ما سبق أولًا، ولم يفهم حق الفهم؛ فإذا سألت عنه ثانيًا كان استفهامًا[(٣)]، وقد ذكر الكفوي أن كل استفهام استخبارٌ وليس

---

(١) ينظر: التعريفات، الجرجاني (ص١٨)، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي (ص٤٩)، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، الأحمد نكري (١/ ٧٢)، الإيضاح في علوم البلاغة، خطيب دمشق، حاشية المحقق محمد خفاجي (٣/ ٥٥).

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ١٤٨).

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٦٧).

العكس، وأن كل استعلام استفهامٌ وليس العكس؛ لأن الاستعلام طلب العلم، وهو أخصّ من الاستفهام، وليس كل ما يُفهَم يُعْلَم، بل قد يظن ويخمن كل استفهام دخل في الجحود[١]، وقد ذكر السيوطي تضعيف هذه المعلومة، حينما رواها بصيغة التضعيف عن ابن فارس[٢].

وبالنظر إلى التعريف اللغوي وبالتمحيص فيما يخدم الدراسة التي نحن بصددها، يتبين أن التعريف الاصطلاحي الأدقَّ للاستفهام، هو تعريف ابن القاضي التهانوي؛ فهو جامع مانع.

❁ ثانيًا: تعريف الإنكار:

■ الإنكار لغةً:

«النُّون والكاف والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلافِ المعرفةِ التي يسكنُ إليها القلبُ»[٣]، والنَّكْر (بفتح الكاف وسكونها): الدهاء والفطنة، والنَّكْرة: إنكارك الشيء، وهو خلاف المعرفة، والنَّكِرَة: مَا يخرُجُ من الحُوَلاءِ والخُراجِ من دمٍ أو قَيْحٍ، كالصَّديد، وأنكره إنكارًا، واستنكره وتناكره: إذا جهله[٤]، والإنكار: الاستفهام عما ينكره، وذلك إذا أنكرت أن تثبت رأي السائل على ما ذكر، أو تنكر أن يكون رأيه على خلاف ما ذكر[٥]، والنُّكْر والمنكر: خلاف المعروف[٦].

ويتبين مما سبق أن الإنكار يطلق على معانٍ في اللغة، منها: الدهاء والفطنة،

---

(١) ينظر: الكليات (ص٨٣).

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٦٧).

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس (٥/ ٤٧٦) مادة (ن ك ر).

(٤) ينظر: تاج العروس، مرتضى الزبيدي (١٤/ ٢٨٧ - ٢٨٩).

(٥) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (٦/ ٨٠٤).

(٦) ينظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، عياض السبتي (٢/ ١٢).

وخلاف المعرفة الذي هو الجهل، والاستفهام عمَّا هو منكَر، وخلاف المعروف، ولعلَّ أكثر المعاني اللغوية المترتبة على الأصل اللغوي ملامسة لهذه الدراسة، هو الاستفهام عمَّا هو خلاف المعرفة الساكنة في القلب؛ إذ إنَّ الإنكار يلامس مخاطبة القلب والوجدان أكثر من مخاطبة المعرفة الظاهرة، فضلًا على أن خلاف المعرفة الساكنة في القلب تكون نتيجة لما قبَّحه الشرع الحنيف، مما يؤثر في نسبة الإيمان الذي يبدأ من التصديق بالقلب.

الإنكار اصطلاحًا:

تعددت تعريفات العلماء لمصطلح الإنكار، وبيان ذلك فيما يأتي:

* **تعريف الفقهاء بأنه:** «ضد الإقرار»[(١)].

* **تعريف المناوي بأنه:** «ضد العرفان، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره وذلك ضرب من الجهل، وربما ينكر الإنسان الشيء مع حصول صورته في القلب فيكون كاذبًا»[(٢)].

* **تعريف الكفوي بأنه:** «ما ظهر امْتِنَاعه بِحَسب النَّوْع أَو الشَّخْص أَو بحث عَمَّا يدل عَلَيْهِ أقْصَى مَا يُمكن فَلم يُوجد، وإذا كان الإنكار من الله فإنه يعني لا ينبغي أن يعقل، أو بمعنى لا يمكن»[(٣)].

* **تعريف ابن القاضي التهانوي بأنه:** «هو الكلام الملقى مع المنكر للحكم»[(٤)].

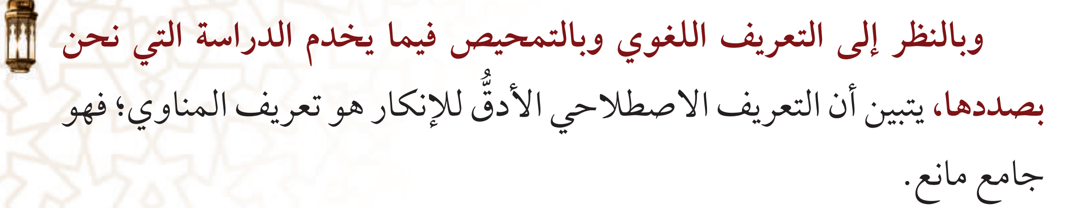
---

(١) التعريفات الفقهية، محمد البركتي (ص٣٧)، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، الأحمد نكري (١/ ١٣٣).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص٦٥).

(٣) ينظر: الكليات (ص٢٠٠).

(٤) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ٢٨٦).



وبالنظر إلى التعريف اللغوي وبالتمحيص فيما يخدم الدراسة التي نحن بصددها، يتبين أن التعريف الاصطلاحي الأدقُّ للإنكار هو تعريف المناوي؛ فهو جامع مانع.

❁ ثالثًا: مصطلح الاستفهام الإنكاري:

بالنظر إلى التعريف الاصطلاحي لكل مفردة من مفردات هذا المصطلح المركب، يتبين أن الاستفهام الإنكاري هو: نوع متفرع من أنواع الطلب الذي هو من أقسام الإنشاء الذي هو أحد أنواع علم المعاني، وهو كلام يدل على طلب فهم ما اتصل به أداة الطلب، بغرض الرد على القلب، ولا يتصوره، وربما ينفى هذا الطلب مع حصول صورته؛ لإفادة التكذيب.





المطلب الثاني

الاستفهام الإنكاري في كتب علوم القرآن واللغة العربية

إن الناظر في كتب علوم القرآن يجد أن المتقدمين هم الذين ذكروا جميع العلوم التي تتعلق بكتاب الله تعالى، مما وُجِد في زمانهم؛ ولذا فإنهم قد ذكروا الاستفهام الإنكاري ضمن علم الإنشاء الطلبي في القرآن الكريم، وأما المتأخرون؛ فإنهم قد ذكروا مباحث محدودة من علوم القرآن، ومن ثَمَّ فقد أغفلوا كثيرًا من العلوم التي تتعلق ببلاغة القرآن. ويرى المتتبع لموضوع الاستفهام الإنكاري أن المعاصرين ممن كتب في اللغة العربية هم من ذكروا الاستفهام الإنكاري، من خلال ذكر شواهد في هذا الفن من الآيات القرآنية، **وتفصيل ذلك فيما يأتي:**

أولًا: الاستفهام الإنكاري في كتب علوم القرآن المتقدمة:

لعل أبرز كتب علوم القرآن المتقدمة موجودة في كتابي: «البرهان في علوم القرآن» للإمام الزركشي (٧٩٤هـ)، و«الإتقان في علوم القرآن» للإمام السيوطي (٩١١هـ) - رغم العلم بكثير من الكتب التي اعتمد عليها هذان العالمان في كتابيهما، ككتاب الحوفي وكتاب البلقيني، وغيرهما - وقد تفحصت هذين الكتابين، **فوجدت الآتي:**

١) **ذكر الإمام الزركشي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **الاستفهام الإنكاري** ضمن حديثه عن النوع الخامس والأربعين، في أقسام معنى الكلام، عن الخبر والإنشاء، وذكر من الإنشاء الاستفهام الذي قد يخرج عن حقيقته الإنشائية، إلى ما هو بمعنى خبر، وهو بذلك ضربان: أحدهما نفي، ويقصد بذلك الإنكار، والآخر إثبات وهو التقرير[1].

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٢٨).

٢) **ذكره الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاستفهام الإنكاري** في النوع السابع والخمسين من أنواع علوم القرآن، ضمن حديثه عن الخبر والإنشاء؛ حيث ذكر أن من أقسام الإنشاء الاستفهام، وذكر له أغراضًا، وبيَّن أن أول هذه الأغراض هو الإنكار، وبيَّن من أغراض الاستفهام الإنكاري: كالنفي، والتكذيب، والتوبيخ ...[(١)].

❁ ثانيًا: الاستفهام الإنكاري في كتب اللغة العربية:

إن أهل اللغة من السابقين قد ذكروا الاستفهام الإنكاري في معرض ذكر الشواهد البلاغية في أغراض الاستفهام، وبالتحديد عند التعرض للنصوص، وأعظمها القرآن الكريم؛ حيث ذكر المفسرون - لا سيما من تعرَّض إلى الأسرار البلاغية - كثيرًا من أغراض الاستفهام، ومن أبرز هذه الأغراض الاستفهامُ الإنكاريُّ، وقد ذكر أهل اللغة المعاصرون الاستفهامَ الإنكاريَّ، **وبيان ذلك في النماذج الآتية:**

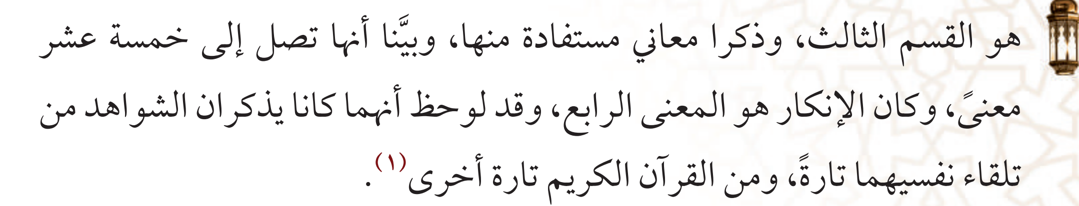
١) **ذكره الأستاذ عبد العزيز عتيق في كتابه «علم المعاني»**، في الفصل الثالث، تحت عنوان «علم المعاني وأثره في بلاغة الكلام»[(٢)]، وبيَّن في المبحث الأول الكلام في الإنشاء، وبيَّن أن من أقسام الإنشاء الاستفهام، وأن أقسام الاستفهام تسعة عشر قسمًا، وذكر الإنكار في القسم التاسع، ويلاحظ أن شواهده منها ما هو تمثيل من تلقاء نفسه، ومنها ما هو استشهاده بالآيات القرآنية.

٢) **ذكره الدكتوران محمد أحمد قاسم ومحيي الدين ديب في كتابهما علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني»**، في قسم علم المعاني، في الباب الثاني: الإنشاء وأقسامه، في قسم الإنشاء الطلبي، الذي قسَّماه إلى خمسة أقسام، وكان الاستفهام

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٦٨).

(٢) ينظر: علم المعاني، عبد العزيز عتيق (ص١٠٢).



هو القسم الثالث، وذكرا معاني مستفادة منها، وبيَّنا أنها تصل إلى خمسة عشر معنىً، وكان الإنكار هو المعنى الرابع، وقد لوحظ أنهما كانا يذكران الشواهد من تلقاء نفسيهما تارةً، ومن القرآن الكريم تارة أخرى[(١)].

٣) ذكره العلّامة أحمد المراغي في كتابه علوم البلاغة «البيان والمعاني والبديع»، في حديثه عن علم المعاني، في الباب الثاني: الإنشاء، في المبحث الثالث: الاستفهام، في تنبيه: قد تخرج ألفاظ الاستفهام عن أصل وضعها، فيستفهم بها عن الشيء مع العلم به؛ لأغراض تستفاد من سياق الحديث، ودلالة الكلام، وذكر من ذلك الإنكارَ، وأن له أغراضًا أهمها التوبيخ والتكذيب...[(٢)].

٤) ذكره الأستاذ عبد الرحمن الدمشقي في كتابه «البلاغة العربية»، في علم المعاني، في الباب الأول، في الفصل الرابع، بعنوان: «الجملة الإنشائية وأقسامها»؛ حيث تكلم عن الاستفهام، وبيَّن أن البلاغيين أحصوا معاني كثيرة خرج إليه الاستفهام عن حقيقته، وذكر من ذلك اثنين وثلاثين معنىً، وكان الإنكار أول هذه المعاني[(٣)].

٥) جاء في كتاب «البلاغة في علم المعاني» [ضمن الكتب المنهجية في جامعة المدينة العالمية]، في الدرس السادس عشر، في تكملة الأساليب الإنشائية، أن الاستفهام قد يأتي ويراد به معنى الإنكار، وقد يكون هذا الإنكار توبيخيًّا أو تكذيبيًّا...[(٤)].



(١) ينظر: علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني»، محمد أحمد قاسم ومحيي الدين ديب (ص٢٩٧).
(٢) انظر: علوم البلاغة «البيان والمعاني والبديع»، أحمد المراغي (ص٦٩).
(٣) انظر: البلاغة العربية، عبد الرحمن الدمشقي (١/ ٢٧٠).
(٤) انظر: البلاغة في علم المعاني، جامعة المدينة العالمية (ص٣٨٩).

المطلب الثالث

الاستفهام الإنكاري في الاستعمال القرآني

تبيّن من خلال الإحصاء في آيات القرآن الكريم أن الاستفهام الإنكاري ورد فيما يقرب من مائة وخمسين موضعًا، في مائة وخمسين آيةً، في سبعٍ وثلاثين سورةً، تسعٌ وعشرون منها مكيٌّ، وثمانٍ منها مدنيٌّ.

❁ وقد ورد الاستفهام الإنكاري في القرآن الكريم، من خلال الأدوات الاستفهامية الآتية:

* **أولًا: حرف الهمزة، وهذه الأداة هي الأكثر ذكرًا في الخطاب القرآني**، مما تناول الاستفهام الإنكاري، **ومن أمثلة ذلك:**

١) قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، فإن همزة الاستفهام ذكرت هنا على سبيل الإنكار الاستبعادي[1]؛ حيث يستبعد هذا الطلب من كل ذي عقل.

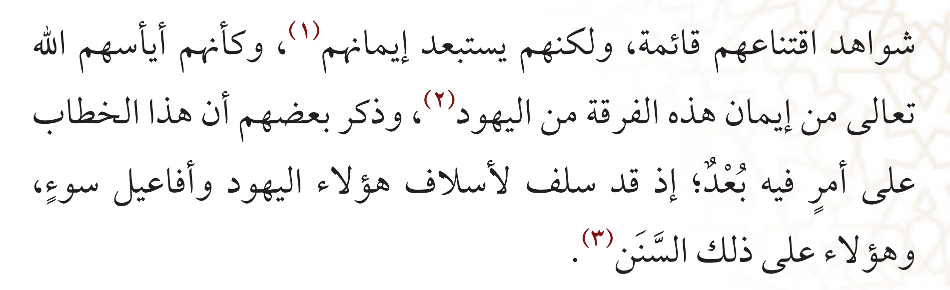
٢) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧]، وقوله ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فيه إنكار[2] للتكذيب والنفي.

٣) قوله تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، فإنه في هذا الاستفهام ضربٌ من الإنكار على رغبة المؤمنين في إيمان من هم

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (١/ ٣٧٤)، حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (١/ ٤٥٤).

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (١/ ٤٠٤).



شواهد اقتناعهم قائمة، ولكنهم يستبعد إيمانهم[1]، وكأنهم أيأسهم الله تعالى من إيمان هذه الفرقة من اليهود[2]، وذكر بعضهم أن هذا الخطاب على أمرٍ فيه بُعْدٌ؛ إذ قد سلف لأسلاف هؤلاء اليهود وأفاعيل سوءٍ، وهؤلاء على ذلك السَّنَن[3].

٤) قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾ [النازعات: ١١]، ففي هذا الاستفهام إنكار أو توكيد لإنكار الرد، ونفيه بنسبته إلى حالة منافية له؛ حيث ظنوا أنه من فساد البدن، وتفرق أجزائه يلزم فساد ما هو الإنسان حقيقةً[4].

*** ثانيًا: الاسم كيف، وقد ورد في أكثر من موضع، ومن ذلك:**

١) قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة: ٢٨]، فقد ذكر بعضهم أن هذا الاستفهام إنكاريٌّ[5]، وذكر بعضهم أن الاستفهام للتعجب أو التقرير أو التوبيخ[6]، وذكر آخرون أنه للتبكيت والتعنيف[7]، ولا شكَّ أن السياق القرآني حمَّال لكل هذه الأغراض.

٢) قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦﴾ [آل عمران: ٨٦]،

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه (١/ ٣٤٨).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ١).

(٣) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي (١/ ٢٦٦).

(٤) انظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٣١/ ٧٥)، فتح البيان، القنوجي (١٥/ ٥٨).

(٥) انظر: التفسير المظهري، المظهري (١/ ٤٣).

(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (١/ ٤٨)، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٢٤٨).

(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي (٢/ ٣٧٥).

فهذا الاستفهام إنكاريٌّ استبعادي، على سبيل التوبيخ والتقريع[1].

٣) قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠١]، فهذا الاستفهام للتعجب[2]، والمراد منه المنع والتغليظ، أو الإنكار والاستبعاد، ومعناه: من أين يأتيكم ذلك ولديكم ما يمنع منه ويقطع إرادته؟ والسياق القرآني حمَّال للغرضين[3].

*** ثالثًا: الأداة لِمَ، وقد وردت في مواضع، منها:**

١) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١]، فهذا الاستفهام إنكاري غرضه التكذيب والتوبيخ[4].

٢) قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢]، فهذا الاستفهام إنكار وتوبيخ[5].

*** رابعًا: الاسم مَنْ، وقد ذُكِر في القرآن الكريم في مواضع:** منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) انظر: الفواتح الإلهية، الشيخ علوان (١/ ١١٧)، التفسير المظهري، المظهري (٢/ ٨٤).

(٢) انظر: التفسير المظهري، المظهري (٢/ ١٠٣)، فتح البيان، القنوجي (٢/ ٢٩٩)، البحر المديد، ابن عجيبة (١/ ٣٨٧).

(٣) انظر: التفسير المظهري، المظهري (٢/ ١٠٣)، فتح البيان، القنوجي (٢/ ٢٩٩)، البحر المديد، ابن عجيبة (١/ ٣٨٧).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٣٠).

(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي (٨/ ١٦٤).

﴿ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: ٣٢]، فهذا الاستفهام إنكاري توبيخي؛ فلا يحتاج إلى جواب؛ لأنه لا يراد به استعلام[(١)].

* **خامسًا: الاسم ما، وقد ورد في مواضع:** منها قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦﴾ [القلم: ٣٦]، فهو استفهام إنكاري، بمعنى: الإنكار أن يكون له وجه مقبول يعتدُّ به؛ حتى يتمسك به[(٢)].

* **سادسًا: الاسم أنَّى، وقد ورد في مواضع:** منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، أي: كيف يملكنا؟ ونحن أحق بالملك منه؟ ومن أيِّ جهة؟، وهي للإنكار[(٣)].

* **سابعًا: الحرف أيُّ، وقد ورد في مواضع:** منها قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾ [الرحمن: ١٦]، «والاستفهام؛ لتقرير الآلاء، وإنكار تكذيبهما؛ فإن ذكر الآلاء سبب لإقرارها وشكر منعها، والرد عن تكذيبها، وكذا الوعيد على الكفران والوعد سببان للإقرار والشكر»[(٤)].

وقد اختلف المخاطبون بالاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم في العهدين المكي والمدني؛ حيث غلب على الاستفهام الإنكاري في العهد المكي ما يأتي:

* **أولًا: خطاب أهل قريش بالأدلة الحسيّة؛ لتنتبه عقولهم وحواسُّهم؛ لتوحيد الله**، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي (٩/ ٩٠).

(٢) انظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٣٠/ ١٠٠).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ٢٤٦).

(٤) التفسير المظهري، المظهري (٩/ ١٤٨).

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص: ٧١]، أي: أخبروني يا أهل مكة إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ دائمًا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا تطلع عليكم الشمس مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ تطلبون فيه المعيشة، و«مَنْ» للاستفهام الإنكاري، والمعنى: لا إله غير الله يأتيكم به(١).

* **ثانيًا: ذكر قصص الأمم السابقة؛ فتارةً بالإنكار للمكذبين،** من خلال استخدام الاستفهام الإنكاري، كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]، و«الاستفهام: للإنكار، أي: كيف نتبعك ونؤمن لك، والحال أن قد اتبعك الأرذلون»(٢)، وتارةً بإنكار الأنبياء والمرسلين لأقوامهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل: ٣٦]، وهو إنكارٌ لإمدادِهم لنبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمالِ مع علو شأنِه وسعَة سُلطانِه، وتوبيخٌ لهم بذلك(٣).

* **ثالثًا: ذكر الاستفهام الإنكاري من قِبَلِ كفار قريش،** فيما يتعلق بالمفاضلة بين دين الإسلام ودين آبائهم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزُّخرُف: ٥٨]، حيث إنهم سألوا عن الأفضل: هل دين آبائهم أم دين الإسلام؟ ولا شكَّ أنهم لم يسألوا هذا السؤال لأجل المعرفة، وإنما لأجل الإنكار الذي يكون غرضه في هذه الآية النفي والاستبعاد.

* **رابعًا: مخاطبة الله تعالى لكفار قريش مباشرةً، بالاستفهام الإنكاري،** كقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣]، حيث خوَّف الله

---

(١) انظر: التفسير المظهري، المظهري (٧/ ١٧٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ١٢٦).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود (٦/ ٢٨٥).

تعالى كفار قريش، فقال: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾، والاستفهام للإنكار[١].

* **خامسًا: ذكر الاستفهام الإنكاري من قِبَل الله تعالى عن الكفار**، كقوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٦]، أي: بعد هذا التكرير ينكرون وقوع عذاب الله تعالى؛ فيستعجلون به متبجحين بهذا الطلب؟[٢]

* **سادسًا: مخاطبة الصالحين لأقوامهم بالاستفهام الإنكاري**، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]، أي: أتقصدون قتله ظلمًا بلا دليل؟[٣]

* **سابعًا: مخاطبة الله تعالى لنبيه محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسأل الكافرين سؤالًا غرضه الإنكار، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزُّمَر: ٦٤]، أي: «أفغير الله أعبد بأمركم؟ وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك»[٤].

أما الاستفهام الإنكاري في العهد المدني فقد غلب عليه ما يأتي:

* **أولًا: مخاطبة أهل الكتاب والمنافقين بالاستفهام الإنكاري**، ومن المعلوم أن الخطاب لهذين الصنفين يكون فيه الاستفهام الإنكاري للتوبيخ والتقريع، وكذلك للتكذيب.

* **ثانيًا: الخطاب المدني بيّن أن الاستفهام الإنكاري** ذكر في مقام خطاب المؤمنين، بما يتعلق بهذه الأصناف المذكورة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني (٥/ ١٥٤).

(٢) انظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٢٤/ ٢٩٠).

(٣) انظر: حدائق الروح والريحان (٢٥/ ١٦٩).

(٤) الكشاف، الزمخشري (٤/ ١٤١).



أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥].

* **ثالثًا: الخطاب المدني بيّن أن الاستفهام الإنكاري** ذكر في حق الصحابة الكرام في غزوة أحد، ولكن بغرض النفي والتعجب من الحالة التي هم عليها حالة سماعهم خبر مقتل نبي الرحمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وبعد انتهاء المعركة ذكر في القرآن الكريم استفهامًا إنكاريًّا غرضه التعجب والتقرير، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

* **رابعًا: الخطاب الإنكاري بيّن أن الاستفهام الإنكاري** ذكر في الرد على كفار قريش، حينما بيَّنوا أن سبب عبادتهم للأصنام اتباع الآباء، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

* **وخلاصة ما سبق أن الاستفهام الإنكاري ذكر في العهدين: المكي، والمدني،** غير أن لكل عهدٍ ميزاته الخاصة به: من جهة المخاطبين، ومن جهة أغراض الاستفهام الإنكاري، ومن جهة طبيعة المعالجة.





الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكفر

يركز هذا المبحث على بيان مخاطبة أهل الكفر بأدوات الاستفهام الإنكاري، من خلال مخاطبة الكفار، سواء أكانوا من الأمم الغابرة، أو من مشركي العرب، أو من أهل الكتاب، أو من المنافقين.

وقد مثَّل هذا المبحث توضيحًا عمليًّا لذلك، من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الكفار من الأمم الغابرة

يركز هذا المطلب على بيان أثر الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الكفار من الأمم التي كانت في عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلى ما قبل بعثة النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث يتعرض هذا المطلب إلى مسألة استخدام الاستفهام الإنكاري، في الخطاب المباشر من قبل الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، أو من قبل الكفار من قومهم، أو من قبل المصلحين من الأقوام التي كذَّبت أنبياءها، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

* **أولًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله نوح** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيث ورد في ذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥ - ١١٣]، حيث إن نبي الله نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كذَّبه قومه، فكان تكذيبهم له بمثابة تكذيب رسالة الله تعالى،

ومن ثَمَّ رسل الله تعالى، فقال لهم بأداة الاستفهام الإنكاري: ألا تتقوا الله وتخافوا غضبه؟ فإني أمين فيما بينكم وبين الله تعالى، وقد ذكر بعض المفسرين أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يسمى «الأمين» قبل بعثته، وهكذا جميع الأنبياء، لا سيما خيرهم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث كان يسمى - قبل بعثته - «الصادق الأمين»[(١)]، وبعد أن أقام الدليل على صدق رسالته، وعظيم نصحه، وأمانته لهم عجزوا عن الرد عليه، فتذرَّعوا بحجةٍ واهية، لا تخرج إلا من ضعيف الحجة والبيان والعقيدة، فقالوا له باستفهام إنكاري: كيف نؤمن لك ونصدقك والحال أنه قد اتبعك الأقلون مالًا وجاهًا، من فقراء الناس وضعفائهم؟[(٢)] وغرض الاستفهام الإنكاري هنا هو النفي للمستقبل، بمعنى لا يكون، وإن سر الجمال البلاغي بمجيء الاستفهام الإنكاري بدل النفي المباشر هو أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابًا يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكير ورويَّةٍ عن هذه الأسئلة بالنفي، كان في توجيه السؤال إليه حمل له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداءً[(٣)]؛ إذ إنَّ هذا يتناسب مع طبيعة ردِّهم الذي ينمُّ عن عجز، رغم الافتراء المبيَّت من قِبَلِهم.

* **ثانيًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله هود** عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ورد ذلك في أكثر من ستة مواضع: ثلاثةٌ منها باستفهام إنكاريٍّ من قبل نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه الذين كفروا؛ حيث تدرَّج معهم بأساليب دعوية، وتوضيح ذلك: أن الله تعالى بيَّن

---

(١) ينظر: المستدرك على الصحيحين، الحاكم، كتاب الصوم، بسم الله الرحمن الرحيم أول مناسك الحج (١/ ٦٢٨) حديث رقم (١٦٨٣)، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح على شرطه»، وانظر: أخبار مكة، الأزرقي (١/ ١٦٤).

(٢) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب (٨/ ٥٣٢٨)، حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٢٠/ ٢٥٧).

(٣) ينظر: من بلاغة القرآن، أحمد البدوي (ص١٢٦).

أنَّ خطاب هذا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه كان ابتداءً بتحذيرهم مما هم عليه من التكذيب والكفر بآيات الله تعالى، فقال لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، حيث استفهم هذا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ من قومه الكافرين استفهامًا إنكاريًّا غرضه الاستبعاد والتقريع والتوبيخ لحالتهم التي هم عليها، وداعيًّا إياهم أن يحذروا عقاب الله تعالى، بما يشعر شدة خوف هذا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه، وشفقته بهم؛ حتى لا يصيروا إلى غضب الله تعالى[(١)]، وصحب لهم كثيرًا من آيات الله تعالى الكونية، وأخبار الأمم الغابرة، لا سيما قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كان هذا باستفهام إنكاري توبيخي آخر، من خلال قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩][(٢)]، وكان ردُّ قومه أن جادلوه في حجج واهية، فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، فإن هذا الاستفهام فيه إنكار واستبعادٌ لاختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء، الذي يتمثل في عبادة الأصنام، واتخاذهم شركاء مع الله تعالى في العبادة؛ لأنهم أحبوا ما نشأوا عليه، وألفوا تديُّن هؤلاء الآباء، فعندها تبجحوا مع نبيهم، وقالوا له: إن كنت من الصادقين في الإنذار من وعيد إلهك - الذي هو الله تعالى - فعجِّل لنا به[(٣)]، فعندها غضب نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ من قولهم، وخاطبهم مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا، بقوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١]، حيث إنَّ «هذا إنكار منه لمخاصمتهم له فيما لا ينبغي فيه الخصام، وهو ذكر ألفاظ ليس تحتها

(١) ينظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٩/ ٣٨٩).
(٢) ينظر: المرجع السابق نفسه (٩/ ٣٩٢).
(٣) ينظر: الكشاف، الزمخشري (٢/ ١١٧).

مدلول يستحق العبادة؛ فصارت المنازعة باطلة بذلك، ومعنى ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: سميتم بها أنتم وآباؤكم، أي: أحدثتموها قريبًا أنتم وآباؤكم»[1].

وقد ورد في سورة أخرى أنه أنكر عليهم بأداة الاستفهام؛ لغرض النفي والتوبيخ[2]، وذلك بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨]، كما ورد في سورة أخرى أن قوم هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكروا عليه بالنفي غير المباشر للاستبعاد والاستهزاء[3]، وذلك بقولهم عن وعده عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥].

* **ثالثًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله صالح** عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ورد ذلك في أكثر من أربعة مواضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك آيةٌ تتحدث عن استفهام إنكاريٍّ من قبل نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الشعراء: ١٤١ - ١٤٦]، حيث إن الأخوة المذكورة هنا، وفي كل موضعٍ في القرآن يبين أخوة كل من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مع قومه الكافرين إنما يقصد بها أخوة النسب لا أخوة الدين؛ حيث قال نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه - مشفقًا عليهم، خائفًا على مصيرهم، منكرًا عليهم ما هم فيه من الافتراء -: هلَّا اتقيتم عقاب الله تعالى، فاجتنبتم ما يغضبه؟ فإني مؤتمن على رسالة الله تعالى ووحيه ومنهجه؛ فإن علمتم ذلك فاتقوا الله وأطيعوا أمري، باتباع شرع الله تعالى؛ فإني لا أبتغي الأجر في هذه الحياة الدنيا منكم، فأجري على الله تعالى وحده، وأُنكِرُ

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٥/ ٨٩).
(٢) ينظر: المرجع السابق نفسه (٨/ ١٧٨).
(٣) ينظر: المرجع السابق نفسه (٧/ ٥٦٢).



عليكم كيف تتركون كذلك، ظانِّين الأمان من الله تعالى في هذه الحياة الدنيا[1].

فكان ردُّ قومه باطلًا بأساليب مختلفة ذكرتها آيات القرآن الكريم، من بينها الاستفهام الإنكاري بحقِّ النبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث يقول تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥]، وهو إنكار منهم لأن يتبعوا مثلهم في الجنس، وإنكار لأن تتبع الأمة رجلًا واحدًا، وإنكار لأن يُخَصَّ بالرسالة منفردًا من بين آل ثمود، والحال أن فيهم من هو أحسن جاهًا، وأكثر مالا[2].

* **رابعًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ورد ذلك في أكثر من ثلاثة مواضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤﴾ [الأنعام: ٧٤]، أي: واذكر يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه آزر مستفهمًا استفهامًا غرضه الإنكار: أتتخذ من دون الله تعالى أصنامًا ليست أهلًا للألوهية؟ وفي هذا الاستفهام الإنكاري تعريضٌ بسخافة العقول وسوء التفكير، ثم تدرَّج مع أبيه وقومه، بذكر أساليب دعوية، منها التأمل في الكون، ومحاولة التعرف إلى الله تعالى، فلمَّا أوصلهم إلى الطريق المستقيم لمعرفة الله تعالى، حاجَّه قومه، فقال لهم مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا غرضه التقريع: أتجادلونني وتغالبونني في إقامة الحجة على معرفة الله تعالى، والحال أن الله تعالى قد هداني؟ ولما توقفت عقولهم وعجزت حكاياتهم المختلفة عن التحدث، اجتهدوا في فعل المكائد لنبيهم؛ انتصارًا لأهوائهم[3].

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي (٤/ ١٤٦)، حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٢٠/ ٢٨٧).

(٢) ينظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٢٨/ ٢٢٠).

(٣) ينظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي (٥/ ١٠٨ - ١١٢).

ومن بين الأساليب التي استخدمها نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه أن كسَّر الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى، حينما كان القوم لاهين في أحد أفراحهم، ولما سألوه - بعد تحقيقاتهم - قالوا له: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٦]، فإن الاستفهام الإنكاري من قبل نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه كان استثمارًا لفرصة حيرة عقولهم، وتخبط عقيدتهم، ومراجعة سريعة لعبادتهم، فكان هذا الاستفهام الإنكاري في مكانه الطبيعي؛ لعلَّ قلوبهم تتيقَّظ لتوحيد الله تعالى.

❊ **خامسًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله لوط** عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ورد ذلك في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٤ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٦]، حيث أنكر نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه عدم خوفهم من لقاء الله تعالى، بعد اقترافهم الذنوب، وأنكر عليهم على وجه الخصوص نكاح الذكور من بني آدم في أدبارهم دون النساء، فهذه جريمة بشعة ما سبقهم بها من العالمين(١)، وقد ورد في آية أخرى فسرت ما سبق أن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكر عليهم إتيان الرجال شهوة من دون النساء والتبجح بالمعصية بالمجاهرة بها، وقطع السبيل، فقال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ

---

(١) ينظر: جامع البيان، الطبري (١٩/ ٣٨٨).

قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٩]، حيث إن نبي الله تعالى «أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك»[١].

* **سادسًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله شعيب** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حيث ورد ذلك في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، فإن نبي الله شعيبًا أُرسِل إلى مدين الذين هم أصحاب الأيكة[٢]، فأنكر عليهم – بأسلوب الاستفهام – ما هم عليه من التطفيف في الميزان كيف لا يتقون الله تعالى بالخوف من عقابه، وحينما أخبره القوم أنه لولا عشيرته لرجموه أنكر عليهم خوفهم وحسابهم لعشيرته؛ إذ الأصل أن يخافوا من الله تعالى وحده، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: ٩٢]، «فاستنكر ذلك عليهم وتعجّب منه وألزمهم مما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، وفي هذا من قوة المحاجّة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى»[٣].

* **سابعًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله إلياس** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حيث ورد ذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦/ ٢٧٦).

(٢) ينظر: المرجع السابق نفسه (٦/ ١٥٨).

(٣) فتح البيان، القنوجي (٦/ ٢٣٦).

في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٢٦]، حيث إن نبي الله إلياس عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكر على قومه عدم تقوى الله تعالى والخوف من عقابه، فلمَّا كان الإنكار سببًا للإصغاء من قومه كرره مفصحًا بسببه بقوله: أتدعون صنمًا على أنه إله من دون الله تعالى الذي هو رب العالمين؟[١]

*** ثامنًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ،** حيث ورد ذلك في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى: فتارة يكون الإنكار من الله تعالى، وتارة يكون من فرعون، وتارة يكون من مؤمن آل فرعون، فأما ما ورد في كتاب الله تعالى من الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى عن فرعون وقومه، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: ١٠، ١١]، أي: واذكر يا محمد حين نادى ربُّك جَلَّ جَلَالُهُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلًا: اذهب إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم قوم فرعون، ثم استفهم الله تعالى استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا، بقوله: ألا يخافون عقابي؟[٢]

وأما ما ورد من الاستفهام الإنكاري من جهة فرعون، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩]، حيث إن فرعون ردَّ على دعوة موسى وأخيه هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ له إلى الله تعالى، باستفهام إنكاري توبيخي، وذلك بقوله: ألم نربِّك في حجرنا ومنازلنا طفلًا، ومكثت على ذلك سنين؟ ومع ذلك قتلت

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٦/ ٢٨٤).
(٢) ينظر: فتح البيان، القنوجي (٩/ ٣٦٥، ٣٦٦).

القبطي والحال أنك من الكافرين نعمتي[(١)]، وقد توالت الاستفهامات الإنكارية في حوار فرعون مع موسى، وتعالت تهديدات فرعون حتى وصل به الأمر إلى العجز، فاستدعى السحرة، ورغَّبهم بالقرب منه إن انتصروا عليه، فإذا بالسحرة يسجدون لله تعالى، ثم قال فرعون للسحرة الذين آمنوا برب العالمين - بعدما رأوا البينات -: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء: ٤٩]، و«أصل الفعل (آمن) دخلت عليه همزة التعدية، ثم دخلت عليها همزة الاستفهام الإنكاري، فاجتمع ثلاث همزات: مفتوحتان وساكنة، فأجمعوا على إبدال الثالثة الساكنة ألفًا، واختلفوا في الأولى والثانية: أما الأولى فأسقطها حفص[(٢)]، وعليه فيجوز أن يكون الكلام خبرًا في المعنى، وأن يكون استفهامًا حذفت همزته، استغناء بقرينة الحال، وأبدلها قنبل[(٣)] في الوصل واوًا مفتوحة»[(٤)]، وهذا الإنكار من فرعون؛ لأجل التوبيخ الذي يحمل تهديدًا وتقريعًا[(٥)].

فلما قرّر قوم فرعون أن يقتلوا نبي الله تعالى موسى وأخاه هارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود (٦/ ٢٣٨).

(٢) هو أبو عمر حفص بن سليمان الكوفي، صاحب القارئ الكبير عاصم، وتلميذه، وأحد راوييه، وابن زوجته، ولد سنة تسعين من الهجرة، ومات سنة ثمانين ومائة من الهجرة، وروى الحديث عن: علقمة بن مرثد، وثابت البناني، وأبي إسحاق السبيعي، وروى عنه: بكر بن بكار، وآدم بن أبي إياس، وأحمد بن عبده، وهشام بن عمار. (ينظر: معرفة القراء الكبار، الذهبي (ص٨٤)).

(٣) هو أبو عمرو: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خالد المخزومي، مولاهم المكي، ولد سنة خمس وتسعين ومائة من الهجرة، وجوَّد القراءة على أبي الحسن القواس، وأخذ القراءة عن البزي أيضًا، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالحجاز، قرأ عليه خلق كثير، منهم أبو بكر بن مجاهد، وأبو الحسن بن شنبوذ، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين من الهجرة. (طبقات القراء الكبار، الذهبي (ص١٣٤)).

(٤) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة (٧/ ٦١٣).

(٥) ينظر: التفسير المظهري، المظهري (٧/ ٦٧).

ومن آمن معهما، إذ بمؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه يصيح بالقوم قائلًا: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨]، حيث يستفهم مؤمن آل فرعون استفهامًا إنكاريًّا، بقوله: كيف تقتلون رجلًا لأجل أنه قال ربي الله تعالى؟ والحال أنه قد جاء بالدلالات الواضحات، ونحن لا يضيرنا إن كان يكذب؛ لأنه عليه وبال كذبه، ولكن المشكلة إذا كان صادقًا، فإنه قد يصيب القومَ بعضٌ مما ذكره من الوعيد والعذاب(١)، ثم تدرج مؤمن آل فرعون، ببيان الاستدلالات العقلية والحسية الدالة على وجود الله تعالى وقدرته، وضرورة عبادته، ويستفهم استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا آخر(٢)، بقوله: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر: ٤١]، وقيل الاستفهام هنا يفيد التعجب(٣)، والنص حمَّال للغرضين.

*** تاسعًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب مجموعة من الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لأقوامهم**، حيث قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠]، «والاستفهام فيه للإنكار المضمن للتوبيخ والتقريع؛ أي: أفي وحدانيته سبحانه شك؟ وهي في غاية الوضوح والجلاء، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الأدلة الموصلة إلى ذلك، ومن ثَمَّ ذكرت الرسل بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة

---

(١) ينظر: تفسير القرآن، السمعاني (٥/ ١٦).
(٢) ينظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٢٥/ ٢٠٧).
(٣) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة (٣/ ٩٦).

على عدم الشك في وجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ووحدانيته»[(١)].

*** عاشرًا: الاستفهام الإنكاري في قصة مؤمن آل ياسين رحمه الله تعالى،** حيث ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣﴾ [يس: ٢٠ - ٢٣]، حيث إن هذا المؤمن الذي غار على دين الله تعالى، حينما وجد القوم قد كذَّبوا المرسلين وكفروا بالله تعالى، فسلك طريق الدعوة إلى الله تعالى؛ إذ لا تنفع السلبية التي تقتضي السرية في العبادة الفردية لله تعالى، فقال: يا قوم اتبعوا نهج المرسلين في الإيمان بالله تعالى، والتزام الصراط المستقيم، ودليل صدق هؤلاء الأنبياء أنهم لا يسألون أجرًا وأنهم قدوة في الهداية. ثم استفهم استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا غير مباشر، فقال: وما الذي يجعلني أعبد غير الله تعالى والحال أنكم جميعًا إليه مصيركم وعاقبتكم؟ فإنه يوبخهم من خلال ذكر المنقصة في ياء المتكلم؛ لما في ذلك من تلطف في الدعوة وعدم التنفير[(٢)].

ونخلص إلى أن القرآن الكريم قد ذكر الاستفهام الإنكاري في حق الكفار سابقي عهد النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، من خلال خطاب الله تعالى عنهم تارة، كما في خطابه عن قوم فرعون، ومن خلال خطاب الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ عنهم تارة كما في قصة الأنبياء نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط عليهم الصلاة والسلام، ومن خلال خطاب الكفار المكذبين المفترين على رسلهم، كما كان من القصص السابقة كلها، ومن خلال خطاب المؤمنين الغيورين على الله تعالى ورسله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، كمؤمن

---

(١) حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (١٤/ ٣٣٨).

(٢) ينظر: من بلاغة القرآن، محمد ونعمان علوان (ص٤٥).

آل فرعون ومؤمن آل ياسين، وقد تبين من خلال جميع ما ذكر في هذا المطلب أن الاستفهام الإنكاري يكون – غالبًا – توبيخيًّا تقريعيًّا مباشرةً، إذا كان من الله تعالى ومن ثَمَّ من قبل رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والمؤمنين موجَّهًا في حق الكافرين، ويمكن أن يكون للتعجب كمؤمن آل فرعون، والاستفهام الإنكاري يكون توبيخيًّا تقريعيًّا غير مباشر إذا كان يتعلق بالتلطف مع المكذبين، كمؤمن آل ياسين.





المطلب الثاني

﴿ الاستفهام الإنكاري في مخاطبة مشركي العرب ﴾

يركز هذا المطلب على بيان آيات - مما ورد في القرآن الكريم - ذكرت الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الله تعالى لمشركي العرب، بالأنواع الثلاثة، وهي:

*** أولًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى المباشر لمشركي العرب،** وقد ورد ذلك في أكثر من ست عشرة آية، معظمها مكي، وبعضها مدني.

ومن أمثلة الخطاب المباشر من الله تعالى، قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٤، ١٨٥]، فإن هذا الاستفهام الإنكاري التوبيخي التعجبي من حال المكذبين المعرضين[(١)] غرضه دعوة المشركين إلى الرجوع إلى الفطرة السليمة، وهي التفكير المتجرد من أي غبش أو تأثير على العقل الصحيح المنسجم مع الفطرة السليمة، حيث يقول تعالى: «أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولَنا الذي أرسلناه إليهم، لا جنَّة به ولا خَبَل، وأن الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدين القويم، والحق المبين؟»[(٢)]، أولم ينظروا ويتدبروا ويعتبروا في ملك الله تعالى في جميع ما في السماوات والأرض؟ وفي خلق الله تعالى مما علمنا وما لم نعلم وضرورة العمل لما بعد الموت؟ فيأتي الاستفهام الإنكاري في هاتين الآيتين ثلاث مرات؛ ليختتمهما بأنه بعد كل الآيات الكونية والمتلوة بماذا سيؤمن المكذبون الجاحدون.

(١) ينظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (١٠/ ٢٤٩).
(٢) جامع البيان، الطبري (١٣/ ٢٨٩).

ومن أمثلة ذلك - أيضًا - قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾ [التوبة: ٧، ٨]، فإن هذا الاستفهام إنكاري تعجبي، فيه إنكار على من يظن أن لهؤلاء المشركين عهدًا عند الله تعالى وعند رسوله، إلا من عاهده المؤمنون، ثم كرر الاستفهام الإنكاري التعجبي الاستبعادي، بتأكيد أن المشركين إن ينتصروا عليكم لا يرحموكم ولا يحترموا عهدًا معكم، ولذلك فإن الالتزام بالعهد مع المشركين يحتاج إلى استقامة منهم، وتكون استقامة متبادلة من المؤمنين، ولكن المشركين لم يستقيموا في العهد، فأعانوا حليفهم وهو بنو بكر، على حليف الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وهم خزاعة؛ ولذا فإن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ خصّص لحليفه الأخذ بالثأر حتى العصر من يوم فتح مكة[(١)].

وقد أنكر الله تعالى على كفار قريش أنهم ذكروا أنهم عند الله تعالى أفضل من النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ؛ لأنهم يشرفون على خدمة الحجاج وعمارة المسجد الحرام، فقال تعالى: ﴿۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [التوبة: ١٩]، فعن النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنه قال: كنت عند منبر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم،

---

(١) ينظر: الكشف والبيان، الثعلبي (٥/ ١٤)، مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا (١١/ ٢٦٤)، قال شعيب الأرنؤوط في المرجع نفسه: إسناده حسن.

فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الآية[1].

وأنكر الله تعالى على مشركي العرب مقولتهم: إن لهم البنين ولله البنات، فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠]، حيث جوّزوا أن يكون لله تعالى ولد، وفكّروا في ذلك، ثم لم يرضوا حتى جعلوا له ما كرهوه لأنفسهم، فما زادوا في تمرّدهم إلا عتوّا، وفي طغيانهم إلا غلوّا، وعن قبول الحقّ إلا نفورًا[2].

وتوعَّد الله تعالى مشركي العرب وغيرهم، بالاستفهام الإنكاري التقريعي، حينما سألوا عن موعد العقاب[3]، بقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الصافات: ١٧٦].

وأنكر الله تعالى عليهم عبادتهم للأصنام، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]، أي: إذا قيل لهؤلاء الذين حرَّموا من الحرث والأنعام أشياء: اتبعوا طريق شرع الله تعالى في التحليل والتحريم، كان ردّهم: إنَّ هذا هو ما وجدنا آباءنا عليه، فقال الله تعالى مُنكرًا عليهم: أيتبعون آباءهم وإنْ كانوا جهّالا[4]؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى (٣/ ١٤٩٩)، حديث رقم (١٨٧٩).

(٢) ينظر: لطائف الإشارات، القشيري (٢/ ٣٤٩).

(٣) ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي (ص٩١٧).

(٤) ينظر: المرجع السابق نفسه (ص١٤٠).

❁ ثانيًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى غير المباشر لمشركي العرب، وقد ورد ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦ ﴾ [الرعد: ١٦]، حيث يأمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يقول للمشركين من هو رب السماوات ورب الأرض، وأن يجيبهم بقوله: هو الله، وإن إعادة فعل الأمر بالقول في ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ الذي هو تفريع على الإقرار بأن الله رب السماوات والأرض؛ لقصد الاهتمام بذلك التفريع؛ لما فيه من الحجة الواضحة، فالاستفهام تقرير من جهة، وإنكار توبيخي وتسفيهي لرأيهم بناء على الإقرار المسلم من جهة أخرى، وفيه استدلال آخر على عدم أهلية أصنامهم للإلهية؛ فإن اتخاذهم أولياء من دونه معلوم لا يحتاج إلى الاستفهام عنه[(١)].

وقد أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يستفهم استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا تقريعيًّا استبعاديًّا في خطاب لمشركي العرب، وذلك بقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ ﴾ [الزُّمَر: ٦٤]، أي: بعد مشاهدة الآيات الدالة على انفراده وتوحيده أن أعبد غير الله[(٢)]؟

❁ ثالثًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب المشركين أنفسهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠ ﴾ [السجدة: ١٠]، أي: قال المشركون مستفهمين استفهامًا إنكاريًّا تكذيبيًّا: هل إذا غبنا فيها سواء أكان ذلك بالدفن أو بتفرق الأجزاء وتلاشيها داخل الأرض وتحللت

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٣/ ١١٣).
(٢) ينظر: فتح البيان، القنوجي (١٢/ ١٤٠).



جئتنا هل سنعود خلقًا جديدًا[1]؟ وقد وردت آية أخرى في نفس السياق، وهي قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾ [النازعات: ١٠].

ملاحظة:

يلاحظ على الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى أنه يكون توبيخيًّا تقريعيًّا تعجبيًّا، أما الاستفهام الإنكاري في خطاب المشركين، فإنه يكون تكذيبيًّا استبعاديًّا نافيًا، والله أعلم.



(١) ينظر: غرائب القرآن، النيسابوري (٥/ ٤٣٦).

المطلب الثالث

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكتاب

يركز هذا المطلب على بيان آيات مما وردت في القرآن الكريم ذكرت الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكتاب، بالأنواع الخمسة، وهي:

* **أولًا: الاستفهام الإنكاري التعجبي في خطاب نبي الله موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه من بني إسرائيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٦١]، حيث أنكر على قومه استبدال الحلوى اللذيذة التي تشبه العسل وطير السمان بالبقل والخيار والفقوس والبصل ونحوه، حيث استبدلوا ما هو أخس بما هو أعظم(١).

* **ثانيًا: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة بني إسرائيل لداود** عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧]، حيث استفهم بنو إسرائيل استفهامًا إنكاريًّا يمتلئ تعنتًا: من أين يستحق أن يكون ملكًا علينا، والحال أننا أكثر منه مالًا ونحن أولى بهذا الملك(٢)؟

---

(١) ينظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي (ص١٣).

(٢) ينظر: البحر المديد، ابن عجيبة (١/ ٢٤٧).

*** ثالثًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى المباشر لأهل الكتاب في عهد النبي محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥]، أي: أتفعلون بعض الواجبات، وهو المفاداة وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فلم تتركوا المحرم، وهو القتال والإخراج والمعاونة؛ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ، وهو ذمّ عظيم وتحقير بالغ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا؛ فكان خزي قريظة القتل والسبي، وقد قتل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم سبعمائة في يوم واحد، وخزي بني النضير بالإجلاء إلى أذرعات وأريحا[(١)].

وقد أنكر الله تعالى على أهل الكتاب أمرهم الناس بالخير والإيمان، وينسون أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، حيث إن الله تعالى يستفهم استفهامًا إنكاريًّا تقريعيًّا توبيخيًّا: أتأمرون من خلال التوجيه والإرشاد الناس الذين يستفسرون منكم من الأتباع والمقلدين بجميع وجوه الخير والطاعات، والحال أنكم تنسون أنفسكم بحرمانها من هذا الخير، والمشكلة أنكم تتلون كتاب الله تعالى، أفلا تعقلون ما تفعلون[(٢)]؟!

وأنكر الله تعالى على الكفرة من أهل الكتاب بسبب عدم رجوعهم إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ

---

(١) ينظر: مراح لبيد، محمد التناري بلدا (١/ ٣١)، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير (٥/ ٨٨)، حديث رقم (٤٠٢٨).

(٢) ينظر: الجواهر الحسان، الثعالبي (١/ ٢٢٨).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾ [المائدة: ٧٤]، أي: «أفلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ بالتوحيد والتنزيه عمّا نسبوه إليه من الاتحاد والحلول، فيرجعوا عن التمسك بالمتشابهات إلى القطعيات؟! فالاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده، فيه تعجب من إصرارهم، ومدار الإنكار والتعجب عدم الانتهاء والتوبة معًا»[١].

رابعًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى غير المباشر بواسطة النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ [البقرة: ٨٠]، حيث إن الله تعالى يأمر النبي محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يقول لأهل الكتاب مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا تكذيبيًّا: هل اتخذتم عند الله تعالى ميثاقًا على ادِّعائكم هذا القاضي بأنكم ستمسكم النار أيامًا قليلة بعدد؟! فإن كان عندكم عهد فلن يخلف الله عهده، أم أن الحق هو قولكم على الله بغير علم[٢]؟

وأمر الله تعالى نبيه محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يقول لأهل الكتاب الذين قالوا إننا نؤمن بما أنزل علينا: «إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله عليكم، فلماذا قتلتم أنبياء الله مِن قبل»[٣]؟! وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾ [البقرة: ٩١].

وأمر الله تعالى نبيه محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يقول لأهل الكتاب الذين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا تكذيبيًّا توبيخيًّا: «فَلأيِّ شيء يعذِّبكم بذنوبكم؟ فلو كنتم أحبابه ما عذّبكم؛ فالله لا يحب إلا من أطاعه، وقل

(١) محاسن التأويل، القاسمي (٤/ ٢١٤).

(٢) ينظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير (ص١٢).

(٣) المرجع السابق نفسه (ص١٤).

لهم: بل أنتم خلقٌ مثلُ سائر بني آدم، إن أحسنتُم جوزيتم بإحسانكم خيرًا، وإن أسَأْتُم جوزيتم بإساءتكم شرًّا، فالله يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، وهو مالك المُلك، يُصَرِّفه كما يشاء، وإليه المرجع، فيحكم بين عباده، ويجازي كلًّا بما يستحق»[١].

* **خامسًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب أهل الكتاب بعضهم لبعض**، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٧٦]، فقد كان بعضهم يعترف للمسلمين أن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول من عند الله تعالى للعرب فقط، فاستفهم أحبارهم استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا في مراجعاتهم الداخلية؛ لأن هذا الاعتراف على كل حال محرج لهم[٢].



(١) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير (ص١١١).

(٢) ينظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة (٦/ ١٨٣).

المطلب الرابع

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة المنافقين

يركز هذا المطلب على بيان آيات مما ورد في القرآن الكريم ذكرت الاستفهام الإنكاري في مخاطبة المنافقين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، حيث استفهم الله تعالى منكرًا على هؤلاء المنافقين وأشباههم عدم تدبرهم للقرآن، وحضهم على تأمل حكمه وأحكامه وهداياته فقال: هلَّا تدبَّروا القرآن الكريم بفهم حروفه وتطبيق حدوده وأحكامه؟ فلو كان هذا القرآن من عند أي مخلوق دون الله تعالى لوقع فيه التحريف والخلل والخطأ، ولما استحق هذا التكريم[1].

وأنكرت آية أخرى على المنافقين بأداة الاستفهام عدم تدبرهم كتاب الله تعالى، وأن على قلوبهم أقفالًا، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، «فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبيَّن أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن»[2].

وأمر الله تعالى نبيه محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول للمنافقين الذين يستهزئون بدين الله تعالى مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا غرضه التوبيخ والتقريع، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥]، «فأي ضلال أشدّ من هذا؟! وأي كفر وجحود أشد؟! والاستفهام هنا للاستنكار، إنكار الواقع أي التوبيخ على ما فعلوا»[3].

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي (٣/ ٢٣٤).

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي (٧/ ٢٥٦).

(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة (٦/ ٣٣٦٠).



المبحث الثالث



الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الإيمان

يركز هذا المبحث على ذكر الاستفهام الإنكاري وأغراضه في الآيات الواردة في مخاطبة الله تعالى للملائكة، وفي مخاطبة الله تعالى للأنبياء، وفي مخاطبة الله تعالى للمؤمنين.

وقد مثَّل هذا المبحث توضيحًا عمليًّا لذلك، من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الملائكة

ويقصد بهذا الاستفهام الإنكاري ما غرضه النفي؛ حيث يستفهم الله تعالى منهم استفهامًا لا يريد منه استعلامًا ولا جوابًا، وإنما ينفي ما جال في خاطرهم مما قصدوه من التعظيم له جَلَّجَلَالُهُ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: ٣٣]، حيث إن الله تعالى علَّم أبانا آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أسماء الخلق كلهم، ثم حشر الدواب كلها، والسباع والطير، وما خلق في الأرض، ثم قال للملائكة: أخبروني بأسماء هؤلاء إن تدَّعون الصدق في أقوالكم وأفعالكم وأحوالكم. ولا شكَّ أن هذا الأسلوب الشرطي فيه إلهاب وتهييج؛ لأنهم صادقون بطبيعتهم، فعندها نزَّهوا الله تعالى عن كل نقص، وأخبروا الله تعالى بعجزهم عن الجواب؛ فلمَّا طلب من أبينا آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هذا الطلب أجابه، فاستفهم الله تعالى من الملائكة استفهامًا إنكاريًّا؛ لغرض النفي، بقوله: ألم أقل لكم إني أعلم منكم

بالخلق؟ وأن الذي خفي عليكم من الحكمة وما ظهر فأنا أعلم به منكم[(١)].

وقد وردت آية أخرى في سياق الحديث عن الملائكة، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٤٠﴾ [سبأ: ٤٠]، حيث بيَّنت الاستفهام الإنكاري الذي يقصد به التقريع للمشركين والتوبيخ لهم، وذلك بالقول: أهؤلاء كانوا يعبدونكم في الحياة الدنيا من دون الله تعالى[(٢)]؟



(١) ينظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين (١/ ١٣٢).
(٢) ينظر: المختصر في التفسير، مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص٤٣٣).

المطلب الثاني

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الأنبياء والمرسلين

ويقصد بالاستفهام الإنكاري في مخاطبة الأنبياء والمرسلين ما كان من الله تعالى في مخاطبتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فإن نبي الله تعالى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طلب من الله تعالى أن يريه بالعين الباصرة كيف يتم إحياء الموتى، فاستفهم الله تعالى منه استفهامًا إنكاريًّا تعجبيًّا بقوله: ألستَ آمنتَ بذلك؟! فأجابه: بلى، ولكني أريد أن يطمئن قلبي منتقلًا من علم اليقين إلى عينه وحقيقته، أي: بالمعاينة بعد الإيمان بالغيب[(١)].

وقد وردت آية أخرى بيَّنت الاستفهام الإنكاري من قِبَل الله تعالى في خطابه لأبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **وزوجته**، حينما أكلا من الشجرة التي نُهيا عنها، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢]، أي: فحطَّهما عن درجتهما ساعة وقوع المعصية؛ حيث جرَّأهما على الأكل، فلمَّا ذاقا من ثمر الشجرة بدأت تتساقط الثياب عن الجسم، وانكشفت العورة، وجعلا يرقعان الورق بعضه على بعض، وفي هذه الأثناء ناداهما الله تعالى مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا تقريعيًّا توبيخيًّا بقوله: ألم أنهكما عن الاقتراب من تلك الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو واضح العداوة[(٢)]؟

---

(١) ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي (ص١٨٦)، تفسير الراغب الأصفهاني (ص٥٤٦).
(٢) ينظر: إيجاز البيان، أبو القاسم النيسابوري (١/ ٣٢٥).

المطلب الثالث

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة المؤمنين

ويقصد بالاستفهام الإنكاري في مخاطبة المؤمنين ما كان من الله تعالى بالخطاب المباشر أو غير المباشر، ويكون غرضه التقريع، والتعجب، والنفي؛ ومن أمثلة الاستفهام الإنكاري التقريعي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: ٣٨]، حيث ينادي الله تعالى المؤمنين من أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا تقريعيًّا يحمل عتابًا، بقوله: أيُّ شيء يمنعكم عن الجهاد في سبيل الله تعالى، ويجعلكم تتثاقلون عنه، ولا تنهضون من أرضكم؟ أم أنكم رضيتم بخفض العيش وزهرة الحياة الدنيا ودعتها ونعيمها بدلًا من الآخرة؟، فإن كنتم كذلك، فاعلموا أن المتاع في الحياة الدنيا في مقياس الآخرة حقير[١].

وقد وردت آية أخرى في سياق الاستفهام الإنكاري التقريعي في خطاب المؤمنين المصابين من غزوة أحد، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: ١٦٥]، أي: «أحين أصابكم من المشركين نصفُ ما قد أصابهم منكم قبل ذلك جزِعتم، وقلتم: من أين أصابنا هذا؟ وقد تقدم الوعدُ بالنصر على توجيه الإنكارِ والتقريعِ إلى صدور ذلك القولِ عنهم في ذلك الوقتِ خاصة، بناءً على عدم كونِه مَظِنَةً له داعيًا إليه، بل على كونه داعيًا إلى عدمه؛ فإنَّ كونَ مصيبةِ عدوِّهم ضِعْفَ مصيبتِهم، مما يُهوِّن الخطْبَ ويورث السَّلْوَةَ، أو أفعلتم ما فعلتم

---

(١) ينظر: فتح البيان، القنوجي (٥/ ٣٠١، ٣٠٢).

ولمَّا أصابتكم غائلته أنى هذا؟ على توجيه الإنكارِ إلى استبعادهم الحادثةَ مع مباشرتهم لسببها»[١].

ومن أمثلة **الاستفهام الإنكاري التعجبي النافي** قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢]، أي: قل يا أيها الرسول مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا عليهم: من الذي حرَّم زينة الله التي أخرجها لعباده، من اللباس والطيبات المستلذَّات من الرزق؟! قل هي لعموم المؤمنين في الحياة الدنيا بالاستحقاق، وإن شاركهم فيها غيرهم خاصة بهم يوم القيامة، كذلك نُبيِّن الآيات ومثل ذلك التفصيل لقوم يتدبرون؛ فإنهم المنتفعون بها[٢].



(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود (٢/ ١٠٩).

(٢) ينظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي (ص١٩٧).

الخاتمة

الحمد لله الذي بفضله ونعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من خلال هذه الدراسة في البحث المسمى (الاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم) ظهرت أهم النتائج والتوصيات، وذلك فيما يأتي:

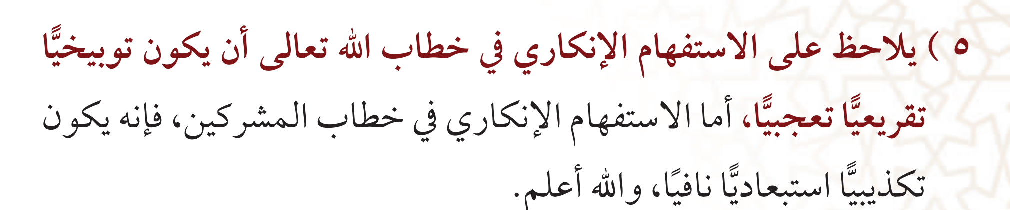
أولًا: أهم النتائج:

١) **مصطلح الاستفهام الإنكاري** يُعرَف من خلال المعرفة الشاملة التأصيلية لعلم بلاغة القرآن الكريم، لا سيما علم المعاني.

٢) **لم تفِ كتب علوم القرآن المشهورة بتفاصيل هذا العلم من ناحيتيه: النظرية، والتطبيقية**، وكذلك لم يكن موضوع الاستفهام الإنكاري مذكورًا بالحد الكافي في كتب اللغة العربية، من جهة الدراسة القرآنية الشرعية.

٣) **الاستفهام الإنكاري ذُكِر في العهدين: المكي، والمدني**، غير أن لكل عهدٍ ميزاته الخاصة به، من جهة المخاطَبين، ومن جهة أغراض الاستفهام الإنكاري، ومن جهة طبيعة المعالجة.

٤) **الاستفهام الإنكاري يكون - غالبًا - توبيخيًّا تقريعيًّا مباشرةً، إذا كان من الله تعالى**؛ ومن ثَمَّ من قِبَل رسله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ والمؤمنين موجَّهًا في حق الكافرين، ويمكن أن يكون للتعجب كمؤمن آل فرعون، والاستفهام الإنكاري يكون توبيخيًّا تقريعيًّا غير مباشر إذا كان يتعلق بالتلطف مع المكذبين، كمؤمن آل ياسين.



٥) **يلاحظ على الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى أن يكون توبيخيًّا تقريعيًّا تعجبيًّا**، أما الاستفهام الإنكاري في خطاب المشركين، فإنه يكون تكذيبيًّا استبعاديًّا نافيًا، والله أعلم.

٦) **الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكفر من الأمم السابقة** أخذ مساحة أكبر من أهل الكفر جميعًا في عهد النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما في ذلك من تأثير في نفوس قوم قريش وأهل الكتاب والمنافقين، أن الله تعالى أنكر على الباطل في كل الأمم السابقة، ولم يقتصر ذلك عليهم.

٧) **الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الإيمان** تمثل في خطاب مباشر أو غير مباشر من قبل الله تعالى للمؤمنين من الملائكة والنبيين والمرسلين والمؤمنين.

ثانيًا: أهم التوصيات:

١) **الوصية لجميع المعنيين أن يقوموا بدورهم في التدبر في القرآن الكريم،** والتفتيش عن أسراره التي تغرس في قلب المسلم حب القرآن الكريم وملازمته.

٢) **الأمل من الباحثين أن يعطوا علم البلاغة في القرآن الكريم أهمية،** وألَّا يقتصر هذا الدور على أهل العربية، فإن عدد الباحثين سيكون إذن قليلًا.

٣) **رسالة إلى عمادات البحث العلمي في الجامعات،** وكذلك مراكز الأبحاث والدراسات القرآنية والشرعية، أن يجتهدوا في إنشاء موسوعات لها علاقة بعلوم دقيقة، كالاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم.





المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. «الإتقان في علوم القرآن». السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: ٩١١هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. (د. ط). الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

٢. «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار». الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المكي (المتوفى: ٢٥٠هـ). تحقيق: رشدي الصالح ملحس. (د. ط). بيروت: دار الأندلس للنشر، (د. ت).

٣. «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم». العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ). (د. ط). بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٤. «أسرار البلاغة». عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الفارسي الأصل الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ). قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر. (د. ط). القاهرة: مطبعة المدني، جدة: دار المدني، (د. ت).

٥. «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن». الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (المتوفى: ١٣٩٣هـ). (د. ط). بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.



٦. «**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**». البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: ٦٨٥هـ). تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط: ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

٧. «**إيجاز البيان عن معاني القرآن**». النيسابوري، نجم الدين أبو القاسم محمود بن أبي الحسن بن الحسين (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ). تحقيق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي. ط: ١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤١٥هـ.

٨. «**الإيضاح في علوم البلاغة**». الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي القزويني الشافعي (المتوفى: ٧٣٩هـ). تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط: ٣، بيروت: دار الجيل، (د. ت).

٩. «**بحر العلوم**». السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (المتوفى: ٣٧٣هـ). (د. ط) (د. ن) (د. ت).

١٠. «**البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**». ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ). تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي، (د. ط) القاهرة: (د. ن)، ١٤١٩هـ.

١١. «**البحر المحيط في التفسير**». أبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (المتوفى: ٧٤٥هـ). تحقيق: صدقي محمد جميل، (د. ط)، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

١٢. «**البرهان في علوم القرآن**». الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (المتوفى: ٧٩٤هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: ١، بيروت: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه

(ثم صوَّرته دار المعرفة وبنفس ترقيم الصفحات)، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

١٣. «**البلاغة العربية**». حَبَنَّكَة الميداني، عبد الرحمن بن حسن الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ). ط: ١، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٤. «**البلاغة ٢ المعاني**». جامعة المدينة العالمية، كود المادة: LARB4103، المرحلة: بكالوريوس، (د. ط) (د. ت).

١٥. «**تاج العروس من جواهر القاموس**». الزَّبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الملقّب بمرتضى (المتوفى: ١٢٠٥هـ). تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د. ط) (د. ت).

١٦. «**التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**». الطاهر ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ). (د. ط)، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.

١٧. «**التعريفات**». الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٨. «**التعريفات الفقهية**». البركتي، محمد عميم الإحسان المجددي، ط: ١، دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٩. «**التَّفْسِيرُ البَسِيْط**». الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ). تحقيق: أصل تحقيقه في



(١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، ط: ١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: عمادة البحث العلمي، ١٤٣٠ هـ.

٢٠. «تفسير الجلالين» المحلِّي، جلال الدين محمد بن أحمد (المتوفى: ٨٦٤هـ)، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: ٩١١هـ). ط: ١، القاهرة: دار الحديث، (د. ت).

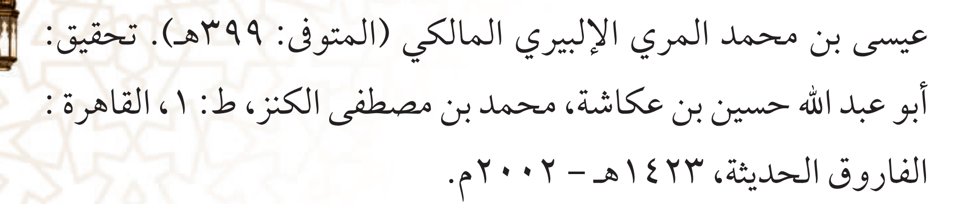
٢١. «تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن». الهرري، الشيخ العلّامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي. إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، ط: ١، بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٢. «التفسير الحديث» [مرتّب حسب ترتيب النزول]. دروزة، محمد عزت، (د. ط)، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٣هـ.

٢٣. «تفسير الراغب الأصفهاني». الراغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: ٥٠٢هـ). جزء ١: المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة. تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، ط: ١، جامعة طنطا: كلية الآداب، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

٢٤. «تفسير القرآن». السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ). تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط: ١، الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٥. «تفسير القرآن العزيز». ابن أبي زَمَنِين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن



عيسى بن محمد المري الإلبيري المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ). تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، ط: ١، القاهرة: الفاروق الحديثة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢٦. «**تفسير القرآن العظيم**». ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط: ٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٧. «**التفسير المظهري**». المظهري، محمد ثناء الله. تحقيق: غلام نبي التونسي، (د. ط)، الباكستان: مكتبة الرشدية، ١٤١٢هـ.

٢٨. «**التفسير الميسَّر**». نخبة من أساتذة التفسير، ط: ٢، مزيدة ومنقحة، السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٢٩. «**التفسير الوسيط للقرآن الكريم**». محمد سيد طنطاوي. ط: ١، الفجالة - القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د. ت).

٣٠. «**التوقيف على مهمات التعاريف**». عبد الرؤوف المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ). ط: ١، القاهرة: عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣١. «**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**». السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (المتوفى: ١٣٧٦هـ). تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط: ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.



٣٢. «**جامع البيان عن تأويل القرآن**». الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر (المتوفى: ٣١٠هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

٣٣. «**الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**». القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: ٢، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

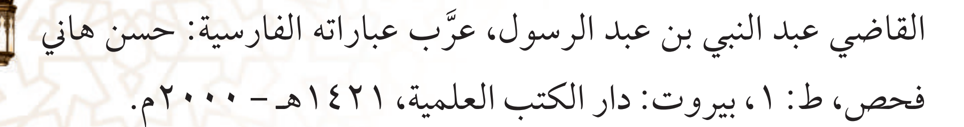
٣٤. «**الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)**». البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط: ١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

٣٥. «**الجواهر الحسان في تفسير القرآن**». الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (المتوفى: ٨٧٥هـ). تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط: ١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

٣٦. «**دراسات في البلاغة العربية (من بلاغة القرآن المعاني البيان البديع)**»، الدكتور محمد شعبان علوان، والدكتور نعمان شعبان علوان، ط: ٢، الدار العربية للنشر والتوزيع، (د. ت).

٣٧. «**دراسات لأسلوب القرآن الكريم**». عضيمة، محمد عبد الخالق (ت ١٤٠٤ هـ)، تصدير: محمود محمد شاكر، (د. ط)، القاهرة: دار الحديث، (د. ت).

٣٨. «**دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)**». الأحمد نكري،



القاضي عبد النبي بن عبد الرسول، عرَّب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٣٩. «زاد المسير في علم التفسير». أبو الفرج الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ). تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط: ١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

٤٠. «زهرة التفاسير». أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، (د. ط)، دار الفكر العربي، (د. ت).

٤١. «علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)». الدكتور محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب، ط: ١، طرابلس - لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب، ٢٠٠٣م.

٤٢. «علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)». المراغي، أحمد بن مصطفى (المتوفى: ١٣٧١هـ). (د. ن) (د. ط) (د. ت).

٤٣. «علم المعاني». عبد العزيز عتيق (المتوفى: ١٣٩٦ هـ). ط: ١، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٤٤. «غرائب القرآن ورغائب الفرقان». نظام الدين النيسابوري، الحسن بن محمد بن حسين القمي (المتوفى: ٨٥٠هـ). تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ.

٤٥. «فتحُ البيان في مقاصد القرآن». القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدَّم له وراجعه: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصَاري،



(د. ط)، صَيدا – بيروت: المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٤٦. «**فتح القدير**». الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ط: ١، دمشق: دار ابن كثير، بيروت: دار الكلم الطيب، ١٤١٤ هـ.

٤٧. «**الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية**». الشيخ علوان النخجواني، نعمة الله بن محمود (المتوفى: ٩٢٠هـ). (د. ط)، الغورية، مصر: دار ركابي للنشر، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

٤٨. «**القاموس المحيط**». الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: ٨١٧هـ). تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، ط ٨، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

٤٩. «**كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**». التهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ). تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم. تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، ط: ١، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م.

٥٠. «**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**». الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (المتوفى: ٥٣٨هـ). ط: ٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

٥١. «**الكشف والبيان عن تفسير القرآن**». الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم (المتوفى: ٤٢٧هـ). تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، ط ١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.

٥٢. «**الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**». الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ). تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، (د. ط)، بيروت: مؤسسة الرسالة، (د. ت).

٥٣. «**اللباب في علوم الكتاب**». ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ). تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٥٤. «**لسان العرب**». ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي. ط: ٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤ هـ.

٥٥. «**لطائف الإشارات (تفسير القشيري)**». القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: ٤٦٥هـ). تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط ٣، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ت).

٥٦. «**محاسن التأويل**». القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (المتوفى: ١٣٣٢هـ). تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.



٥٧. «**المحكم والمحيط الأعظم**». بن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي [ت: ٤٥٨هـ]. تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

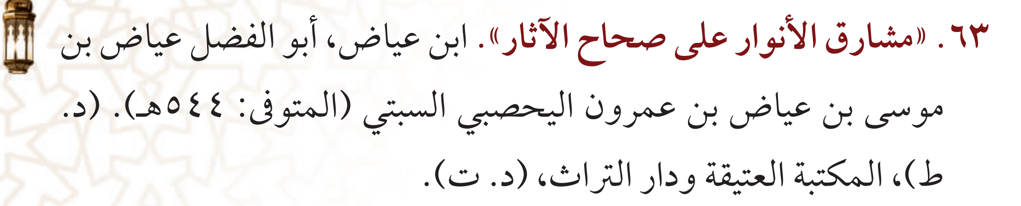
٥٨. «**المختصر في التفسير (مختصرات محررة ١)**». إشراف مركز تفسير للدراسات القرآنية، الإصدار الثالث عشر، ط ٢، أوقاف نورة الملاحي، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

٥٩. «**مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**». الجاوي، محمد بن عمر نووي البنتني إقليمًا التناري بلدًا (المتوفى: ١٣١٦هـ). تحقيق: محمد أمين الصناوي، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ.

٦٠. «**المستدرك على الصحيحين**». الحاكم ابن البيع، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ). تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١ - ١٩٩٠.

٦١. «**مسند الإمام أحمد بن حنبل**». الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: ١، القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٦٢. «**المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**». الإمام مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).



٦٣. «**مشارق الأنوار على صحاح الآثار**». ابن عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي (المتوفى: ٥٤٤هـ). (د. ط)، المكتبة العتيقة ودار التراث، (د. ت).

٦٤. «**المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**». الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ). (د. ط)، بيروت: المكتبة العلمية، (د. ت).

٦٥. «**معجم مقاييس اللغة**». ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (المتوفى: ٣٩٥هـ). تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (د. ت)، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٦٦. «**معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**». الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (المتوفى: ٧٤٨هـ). ط: ١، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٦٧. «**مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**». الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ). ط ٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

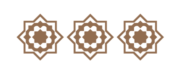
٦٨. «**من بلاغة القرآن**». أحمد بدوي، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (المتوفى: ١٣٨٤هـ). (د. ط)، القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٥م.

٦٩. «**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**». البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (المتوفى: ٨٨٥هـ). (د. ط)، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، (د. ت).



٧٠. «**الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه**». مكي بن أبي طالب القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ). تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، ط ١، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.

٧١. «**الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**». الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ). تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط: ١، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ١٤١٥ هـ.





الفهرس

الموضـــــــــــــــــــــــوع	رقم الصفحة







د. رَشِيدُ كُهُوس

أستاذ التعليم العالي مشارك
ورئيس «فريق البحث في السُّنن الإلهية»
بكلية أصول الدين بتطوان جامعة عبد المالك السعدي - المغرب

- حصل على درجة الماجستير من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول وجدة - المغرب، تخصص: (فقه الأسرة والتحولات المعاصرة)، في موضوع: «القوامة والدرجة والفضل في ضوء القرآن والسنة وأقوال علماء الشريعة».
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول وجدة - المغرب، بأطروحته: (سنة الله في جهاد رسول الله ﷺ)



ملخص البحث

إن السُّنن الإلهية هي فلسفة القرآن للكون والحياة، وهي الميزان الذي توزن به أحوال الأمم والحضارات؛ حيث لا تستقيم أحوال الأمة، إلا إذا فهمت هذه السُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية، وانسجمت حياتها وتكيفت معها. ومتى أعرضت عنها وتنكبت هديها جهلا أو غفلة أو تهاونا أو عنادا واستكبارا؛ فإنها حتما ستواجه مصير أمثالها، وتلاقي جزاءها دون تخلف أو محاباة.

أهداف البحث:

- **تأكيد** أهمية موضوع السُّنن الإلهية ومكانته في القرآن الكريم.
- **التعريف** بالسُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية.
- **إبراز** مراعاة السُّنن الإلهية في حياة الأمة.

منهج البحث:

لم يخرج البحث عن نطاق القرآن الكريم؛ فهو دراسة موضوعية تنطلق من كتاب الله وتعود إليه، وقد اعتمدت المنهج الاستقرائي والتحليلي والاستنباطي، وذلك بتتبع الآيات القرآنية المتعلقة بالسُّنن الإلهية، ثم تحليلها باعتماد أقوال المفسرين، ومن ثمَّ استنباط المعاني والدلالات، وما ترشد إليه الآيات.

أهم نتائج البحث:

- إن القرآن الكريم أبرز السنن الإلهية وبيَّن أهميتها في حياة الأفراد والأمم والحضارات، وأثر العناية بها.



- **إن السُّنن الإلهية** منها ما يتعلق بالكون (وهذا النوع خارج عن إرادة الإنسان واختياره)، ومنها ما يتعلق بسلوك الإنسان - وحركته في المجتمع والتاريخ - وتكليفه الشرعي. وهذان النوعان مرتبطان بينهما، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.
- **إن عدم مراعاة السُّنن الإلهية في الحياة الإنسانية** له آثار وخيمة على الإنسان فردًا أو جماعةً أو أُمةً وحضارةً.

توصيات البحث:

- **إدراج مادة «السُّنن الإلهية»** ضمن المساقات الدراسية بجامعات العلوم الشرعية وكلياتها.
- **تخصيص الرسائل الجامعية** في المعاهد والكليات الشرعية لدراسة السُّنن الإلهية في القرآن الكريم، تنظيرًا وتطبيقًا.

الكلمات المفتاحية:

الاستفهام_ الإنكار_ القرآن_ النفي_ التوبيخ_ التعجب.





مقدمة

الحمد لله الذي خلق المكوَّنات بقدرته، وأبدع الكون بحكمته، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، جعل للكون والحياة سننا وشرع لعباده من الأحكام ما يكون لهم ذخرا وسندا، وأشهد أن لا إله سواه، ولا معبود عَلاه، جلّ عن الشركاء والأنداد، وتقدّس عن الصاحبة والأولاد، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده المصطفى ونبيه المجتبى، أرسله بالحق اليقين، والحجة الباقية إلى يوم الدين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فيقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

إن السُّنن الإلهية هي الميزان الذي نحكم به على سائر الأمور، والمقياس الذي نقيس به الأحوال كافة، وهي الفلسفة القرآنية التصورية للكون والحياة، الناظمة للعلاقات بين مختلف التجمعات البشرية والأنساق الحضارية، وهي مفاتيح لفهم تدفق الحياة والوجود وحركة التاريخ وتشكُّل المصائر... لذلك توقف صلاح المجتمعات البشرية وفلاحها ونهوضها وسقوطها على مدى اهتدائها بهدايات السنن، وامتثالها بأحكامها، وعملها بمقتضياتها، والسير في طريقها المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء.

ذلك بأن السُّنن الإلهية منها ما هو كونيّ متعلّق بخَلْقه تعالى، ومنها ما هو دينيّ متعلِّق بأمره تعالى، ومن ثمّ فإنها يخضع لها كل ما في الكون، سواء الكون المادي الطبيعي؛ أي: الكواكب، والأجرام، والذرات، والمجرات... أو الكون الاجتماعي البشري: كالنفس الإنسانية، والسلوك الاجتماعي، وقيام الأمم

وسقوطها، ومصداق ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

لكن المُلاحَظ على فقه السُّنن الإلهية (الفقه الحضاري - فقه الحياة) أنه لم ينل تلك العناية الخاصة التي نالتها باقي علوم الإسلام، ومن ثم أصبح من الواجب التوجه نحو القرآن الكريم قراءةً وتدبرًا واستنباطًا؛ للوقوف على المعالم الكبرى والقواعد الأساسية لهذا الفقه الحضاري.

ذلك بأن دعوة القرآن الكريم إلى السير في الأرض لاكتشاف سُنن الله في الكون وتسخيرها لمصلحة الأمة أدلُّ على إثبات عظمة الخالق جَلَّ وَعَلَا وصدق الرسالة القرآنية الخالدة، من مجرد البحث في القرآن الكريم لاكتشاف الآيات التي تثبت ما أنجزه غيرنا!

هذا وقد تكفَّل الوحي (قرآنًا وسنةً) بتقديم بناء متكامل للمنظومة السننية التي تُحقِّق الرقي الروحي والعقلي والأخلاقي والاجتماعي للإنسان - فردًا وجماعةً وأُمةً وحضارةً - وترقى به إلى مرتبة الاستخلاف في الأرض، وإلى مرتبة الإنسان الصالح في الدنيا والآخرة.

لكن على الأمة أن تستقرئ آيات الكتاب المسطور (القرآن)، وآيات الكتاب المنظور (الكون) - كما فعلت مع فقه الأحكام - لاستكناه كلمات الله التامات وعهوده البينات، واستخراجها في قواعد ذات موضوع واحد؛ حتى يُلِمّ الإنسان بجُلّ السُّنن في الموضوع الواحد؛ ليمضي على بينة من ربِّه بكل ثقة وعزم وحزم نحو غاياته الكبرى (عمارة الأرض، والنهوض بأمانة الاستخلاف، وعبادة الله تعالى).

هذا والأمة لا يستقيم حالها، إلا إذا فهمت هذه السُّنن الإلهية، وانسجمت حياتها وتكيفت معها. ومتى أعرضت عنها وتنكبت هديها جهلا أو غفلة أو تهاونا أو عنادا واستكبارا؛ فإنها حتما ستواجه مصير أمثالها، وتلاقي جزاءها دون تخلّف أو محاباة.

حدود البحث:

يقتصر هذا البحث على تحديد مفهوم السُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية، وبيان حجيتها، والكشف عن آثار مراعاتها.

أهداف البحث:

- تأكيد أهمية موضوع السُّنن الإلهية ومكانته في القرآن الكريم.
- التعريف بالسُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية.
- إبراز أثر مراعاة السُّنن الإلهية في حياة الأمة.

أسئلة البحث:

- ما مفهوم الإلهية؟
- وما مفهوم السُّنن الكونية والاجتماعية؟
- ما هي آثار مراعاة السُّنن الإلهية؟

منهج البحث:

لم يخرج البحث عن نطاق القرآن الكريم؛ فهو دراسة موضوعية تنطلق من كتاب الله وتعود إليه، وقد اعتمدتُ المنهج الاستقرائي والتحليلي والاستنباطي، وذلك بتتبع الآيات القرآنية المتعلقة بالسُّنن الإلهية، ثم تحليلها باعتماد أقوال

المفسرين، ومن ثمَّ استنباط المعاني والدلالات، وما ترشد إليه الآيات.

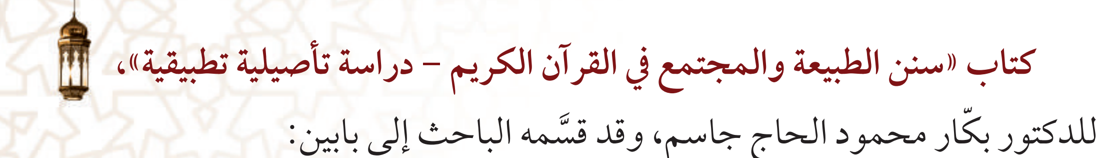
الدراسات السابقة:

يندرج بحثي هذا في سياق عدد من الدراسات السابقة التي تناولت موضوع السُّنن الإلهية من جوانب مختلفة، أذكر منها:

كتاب «أزمتنا الحضارية في ضوء سُنَّة الله في الخَلْق»، للدكتور أحمد محمد كنعان، وقد جعله في ثلاثة فصول، قدَّم لها بمدخل ناقش فيه العلاقة بين الجهد البشري والسُّنن الإلهية، ثم تعرَّض في الفصل الأول لأسباب اهتمامه بالسُّنن، وبسط القول في دعوة الوحي (قرآنًا وسنةً) إلى السير في الأرض، والنظر في آيات الله؛ للاهتداء بها في التعامل مع مخلوقات الله تعالى، وذكر في هذا الفصل أيضا خصائص السُّنن الإلهية، كما تناول بالتفصيل ظروف تحقق السُّنن الخارقة، كما هي الحال في المعجزات والكرامات.

أما (الفصل الثاني) فقد خصَّصه لمناقشة عدد من القضايا المهمة التي لها علاقة مباشرة بالأزمة الحضارية الراهنة: كقضية الحرية، والعلم، والاجتهاد، وعلم الغيب.

كتاب «مفهوم السُّنن الإلهية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم»، للدكتور رمضان خميس زكي الغريب، وهذا الكتاب دراسة مفيدة ونافعة، قسَّمها الباحث أربعة فصول: تناول في الفصل الأول مفهوم السُّنن الربانية وأهمية دراستها والآثار المترتبة على إهمالها، أما الفصل الثاني فخصَّصه للحديث عن خصائص السُّنن الربانية وصيغ ورودها في القرآن الكريم ومواردها، وصور التعبير عنها، في حين أفرد الفصل الثالث للعلاقة بين السُّنن الكونية والسُّنن الربانية، أما الفصل الرابع فبيَّن فيه منهجية التعامل مع السُّنن الربانية.



كتاب «سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم - دراسة تأصيلية تطبيقية»، للدكتور بكّار محمود الحاج جاسم، وقد قسَّمه الباحث إلى بابين:

جعل الباب الأول دراسة تأصيلية لمصطلحات الكتاب؛ حيث عرَّف بالسُّنن الإلهية، وبيَّن أشكالها وخصائصها وبعض القضايا المرتبطة بها: كالقضاء والقدر، والمشيئة الإلهية، والحتمية والاحتمالية، والغيب والشهادة وغير ذلك، كما عرَّف بالطبيعة وبيَّن منهج القرآن الكريم في الحديث عنها، وضوابط التفسير العلمي في القرآن الكريم، كما عرَّف بالمجتمع وما يتعلق به.

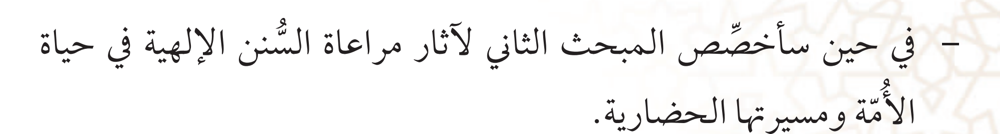
أما الباب الثاني فخصَّصه لنماذج من سُنن الله في الطبيعة والمجتمع: كالحكمة، والهداية، والتسخير، والحياة والموت، والاصطفاء، والتدافع، والاستدراج، والإملاء، وإهلاك الأمم، والاختلاف والتفاضل، والرزق، والابتلاء، وغير ذلك من سننه تعالى في الطبيعة والمجتمع.

وقد استفدت منها جميعا، لكن الجديد الذي أتى به البحث هو ذكر مرادفات السُّنة الإلهية في القرآن الكريم، وكذلك التفصيل في تقسيم السُّنن باعتبار مجال سريانها إلى نوعين: سُنن الله في نظام الكون، وسُنن الله في سلوك الإنسان. فضلا عن الحديث عن آثار مراعاة السُّنن الإلهية في حياة الأمة، وسيرورتها التاريخية، وصيرورتها الحضارية.

❁ محاور البحث:

تحقيقًا للأهداف السابقة سيكون بحثي في مبحثين رئيسين:

- سأخصِّص المبحث الأول للتعريف بالسُّنن الإلهية وبنوعيها الكونية والاجتماعية.



- في حين سأخصِّص المبحث الثاني لآثار مراعاة السُّنن الإلهية في حياة الأُمّة ومسيرتها الحضارية.



المبحث الأول

مفهوم السُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية



المطلب الأول

في تعريف السُّنن الإلهية

١) السُّنة لغةً:

للفظة السُّنة دلالات ومعان في سياقاتها المختلفة:

السين والنون أصل واحد مُطَّرِد، وهو جريان الشيء واطِّراده في سهولة، والأصل قولهم: سننتُ الماء على وجهي أَسُنُّه سنًّا، إذا أرسلتُه إرسالًا. وامْضِ على سَنَنِك، أَي وَجْهك وقَصْدك. وسَنّ اللهُ على يدي فلان قضاء حاجتي: أجراه. والسُّنّة: الطريقة والسيرة، حميدة كانت أو ذميمة [١].

ومن التعريف السابق نستطيع القول: إن معنى السُّنَّة في اللغة يدل على الطريقة والسيرة والوجهة والقصد والتوالي والتتابع والاطراد وجريان الشيء، أو الحكم على طريقة واحدة معتادة.

أما معنى سُنَّة الله في اللغة فهي: «أَحكامه وأَمره وَنَهْيُهُ..»[٢]. قال العلَّامة الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سُنَّة الله تعالى: قد تقال لطريقة حِكمته، وطريقة طاعته»[٣].

(١) لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦). مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي، مادة (سنن) (ص١٤٣). المصباح المنير، لأحمد الفيومي المقرئ (ص١٥٢). معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٣/ ٦٠). أساس البلاغة، للزمخشري (ص٤١٨).

(٢) لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٢٢٥).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (ص٤٢٩). بصائر ذوي التمييز من لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٣/ ٢٦٧).

وخلاصة القول: سُنَّة الله طريقة حكمته في مجازاته لخلقه التي تجري على نسق واحد منذ بدء الخليقة إلى يوم القيامة، وطريقة طاعة الخلق له بما شرعه من أوامر ونواه.

۞ ٢) الدلالة على السُّنَّة الإلهية في القرآن الكريم:

(أ) لفظ السُّنَّة في القرآن الكريم:

أنزل الله - تعالى وتقدَّس - القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وكان معجزة خالدة على مر الأزمان والعصور، أعجز الفصحاء والشعراء والأدباء، وبهذا فإن ألفاظه لا تخرج عن معانيها في اللغة العربية إلا بقرينة، فلفظ السُّنَّة في القرآن الكريم أُطلق على ما هو عليه في لغة العرب، أي «الطريقة والخُطَّة المتبعة»(١)، وسُنَّة الرسل: «هي الشرائع الإلهية المنزلة لهداية الأمم»(٢)، والسُّنن جمع سُنَّة، وسُنَّة الله: «ما جرى به نظامه تعالى في خلقه»(٣).

وقد وردت كلمة السُّنَّة في القرآن الكريم بجميع صيغها ست عشرة مرة: بصيغة «سُنَّة» المفرد ثلاث عشرة مرة، بصيغة الجمع (سُنَن) مرتين، بصيغة «سُنَّتنا» مرة واحدة(٤). وهي كالآتي:

- ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

- ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١/ ٦٢٤).
(٢) موسوعة الألفاظ القرآنية، لمختار فوزي النَّعال (ص٤١٣).
(٣) القاموس القويم في القرآن الكريم، لإبراهيم عبد الفتاح (١/ ٣٣١).
(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي (ص٤٥١).

- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣].
- ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: ٣٨].
- ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].
- ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٥].
- ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٧].
- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الكهف: ٥٥].
- ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر: ١٣].
- ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].
- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٦].

وباستقراء كل هذه الآيات الكريمة يتضح لنا أن المراد بالسُّنَّة في سياق هذه الآيات:

- سُنَّة الأنبياء والمرسلين السابقين وشرائعهم وطرائقهم في الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم...
- سُنَّة الله في نصر عباده المؤمنين من الأنبياء والرسل والصالحين وتأييده لهم والتمكين لهم.

- سُنَّة الله في عقاب الأمم الكافرة وإهلاكها.

ومن ثم فإن الآيات السابقة كلها تتعلّق بالمطيعين والعصاة؛ فسُنَّته في أهل طاعته من المؤمنين: إكرامهم، وسُنَّته في العصاة من الكافرين: إهانتهم وعقوبتهم.

والصيغ السابقة كلها جاءت في سياق واحد هو السياق الاجتماعي (سنن الاجتماع) المتعلق بأمر الله ونهيه ووعده ووعيده.

أما سُنن الله الكونية فقد عبَّر عنها القرآن الكريم بالآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

والسُّنن في القرآن الكريم لا تقتصر على السُّنن الاجتماعية - السُّنن التي تحكم سلوك الإنسان - فقط، رغم إيهام الاستقراء بذلك، بل هو اقتصار مقصود، حكمته التنبيه على السُّنن الاجتماعية ولفت الأنظار إليها، وكونها أيضا لازمة مثل السُّنن الكونية.

فمصطلح «السُّنن» ورد في القرآن الكريم في سياق الحديث عن السُّنن الاجتماعية، لكنها تبقى عامة تشمل سُنن الطبيعة (الكون) التي لم يسمها القرآن سُنَّة، لكنه أشار إليها طويلا ودعا إلى الكشف عنها عبر النظر في الكتاب المنظور (الكون)، والسير في الأرض الذي عادة ما يرافق إيراد لفظ «السُّنَّة» في القرآن الكريم أو معناها. كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٣، ٤٤]. وكقوله جَلَّ وَعَلَا في سياق حديثه عن سُنَّته

في الرسل وسُنَّته في المستهزئين بهم: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١٠، ١١].

فهكذا يربط دائما السياق القرآني بين سُنن الاجتماع البشري وسُنن الكون، لأنها تمثل وحدة متكاملة وإن اختلفت أشكالها؛ فهي صادرة من إله واحد الذي خلق فشرع وأمر.

(ب) مرادفات «مصطلح السُّنَّة» في القرآن الكريم:

إضافة إلى مصطلح «السُّنَّة» تحدَّث القرآن الكريم عن السُّنن الإلهية بمرادفات أخرى، **منها:**

- **كلمة وكلمات الله التامات:**

قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

والمعنى هنا: «إن الله قد أتم وعده ووعيده، فظهر الحق وانطمس الباطل، وتم وعده لأوليائه بنصرهم، ووعيده لأعدائه بخذلانهم»(١). فلا تغيير لكلماته وسُننه ولا تبديل لها، ولا يلحقها نقض ولا إبطال.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود: ١١٠]، «أي ولولا ما تقدَّم من الله تعالى من كلمة حق في جعل الجزاء الفاصل بين الناس يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء، لعجّل لهم العذاب في الدنيا بإهلاك المبطلين، وتعذيب العصاة بسبب اختلافهم، ولقضي بينهم فيما اختلفوا فيه»(٢). فـ«كلمة» في الآية السابقة وغيرها هي سُنَّته تعالى الماضية في خلقه.

---

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للهرري (٩/ ١٩).
(٢) التفسير المنير، للزحيلي (١١/ ١٣٦).

وقال تقدَّست كلماته: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وفي هذه الآيات يذكر الله تعالى عباده بكلماته التامات أي بسُننه في خليقته، وأن من سار على نهجها أدى به ذلك إلى السعادة، ومن حاد عنها ضل وكانت عاقبته الشقاء والبوار، وأن الحق لا بد أن ينتصر على الباطل مهما كانت له أول الأمر من صولة، كما وعد الله بذلك على ألسنة رسله[1].

- **عهد الله:**

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧]. قال الشيخ محمد رشيد رضا في معنى الآية: «الخروج عن سُنن الله تعالى في خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر، وعن هداية الدين بالنسبة إلى الذين أوتوه خاصة، فعهد الله تعالى هو ما أخذهم به بمنحهم ما يفهمون به هذه السُّنن المعهودة للناس بالنظر والاعتبار، والتجربة والاختبار، أو العقل والحواس المرشدة إليها وهي عامة، والحجة بها قائمة على كل من وُهِب نعمة العقل وبلغ سن الرشد سليم الحواس، ونقضه عبارة عن عدم استعمال تلك المواهب استعمالا صحيحا حتى كأنهم فقدوها وخرجوا من حكمها... هذا هو القسم الأول من العهد الإلهي وهو العام الشامل، والأساس للقسم الثاني المكمل الذي هو الدين، فالعهد فطري خَلقي، وديني شرعي... والله تعالى قد وثّق العهد الفطري بجعل العقول بعد الرشد قابلة لإدراك السُّنن الإلهية في الخَلق، ووثَّق العهد الديني بما أيد به الأنبياء من الآيات البينات والأحكام المحكمات، وقد وثَّق العهد الأول بالعهد الثاني

(١) تفسير المراغي، للمراغي (٤/ ٧٥).

أيضا، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم، فهو ناقض لعهد الله فاسق عن سُننه في تقويم البنية البشرية وإنمائها، وإبلاغ قواها وملكاتها حد الكمال الإنساني الممكن لها»[(١)].

- **الكتابة:**

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. هو بيان سُنَّة الله المقررة في وراثة الأرض[(٢)].

- **الآيات والأمثال:**

قال الحق جل في علاه: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤]. «لفت كتاب الله أنظار البشرية جمعاء، إلى أن الإنسان بالرغم مما رزقه الله من عقل لا يمكن له أن يستغني عن الاستنارة بنور الله في تدبير شؤونه الخاصة والعامة، وكما أن (الطبيعة) إنما تسير بانتظام وفقا للنواميس والسُّنن التي وضعها الله فيها وأودعها إياها، فلا بد للإنسان وهو كائن مخيَّر إذا أراد أن يسير في حياته سيرا متئدا موفقا سعيدا، من التزام الشرائع الإلهية التي هي بالنسبة إليه مثل النواميس الكونية بالنسبة للطبيعة المسخرة»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨]. أي وقد مضت سُنَّتنا في المُكذِّبين لرسلهم من قبلكم، ورأيتم ما حل بهم، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم[(٤)].

---

(١) تفسير المنار، لرضا (١/ ٢٠٣).

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٤/ ٢٤٠٠).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير، للناصري (٤/ ٢٧٢ - ٢٧٣).

(٤) تفسير المراغي، للمراغي (٢٥/ ٧٠).

- **شريعة:**

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨﴾ [الجاثية: ١٨]. «أي على طريقة وسُنَّة ومنهاج من أمر الدين الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾، أي تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج»[١].

- **وعد الله:**

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر: ٥]. أي ما سَنَّه جَلَّ وَعَلَا من سُنن الثواب والعقاب؛ حيث وعد بالجزاء الأوفى والثواب العميم من صدق في الاتّباع، وبالعقاب الأليم لمن تنكَّب اتباع شرعه ودينه، وهي سُنَّته تعالى في الطائعين والعاصين.

وقال عز من قائل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور: ٥٥].

تلك سُنَّة الله في عباده المؤمنين من أمة رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بالاستخلاف في الأرض**، والتمكين لدين الإسلام الذي ارتضاه لهم، وتحقيق الأمن بعد الخوف. «لكن هذا الوعد الإلهي الذي هو حق وصدق - وسنة إلهية مطردة - وعد مقيد لا مطلق، فهو مرتبط بأمرين اثنين: الأمر الأول الإيمان، والأمر الثاني العمل الصالح. والإيمان يستلزم الإيمان بالله وبوحدانيته، وهي تتضمن وحدة الكون عموما، ووحدة النوع الإنساني خصوصا، ووحدة الرسالة الإلهية بالأخص، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بدينه وشريعته، والإيمان بعدله

(١) محاسن التأويل، للقاسمي (٨/ ٤٢٩).

وحكمته، والإيمان برقابته والخضوع لمراقبته، والإيمان ببعث ممارسة كل ما فيه خير وبر وصلاح، للفرد والجماعة، ومقاومة كل ما فيه شر وأذى وفساد بالنسبة لهما جميعا.»[١].

- **الميزان والقسط:**

وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥]. إنها سُنَّة الله في الرسل والرسالات، وسُنَّته في إقامة العدل في الأرض والمساواة بين الناس: «فكل الرسالات جاءت لتُقِرّ في الأرض وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع، ميزانا لا يحابي أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع.

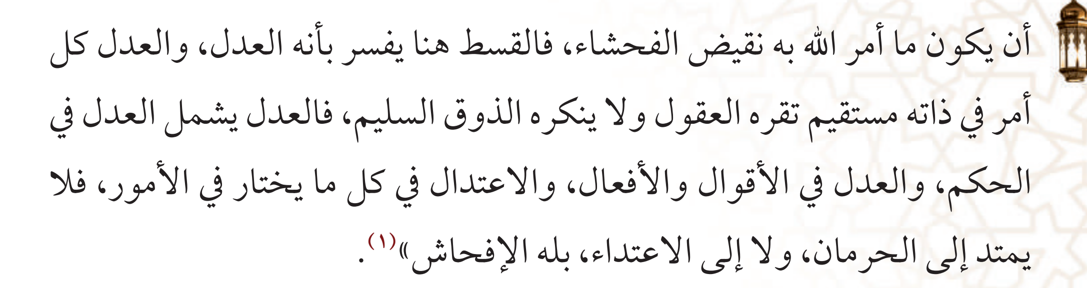
هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف، ومصطخب المنافسة وحب الذات، فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥] فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته، لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهبّ الجهالات والأهواء!»[٢].

وقال جل جلاله: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف: ٢٩]. «وإن السياق يقتضي

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير، للناصري (٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٩٤).



أن يكون ما أمر الله به نقيض الفحشاء، فالقسط هنا يفسر بأنه العدل، والعدل كل أمر في ذاته مستقيم تقره العقول ولا ينكره الذوق السليم، فالعدل يشمل العدل في الحكم، والعدل في الأقوال والأفعال، والاعتدال في كل ما يختار في الأمور، فلا يمتد إلى الحرمان، ولا إلى الاعتداء، بله الإفحاش»(١).

- **بصائر:**

قال جل ثناؤه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: ٢٠]. بصائر للناس أي معالم للدين بمنزلة البصائر في القلوب.

أي هذا القرآن دلائل للناس فيما يحتاجون إليه من أمر الدين، وبينات وسنن تبصّرهم وجه الفلاح، وتعرّفهم سبيل الهدى، وهو هدى ورحمة لقوم يوقنون بصحته ويعملون بمقتضى سننه، وهو تنزيل من رب العالمين.

وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى ورحمة، لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه دون من كذّب به من أهل الكفر فإنه عليهم عمى(٢).

- **المَثُلات:**

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: ٦]. و«(المَثُلات) جمع مَثُلة، وهي العقوبة العظيمة من الله التي تماثل الذنب وتجعل من نزلت به مضرب الأمثال بين الناس»(٣). تُذكِّر اللاحقين بمصائر أسلافهم من بني البشر وبسُنن الله تعالى في إهلاكهم.

ولذلك «فلم يكن ما حل بمن قبلهم من المصادفات، بل هو من السُّنن المطردة

---

(١) زهرة التفاسير، لأبي زهرة (٦/ ٢٨١٣).

(٢) تفسير المراغي، للمراغي (٢٥/ ١٥٢).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير، للناصري (٣/ ٢٢٥).



بالمشيئة والاختيار، فلا هوادة فيه ولا ظلم ولا محاباة»[١].

- **الصراط المستقيم:**

قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١] «هذا صراط، هذا ناموس، هذه سُنَّة. وهي السُّنَّة التي ارتضتها الإرادة قانونًا وحُكمًا في الهدى والضلال»[٢].

- **القَدَر:**

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. «أي وكان أمر الله الذي يُقدِّره كائنا لا محالة وواقعا لا محيد عنه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[٣]. فهو نافذ مفعول، لا يقف في وجهه شيء ولا أحد، وهو مُقدَّر بحكمة وخبرة ووزن، منظور فيه إلى الغاية التي يريدها الله منه، ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها. وقد أمر الله رسوله أن يبطل تلك العادة ويمحو آثارها عمليا، ويقرر بنفسه السابقة الواقعية، ولم يكن بد من نفاذ أمر الله.

وسُنَّة الله هذه قد مضت في الذين خلوا من قبل من الرسل»[٤].

- **القول:**

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩]. أي لا يغيّر الله تعالى قضاءه الذي قضاه، ولا يبدل سُنَّته التي مضت في خلقه، ولا يخلف وعده الذي وعد به عباده المؤمنين ووعيده الذي أوعد به الكفار.

---

(١) تفسير المنار، لرضا (٩/ ٢٧).

(٢) في ظلال القرآن، لقطب (٤/ ٢١٤٢).

(٣) تفسير المراغي، للمراغي (٢٢/ ١٦).

(٤) في ظلال القرآن، لقطب (٥/ ٢٨٧٠).

- **هُدى الله:**

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]. وفي الآية الكريمة بيان لسُنَّته تعالى في الهدى والضلال: «وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض، فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل، وينحصر المستيقن منه، والذي يجب اتباعه، في هذا المصدر الواحد، الذي يقرر الله سبحانه أنه هو هدى الله، وأنه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده، ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم»[1].

- **الحُجَّة البالغة:**

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩]. «فإن لله وحده أعلى درجات العلم، وله الحُجّة البالغة على ما أراد من إحقاق الحق وإزهاق الباطل بما بيَّنه في هذه السورة وغيرها من الآيات البينات على أصول العقائد، وقواعد التشريع الموافقة للعقول الحكيمة والفطر السليمة، وسُننه في الاجتماع البشري، ولا يهتدي بهذه الآيات إلا المستعد للهداية المحب للحق الحريص على طلبه، الذي يستمع القول فيتبع أحسنه، دون من أعرض عن النظر فيها استكبارًا عنها، وحسدًا للمبلغ الذي جاء بها، وجمودًا على تقليد الآباء واتباع الرؤساء ﴿فَلَوۡ شَآءَ﴾ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هدايتكم جميعا إلى الحجة البالغة ﴿لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ ولكن لم يشأ هداية الكل، بل هداية البعض.

أو المعنى: ولو شاء سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يهديكم بغير هذه الطريق التي أقام أمر

(١) في ظلال القرآن، لقطب (٢/ ١١٤٤).

البشر عليها؛ وهي التعليم والإرشاد بطريق النظر والاستدلال؛ لهداكم أجمعين، فجعلكم تؤمنون بالفطرة كالملائكة المفطورين على الحق والخير جل شأنه. وفيه دليل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يشأ إيمان الكافر، ولو شاء هدايته لهداه»[1].

كما استعمل القرآن الكريم الألفاظ الكونية القدرية والدينية الآتية للدلالة على السُّنن الإلهية:

- **القضاء:** ﴿قَضَىٰٓ﴾ [البقرة: ١١٧] ﴿وَقُضِىَ﴾ [البقرة: ٢١٠] ﴿قَضَيْنَآ﴾ [القصص: ٤٤].
- **والحكم:** ﴿أَحَكَمُ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] ﴿يَحْكُمُ﴾ [البقرة: ١١٣] ﴿حُكْمِهِۦٓ﴾ [الكهف: ٢٦].
- **والإرادة:** ﴿يُرِيدُ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿أَرَدْنَآ﴾ [الإسراء: ١٦] ﴿نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].
- **والكتابة:** ﴿كُتِبَ﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿كِتَٰبَ﴾ [النساء: ٢٤] ﴿وَكَتَبْنَا﴾ [المائدة: ٤٥].
- **والأمر:** ﴿أَمْرُهُۥٓ﴾ [يس: ٨٢] ﴿أَمْرُنَآ﴾ [القمر: ٥٠] ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٤٧] ﴿أَمْرًا﴾ [البقرة: ١١٧] ﴿أَمَرْنَا﴾ [الإسراء: ١٦] ﴿يَأْمُرُ﴾ [الأعراف: ٢٨] ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ [البقرة: ٦٧].
- **والإذن:** ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] ﴿أَذِنَ﴾ [يونس: ٥٩] ﴿يَأْذَنۢ﴾ [الشورى: ٢١].
- **والجعل:** ﴿جَعَلْنَا﴾ [البقرة: ١٢٥] ﴿وَيَجْعَلُ﴾ [يونس: ١٠٠] ﴿جَعَلَ﴾ [البقرة: ٢٢].
- **والكلمات:** ﴿كَلِمَتُنَا﴾ [الصافات: ١٧١] ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤٠] ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٥].
- **والبعث:** ﴿بَعَثْنَا﴾ [الأعراف: ١٠٣] ﴿بَعَثَ﴾ [البقرة: ٢٤٧].
- **والإرسال:** ﴿أَرْسَلْنَا﴾ [البقرة: ١٥١] ﴿أَرْسَلَ﴾ [التوبة: ٣٣].

---

(١) تفسير حدائق الروح والريحان، للهرري (٩/ ١٣٠).

- والتحريم: ﴿حَرَّمْنَا﴾ [النساء: ١٦٠] ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ [المائدة: ٢٦] ﴿حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦] ﴿حُرِّمَتْ﴾ [النساء: ٢٣] ﴿حُرِّمَ﴾ [آل عمران: ٥٠] ﴿حَرَّمَ﴾ [البقرة: ١٧٣].
- والإيتاء: ﴿يُؤْتِي﴾ [البقرة: ٢٤٧] ﴿تُؤْتِي﴾ [آل عمران: ٢٦] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾ [النساء: ٥٤] ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٠] ﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٦٣]...

فما كان من هذه الألفاظ كونيّا؛ فهو متعلِّقٌ بربوبيته وخلقهِ تعالى (سُنن الكون)، وما كان منها دينيا؛ فهو متعلِّقٌ بإلهيته وشَرْعه (السُّنن الاجتماعية أو السُّنن الشرعية).

وعلاوة على ذلك، فإن السُّنن الإلهية تستنبط كذلك من دلالات آيات القرآن الكريم وفحواها، وذلك بترتيب نتيجة ما بناءً على شرط معين أو خبر معين، أو بذكرها في سياق قصة قرآنية معينة، أو في الحديث عن شأن من شؤون الكفار أو الأمم الغابرة، أو في سياق الحكم التكليفي الشرعي أو غير ذلك.

٣) في معنى السُّنن الإلهية في الثقافة الإسلامية:

إن سُنن الله تعالى جاءت تفكّ لغز الكون ومغزاه، وتكشف الغبش واللبس، وتحل المعضلات التي عجزت المدارس المادية الوضعية عن حلها؛ إنها بكل بساطة معايير ثابتة الجذور، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تتحقق بإذن ربها وقدره ومشيئته، فهي بناء مرصوص، لا تزعزعه العواصف ولا القواصم، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا ولا تغييرا.

لنقف مليا عند بعض التعريفات المختلفة للسنن الإلهية:

- **الإمام أبو بكر الجصاص (ت: ٣٧٠هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سُنَّة الله هي: «الطريقة المأمور بلزومها واتباعها»[(١)].

(١) أحكام القرآن، للجصاص (٣/ ٤٨٧).



- **الإمام القرطبي (ت: ٦٧١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: «سُنَّة الله: يعني طريقة الله وعادته»[١].
- **شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)**: «السُّنَّة هي العادة في الأشياء المتماثلة»[٢]. وقال أيضا: «هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول»[٣].
- **الإمام ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: سُنَّة الله: «عادته في خلقه»[٤].
- **الإمام ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: «سُنَّته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: عادته المعلومة»[٥].
- **الشيخ محمد عبده (ت: ١٣٢٣هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ** هي: «الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حَسَبِهَا تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم بالقوانين»[٦].
- **الشيخ سعيد النورسي (ت: ١٣٧٩هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: «القوانين الإلهية الجارية في العالم التي تبين تنظيم الأفعال الإلهية ونظامها، وتُنظّم شؤون الكون، وهي تجلّ كلي للأمر الإلهي والإرادة الإلهية»[٧].
- **الشيخ عبد الكريم بن يونس الخطيب (توفي بعد ١٣٩٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: «سُنَّة الله:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦/ ٢٨٠).
(٢) جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٥).
(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٣/ ٢٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٤١).
(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (ص٤٠٨).
(٦) انظر: «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية»، محمد عبده، مجلة المنار، ١٦ جمادى الآخرة ١٣٢٠هـ، المجلد الخامس.
(٧) ينظر: الملاحق (ص٦٨)، واللمعات (ص٥٩)، صيقل الإسلام (ص٤٦٣).

أي نظام الله، وتقدير الله، الذي أقام عليه هذا الوجود...»[(١)].

- **العلَّامة محمد المكي الناصري (ت: ١٤١٤هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السُّنن الإلهية والنواميس الكونية هي: «التي يسير الكون بمقتضاها سيرًا محكمًا منظمًا»[(٢)].

- **الدكتور عبد الكريم زيدان (ت: ١٤٣٥هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة»[(٣)].

- **الدكتور شريف الخطيب:** «السُّنن الإلهية منهج الله في تسيير الكون وعمارته وحكمه، ونواميسه في سير الحياة الإنسانية، ونواميسه في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله»[(٤)].

- **الدكتور أحمد كنعان:** «هي مجموعة القوانين التي سنَّها الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها»[(٥)].

- **الأستاذ محمد هيشور:** «القوانين التي يسير وفقها الوجود كله، وتتحرك بمقتضاها الحياة، وتحكم جزئياتها ومفرداتها فلا يشذ عنها مخلوق وما في الكون ذرة أو حركة إلا ولها قانون وسُنَّة»[(٦)].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، للخطيب (٩/ ١٣٥١).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير، للناصري (٤/ ١٠٧).

(٣) السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، لزيدان (ص١٣).

(٤) السُّنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الخطيب (١/ ٥) بتصرف يسير.

(٥) أزمتنا الحضارية في ضوء سُنَّة الله في خلقه، لكنعان (ص٥٢).

(٦) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، لهيشور (ص٢٧).

- **الدكتور بكار جاسم:** «السُّنَّة هي حكم الله المطرد في المكوَّنات.

ذلك أن القول بـ«حكم الله» تأكيد لمرجعية السُّنَّة فهي تجري بحكم الله وأمره، وليست بحكم الطبيعة أو المجتمع أو الأنفس، فالفعل الحقيقي هو «الله تعالى».

والقول «بالمُطّرد» أي: التتابع في جريان الحكم، والاطراد لا يعني الإلزام والجبر؛ بل مجرد التتابع، إذ لا مُلْزِم لحكم الله تعالى».

والقول «في المكونات» شامل للأنفس والمجتمع والطبيعة، فهذه كلها مكوَّنة بقوله: (كُنْ)»[(١)].

- **الدكتور عبد الكريم بكار عن السُّنن الإلهية بأنها:** «عبارة عن أحكام علوية ماضية مستمرة اقتضتها مشيئة الله تعالى وحكمته البالغة»[(٢)].

- **الدكتور رمضان خميس هو:** «القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتبا على سلوك البشر»[(٣)].

وكل التعريفات السابقة متقاربة، تجمع على أن السُّنن الإلهية هي: طريقته وحكمته جَلَّ وَعَلَا وتدبيره لهذا الوجود وما فيه ومن فيه.

أما التعريف المختار للسنن الإلهية فهو:

السُّنن الإلهية هي إرادة الله الكونية، وأمره الشرعي، وفعله المطلق، وكلماته التامات، ووعوده الحقة، وحكمه في آفاق الكون وتسلسل التاريخ، الجارية بالعباد من المعاش إلى المعاد.

---

(١) سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم دراسة تأصيلية تطبيقية، لبكار جاسم (ص٢٩).

(٢) كيف نفهم الأشياء من حولنا، لعبد الكريم بكار (ص١٠).

(٣) مفهوم السُّنن الربانية، لرمضان خميس زكي (ص٣١).



في تعريف السُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية

إنه رغم الكم الهائل من السُّنن التي يزخر بها الكون، إلا أننا عند إمعان النظر نجدها تنضوي تحت نوعين أساسين من السنن:

الأول: يشمل الجانب المادي من هذا الكون، وهو - بلا شك - الأوسع نطاقا، ويُعرف بسنن الكون أو الطبيعة أو سُنن الآفاق، وتعني نواميس الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في تسيير الكون وعمارته، وهي متعلقة بربوبيته وخَلقهِ جَلَّ وَعَلَا.

الثاني: خاص بالإنسان، وهي السُّنن والقواعد التي تحكم الإنسان - فردا وجماعة وأمة - في علاقته بهذا الكون وخالقه، وتسمى سُنن الاجتماع، أو سُنن الأنفس، أو السُّنن الشرعية أو الأمرية، وهذا النوع من السُّنن متعلق بإلهيته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وشرعه.

ودليل ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق: أفعاله وما قضاه وقدره، والأمرُ: دينه وما شرعه لخلقه.

فإلى بيان مفهوم سُنن الكون وسنن الاجتماع.

١) في مفهوم سُنن الكون:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ ما أخبر الله تعالى به من آياته في السماوات وَالْأَرضين، وذلك من رفع السَّمَاء، وَخلق الْكَوَاكِب، ودوران الفلك، وإضاءة الشَّمْس وَالْقَمَر، وما أشبه ذلك، وكذلك بسط الأَرْض، وَنصب الْجبَال، وتفجير الْأَنْهَار، وغرس

الْأَشْجَار، إِلَى مَا لَا يُحْصى»[1].

قال الرازي: «إِنَّ الْمُرَادَ بِآيَاتِ الْآفَاقِ: الْآيَاتُ الْفَلَكِيَّةُ وَالْكَوْكَبِيَّةُ، وَآيَاتُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَآيَاتُ الْأَضْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ وَالظُّلُمَاتِ، وَآيَاتُ عَالَمِ الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ[2]، وَآيَاتُ الْمَوَالِيدِ الثَّلَاثَةِ[3]»[4]. أي كل الآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل.

فالآية الكريمة تستوعب المستقبل كله، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن، ومستقبل مَنْ يأتي بعد إلى قيام الساعة، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليه.

فالقرآن الكريم لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته في قَرْن واحد، ولا في أمة واحدة، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء، بل نُزل ليظل جديدًا تأخذ منه كل الأمم وكل العصور، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته في الكون والحياة[5].

وخلاصة القول: سُنن الكون هي: النواميس الحاكمة في الطبيعة وفي العالم المادي وفي نظام الكون وتركيبه وحركته ومجرياته، وتسمى الآيات الكونية، وآيات الآفاق، وسنن الطبيعة. وتسمى بلسان العصر علوم الفلك والفضاء والأرض والبحار والأحياء.

وهذه السُّنن تخضع لها جميع الكائنات الحية في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، ويخضع لها كيان الإنسان المادي وما يطرأ عليه مثل نموه

(١) تفسير القرآن، للسمعاني (٥/ ٦١). تفسير النكت والعيون، للماوردي (٥/ ١٨٩).

(٢) يقصد بالعناصر الأربعة: الماء والأرض والنار والهواء.

(٣) يقصد بالمواليد الثلاثة: المعادن والنبات والحيوان.

(٤) تفسير مفاتيح الغيب، للرازي (٢٧/ ٥٧٣).

(٥) تفسير الشعراوي (١٩/ ١١٥٦٩).

وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه حيا ونحو ذلك[1].

وهذا النوع من السُّنن لا خروج لأحد عنها؛ لأنها خاضعة للقدر الكوني ومتعلقة بالخلق والمشيئة الكونية؛ فهي تقع حتما، لكنها قابلة للخرق؛ حيث ينقضها الله تعالى إذا شاء بما شاء؛ فتمضي على غير ما اعتاده الناس، وهو ما يسمى بـ«السُّنن الخارقة»؛ كما وقع في قصة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وكما وقع لعصا كليم الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما تحولت – بإذن الله – إلى حية تسعى، ولما انشقّ القمر لنبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وغير ذلك.

وقد وجَّه القرآن الكريم عناية كبيرة لسُنن الله الكونية، وحثَّ الأمة على النظر في الكون والسعي لاكتشافها وتسخيرها؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية: ١٣]. إنها دعوة إلى التفكر في آيات الله الكونية لاكتشافها من أجل الانتفاع بها وتسخيرها، للنهوض بأمانة الاستخلاف، وعمارة الأرض، وترقية الحياة، وتحقيق الشهود الحضاري...

وهكذا نجد سُنن الكون سخرت للبشرية جمعاء، والإسلام أرشد إليها، «وفصل ما تمَسّ إليه الحاجة، وهدانا إلى أن لكل عمل أثرًا لا يتعداه، وأن الأسباب مربوطة بمسبباتها، وكل سبب يفضي إلى غاية، والأمور الدنيوية لا يمنعها الله عن طلابها إذا أتوا البيوت من أبوابها، والتمسوا الرغائب من طرقها وأسبابها، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين، وإنما الإيمان شرط للمثوبة في العقبى وكمال السعادة في الدنيا»[2] ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

---

(١) السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، لعبد الكريم زيدان (ص٧).

(٢) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾، محمد رشيد رضا، فاتحة مجلة المنار، المجلد (١)، العدد ٣١، الصادر في ٢ جمادى الآخرة سُنَّة ١٣١٦ (ص٥٩١).

والجدير بالذكر هنا أن سُنن الكون سخَّرها الله تعالى للإنسان، ليقيم حياته ويبني عمرانه ويحقق ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة، فهي تحت سلطة العقل والتجربة والخبرة مباشرة، حيث يمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من قوانينها عبر الملاحظة والتجربة، ومن خلال الاستفادة من التجارب البشرية السابقة وخبراتها، ويمتلك القدرة على استثمار معطياتها المتنوعة في تلبية حاجات خلافته في الأرض ومواجهة التحديات التي تعترضها. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]، وقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

لقد أظهر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في القرآن الكريم الكثير من سُنن الكون وأخفى الكثير منها كذلك؛ ليكتشف منها الإنسان في كل زمان ما يناسبه، وما يكون دليلًا جديدًا من الأدلة التي تؤكد صدق ما جاءت به الرسالة المحمدية الخاتمة. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٧ – ٤٠].

فكل هذه الآيات الكريمة وغيرها تنبه على سُنن الله المبثوثة في الكون، وتلفت أنظار البشرية إلى خالقها؛ حتى لا تنصرف عن ربها، وتنحرف عن ناموس الوجود.

٢) في مفهوم سُنن الاجتماع البشري:

إن سُنن الاجتماع البشري (أو السُّنن الشرعية) متعلقة بشرع الله تعالى وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وهي خاصة بالإنسان، إذ لا تمرد للطبيعة على فاطرها جَلَّ وَعَلَا. وهذا النوع من السُّنن يملك الإنسان معه حرية الاختيار ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ لكن عليه أن يتحمل تبعات اختياره ونتائجه: إكراما أو عقوبة، ونعيما مقيما أو عذابا مهينا.

وقد عرَّفها الشيخ محمد الغزالي (ت: ١٤١٦هـ) بقوله: «هي تلك القوانين المطردة والثابتة التي أودعها الله في الحياة البشرية، والتي تُشكِّل إلى حدّ كبير ميكانيكية الحركة الاجتماعية وتعين على فهمها»(١).

وعرَّفها الدكتور عماد الدين خليل: «إنها المبادئ الأساس التي تحكم حركة التاريخ البشري في ماضيه وحاضره ومستقبله»(٢).

ومجمل القول: السُّنن الاجتماعية هي: النواميس المتحكمة في الإنسان - باعتباره فردًا وجماعةً وأُمّةً - وفي فكره وسلوكه وحركته في المجتمع وفاعليته في التاريخ، أو هي مجموعة من القواعد والضوابط والمبادئ والأحكام التي رسمها الله تعالى من أجل إصلاح حال الأفراد والجماعات والأمم في شؤونهم الدنيوية والأخروية، والارتقاء بالنفس البشرية إلى المراتب العلوية، وهي سُنن لا تتغيَر ولا تتبدّل ولا تتحوّل.

والقرآن الكريم أَوْلى اهتمامًا كبيرًا لفقه السُّنن الاجتماعية، من خلال حديثه عن مجموعة من السُّنن العامة، وتوجيه الاهتمام للعناية الشديدة بها، من خلال

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن، لمحمد الغزالي (ص٤٩).

(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، لعماد الدين خليل (ص٩٧).

الدراسة السننية للتاريخ الاجتماعي والحضاري للمجتمعات البشرية عامة، قال الله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران: ١٣٧]. فالقرآن الكريم «يربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها.

وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم، ولم تكن تجاربهم - قبل الإسلام - لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة، لولا هذا الإسلام - وكتابه القرآن - الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا»[(١)].

ولذلك فإبراز السُّنن الاجتماعية المبثوثة في القرآن الكريم؛ تُعَرِّفنا حقيقة أنفسنا وسلوكنا وعلاقاتنا، وعلى حقيقة المجتمعات الإنسانية، كما تُمكِّننا من فهم طبيعة المجتمع المعاصر وحاجاته وتحدياته والتحكم فيه من ناحية أخرى، وفهم شروط تحقيق الفعالية في حركة الخلافة والعمران البشري.

وعليه؛ فإن السُّنن الإلهية الكونية هي أشبه ما تكون بقضبان الحديد التي يسير عليها القطار، وتحكم وجهته بصرامة، حيث لا يستطيع أن يعدل عنها، أو يخرج عليها، فإذا حاد عنها تعرض للخطر، بينما السُّنن الاجتماعية التي تحكم قضايا الإنسان هي أقرب لحركة السيارة التي تحدد الاتجاه والهدف، ويمتلك السائق معها حرية الحركة أكثر في الوصول إلى غايته، وكل محكوم باتجاه، وإن اختلفت طبيعة حركته ومداها[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٤٤٩).

(٢) مراجعات الفكر والدعوة والحركة، لعمر عبيد حسنة (ص٩). علم السُّنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العلمي، لكهوس (ص٢٩).

خلاصة القول:

إن سُنن الكون وسنن الاجتماع تمثل إعجازا قرآنيا خالدا، وناموسا ثابتًا ومطردا، يمثل القواعد الأساس للحياة الإنسانية المستقيمة.

وهي بنوعيها تخرج من مشكاة واحدة؛ ولا يمكن الفصل بينهما، وقد قرن الله في آيات كثيرة من كتابه العزيز بينهما، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج: ٦٠، ٦١].

قال الشيخ الطاهر ابن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية: «أي لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين؛ فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرهما على العكس حينا آخر، قادر على تغليب الضعيف على القوي، فصار حاصل المعنى: ذلك بأن الله قادر على نصرهم.

والجمع بين **ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل** للإيماء إلى تقلب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالبا، ويصير ذلك الغالب مغلوبا»[(١)].

وهكذا تربط الكثير من الآيات القرآنية بين السُّنن الإلهية التي يخضع لها نظام الكون، والسُّنن الإلهية التي تحكم سلوك البشر، وليس ذلك عبثا ولا صدفة، ولكن لحكم جليلة، وأسرار بليغة، ولعل من ذلك جعل الإنسان ينصرف من الإعراض والاستكبار عن ذكر ربه إلى الاهتداء بما جاءت به رسالة الإسلام من تشريعات وما دلت عليه من حقائق علمية

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٧/ ٣١٥).

المبحث الثاني

حجية السُّنن الإلهية وأثر مراعاتها والعمل بمقتضاها

المطلب الأول

حجية السُّنن الإلهية

يعتبر القرآن المجيد الآية الأولى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودليله الأعظم على نبوته ورسالته للعالمين، وهو يحمل الدليل من ذاته على أنه كلام الله تعالى، أوحى به لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإعجازه يثبت مصدره القرآني، وأنه كلام الله تعالى[(١)].

و«**من المعلوم ضرورة في الشرع أن القرآن كله قطعي الثبوت**، حيث نقل بالتواتر المستفيض جيلا عن جيل من حيث التحمل والأداء، فضلا عن أنه جُمع في عصر أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الجمع الأول ثم استكمل جمعه على ما هو عليه الآن في عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[(٢)]. كتابا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾ [فصلت: ٤١].

وحيث إن السُّنن الإلهية مذكورة في القرآن الكريم ومستمدة ومستنبطة من آياته، فلا غرو أن تكون قطعية الثبوت محفوظة المتن كشأن سائر القرآن، وقطعية الدلالة والاعتبار[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمّا الاستدلال بسُنَّته وعادته، فهو أيضًا طريق برهاني ظاهرٌ لجميع الخلق، وهم متفقون عليه؛ من يقول بالحكمة؛

---

(١) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، لصلاح الخالدي (ص٥).
(٢) السُّنن الإلهية في الأمم والافراد في القرآن الكريم، لمجدي عاشور (ص٤٩).
(٣) المرجع نفسه (ص٤٩ - ٥٠).

ومن يقول بمجرد المشيئة؛ فإنّه قد علم عادته سبحانه في طلوع الشمس والقمر والكواكب، والشهور والأعوام، وعادته في خلق الإنسان وغيره من المخلوقات، وعادته فيما عرفه الناس من المطاعم، والمشارب، والأغذية، والأدوية، ولغات الأمم: كالعلم بنحو كلام العرب وتصريفه، والعلم بالطب وغير ذلك.

كذلك سُنَّته تعالى في الأنبياء الصادقين وأتباعهم، وفيمن كذّبهم، أو كذب عليهم؛ فأولئك ينصرهم ويعزّهم، ويجعل لهم العاقبة المحمودة، والآخرون يهلكهم ويذلهم، ويجعل لهم العاقبة المذمومة؛ كما فعل بقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وفرعون وقومه؛ وكما فعل بمن كذّب محمدًا؛ من قومه قريش، ومن سائر العرب، وسائر الأمم غير العرب؛ وكما فعل بمن نصر أنبياءه وأتباعهم»(١).

وإنما تكون العبرة بالقياس والتمثيل، فإذا عرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذَّبهم، وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدَّقهم كان سعيدا، ومن كذَّبهم كان شقيا، وهذه سُنَّة الله تعالى(٢).

ولو لم تكن السُّنن الإلهية قطعية الدلالة لما أمر الله تعالى بالسير في الأرض والنظر فيمن جرت عليهم سُنَّته، في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾** ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

ومن هنا فهم العقلاء هذه الحجية للسن الإلهية، فاستدلوا بها وأقاموا من

---

(١) النبوات، لابن تيمية (٢/ ٩٥٨ – ٩٦٠).

(٢) مفهوم السُّنن الإلهية من الفهم إلى التسخير، لرمضان خميس (ص٩٣ – ٩٤).

خلالها الحجة على أقوامهم[١].

وهكذا يتبيَّن لنا أن السُّنن الإلهية قطعية الدلالة على مرادها؛ لأنها لو لم تكن كذلك لما كانت مطردة سارية على الجميع لا تتبدل ولا تتحول ولا تحابي أحدا.

أضف إلى ذلك أن الآيات المتعلقة بالسُّنن الإلهية لم يدخلها النسخ الذي يشمله معنى التبديل، لكونها من قبيل الأفعال والأخبار، وآيات القرآن الكريم الآيات تقرر أن سُنن الله تعالى لا يعتريها التبديل ولا التغيير.

ومن ثم يجب علينا «أن نجعل هذه السُّنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبيِّنون لها سُنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بيَّنها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه.

والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن سجل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها، ولا يحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها؛ فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وُضِعت لها الأصول والقواعد، وفُرِّعت منها الفروع والمسائل، وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السُّنن وعالمين بمراد الله من ذكرها. يعني أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سُنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم»[٢].

---

(١) المرجع نفسه (ص٩١ - ٩٢).
(٢) تفسير المنار، لمحمد رضا (٤/ ١١٤).



وعلاوة على ذلك فإن الله جَلَّ وَعَلَا **لما جعل الإنسان خليفة في الأرض،** لم يتركه سدى، ولم يدعه هملا، بل شرع له شرائع وسنَّ له نواميس، وفصَّل لهم كل شيء تفصيلا، وبيَّن له ما نزل إليه، وما جاء به نبيه الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمره بالتزامها وعدم الحياد عنها، ونبهه إلى مغبة الحياد عن سُنن الحق.



المطلب الثاني

آثار مراعاة السُّنن الإلهية والعمل بمقتضاها

إن الحديث عن السُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية يعد منارة للأمة المسلمة اليوم في ظلمات هذا العصر بما فيه من محن وفتن ومعضلات... ذلك بأن الأمة التي تستنير بهدي السُّنن وتستضيء بنورها لن تضل أبدا عن الطريق المستقيم، ولن ينطفئ نورها.

وتتجلى أهمية معرفة السُّنن الإلهية في كونها من الواجبات الدينية والضرورات الشرعية؛ لأن معرفتها تمكننا من إدراك الكثير من الأحكام التكليفية وعللها، وما انبنت عليه الشريعة الغراء من العدل المحض.

يقول عبد الكريم زيدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن معرفة سُنن الله جزء من معرفة الدين أو لمعرفة جزء من الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية، ومن الواجبات الدينية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه، ونظفر بما وعد الله عباده المؤمنين المتقين»(١).

كما تتجلى أهميتها في أنها تبعث الطمأنينة والوضوح في نفوس أتباع هذا الدين الإلهي، فضلا عن تقديم رؤية شمولية لتاريخ البشرية من خلال تقديم تفسير صحيح له، وبيان أسباب الرقي والاندثار فيه، حتى يكون الإنسان قادرًا على الاعتبار من التاريخ، والاستفادة من التجارب الناجحة فيه، سعيا للوقاية الحضارية وتحقيق الشهود الحضاري.

---

(١) السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، لزيدان (ص١٧).

وعليه، فإن مستقبل العمران البشري الذي ترنو إليه الأمة المسلمة وتشرئب له الأعناق لن تصل إليه الأمة إلا بتسخير هذه السُّنن الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية والعمل بمقتضاها.. وإن أول طريق يمر عبره هذا التسخير هو الكشف عن السُّنن الإلهية التي نبه عليها القرآن الكريم، وحث على إدراكها ووعيها والإحاطة بها والتوسع في معرفتها بتفاصيلها وجزئياتها، والأخذ بها، والسير على سكَّتها.

ذلك بأن فقه السُّنن الإلهية «لا يشكل لنا وقاية من الأزمات والإصابات التي يمكن أن تلحق بنا بسبب جهلها أو تجاهلها ومحاولة تجاوزها وحسب، وإنما فقه السُّنن يشكل لنا دليلا للتعامل مع الأزمات وكيفية إدارتها بعد وقوعها، وتجنبها قبل وقوعها»[١].

ومن هذا المنطلق فإن تعرُّف السُّنن الإلهية هو السبيل الأمثل لفهم الظواهر الاجتماعية وحركة التاريخ وفاعلية الإنسان فيه، وبقاء الأمم واندثارها، وهو المهيع الصحيح لفهم الحياة المعاصرة، ووضع الخطط الناجحة للخروج من الركود والعجز الحضاري وتصحيح المسار والرقي إلى مكان الصدارة والريادة، وتحقيق الدورة الإنجازية الكبرى والشهود الحضاري.

إن فقه السُّنن الإلهية والتعامل معه بوعي وعلى بصيرة من شأنه أن يخلص الأمة من أغلال الذرائعية، وقيود الاتكال، وآصار الفكر الإرجائي، وأن يسددها على سكة الصواب ويبعث فيها روح الحيوية والانبعاث من جديد.

يقول الأستاذ إبراهيم بن علي الوزير: «إن في تاريخ كل أمة منعطفا يتاح فيه للأمة تغيير مجرى حياتها بتأمل السُّنن وفهمها ودراستها والاستفادة منها

(١) المنهج السنني، لعمر عبيد حسنة (ص٧٤).

للخروج من وهنها وضعفها وضياعها بين الأمم... إلى مكان عزيز منيع ... فإن لم تستفد من هذا المنعطف التاريخي، فإن قوارع الآيات وعجائب النكالات تنزل بها متدفقة عليها من كل جانب، آخذة عليها كل سبيل حتى تنقرض وتزول أو يستقيم ما بنفسها فيصلح أمرها»[(١)].

ولقد دعا بديع الزمان النورسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسلمين دعوةً صريحة إلى تسخير ما بث الله في هذا الوجود من سُنن؛ من أجل تحقيقِ نهضة حضارية رائدةٍ وانبعاث إسلامي جديد، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينا أثر السُّنن في نهوض الأمم وسقوطها: «فكما أن هناك طاعة وعصيانا تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعة وعصيان تجاه الأوامر التكوينية. وغالبا ما يرى الأول مطيع الشريعة والعاصي لها جزاءه وثوابه في الدار الآخرة، والثاني مطيع السُّنن الكونية والعاصي لها غالبا ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا.

فكما أن ثواب الصبر النصر، وجزاء البطالة التقاعس والذل والتّسَفُّل، كذلك ثواب السعي الغنى، وثواب الثبات التغلبُ»[(٢)].

ويضيف في موضع آخر: «إن من يشقُّ طريقا في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركةً، لا يستثمر مساعيه، ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقي، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع أعماله في سبيل التخريب والشر»[(٣)]. ويقول أيضا مخاطبا ساسة الأمة ورعاتها: «يا أولياء الأمور! إن أردتم التوفيق فاطلبوه في موافقة أعمالكم للسنن الإلهية في الكون - أي قوانين الله - وإلا فلن تحصدوا إلا الخذلان والإخفاق»[(٤)].

---

(١) دراسة في السُّنن الإلهية والمسلم المعاصر، لابن علي الوزير (ص١١).
(٢) الكلمات، للنورسي (ص٨٧٢).
(٣) اللمعات، للنورسي (ص٢٥٧).
(٤) صيقل الإسلام، للنورسي (ص٥٣١).

ومن ثم فإن أي محاولة للتغيير الاجتماعي تتنكب سُنن الله تعالى فمآلها الفشل الذريع.

هكذا يجب الربط بين حركة الإنسان نحو التغيير والنهضة الاجتماعية، وسنن الله تعالى في الوجود، هذا الربط الذي من شأنه أن يعمِّق النظر ويرسم المنهاج المستقيم في اكتشاف ما في الكون من سُنن ثابتة ومطردة، وربطها بقوانين التشريع الاجتماعي، لتحقيق النهضة الشاملة لحضارة الإسلام في ظل الواقعِ المعاصر.

وبناء على ما تقدم، فإن الوعي بالسُّنن الإلهية وتسخيرها والسير على هداها هو المدخل الرئيس والمنطلق الصحيح لنهضة الأمة وسياسة الرعية.

ومن ثم فإن على دعاة الإصلاح والتغيير الإحاطة بالسُّنن الإلهية في الإصلاح والتغيير والنهوض قبل العمل والإنجاز، قياسا على سُنن الله التي تحكم حركة الكون بمفرداته كلِّها، وتنظِّمها في ميزان متراصٍّ.

فبدون معرفة بسنن الاجتماع، وسنن الكون، لا يمكن لحركات التغيير الاجتماعي والنهوض الحضاري أن تستأنف عملا إصلاحيا سديدا، بل ستقذف جهودها إلى صحراء العدم.

فلا ريب إذن أن يؤدي عدم التعامل مع سُنن الله بشكل صحيح، وإغفالها وعدم إدراك كنهها، والتقصير المعرفي بها إلى استنزاف الكثير من طاقات المسلمين ومساعيهم، وتعثر خطواتهم في طريق البناء والرقي والصيرورة الاستخلافية والشهود الحضاري.

ولذلك يعتبر الزيغان عن منهاج السُّنن الإلهية، والعدول عن كشف ما تتضمنه من عبر وعظات ونواميس مطردة تأخذ بيد الأمم إلى بر الأمان وشاطئ النجاة، وتنأى بها عن السقوط في المهاوي والزلات، وتوجيه البحوث لدراستها واستنباطها والاستفادة من الوقوف على معطياتها؛ مما أورثنا التأخر عن الركب

الذي نعيشه ونعاني منه.

فالسُّنن الإلهية هي التي تسير حركة التاريخ وتفسر أحداثه، وفق مسالك مقننة لا سبيل للخروج عنها. والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجده حافلا بالحديث عن هذه السنن، وقد بينتها السُّنَّة المُطهَّرة الصحيحة في مواطن كثيرة.

فواجب على الإنسان المسلم «أن يفقه سُنن الله فقها شاملا واعيا يهدي إلى سبيل الرشاد، ينفع الأمة ويكشف الغمة، وعلى ضوئها وفي نوره يبني مجتمعه العمراني الإسلامي ويستنبط منهاجه»[1].

يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ داعيا إلى مراعاة السُّنن الإلهية وإعمالها: «فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول»[2].

ويقول الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع، أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه، فمهما بحث الناظر وفكّر، وكشف وقرَّر، وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه،

---

(١) سنة الله في جهاد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لرشيد كهوس (ص٨).

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٤٥٠).

ولا تنفر منه، فَلِمَ لا يعظم تسامحها معه»[١].

إذن، فالكون تحكمه سُنن الله تعالى التي يرتبط رقي الإنسان بمعرفتها وتسخيرها، فهو لا يستطيع أن يمارس حريته إلا في نطاق ناموس الوجود المحيط به، كما أنه لا يستطيع أن يغير سننه وقوانينه، وإنما يستطيع أن يستثمرها ويسخرها ويستفيد منها وحسب، والسير في الكون على نظام وفقًا لسنن معينة في تقديراتها الكمية والكيفية، هو القدَر، أو هو من القدَر.

فالله تعالى هو جعل للحياة والكون نظاما وسُننا، وهو مسخِّر الأسباب، والوصول إلى هذه الأشياء بسعي الإنسان، وكل شيء حسن بهذا الاعتبار؛ لأنه مظهر الإبداع والنظام. ولا يقع الإنسان في شيء يسوءه إلا بتقصير منه في استبانة الأسباب وتعرُّف السنن، وقد أوتي قدرة على العمل اختيارا في تقدير الباعث الفطري وما يترتب عليه من درء المضار وجلب المنافع.

فينبغي لمن أصابه سوء أن يبحث عن سببه من نفسه، وألا يكتفي بإسناده إلى غيره؛ لأن السيئة تصيب الإنسان بتقصيره وخروجه عن سُنَّة الله في التماس المنفعة من أبوابها، واتقاء المضار باتقاء أسبابها؛ لأن الأصل في نظام الفطرة البشرية هو ما يجد الإنسان في نفسه من ترجيح الخير لها على الشر، والنافع على الضار[٢].

ولعل تدبر آيات القرآن الكريم وفق هذه الرؤية الشاملة الكاملة يجعلنا نقف على المنهاج القرآني لكيفية التعامل مع الحياة الإنسانية من جوانبها كلها، ويقصر الطريق أمامنا عن طريق الاستفادة مما وقع للأمم الغابرة من ازدهار وانهيار، وقيام

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مجلة المنار، ١٦ جمادى الآخرة - ١٣٢٠هـ، المجلد الخامس (ص٤٤٣). أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام، لطنطاوي (ص١٨).

(٢) ينظر: مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، لمحمود نفيسة (ص٥١٧). وتفسير المنار، لرشيد رضا (٥/ ٢١٨). ونظام الإسلام العقيدة والعبادة، لمحمد مبارك (ص٨٣).

وسقوط؛ من أجل العمل وفق سُنن النهوض، وتجنب سُنن السقوط.

والجدير بالذكر هنا أننا من خلال السُّنن الإلهية يمكن أن «نفسر الإصابات والارتكاسات، وتوالي الهزائم، واستمرار السقوط، والانحدار، والانكسار، والتراجع الذي يمنى به العالم الإسلامي والمسلمون بشكل عام»[(١)].

ومن شأن هذه السُّنن أيضا أن توقفنا على مقومات النهوض، وأن تساعدنا على إدراك المقاصد وإبصار المخارج، وتحصيل المؤهلات، وامتلاك الوسائل في مسيرتنا العمرانية، ومن شأنها أن تمكننا من تصويب الحاضر وإدراك أسباب تغيير المجتمع إلى الارتقاء أو الارتكاس للاهتداء إليها والاتعاظ بها لبناء المستقبل ولتحقيق الوقاية الحضارية[(٢)].

ذلك، ولو «تأمَّل المسلمون تاريخ أمتهم مليا؛ لأدركوا أن عزتها ومجدها وسمو حضارتها كان مرتبطا بسنن قرآنية وقواعد وضوابط ربانية محددة لا تتخلف إلا بقدر ما يتخلفون هم عنها»٣.

وتأكيدا لضرورة العمل بمقتضى السُّنن الإلهية وتسخيرها، يقول الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصبحنا نسمع بضرورة الإفادة من هذه السنن، بل لعل ذلك أصبح قناعة عند الناس بشكل عام، لكن هذه القناعة لم تجد طريقها إلى الممارسة، ولم تنتقل بمواقعنا إلى مراحل تغييرية (...) ولو أخذت أبعادًا حقيقية لكانت الأمة انتقلت من الفكر إلى الفعل، فالتحول وإعمال السُّنن هو المختبر الحقيقي لإدراكها والقناعة بها. إن هذه القضية لم تُشكِّل مناخا عاما يعيشه

---

(١) من فقه التغيير، لعمر حسنة (ص٩٤).

(٢) رؤية في منهجية التغيير، لعمر حسنة (ص٣٠).

(٣) نحو تجديد منهج النظر في قضايا الفكر الإسلامي آراء وتحاليل، للمصطفى الهند (ص١٩).

المجتمع، أو لم تحفر بعد في واقع الأمة المجرى المطلوب لسيرورتها»[١].

وهكذا فمن «اتخذ سُنن الله مطية في بدايته أشرقت نهايته، وبوركت مسيرته، وثبتت أركان دولته ثبات الكلمة الطيبة التي مثلها القرآن الكريم بشجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. ومن نأى عنها وحاد عن مهيعها؛ استدرجه قدر الله من حيث لا يحتسب، وجاءه حتفه من حيث لا يشعر»[٢].

❁ ومن السُّنن التي يجب مراعاتها مثلا سُنَّة الله في الأسباب ومسبباتها:

ذلك بأن القرآن الكريم حافل بالآيات التي تدعو إلى مراعاة الأسباب والمسببات، ألم يقل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأم عيسى مريم البتول عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [سورة مريم: ٢٥]، وهو القادر أن يقول للشيء، كُنْ فيكون، ومع ذلك أمرها باتخاذ الأسباب.

ومن هذه الآيات الكريمة كذلك التي تتحدث عن الأسباب وضرورة الأخذ بها والتعامل معها لتكون عبرة لأولي الأبصار قولـه جَلَّوَعَلَا عن ذي القرنين الذي سخر الله له الأسباب: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٤].

وقوله تعالى في أسباب الرزق: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢].

وسنة الله تعالى في الأسباب والمسببات تشغل مساحة واسعة وكبيرة بالنسبة

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن، للغزالي (ص٥٣).

(٢) السُّنن الإلهية في السيرة النبوية، لكهوس (ص١٤٠).

للسنن الأخرى، بل إن السُّنن الأخرى تقوم كلها على سُنَّته تعالى في الأسباب بصورة مباشرة أو غير مباشرة، حتى لتبدو للمتأمل فيها كأنها من مفردات سُنَّة الله في الأسباب وليست سننا مستقلة، وكل السُّنن تبقى مع ذلك قائمة على سُنَّة الله تعالى في الأسباب ومعتمدة عليها.

وما أصاب الأمة الإسلامية اليوم، إلا بسبب كسلها وخمولها، واكتفائها بالأماني المعسولة والأحلام، وعدم الأخذ بأسباب التغيير والبناء، فكان حالها ما نراه اليوم من الخطوب التي تلهب ظهرها بكرة وعشيًّا.

والحاصل أن المسلم يأخذ بسنن الأسباب، ولا يعتقد بأن الأسباب هي المنشئة للمسببات، بل يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، ويتعلق به عَزَّوَجَلَّ وحده بعد الإعداد وتوفير الأسباب، وأداء واجبه في السعي والكدح والعمل طاعة لأمر الله تعالى.

والإيمان بالله تعالى والاعتماد عليه لا ينافي أبدًا الاستفادة من سُنن الله التي جعلها في الكون، ولا يناقض اتخاذ الأسباب.

ولذلك فإن الله تَبَارَكَوَتَعَالَى إذا أراد وقوع شيء في هذا الوجود هيَّأ له أسبابه التي يقع بها، لأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى «جعل نظام هذا الكون مبنيًا على سُنن لا تنخرم، وقوانين لا تنخرق إلا بمشيئته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، كما هو الشأن في المعجزات وخوارق العادات، وهو استثناء من القاعدة التي قام عليها الكون من اعتبار الأسباب حقيقة في الوصول إلى مسبباتها، وقد قيل: إذا أراد الله أمرًا يسَّر أسبابه»[(١)].

فترك الأسباب إذن جهل بالدين؛ لأن سُنَّة الأخذ بالأسباب لها علاقة وطيدة بسنن أخرى: كسنن الرزق، والهدى، والإصلاح، والتغيير الفردي والاجتماعي، والبناء الحضاري، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

---

(١) السُّنن الإلهية، لعاشور (ص١٤٩).

فالتقصير في تحصيل سُنن الله التي أمرنا بالسير على هديها تترتب عليه نتائج وخيمة، ومن ثم لا يتأتى على هذا التقصير في تحصيلها مدد من الله، أو خرق لناموسه الكوني الذي قام نظام الحياة فيه على ارتباط النتائج بمقدماتها، وفضل الله لا يتأتى بمعصيته، ولذلك فانتظار خرق الناموس الكوني دون السعي الحثيث واتخاذ الأسباب المطلوبة شرعًا يعد وهمًا مآله الخيبة والخسارة.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربط الأسباب بمسبباتها شرعًا وقدرًا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني، ومحل ملكه وتصرفه، فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات، وقدح في العقول والفطرة، ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء، فقد جعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، والثواب والعقاب والحدود والكفارات، والأوامر والنواهي، والحل والحرمة - كل ذلك - مرتبطًا بالأسباب قائمًا بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه ، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات، والشرع كله أسباب ومسببات، والقدر جار عليها متصرف فيها.

فالأسباب محل الشرع والقدر، والقرآن مملوء من إثبات الأسباب ولو تتبعنا ما يفيد ذلك من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع حقيقة لا مبالغة(١).

لذلك وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما علمه من السُّنن الإلهية في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، معتقدًا أن الأسباب لم تكن أسبابًا إلا بتسخير الله تعالى وأن ما يناله باستعمالها، فهو من فضل ربه الذي سخرها وجعلها أسبابًا وعلمه ذلك(٢).

(١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي (١/ ١٨٩). شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية (ص٣٩٣).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٩٣).



فشأن المؤمن المتوكل في دائرة الأسباب أن يطلب كل شيء من سببه، خضوعًا لسننه تعالى في نظام خلقه، وهو بذلك يطلبها من حيث أمره أن يطلبها أمرًا تكوينيًا قدريًا وتشريعيًا وتكليفيًا[1].

خلاصة القول: إن السير في الدنيا دون الوقوف على شيء من علم السُّنن ضرب في متاهة، ومشي في غياهب الظُّلَم بلا دليل يقود، ولا هاد يرشد، ولا صاحب يدل؛ لأنه فَقْدٌ لاستصحاب جزء من المعرفة التي يترتب عليها الإعداد لكل نازلة، أو الإفادة من كل منحة[2].

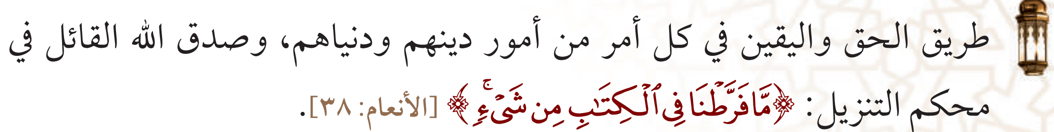
وإن السُّنن الإلهية التي سار عليها الرعيل الأول رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وحققوا بها الريادة والصدارة، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس، هي نفسها الخالدة في كتاب رب العالمين بشرائطها وموانعها لم تتغير ولم تتبدل، صالحة لكل عصر ومصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فما على الأمة اليوم إلا أن تجدد النظر في هذا الكتاب الحكيم حتى يتبين لها إعجازه الخالد وأسرار آياته وسُننه، فتسلك طريقه فتحقق بذلك ما عجزت عن تحقيقه الأمم.

وهكذا يبقى القرآن الكريم المعجزة الخالدة، كنز يستفتحه كل عصر بأدواته ليأخذ منه ما تسنى له من جواهره ودرره، ويقتبس من أنواره، ويقف عند فوائده وفرائده، وهو كريم كلما استثير أعطى، وهو منبع العلوم والمعارف ومفتاح الهدى والرشاد، والحل الوحيد لكل المشكلات والمعضلات التي حلَّت بنا اليوم؛ لأنه ليس بمعزل عن الحياة الإنسانية ومشكلاتها وعقباتها وتقلباتها، بل جاء ليهدي الناس جميعا إلى سننه تعالى الكونية والاجتماعية، ويقودهم إلى

---

(١) المرجع نفسه (١٠/ ١٢٧).

(٢) فقه السُّنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها قراء في فكر الإمام محمد عبده، لرمضان خميس (ص٣٩).



طريق الحق واليقين في كل أمر من أمور دينهم ودنياهم، وصدق الله القائل في محكم التنزيل: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ٣٨].





خاتمة

من خلال ما سبق نصل إلى النتائج الآتية:

- **إن القرآن الكريم أبرزَ السُّنن الإلهية**، وبيّن أهميتها في حياة الأفراد والأمم والحضارات وأثر العناية بها.
- **إن أصل علم السُّنن الإلهية في القرآن الكريم الذي أسبغ عليه المشروعية**، فالسُّنن الإلهية بذلك قطعية من حيث الثبوت والدلالة والاعتبار.
- **إن السُّنن الإلهية منها ما يتعلق بالكون** (وهذا النوع خارج عن إرادة الإنسان واختياره)، ومنها ما يتعلق بسلوك الإنسان - وحركته في المجتمع والتاريخ - وتكليفه الشرعي. وهذان النوعان مرتبطان بينهما ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.
- **إن عدم مراعاة السُّنن الإلهية في الحياة الإنسانية** له آثار وخيمة على الإنسان فردًا أو جماعةً أو أُمّةً وحضارةً.
- **إن التدبر السُّننيّ للقرآن الكريم يعطينا رؤية كلية تكاملية شاملة للكون والحياة**، ويأخذنا في اتجاه جديد صحيح أكثر فعالية وأصالة وتأثيرًا، وينقلنا من حالة ترديد آيات لا ندرك معناها ولا مغزاها ولا كنهها، إلى تدبر سُننيّ واع يعقبه عمل وتطبيق، وينقلنا من النظرة الجزئية الضيقة للنص القرآني، إلى النظرة الكلية المقاصدية السُّننيَّة المنضبطة، التي تكشف لنا ما وراء النص من سُنن وأحكام مطردة، تنفعنا في مسيرتنا العمرانية الاستخلافية نحو المستقبل المنشود، ونحو الحياة الخالدة عند رب العالمين.



توصيات البحث

يوصي الباحث بإدراج مادة «السُّنن الإلهية» ضمن المساقات الدراسية بجامعات العلوم الشرعية وكلياتها.

كما يوصي الباحثين بتخصيص رسائلهم الجامعية في دراسة السُّنن الإلهية في القرآن الكريم، تنظيرًا وتطبيقًا.

والحمد لله رب العالمين.





المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

١. «أحكام القرآن». الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحنفي (ت: ٣٧٠هـ). تحقيق: محمد صادق القمحاوي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ.

٢. «أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام». طنطاوي، جوهري. مصر: طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.

٣. «أساس البلاغة». الزمخشري، جار الله فخر خوارزم محمود بن عمر. قدم له وشرح غريبه وعلق عليه: محمد أحمد قاسم، ط١، صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٤. «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية». عبده، محمد. مجلة المنار، م(٥)، ج(١٢)، ١٦ جمادى الآخرة ١٣٢٠هـ - ١٩ سبتمبر ١٩٠٢م (ص ٤٤١-٤٦٥).

٥. «أزمتنا الحضارية في ضوء سُنَّة الله في الخلق». كنعان، أحمد محمد. تقديم: عمر عبيد حسنة. كتاب الأمة (٢٦)، ط١، قطر: مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون بدولة، المحرم ١٤١١هـ.

٦. «إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني». الخالدي، صلاح. ط١، عمان: دار عمار، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٧. «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز». الفيروزآبادي، مجد



الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ). تحقيق: محمد علي النجار، ط٣، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٨. «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد». ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤هـ.

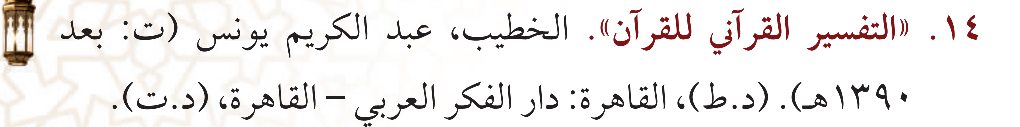
٩. «التفسير الإسلامي للتاريخ». خليل، عماد الدين. ط٤، بيروت: دار العلم للملايين، نوفمبر ١٩٨٣م.

١٠. «تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن». الهرري، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي. إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، ط١، بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١١. «تفسير القرآن». السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ). تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط١، الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٢. «تفسير القرآن الحكيم» (تفسير المنار). رضا، محمد رشيد بن علي القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ). (د.ط)، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٣. «تفسير القرآن العظيم»، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ). تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.



١٤. «**التفسير القرآني للقرآن**». الخطيب، عبد الكريم يونس (ت: بعد ١٣٩٠هـ). (د.ط)، القاهرة: دار الفكر العربي – القاهرة، (د.ت).

١٥. «**تفسير الشعراوي–الخواطر**». الشعراوي، محمد متولي (ت:١٤١٨هـ). (د.ط)، مصر: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

١٦. «**تفسير المراغي**». المراغي، أحمد بن مصطفى (ت ١٣٧١هـ). ط١، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م.

١٧. «**التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**». الزحيلي، وهبة بن مصطفى. ط٢، دمشق: دار الفكر المعاصر، ١٤١٨هـ.

١٨. «**تفسير النكت والعيون**». الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت: ٤٥٠هـ). تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت).

١٩. «**التيسير في أحاديث التفسير**». الناصري، محمد المكي (ت: ١٤١٤هـ). ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

٢٠. «**الجامع لأحكام القرآن**». القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين (ت: ٦٧١هـ). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

٢١. «**جامع الرسائل**». ابن تيمية، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم



بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ). تحقيق: محمد رشاد سالم، ط١، الرياض: دار العطاء، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٢. «رؤية في منهجية التغيير». حسنة، عمر عبيد. ط١، بيروت، دمشق، عمان: المكتب الإسلامي، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٣. «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني». الألوسي، محمود أبو الفضل. (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٢٤. «زهرة التفاسير». أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف (المتوفى: ١٣٩٤هـ). (د. ط)، دار الفكر العربي، (د. ت).

٢٥. «السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية». زيدان، عبد الكريم. ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة. ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٦. «السُّنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط». عاشور، مجدي محمد. إشراف: مصطفى محمد الشكعة. تقديم: علي جمعة، ط١، القاهرة: دار السلام، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٧. «السُّنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك». الخطيب، شريف الشيخ صالح أحمد. ط١، الرياض: مكتبة الرشد لنشر والتوزيع، عَمَّان: الدار العثمانية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٨. «السُّنن الإلهية في السيرة النبوية». كهوس، رشيد. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م.

٢٩. «سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم دراسة تأصيلية تطبيقية». جاسم، بكار محمود الحاج. ط١، دمشق - بيروت: دار النوادر، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٣٠. «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها». هيشور، محمد. ط١، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (٣٠)، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٣١. «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل». ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي الجوزية. (د.ط)، بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٣٢. «صيقل الإسلام». النورسي، بديع الزمان (ت: ١٣٧٩هـ). ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط٣، مصر: شركة سوزلر، ٢٠٠٢.

٣٣. «على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر». الوزير، إبراهيم بن علي. ط٤، مصر - لبنان: دار الشروق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٣٤. «علم السُّنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي». كُهُوس، رشيد. ط١، دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٣٥. «فقه السُّنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها قراءة في فكر الإمام محمد عبده». زكي، رمضان خميس زكي. ط١، القاهرة: دار المقاصد، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.



٣٦. «**في ظلال القرآن**». قطب، سيد إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ). ط١٧، بيروت، القاهرة: دار الشروق، ١٤١٢هـ.

٣٧. «**القاموس القويم في القرآن الكريم**». عبد الفتاح، إبراهيم أحمد. (د. ط)، القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م.

٣٨. «**الكلمات**». النورسي، سعيد. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط٢، القاهرة: نشر دار «سوزلر»، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٣٩. «**كيف نتعامل مع القرآن**». الغزالي، محمد. سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٤٠. «**لسان العرب**». ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ). ط٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.

٤١. «**اللمعات**». النورسي، بديع الزمان. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي. (د. ط)، مصر: سوزلر، (د.ت).

٤٢. «**مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث: دراسة تأصيلية مقارنة**». نفيسة، محمود محمد عيد. ط١، دمشق - بيروت: دار النوادر، ١٤٢١هـ- ٢٠١٠م.

٤٣. «**المثنوي العربي**». النورسي، بديع الزمان. تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ط١، مصر: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٤٤. «**مجموع الفتاوى**». ابن تيمية. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن



قاسم. (د. ط)، المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٤٥. «**محاسن التأويل**». القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت: ١٣٣٢هـ). تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

٤٦. «**مختار الصحاح**». الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. ط١، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٧م.

٤٧. «**مراجعات في الفكر والدعوة والحركة**». حسنة، عمر عبيد. منشورات المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط٢، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٤٨. «**المصباح المنير**». المقرئ، أحمد بن محمد بن علي الفيومي. ط٣، صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٤٩. «**مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**». الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي (ت: ٦٠٦هـ). ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٥٠. «**مفردات ألفاظ القرآن**». الأصفهاني، الراغب (ت٤٢٥هـ). تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٣، دمشق: دار القلم، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥١. «**مفهوم السُّنن الإلهية في الفكر الإسلامي**». محيي الدين، حازم زكريا. ط١، دمشق - بيروت: دار النوادر، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٥٢. «**مفهوم السُّنن الربانية**». زكي، رمضان خميس. ط١، القاهرة: مكتبة



الشروق الدولية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٥٣. «**مفهوم السُّنن الربانية من الفهم إلى التسخير**». زكي، رمضان خميس. ط١، القاهرة: دار المقاصد، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٥٤. «**معجم ألفاظ القرآن الكريم**». الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. ط٢، القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٥٥. «**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**». عبد الباقي، محمد فؤاد. (د. ط)، القاهرة: دار الحديث. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٥٦. «**معجم مقاييس اللغة**». الرازي، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ). تحقيق: عبد السلام محمد هارون. (د. ط)، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٧. «**الملاحق في فقه دعوة النور**». النورسي، بديع الزمان. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط٣، مصر: سوزلر، ١٩٩٩.

٥٨. «**من فقه التغيير ملامح من المنهج النبوي**». حسنة، عمر عبيد. ط١، بيروت، دمشق، عمان: المكتب الإسلامي، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٥٩. «**المنهج السنني أفق حضاري متجدد**». حسنة، عمر عبيد. ط١، بيروت، دمشق، عمان: المكتب الإسلامي، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٦٠. «**موسوعة الألفاظ القرآنية**». النَّعال، مختار فوزي. تقديم: بكري شيخ أمين، ط١، حلب، اليمامة، دمشق، بيروت: مكتبة دار التراث، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٦١. «**النبوات**». ابن تيمية. تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، ط١،



الرياض: أضواء السلف، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٦٢. **«نحو تجديد منهج النظر في قضايا الفكر الإسلامي آراء وتحاليل»**. الهند، مولاي المصطفى. ط١، الرباط: الرابطة المحمدية للعلماء، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٦٣. **«نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية: سُنَّة الله في جهاد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ»**. كهوس، رشيد. ط١، القاهرة: دار الحكمة، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٦٤. **«نظام الإسلام العقيدة والعبادة»**، المبارك، محمد. ط١، دمشق: دار الفكر، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٦٥. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾، رضا، محمد رشيد. (د. ط)، مجلة المنار، م(١)، (٣١)، ٢ جمادى الآخرة ١٣١٦هـ (ص٥٨٥ - ٥٩٢).





الفهرس

الموضـــــــــــــــــــــــــــــــــوع	رقم الصفحة





د . شَرِيفُ بنُ طه يُونُس

رئيس مجلس إدارة معهد العلم والعمل وأكاديمية المتدبر الصغير

- حصل على ماجستير طب الأطفال - جامعة بني سويف – مصر، وباحث دكتوراه بالمعهد العالي لدراسات الطفولة – جامعة عين شمس – مصر.
- فاز بالجائزة الأولى لقسم المناهج في المسابقة العالمية للهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، عن منهج «المتدبر الصغير - الإيمان قبل القرآن».
- له العديد من الأبحاث، منها: «دور التدبر في تيسير وتحسين تعلم القرآن والعمل به لدى الأطفال»، وشارك به في المؤتمر الدولي الثاني لتطوير الدراسات القرآنية، بالرياض. و«دور عسل النحل في علاج الإسهال عند الأطفال الرضع» (بالعربية والإنجليزية)، وشارك به في المؤتمر العالمي الحادي عشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمدريد بأسبانيا.
- له العديد من المؤلفات، منها: رحلة البحث عن أهل القرآن، رحلة اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن، الميلاد الجديد، بالوحي نحيا، كيف نسعد بسورة الفلق، مدارس العلم والعمل، الهروب من الفهم، سباق المحبين، أسعد أيامي، النشرة التعريفية بمنهج المتدبر الصغير، والنشرة التعريفية بمشروع القرآن علم وعمل، المنهج النبوي في تعليم الأطفال القرآن.
- بالإضافة إلى أكثر من عشرة مؤلفات موجهة للأطفال، وأكثر من عشرين مُؤَلَّفًا تحت الطبع.





ملخص البحث

موضوع البحث:

(سورة النصر) علم وعمل، دراسة تدبرية تطبيقية لسورة النصر، باستخدام منهجية مشروع (القرآن علم وعمل)، والذي يرتكز على المنهج النبوي في التعامل مع القرآن.

أهدافه:

تفعيل ما تم تأصيله في مشروع (القرآن علم وعمل) فيما يتعلق بالمنهجية النبوية في التعامل مع القرآن الكريم (علما وعملا)؛ لتقريب مسألة فهم القرآن وتدبره والعمل به والقيام بحقوقه والانتفاع الكامل به، ومساعدة المسلمين على الانتفاع الكامل بسورة النصر على الخصوص (علما وعملا) كمثال يحتذونه في هذا الطريق.

منهجه:

لم أعتمد منهجا واحدا في هذه الدراسة؛ لأن طبيعتها استلزمت في بعض المباحث أن أعتمد المنهج الاستقرائي بصورة أكبر، وفي أخرى أن أعتمد المنهج التحليلي، رغم أنه قد يندر أن يكون مبحث من مباحث الدراسة أو فصولها قد اقتصر على منهج واحد، لكن بصورة إجمالية كان للمنهج الاستقرائي أكبر نصيب، تلاه المنهج التحليلي.

وكانت عنايتي بالمسائل التي تخدم الفهم والتدبر والتطبيق بصورة مباشرة، حتى المباحث المتعلقة بالتفسير وعلوم القرآن التي تناولناها، تناولناها من زاوية مقاصدية، مع التأكيد على انعكاساتها العملية والتطبيقية.

واستخدمت الخرائط والتصميمات والأشكال التوضيحية؛ لتلخيص وإبراز العديد من النقاط.

❁ خطته:

وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد تجهيزي، وثلاثة مباحث، وختام تعزيزي. ثم جاءت الخلاصة مع أهم النتائج والتوصيات.

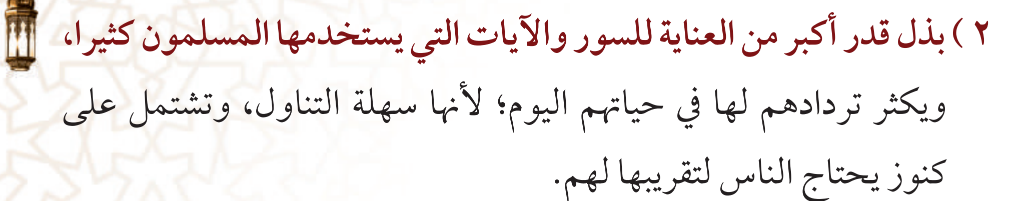
وحاولنا في هذه الدراسة تناول مجموعة مهمة من المتطلبات، وإجابة مجموعة من التساؤلات المتعلقة بالتدارس الكامل الشامل لسورة النصر، علما وعملا، تأصيلا وتفعيلا، وقد تم تلخيص تلك الأمور في: (النية)، و(المنهجية)، و(الأهمية)، و(الآلية)، و(النماذج الواقعية)، و(الاستمرارية).

❁ أهم النتائج:

أثبتت هذه الدراسة قابلية (منهج العلم والعمل) للتطبيق على سور القرآن الكريم، وأن سُنَّة النبي ﷺ حافلة بالآفاق التدبرية والتطبيقية المتعلقة بالآيات والسور القرآنية، وأن التعامل النبوي مع القرآن قد كان أعمق وأكمل من مجرد القيام بحقوق المباني من القراءة والتجويد وحفظ الرواية. وأن السور قصيرة المباني كسورة النصر، قد ضَمَّنها الله أعظم المعاني التي يحتاجها الإنسان لإصلاح دنياه وأخراه.

❁ أهم التوصيات:

١) **ضرورة اعتماد المنهج النبوي المتكامل في التعليم القرآني** (الإيمان والقرآن، والعلم والعمل) في مؤسسات التعليم القرآني، وتعميمه، وتدريب العاملين في مؤسسات التعليم القرآني على أصوله وقواعده، ودعوة جماهير المسلمين للعودة له.



٢) **بذل قدر أكبر من العناية للسور والآيات التي يستخدمها المسلمون كثيرا،** ويكثر تردادهم لها في حياتهم اليوم؛ لأنها سهلة التناول، وتشتمل على كنوز يحتاج الناس لتقريبها لهم.

٣) **ضرورة تبصير المسلمين (تأصيلا وتفعيلا)** بضرورة مطالعة السُّنَّة النبوية لمطالعة الآفاق التدبرية والتطبيقية للسور والآيات القرآنية؛ والتأكيد على أن تدارس السورة لا ينبغي أن يقتصر على ما جاء في كتب التفسير؛ لأن ذلك يؤدي غرضَ (التدارس العلمي)، لكن يبقى التدارس العملي (تدبرا واتباعا) هو الأهم.

الكلمات الدالة:

نصر، تدبر، علم، عمل، منهج، سُنَّة.





المقدمة

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وأصحابه ومَن اتَّبع هداهم إلى يوم الدين، ثمَّ أمَّا بعد:

فإن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل القرآن ليُعْمَل به، وأخبر أن أهم مقاصد إنزاله (العمل به)، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وأمر بالعناية بمعانيه تفهمًا وتدبرًا واتباعًا، فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وذَمَّ الذين لا يعتنون بمعانيه، والذين تكون علاقتهم بالمعاني منحصرة في تعلمها دون العمل بها، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

ورسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر أن أهل القرآن هم الذين يعملون به، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ، الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا**»(١). وَوَصَّانا بالعناية بمعاني القرآن، ولطالما أكَّد على أن العناية بالمعاني ينبغي أن تكون (علما وعملا)؛ فقال لحذيفة: «تعلَّم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ واعمل به؛ فهو النجاة»(٢).

وقد كانت سُنَّته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العملية متطابقة مع سُنَّته القولية على مستواه الشخصي، حين كانت علاقته بالقرآن علاقة (تَخلُّق)، وحين اعتنى بتفهم القرآن وتدبره واتباعه.

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٣ – «٨٠٥»)، ومسند أحمد (١٧٦٧٤)، وسنن الترمذي (٢٨٨٣).

(٢) رواه أحمد (٣٨/ ٣١٧) وحسنه الأرنؤوط، ورواه أبو داود (٤/ ٩٦)، والنسائي (٧/ ٢٦٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦/ ٢٤٢) بلفظ: «تعلم كتاب الله واتبع ما فيه».

أما على مستوى تعليمه ﷺ لغيره، فقد وصفه القرآن بأنه ﷺ كان يتلو الآيات، ويُعلِّم الكتاب (المعاني)، والحكمة (أكمل صور العمل)، ويتعاهد المتعلمين في تزكية (تطهير وتطوير) أنفسهم بما تعلَّموه من العلم والعمل.

وَوَصَفَه أصحابه بأنه كان يعتني بتعليمهم المعاني والمباني معا، وكان يُقَدِّم تعليم المعاني على المباني، وكان تعليمه للمعاني علما وعملا، ليس مجرد تفسير لها فحسب[1].

أهمية الدراسة:

ورغم أن ما سلف الحديث عنه أمور قد تظاهرت النصوص عليها، ولولا خشية الإطالة لفَصَّلنا فيها، إلا أن واقع كثير من المسلمين اليوم للأسف يشهد بقصور واضح في تطبيق المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم، فالبعض اكتفى بالمباني، والبعض تخطاها إلى المعاني لكن علما فقط، وغيرها من صور القصور عما كان عليه النبي ﷺ في التعامل مع القرآن.

إن التفسير ومجهودات المفسرين تهدف بالأساس إلى (بيان المعاني)، وهذا هو الأساس الذي ينبغي الارتكاز عليه والانطلاق منه في كل ما يلي فهم القرآن من حقوق: كالتدبر، والاتباع، وغيرها.

لكن التفسير في المنهج النبوي في التعامل مع القرآن (العلم والعمل) لا يُمَثِّل إلا شق (العلم)، ويبقى الشق العملي التطبيقي بحاجة إلى تناول، وهنا يأتي دور سنة النبي ﷺ أو البيان العملي، فنجد في سُنَّته ﷺ كيف كان تَخَلُّقه بالآية أو السورة؟ وكيف تدبرها؟ وكيف اعتنى بها عمليا؟ وما لا نجده

(١) راجع في كل ما يتعلق بحال النبي ﷺ مع القرآن متعلما ومُعَلِّما كتابنا: رحلة البحث عن أهل القرآن (النسخة المنظورة).

مخصوصا، نجد قواعد عامة في المنهج التطبيقي للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تهدينا سواء الصراط.

وتلك الأمور التطبيقية لا نجدها كاملة في كتب التفسير، بل في كتب (السنن)؛ لأنها لم تكن من شرط المفسرين عن تصنيفهم في التفسير، ولذا فإن المطلوب في التعامل مع الآية لن يتم الوصول إليه من كتب التفسير فقط، بل لا بد من مطالعة كتب (السُّنن)؛ لنتعرف من خلالها على آفاق التطبيق والتدبر الأثرية المنضبطة، فإننا نجزم أن مطالعة سُنَّته وسيرته تعتبر كأنها قراءة للقرآن، لكن من زاوية تطبيقية، كما نجزم أنه لا تكاد توجد آية أو سورة إلا وفي سُنَّته وسيرته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آفاق تطبيقية خاصة، أو قواعد عامة متعلقة بها.

ولو حصل ذلك اكتمل تشبُّع الإنسان بمصدرَي الهداية اللَّذَيْن وعد القرآن المُستهدي بهما - اتباعا لا اطلاعا - بالعصمة من الضلال والشقاء، والأمان من المخاوف والأحزان، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقد قرر كثيرٌ من المفسرين أن (الهدى) المقصود هنا يتكون من شقين؛ **الأول**: الرسالة التي أرسلها الله لخلقه (أي: الكتاب السماوي كالقرآن «ونعبر عنه بالنسخة المسطورة من الهدى»)، **والثاني**: الرسول البشري الذي أرسله الله بالرسالة (أي: السُنَّة التي أُثِرَت عن ذلك الرسول «ونعبر عنه بالنسخة المنظورة من الهدى»).

ولعل بعض الفضلاء يرى أنه لا حاجة لنا بذلك، نُفَسِّر الآيات فقط والدارس يتابع بنفسه مسألة العمل والتطبيق، فأحب أن أُذَكِّر مَن يرى ذلك من فُضلائنا أن القرآن لما تحدث عن دور المعلم، القرآن أخبر أنه يُعَلِّم (الحكمة)، وأخبر أنه يُزَكِّي المتعلمين، وهذا أمر أكمل من التربية، وأبعد من مجرد العمل. أَضِف



إلى ذلك أن الصحابة قد أخبروا أن من أركان المنهج النبوي في التعليم (تعليم العمل).

وإن يكن سلفنا لا يحتاجون لذلك، فواقعنا اليوم يشهد بحاجتنا الماسَّة لتعلم العمل، فما أكثر المنشغلين بالمباني؟ وما أكثر المنشغلين بالعلم؟ لكن هناك أزمة حقيقية في التخلق والعمل والسلوك، لا تخفى على أحد. فكيف وقد وصلَنا أن سلفنا اعتنوا بتعلم العمل؟!

وهذه الدراسة محاولة لتفعيل ما قمنا بتأصيله سابقا في مشروعنا القرآن علم وعمل[١]، فيما يتعلق بالمنهجية النبوية في التعامل مع القرآن الكريم (علما وعملا).

وقد وقع اختيارنا فيها على سورة (النصر)، واجتهدنا في التأصيل العلمي لما يتعلق بمباحثها من ناحية التفسير وعلوم القرآن، لكن ما رَكَّزت عليه هذه الدراسة هو تناول تلك المباحث في إطار مقاصدي عملي، مع التأكيد على انعكاساتها

---

(١) والمشروع عبارة عن برنامج عملي مرتب بصورة ميسرة، شعاره (بالوحي نحيا)، ويهدف إلى إحياء المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم (العلم والعمل، والإيمان والقرآن)، تعلما وتدبرا وعملا وتعليما، ويسعى لتقريبه لجميع المسلمين (صغارا وكبارا) على كل المستويات.

وفي مشروعنا نضع (العمل) نصب أعيننا؛ وندعو لترتيب الأولويات واستثمار الطاقات في الأهم فالـمُهِمِّ في التعامل مع القرآن في ضوء مراد الله منَّا فيما يتعلق به.

ومشروعنا يعمل في محورين: الأول منهما: مفاهيمي (تأصيلي)، لاستقراء المصطلحات التي تتناول طبيعة العلاقة بالقرآن وتحليلها وتسديدها وتيسير التحقق بها. من خلال رحلة قمنا بها على صفحات النسخة المسطورة من الهدى «الوحي» (نصوص القرآن والسنة «الأقوال»). أما الثاني: فمهاري (تطبيقي) لاستقراء منهج (النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) في التعامل مع القرآن الكريم، وطبيعة علاقتهم به. وتحليل هذا المنهج وتقريب مهاراته للناس وتدريبهم عليها، من خلال رحلة قمنا بها على صفحات النسخة المنظورة من الهدى «الوحي» (سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ «الأحوال»).

وقد بدأ المشروع منذ ما يربو على عشر سنوات، تم فيها - بفضل الله - تدريب ما يربو على عشرة آلاف متدرب ومتدربة على المشروع بمستويات متباينة من التدريب.

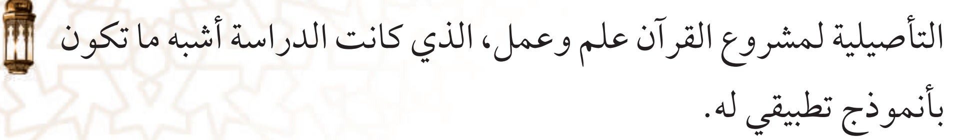


العملية والتطبيقية، والعناية الأكبر بالمسائل التي تخدم الفهم والتدبر والتطبيق بصورة مباشرة. كما تم عقد مباحث تطبيقية تفصيلية لما يتعلق بتدبر السورة واتباعها والقيام بحقوقها كاملة.

منهج الدراسة:

لم أعتمد منهجا واحدا في هذه الدراسة؛ لأن طبيعتها استلزمت في بعض المباحث أن أعتمد المنهج الاستقرائي بصورة أكبر، وفي أخرى أن أعتمد المنهج التحليلي، رغم أنه قد يندر أن يكون مبحث من مباحث الدراسة أو فصولها قد اقتصر على منهج واحد، لكن بصورة إجمالية كان للمنهج الاستقرائي أكبر نصيب، تلاه المنهج التحليلي.

* **حرصت على** أن أثبت أرقام الآيات بجوارها في النص.
* **حرصت على** ألا أستشهد إلا بحديث صحيح أو حسن، وأعرضت عن الضعيف وما دونه، مسترشدا في التصحيح والتضعيف بأحكام العلماء المعتبرين في هذا الفن: كشاكر، والألباني، والأرنؤوط، وغيرهم. ولم أتوسع في التخريج لكيلا تخرج الدراسة عن مقصودها التطبيقي.
* **تجنبت الخوض** في تفاصيل المسائل اللغوية، ومسائل النحو والإعراب وغيرها، وكانت عنايتي بالمسائل التي تخدم الفهم والتدبر والتطبيق بصورة مباشرة، حتى المباحث المتعلقة بالتفسير وعلوم القرآن التي تناولناها، تناولناها من زاوية مقاصدية مع التأكيد على انعكاساتها العملية والتطبيقية.
* **حرصت على** عزو الأقوال لأصحابها من مصادرها.
* **حاولت قدر الطاقة** وبما سمح به المقام التعريج على بعض المنهجيات



التأصيلية لمشروع القرآن علم وعمل، الذي كانت الدراسة أشبه ما تكون بأنموذج تطبيقي له.

* **استخدمت** الخرائط والتصميمات والأشكال التوضيحية، لتلخيص وإبراز العديد من النقاط.

الدراسات السابقة:

وقفت بفضل الله على دراسات كثيرة متعلقة بالشق العلمي (التفسيري) فيما يخص سورة النصر، ودراسات تجاوزت ذلك إلى الحديث عن تدبرها؛ لكنني لم أقف - في حدود علمي واطّلاعي - على دراساتٍ تطبيقيَّةٍ تتغيًّا تقريب مسألة العمل بسورة النصر وتدبرها وتعلمها والقيام بحقوقها كاملة بصورة منهجيَّةٍ منضبطة ترتكز على المنهجية النبوية في التعامل مع القرآن وتُناسب التطبيق على المستوى الشخصي، أو مستوى حلقات التدارس.

خطة الدراسة:

وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد تجهيزي، وثلاثة مباحث، وختام تعزيزي. ثم جاءت الخلاصة مع أهم النتائج والتوصيات.

وحاولنا في هذه الدراسة تناول مجموعة مهمة من المتطلبات، وإجابة مجموعة من التساؤلات، المتعلقة بالتدارس الكامل الشامل لسورة النصر، علما وعملا، تأصيلا وتفعيلا، وقد تم تلخيص تلك الأمور في: (النية)، و(المنهجية)، و(الأهمية)، و(الآلية)، و(النماذج الواقعية)، و(الاستمرارية).

وقد كان التمهيد التجهيزي بعنوان (النية والمنهجية)؛ وفيه حاولت التعريج على تمهيد لقضية العمل بالقرآن وأهميتها، والتنبيه على تسديد النية في تعلم القرآن، وتسديد المنهجية لتكون موافقة لما كان عليه النبي ﷺ



فيما يتعلق بالعمل بالقرآن كمتعلم وكمعلم.

ثم كان المبحث الأول؛ والذي جاء بعنوان «بين يدي السورة (الأهمية)»، والذي كان يهدف بالأساس لإبراز أهمية السورة، ومناقشة بعض القضايا المهمة المتعلقة بها من زاوية مقاصدية.

وقد جاء هذا المبحث في خمسة فروع؛ الأول: حاجتنا إلى سورة النصر، والثاني: اسم السورة، والثالث: نزول السورة، والرابع: موضوع السورة، والخامس: مقصد السورة.

وفي المبحث الثاني، والذي كان بعنوان «حقوق سورة النصر (الآلية)»، تم تناول الآلية أو الطريقة التي تم الارتكاز فيها على المنهج النبوي في التعامل مع القرآن لتوفية السورة حقوقها، وتم التركيز في الشرح على ما يتعلق بحقوق المعاني، مع التأكيد على حقوق المباني والإشارة إليها.

وقد جاء المبحث الثاني في خمسة فروع؛ كان الأول منها لحق الفهم (من خلال التفسير)، والثاني: لحق استخراج الوصايا العملية، والثالث: لحق التدبر، والرابع: لحق الاتباع، والخامس: لحقي التعليم والدعوة.

أما المبحث الثالث والأخير فقد جاء بعنوان «أهل سورة النصر (النماذج الواقعية)»، وفيه وقفنا على مساحة وجود المعاني التي جاءت بها سورة النصر في حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإخوانه من الأنبياء وأصحابه الكرام.

ثم كان الختام التعزيزي والذي كان بعنوان (الاستمرارية)، واشتمل على جملة من التوصيات المهمة التي من شأنها أن تعزز وتدعم ما مَنَّ الله به من العلم والعمل المتعلق بسورة النصر.

التمهيد التجهيزي (النية والمنهجية)

عَن سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: تَفرَّقَ النَّاسُ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ (عند مسلم وأحمد: ناتل الشامي): أَيُّهَا الشَّيْخُ، أَنْشُدُكَ بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، ثُمَّ نَشَغَ[1] أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً فَمَكَثَ قَلِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى، ثُمَّ أَفَاقَ فَمَسَحَ وَجْهَهُ ... ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ فَأَسْنَدْتُهُ عَلَيَّ طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ. فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو اللهُ بِهِ: رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ (وعند الترمذي: جَمَعَ الْقُرْآنَ) ... فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟

قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، فَكُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ.

وَيَقُولُ اللهُ لَهُ: بَلْ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: هُوَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ: **«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**.

(١) أَيْ: شَهِق وغُشِيَ عَلَيْهِ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٥٨).

وَدَخَلَ الشَّامِيَّ عَلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: قَدْ فُعِلَ بِهَؤُلَاءِ هَذَا، فَكَيْفَ بِمَنْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ؟ ثُمَّ بَكَى مُعَاوِيَةُ بُكَاءً شَدِيدًا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ هَالِكٌ، وَقُلْنَا: قَدْ جَاءَنَا هَذَا الرَّجُلُ بِشَرٍّ، ثُمَّ أَفَاقَ مُعَاوِيَةُ وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦][١].

إنه مشهد يتحدث عن أناس سيدخلون النار! ليس هذا فحسب، بل سيكونون أول من يدخل النار! إنه مشهد يتحدث عن أناس سيعذبون في النار! ليس هذا فحسب، بل سَتُسَعَّر بهم! إذن لا بد أن يكونوا زناة أو عصاة، للأسف لا، إنهم - في الدنيا - داخل صف التقاة!

وبالتأمل في الحديث السالف نجد أنه يشير إلى أن ذلك القارئ أو الجامع كان لديه خلل في أمرين: الأول (في النية)، والثاني (في المنهجية)، فلم يعمل بمقتضى (شهادة ألا إله إلا الله) من تخليص عمله كله لله، ولم يتمكن من توحيد المقصود بتعلمه وتعليمه، ولم يعمل بمقتضى (شهادة أن محمدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من اتباع منهجية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعلم القرآن وتعليمه، ولم يتمكن من توحيد الطريق الموصلة إلى المقصود.

وفي الإشارة إلى الخلل الذي في (النية) الذي تجلى عند ذلك العالم يقول ابن القيم: «وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ يَقُولُ: كَمَا أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ الْأَنْبِيَاءُ فَشَرُّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ يُوهِمُ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ»[٢].

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٢)، وأحمد (٨٢٦٠)، وانظر صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (٢٢).

(٢) الداء والدواء (ص٣٤).



ويقول الشوكاني: «وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فِعْلَ الطَّاعَاتِ الْعَظِيمَةِ مَعَ سُوءِ النِّيَّةِ مِنْ أَعْظَمِ الْوَبَالِ عَلَى فَاعِلِهِ»(١).

وفي الإشارة إلى الخلل الذي في (المنهجية) الذي تجلى عند ذلك القارئ أو الجامع؛ يقول ابن العربي: «وأعظم ما يَلْقَى به العبدُ رَبَّه يوم القيامة قرآنٌ جُمِعَ ولم يُعْمَل به»(٢)، ويقول الطيبي: «(وقرأ القرآن) أي على ظهر قلبه من غير تأمل في معانيه»(٣).

وقد كان خلل (المنهجية) نتيجة حتمية لخلل (النية)؛ لأن ذلك القارئ لو تعلَّم القرآن وعَلَّمه مخلصا لله حقا؛ لاضطره ذلك لأن يتعلم القرآن ويعلمه بطريقة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لأنه يعلم أنه لن يصل لمرضاة الله إلا من طريق رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وفي الإشارة إلى التلازم بين صلاح (النية)، وصلاح (المنهجية) يقول البيضاوي: «ومن عمل صالحا فهو مخلص في عمله، مستقبل بوجهه نحو معبوده، صعد من الحضيض الإنسي إلى الأوج القدسي، واستحق ما أعدّ له من الثواب في دار المآب»(٤).

هذا مشهد لا ينبغي أن يغيب عن خواطرنا أو يمر مرورا عابرا على قلوبنا؛ لأنه ربما كان أحدنا بطله للأسف! فلا تفسح المجال للشيطان ليحرمك من الانتفاع بما أنذرنا به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيصرفك عن التفكر في الحال والمآل.

إن كان ذاك الذي قرأ وأقرأ، وتعلم وعَلَّم، وأنفق من وقته وجهده وفكره

---

(١) نيل الأوطار (٧/ ٢٥٦).
(٢) القبس في شرح موطأ مالك بن أنس (ص٤٠٥).
(٣) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٢/ ٦٦٦).
(٤) تحفة الأبرار شرح مصابيح السُّنَّة (١/ ٢١).

لأجل القرآن، قد يُفعَل به هذا! فكيف بمَنْ فَرَّط في تعلم القرآن أو تعليمه؟! كيف بمَن بخل على القرآن بوقته أو ماله أو جهده؟! إياك أن تقول: «الحمد لله أنا لم أحفظ أو أعمل في تحفيظ أحد أصلا» لأن مصيبتك مُركَّبة، وربما كانت أكبر.

إياك أن تتوهم أن سلامة النية وسدادها وحدها ينجيك، ستُسأل عن المنهجية التي تتعامل بها مع القرآن، وهل كنت مشغولا باتباعه أم لا؟ وإياك أن تتوهم أن سلامة المنهجية وسدادها وحرصك على العمل بالقرآن سينجيك حتى لو فسدت نيتك.

ويشهد لما جاء في الحديث السابق أن عَبْد اللهِ بْن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ** ... وذكر منها: **وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟**» وفي رواية: «**مَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**»[1].

قال في تحفة الأحوذي (٦/ ٢٠٦): «فِيهِ إِيذَانٌ بِأَنَّ الْعِلْمَ مُقَدِّمَةُ الْعَمَلِ، وَهُوَ لَا يُعْتَدُّ بِهِ لَوْلَا الْعَمَلُ».

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، كلما قُرِضَتْ وَفَتْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يا جبريل؟ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَقْرَؤُنَ كِتَابَ اللهِ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ**». **وفي رواية**: «**هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ، الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟**»[2].

(١) رواه الترمذي (٤/ ١٩٠) والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٨) وانظر: صَحِيح الْجَامِع (٧٢٩٩)، الصَّحِيحَة (٩٤٦).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ١٧٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٩)، وانظر: صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (١٢٥)، وصَحِيح الْجَامِع (١٢٩).

وكَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا» ... فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ[1] رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى» ... فلما سألهما عنه قالا: «فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ». وفي رواية: «فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[2].

قال ابن بطال: «يعنى يترك حفظ حروفه والعمل بمعانيه، فأما إذا ترك حفظ حروفه وعمل بمعانيه فليس برافض له»[3].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الذي يُعلِّمُ الناس الخيرَ وينسى نفسَه، مَثَلُ الفَتيلة (وفي رواية: كَمَثَلِ السِّرَاجِ) تُضيءُ على الناس، وتَحرقُ نَفْسَها»[4].

وقال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»[5]، فهل سيكون حجة لنا فعلا؟

قال النووي: «أي: تنتفع به إن تلوته وعملت به، وإلا فهو حجة عليك»[6].

---

(١) الثَّلْغ: الشَّدْخ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٢٠).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ٤٤)، (٢/ ١٠١).

(٣) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٣/ ١٣٥).

(٤) رواه أبو الشيخ الأصبهاني في أمثال الحديث (١/ ٣٢٤)، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٦٤)، صَحِيح الْجَامِع (٥٨٣١).

(٥) صحيح مسلم (١/ ١٤٠).

(٦) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠٢).

وقال الشيخ ابن باز: «والمعنى أنه حجة لك إن عملت به، أو حجة عليك إن لم تعمل به»[1].



(١) مجموع فتاوى ابن باز (٧/ ١٨٦).

أين نحن من هؤلاء؟

* وفي صحيح البخاري (٢٤/ ٣٩٠): «﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ الْقُرْآنُ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الْمُؤْمِنُ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: هَذَا الَّذِى أَعْطَيْتَنِى عَمِلْتُ بِمَا فِيهِ».

* كَانَ أَبو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّمَا أَخْشَى مِنْ رَبِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَدْعُوَنِي عَلَى رُؤوسِ الْخَلَائِقِ، فَيَقُولُ لِي: يَا عُوَيْمِرُ، فَأَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبِّي، فَيَقُولُ لِي: مَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟[(١)].

* وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عثمان، علي، ابن مسعود، أُبَيّ، زيد) أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»[(٢)].



(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١١٢)، شعب الإيمان للبيهقي(٣/ ٣٠٢)، جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٧٩)، شرح السُّنَّة للبغوي (١٤/ ٣٣٥)، وانظر: صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (١٢٩).

(٢) رواه أحمد (٢٣٥٢٩)، وحسنه الأرنؤوط.



وصايا أرحم البشر بنا

* قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَاعْمَلُوا بِهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ»(١).

* وقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ القرآن وتعلَّم وعمل به؛ أُلبِس والداه يوم القيامة تاجا من نور ضوؤه مثل ضوء الشمس، ويُكسى والداه حُلَّتين لا يقوم لهما الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا؟! فيقال: بأخذ ولدكما القرآن»(٢).

قال القرطبي: «فمن قرأه قراءة تدبر وفهم، وعمل بمقتضاه؛ فقد حصل له الغاية والفائدة القصوى من تلاوة هذا الكتاب العظيم»(٣).

* وفي حديث حذيفة حين أخبره رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما سيحدث من اختلاف وفرقة بعده؛ قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله؛ فما تأمرني إن أدركت ذلك. قال: «تعلَّم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، واعمل به فهو المخرج من ذلك». قال حذيفة: فأعدت عليه ثلاثًا، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثًا: «تعلَّم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ واعمل به فهو النجاة»(٤).

وانطلاقا من كل ما سبق آثرنا تناول (سورة النصر) هنا بطريقة يتم فيها التركيز على المنهجية النبوية الشاملة في التعامل مع القرآن (منهجية العلم والعمل)، بل لا نحسب أنه يسعنا تناول السورة منشغلين بالتركيز على (العلم) الذي فيها أو

---

(١) رواه أحمد (٢٤/ ٢٨٨) وصححه الأرناؤوط، وأبو يعلي (٣/ ٨٨)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٨٦)، وانظر: صَحِيح الْجَامِع (١١٦٨).

(٢) رواه أحمد (٣٨/ ٤٢) وحسنه الأرنؤوط، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٨٠).

(٣) التذكار في أفضل الأذكار (ص٦٧)

(٤) رواه أحمد (٣٨/ ٣١٧) وحسنه الأرنؤوط، ورواه أبو داود (٤/ ٩٦)، والنسائي (٧/ ٢٦٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦/ ٢٤٢) بلفظ: «تعلم كتاب الله واتبع ما فيه».

تفسيرها فقط، بل لا بد من التركيز على تعليم العمل الذي فيها، وكيفية تطبيقه، فلم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعلِّم الصحابة (العلم) فقط، وإنما كان يُعلِّمهم (العمل) أيضا.

فالله قد أنزل هذه السورة وغيرها لنعمل بها؛ وفي طريق التخلُّق بالعمل الذي جاء فيها، يحتاج الإنسان إلى المخرجات التعليمية الثلاثة: فيحتاج لتعلم معاني السورة (فهمها بعد قراءتها قراءة صحيحة)، وبذلك يتحقق المخرج (المعرفي)، ثم يتدبرها (إسقاطا وتفكرا وتفاعلا)، وبذلك يتحقق المخرج (الوجداني)، فيتحرك قلبه وتزيد دافعيته، ثم يتعرف على كيفية التزكي بما جاء في تلك السورة (الخطة التشغيلية للاتباع)، وبذلك يتحقق المخرج (المهاري).

وذلك تقريبٌ لما كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم به في مجالس التعليم القرآني؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩].

يقول السعدي: «فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تُنَفَّذ الأحكام، وما به تُدْرَك فوائدها وثمراتها»(١).

قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾، وَتِلَاوَتُهَا: ذِكْرُهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ لِتَرْسَخَ فِي النَّفْسِ وَتُؤَثِّرَ فِي الْقَلْبِ(٢). وَتِلَاوَتُهَا عِبَارَةٌ عَنْ تِلَاوَةِ مَا فِيهِ بَيَانُهَا وَتَوْجِيهِ النُّفُوسِ إِلَى الِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا وَالِاعْتِبَارِ بِهَا(٣)، فهو يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِمْ قِرَاءَةَ تَذْكِيرٍ(٤).

فلم يكن ما طلبه الله من رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقتصرا على قراءة الآيات للقراءة،

---

(١) تفسير السعدي (ص١٥٥).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٨٨).

(٣) تفسير المنار (٤/ ١٨٢).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٧٢٣).

وإنما قراءة للتذكير والاتباع (تلاوة) فيشفعها ببيان معانيها والتوجيه إلى تدبرها والعمل بها.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وَتَعْلِيمُ الْكِتَابِ هُوَ تَبْيِينُ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ وَأَمْرُهُمْ بِحِفْظِ أَلْفَاظِهِ، لِتَكُونَ مَعَانِيهِ حَاضِرَةً عِنْدَهُمْ[1].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: «يُعَلِّمُهُمُ الْخَيْرَ فَيَفْعَلُوهُ، وَالشَّرَّ فَيَتَّقُوهُ، وَيُخْبِرُهُمْ بِرِضَاهُ عَنْهُمْ إِذَا أَطَاعُوهُ وَاسْتَكْثَرُوا مِنْ طَاعَتِهِ، وَتَجَنَّبُوا مَا سَخِطَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ»[2].

ويقول القرطبي: «وَقِيلَ: ... وَالْكِتَابُ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ»[3].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، **قال ابن عاشور:** «وَالْحِكْمَةُ إِتْقَانُ الْعِلْمِ وَإِجْرَاءُ الْفِعْلِ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ الْعِلْمِ»[4]، واختار القاري أن الحكمة هي «إِتْقَانُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ»[5].

وقال السندي: «قِيلَ ... مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَالْعَمَلُ بِمَا يَنْبَغِي»[6].

وقال الكرماني: «قيل العلم الوافي والعمل الكافي، وقيل العلم بالسنة»[7].

وقال ابن رجب: «ويعني بالحكمة: فهم معاني القرآن والعمل بما فيه. فالحكمة هي: فهم القرآن والعمل به، فلا يكتفي بتلاوة ألفاظ الكتاب حتى يعلم معناه ويعمل بمقتضاه، فمن جمع له ذلك كله فقد أوتي الحكمة؛ فالحكمة هي

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٥٩).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٤٥).
(٣) تفسير القرطبي (٢/ ١٣١).
(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٦١).
(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٩٧١).
(٦) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٧١).
(٧) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٥/ ٢٤).



العلم النافع الذي يتبعه العمل الصالح. ومن قال: «الحكمة: السُّنَّة»، فقوله الحق لأن السُّنَّة تفسر القرآن وتبين معانيه وتحض على اتباعه»[1].

لذا نرى - والله أعلم - أن الأرجح في تفسير الحكمة هو «إتقان العمل بالعلم، الناشئ عن دقة فهمه وحسن التفقه فيه وتدبره، والتأسي بما جاء عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سُنَّته العملية». فتفسيرات العلماء للحكمة تتظاهر جميعا لتشير إلى أن الحكمة هي (العمل بالعلم)، ولعل سُنَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العملية تقوي ذلك، حيث لم يكن دوره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما صحَّ عنه يقتصر على تعليم المعاني، بل على تعليم كيفية العمل بها أيضا.

۞ وما الفرق بين العمل والحكمة إذن؟:

ولعله تجدر الإشارة إلى أن الحكمة ليست مجرد عمل؛ بل عمل على مقتضى الحكمة؛ ومادة حكم في لغة العرب؛ تشير إلى معاني: (الحُكم)، (الإحكام بمعنى الإتقان والدقة)، (الإحكام بمعنى الهيمنة والتمكن)، (والحكمة بمعنى وضع الشيء في موضع على مقتضى كمال العلم)، وعليه فإن تعليم تلك الحكمة ليست عملية تلقين معلومات نظرية أو خطاب عقلي أو معرفي محض، بل يتخطى ذلك إلى خطاب وجداني نستهدف به القلب ليتم العمل أحكم ما يكون في أعلى درجات الكمال؛ فيضحى الشخص حينها حكيما، والحكيم رجل يتسم بالعلم والخبرة والتؤدة وغيرها من الصفات التي تجعله يتفكر في عواقب ما سيفعله قبل الإقدام عليه، ويقيِّم مدى حاجته له، ثم يشرع في اتباع مقتضى علمه الكامل. وذلك التفكر في العواقب وتقييم حالة النفس هو «التدبر» باختصار على ما قررنا سابقا. ولذا نقول: إن الحكمة هي أكمل صور العمل التي يتوفر فيها المخرج

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص٨٤).

المعرفي الكامل (العلم)، والمخرج الوجداني الكامل (التدبر)، والمخرج المهاري الكامل (الاتباع)؛ لذا سمى الله كتابه كثيرا (حكمة)، وسمى سنة نبيه ﷺ (حكمة).

ويؤكد ما ذهبنا إليه قول ابن عاشور: «مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ وَفَهِمَ خَفَايَاهُ نَالَ الْحِكْمَةَ»[١].

قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الردية، التي لا تزكو النفوس معها[٢].

وقال ابن عباس عنها: «أَيْ: يَجْعَلُهُمْ أَزْكِيَاءَ الْقُلُوبِ بِالْإِيمَانِ»[٣].

ويقول صاحب المنار: «عَلِمَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّ تَعْلِيمَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لَا يَكْفِي فِي إِصْلَاحِ الْأُمَمِ وَإِسْعَادِهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُقْرَنَ التَّعْلِيمُ بِالتَّرْبِيَةِ عَلَى الْفَضَائِلِ، وَالْحَمْلِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بِحُسْنِ الْأُسْوَةِ وَالسِّيَاسَةِ، فَقَالَ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أَيْ يُطَهِّرُ نُفُوسَهُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ، وَيَنْزِعُ مِنْهَا تِلْكَ الْعَادَاتِ الرَّدِيئَةَ، وَيُعَوِّدُهَا الْأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ الَّتِي تَطْبَعُ فِي النُّفُوسِ مَلَكَاتِ الْخَيْرِ، وَيُبَغِّضُ إِلَيْهَا الْقَبِيحَةَ الَّتِي تُغْرِيهَا بِالشَّرِّ»[٤].

فالتزكية أمر أبعد من التعليم، إنه (الخطط التشغيلية لتعاهد التربية على ما تم تعلمه أو التخلق به)، لكن القرآن يؤثر استخدام كلمة «تزكية»؛ لأنها أكمل من كلمة «تربية» من وجوه لا يتسع المجال لبسطها، لكن لعل أبرزها أن التطهير - والذي هو الأهم بالنسبة للإنسان - أكثر وضوحا في التربية، كما إن النماء

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٠٩)

(٢) تفسير السعدي (ص٦٦)

(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٩٢)

(٤) تفسير المنار (١/ ٣٨٩).

والتطوير في (التزكية) يكون مرتكزا على قاعدة صلبة من التطهير، أو موازيا لها على الأقل، بخلاف التربية.

أو بعبارة أخرى هي (الخروج من الظلمات إلى النور)، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ وهذا هو غاية إنزال القرآن الكريم، والمقياس الذي نقيس عليه نجاح عملية التعليم القرآني (التزكي بكل آية وسورة فيه للخروج من الظلمات إلى النور)؛ فمَنْ لَمْ يَتَزَكّ، لم يتعلم القرآن.

۞ والخلاصة:

أن القرآن يؤكد ما يؤكده الصحابة؛ من أن دور الرسول في تعليم القرآن لم يكن تعليميا محضا، وإنما كان تعليميا تربويا تأهيليا؛ ويمكننا تلخيصه في:

١- **تلاوة الآيات على الصحابة:** لكنها ليست قراءة للقراءة؛ بل تلاوة تدبرية، يكررها حتى تؤثر في النفس وفي القلب فيحدث التذكير؛ ويشفعها بالتوجيه إلى أن المراد من الآيات المتلوة هو اتباعها. ولقد أشار إلى كل ذلك ابن عاشور ورشيد رضا.

٢- **تعليم الكتاب:** فيعلمهم المباني ويضبطها لهم، ويعلمهم المعاني ويجليها لهم؛ ويحصل لهم بذلك المخرج المعرفي لعملية التعليم القرآني.

٣- **تعليم الحكمة:** وهي إتقان كيفية العمل بالعلم، وذلك يتضمن:

* **تدبرها معهم؛** ليحصل لهم المخرج الوجداني لعملية التعليم القرآني (وقد سبق شرح ذلك).

وذلك يبدأ من لحظة التلاوة، حيث يخاطب القلوب ويرتجي بالتلاوة تأثرها وتذكرها، ويفهمهم الآيات، ويعلمهم عاقبة ومآل عملهم بما



تعلموه. ولعل كلام ابن إسحاق السابق يشي بذلك، حيث يقول: «وَيُخْبِرُهُمْ بِرِضَاهُ عَنْهُمْ إِذَا أَطَاعُوهُ وَاسْتَكْثَرُوا مِنْ طَاعَتِهِ، وَتَجَنَّبُوا مَا سَخِطَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ»[(١)].

* **وتعليمهم أكمل صور التطهر والتطور** (نظريا)، ويعلمهم إياها (عمليا) حين يمتثل ذلك في نفسه.

٤- **التزكية**: يحرص على أن يطهرهم ويطورهم بذلك العلم (يزكيهم)؛ ويتعاهدهم في تزكية أنفسهم به؛ وبذلك يحصل المخرج المهاري لعملية التعليم القرآني (التخلق).



(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٤٥)

التـدبر

أسس التفاوت: التهيئة - قدر العلم - طهارة القلب

محاور إدراكه: حقيقة لغوية - حقيقة شرعية - تجربة واقعية

تحريره - تأطيره - تيسيره

مرحلة التهيئة والتجهيز: تهيئة (البيئة المحيطة والبدن والقلب)- التخلص من الموانع والصوارف

مرحلة التطبيق والتنفيذ: تلاوة - استماع - ضبط - استظهار - فهم - الوصية العملية - تدبر - اتباع - تعليم - دعوة

المدخلات

آية مقروءة "مجوَّدة"

آية مسموعة "مجوَّدة"

آية محفوظة "مجوَّدة"

المستهار

الفهم
حسن الدراية

الوصية العملية

المخرج المعرفي (الفهم)

الملك

١ الإسقاط
عرض النفس على الآية

٢ التفكـر
في العواقب

٣ التفـاعل

نظر - تفكر - تأثر - تحرر - تذكر - قرر - جأر - أصدر - تطهر - تطور

أو اعتبر - أو اذكر - أو ازدجر - أو اتعظ

الأثر القلبي (خشوع)
الأثر النفسي (دموع)
الأثر الجسدي (خضوع)

تحريك القلب

المخرج الوجداني (التدبر)

الأسماء والصفات

الخطة التشغيلية

الاستعانة على التزكية: دعاء المسألة - دعاء التنزيه

التزكية: تطهير - تطوير

تعاهد التزكية: الربط الواقعي

تعظيم - تطبيق - تداوي - تحكيم

الاتباع - الاستظهار - التعليم والدعوة

المخرج المهاري (الاتباع) (التخلق)

مرحلة التعزيز (التعاهد): صل ركعتين بالآية - سبح بحمد ربك واستغفره - ادعُ الله أن يتقبل منك - تجنب المعاصي



المبحث الأول

بين يدي السورة (الأهمية)

الفرع الأول

حاجتنا إلى سورة النصر

إن الرغبة في الإنجاز وتحقيق الانتصار والنجاح في الحياة رغبة كامنة داخل كل إنسان، والكل يسعى أن ينتصر على كل معوقاته ومكدراته حتى ولو كانت نفسه التي بين جنبيه، إلا أن الأفهام والرؤى تتباين تباينًا واضحًا في حقيقة النصر ومعاييره ومكملاته، فتفرز جميعًا نصرًا مبتورًا أو مكسورًا.

لذا تتجلى نعمة الله علينا حين يُعلمنا كل ما يتعلق بالنصر، ويهدينا إلى الطريق نحو النصر الكامل المنشود في أوجز عبارة وأروع بيان.

وإطلالة أخرى على واقع الإنجاز في حياتنا، تجد الكثير من الإنجازات تزور حياتنا كالنزوات، والأخرى تستعصي علينا رغم كثرة المحاولات، وما ذاك إلا لأننا أهملنا ما ينبغي القيام به بعد النصر والإنجاز من واجبات. فتأتي سورة النصر تحررنا وتُحَصِّنا وترشدنا لما ينبغي علينا فعله بعد النصر والإنجاز؛ لترعى لنا دوام ما تحقق من إنجازات، وتعيننا على تحقيق ما استعصى من الأمنيات.

فتعالوا بنا نُطالع سورة النصر؛ لنتعرف من خلالها على حقيقة النصر ومعاييره ومكملاته؛ لنكون من المنتصرين المفلحين في الدنيا والآخرة.



الفرع الثاني

اسم السورة

١) سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فِي كَلَامِ السَّلَفِ سُورَةَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ: «أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ ...» الْحَدِيث.

٢) وَسُمِّيَتْ فِي الْمَصَاحِفِ وَفِي مُعْظَمِ التَّفَاسِيرِ «سُورَةَ النَّصْرِ» لِذِكْرِ نَصْرِ اللهِ فِيهَا، فَسُمِّيَتْ بِالنَّصْرِ الْمَعْهُودِ عَهْدًا ذِكْرِيًّا.

٣) وَهِيَ مُعَنْوَنَةٌ فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ» «سُورَةَ الْفَتْحِ» لِوُقُوعِ هَذَا اللَّفْظِ فِيهَا، فَيَكُونُ هَذَا الِاسْمُ مُشْتَرَكًا بَينهَا وَبَين سُورَة (إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا).

٤) وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهَا تُسَمَّى «سُورَةَ التَّوْدِيعِ»[١] فِي «الْإِتْقَانِ»[٢] لِمَا فِيهَا مِنَ الْإِيمَاءِ إِلَى وَدَاعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اهـ. يَعْنِي مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى اقْتِرَابِ لِحَاقِهِ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى كَمَا سَيَأْتِي عَنْ عَائِشَةَ[٣].

لقد ناقشت تلك السورة الوجيزة المبنى العظيمة المعنى قضية النصر والإنجاز، وتحدثت عن كل ما يتعلق به، وخصوصا مُكَمِّلاته (واجبات ما بعد النصر). لذا فقد جاء الاسم معبراً عن مقصد السورة وفكرتها أكمل تعبير، فهو حقا الكلمة المحورية في السورة.



---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٩).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٧).



الفرع الثالث

نزول السورة

* **زمان نزولها:** وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ[1].

* **وَاخْتُلِفَ فِي وَقْتِ نُزُولِهَا**[2]:

فَقِيلَ: نَزَلَتْ مُنْصَرَفَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ خَيْبَرَ (أَيْ فِي سَنَةِ سَبْعٍ).

وَعَنْ قَتَادَةَ: نَزَلَتْ قَبْلَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَنَتَيْنِ.

وروي أَنَّهَا نزلت أَوَاسِطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ (أَيْ عَامَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ)، وَضَعَّفَهُ ابْنُ رَجَبٍ[3].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشَ بعد نُزُولِهَا نَحوًا من ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، وَعَلَيْهِ تكُونُ (إِذَا) مُسْتَعْمَلَةً لِلزَّمَنِ الْمَاضِي؛ لِأَنَّ الْفَتْحَ وَدُخُولَ النَّاسِ فِي الدِّينِ قَدْ وَقَعَا.

ورجح ابن عاشور القول الأول، وقال: «وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ وَالطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَتْ إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ جَاءَ نَصْرُ اللهِ، وَجَاءَ الْفَتْحُ، وَجَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ قَوْمٌ نَقِيَّةٌ قُلُوبُهُمْ لَيِّنَةٌ طَاعَتُهُمْ، الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْفِقْهُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ**»[4]، وَمَجِيءُ أَهْلِ الْيَمَنِ أَوَّلَ مَرَّةٍ هُوَ مَجِيءُ وَفد الْأَشْعَرِيِّينَ عَامَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ. وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ فِي الْآيَةِ هُوَ فَتْحُ مَكَّةَ، وَعَلَيْهِ فَالْفَتْحُ مُسْتَقْبَلٌ وَدُخُولُ النَّاسِ فِي الدِّينِ أَفْوَاجًا مُسْتَقْبَلٌ أَيْضًا وَهُوَ الْأَلْيَقُ

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٩).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٧-٥٨٩).

(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٦٤٠).

(٤) صحيح ابن حبان (١٦/ ٢٨٧)، وصححه الألباني والأرناؤوط.

بِاسْتِعْمَالِ (إِذَا) وَيُحْمَلُ قَوْلُ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ عَلَى أَنَّهُ اسْتِعْمَالُ الْمَاضِي فِي مَعْنَى الْمُضَارِعِ لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ أَوْ لِأَنَّ النَّصْرَ فِي خَيْبَرَ كَانَ بَادِرَةً لِفَتْحِ مَكَّةَ»[(١)].

قُلت: وكلام العَلَّامة ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ يُشْكِل عليه ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ فَقَالَ: «**قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي**»، فَبَكَتْ، فَقَالَ: «**لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي**»، فَضَحِكَتْ، فَرَآهَا بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْنَ: يَا فَاطِمَةُ، رَأَيْنَاكِ بَكَيْتِ ثُمَّ ضَحِكْتِ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ لِي: «**لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لَاحِقٌ بِي**» فَضَحِكْتُ[(٢)].

وزاد في رواية المشكاة: «إذا جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن هم أرق أفئدة، والإيمان يمان، والحكمة يمانية».

ويرى ابن عاشور أن قوله «لما نزلت» مُدْرَج من كلام الراوي، لكن ليس هناك دليل على كونه مدرجا - فيما نعلم - وقد جاء في روايات أخرى أن ذلك كان قُرب وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويؤيده أيضا أن السورة آخر ما نزل كسورة كاملة، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: تَعْلَمُ - وَقَالَ هَارُونُ: تَدْرِي - آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، نَزَلَتْ جَمِيعًا؟ قُلْتُ: «نَعَمْ، إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ»، قَالَ: صَدَقْتَ[(٣)].

أما ربط الأمر بمجيء أهل اليمن لا دليل عليه؛ فإنه يخبر أن كل ما جاء في السورة

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٧-٥٨٩)

(٢) مشكاة المصابيح (٣/ ٢٩٩) وحسنه الألباني، وهو في سنن الدارمي (١/ ٢١٦) وصححه حسين أسد.

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٣١٨).



قد حصل، فقد نصره الله وفتح عليه مكة، وجاء أهل اليمن من قبل فتح مكة وبعده يدخلون في دين الله أفواجا.

ويحسم المسألة تقريبا هذا الحديث: عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي»، بأنه مقبوض في تلك السنَةَ[1].

وعليه يكون الأرجح القول الرابع: أن النزول كان قبل الوفاة بثلاثة أشهر. والله تعالى أعلم.

ترتيب نزولها:

١) **وَعَدَّهَا جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ السُّورَةَ الْمِائَةَ وَالثَّلَاثَ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ، وَقَالَ:** نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْحَشْرِ وَقَبْلَ سُورَةِ النُّورِ. وَهَذَا جَارٍ عَلَى رِوَايَةِ أَنَّهَا نَزَلَتْ عَقِبَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ.

٢) **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ** فَتَكُونُ عَلَى قَوْلِهِ السُّورَةَ الْمِائَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ بَرَاءَةَ وَلَمْ تُنَزَّلْ بَعْدَهَا سُورَةٌ أُخْرَى[2].



(١) مسند أحمد (٢/ ٤٣٥) وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٩)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٩)

الفرع الرابع

موضوع السورة

لا يُتَصور - حتى في دنيا الناس - أن يُسْمَى نصٌ باسم، أو يُوْضَع له عنوان ولا يكون معبرا عن مضمونه، أو متعلقا به. وبما أن هذه السورة الكريمة، سَمَّاها الله سورة النصر؛ لذا فإن موضوعها ولا شك الحديث عن (النصر بمفهومه الشامل الكامل).

لكن قضية (النصر) أو الإنجاز قد تم تناولها كثيرا في القرآن، فما الذي تميزت به سورة النصر إذاً؟

لن نحتاج لكثير تأمل لندرك أن سورة النصر قد تم التركيز فيها على (واجبات ما بعد النصر) أو مُكَمِّلاته ومُعززاته (التسبيح «فسبح» - الصلاة «فسبح» - الحمد والشكر ونسبة الفضل إلى الله «بحمد ربك» - الانكسار والاستغفار «واستغفره» - تجديد التوبة «إنه كان توابا»).

في الوقت الذي لم تُغفل فيه السورة الإشارة إلى قضايا أخرى متعلقة بالنصر: كاحتمالية حدوثه ﴿جَآءَ﴾، ومصدره (﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾)، ووجهته ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾، ومقاييس كماله (حقيقة لا خيال ﴿جَآءَ﴾، ﴿وَرَأَيۡتَ﴾، فتح القلوب والدروب ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، الاستمرارية والديمومة ﴿يَدۡخُلُونَ﴾، صلاح الدين والدنيا ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، الاستقامة على الحق ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، الجماعية والنظام ﴿أَفۡوَاجٗا﴾).





الفرع الخامس

مقصد السورة

تتحدث السورة عن النصر والإنجاز بتمام الروعة والإيجاز. وتُوَّسِّع مفهوم النصر ليشمل كل أمر نجح الإنسان في تحقيقه، أو كل فوز حققه، كالتعبد في مواسم الخيرات، والتخلص من بعض المنكرات والمكدرات، واكتساب بعض المزايا والمهارات.

سورة النصر تعيد تشكيل ثقافة جديدة للأمة المسلمة فيما يتعلق بالنصر، مفادها أن نُعْرِض بعد النصر عن الفخر والاغترار، ونترقى في معارج أسمى حيث التواضع والانكسار والشكر والاستغفار، وأن لحظات النصر والتمكين أقل بكثير من سنوات الجهد التي يعيشها الداعية الأمين.

سورة النصر تعلن أنه: «لا يكتمل الانتصار إلا بالتحرر من العُجب والأوزار»، وتؤكد أن: «الانكسار ينبغي أن يكون رديف الانتصار»، وتبين أن: «التسبيح والانكسار، والشكر والاستغفار، أهم صور التفاعل مع نعمة الانتصار»، وتُنَبِّه المنتصر: «لا تنشغل بالنصر عن النصير، ولا بالفتح عن الفتَّاح، ولا بالإنجاز عمن أنجز لك، ولا بالنعمة عمن أنعم عليك».



المبحث الثاني



تلك السورة العظيمة لها علينا العديد من الحقوق، ولو أردنا أن نوفيها حقوقها، وأن نكون من أهلها، ليكتمل انتفاعنا واستمتاعنا بها، فينبغي أن نتعامل معها بطريقة «العلم والعمل» ومنهجية «الإيمان قبل القرآن».

۞ ما هي أهدافنا بالنسبة لهذه السورة؟:

هدفنا الاستراتيجي الأكبر فيما يتعلق بهذه السورة، يتلخص في أن نكون من أهلها المؤمنين بها (من الدرجة الأولى «خيركم أو الرباني»)، وذلك يحصل إن حققنا ثلاثة أهداف مرحلية: الأول (اتباعها «العمل بها»)، والثاني (ضبط مبانيها وحفظها رواية «تعلم مبانيها»)، والثالث (تعليم مبانيها ومعانيها).

فبتحقيق الهدف الأول نصل إلى الدرجة الثالثة من درجات أهل القرآن (مرتبة «التمرة»)، وبتحقيق الهدف الثاني نترقى من الدرجة الثالثة إلى الثانية (مرتبة «الأترجة»)، وبتحقيق الهدف الثالث نترقى من الدرجة الثانية إلى الأولى (مرتبة «خيركم»). ولكل مرحلة من هذه المراحل أهداف تشغيلية، بتحقيقها نتمكن من تحقيق أهداف المرحلة.

۞ كيف نحقق الأهداف السابقة؟:

ونستطيع الوصول لتحقيق هدفنا الاستراتيجي من خلال تدارس الآية بالترتيب التالي:

* **تدارس المعاني** (تدارس الفهم، وتدارس التدبر، وتدارس الاتباع).
* **تدارس المباني** (تدارس الضبط، وحفظ الرواية).

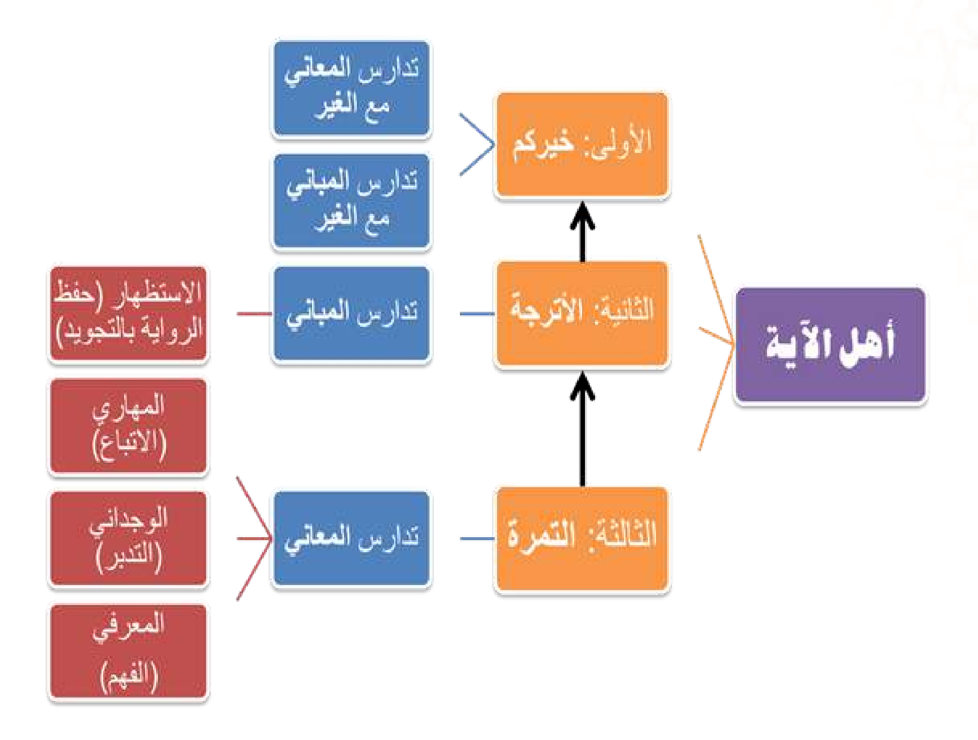


* **تدارس التعليم للغير** (للمباني والمعاني).

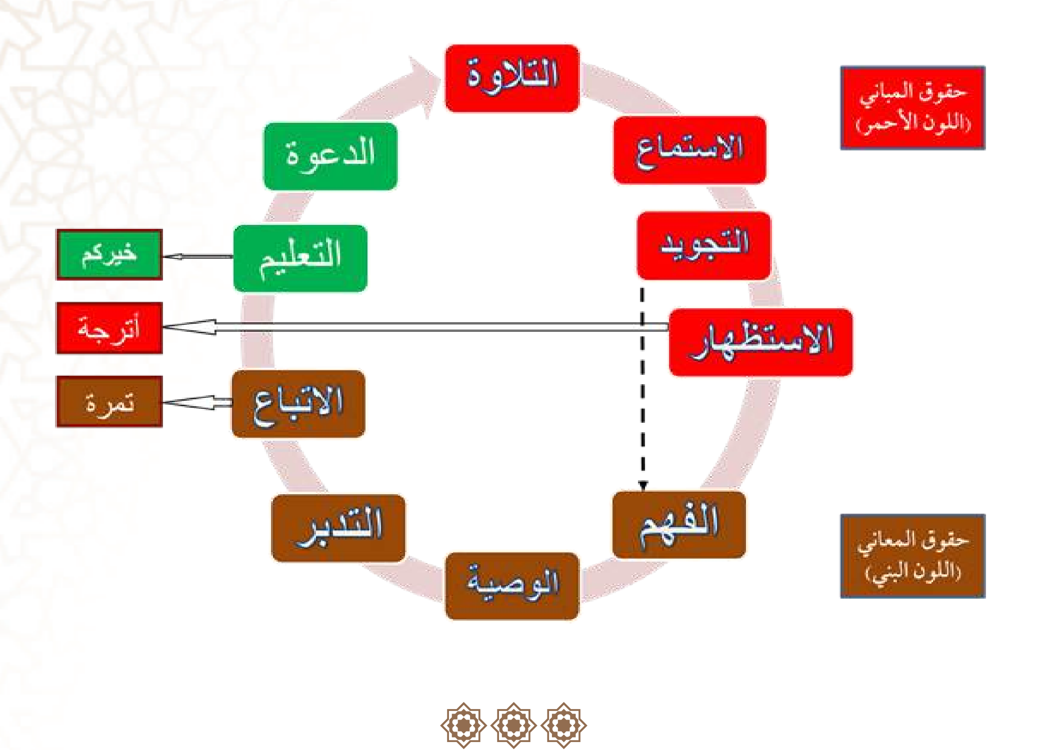
ويحصل ذلك بتوفية الآية حقوق مبانيها ومعانيها العشرة (الحقوق العلمية والعملية): التلاوة، الاستماع، التجويد، الاستظهار، الفهم. ثم استخراج الوصايا العملية: التدبر، الاتباع، التعليم، الدعوة.

۞ كيف نقيس نجاحنا في تحقيق الأهداف السابقة؟:

ويمكننا قياس النجاح في تحقيق أهدافنا من خلال وسائلها بالتالي: تفهُّم الآيات فهما صحيحا (مخرج معرفي)، وتحرُّك القلب ونشاطه لاتباعها (مخرج وجداني)، ووجود خطة تشغيلية محددة للاتباع (مخرج مهاري)، وإتقان تجويد الآيات واستظهارها، وتعليم معانيها ومبانيها.






التلاوة
الاستماع
التجويد
الاستظهار
الفهم
الوصية
التدبر
الاتباع
التعليم
الدعوة
خيركم
أترجة
تمرة
حقوق المباني (اللون الأحمر)
حقوق المعاني (اللون البني)



الحق الخامس (الفهم من خلال كتب التفسير)

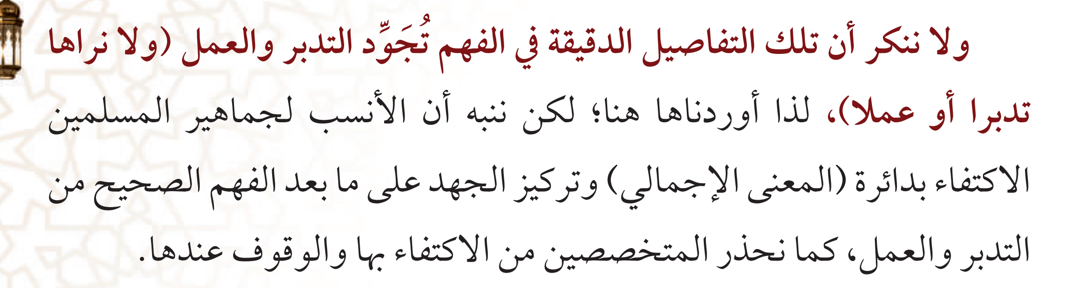
فهم الآيات فرض عين على كل قادر[1]؛ أما تفسيرها فهو فرض كفاية لا يقوم به إلا المتخصصون من المفسرين، وعليه يكون التفسير هو الوسيلة التي يستخدمها أي مسلم للفهم، فهو لا يستقل بالفهم بنفسه، بل يطالع كتب المفسرين المعتمدين أو يراجع المتخصصين؛ ليفهم من خلال ذلك كلام الله، وإن انعقد له فهم في آية قبل المطالعة أو المراجعة، فلا يعتمده حتى يطمئن لصحة فهمه بمطالعة كتب المفسرين المعتمدين، أو مراجعة المتخصصين.

لكنَّ الفهم مستويات، وفهم واحد من المتخصصين لا شك يكون أعمق من فهم واحد من جماهير المسلمين؛ لذا فإننا نُقَسِّم خطوة الفهم في مشروعنا إلى دوائر أو مستويات تتدرج في العمق، فنجعل الدائرة الخارجية (للمعنى الإجمالي أو الجملي) والتي تليها للداخل (للمفردات والتراكيب)، والتي تليها للداخل (للطائف والنكات)، والتي تليها للداخل (للآيات والكلمات المعاونة في السياق القرآني).

وتجدر الإشارة إلى أن ما يحتاجه الإنسان لمباشرة التدبر والاتباع، والجواز إلى المراحل التالية في تدارس الآيات، هو الدائرة الأولى (الفهم الإجمالي)، وعلى أكثر التقديرات الدائرة الثانية (المفردات والتراكيب)، لأن التدارس أولا لا بُدَّ أن يكون للتدبر والعمل كخطوات في طريق التحقق بالربانية، أما تفاصيل الفهم العميق والعالمية فتأتي بعد ذلك.

---

(١) لأن كل الأوامر بالتعقل والتفكر والتدبر والتذكر والاعتبار والاتباع أوامر ضمنية بالفهم، وهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ لذا فإنه أكثر ما أمر الله به فيما يتعلق بالتعامل مع القرآن.



ولا ننكر أن تلك التفاصيل الدقيقة في الفهم تُجَوِّد التدبر والعمل (ولا نراها تدبرا أو عملا)، لذا أوردناها هنا؛ لكن ننبه أن الأنسب لجماهير المسلمين الاكتفاء بدائرة (المعنى الإجمالي) وتركيز الجهد على ما بعد الفهم الصحيح من التدبر والعمل، كما نحذر المتخصصين من الاكتفاء بها والوقوف عندها.



۞ دائرة الفهم الأولى: المعنى الإجمالي (للجماهير):

يوصينا الله عَزَّوَجَلَّ بالمسارعة بالتسبيح والصلاة والتحميد والاستغفار شكرا له سبحانه إذا امتن علينا سبحانه بانتصار أو إنجاز حقيقي.

فيخبر سبحانه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويخبرنا معه أنه إذا تحقق النصر والفتح الذي كنت تتمناه، والذي هو في الحقيقة من عند الله، ورأيت من الناس جماعات كثيرة تستجيب لدعوتك وتدخل في دين الله، فلا تتأخر حينها عن المبادرة بتسبيح الله ذكرا وصلاة، وعن تحميده جل في علاه، وعن استغفاره وطلب رضاه، وأبشر فإنه سبحانه تواب سيوفقك لما يحب ويقبلك.

۞ دوائر الفهم التالية: المفردات واللطائف والسياقات (للمتخصصين):

* ﴿ إِذَا ﴾: شرطية؛ لتؤكد الصلة بين النصر ومُكملاته.

وقيل: إنها تشير إلى الاستقبال فقط، فتعبر عن أمر لم يحدث بعد، وربما كان هذا هو الأكثر، لكنها تشير أحيانا للحاضر والماضي.

قال ابن عاشور: «(إذا) اسْمُ زَمَانٍ مُطْلَقٌ، فَقَدْ يُسْتَعْمَلُ لِلزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ غَالِبًا. وَلِذَلِكَ يُضَمَّنُ مَعْنَى الشَّرْطِ غَالِبًا، وَيَكُونُ الْفِعْلُ الَّذِي تُضَافُ إِلَيْهِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي غَالِبًا لِإِفَادَةِ التَّحَقُّقِ، وَقَدْ يَكُونُ مُضَارِعًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]. وَيُسْتَعْمَلُ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي وَحِينَئِذٍ يَتَعَيَّنُ أَنْ تَقَعَ الْجُمْلَةُ بَعْدَهُ بِصِيغَةِ الْمَاضِي، وَلَا تُضَمَّنُ إذا مَعْنَى الشَّرْطِ حِينَئِذٍ وَإِنَّمَا هِيَ لِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ دُونَ قَصْدِ تَعْلِيقٍ نَحْوَ: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]. وإِذا هُنَا مُضَمَّنَةٌ الشَّرْطَ لَا مَحَالَةَ لِوُجُود الْفَاء فِي قَوْله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾ [النصر: ٣]»[١].

ويترتب على ذلك الفصل بين الأقوال المتباينة حول نزول السورة، فمَن يرى أن السورة نزلت قبل فتح مكة، يتبنى أن تكون «إذا» للاستقبال، وتكون السورة بشارةً وتكليفا. أما مَنْ يرى أن السورة نزلت بعد فتح مكة، يتبنى كون «إذا» بمعنى «قد»[٢]، وتكون السورة تذكيرًا وتكليفًا.

وفي الحالتين التكليف (بالتسبيح بحمد الله واستغفاره) متحقق، والإشارة إلى قرب انتهاء المهمة وضرورة الاستعداد للرحيل حاصلة.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٠)

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٠)

قال ابن عاشور: «وَالْغَرَضُ مِنْهَا الْوَعْدُ بِنَصْرٍ كَامِلٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ أَوْ بِفَتْحِ مَكَّةَ، وَالْبِشَارَةُ بِدُخُولِ خَلَائِقَ كَثِيرَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ... وَالْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّهُ حِينَ يَقَعُ ذَلِكَ فَقَدِ اقْتَرَبَ انْتِقَالُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْآخِرَةِ»[1].

* ﴿جَاءَ﴾: أفادت تحقق النصر[2]، وأوحت بأن النصر ليس صعبًا أو مستحيلًا، وبثت الأمل في النفوس اليائسة. كما توجه إلى أن النصر لا ينبغي أن يُزيَّف؛ فالنصر الحقيقي له علامات ومقاييس.

* ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾: والنصر؛ الْعَوْنُ ... ثُمَّ قِيلَ: الْمُرَادُ بِهَذَا النَّصْرِ نَصْرُ الرَّسُولِ عَلَى قُرَيْشٍ، وَقِيلَ: نَصْرُهُ عَلَى مَنْ قَاتَلَهُ مِنَ الْكُفَّارِ[3].

لماذا قال «نصر الله» ولم يقل «النصر»؟:

١) **ليؤكد على** أن النصر من عند الله، فلا بد أن نتعلق به أولًا.

٢) **ليكون ذلك** أكثر عونا على التسبيح والتحميد والاستغفار وممهدا له، حين يستحضر العبد أن الله هو الذي نصر؛ فيستبرئ من الإعجاب بنفسه ونسبة الفضل إلى شخصه.

يقول سيد قطب: «فهو نصر الله يجيء به الله: في الوقت الذي يقدِّره، في الصورة التي يريدها، للغاية التي يرسمها. وليس للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد ... إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراسا، ويجعلهم عليه أمناء. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجا. وبناء على هذا

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٠).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٩)، النكت والعيون (٦/ ٣٥٩).



الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه بإزاء تكريم الله لهم، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم. إن شأنه – ومن معه – هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في لحظة الانتصار»[(١)].

٣) **ليشير إلى** أن النصر لا يكون نصرًا إلا إذا أثمر حالًا أرضى لله؛ فهذا تنبيه على معيار من معايير النصر الكامل.

٤) **ليوجه أيضا إلى** الوجهة السديدة للرغبة في تحقيق النصر، وهي أن يكون ابتغاء مرضاة الله ولتكون كلمته هي العليا.

٥) **ليشير إلى** عظمة ذلك النصر وشرفه وكماله وتمامه.

قال ابن عاشور: «فَإِضَافَةُ نَصْرُ إِلَى اللهِ تُشْعِرُ بِتَعْظِيمِ هَذَا النَّصْرِ وَأَنَّهُ نَصْرٌ عَزِيزٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ»[(٢)]، وقال في أضواء البيان: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْإِضَافَةَ هُنَا لَهَا دَلَالَةُ تَمَامٍ وَكَمَالٍ ... فَهُوَ مُشْعِرٌ بِالنَّصْرِ كُلَّ النَّصْرِ، أَوْ بِتَمَامِ النَّصْرِ كُلِّهِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٣)].

۞ لماذا لم يتم تقييد النصر بشيء (كالحروب أو المناظرات أو غيرهما)؟:

وربما يشير إلى عدم تقييد النصر بشيء إلى أن نصر الله لعبده لا يكون في زاوية واحدة، لكنه يعم كل الزوايا، وأن العبد مطالب بالسعي في تحقيق كل صور ومظاهر نصرة الله والدين؛ وكل ذلك يزيد العبد يقينا في الله، وإقبالا وأملا في تحقيق النصر الكامل الذي يتمناه.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٠).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ١٣٨).

* ﴿ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾: والْفَتْحُ؛ امْتِلَاكُ بَلَدِ الْعَدُوِّ وَأَرْضِهِ[١]. وقد يشير إلى الفتح بالعلم أو الفهم أو الإنجاز[٢].

أما الفتح المقصود هنا: فقد قيل: إنه عام لسائر البلدان، وقيل: إنه خاص؛ وقيل: إن ذلك الخاص «فتح مكة»، وهو القول الأشهر مطلقا، وقيل: «فتح القصور والمدائن»[٣].

وَالتَّعْرِيفُ فِي «الْفَتْحِ» لِلْعَهْدِ ... وَقَدِ اتَّفَقَتْ أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ عَلَى أَنَّ الْفَتْحَ الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ هُوَ فَتْحُ مَكَّةَ إِلَّا رِوَايَةً عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ فَتْحُ الْمَدَائِنِ والقصور، يعنون الْحُصُونَ[٤].

لماذا لم يتم الاقتصار على النصر فحسب؟:

١) **لأنه قد يحدث النصر ولا يحدث معه الفتح،** فالفتح زاد النصر تماما وكمالا.

٢) **وكلمة (الفتح)** تشير إلى أن النصر المنشود ليس توسعًا في اكتساب الأراضي والدروب، بل لا يكتمل النصر الذي يحبه الله إلا بالفتح الإيماني للنفوس والقلوب.

وكذلك كان «فتح مكة» اكتسابا للإنسان قبل البنيان، وحيازة للوجدان قبل العمران. فالصحابة الذين نافحوا عن الأصنام طيلة حياتهم، ها هم أولاء يكسرونها بأيديهم وأدواتهم، بعد أن تكسرت أولا نتيجة للفتح الإيماني

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٠).

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٠)، النكت والعيون (٦/ ٣٦٠)، ويرى في أضواء البيان (٩/ ١٣٨) أن الفتح للعموم أيضا.

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩١).

الذي لامس قلوبهم. وأولئك الذين فروا منه زمانا طويلا بأجسادهم، إذا بهم اليوم يفرون إليه بقلوبهم قبل أجسادهم. لقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعى مفهوم النصر المنشود لذا وفقه الله لتحقيقه.

۞ لماذا لم يتم تقييد الفتح بشيء (كالحروب ونحوها)؟:

ربما أشار ذلك إلى أن الإنسان ينبغي أن يكون حريصا على الأخذ بكل الأسباب التي تفتح له أكبر قدر يستطيعه من أبواب الخير، وأن فتحه سبحانه لعباده يعم كل صور ومظاهر الفتح، فيزيد ذلك العبد يقينا في الله وأملا في تحقيق الفتح الكامل الذي يتمناه.

* ﴿وَرَأَيْتَ﴾: وَالرُّؤْيَةُ ... يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عِلْمِيَّةً، أَيْ وَعَلِمْتَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ... وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ رُؤْيَةً بَصَرِيَّةً بِأَنْ رَأَى أَفْوَاجَ وُفُودِ الْعَرَبِ يَرِدُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ وَذَلِكَ سَنَةَ تِسْعٍ[1].

وفيها تأكيدٌ على أن النصر لا يُزَيَّف ولا يُبنى على الأوهام، النصر «حقيقة لا خيال».

* ﴿ٱلنَّاسَ﴾: المراد بالناس العموم على قول الجمهور، وعن مقاتل: أنهم أهل اليمن[2].

وَالتَّعْرِيفُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلِاسْتِغْرَاقِ الْعُرْفِيِّ، أَيْ جَمِيعَ النَّاسِ الَّذِينَ يَخْطُرُونَ بِالْبَالِ ... فَالْمَعْنَى: وَرَأَيْتَ نَاسًا كَثِيرِينَ أَوْ وَرَأَيْتَ الْعَرَبَ[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٢)، الكشاف (٤/ ٨١١)، النكت والعيون (٦/ ٣٦١)، تفسير أبي السعود (٩/ ٢٠٨).

(٢) تفسير سورة النصر لابن رجب (ص٢٣).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٢).



فليس النصر اكتساب تأييد المحبين والمعارف والأصدقاء والأقارب، وإنما النصر انتشار الحق الذي تحمل بين جميع الناس لا سيما من يناصبونك العداء.

* ﴿ يَدۡخُلُونَ ﴾: اسْتُعِيرَت للتعبير عن «يُسلِمون».

لماذا تم اختيار الفعل «يدخلون» ولم يأتِ غيره «يعتنقون» أو نحوه؟:

ربما ليشير أنه لا ينبغي أن نقنع بمن يتكلمون ويعلنون بألسنتهم؛ لا بُدَّ أن نتأكد من دخولهم في حظيرة الإسلام، كمن يدخل بيتا أو قصرا.

لماذا جاء بناء الفعل على المضارعة ولم يأتِ بصيغة الماضي «دخلوا»؟:

١) ربما لتشير إلى أن النصر ليس تمكن الفكرة لدى الناس أو فتح البلدان فترة من الزمان ثم يعود الناس أدراجهم، بل النصر الحقيقي ذاك الذي يثمر زيادة مضطردة في المنضمين إليه والمنطوين تحت رايته، فالأصل أن يثمر النصر الحقيقي استمرار الازدهار والانتشار، وإن حدث خللٌ كان الانحدار والانحسار.

قال البقاعي: «﴿يَدۡخُلُونَ﴾ شيئًا فشيئًا متجددًا دخولهم مستمرًا»[1].

٢) وربما أشارت إلى أنه ليس كل من دخل الدين من هذه الأفواج قد تمكن الدين من قلبه تماما، فلربما دخل بعضهم في دين المنتصر رغبة فيما عنده؛ لذا ما ينبغي أن تقنع تماما وتطمئن مطلقا لأولئك الذين ينضمون إليك في حال الرخاء، لا بد أن تجتهد في ترسيخ البناء.

* ﴿ فِي ﴾: تؤكد على أنه ليس نصرا ذاك الذي يغير الظواهر ولا يغير الجواهر، بل النصر إصلاح المخبر والمظهر، وليس النصر انتصار الفكرة مبتورة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٣١٦).

أو مكسورة، بل النصر «الدخول في السلم كافة» بالتلبس به والانضواء الكامل تحت كنفه.

* ﴿ دِينِ ﴾: تشير إلى أن النصر الحقيقي هو الذي يثمر إصلاح الدين ثم الدنيا، لا الدنيا فحسب.

ودور جهاد السيف والسنان التمهيد والتوطئة لجهاد الحجة والبيان، وفتح قلوب العباد، وتطهير البلاد. والنصر المنشود دينونة الناس وخضوعهم لما معك من الحق لذا عبَّر بـ«دين».

* ﴿ٱللَّهِ ﴾: تشير إلى أن غاية النصر ووجهته أن «تكون كلمة الله هي العليا» وللتمكين لدين الله، لا للأشخاص أو الطوائف أو الجماعات. ومقياس النصر هو انصياع الناس للمنهج الذي ارتضاه الله للناس «دين»، وعبر بـ«اللهِ» ليؤكد أن تحقيق التوحيد - لا سيما توحيد الألوهية - هو مقياس عملية النصر الحقيقية.

* ﴿أَفْوَاجًا ﴾: جَمْعُ فَوْجٍ وَهُوَ الجماعة الكثيرة إثر الجماعة[(١)].

تشير إلى أن من علامات النصر المنشود السليم، الإقبال الشديد عليه حال التمكين، ونصرٌ يفرز كل عام شخصًا أو شخصين نصر مُزيف يحتاج إلى إعادة تقييم؛ لأن من شأن الحق أن ينتشر، فإن لم يوجد أي تقصير ممن يحملون هَمَّ النصر تكون سنة الله قد اقتضت ذلك، ولا لوم، كما حصل مع خير خلق الله «بعض الأنبياء» من قلة الأتباع أو استخدامهم.

* ﴿ فَسَبِّحْ ﴾: والفاء للسرعة والمبادرة.

وفي المراد بالتسبيح هنا قولان؛ أحدهما: أن المراد به الصلاة، **والثاني**:

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٣)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٣٢).

التسبيح المعروف[1].

والخطاب هنا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لا للأمة مباشرة،** إشارة إلى أنه لا ينبغي أن ينسَ قادة النصر أنهم أول المخاطبين بواجبات ما بعد النصر ومكملاته، وهم أولى الناس بها.

وتنزيه الرب يكون عن النصر بلا أسباب أو المحاباة، أو الغفلة عن التقصير الحاصل، أو عن الرضى والحب لهزيمة أوليائه وما يصيبهم من الأذى، أو عن محبة أن يكون لأعدائه على أوليائه سبيل.

قال القاسمي: «فنزه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله، وعن أن يخلف وعده في تأييده»[2].

لماذا يؤمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بالتسبيح والتحميد والاستغفار، رغم أنه لم يكن مقصرا ألبتة فيهم؟:**

يحتمل أن يكون المراد هنا «**تَذْكِيرَهُ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بِتَسْبِيحٍ خَاصٍّ** لَمْ يَحْصُلْ مِنْ قَبْلُ فِي تَسْبِيحَاتِهِ وَبِاسْتِغْفَارٍ خَاصٍّ لَمْ يَحْصُلْ مِنْ قَبْلُ فِي اسْتِغْفَارِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّسْبِيحُ الْمَأْمُورُ بِهِ تَسْبِيحَ ابْتِهَاجٍ وَتَعَجُّبٍ مِنْ تَيْسِيرِ اللهِ تَعَالَى لَهُ مَا لَا يَخْطُرُ بِبَالِ أَحَدٍ أَنْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ سُبْحَانَ اللهَ وَنَحْوَهُ يُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَجُّبِ ... فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَخْلُو عَنْ تَسْبِيحِ اللهِ فَأُرِيدَ تَسْبِيحٌ يُقَارِنُ الْحَمْدَ عَلَى مَا أُعْطِيَهُ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ وَدُخُولِ الْأُمَّةِ فِي الْإِسْلَامِ ... فَكَانَ تَعْلِيقُ الْأَمْرِ بِالتَّسْبِيحِ وَبِالِاسْتِغْفَارِ عَلَى حُصُولِ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ إِيمَاءً إِلَى تَسْبِيحٍ وَاسْتِغْفَارٍ يَحْصُلُ بِهِمَا تَقَرُّبٌ لَمْ يُنْوَ مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ التَّهَيُّؤُ لِلِقَاءِ اللهِ، وَأَنَّ حَيَاته

(١) زاد المسير (٩/ ٢٥٦)، النكت والعيون (٦/ ٣٦١)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣١)، واستظهر القول الأول.
(٢) محاسن التأويل (٩/ ٥٦٠).

الدُّنْيَوِيَّة أَو شكت عَلَى الِانْتِهَاءِ»[١].

۞ لماذا تقدم التسبيح والتحميد على الاستغفار؟:

١) **تَمْهِيدٌ لِإِجَابَةِ اسْتِغْفَارِهِ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ** فِي تَقْدِيمِ الثَّنَاءِ قَبْلَ سُؤَالِ الْحَاجَةِ[٢].

٢) **التَّسْبِيح** رَاجِعٌ إِلَى وَصْفِ اللهِ تَعَالَى بِالتَّنَزُّهِ عَنِ النَّقْصِ وَهُوَ يَجْمَعُ (نفي) صِفَاتِ السَّلْبِ (كلها)، فَالتَّسْبِيحُ مُتَمَحِّضٌ لِجَانِبِ اللهِ تَعَالَى، وَلِأَنَّ الْحَمْدَ ثَنَاءٌ عَلَى اللهِ لِإِنْعَامِهِ، وَهُوَ أَدَاءُ الْعَبْدِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِشُكْرِ الْمُنْعِمِ فَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ إِثْبَاتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ لِلَّهِ الَّتِي هِيَ مَنْشَأُ إِنْعَامِهِ عَلَى عَبْدِهِ فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ جَانِبِ اللهِ وَحَظِّ الْعَبْدِ، وَأَمَّا الِاسْتِغْفَارُ فَهُوَ حَظٌّ لِلْعَبْدِ وَحْدَهُ لِأَنَّهُ طَلَبُهُ اللهَ أَنْ يَعْفُوَ عَمَّا يُؤَاخِذُهُ عَلَيْهِ[٣].

٣) **بما أن المقام مقام إنجاز وانتصار، فالأليق به البدء بالتسبيح لا البدء بالاستغفار**، وإلى هذا الملمح شيخ الإسلام قد أشار؛ فقد قال ابن القيم: «وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يومًا: سئل بعض أهل العلم أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيًا فالبخور وماء الورد أنفع له، وإذا كان دنسًا فالصابون والماء الحار أنفع له. فقال لي رحمه الله تعالى: فكيف والثياب لا تزال دنسة؟»[٤]. حيث نجد شيخ الإسلام هنا يؤكد أن كل حال له ما يناسبه، فلما كان الحال هنا حال (الثوب النقي)، فالتسبيح أولى له من الاستغفار.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٣)، روح المعاني (١٥/ ٤٩٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٤)، روح المعاني (١٥/ ٤٩٥).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٤)، روح المعاني (١٥/ ٤٩٥).
(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص٩٢).

* ﴿بِحَمْدِ﴾: وفي الباء في «بحمد» قولان:

- **أحدهما**: أنها للمصاحبة فالحمد مضاف إلى المفعول، أي فسبحه حامدًا له، والمعنى: أجمع بين تسبيحه وهو تنزيهه عما لا يليق به من النقائص، وبين تحميده وهو إثبات ما يليق به من المحامد.
- **والثاني**: أنها للاستعانة، أي: سبحه بما حمد به نفسه إذ ليس كل تسبيح بمحمود(١).

والتسبيح والحمد (يكونان) على ما أولاهم من منة، بأن جعلهم أمناء على دعوته حراسا لدينه. وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه، وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجا في هذا الخير الفائض العميم، بعد العمى والضلال والخسران(٢).

ما سرّ المطالبة بالتحميد دون الشكر؟:

١) **فالشكر يكون في مقابل نعمة معلومة،** أما الحمد فلا يرتبط بالنعم، فالرب محمود دوما على كل الأحوال، وفي ذلك إشارة إلى أنه على العبد أن يحمد ربه سواء رأى آثار عون الله في النصر أم لم يرَ؛ لأن هناك ما لم يره العبد وما لم يعلمه وهو أكثر مما رآه وعلمه.

٢) **وفي الوصية بالحمد تأكيد على ضرورة التحدث بنعمة الله وإظهارها،** فالشكر قد يكون قوليًا أو عمليًا، لكن الحمد لا يكون إلا قوليًا. فيكفي ربنا فضلًا أنه ارتضانا للعمل لدينه وعبادته.

قال النووي: «وَقَوْلُهُ (وَبِحَمْدِكَ) أَيْ: وَبِحَمْدِكَ سَبَّحْتُكَ. **وَمَعْنَاهُ**: بِتَوْفِيقِكَ

---

(١) تفسير سورة النصر لابن رجب (ص٢٧).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).

لِي وَهِدَايَتِكَ وَفَضْلِكَ عَلَيَّ سَبَّحْتُكَ لَا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي. فَفِيهِ شُكْرُ اللهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَالِاعْتِرَافُ بِهَا، وَالتَّفْوِيضُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَأَنَّ كُلَّ الْأَفْعَالِ لَهُ»[1].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «وَيَظْهَرُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ إِبْقَاءُ مَعْنَى الْحَمْدِ عَلَى أَصْلِهِ وَتَكُونُ الْبَاءُ بَاءَ السَّبَبِيَّةِ وَيَكُونُ مَعْنَاهُ: بِسَبَبِ أَنَّكَ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ سَبَّحَكَ الْمُسَبِّحُونَ وَعَظَّمَكَ الْمُعَظِّمُونَ»[2].

* ﴿رَبِّكَ﴾: الذي خلقك ورزقك ويدبر أمرك ويرعاك ويعتني بك، والربوبية هنا (خاصة).

لماذا وصف الله نفسه هنا بالربوبية دون غيرها من الصفات؟:

ليتذكر العبد دومًا أن النصر إنعام من الله، ومظهر من مظاهر تربيته لعباده المؤمنين ورعايته لهم وعنايته بهم[3]. فمع مقاييس النصر ومعايير النصر كان الوصف بالألوهية؛ فقال تعالى: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾، ومع واجبات ما بعد النصر كان الوصف بالربوبية؛ فقال تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، لأن النصر نعمة والربوبية ألصق بالنعم.

لماذا كان التعبير «بربك» ولم يكن «الرب»؟:

و«الكاف» في ﴿رَبِّكَ﴾ تُشْعِر العبد بالخصوصية والاصطفاء، وتبين أن الأمر يلزمه ولا يؤديه عنه غيره.

قال ابن عاشور: «فِي صِفَةِ (رَبِّ) وَإِضَافَتِهَا إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ مِنَ الْإِيمَاءِ

(١) شرح النووي على مسلم (٤/ ٢٠٢).
(٢) نيل الأوطار (٢/ ٢٨٦)، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٣٩٩).
(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ١٤١).

إِلَى أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ وَدُخُولِ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ نِعْمَةً أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ إِذَا حَصَلَ هَذَا الْخَيْرُ الْجَلِيلُ بِوَاسِطَتِهِ فَذَلِكَ تَكْرِيمٌ لَهُ وَعِنَايَةٌ بِهِ وَهُوَ شَأْنُ تَلَطُّفِ الرَّبِّ بِالْمَرْبُوبِ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ السِّيَادَةُ الْمَرْفُوقَةُ بِالرِّفْقِ وَالْإِبْلَاغِ إِلَى الْكَمَالِ»[1].

* ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾: اطلب منه المغفرة، وهي ستر الذنوب والوقاية من شرورها. فلا ينبغي أن ينسى العبد في زحمة الفرح بفضل الله في النصر ذنوبه وتقصيره القديم، ولا ينبغي أن ينسى أي قصور عن بلوغ الكمال بَدَر منه أثناء مباشرة سعيه للنصر.

لماذا خاطب الله تعالى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا ولم يخاطب جماهير المسلمين؟:

١) **قال البقاعي**: «لتقتدي بك أمتك في المواظبة على الأمان الثاني لهم، فإن الأمان الأول – الذي هو وجودك بين أظهرهم – قد دنا رجوعه إلى معدنه في الرفيق الأعلى»[2].

٢) **قال الشوكاني**: «وَقِيلَ: إِنَّمَا أَمَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ تَنْبِيهًا لِأُمَّتِهِ وَتَعْرِيضًا بِهِمْ، فَكَأَنَّهُمْ هُمُ الْمَأْمُورُونَ بِالِاسْتِغْفَارِ. وَقِيلَ: إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لِأُمَّتِهِ لَا لِذَنْبِهِ»[3].

٣) **قال ابن الجوزي**: «فأُمِر بالتسبيح والاستغفار ليختم له عمره بالزيادة في العمل الصالح»[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٦).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٣١٨).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٦٢٤).

(٤) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠١).

۞ لماذا جمع سبحانه بين التسبيح والاستغفار ولم يكتفِ بأحدهما؟:

قال الزمخشري: «والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين: من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفا لأمته»[(١)].

۞ لماذا وَصَّى الله بالاستغفار تحديدا بعد النصر والإنجاز؟:

١) لأن الاستغفار بعد الطاعات أحب إلى الله من الاستغفار بعد المعاصي والمنكرات.

٢) لأن الاستغفار يدفع العبد لمزيد من العمل، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧﴾ [الشرح: ٧]، وفيه يُذَكِّره الله تعالى بأن هناك ديونًا لا بد أن يسددها.

٣) لأن الاستغفار يكسر النفس ويكون خطوة وقائية واحترازية في مواجهة العُجب والغرور الذي قد يُحبط العمل.

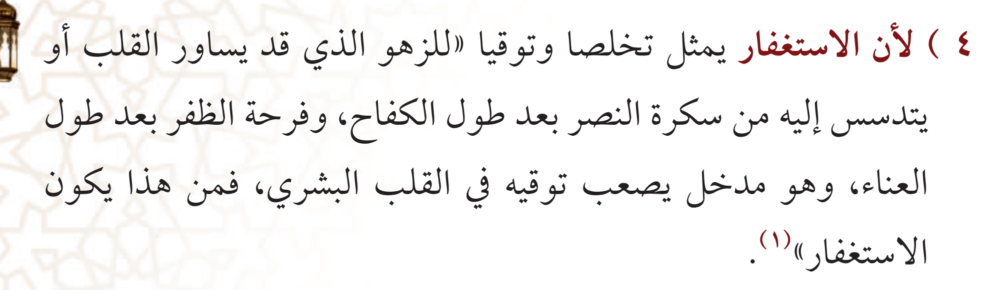
يقول القرطبي عن معنى ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾: «وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى: كُنْ مُتَعَلِّقًا بِهِ، سَائِلًا رَاغِبًا، مُتَضَرِّعًا عَلَى رُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَدَاءِ الْحُقُوقِ، لِئَلَّا يَنْقَطِعَ إِلَى رُؤْيَةِ الْأَعْمَالِ»[(٢)]، يقول في الظلال: «وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار، ففيه إيحاء للنفس وإشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز. فأولى أن تطامن من كبريائها، وتطلب العفو من ربها، وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور»[(٣)].

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٨١١).

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٣).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).



٤) **لأن الاستغفار** يمثل تخلصا وتوقيا «للزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء، وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشري، فمن هذا يكون الاستغفار»[١].

٥) **لأن الاستغفار** «يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين؛ ليرقب المنتصر الله فيهم، فهو الذي سلطه عليهم، وهو العاجز القاصر المقصر، وإنما سلطة الله عليهم تحقيقا لأمر يريده هو، والنصرُ نصْرُه، والفتح فَتْحُهُ، والدين دينه، وإلى الله تصير الأمور»[٢].

٦) **لأن الاستغفار** يمثل تخلصا وتوقيا «لما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي، والشدة الطاغية والكرب الغامر، من ضيق بالشدة، واستبطاء لوعد الله بالنصر، وزلزلة»[٣]، قال القاسمي: «اسأله أن يغفر ما كان من القلق والضجر والحزن، لتأخر زمن النصر والفتح»[٤].

٧) **لأن الاستغفار** يعالج «التقصير في حمد الله وشكره، فجهد الإنسان مهما كان، ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان»[٥].

٨) **لأن الاستغفار** يكمل النقص والتقصير الحاصل في الانتصار والإنجاز ويرأب صدعه.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٧).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).

(٤) محاسن التأويل (٩/ ٥٦٠).

(٥) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).

قال ابن رجب: «والاستغفار: هو خاتمة الأعمال الصالحة؛ فلهذا أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعله خاتمة عمره ... وسبب هذا أن العباد مقصرون عن القيام بحقوق الله كما ينبغي، وأدائها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، وإنما يؤدونها على قدر ما يطيقونه، فالعارف يعرف أن قدر الحق أعلى وأجلّ من ذلك، فهو يستحي من علمه ويستغفر من تقصيره فيه كما يستغفر غيره من ذنوبه وغفلاته، وكلما كان الشخص بالله أعرف كان له أخوف، وبرؤية تقصيره أبصر»[(١)].

* ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾: التواب صيغة مبالغة للدلالة على كثرة قبوله سبحانه للتوبة وعونه وحبه لأربابها.

وفي الجملة أَرْبَعُ مُؤَكِّدَاتٍ هِيَ: (إِنَّ «والضمير»، وَكَانَ، وَصِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّوَّابِ، وَتَنْوِينُ التَّعْظِيمِ فِيهِ)[(٢)]؛ لتبث البشرى والتفاؤل في نفس المستغفر؛ فتزيده إقبالا على الاستغفار.

إنها تفتح أبواب الأمل أمام من غفل عن واجبات ما بعد النصر، أو غفل عن مقاييس ومعايير النصر المنشود، أو أهمل وجهة النصر وغايته.

إنها دعوة مُبَشِّرَة للمبادرة بإصلاح الخلل وتسديد المسار، وتجديد التوبة والانكسار، قال ابن عطية: «وقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ يعقب ترجية عظيمة للمستغفرين»[(٣)].

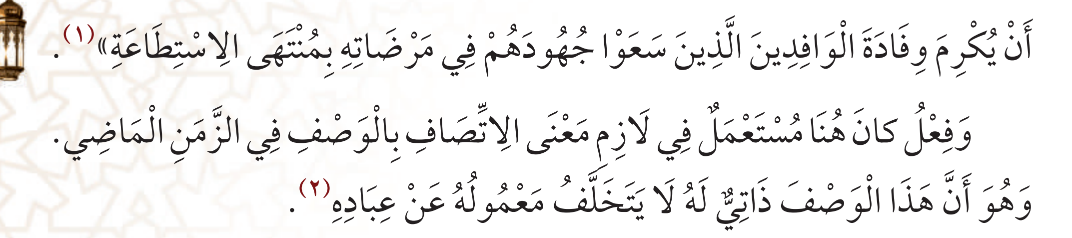
قال ابن عاشور: «أَفَادَتِ الْجُمْلَةُ إِشَارَةً إِلَى وَعْدٍ بِحُسْنِ الْقَبُولِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى حِينَمَا يَقْدُمُ عَلَى الْعَالَمِ الْقُدْسِيِّ ... لِأَنَّ مَنْ عُرِفَ بِكَثْرَةِ قَبُولِ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ شَأْنُهُ

---

(١) تفسير سورة النصر لابن رجب (ص٣٤،٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٦).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٣٣).



أَنْ يُكْرِمَ وِفَادَةَ الْوَافِدِينَ الَّذِينَ سَعَوْا جُهُودَهُمْ فِي مَرْضَاتِهِ بِمُنْتَهَى الِاسْتِطَاعَةِ»[١].

وَفِعْلُ كانَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي لَازِمِ مَعْنَى الِاتِّصَافِ بِالْوَصْفِ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي. وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ ذَاتِيٌّ لَهُ لَا يَتَخَلَّفُ مَعْمُولُهُ عَنْ عِبَادِهِ[٢].

لماذا جاء «توابا» ولم يأتِ «غَفَّارا»؟:

قال ابن عاشور: «عُدِلَ عَنْ ذَلِكَ تَلَطُّفًا مَعَ النَّبِيءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ أَمْرَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لَيْسَ مُقْتَضِيًا إِثْبَاتَ ذَنْبٍ ... (لأن) وصف (تواب) جَاءَ مِنْ تَابَ عَلَيْهِ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى وَفَّقَهُ لِلتَّوْبَةِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ أَمْرَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ إِرْشَادٌ إِلَى مَقَامِ التَّأَدُّبِ مَعَ اللهِ تَعَالَى»[٣].

«فالتواب» فيه مزيد ترغيب وتبشير وتحفيز؛ فالمنتصر ربما لا يكون متحفزا للاستغفار؛ لأنه في حالة إحسان لا إساءة في الغالب، أو يكون مستبعدا لأن يغفر الله له تقصيره؛ وفي كلتا الحالتين كان الوعد بشكر عمله القليل «الاستغفار»، بما هو أعظم من الأجر الجزيل «التوبة».

وفي ذلك الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون عدم تذكر الإنسان لذنب فعله وهو في رحلته لتحقيق النصر مانعا له من الاستغفار وطلب التوبة؛ فربما أذنب العبد وهو لا يشعر، والاستغفار بعد الطاعة أحب إلى الله من الاستغفار بعد المعصية، فالأمر أشبه بتأمين العبد لنفسه وأخذه بالاحتياط ليبقى دوما نقيا من الخطايا والذنوب.



---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٧).

الفرع الثاني

الحق السادس (استخراج الوصايا العملية)

الوصية الرئيسية (ما هو أبرز ما ينبغي عليّ فعله؟):

أن أبادر بالقيام بواجبات ما بعد النصر (التسبيح «ذكر وصلاة»، التحميد، الاستغفار والتوبة، الاستعداد للموت والعمل للآخرة).

فالسورة بالأساس تتحدث عن المبادرة بالقيام بواجبات ما بعد النصر، وإن كانت تشير إلى أمور أخرى متعلقة بالنصر، ﴿فَسَبِّحْ﴾ والفاء للتعقيب والسرعة، وتلك الواجبات تنقسم إلى منطوقة (الإكثار من التسبيح والتحميد والاستغفار)، ومفهومة (الاستعداد للموت وزيادة العمل للآخرة).

ومما يؤيد ما سبق أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جعل القيام بواجبات ما بعد النصر وصيته الرئيسية، فيما يتعلق بهذه السورة، فقد قال: «**فَأَمَرَنِي ... أَنْ أُسَبِّحَهُ، وَأَحْمَدَهُ، وَأَسْتَغْفِرَهُ**»[1]، وقال: «**نُعيتْ إليّ نفسي**»، بأنه مقبوض في تلك السنَةَ[2]، وأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ[3].

بل لقد فهم الصحابة أن القيام بواجبات ما بعد النصر، هو الوصية الرئيسية لهذه السورة، فقال أشياخ بدر: «أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا»[4]، وقال ابن عباس ووافقه عمر: «هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ

---

(١) صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٢٣) وصححه الألباني والأرناؤوط.

(٢) مسند أحمد (٢/ ٤٣٥) وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٣) السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٣٤٩)، المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٢٨)، المطالب العالية لابن حجر (١٢/ ٢٨٨)، الأحاديث المختارة للمقدسي (١٢/ ٢٩١)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣/ ١٧٢): «أما حديث هلال بن خباب؛ فحسن الإسناد».

(٤) صحيح البخاري (٥/ ١٤٩).



الله لَهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١] فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[النصر: ٣]»[1].



الوصايا الأخرى:

للآية الأولى:

* أن أنسب الفضل دومًا إلى الله في تحقيق النصر والفتح والنجاح ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾.

* أن أعتبر النصر دومًا هو الانتقال إلى حال أرضى لله ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾.

* أن أعمل على فتح القلوب أولًا قبل فتح الدروب ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

للآية الثانية:

* ألا أخدع نفسي أو غيري بادعاء نصر غير حقيقي ﴿وَرَأَيۡتَ﴾.

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٤٩).



* أن أجتهد في أن يكون انتصاري نجاحًا شاملًا، يحقق نفعًا عامًّا ﴿ٱلنَّاسَ﴾.
* أن أعمل على الحفاظ على استمرارية النصر والنجاح ﴿يَدۡخُلُونَ﴾.
* أن ألتزم حال سعيي لتحقيق النصر وبعده بشرع الله ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.
* أن يكون هدفي من الانتصار خدمة ديني لا خدمة نفسي، وانتصار منهج ربي لا منهجي الشخصي ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.
* أن أزيد معدل الشكر والانكسار والتسبيح والاستغفار كلما زاد معدل الإنجاز والانتصار ﴿أَفۡوَاجًا﴾.

للآية الثالثة:

* أن أبادر إلى الشكر والانكسار والتسبيح والاستغفار عقب كل انتصار «فَ».
* أن أعمل على ألا تشغلني الفرحة بالانتصار عن ربي الذي تفضل عليّ بالنصر ﴿رَبِّكَ﴾.
* أن أتحدث بنعمة الله عليّ بالنصر وأنسب الفضل إليه أمام الغير ﴿بِحَمۡدِ﴾.
* أن أجدد لله التوبة عقب كل انتصار؛ لأنني ربما أكون قد قصرت في واجبات ما بعد الانتصار في أمور كثيرة وأنا لا أشعر ﴿تَوَّابَۢا﴾.
* أن أستعد للموت وأعمل له، فقد يكون ذلك هو التمام الذي يعقبه نقصان.



الفرع الثالث

الحق السابع التدبر «التفكر في الحال والمآل»

(نتخير أهم وصايا السورة وهي «أن أبادر بالقيام بواجبات ما بعد النصر» ونتدبرها)

الدائرة الأولى: الإسقاط والتقييم (التفكر في الحال):

* **أين أنت** مما أوصت به السورة؟ ما مدى تطبيقك له؟ ما مدى حاجتك إليه؟
* **هل كنت تحصر الانتصارات والفتوحات** التي تتناولها السورة في الحروب فحسب، أم كنت تدرك أنها تشمل كل إنجاز في الحياة، حتى إنه قد يكون تعلم أمر أو آداءً لصلاة؟
* **كم مرة** أنجزت أمرا فزادك إعجابا وكبرا؟!!
* **هل كل إنجاز أو انتصار تحققه يزيدك انكسارا لله**، أم يعقبه إعجاب بنفسك؟
* **كم مرة** أنجز الله لك أمرا أو نصرك نصرا فاجتهدت في التحديث عن فضله لا عن نفسك؟
* **هل كل إنجاز أو انتصار يذكرك بالموت** ويزيدك اجتهادا للآخرة؟
* **هل إنجازاتك وانتصاراتك** تنتشر أم تنحسر؟
* **كم مرة** أردت إنجاز أمر ثم لم يتحقق، أما فكرت أن السبب ربما كان عدم مراعاتك لما أرشد الله إليه في هذه السورة؟
* **كم مرة** أنجزت أمرا ثم انحسر، بل اندثر؟! أما فكرت أن السبب ربما كان عدم مراعاتك لواجبات ما بعد النصر والإنجاز التي أرشد الله إليها في هذه السورة؟

* **كم مرة** انشغلت بالنصر عن النصير، وبالفتح عن الفتاح، وبالإنجاز عمن أنجز لك؟
* **تلك الإنجازات والانتصارات** التي امتن الله بها عليك، هل قمت بواجبات ما بعدها؟
* **ما هي** مساحة التسبيح والتحميد والاستغفار في حياتك؟
* **ما هو** قدر عنايتك بتجويد عبادات التسبيح والتحميد والاستغفار؟
* **هل كل إنجازات تكون لله،** ولرفعة دين الله؟
* **هل تراعي** فيما تنشده من إنجازات أن تتوفر فيه المعايير والمقاييس الشرعية للنصر؟
* **كم مرة** استولى على قلبك اليأس من الإنجاز أو الانتصار؟!
* **كم مرة** أوهمت نفسك بأنك أنجزت أو انتصرت ولم تكن كذلك؟!
* **كم مرة** كان الفتح المادي لك على حساب الفتح القلبي، فربحت بنيانا وخسرت إنسانا؟
* **نحتاج إلى أن نتفكر في حالنا، ونفسح المجال لهذه السورة لتقرأنا؛** فتفتشنا وتفاتشنا، وتكشفنا وتكاشفنا، وتوقفنا على حقيقة حالنا؛ ونتعرف - من خلالها - على وضعنا الحالي؛ لندرك - على الحقيقة - أين نحن مما أوصت به؟
* **نحتاج إلى أن نَزِن حالنا بحال النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونُقَيِّم أنفسنا في ضوء هذين المعيارين:

الأول: (الحاجات)؛ هل نحن أحوج لما أوصت به سورة النصر أم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟



الثاني: (الحواجز)؛ هل لدينا من الشواغل والصوارف والهموم أكثر مما كان لدى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

لا شك أننا أحوج لاتباع ما جاءت به سورة النصر؛ فنحن مقصرون غافلون، وشواغلنا - ولا شك - أقل من شواغل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورغم ذلك ما فَرَّط صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أوصاه الله به في هذه السورة رغم أنه كان على حال كاملة، بل اجتهد أن يزداد كمالا إلى كماله.

* **نحتاج إلى أن نعرض أنفسنا على هذه السورة،** ونعتبرها كالمرآة التي سنرى فيها مواطن الخلل التي لدينا، فنتعرف على الحالة الموجودة التي نحن عليها، والحالة المنشودة التي ينبغي أن نكون عليها.
* **فآمل أن تصنف نفسك،** فيما يتعلق بحجم استجابتك لما أوصى به الله في سورة النصر؛ لتحدد مشكلتك، وتعرف موقعك؛ وتتمكن من الوصول إلى الوجهة التي تريد.

الدائرة الثانية: التفكر في العواقب (الثمرات والمغبات «المآل»):

وذلك التفكر القلبي المنشود لا يكفي فيه مجرد معرفة العواقب، بل يكون بتحديد العواقب، ثم شهودها بالقلب ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ فيتصور الإنسان كأن هذه العاقبة قد حَقَّت ووقعت، وهو ينظر إليها بعين قلبه بل ويعايشها كأنه فيها الآن؛ إنها نقلة قلب لحالة مستقبلية، واستحضار للحالة الشعورية التي سيكون عليها حينها؛ ليدرك العواقب والمآلات من الآن كأنما ينظر إليها بعين قلبه؛ فيتأثر قلبه ويتحرك رغبة أو رهبة؛ ويشعر بأهمية الوصية ويزداد إقباله عليها.

فمثلا: يحدد ما هي عاقبة الحرص على أداء النوافل؟ فيعرف أن منها (الفوز بمحبة الله)، فلا يكتفِ بالمعرفة فقط؛ لأنها لا تكفي في تحفيزه وزيادة دافعيته

وإقباله على النوافل ليأتي بها أكمل ما تكون، بل يبدأ تفكره القلبي بشهود تلك العاقبة، فيتصور نفسه كأن قد فاز الآن بمحبة الله له، ويعايش تلك الحالة كأنه فيها الآن، ويستحضر الحالة الشعورية التي سيكون عليها، كأنما ينظر بعين قلبه الآن إلى تلك العواقب الحسنة لمحبة الله له، فيجد من التأثر القلبي ما يزيده رغبة في الحرص على النوافل، ويشعره بأهميتها ويزيده إقبالا عليها.

فلو نجح الإنسان في التذكر (القلبي) يكون إن شاء الله قد نجح في التدبر، قال ربنا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، والطريق لحصول التذكر قد وصفه ربنا حين قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: ٣٧].

والتذكر ينعقد لمن تولدت لديه الخشية أو الرهبة، والتدبر هو الذي يحرك القلب رغبةً بالتفكر في الثمرات، ورهبةً بالتفكر في المغبات؛ قال تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠﴾ [الأعلى: ٨ – ١٠].

ولا عجب لأن المرء إذا اجتهد في التدبر يتذكر، ويجد الأمر بداخله قد تيسر، قال ربنا: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾ [الليل: ٥ – ٧].

فالتدبر إنما يهدف إلى تحريك القلب، وزيادة الدافعية للاتباع؛ فقد ذكر الله عن المنافقين أنهم قد شق عليهم اتباع ما أوصى الله به في سورة محكمة من القتال في سبيل الله؛ رغم أنهم قد فهموا ما ينبغي عليهم فعله، ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [محمد: ٢٠]. ثم ذكر أن السبب في ذلك وغيره من سلوكياتهم الفاسدة وضعف دافعيتهم واستثقالهم للطاعة، وهو أنهم لا يتدبرون القرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

وقال الله تعالى لبعض خلقه: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧]، ثم ذكر سبب ذلك الخلل في الاتباع وكمال الانتفاع، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، فلو تدبروا، لتذكروا، وتطهروا.

من ثمرات «المبادرة بالقيام بواجبات ما بعد النصر»:



١. إكمال النقص الحاصل في ذلك الإنجاز أو الانتصار وسد الخلل المتعلق به:

فربما كان في الإنجاز تقصيرا أو نقصا من شأنه أن يحد أو يوقف مَدّ الإنجاز أو الانتصار، لكن ذلك يتبدد بالانكسار الناشئ عن التسبيح والتحميد والاستغفار.

فالنوافل تجبر النقص الحاصل في الفرائض، وقد شرع الله الانكسار، بالذكر والاستغفار، عقب العبادات الكبرى لوقايتها من الآفات والأخطار. ومن ذلك أن أول ما نقوله بعد الصلاة «أستغفر الله» ويعقبها تسبيحات وتحميدات وتكبيرات وتهليلات ودعوات.

٢. المزيد من الانتصار والإنجاز ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾:

فقد قال الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]، فما يَمُن الله به عليك من إنجاز أو فتح أو انتصار، بشكره تحصل الزيادة والانتشار، وبكفره والتفريط في شكره يحدث الانحسار، بل ربما تلاه الاندثار.

وتأمل حال ذلك الذي لم يقم بواجبات ما بعد الإنعام والانتصار، بل أعقبه بالكفران والعناد والإصرار، ثم طمع في الزيادة والانتشار، يقول سبحانه عنه: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾ [المدثر: ١٥ – ١٧].

لكن الله قد زاد فضله وفاض أجره، على أولئك الذين أنجز لهم وفتح عليهم بنعمة القرآن، فقاموا بواجبات ما بعد هذا الإنجاز والإنعام، قال سبحانه يمدحهم ويبشرهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

■ ٣. الدخول في زمرة المسبحين وما أعده الله لهم:

- **التسبيح سبب في تفريج الكروب:**

* **قال تعالى عن يونس** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

- **التسبيح طريق لتحصيل الرضا والسعادة:**

* **قال تعالى:** ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]

- **كل تسبيحة بعشر أو عشرين حسنة، وتحط عشر أو عشرين سيئة:**

* عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَقَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟»، فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، تُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ»[(١)].

* وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... فَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ كَتَبَ اللهُ لَهُ عِشْرِينَ حَسَنَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ عِشْرِينَ سَيِّئَةً ...»[(٢)].

- **كل تسبيحة تمثل فرصة عتق من النيران، وتتسبب في أجر عتق رقبة:**

* عَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَرَّ بِي ذَاتَ يَوْمٍ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ وَبَدُنْتُ، فَمُرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ وَأَنَا جَالِسَةٌ، قَالَ: «سَبِّحِي اللهَ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ رَقَبَةٍ تُعْتِقِينَهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ...»[(٣)].

٤. الدخول في زمرة الحامدين الشاكرين وما أعده الله لهم:

فلقد وصَّى الله بالشكر بعد النعمة والإنجاز، فقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦].

---

(١) صحيح مسلم (٣٧/ ٢٦٩٨)

(٢) رواه أحمد (٨٠٧٩)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (١٧١٨)

(٣) رواه أحمد (٢٦٩٥٦)، انظر الصَّحِيحَة (١٣١٦)



- بَشّر الله الشاكرين بالجزاء الجزيل:



❋ قال تعالى: ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

- وَعَدَ الله الشاكرين بقبول الصالحات، والتجاوز عن السيئات، وسكنى الجنات:

❋ فقال تعالى عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف: ١٦].

- والشكر سبب للنجاة من العقوبة والعذاب:

❋ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].

- «الحمد لله» هي أفضل الدعاء والشكر:

❋ وَعَنْ جابر بْن عَبْد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلهِ»، وفي رواية: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الشُّكْرِ: الْحَمْدُ لِلهِ»(١).

- التحميد سبب في امتلاء الميزان بالحسنات:

❋ عَنْ أَبِي مَالك الْأَشْعرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالْحَمْدُ لِلهِ، تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»(٢).

- وكل تحميدة تعدل أجر تجهيز فرس أكمل تجهيز والجهاد عليه في سبيل الله:

❋ وَعَنْ أُمِّ هَانِئِ بِنْت أَبِي طَالِب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَرَّ بِي ذَاتَ يَوْمٍ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ وَبَدُنْتُ،

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (١١٠٤)، الصَّحِيحَة (١٤٩٧).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٢٢٣)، سنن ابن ماجه (٣٥١٧).

فَمُرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ وَأَنَا جَالِسَةٌ، قَالَ: «... وَاحْمَدِي اللهَ مِائَةَ تَحْمِيدَةٍ، تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ تَحْمِلِينَ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ...»[(١)].

- **وكل تحميدة تستجلب ثلاثين حسنة، وتحط ثلاثين سيئة:**

❋ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... وَمَنْ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، كُتِبَتْ لَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّ عَنْهُ ثَلَاثُونَ سَيِّئَةً»[(٢)].

بعض ما تقدمه لنا (سبحان الله وبحمده):

- **الفوز بمحبة الرحمن، وتثقيل الميزان (أحب الكلام إلى الله):**

❋ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»[(٣)].

❋ وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْكَلَامِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «مَا اصْطَفَاهُ لِمَلَائِكَتِهِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، ثَلَاثًا تَقُولُهَا»[(٤)].

❋ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»[(٥)].

---

(١) رواه أحمد (٢٦٩٥٦)، وهو في السنن الكبرى للنسائي(٩/ ٣١١)، انظر: الصَّحِيحَة (١٣١٦).

(٢) رواه أحمد (٨٠٧٩)، وصححه الأرناؤوط، وانظر: صَحِيح الْجَامِع (١٧١٨).

(٣) متفق عليه: البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (٣١/ ٢٦٩٤).

(٤) صحيح مسلم (٨٤/ ٢٧٣١).

(٥) السنن الكبرى للنسائي (١٠٦٨٥)، انظر: الصَّحِيحَة (٢٥٩٨).



- **جبران وتعويض النقصان الحاصل في أمهات العبادات:**

* وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ هَالَهُ اللَّيْلُ أَنْ يُكَابِدَهُ، وَبَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، وَجَبُنَ عَنِ الْعَدُوِّ أَنْ يُقَاتِلَهُ، فَلْيُكْثِرْ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ جَبَلِ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ يُنْفَقَانِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

- **غراسٌ يستجلب لنا غراس نخل في الجنة:**

* وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»، وفي رواية: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»(٢).

- **حَطُّ الخطايا وغفرانها:**

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»(٣).

- **خاتم يستجلب لنا القبول، ويستنزل لنا المغفرة:**

* وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، فَقَالَهَا فِي مَجْلِسِ ذِكْرٍ، كَانَتْ كَالطَّابِعِ يُطْبَعُ عَلَيْهِ، وَمَنْ قَالَهَا فِي مَجْلِسِ لَغْوٍ، كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ»(٤).

---

(١) رواه الطبراني (٨/ ١٩٤)، وصححه الألباني في صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (١٥٤١).

(٢) رواه الترمذي (٣٤٦٤)، والبزار (٢٤٦٨)، وصححه الألباني في صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (١٥٣٩، ١٥٤٠).

(٣) متفق عليه: البخاري (٦٠٤٢)، مسلم (٢٨/ ٢٦٩١).

(٤) السنن الكبري للنسائي (٩/ ١٦٢)، والدعاء للطبراني (١/ ٥٣٧) والمعجم الكبير (٢/ ١٣٨)، والمستدرك علي الصحيحين للحاكم (١/ ٧٢٠)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٦٤٣٠)، الصَّحِيحَة (٨١).

- **مفتاح الخير والرزق والبركة:**

* **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لابْنِه: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ، آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، آمُرُكَ بِلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعْنَ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، لَرَجَحَتْ بِهِنَّ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً لَقَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ»[1].

■ **بعض ما تقدمه لنا «سبحان الله والحمد لله» معا:**

- **برهان إجلال لله، ومعراجٌ للفوز بذكر الله لنا دوما برضوانه ورحمته:**

* **عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ، مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَزَالَ لَهُ عِنْدَ اللهِ شَيْءٌ يُذَكِّرُ بِهِ؟»[2].

- **طريق سهل للفوز بمحبة الله لنا وما يترتب عليها من خير:**

* **عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»[3].

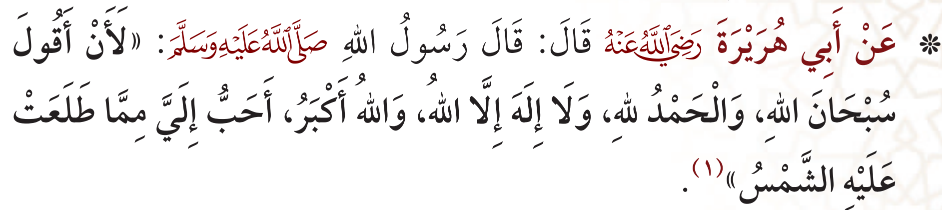
---

(١) رواه أحمد (٦٥٨٣)، وصححه الألباني والأرناؤوط.

(٢) رواه أحمد (١٨٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٠٩)، انظر: الصَّحِيحَة (٣٣٥٨).

(٣) صحيح مسلم (١٢/ ٢١٣٧)





- **فضل وأجر، وخير وبر، أفضل من الدنيا وما فيها:**

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[١].

- **غراس يغرس الله لنا به شجرا في الجنة:**

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[٢].

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَغْرِسُ غَرْسًا، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا الَّذِي تَغْرِسُ؟»، قُلْتُ: غِرَاسًا لِي، قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى غِرَاسٍ خَيْرٍ لَكَ مِنْ هَذَا؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، يُغْرَسْ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ»[٣].

- **امتلاء ميزان الحسنات بما يعادل مساحة وحجم السماوات والأرض وما بينهما:**

* عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، تَمْلَآنِ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، وفي رواية: «وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ، يَمْلَأُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»[٤].

---

(١) صحيح مسلم (٣٢/ ٢٦٩٥)

(٢) رواه الترمذي (٣٤٦٢)، وأحمد (٢٣٥٩٨)، انظر: الصَّحِيحَة (١٠٥).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٠٧)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٢٦١٣).

(٤) صحيح مسلم (١/ ٢٢٣)، سنن ابن ماجه (٣٥١٧).

* وَعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَخٍ بَخٍ خَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ، يُتَوَفَّى لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ»[(١)].

- **الوقاية والستر من النار:**

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُذُوا جُنَّتَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ عَدُوٍّ حَضَرَ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ مِنَ النَّارِ»، قُلْنَا: مَا جُنَّتُنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُقَدِّمَاتٍ، وَمُعَقِّبَاتٍ، وَمُجَنِّبَاتٍ، وَهُنَّ (وفي رواية: مِنَ) الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»[(٢)].

- **تكفير الخطايا والسيئات:**

* عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الْوَرَقِ، فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الْوَرَقُ، فَقَالَ: إِنَّ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، تَنْفُضُ الْخَطَايَا كَمَا تَنْفُضُ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»[(٣)].

* وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، كُفِّرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[(٤)].

---

(١) رواه أحمد (١٥٧٠٠، ١٨١٠١)، وابن حبان (٨٣٣)، انظر: الصَّحِيحَة (١٢٠٤).

(٢) السنن الكبرى للنسائي (١٠٦٨٤)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٣٢١٤)، الصَّحِيحَة (٣٢٦٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٣٣)، وأحمد (١٢٥٥٦)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (١٦٠١).

(٤) رواه أحمد (٦٩٥٩) إسناده حسن، لكن اختلف في رفعه ووقفه، والوقف أصح، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٥٦٣٦).



■ ٥. الدخول في زمرة المستغفرين والتائبين وما أعده الله لهم:

* **فقد دعا الله تعالى عباده إلى الاستغفار، وَرَغَّبَهم فيه،** وَوَعَدَهم بأن يغفر لهم مغفرة لا تخطر لهم على بال؛ فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**قال الله: يا ابن آدم، إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أُبالي! يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنان (سحاب) السماء ثمَّ اسْتغفرتني غفرت لك ولا أُبالي! يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب (ما يقارب ملأها) الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقرابها مغفرةً!**»[1].

* **وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال إبليسُ: وعَزَّتك لا أبرح أُغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال: وعِزَّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما اسْتغفروني**»[2].

وليس هذا فحسب، بل إن سبحانه قد طَالَبَنَا بالمسابقة والمسارعة في الاستغفار، فقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

- **الفوز بالمغفرة خير من الدنيا وما فيها:**

* قال تعالى: ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

- **بَشَّرَ اللهُ المستغفرين بجنات تجري من تحتها الأنهار:**

* **فقد قال الله عن المستغفرين:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٣١٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٣١)، وهو في سنن الترمذي (٥/ ٥٤٨)، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٧٠).

(٢) رواه أحمد (١٧/ ٣٣٧) وحسنه الأرناؤط، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٩٠)، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٧٠).

﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٦].

- **ووعد الله المستغفرين بالعيش الطيب في الدنيا والآخرة:**

* **ففي الحديث:** «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»[(١)]. وَعَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ، فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ»[(٢)].

- **الاستغفار يستجلب صنوفا من خيرات وبركات السماء والأرض:**

* **فقال تعالى:** ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

- **الاستغفار يزيد قوة الإنسان:**

* **قال تعالى:** ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢].

- **الاستغفار يُنَقِّي القلب ويُقَوِّيه، ويحميه من الران:**

* **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ هُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾»[(٣)].

* (نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ) وَالنُّكْتَةُ: أَثَرٌ قَلِيلٌ كَالنُّقْطَة، شبه الوسَخ فِي المِرآة والسَّيفِ،

---

(١) سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٥٤)، الدعاء للطبراني (١/ ٥٠٦)، وانظر: صَحِيح الْجَامِع (٣٩٣٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ١٥٢)، والطبراني في الدعاء (١/ ٥٠٦)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٥٩٥٥)، الصَّحِيحَة (٢٢٩٩).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وانظر: صَحِيح الْجَامِع (١٦٧٠).

ونحوهما، مِنَ النكْتِ وهو في الأصل أن تضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها[1]. وشَبَّه تأثر النفس باقتراف الذنوب بالنكتة السوداء من حيث إنهما يضادان الجلاء والصفاء[2].

* **(صُقِل قلبه) أي:** صقلت الملائكة قلبه وأذهبت ما فيه من الأثر[3]. وصَقلَه جَلَّاه ... والمعنى نَظُفَ وَصَفِيَ مِرْآةُ قَلْبِهِ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ بِمَنْزِلَةِ الْمِصْقَلَةِ تَمْحُو وَسَخَ الْقَلْبِ وَسَوَادَهُ حَقِيقِيًّا أَوْ تَمْثِيلِيًّا[4]. وَالْحَمْلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى مِنْ جَعْلِهِ مِنْ بَابِ التَّمْثِيلِ وَالتَّشْبِيهِ حَيْثُ قِيلَ: شَبَّهَ الْقَلْبَ بِثَوْبٍ فِي غَايَةِ النَّقَاءِ وَالْبَيَاضِ، وَالْمَعْصِيَةَ بِشَيْءٍ فِي غَايَةِ السَّوَادِ أَصَابَ ذَلِكَ الْأَبْيَضَ، فَبِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ يَذْهَبُ ذَلِكَ الْجَمَالُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ إِذَا أَصَابَ الْمَعْصِيَةَ صَارَ كَأَنَّهُ حَصَلَ ذَلِكَ السَّوَادُ فِي ذَلِكَ الْبَيَاضِ[5].

* **(وَإِنْ زَادَ) أَيْ:** فِي الذَّنْبِ أَيْ: بِعَيْنِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ (زَادَتْ) أَيِ النُّكْتَةُ السَّوْدَاءُ أَوْ يَظْهَرُ لِكُلِّ ذَنْبٍ نُكْتَةٌ (حَتَّى تَعْلُوَ) أَيِ: النُّكَتُ (قَلْبَهُ) أَيْ: تُطْفِئُ نُورَ قَلْبِهِ فَتُعْمِي بَصِيرَتَهُ، فَلَا يُبْصِرُ شَيْئًا مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ وَالْحِكَمِ الرَّائِعَةِ، وَتَزُولُ عَنْهُ الشَّفَقَةُ وَالرَّحْمَةُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى سَائِرِ الْأُمَّةِ، وَيَثْبُتُ فِي قَلْبِهِ آثَارُ الظُّلْمَةِ وَالْفِتْنَةِ وَالْجَرَاءَةِ عَلَى الْأَذِيَّةِ وَالْمَعْصِيَةِ[6].

- **الاستغفار أمان من العذاب والمخاطر، وتعويض للخسائر:**

* **فقال تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١١٤)، مرعاة المفاتيح (٨/ ٤٢).
(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٦/ ١٨٤٨)، مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٢٢).
(٣) التنوير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥١٠).
(٤) مرعاة المفاتيح (٨/ ٤٢).
(٥) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٢٢).
(٦) شرح المصابيح لابن الملك (٣/ ١٤٥)، مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٢٢).

* وَعَنْ أَبِي يَسَارٍ زَيْدٍ مَوْلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنْ الزَّحْفِ»، وفي رواية: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ثَلَاثًا، غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَ فَارًّا مِنَ الزَّحْفِ»[١].

- **وبلغ من بركة الاستغفار أن الاستغفار للغير باب عظيم من أبواب الحسنات الهائلة:**

* عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً»[٢].

٦. زيادة الإقبال على الطاعة والخير ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾:

حيث يتحرر الإنسان من إعجابه بنفسه الذي يقعده ويحرمه التوفيق، ويدرك العبد أنه حتى وإن أحسن فلا زال مدينا وبحاجة إلى الإحسان، فيفرغ من طاعة وينصب في أخرى.

وبذلك يكون المسلم أكثر الناس استفادة من الإنجاز؛ فيضيف إلى إنجازه إنجازات أخرى بتعبده وقيامه بواجبات ما بعد النصر، وبذلك يضيف إلى مكاسب النصر مكاسب عبادات آخرى، كالتوبة والشكر والاستغفار وتزكية النفس، ثم يترتب على ذلك أن يكرمه الله بإنجاز آخر.

٧. القرب من الرب والتعلق به:

فالقيام بواجبات ما بعد النصر والإنجاز يزيد العبد لربه حبا ومنه قربا، قال

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٧)، وأبو داود (١٥١٧)، والحاكم (٢٥٥٠)، انظر: الصَّحِيحَة (٢٧٢٧).

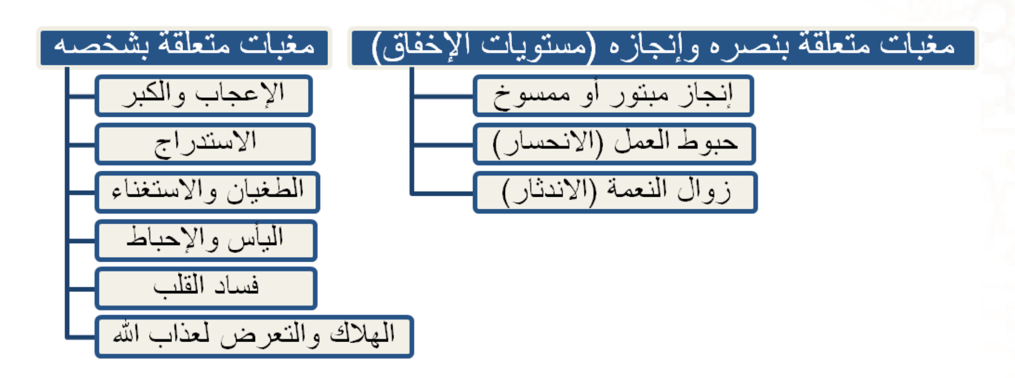
(٢) مسند الشاميين للطبراني (٢١٥٥)، انظر: صَحِيحِ الْجَامِعِ (٦٠٢٦).

تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

٨. التفاؤل والأمل:

فالإنجازات والانتصارات ترفع همته وتزيد من عزيمته وتشجعه على مواصلة الإنجاز والتحرر من أسر العجز والكسل والابتزاز.

- **من مغبات التقصير في «تحقيق النصر الكامل»:**



١. **الإعجاب بالنفس والكبر (الاغترار والافتخار):** فمن أخطر ما يهدد الإنسان بعد الإنجاز هو الإعجاب بنفسه؛ لأنه يهلك العبد، ويوقفه عن مواصلة الإنجاز، وفي الحديث: «**فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**»(١).

٢. **الاستدراج:** فلما غفل عن أداء واجبات ما بعد النصر، يفتح الله له استدراجا، ولا يزال الله يملي له حتى إذا أخذه لم يفلته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا

---

(١) الزهد لأبي داود (١/ ١٠١)، جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٦٨)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٣٠٣٩)، صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (٥٣).

﴿ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

عَنْ حُمَيْضَةَ بِنْتِ يَاسِرٍ، عَنْ جَدَّتِهَا يُسَيْرَةَ - وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ - قَالَتْ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ عَلَيْكُنَّ بِالتَّهْلِيلِ، وَالتَّسْبِيحِ، وَالتَّقْدِيسِ (أَيْ: قَوْلِ سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ أَوْ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ) وَلَا تَغْفُلْنَ (أي: عن الذكر) فَتَنْسَيْنَ الرَّحْمَةَ، وَاعْقِدْنَ بِالْأَنَامِلِ، فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولَاتٌ، مُسْتَنْطَقَاتٌ»[1].

قَالَ الْقَارِي: «وَالْمُرَادُ بِنِسْيَانِ الرَّحْمَةِ نِسْيَانُ أَسْبَابِهَا، أَيْ: لَا تَتْرُكْنَ الذِّكْرَ، فَإِنَّكُنَّ لَوْ تَرَكْتُنَّ الذِّكْرَ لَحُرِمْتُنَّ ثَوَابَهُ فَكَأَنَّكُنَّ تَرَكْتُنَّ الرَّحْمَةَ. قَالَ تَعَالَى ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ [البقرة: ١٥٢] أَيْ بِالطَّاعَةِ ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢] أَيْ بِالرَّحْمَةِ»[2].

٣. **الطغيان والاستغناء عن الله:** قال الله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٨ - ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

٤. **الإصابة بالإحباط واليأس:** من جراء تكرار الإخفاق؛ لأن النصر لم يؤد صاحبه واجبات ما بعده، فلا يتكرر إلا استدراجا.

٥. **فساد القلب وانشغاله عن الله:** بالهم والغم والأحزان.

٦. **الهلاك والتعرض لعذاب الله:** فقد مر بنا أن الإعجاب واحد من المهلكات، وأن التفريط في الشكر يستوجب العذاب.

٧. **أن يكون النصر مبتورا وقاصرا وممسوخا،** ولن يؤدى دوره في الحياة.

---

(١) رواه أحمد (٢٧١٣٤)، والترمذي (٣٥٨٣)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٤٠٨٧).

(٢) تحفة الأحوذي (٨/ ٤٨٠).



٨. **حبوط العمل:** فالإعجاب بالنفس، ونسيان فضل الرب يحبط أعمال الإنسان.

٩. **زوال النعمة:** فإن من سنة الله أن من لم يؤد شكر نعمة يعرض نفسه لتبديدها وتبديلها.



بعض المخرجات الوجدانية لتدبر الوصية

إذا أحسن المسلم تفهم وصية الله له وتدبرها جيدا؛ فإنه يجد لذلك أثرا في قلبه، ويفيض ذلك الأثر على وجدانه، بل وكل كيانه.

* **فيشعر بنعمة الله عليه** ورحمته به حين نبهه إلى وجهة النصر ومعاييره ومكملاته.
* **ويشعر بالتقصير** في واجبات ما بعد الانتصار، فهناك الكثير من الانتصارات والنجاحات التي ربما تكون يومية ورغم ذلك يغفل عن واجباتها.
* **ويشعر بضرورة** المواظبة على التوبة والافتقار والشكر والانكسار، فالنجاحات والانتصارات أكثر من أن تحصى، فهي من أمثلة نِعَمه وكرمه سبحانه الذي لا يُحد ولا يُعد، يكفي انتصارا أنه أنعم على العبد بأنه لا زال يعبده ويوحده.
* **ويشعر بالأمل والتفاؤل** ولا يستصعب أو يستبعد نصرًا أو نجاحًا بعد ذلك أبدا.
* **ويشعر بالندم** على غفلته عن تدبر هذ السورة العظيمة؛ لأن تدبرها كان سيوفر كثيرا من الوقت ويسدد الكثير من الجهد.
* **ويشعر بالندم** على نظرته السطحية السابقة لتلك السورة؛ حين كان يتصور أنها تناقش فقط فتح مكة، وأنها رسالة خاصة للنبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
* **ويشعر بعظمة القرآن،** ففى تلك العبارات الموجزات، يلخص ويبين قضية من أعظم المهمات.
* **ويزداد إحساسه** بأهمية الشكر والانكسار والتسبيح والاستغفار ولا سيما عقب الانتصار.



* **ويشعر أن** الحفاظ على النصر لا يقل أهمية عن السعي لتحقيقه إن لم يكن أهم.
* **ويشعر أنه** ليس المهم أنني انتصرت أم لا؟ المهم هل هذا النصر هو الأرضى لله أم لا؟
* **ويشعر بالندم** على تلك الفترة التي كان يتخبط فيها بحثًا عن النجاح والنصر.
* **ويشعر بالفرح**؛ لأن الله هداه لتدبر هذه السورة.



الأسماء والصفات التي تجلت في الآيات

القرآن كلام الله، وأكثر ما تكلم عنه القرآن هو (الله)، وأعظم ما يقدمه القرآن للإنسان أن يُعَرِّفَه بالله، وأهم ما ينبغي أن يخرج به الإنسان من تدارس القرآن أن يزداد ارتباطا بالرحمن، وهذا هو المقصد الأكبر للقرآن، تأسيس وتكميل وتدعيم الإيمان، وخصوصا الإيمان بالله.

لذا فإنه ما ينبغي أن نتدارس آية أو سورة إلا ونتوقف مع ما جاء فيها من أسماء وصفات وقفة لائقة؛ فنستخرج الاسم أو الصفة، ونفهم المعنى، ونستخرج آثار ذلك الاسم في السورة أو الآية، ونتفكر في تلك الآثار، ونشهد منة الله وعظمته، وقوته ورحمته، وعزته وقيوميته.

فإن كل اسم ذُكِر في آية أو سورة، تكون تلك الآية أو السورة بمثابة شرح لذلك الاسم، وإبراز لآثاره وسماته المميزة.

بقي أن نقول: إن تدارس الأسماء والصفات، من أقوى المحفزات، ومن أكثر ما يدفع الإنسان للاستجابة للآيات.

إننا حين نتأمل في الآيات من زاوية الأسماء والصفات، نجدها تتحدث عن شواهد وآثار لأسماء الله وصفاته على صفحات «التاريخ المأثور» (نصر الله لنبيه والفتوحات التي امتن بها عليه)، كما تتحدث عن شواهد وآثار أخرى على صفحات «التشريع المسطور» (التوصية بواجبات ما بعد النصر وما في ذلك من الحكمة والرحمة والنعمة والعظمة).

ومن الأسماء والصفات التي تجلت في هذه السورة:

١ . **النصير**: حيث نصر رسولنا ومَكَّن له في الأرض.



٢. **الفتاح**: حيث فتح لرسولنا من أبواب الخير وفتح عليه مكة وغيرها.

٣. **السبوح**: الذي تنزه عن النقائص، ويستحق التسبيح.

٤. **الحميد**: الذي يستحق المحامد كلها على ذاته وصفاته.

٥. **التواب**: فهو الذي يفتح لعباده باب التوبة، ويدعوهم إليها، ويقبلها منهم دوما.

٦. **الودود**: الذي تودد إلينا بإرشادنا لما يحفظ علينا الإنجازات والانتصارات.

٧. **الرحيم**: الذي رحمنا من الغفلة عن واجبات ما بعد الإنجازات فهدانا لما ينبغي فعله.



الفرع الرابع

الحق الثامن (الاتباع)

أولا: الخطة التشغيلية للتزكي بالسورة



أولا: التزكية (تطهيرا وتطويرا):

- **التطهير:**

نُعِدُ سجلا (للمنجزات)، ونبدأه بتحديد ثلاثة منجزات في حياتنا لم نقم بواجبات ما بعدها، فنتوب إلى الله ونستغفره من تقصيرنا، ونبدأ في القيام بواجبات ما بعدها.

التطوير (١): نقوم بتحديد شيء كنا قد يئسنا من إنجازه، ثم نبدأ في السعي لإنجازه، بنفسية جديدة مع مراعاة مقومات النصر التي جاءت في السورة، وانتواء القيام بواجبات ما بعد الإنجاز، فنقوم بوضع خطة للنجاح والنصر، ونستعين بالوحى لإرشادنا إلى: «الوجهة، الهدف، معايير ومقاييس النصر، واجبات ما

بعد النصر (المكملات أو المثبتات)».

التطوير (٢): صلاة الضحى أو النوافل كلون من ألوان الواجبات العملية التي قام بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد النصر. ففي الصحيحين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**صَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ سُبْحَةَ الضُّحَى**»[١] يوم فتح مكة.

فإذا اعتبرنا صلاة الضحى تسبيحا - وقد كانت تُسَمَّى «**سُبْحَة الضحى**» - على القول الذي يُفَسِّر التسبيح بصلاة النافلة، يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سَبَّح بحمد ربه عند النصر أو الفتح أو الإنجاز (ذكرا وصلاة)، بل لقد أتم ما وصاه الله به بالاستغفار والتوبة؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الضُّحَى ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»، حَتَّى قَالَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ[٢].

التطوير (٣): الاجتهاد في العمل للآخرة استعدادا للموت، وقصر الأمل (نتعبد عبادة مودِّع، ولنبدأ «**بصلاة مودِّع**»). روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قَالَ: نُعِيَتْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسُهُ حِينَ أُنْزِلَتْ، فَأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ[٣].

التطوير (٤): نكثر من التسبيح والتحميد والاستغفار في أكبر قدر ممكن من المواطن؛ فقد صح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تسبيحه وتحميده واستغفاره قد زاد بشكل بارز بعد نزول السورة.

---

(١) متفق عليه: البخاري (١/ ٨١)، (١١٠٤)، ومسلم (١/ ٤٩٨).

(٢) الأدب المفرد (ص٢١٧)، وصححه الألباني؛ وليس في الحديث ما يحدد زمن ذلك (قبل نزول السورة أم بعدها؟).

(٣) السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٣٤٩)، المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٢٨)، المطالب العالية لابن حجر (١٢/ ٢٨٨)، الأحاديث المختارة للمقدسي (١٢/ ٢٩١)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣/ ١٧٢): «أما حديث هلال بن خباب؛ فحسن الإسناد».

* فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ قَبْلَ مَوْتِهِ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِه، أَسْتَغْفِرُ الله، وَأَتُوبُ إِلَيْه» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لِتُكْثِرَ مِنْ دُعَاءٍ، لَمْ تَكُنْ تَدْعُو بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي جَلَّ وَعَلَا أَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَيُرِينِي عِلْمًا فِي أُمَّتِي، فَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُ ذَلِكَ الْعِلْمَ أَنْ أُسَبِّحَهُ، وَأَحْمَدَهُ، وَأَسْتَغْفِرَهُ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُهُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فَتْحُ مَكَّةَ»[1].

* وعَنْ عَبْدِ الله (ابن مسعود)، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ»[2].

ويُستحب أن يأتي بعد الصيغ المأثورة المخصوصة في هذا المقام بالصيغ الجامعة المأثورة مطلقا:

١) فعَنْ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِ جُوَيْرِيَةَ، بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟»، قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِه، عَدَدَ خَلْقِه، وَرِضَا نَفْسِه، وَزِنَةَ عَرْشِه، وَمِدَادَ كَلِمَاتِه»، وفي رواية: «سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِه، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِه، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِه، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِه»[3].

---

(١) صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٢٣) وصححه الألباني والأرناؤوط.

(٢) مسند أحمد (٧/ ٧) وحسنه شعيب الأرناؤوط.

(٣) صحيح مسلم (٧٩/ ٢٧٢٦).

٢) فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَآنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ فَقَالَ: «مَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟»، قُلْتُ: أَذْكُرُ اللهَ، قَالَ: «أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ أَوْ أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِكَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ، وَالنَّهَارَ مَعَ اللَّيْلِ؟ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَقُولُ: الْحَمْدُ للهِ مِثْلَ ذَلِكَ»، ثُمَّ قَالَ: «تُعَلِّمُهُنَّ عَقِبَكَ مِنْ بَعْدِكَ»[(١)].

٣) وَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ: الْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، فَأَعْظَمَهَا الْمَلَكُ أَنْ يَكْتُبَهَا، وَرَاجَعَ فِيهَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقِيلَ لَهُ: اكْتُبْهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي كَثِيرًا»[(٢)].

٤) وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْعَى، فَانْتَهَى وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الصَّفِّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ قَالَ: «أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ؟»، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: «أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْسًا؟»، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، أَسْرَعْتُ الْمَشْيَ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى الصَّفِّ، وَقَدْ حَفَزَنِي النَّفَسُ، فَقُلْتُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا»، وفي رواية: «لَقَدِ ابْتَدَرَهَا اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا، فَمَا دَرَوْا كَيْفَ يَكْتُبُونَهَا حَتَّى سَأَلُوا

(١) رواه الطبراني (٧٩٣٠)، وابن حبان (٨٣٠)، انظر: الصَّحِيحَة (٢٥٧٨)

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٠٦١)، انظر: الصَّحِيحَة (٣٤٥٢)

رَبَّهُمْ عَزَّوَجَلَّ؟ فَقَالَ: اكْتُبُوهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي»[١].

٥) وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[٢].

٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»[٣].

ثانيا: تعاهد التزكية (الربط الواقعي):

بما أن إنجاز (الصلاة) هو أكبر إنجاز يومي، نضع في مكان الصلاة بالمنزل ورقة مكتوب عليها «وصية سورة النصر الرئيسية»، أو عبارات تذكرنا مثل: «الصلاة (إنجاز كبير) تعامل معه كما لو كان آخر إنجاز لك، ولا تغفل عن أداء واجبات ما بعده».

وإذا تأملت في أذكار (ما بعد الصلاة) التي نرددها تجدها تدور في فَلَك ما أوصتنا به سورة النصر، وتذكرنا به على الأقل خمس مرات في اليوم والليلة بذلك ليكون منهجية لنا في التعامل مع أي نصر أو إنجاز، فأول ما نبدأ به بعد الصلاة (الاستغفار)، ثم نجد في تلك الأذكار (التسبيح، والتحميد). أما صلاة الفريضة في حد ذاتها فقد كانت (تسبيحا)، فإذا تنفلت بصلاة بعد الفريضة كانت (تسبيحا) أيضا.

---

(١) صحيح مسلم (١٤٩/ ٦٠٠)، ورواه أحمد (١٢٠٥٣، ١٣٠١١)، وأبو داود (٧٦٣)، وانظر: الصحيحة (٣٤٥٢).

(٢) متفق عليه: البخاري (٦٠٣٥)، ومسلم (٧٠/ ٢٧١٩).

(٣) صحيح مسلم (٢١٦/ ٤٨٣).

وكأن صلاة الفريضة، وهي من أحب الأعمال إلى الله، وما تلاها من استغفار وتجديد للتوبة وتسبيح وتحميد، كانت توسلات إلى الله بالأعمال الصالحة؛ ليعين العبد على أن يدوم على القيام بواجبات ما بعد النصر من الذكر والشكر وحُسن التعبد.

ولعلنا إن استحضرنا ذلك، ندرك مدى حاجتنا لما كان يردده رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الصلاة من أذكار، بل وندرك أهمية الوصية التي وَصَّى بها معاذا حين قال: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ... أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: (اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)**»[(١)].

أضف إلى ما سبق أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزلت عليه سورة النصر ربطها بالصلاة، فتأول منها دعاءً جعله في ركوعه وسجوده، ولما حصل له الفتح النصر جعل من واجبات ما بعد النصر أن يزيد في الصلاة، فصلى الضحى ثماني ركعات[(٢)]، رغم أن أغلب صلاته لها كانت أربعا.

لذا تَذَكَّر دوما سورة النصر مع الصلاة، واستحضر كم هو فتح كبير فتحه الله عليك أن أكرمك بالصلاة، واعتبر صلاتك وما بعدها قياما بواجبات لإنجازات وانتصارات يمن الله بها عليك في يومك، ما لا تعرفه منها أكبر بكثير مما تعرفه.

۞ ثالثا: الاستعانة على التزكية (التفاعل بدعائي المسألة الثناء):

* **كان رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بعد نزول السورة** يواظب على التسبيح والتحميد والاستغفار؛ يقول ابن حجر: «كَانَ يُوَاظِبُ عَلَى ذَلِكَ دَاخِلَ

(١) رواه أحمد (٣٦/ ٤٣٠) وصححه الأرناؤط، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٠٧)، وانظر: صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (١٥٩٦).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٤٦).

الصَّلَاةِ وَخَارِجِهَا وَفِي رِوَايَةِ مَنْصُورٍ بَيَانُ الْمَحَلِّ الَّذِي كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِيهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَهُوَ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ»(١).

* **ففي الركوع والسجود كان يقول:** «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، وفي رواية: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، وفي رواية: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» ثَلَاثًا، ولعل السياق الأخير هو الأتم داخل الصلاة.

* **أما في خارج الصلاة،** فَوَرَدَ أنه كان يقول: «سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، وفي رواية: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، وفي رواية: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ».

وإليكم جملة من النصوص الدالة على ما سبق:

١) **عَنْ عَائِشَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾ [النصر: ١] إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»(٢).

٢) **وجعل استجابته في الركوع والسجود تحديدا،** فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا، وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ»(٣). و«يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ» أَيْ: يُفَسِّرُهُ، وَيَعْمَلُ بِهِ(٤)، فيستخرج ما توصي به الآيات ويمتثله(٥).

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٢٩٩)

(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٧٨)

(٣) صحيح البخاري (٦/ ١٧٨).

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ١٤١).

(٥) ولقد ذهب معظم العلماء إلى أن المراد امتثاله أو عمل به أو فعل المأمور أو نفّذه أو طبّقه. انظر: فتح الباري=

قال ابن رجب: «فتأويل القرآن، تارة يراد به تفسير معناه بالقول، وتارة يراد به امتثال أوامره بالفعل»[(١)] .

وقال الطيبي: «لما أُمِرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ صَدَّقَه بفعله. وأظهر ما يقتضي مآل أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الامتثال، وحصول المأمور به»[(٢)].

وقال النووي: «وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ الْبَدِيعَ فِي الْجَزَالَةِ الْمُسْتَوْفِي مَا أُمِرَ بِهِ فِي الْآيَةِ وَكَانَ يَأْتِي بِهِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لِأَنَّ حَالَةَ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا فَكَانَ يَخْتَارُهَا لِأَدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ لِيَكُونَ أَكْمَلَ»[(٣)].

٣) **بل كان يكثر من ذلك خارج الصلاة أيضا؛** فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ «**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»[(٤)]. وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»[(٥)]. وفي رواية: كَانَ

= لابن حجر (٢/ ٢٩٩)، فيض الباري على صحيح البخاري (٢/ ٣٨٨)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢/ ١٢٢)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٧٠٩)، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ١٨٦)، نيل الأوطار (٢/ ٢٨٦)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٢٨٩)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ٩٥)، حاشية السيوطي على سنن النسائي (٢/ ٢١٩)، شرح أبي داود للعيني (٤/ ٨٧)، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (١/ ٣١٦)، عون المعبود وحاشية ابن القيم (٣/ ٩٢)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٧/ ٢٢٣)، تطريز رياض الصالحين (ص١٠٠)، شرح سنن أبي داود، عبد المحسن العباد (١/ ٦).

(١) فتح الباري لابن رجب (٧/ ٢٧٢).
(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٣/ ١٠١٤).
(٣) شرح النووي على مسلم (٤/ ٢٠١).
(٤) صحيح مسلم (٢/ ٥٠).
(٥) صحيح مسلم (٢/ ٥٠).

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ قَبْلَ مَوْتِهِ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»[1].

٤) **ولقد اشتهر ذلك الأمر عنه حتى رواه غير واحد من الصحابة،** فعَنْ عَبْدِاللهِ (ابن مسعود)، قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، كَانَ يُكْثِرُ إِذَا قَرَأَهَا وَرَكَعَ أَنْ يَقُولَ «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**» ثَلَاثًا[2]. وفي رواية: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قَالَ: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ**»[3].

بل وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستخدم نفس المنهجية في مواطن أخرى بعد إنجازات كثيرة؛ وفي أوراد الصباح والمساء، ولا ندري هل كان بعد نزول السورة أم قبلها؟ لكنه يفتح آفاقا لتعميم تلك المنهجية على كل إنجاز، وإن اختلفت الألفاظ.

١) **فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:** مَا جَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسًا قَطُّ، وَلَا تَلَا قُرْآنًا، وَلَا صَلَّى صَلَاةً إِلَّا خَتَمَ ذَلِكَ بِكَلِمَاتٍ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَاكَ مَا تَجْلِسُ مَجْلِسًا، وَلَا تَتْلُو قُرْآنًا، وَلَا تُصَلِّي صَلَاةً إِلَّا خَتَمْتَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، مَنْ قَالَ خَيْرًا خُتِمَ لَهُ طَابَعٌ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرِ، وَمَنْ قَالَ شَرًّا كُنَّ لَهُ كَفَّارَةً: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»[4].

---

(١) صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٢٣) وصححه الألباني والأرناؤوط.

(٢) مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٢٠٧) وحسنه شعيب الأرناؤوط.

(٣) مسند أحمد ط الرسالة (٧/ ٧) وحسنه شعيب الأرناؤوط.

(٤) السنن الكبرى للنسائي (٩/ ١٢٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧/ ٤٩٥)، والوادعي في الجامع (٢/ ١٢٨).

٢) وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أتاه الأمر يسُرّه (أو يحبه) قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**». وإذا أتاه الأمر يكرهه (أو يسؤوه) قال: «**الحمد لله على كل حال**»[1].

٣) وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إذا أصبحَ أحدُكُم فليقُلْ: (أصبحنا وأصبَح المُلكُ لله ربِّ العالمين، اللَّهُمَّ إني أسألك خيرَ هذا اليوم فتحَهُ ونصرَهُ ونورَهُ وبركتَهُ وهُدَاه، وأعوذ بك من شرِّ ما فيه وشرِّ ما بعدَهُ)، ثم إذا أمسى فليقُلَ مثلَ ذلك**»[2].

وذلك منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَدُ امتثالا لما أوصت به السورة واتباعا له، وهو ما وصفته أمنا عائشة بقولها «يتأول السورة»، لكنه في ذات الوقت يُمَثِّل استخداما منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك الدعاء في الاستعانة على ما أوصت به السورة من تزكية عملية تتجاوز مسألة تأول دعاء واستخدامه في السجود والركوع في الصلاة، وإلا فقد صح عنه كما سيأتي أنه أكثر من التسبيح والتحميد مطلقا.



(١) سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٥٠)، مسند البزار (٢/ ١٦٦)، وانظر: صحيح الجامع (٤٦٤٠).

(٢) سنن أبي داود (٧/ ٤١٧)، وصححه الأرنؤوط.

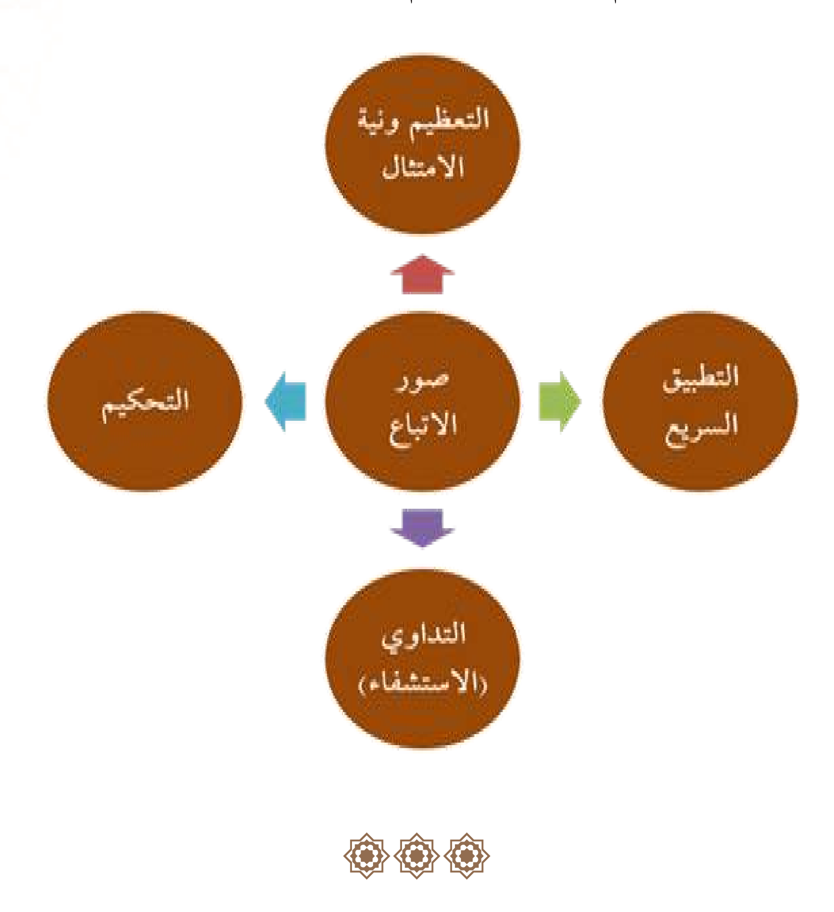


ثانيا: صور الاتباع

* **التعظيم ونية الامتثال، والمسارعة بالتطبيق.**

* **التحكيم:** في خضم ذاك الاختلاف حول ماهية النصر وسبل تحقيقه ومعاييره، تأتي سورة النصر لتحكم بيننا بحكم الله في المسألة وتحسم القضية .

* **التداوي:** سورة النصر ترياق لكل من كانت لديه مشكلة مع النصر، سواء كان لا يتحقق أم يتحقق مبتورًا أم يتحقق ولا يستمر.



الفرع الخامس

الحق التاسع (التعليم)، الحق العاشر (الدعوة)



* **لم تنته حقوق السورة بعد،** فلا نريد للخير أن يقف عند أحد لذا لا بد من تعليم (معاني ومباني) هذه السورة وغيرها بطريقة العلم والعمل كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* **قال** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«خَيْرُكُمْ (وفي رواية: إِنَّ أَفْضَلَكُمْ) مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**[1].

* **قال ابن تيمية:** «دَخَلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» تَعْلِيمُ حُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ جَمِيعًا؛ بَلْ تَعَلُّمُ مَعَانِيهِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ بِتَعْلِيمِ حُرُوفِهِ وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَزِيدُ الْإِيمَانَ»[2].

* **وعلينا أن ندعو لطريقة العلم والعمل في التعامل مع القرآن،** وأن ندعو لما دعت إليه ووصت به هذه السورة المباركة وغيرها.

* **قال سبحانه:** ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾ [الأحزاب: ٣٩].



(١) صحيح البخاري (١٧/ ٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠٣).

المبحث الثالث

أهل سورة النصر (النماذج الواقعية)

أولا: النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

لقد تدبر السورة جيدا، ولكثرة معايشته للخطاب القرآني تفهما وتدبرا واتباعا، أدرك ما تشير إليه الآيات وتحمله في طياتها من تهيئة له وإشارة لقرب مفارقته للدنيا. عن ابن عباس قال: لما نزلتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**نُعيتْ إليّ نفسي**»، بأنه مقبوض في تلك السنَة[1].

لقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو يعلم ذلك، ولم يُذنِب قط، وكان يستغفر في اليوم الواحد أكثر من مئة مرة[2]، ويستغفر في الصباح الواحد مئة مرة[3]، بل يستغفر في المجلس الواحد أكثر من مئة مرة[4]، بل كان يعمل أعمالا حرية بتكفير أي ذنب، ورغم كل ذلك لما أوصاه الله بالتوبة والاستغفار، لم يتأخر، ولم يَرَ نفسه غير محتاج إليه، بل امتثل ما طلبه الله منه بحرفه، وعَمَّر يومه كله بالتسبيح والتحميد والاستغفار.

رغم أن بعض المفسرين فَسَّر ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ بقوله: «ذَلِكَ تَنْبِيهٌ لِأُمَّتِهِ، لِكَيْلَا يَأْمَنُوا وَيَتْرُكُوا الِاسْتِغْفَارَ. وَقِيلَ: وَاسْتَغْفِرْهُ أَيِ اسْتَغْفِرْ لِأُمَّتِكَ»[5].

لم يشغله الفتح والانتصار، عن الانكسار والاستغفار، والمسارعة في مرضاة الواحد القهار. فماذا نقول نحن؟! غفرانك ربنا، واسوءتاه وإن عفوت!

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٤٣٥) وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٠٢).

(٣) السنن الكبري للنسائي (٩/ ١٦٧)، الدعاء للطبراني (١/ ٥١٠)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٥٥٣٤).

(٤) رواه أحمد (٨/ ٣٥٠) وصححه الأرناؤوط، وانظر: الصَّحِيحَة (٥٥٦).

(٥) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٣)، تفسير أبي السعود (٩/ ٢٠٩).

قال القرطبي: «وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ مَعْصُومٌ يُؤْمَرُ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ؟!»[(١)].

فاستجاب للوصية في كل صلاة؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»[(٢)].

وجعل استجابته في الركوع والسجود تحديدا، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا، وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**»[(٣)].

بل كان يكثر من ذلك خارج الصلاة أيضا؛ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ: (**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**). قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَرَاكَ أَحْدَثْتَهَا تَقُولُهَا؟ قَالَ: (**جُعِلَتْ لِي عَلَامَةٌ فِي أُمَّتِي إِذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا** ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾) **إِلَى آخِرِ السُّورَةِ**»[(٤)].

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَالَ: «**خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَدْ رَأَيْتُهَا** ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فَتْحُ مَكَّةَ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٣).
(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٧٨).
(٣) صحيح البخاري (٦/ ١٧٨).
(٤) صحيح مسلم (٢/ ٥٠).

﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر: ٢، ٣]»[1].

وفي رواية: «وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُهَا أَنْ أُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فَقَدْ رَأَيْتُهَا»[2].

وفي رواية: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ قَبْلَ مَوْتِهِ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتُكْثِرُ مِنْ دُعَاءٍ، لَمْ تَكُنْ تَدْعُو بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي جَلَّ وَعَلَا أَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَيُرِينِي عِلْمًا فِي أُمَّتِي، فَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُ ذَلِكَ الْعِلْمَ أَنْ أُسَبِّحَهُ، وَأَحْمَدَهُ، وَأَسْتَغْفِرَهُ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُهُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ [النصر: ١]، فَتْحُ مَكَّةَ»[3].

ولقد اشتهر ذلك الأمر عنه حتى رواه غير واحد من الصحابة، فعَنْ عَبْدِ اللهِ (ابن مسعود)، قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، كَانَ يُكْثِرُ إِذَا قَرَأَهَا وَرَكَعَ أَنْ يَقُولَ «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» ثَلَاثًا[4].

وفي رواية: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ»[5].

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٥٠).
(٢) مسند أحمد ط الرسالة (٤٠/ ٧٦) وصححه الأرناؤوط.
(٣) صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٢٣) وصححه الألباني والأرناؤوط
(٤) مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٢٠٧) وحسنه الأرناؤوط.
(٥) مسند أحمد ط الرسالة (٧/ ٧) وحسنه الأرناؤوط.



لقد تعامل رسولنا الكريم مع السورة أكمل تعامل بالعلم والعمل:

١) **فتفهم** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الآيات وما تشير إليه بمنطوقها ومفهومها (من نعيه واقتراب أجله).

٢) **ثم حَوَّل** ما فهمه من السورة إلى وصايا عملية (أَنْ أُسَبِّحَهُ، وَأَحْمَدَهُ، وَأَسْتَغْفِرَهُ).

٣) **ثم أسقط** الآيات على نفسه (فَقَدْ رَأَيْتُهَا).

٤) **وما هرب مما تشير إليه وتدل عليه** (من نعيه واقتراب أجله)، بل تفكر في عاقبة الاستجابة لماتوصي به (فالحياة أوشكت على الانتهاء، ولا بُدَّ أن يكون ختامها حسنا).

٥) **فبادر بالاستجابة** قولا وعملا لما أوصت به من خلال خطة تشغيلية.

- فدعا متوسلا بالأسماء الحسنى التي استخرجها من السورة (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أستغفرك اللهم وأتوب إليك، إنك أنت التواب الرحيم).
- ونَزَّه ربه؛ فأكثر من التسبيح والتحميد والاستغفار.
- وربط السورة واقعيا بأكبر إنجاز يومي وهو الصلاة؛ فكان يستخدم ما أوصت به السورة من دعوات وتنزيهات في الركوع والسجود.
- وأكثر من صلاة النوافل كالضحى وغيرها؛ فقد صلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم فتح مكة ثماني ركعات[(١)].
- واجتهد في العمل للآخرة والتعبد عبادة مودع؛ فقد روي عَنِ ابْنِ

(١) متفق عليه: البخاري (١/ ٨١)، (١١٠٤)، ومسلم (١/ ٤٩٨).

عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ [النصر: ١] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، قَالَ: نُعِيَتْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ نَفْسُهُ حِينَ أُنْزِلَتْ، فَأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ(١).

ثانيا: موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

أكرمه الله واصطفاه لدعوة الحق، فسأل الله أن يرزقه مَنْ يعينه على القيام بواجبات ما بعد ذلك الإنعام، ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤﴾ [طه: ٢٩ - ٣٤].

ثالثا: يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

في اللحظة التي تم له فيها كل شيء، وتحققت رؤياه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾.

وفي هذه اللحظة نزع يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر.

كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: ١٠١].

وهنا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة

(١) السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٣٤٩)، المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٢٨)، المطالب العالية لابن حجر (١٢/ ٢٨٨)، الأحاديث المختارة للمقدسي (١٢/ ٢٩١)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣/ ١٧٢): «أما حديث هلال بن خباب؛ فحسن الإسناد».

الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين عنده من فضله ومَنِّه وكرمه[1].

۞ رابعًا: سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لما نصره الله وفتح له ورأى عرش ملكة سبأ مستقرا عنده قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وكان كلما رأى فتحا أو إنجازا أنجزه الله له، يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

۞ خامسا: زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لما أنعم الله عليه بنصر وإنجاز، وَصّاه بالانشغال بالذكر الكثير والتسبيح، ويقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١]، فاستجاب لوصية ربه، ووَصَّى قومه، فقال: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

۞ سادسا: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتدارسون سورة النصر ويتدبرونها:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ».

قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ...﴾ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٧).

اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ»[1].

وفيما سبق دليل صريح على أن الصحابة كانوا يعقدون مجالس لتدارس معاني القرآن، ليس فقط لتدارس حروفه، بل كانت تلك المجالس لتدبر آيات الكتاب العزيز، ويحضرها صغار السن من الصحابة.

وتأمل كيف كانت قدرتهم على فهم المعاني المباشرة وغير المباشرة (الإشارية المنضبطة)، وكيف استخرجوا منها الوصايا العملية.

قال ابن حجر: «وَفِيهِ جَوَازُ تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ بِمَا يُفْهَمُ مِنَ الْإِشَارَاتِ وَإِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي الْعِلْمِ»[2].

۞ سابعا: سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لما نصره الله على الفرس وفتح عليه المدائن، استحضر ما أوصت به سورة العصر، فصلى شكرا لله، وكانت تسمى «صلاة الفتح».



(١) صحيح البخاري (٥/ ١٤٩).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٧٣٦).



الختام التعزيزي (الاستمرارية)

وفي الختام نُبَشِّركم! :

قد أصبح الطريق الآن أمامكم ممهدا؛ لتحققوا حلمكم في أن تكونوا من أهل القرآن المؤمنين به؛ لتحققوا حلمكم الأكبر في أن تكونوا من أهل الله.

أبشروا - إن تفهمتم وتدبرتم واتبعتم وصايا السورة - بالدخول في زمرة أهلها (من الدرجة الثالثة «التمرة»)، ولن يكون من الصعب عليكم - إن شاء الله - أن تتقنوا ضبط مبانيها وتحفظوها رواية (تستظهروها)، بل ربما تكونوا قد ضبطموها وحفظتموها بالفعل، وبذلك تدخلون في زمرة أهلها (من الدرجة الثانية «الأترجة»).

ولا تتوقفوا عند هذا الحد؛ فلن يكون من الصعب عليكم - إن شاء الله - أن تُعَلِّموا ما تعلمتموه من معاني ومباني السورة لغيركم ولو لشخص واحد، وتُبَلِّغوا رسالة الله؛ لتدخلوا في زمرة أهل السورة (من الدرجة الأولى «خيركم أو الرباني»).

أبشروا إن فعلتم السابق بأن تكون السورة حجة لكم، وبأن تكونوا قد صرتم من أصحابها وحامليها والمؤمنين بها؛ فقد وفيتموها حقوق معانيها (الإيمان) وحقوق مبانيها (القرآن)، ووفيتموها حقوقها العلمية والعملية، وتدارستموها على أكمل وأتم صورة.

أبشروا لقد شققتم لأنفسكم طريقا للوصول إلى (مرتبة أهل القرآن)، وقد قطعتم مرحلة في رحلة التحقق بهذا الوصف الشريف، فأكملوا المسير، وأوصيكم بالخطوات التعزيزية التالية، وهي ضرورية لتقييد تلك النعمة التي امتن الله بها علينا، وتنميتها وتطويرها.

وهي مجموعة أمور ورد في الشريعة ما يدل على أنه يستحب فعلها بعد العمل؛ مثل:

١. **التعاهد التربوي (العملي):** ويتم ذلك من خلال الربط الواقعي والاستدعاء العملي.

٢. **الدعاء والتضرع:** تضرع إلى الله أن يعينك على القيام بحقوق القرآن عليك كاملة، وأن يجعلك أسعد الناس به وأن ينفعك بما جاد به عليك.

٣. **الشكر والذكر:** اشكر الله على ما من به عليك، واسأله العون على شكر نعمته والقيام بحقها.

عَنْ عَائِشَةَ: مَا جَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسًا قَطُّ، وَلَا تَلَا قُرْآنًا، وَلَا صَلَّى صَلَاةً إِلَّا خَتَمَ ذَلِكَ بِكَلِمَاتٍ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَاكَ مَا تَجْلِسُ مَجْلِسًا، وَلَا تَتْلُو قُرْآنًا، وَلَا تُصَلِّي صَلَاةً إِلَّا خَتَمْتَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، مَنْ قَالَ خَيْرًا خُتِمَ لَهُ طَابَعٌ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرِ، وَمَنْ قَالَ شَرًّا كُنَّ لَهُ كَفَّارَةً: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»(١).

وهذه سنة مهجورة تختم بها التلاوة، فقد بوب النسائي باب «ما تختم به التلاوة» وأورد هذا الحديث، وفي هذه السُّنَّة غنية عما استحدثه الناس من التزام قول «صدق الله العظيم» بعد التلاوة.

٤. **الاستغفار على التقصير:** قيل ليوسف بن أسباط: إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: «أستغفر الله عَزَّوَجَلَّ من تقصيري سبعين مرة»(٢).

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (٩/ ١٢٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧/ ٤٩٥)، والوادعي في الجامع (٢/ ١٢٨).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٨).



٥. **الإقرار بالفضل لله وحده:** فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٦. **اطرد العجب:** اسأل الله أن يصرف عنك العجب والرياء والغرور وكل صور نقص التجرد.

٧. **طلب القبول:** اسأل الله أن يتقبل هذا العمل منك على قصوره، وأن يعود عليك بالفضل ثانية.

٨. **العزم على إكمال المسيرة:** بتطبيق المشروع على كل آيات القرآن.

٩. **القيام بالقرآن والصلاة به ليلا:** قم بالقرآن وَصَلِّ به ليلا، وإلا كانت شفاعته لك مهددة، ففي الحديث: «**وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**»[(١)].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربي إني منعته الطعام والشهوة، فشفعني فيه، ويقول القرآن: رب منعته النوم بالليل، فشفعني فيه، قال: فيُشَفَّعَان**»[(٢)].

١٠. **تجنب المعاصي والمخالفات:** عَنِ الضَّحَّاكِ، قَالَ: «مَا تَعَلَّمَ رَجُلٌ الْقُرْآنَ، ثُمَّ نَسِيَهُ إِلَّا بِذَنْبٍ»، ثُمَّ قَرَأَ الضَّحَّاكُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ثُمَّ قَالَ: «وَأَيُّ مُصِيبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ نِسْيَانِ الْقُرْآنِ»[(٣)]. وقال ابن مسعود: «إِنِّي لَأَحْسَبُ الْعَبْدَ يَنْسَى الْعِلْمَ كَانَ يَعْلَمُهُ بِالْخَطِيئَةِ يَعْمَلُهَا»[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم (٥/ ١٩٨)

(٢) رواه أحمد (١١/ ١٩٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٤٠)، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٣٨).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٧٨)

(٤) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص٦١)

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيت من نفسك إعراضا عن شيء من دين الله، أو رأيت إعراضا عن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، إما عن تلاوته اللفظية، أو تلاوته المعنوية (التدبر)، أو تلاوته العملية (الاتباع)، فإنه يجب عليك أن تعالج نفسك، واعلم أن سبب هذا الإعراض هو المعاصي»[(١)].



(١) تفسير سورة المائدة (١/ ٤٨٣)



الخاتمة

قد كانت هذه الدراسة محاولة لتفعيل ما قمتُ بتأصيله سابقا في مشروعي (القرآن علم وعمل) فيما يتعلق بالمنهجية النبوية في التعامل مع القرآن الكريم (علما وعملا)، وذلك لتقريبِ مسألة فهم القرآن وتدبره والعمل به والقيام بحقوقه والانتفاع الكامل به.

وقد وقع اختياري فيها على سورة (النصر) كسورة مشتهرة سهلة التناول قصيرة المباني عظيمة المعاني؛ وأردت مساعدة المسلمين على الانتفاع الكامل بالسورة (علما وعملا)، واتخاذها كمثال يحتذونه في هذا الطريق؛ فاجتهدتُ في التأصيل العلمي لما يتعلق بمباحثها من ناحية التفسير وعلوم القرآن، لكن ما رَكَّزت عليه هذه الدراسة هو تَناول تلك المباحث في إطار مقاصدي عملي، مع التأكيد على انعكاساتها العملية والتطبيقية، والعناية الأكبر بالمسائل التي تخدم الفهم والتدبر والتطبيق بصورة مباشرة.

كما تم عقد مباحث تطبيقية تفصيلية لما يتعلق بتدبر السورة واتباعها والقيام بحقوقها كاملة.

وقد أثبتت هذه الدراسة قابلية (منهج العلم والعمل) للتطبيق على سور القرآن الكريم، وأن سُنَّة النبي ﷺ حافلة بالآفاق التدبرية والتطبيقية المتعلقة بالآيات والسور القرآنية، وأن التعامل النبوي مع القرآن قد كان أعمق وأكمل من مجرد القيام بحقوق المباني من القراءة والتجويد وحفظ الرواية. وأن السور قصيرة المباني كسورة النصر، قد ضَمَّنها الله أعظم المعاني التي يحتاجها الإنسان لإصلاح دنياه وأخراه.

لذا فإننا نوصي بالتالي:

١. **ضرورة اعتماد المنهج النبوي المتكامل في التعليم القرآني** (الإيمان والقرآن، والعلم والعمل) في مؤسسات التعليم القرآني، وتعميمه.

٢. **تدريب العاملين في مؤسسات التعليم القرآني** على أصول وقواعد المنهج النبوي في التعليم القرآني.

٣. **دعوة جماهير المسلمين** للعودة للمنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم.

٤. **دعوة الباحثين إلى مزيد من الدراسات التطبيقية** حول سور وآيات القرآن الكريم؛ لتقريب مسألة تدبر القرآن والعمل به للمسلمين.

٥. **بذل قدر أكبر من العناية للسور والآيات التي يستخدمها المسلمون كثيرا،** ويكثر ترددهم لها في حياتهم اليوم؛ لأنها سهلة التناول، وتشتمل على كنوز يحتاج الناس لتقريبها لهم.

٦. **ضرورة تبصير المسلمين (تأصيلا وتفعيلا)** بضرورة مطالعة السُّنَّة النبوية لمطالعة الآفاق التدبرية والتطبيقية للسور والآيات القرآنية؛ والتأكيد على أن تدارس السورة لا ينبغي أن يقتصر على ما جاء في كتب التفسير؛ لأن ذلك يؤدي غرض (التدارس العلمي)، لكن يبقى التدارس العملي (تدبرا واتباعا) هو الأهم.

٧. **الشروع في تفسير تدبري تطبيقي للقرآن كاملا؛** يرتكز على منهجية العلم والعمل.





المصادر والمراجع

١. «**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**». الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر. (د. ط)، بيروت - لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢. «**إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام**». ابن دقيق العيد. (د. ط)، مطبعة السنة المحمدية، (د. ت).

٣. «**إحياء علوم الدين**». الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي. (د. ط)، بيروت: دار المعرفة، (د. ت).

٤. «**إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**». القسطلاني، أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القتيبي المصري. ط٧، مصر: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٢٣هـ.

٥. «**اقتضاء العلم العمل**». الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط٤، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ.

٦. «**التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**». ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. (د. ط)، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ هـ.

٧. «**الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**». القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (د. ط)، القاهرة: دار الكتب

المصرية، (د. ت).

٨. «**الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)**». ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد. ط١، المغرب: دار المعرفة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٩. «**السنن الكبرى**». النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني. تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٠. «**الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**». ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي. تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط١، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٠٩هـ.

١١. «**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**». الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ.

١٢. «**القبس في شرح موطأ مالك بن أنس**». ابن العربي المالكي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الإشبيلي. تحقيق: الدكتور محمد عبد الله ولد كريم، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م

١٣. «**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**». ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

١٤. «**المعجم الكبير**». الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن



مطير اللخمي الشامي. تحقيق :حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، (د. ت).

١٥. «**المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**». ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد. ط١، السعودية: دار العاصمة، دار الغيث، ١٤١٩هـ.

١٦. «**المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**». النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ.

١٧. «**الوابل الصيب من الكلم الطيب**». ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين. تحقيق: سيد إبراهيم، ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٩م.

١٨. «**تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة**». البيضاوي، القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر. تحقيق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، (د. ط)، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٩. «**تفسير القرآن العظيم**». ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي. تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (د. ط) (د. ن) (د. ت).

٢٠. «**تفسير الماوردي (النكت والعيون)**». الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي. تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (د. ط)، بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، (د. ت).

٢١. «تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)». أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى، (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٢٢. «تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)». محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني. (د. ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٢٣. «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان». السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٤. «حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)». السندي، محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين، (د. ط)، بيروت: دار الجيل، (د. ت).

٢٥. «روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)». ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي. جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، ط١، المملكة العربية السعودية: دار العاصمة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٦. «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني». الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني. تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

٢٧. «زاد المسير في علم التفسير». ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي. تحقيق: عبد الرزاق المهدي،



ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

٢٨. «**سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**». الألباني، أبوعبد الرحمن محمد ناصر الدين. (د. ط)، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، (د. ت).

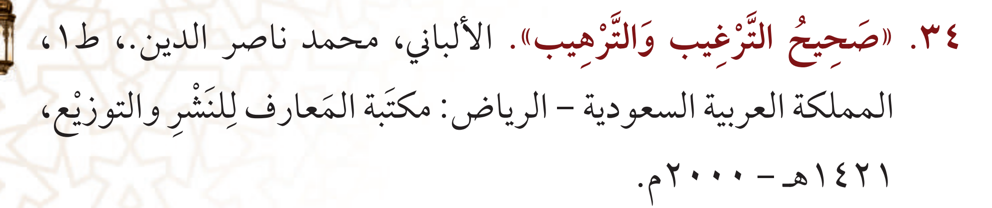
٢٩. «**سنن الترمذي**». الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك. تحقيق: بشار عواد معروف، (د. ط)،بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م.

٣٠. «**شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن)**». الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله. تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط١، مكة المكرمة / الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣١. «**شرح صحيح البخارى لابن بطال**». ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك. تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط٢، السعودية - الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٢. «**صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**». أبو حاتم البُستي، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي الدارمي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٣٣. «**صحيح البخاري**». البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.



٣٤. «صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب». الألباني، محمد ناصر الدين.، ط١، المملكة العربية السعودية - الرياض: مكتَبَة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٣٥. «صحيح الجامع الصغير وزياداته». الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين. (د. ط)، المكتب الإسلامي، (د. ت).

٣٦. «صحيح مسلم». مسلم ابن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٣٧. «عمدة القاري شرح صحيح البخاري». العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين، (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٣٨. «فتح الباري شرح صحيح البخاري». ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. (د. ط)، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

٣٩. «فتح القدير». الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله. ط١، دمشق - بيروت: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ١٤١٤هـ.

٤٠. «في ظلال القرآن». سيد قطب، ابن إبراهيم حسين الشاربي، ط١٧، بيروت - القاهرة: دار الشروق، ١٤١٢ هـ.

٤١. «فيض الباري على صحيح البخاري». محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي. تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي، ط١، بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.



٤٢. «**لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**». ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السَلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، (د. ط)، دار ابن حزم للطبع والنشر، (د. ت).

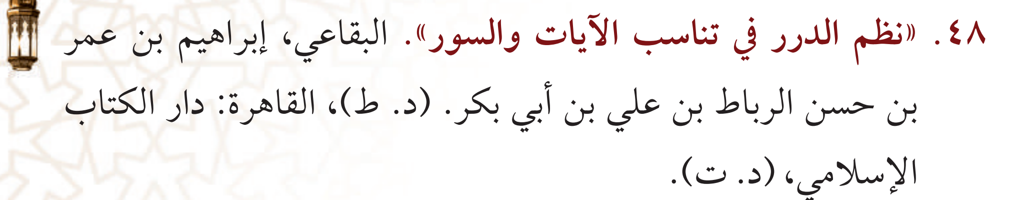
٤٣. «**مجموع الفتاوى**». ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (د. ط)، المملكة العربية السعودية - المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٤٤. «**مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ**». ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله. أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر، (د. ط) (د. ن) (د. ت).

٤٥. «**محاسن التأويل**». القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق. تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

٤٦. «**مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**». القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي. ط١، بيروت - لبنان: دار الفكر، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٤٧. «**مسند الإمام أحمد بن حنبل**». الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني. تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.



٤٨. «**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**». البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر. (د. ط)، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، (د. ت).

٤٩. «**نيل الأوطار**». الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله. تحقيق: عصام الدين الصبابطي، ط١، مصر: دار الحديث، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.





الفهرس



الموضـــــــــــــــــــــــــــوع	رقم الصفحة








ثانيًا: مُستخلصات الرّسائل والمشاريع العِلميّة






الباحث / محمد بن عبد الجواد بن محمد الصاوي

المشرف: أ.د/ محمد بن عبد العزيز العواجي

- **الدرجة:** الدكتوراه.
- **الجهة المانحة للدرجة:** كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- **سنة الإجازة:** ١٤٣٦هـ.
- **الوصف المادي:** تقع في مجلدين، من (١٣٠٠) صفحة.







التعريف بالرسالة

تناولت الرسالة دراسة تأصيلية لموضوع تدبُّر القرآن الكريم.

❊ **تكون البحث من:** مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وفهارس.

❊ **فأما المقدمة ففيها:** خطبة الرسالة، والتعريف بالموضوع، وأهميته، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، والعقبات التي أحاطت به، وخطة البحث، ثم منهج كتابة البحث والشكر والتقدير.

❊ **ثم الباب الأول، وفيه بيان مفهوم التدبُّر، وأهميته، وحكمه، وتضمَّن ثلاثة فصول:**

- **الفصل الأول: حول معنى التدبر، وأركانه، وواجباته، وسننه. وفيه خمسة مباحث:**

  » الأول: مفهوم التدبُّر في اللغة والشرع.

  » والثاني: الفرق بين التدبُّر والتفسير.

  » والثالث: الفروق الدلالية بين التدبُّر وبين مرادفاته.

  » والرابع: عن أركان تدبُّر القرآن الكريم.

  » والخامس: عن واجبات التدبُّر وسننه.

- **ثم الفصل الثاني: عن أهمية التدبر، وتضمَّن ثمانية مباحث:**

  » الأول: أهداف قراءة القرآن الكريم.

  » والثاني: عناية السلف والعلماء بتدبُّر القرآن الكريم.

  » والثالث: علامات التدبُّر.



» والرابع: مقاصد التدبُّر وغاياته.

» والخامس: علاقة التدبُّر بالقلوب وأثره على الأبدان.

» والسادس: أمور متوقِّفة على تدبُّر القرآن وفَهم معانيه.

» والسابع: الآثار الإيجابية المترتبة على التدبُّر في حياة الفرد والأمة.

» والثامن: الآثار السلبية المترتبة على هجْر التدبُّر في حياة الفرد والأمة.

- ثم الفصل الثالث، وتضمَّن ثلاثة مباحث:

» الأول: أحكام التدبر.

» والثاني: أنواع التدبر.

» والثالث: درجات التدبر.

* وأما الباب الثاني فيتناول: وسائل التدبر، وشروطه، وموانع حصوله، وفيه فصلان:

- الفصل الأول: وسائل التدبر وشروطه، وفيه خمسة مباحث:

» الأول: أسباب تعين على تدبُّر القرآن الكريم.

» والثاني: أثر فهم اللغة في تحقيق التدبُّر الصحيح.

» والثالث: أثر فهم التفسير في تحقيق التدبُّر الصحيح.

» والرابع: أثر علوم القرآن في تحقيق التدبُّر الصحيح.

» والخامس: شروط التدبُّر.

- الفصل الثاني: موانع حصول التدبُّر وخطورتها، وفيه مبحثان:



» الأول: أنواع الموانع الحائلة عن التدبرّ.

» والثاني: خطورة الموانع الحائلة دون التدبُّر.

* وأما الباب الثالث، تناول ضوابط التدبر الصحيح للقرآن الكريم وطريقته، وفيه مدخل في دراسة الضوابط والقواعد المعينة على التدبُّر، وفصلان:

- الفصل الأول: ضوابط التدبُّر الصحيح لكتاب الله الكريم، وفيه خمسة مباحث:

» الأول: الضوابط المتعلِّقة بنزول القرآن المعينة على التدبُّر.

» والثاني: ضوابط علوم القرآن المعينة على التدبُّر.

» والثالث: الضوابط اللغوية المعينة على التدبُّر.

» والرابع: ضوابط الاستنباط المعينة على التدبُّر.

» والخامس: ضوابط عامة تعين على التدبُّر.

- الفصل الثاني: أدوات التدبر الصحيح لكتاب الله الكريم وطريقته، وفيه مبحثان:

» الأول: الأدوات المهمَّة للمتدبِّر.

» والثاني: المنهج الأمثل للتدبُّر.

* ثم الخاتمة: وتضمنت أهمَّ النتائج والتوصيات، ثم ألحق البحث بفهارس عامة شملت: فهرس الآيات، والأحاديث، والآثار، والأشعار، والأعلام، والبلدان، والطوائف والفرق، والغريب، والمصادر والمراجع، ثم ختم بفهرس الموضوعات.

وقد تجاوزت صفحات الرسالة ألفًا وثلاثمائة صفحة والحمد لله.



مزايا الرسالة

من أبرز مزايا الرسالة ما يلي:

١- **تأصيل التدبر** من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح وأحوالهم.

٢- **اشتملت الرسالة** على قواعد مهمة تعين المتدبر على التدبر.

٣- **استقصاء أشهر ما كتب في التدبر** وأقوال أهل العلم في الموضوع.

٤- **إبراز الجانب التطبيقي للتدبر** بكثرة الأمثلة والشواهد القرآنية التي تعين المتدبر.

٥- **ربط التدبر بواقع المسلم**، وماضيه وحاضره ومستقبله.

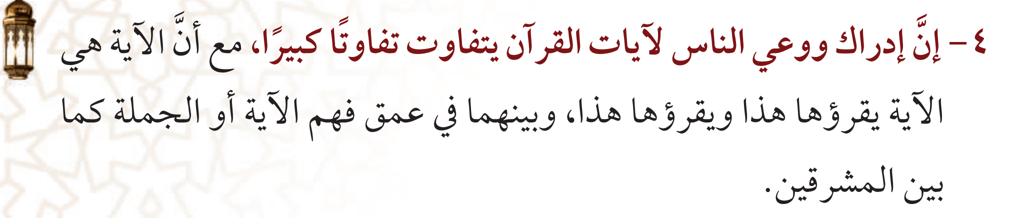
أبرز نتائج الرسالة:

وقد انتهى البحث بجملة من النتائج، استخلص الباحث أهمها:

١- **التعريف الذي اختاره للتدبُّر اصطلاحًا هو**: التأمُّل والتفكُّر والنظر في الآيات، للاهتداء بما دلَّت عليه علمًا وعملًا.

٢- **تدبُّر القرآن هو الطريق إلى تفسيره**، وفهم معانيه طريق لتدبُّره، وكل من سلك طريقًا وعمِل عملًا، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح ويصل به إلى غايته، وكلما عظُم المطلوب تأكَّد ذلك.

٣- **مَن تدبَّر القرآن تدبُّرًا تامًّا تبينَ له اشتمالُه على بيان الأحكام**، وأنَّ فيه من العلم ما لا يُدرِكه أكثرُ الناس، وهو إلهامات وفتوحات يفتحها الله تعالى على من يشاء من عباده .



٤- **إنَّ إدراك ووعي الناس لآيات القرآن يتفاوت تفاوتًا كبيرًا،** مع أنَّ الآية هي الآية يقرؤها هذا ويقرؤها هذا، وبينهما في عمق فهم الآية أو الجملة كما بين المشرقين.

٥- **القرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية،** إذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، لم يقاومه الداء أبدًا.

٦- **إنَّ المعنى المتدبَّر** هو الثمرة التي إذا صحَّت كانت محلًّا للقبول والعمل، وصحَّته مرهونة بالسلامة من العوارض التي تقدح فيه وتبطله.

٧- **فهم القرآن طريق وبوّابة للتّدبّر؛** إذ لا تدبّر دون فهم، ولا خَيْر في قِراءةٍ ليْس فيها تَدَبُّرٌ، وهذا الفهم تسبقه تلاوة صحيحة، وتمعُّن ونظر في كتاب الله تعالى.

٨- **أهم الوسائل الموصلة إلى التَّدبُّر هي:** فهْم النّصّ القرآنيّ، كما أنّ عدم فهم النّصّ القرآنيّ من أهمّ الموانع الصّارفة عن التَّدبُّر.

٩- **ضوابط التدبُّر** هي أمور تعين على فهم القرآن وتدبُّره وتفتح آفاقًا للمتدبِّر تربطه بالقرآن فهمًا وعملًا.

١٠- **القول بأنَّ تدبر القرآن العظيم وتفهمه لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة،** قول لا مستند له من دليل شرعي، والحق الذي لا شك فيه أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة؛ يجب عليه التدبُّر.

١١- **للتدبُّر أنواع باعتبار العموم،** وباعتبار النصِّ المتدبَّر، وباعتبار تنوع مطالب المتدبِّرين.



١٢- **شروط التدبُّر** تختلف عن شروط التفسير والاستنباط، إنَّ التدبُّر يحتاج إلى فهم المعنى العام مع حسن القصد وصدق الطلب.

١٣- **ينبغي سماع آيات الله تعالى بتدبُّر وتفكُّر**، وهو سماع النبيِّين والمؤمنين، وأهل العلم والمعرفة

١٤- **ثمرة التدبُّر وغايته** أن يتحوّل الفهم والتَّدبُّر إلى التَّطبيق والعمل.

١٥- **ينبغي لمن أراد الانتفاع بالقرآن** أن يجعل القرآن خطابًا موجهًا إليه، وأن يقدِّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن.

١٦- **لا يمكن الوقوف على كنوز القرآن إلا بسلوك طريق التدبُّر**؛ فبقدر ما يمنُّ الله عليه من تدبُّر كتابه يكون وقوفه على كنوزه، وظفره بها، وأي كنوز أحقُّ من أن يُبذَل في نيلها نفيس أوقات العمر من كنوز القرآن.

١٧- **من الآثار الإيجابية على الأمة لتدبُّر القرآن الكريم النهوض الحضاري بها**، ورجوعها إلى مركزها ومكانها الحقيقي بين الأمم، والارتقاء بها في ميادين الحياة كافة.

١٨- **من الأمور العظيمة** التي يحصل بها معرفة مقاصد الشريعة واستيعابها؛ تدبُّر القرآن الكريم، فالمقاصد تتضمن معنى معرفة مرامي الشريعة القريبة والبعيدة؛ ليتحقق الهدف من التشريع، وذلك يحتاج إلى حسن النظر في عواقب الأمور.

١٩- **الموانع أمور تحول بين المرء وقلبه وبين عبادة التدبُّر**، وكلما ابتعد المسلم عن التدبُّر، قسى قلبه، وقلَّ علمه، وزاد جهله، وخرج من الدنيا ولم يتذوَّق طعم طاعة من أجلِّ الطاعات، وقربة من آكد القربات. إنَّ جميع الآثار السلبية المترتبة على هجر التدبُّر في حياة الفرد والأمة، هي

من مخاطر الاستسلام للموانع والوقوع فيها.

٢٠- **إن التّرغيب في قراءة القرآن،** هو ترغيب في قراءة تدبُّريَّة واعية، لا يُقصد منها الحصول على الثَّواب والأجر فحسب، وإن كان الأجر والثَّواب مطلبًا ساميًا، لكنّه ليس الغاية، وهذا ما كان عليه سلف الأمة، فكانوا يتعلّمون العشر آيات لا يتجاوزونها حتّى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل.

٢١- **التَّدبُّر له آثار، أهمّها:** زيادة العلم والإيمان، وحصول اليقين، والسّجود والبكاء من خشية الله، وزيادة الخشوع، والقشعريرة خوفًا من الله تعالى، ثم غلبة الرّجاء والسّكينة. ومن آثاره أنّه من أسباب محبّة الله تعالى، وحياة القلب؛ إذ جعل مفتاح حياة القلب تدبّر القرآن.

٢٢- **تدبُّر القرآن** هو أعظم سبيل لنيل بركة هذا الكتاب العظيم، وتطلُّب هداياته.

٢٣- **أنَّ جميع الناس:** المؤمن والكافر مخاطبون بتدبر القرآن الكريم طلبًا لهداياته.

٢٤- **إن منهج السلف الصالح في تعلم القرآن وأخذه** هو المنهج الأمثل المحقق لمراد الله تعالى في هذا الباب، وإنَّ الخير الذي عاشه سلف هذه الأمة كان بسبب تمسُّكهم بالقرآن العظيم وتدبُّره والعمل به، ولن تصل هذه الأمة إلى العزِّ المجد المؤثَّل إلا بالسير على نهجهم، واقتفاء أثرهم بإحسان.

٢٥- **التدبُّر يحمي من الوقوع في وهدة الخطأ؛** لأنه يعتمد على أسسٍ وقواعد وأصول وضوابط وشروط في كل علم وفن ومعرفة، ولا ينطلق من فراغ.



٢٦- **التدبُّر يحمي الأمة من التردي والسقوط،** ويحمي شباب المسلمين من براثن الوقوع في الأفكار الضالة المضللة التي لا تتكئ على أسس لغوية وشرعية.

٢٧- **التدبر يفتح مغاليق العلوم المختلفة،** ويكشف عن أسرار الكون، وعن جميع الكائنات الصامتة والناطقة.

٢٨- **التدبر العميق** يحل الإشكالات بين كثير من المذاهب والأفكار المختلفة.

٢٩- **تدبُّر القرآن ليس صعبًا - كما يُتوهّم -** كما أنّه ليس مختصًّا بالمفسِّرين، فيمكن للمسلم الذي يقرأ القرآن أن يتدبَّره، وأن ينتفع بهداياته، والنّاس متفاوتون في ذلك.

٣٠- **الإعراض عن فهمِ القرآن وتدبُّره نوع من أنواع هجرانه.**





أبرز توصيات الباحث

من أبرز التوصيات التي أوصى بها الباحث ما يلي:

١- **لا يزال موضوع تدبر القرآن بحاجة إلى مزيد بحث ودراسة**، وخاصة في المنهج الأمثل للتدبُّر، وطرقه وأساليبه، ليتحقق الانتفاع بالقرآن، والعمل به، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

٢- **عمل موسوعة تتناول مراحل منهجية في تعلُّم التدبُّر**، لتساهم في تحويل الفهم النظري إلى واقع عملي ، مع إبراز دور التدبر في نهضة الأمة.

٣- **مشاركة أهل العلم وطلبته المعتنين بالتدبُّر في القنوات الفضائية**، ومواقع التواصل، ومجلات الدراسات القرآنية لمزيد نشر مشروع التدبُّر، ونقله من المعرفة والتنظير، إلى العمل والسلوك القويم.

٤- **وضع مناهج تدبُّرية ميسرة للقرآن في حلقات تحفيظ القرآن**، والمدارس النظامية، والنهوض بهذه المناهج لتشمل الحفظ والتدبُّر، وتواكب التّلاوة والحفظ.

٥- **ضرورة إقامة المؤتمرات والملتقيات القرآنية عن التدبُّر**، وتأصيله وتيسيره لجميع فئات الناس، ودعم وتشجيع المتطوعين في دعم ذلك.

٦- **إعداد خطة استراتيجية عملية**؛ لتعزيز ثقافة تدبر القرآن في مجتمعات المسلمين على اختلاف لغاتهم.

٧- **إنشاء قاعدة بيانات** تجمع المؤسسات والأفراد المعنيين بتدبر القرآن الكريم.



٨- **إنتاج برامج إعلامية،** أو مجلة متخصصة بالتدبُّر ودعمها، والاهتمام بشكل أخص بمواقع التواصل الاجتماعي.

٩- **وضع مناهج متخصصة في تدبر القرآن الكريم** من قبل الجهات التعليمية الأكاديمية.

١٠- **تقريب ثقافة التدبر،** ونشرها بالأساليب والطرق كافة، ودعم ذلك.

١١- **طبع ونشر الكتب والبحوث والرسائل العلمية المتخصصة بتدبر القرآن الكريم،** وتبسيط نشرها لوصول مضمونها لطبقات المجتمع كافة.





إعداد المشرف العام على المشروع
د. شريف طه يونس



تقرير عن مشروع «القرآن علم وعمل»

نشأة المشروع:

تتبعنا المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم، فوجدناه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصي بلسان مقاله وحاله بأن يكون (العلم والعمل) هو منهج التعامل مع القرآن الكريم.

وأخبر الصحابة عن المنهجية التي تعلموا بها القرآن الكريم. فعن أبي عبدالرحمن السلمي: «حدَّثنا مَن كان يُقرئنا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عثمان، وعليٍّ، وابن مسعود، وزيد، وأُبَيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) أنهم كانوا يقترئون من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى؛ حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل. قالوا: فعلمنا العلم والعمل»[(١)].

لذا آثرنا تسمية المشروع بهذه العبارة «القرآن علم وعمل».

التعريف بالمشروع:

هو مشروع يهدف إلى إحياء المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم تعلما وتدبرا وعملا وتعليما، ويسعى لتقريبه وتيسيره على كل المستويات، لجميع المسلمين (كبارًا وصغارًا).

أبرز الأهداف:

١- **دعوة لترتيب الأولويات** واستثمار الطاقات في الأهم فالـمُهمِّ؛ في التعامل مع القرآن في ضوء مراد الله منَّا فيما يتعلق به.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٨/ ٤٦٦)، والطبري في تفسيره (١/ ٧٤)، وحسَّنه محققو المسند.



٢- **ينبه على أبعاد التعامل مع القرآن (العمل بالقرآن)**؛ ولا شيء قبل العمل في الأهمية والأولوية، ولا شيء يغني عن العمل أو يشفع في تركه.

٣- **تسديد البنية الفكرية وإعادتها إلى ما يريده الله وما كان عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فتكون القراءة بالتدبر لتحصيل الإيمان وزيادة الدافعية للعمل.

٤- **أن يعرف كل مسلم طبيعة علاقته بالقرآن قبل الإقبال عليه قراءةً أو استظهارًا أو دراسة**، وأن يعلم ما ينبغي أن يبذله في سبيله، وهذا من شأنه أن يزيد المسلم إيمانًا بالقرآن وإقبالًا عليه وسدادًا في جهده المبذول له.

۞ رؤية مشروع «القرآن علم وعمل»:

أن يطبق كل مسلم في العالم - بإذن الله - المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم (بالعلم والعمل والإيمان)، ثم الوصول إلى (الرباني أو الربانية والخيرية)، وأن يتحقق الوصف في غضون عشر سنوات.

۞ رسالة مشروع «القرآن علم وعمل»:

إحياء المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم في كل ربوع الأرض من خلال القرآن، وباستخدام أحدث الوسائل، وذلك بتيسير تدبر القرآن واتباعه والانتفاع الأمثل به، وإعانة المسلمين على أن يكونوا من أهل القرآن، وتعليمهم كيفية القيام بحقوق القرآن، وتسديد العديد من المفاهيم والممارسات المتعلقة بالقرآن.

۞ شعار المشروع:

لما وجدنا الله يصف القرآن بأنه حياة؛ ولما وجدنا الله يخبرنا كيف تمكن الوحي من إحياء البشر وإصلاح أحوالهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور؛

فيقول تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]؛ رجونا أن يُحيينا الله بالوحي علما وعملا، وأن يخرجنا به من الظلمات إلى النور؛ فكان شعار مشروعنا «بالوحي نحيا».

۞ يرتكز عمل المشروع على محورين:

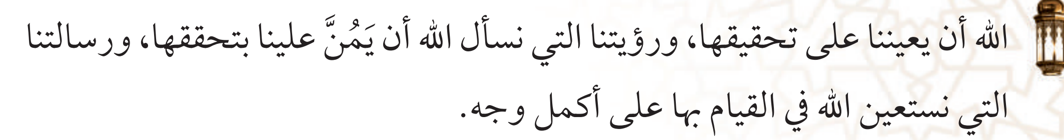
* **الأول: مفاهيمي (تأصيلي)**؛ لاستقراء المصطلحات التي تتناول طبيعة العلاقة بالقرآن وتحليلها وتسديدها وتيسير التحقق بها، من خلال رحلة قمنا بها على صفحات النسخة المسطورة من هدي الوحي (نصوص القرآن والسنة).

* **أما الثاني: فمهاري (تطبيقي)**؛ لاستقراء منهج (النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ) في التعامل مع القرآن الكريم، وطبيعة علاقتهم به، وتحليل هذا المنهج، وتقريب مهاراته للناس وتدريبهم عليه، من خلال صفحات النسخة المنظورة من هدي الوحي (سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ «الأحوال»).

۞ النظرة المستقبلية للمشروع (طموحات وآمال المشروع):

يظل دوما الطموح الأكبر أن نرضي الله ويكتبنا من أهل القرآن، وهذا أهم ما إليه نسعى وإياه نتمنى؛ لعل الله يجود علينا بالمغفرة والرضوان والرحمة، ويكتبنا من أهل القرآن، ويتم علينّا النعمة.

ويمكننا تلخيص طموحاتنا وآمالنا ونظرتنا المستقبلية فيما تم عرضه في هذا التقرير تحت عنوان «التعريف بالمشروع»، مما يتعلق بأهدافنا التي نتمنى على



الله أن يعيننا على تحقيقها، ورؤيتنا التي نسأل الله أن يَمُنَّ علينا بتحققها، ورسالتنا التي نستعين الله في القيام بها على أكمل وجه.

لم يكن هذا المشروع أبدًا طرحًا نظريًّا أو كلامًا فلسفيًّا؛ بل - بتوفيق الله - ينبض بالواقعية، ويرسم لنا المعالم التطبيقية، ويأخذ بأيدينا إلى الخطوات العملية.

لم يكن المشروع وليد أيام أو حتى شهور، بل هو حصيلة ما يزيد على عشر سنوات من البحث والاطلاع والترتيب والهيكلة والبلورة، ثم التجارب الحية والأحداث الواقعية ممزوجة بالخواطر والتأملات، والفتوحات والاجتهادات. يعلم الله كم أخذ هذا المشروع من وقتنا وجهدنا وفكرنا.

الفئات المستهدفة من المشروع وبرامجه:

يستهدف المشروع - بفضل الله تعالى - كل فئات المجتمع المسلم تقريبا؛ مهما تباينوا في السن، وفي المستوى العلمي، أو في غيرهما؛ ويتجلى ذلك بوضوح في برامج المشروع، والتي نذكر أسماءها هنا، ولا يتسع المقام لتفصيل فيها.

أولا: البرامج الرأسية (الطولية).

١. **تدبر الكلمات؛** مثل كلمة «تبارك».

٢. **تدبر الجُمَل؛** مثل جملة «الخروج من الظلمات إلى النور».

٣. **تدبر الآيات:** في تعاملنا مع الآية في هذا البرنامج لا نهدف لمجرد تدبرها، وإنما نهدف لتدارسها تدارسا كاملا شاملا؛ لمعانيها تفهما وتدبرا واتباعا، ومبانيها تلاوة وتجويدا واستظهارا واستماعا، ولكيفية تعليمها والدعوة إليها. ونحرص على تحويل التعامل مع الآية القرآنية لعملية تعليمية

مكتملة الأركان؛ تشمل: تعلم العلم، وتعلم العمل، والتعاهد فيما تم تعلمه من العلم والعمل. ويتم في تلك العملية التعليمية مراعاة جميع مخرجات التعليم الكامل: المعرفية، والوجدانية، والمهارية.

٤. **تدبر المقاطع** (أكثر من آية تتحد في الفكرة أو الموضوع).

٥. **تدبر السور:** وهو برنامج نتعامل فيه مع السورة القرآنية كما لو كانت آية واحدة؛ لأننا نفترض أن السورة القرآنية (خطاب تعليمي كامل) يشتمل على موضوع واحد، أو موضوعات مترابطة، ويتضمن الجوانب المعرفية والوجدانية والمهارية المتعلقة بهذا الموضوع. وفي هذا البرنامج، نجتهد في تحديد موضوع السورة من خلال عشر آليات استقرائية كجزء من خطوة الفهم، ثم نحدد الوصية الرئيسية للسورة، ونشرع في تدبر السورة كوحدة واحدة، واتباع ما أوصت به.

ثانيا: البرامج الأفقية (العرضية)(١).

١. تدبر الآيات الكونية (في الآفاق وفي الأنفس)(٢):

لما تَتَبعنا ما جاء بشأن (الآيات الكونية المنظورة) في القرآن الكريم، خرجنا بمجموعة من الملاحظات، التي كانت نواة لتصميم بعض المنهجيات والآليات المساعدة على تمام الانتفاع بالآيات الكونية وحُسْن التعامل معها؛ فقمنا بإعداد برنامج لتدارس الآيات الكونية التي في القرآن، حيث لاحظنا أن تلك الآيات قد نَبَّه القرآن لمنهجيات في التعامل معها مثل (التفكر)، (والنظر)، فلا ينبغي أن تمر علينا مرور الكرام؛ لأنها فيها شواهد منظورة لمعظم المعاني الشرعية المسطورة.

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية لمعهد (معهد العلم والعمل).

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (الآيات الكونية.. علم وعمل).

٢. تدبر آيات الأمثال[١]:

لما استقرأنا الآيات المتعلقة بمنهجية التعامل مع الأمثال وواجبنا تجاهها، وجدناها تؤكد على أمور أبعد بكثير من مجرد فهم المثل ومعرفة معناه (كالتفكر)، (والاتعاظ)، (والاتقاء)، (والبلاغ)، وغيرها من المخرجات الوجدانية والمهارية، والواجبات العملية. لذا استعنا الله في إعداد برنامج يهدف إلى تحقيق كمال الانتفاع التعليمي والتزكوي بالأمثال، ويضع آليات تطبيقية تم استخراجها من القرآن والسنة؛ للقيام بواجبنا الكامل تجاه الأمثال.

٣. تدبر آيات القصص[٢]:

القصص القرآني باختصار خطاب تعليمي كامل؛ يشمل المخرجات التعليمية كلها (المعرفية والوجدانية والمهارية)، ويُمَثِّل – لو صح التعبير – نسخة منظورة من وصايا القرآن المسطورة. ولما تتبعنا ما جاء فيما يتعلق بالقصص في القرآن الكريم، وجدنا مساحة كبيرة منه قد تم تخصيصها لمنهجيات التعامل مع القصص وآليات الانتفاع بها، بل لا نبالغ لو قلنا: إنه لا تكاد قصة قرآنية تخلو من التأكيد على منهجية التعامل معها وآليات الانتفاع بها، قبل عرضها أو بعده أو في ثناياه، فاستعنا الله في استقراء تلك المنهجيات وتَتَبُّع تلك الآليات في القرآن والسنة؛ ثم قمنا بتصميم برنامج للتعامل مع القصص، تفهما وتدبرا واتباعا وتعليما.

٤. تدبر آيات السيرة النبوية[٣]:

وجدنا أن القرآن قد أفرد مساحة كبيرة للحديث عن تلك الأحداث كتلك التي أفردها للحديث عن غزوة بدر في سورة الأنفال، وتلك التي أفردها للحديث

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (الأمثال.. علم وعمل).

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (القصص.. علم وعمل).

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (السيرة النبوية.. علم وعمل).

عن غزوة أحد في سورة آل عمران، وتلك التي أفردها للحديث عن حادثة الإفك في سورة النور وغيرها، فقمنا باستقراء وتتبع تلك الآيات؛ فلاحظنا ابتداءً أن مساحة الحديث عن (كل حادثة) كانت أقل بكثير من تلك التي في كتب السيرة، ثم لا حظنا أن مضمون الحديث قد تم فيه إبراز أمور والتغاضي عن أخرى، ولاحظنا أنه قد تم عرض (الأحداث) كخطاب تعليمي تم فيه مراعاة الأبعاد المعرفية والوجدانية والمهارية، فانتهينا إلى قناعة تُفْضي إلى أنه لا بد لمن أراد مطالعة السيرة أن يختم مطالعته لتدارس الحدث في كتب السيرة، بتدارس ما جاء في القرآن عن الحدث؛ لأنها يُمَثِّل الخلاصة وأهم العبر والدروس المستفادة، ويرسم خارطة انتفاع بالحدث في بناء الإنسان وتزكيته، ثم قمنا بتصميم برنامج لتدارس الآيات التي تناولت أحداث السيرة في القرآن تفهما وتدبرا واتباعا وتعليما، يسير جنبا إلى جنب مع ما جاء في كتب السُّنَّة والسيرة الصحيحة.

٥. تدبر آيات الأسماء الحسنى[(١)]:

لقد تناول القرآن الأسماء الحسنى بمنهجية أبعد بكثير من مجرد التعريف بها وتوضيح معانيها، وأرشد إلى منهجيات مهمة في التعامل مع الأسماء الحسنى، وآليات للقيام بواجباتنا تجاهها. وقد قمنا بتتبع واستقراء تلك الآليات والمنهجيات، وصَمَّمْنا برنامجا تطبيقيا لتدارس الأسماء الحسنى من خلال الكتاب والسنة تفهما وتدبرا واتباعا وتعليما؛ لنؤدي واجبنا تجاهها، ونقوم بما أمرنا الله به فيما يتعلق بها.

٦. تدبر آيات الإيمان والاعتقاد[(٢)]:

البعض يقتصر في تدارسه أو تدريسه لمسألة (النفخ في الصور) مثلا، على

(١) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (الأسماء الحسنى.. علم وعمل).
(٢) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (الإيمان.. علم وعمل).

مجرد التعريف بها وتناول الجانب العلمي المعرفي المتعلق بها، لكننا لما تتبعنا طريقة القرآن في عرض قضايا الإيمان والاعتقاد، وجدناه يعرضها كخطاب تعليمي كامل يتناول الجوانب العلمية أو المعرفية، والجوانب الوجدانية، بل والجوانب المهارية أو العملية؛ فيُنَبِّه على ما ينبغي علينا فعله بعدما تعلمنا تلك المسألة واعتقدناها، بل هذا ما فعله النبي ﷺ لما تناول هذه المسألة تعليما للصحابة؛ لذا استعنا بالله وقمنا باستقراء ما جاء في القرآن والسنة فيما يتعلق بالمنهجيات المثلى؛ للتعامل مع آيات الإيمان والاعتقاد، ثم قمنا بتصميم برنامج أسميناه «الإيمان علم وعمل»، يتناول الآليات الأكمل لتدارس آيات الإيمان والاعتقاد تفهما وتدبرا واتباعا وتعليما.

٧. تدبر آيات التزكية[١]:

لقد لاحظنا أن القرآن يستخدم كلمة «التزكية» ولا يكاد يستخدم كلمة «التربية» أو «التدريب»، ويستخدم كلمة «الإصلاح أو الخروج من الظلمات إلى النور» كثيرا، في الوقت الذي استخدم فيه كلمة «التغيير» مرتين فقط؛ كما استخدم كثيرا كلمة «الفلاح» بمشتقاتها، ولم يستخدم تقريبا كلمة «النجاح» مطلقا؛ فالقرآن باختصار كتاب يُثْمِر ما هو أكمل من التدريب والنجاح والتربية؛ (يُثْمِر الفلاح والتزكية)، ويهدف لما هو أكمل وأشمل من التغيير بكثير: يهدف إلى الإصلاح والإخراج من الظلمات إلى النور.

وليس هذا مقام البسط في الفروق بين تلك المصطلحات؛ لكننا نريد أن نؤكد على أن القرآن ليس فقط كتابا تنمويا أو تربويا أو تدريبيا، إنه أكمل كتاب تزكوي. ولا يقدم لدارسه فقط التغيير أو النجاح المبتور، بل يقدم له الفلاح والصلاح والخروج من الظلمات إلى النور.

(١) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (التزكية.. علم وعمل).

وقد لاحظنا أن القرآن حينما يتناول موضوعات التربية أو التزكية أو الإصلاح، يتناولها تناولا متكاملا: علميا وعمليا، تأصيلا وتفعيلا، بل يتناولها تناولا متفردا؛ لذا قمنا بحصر قضايا التزكية، والتربية، والتدريب، والتغيير، والإصلاح، والنجاح، وتتبعنا تناول القرآن والسنة لها، وأضحت لدينا منهجيات أو آليات تطبيقية نستخدمها في تدارس هذه القضايا تفهما وتدبرا وعملا وتعليما، فكان هذا البرنامج «التزكية علم وعمل».

٨. تدبر الموضوعات[١]:

في الوقت الذي يهرف فيه الغرب والشرق بتناولهم المتميز للقضايا الإنسانية والحضارية: كالعطاء، والرحمة، والسلام وغيرها، نجد التناول القرآني لتلك القضايا قد بلغ من السمو والرقي والكمال مبلغا لا يخطر لأولئك الزاعمين على بال، بل يكشف القرآن بتناوله الفريد لتلك القضايا حجم العوار الذي لدى أولئك الزاعمين الذين يشهد واقعهم بزيف ادعاءاتهم.

ولما استقرأنا تناول القرآن لتلك القضايا الإنسانية والحضارية، وجدناه قد تناولها تناولا كاملا (علما وعملا وتعليما، تأصيلا وتفعيلا، معرفيا ووجدانيا ومهاريا)؛ لذا قمنا بحصر القضايا الإنسانية والحضارية في القرآن، وتتبعنا تناول القرآن والسنة لها، وأضحت لدينا منهجيات أو آليات تطبيقية نستخدمها في تدارس هذه القضايا (تفهما وتدبرا، وعملا وتعليما)، فكان هذا البرنامج.

۞ ثالثا: البرامج المصاحبة.

١- السُّنَّة علم وعمل (تدبر السُّنَّة)[٢]:

لما تَتبعنا ما أرشد إليه النبي ﷺ من واجبات فيما يتعلق بسُنَّتِه

(١) لمزيد من التفاصيل راجع بحث (العطاء في القرآن)، وبحث (الرحمة في القرآن).

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (السُّنَّة.. علم وعمل).

كالوعي والاتباع والحفظ والتبليغ، وما وَصَّى به القرآن من واجبات كالاتباع والتحكيم والتصديق والنصرة وغيرها؛ تأكدنا أن تعاملنا اليوم مع (السُّنَّة) يعتبر تعاملا مبتورا، يختلف عما كان عليه سلفنا، ويقتصر على الرواية، ويُقَصِّر في الدراية والرعاية؛ لذا استعنا الله وقمنا باستقراء المنهجيات والآليات التطبيقية المتعلقة بالتعامل الأكمل مع (السُّنَّة)، وحُسْن الانتفاع بها، ثم قمنا بتصميم البرنامج.

■ **٢- نور الحياة (١)، (٢)، (٣)**[١]**:**

وهو برنامج تعليمي يهدف إلى التأهيل العلمي المكثف للمتدرب أو المدرب الذي ينتظم في برامجنا، فيما يتعلق بفرائض الأعيان، في ثلاثة مراحل:

* **الأولى:** خصصناها لمعالم الدين الكبرى: كالعلم، والعمل، والدعوة، وأركان المنهج، وأهمية القلب، وغيرها.
* **الثانية:** خصصناها لدراسة معالم وقضايا رئيسية في الانتساب لمنهج أهل السنة والسلف الصالح والتحقق به.
* **الثالثة:** خصصناها لدراسة كتابي «أصول الإيمان» في العقيدة، و«الفقه المُيَسِّر» في الفقه، وقد أعدهما مجمع الملك فهد، وقام بتحكيمهما مجموعة من العلماء.

۞ رابعا: منهج المتدبر الصغير:

هو منهج يعتني بتعليم الأطفال القرآن وتربيتهم عليه، بمنهجية ترتكز على المنهجية التي عَلَّم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها أطفال الصحابة القرآن «الإيمان قبل القرآن»، أي: المعاني (تفهما وتدبرا وعملا) قبل المباني (تلاوة وضبطا وحفظا). وقد تم تحكيم المنهج من قِبَل الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم؛ وغيرها من

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب (العلم والعمل.. ألم وأمل).

المؤسسات، وحظي بتزكية كثير من المختصين في التربية، وحصل على المركز الأول على مستوى العالم - بفضل الله - كأفضل منهج تدبري. كما تم تحكيم البحث التأصيلي للمنهج وتجربته العملية، بواسطة المؤتمر الدولي الثاني لتطوير الدراسات القرآنية، وتم عرضه في المؤتمر، وطباعته ضمن أعمال المؤتمر.

۞ خامسا: برنامج «فإخوانكم»:

هو برنامج يهدف إلى الكفالة الإنسانية الأكمل (إيمانيا وبدنيا) لإخواننا الأيتام، انطلاقا مما جاء في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية (القولية والعملية)، ويعتني عناية أكبر بالكفالة الإيمانية (العلمية والعملية والخُلُقية والنفسية والروحية والوجدانية). لما سألنا ربنا عَزَّوَجَلَّ عن إخواننا الأيتام؛ كانت الإجابة تأكيدا على أنهم ينبغي أن يلقوا منا غاية التقريب والإكرام، وأن ننزلهم منزلة الإخوان والأرحام. قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ولما تتبعنا القرآن والسنة وجدنا التأكيد على أن الرعاية الإيمانية والمعنوية لإخواننا الأيتام أهم من الرعاية البدنية والمادية، في الوقت الذي وجدنا فيه معظم جهود المسلمين في كفالة إخواننا الأيتام ورعايتهم منصرفة إلى رعاية الأبدان والكفالة المادية؛ فآثرنا أن نجعل شعار برنامجنا «الإيمان قبل الأبدان»، ومنه - إن شاء الله - تنطلق تحركاتنا في هذا الميدان، فلو اعتبرنا (أيتامنا إخواننا) كما وصانا الله؛ فإننا سنعتني بكفالة إيمانهم قبل عنايتنا بكفالة أبدانهم.

۞ سادسا: برامج إعداد «المعلمين والمعلمات» (حلقات مدارسة):

١. **برنامج إعداد معلمي ومعلمات** حلقات التدارس الجماعية للآيات والسور.

٢. **برنامج إعداد معلمي ومعلمات** منهج المتدبر الصغير.



٣. **برنامج إعداد معلمي ومعلمات** البرامج الأخرى (كل برنامج على حدة).

سابعا: برامج إعداد «المدربين والمدربات» (دورات تدريبية):

١. **برنامج إعداد** مدربي ومدربات الدورات التأهيلية.

٢. **برنامج إعداد** مدربي ومدربات منهج المتدبر الصغير «أكاديمية المتدبر الصغير».

٣. **برنامج إعداد** مدربي ومدربات البرامج الأخرى (كل برنامج على حدة).

تاريخ بداية المشروع:

عُمْر هذا المشروع يربو على عشر سنوات، تطور خلالها تأطيرا وتأصيلا حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن. بدأ بتجربة شخصية لمحاولة فهم طبيعة العلاقة بالقرآن الكريم وسبر أغوار مراد الله منا فيما يتعلق بكتابه؛ ثم محاولات شخصية لتطبيق التدبر والقيام بحقوق القرآن.

وبعد استقرار تلك المحاولات الشخصية وتأطيرها نسبيا، انتقلتُ إلى التجربة الجماعية. ولقد أصبح لدينا الآن - بفضل الله - تصور عملي كامل لحقيقة التدبر وأدواته ومستوياته وكيفية استثمار ثمراته، حتى أضحى مستوى الحلقات يختلف من حلقة لأخرى حسب المستوى العلمي والإيماني للدارسين والمدرسين، فلم يصبح التدبر اليوم حكرا على طائفة دون أخرى، ولم يعد حلما بعيد المنال.

وقد تحرر التدبر في مشروعنا - بفضل الله - لدى الشباب المسلم من أسر الهلامية، وتخلص من نَيْر النظرية، وأدى دوره كحلقة وصل وشرارة بدء في تجلية قضايا القرآن السلوكية والإيمانية والفكرية والتربوية والدعوية والعلمية والتنموية، وَوَلَّد الدافعية الكبرى لاتباع القرآن والحرص على القيام بحقوقه كاملة؛ حتى يتحقق المقصد الأكبر ويكون كل المسلمين أهلا للقرآن الكريم.

ولقد استطعنا بفضل الله وتوفيقه الوقوف عند الحد الفاصل بين ما يعتبر تركه تقاعسا، وما يعتبر الخوض فيه تجاوزا للحدود، فمجالس التدبر يديرها أخ ضابط لاعتقاد أهل السنة، ومدرك لأصول التفسير الضرورية، ومطلع على كلام أهل العلم في المسألة؛ لكي يسدد الأفهام ويحجزها عن الشطط والأوهام.

والدارسون يترسخ لديهم أنهم ليسوا مفسرين، وليسوا علماء من حقهم الاستنباط والقياس واستخراج الأحكام الفقهية، وبذلك يكون ربنا قد تفضل علينا بِمِنَّة أخرى، وهي تجنيبنا ما يكون في هذا الباب من إفراط أو تفريط.

ولمطالعة التجارب الحية وتطور الفكرة والمراحل التي مر بها المشروع يرجى مطالعة نشرته التعريفية.

۞ الجهة المنفذة للمشروع:

يقوم على تنفيذ المشروع «معهد العلم والعمل»، وهو معهد نوعي تدبري للعلوم الشرعية، يهدف إلى إيجاد الشخصية المسلمة العالمة العاملة المبدعة التي يريدها الله، المتميزة في محرابي الصلاة والحياة، وصنع بنية تحتية قوية من الموارد البشرية تضيء الدنيا كلها بأنوار الوحي، ويسلك في سبيل الوصول لذلك إحياء منهج العلم والعمل وطريقة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التربية والتعليم في ضوء تعاليم الوحي الشريف، وباستخدام أحدث الأساليب التربوية والتعليمية.

۞ الجهات الداعمة للمشروع:

لا يتلقى المشروع دعما ماديا من أي مؤسسة حكومية أو أهلية؛ لكن يتعاون القائمون عليه في كفالة أنشطته ماديا، ويعمل معظم المنتسبين لفرق عمل المشروع كمتطوعين محتسبين؛ لأن المشروع لا يهدف للربحية، ويقدم أنشطته مجانا، أو بسعر تكلفتها على أقصى التقديرات.

أما من ناحية التعاون العلمي والفني، فيتعاون المشروع مع كثير من المؤسسات المعنية بخدمة القرآن الكريم.

مشاركات المشروع:

لقد شارك المشروع من خلال مؤسسيه والقائمين عليه في كثير من الندوات والفعاليات والمؤتمرات المحلية والعالمية بفضل الله، ولعل أبرزها:

١. **المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم بقطر عام (٢٠١٣م)**، والمشاركة بجلستين في المؤتمر حول المشروع الأم «القرآن علم وعمل».

٢. **المؤتمر الدولي الثاني لتطوير الدراسات القرآنية، بالرياض عام ١٤٣٦هـ**، والمشاركة ببحث محكم بعنوان «دور التدبر في تيسير وتحسين تعلم القرآن والعمل به لدى الأطفال».

٣. **المؤتمر العالمي الثاني لتدبر القرآن الكريم بالمغرب (٢٠١٥م)**، والمشاركة بكلمة تعريفية عن مشروعاتنا في ورشة العمل «برامج قرآنية مميزة». واستلام الجائزة الأولى في المسابقة الدولية التي أقامتها الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، في قسم المناهج عن منهجنا (المتدبر الصغير).

إنجازات المشروع:

أولا: في مجال إنشاء المؤسسات القرآنية:

أنشأ المشروع العديد من المؤسسات القرآنية النوعية غير الربحية ببعض محافظات مصر؛ ونذكر هنا أبرزها، وتعريفا مختصرا بها:

- **١. مدارس «القرآن علم وعمل»:**

وهي عبارة عن مدارس قرآنية نوعية، للشباب وكبار السن من الجنسين، يتم



فيها تدارس القرآن بمنهجية (العلم والعمل والإيمان قبل القرآن).

- ٢. **أكاديمية المتدبر الصغير:**

وهي أكاديمية نوعية، غير ربحية، تهدف إلى تربية الأطفال (بعد عمر السادسة «أطفال المدارس») على الإيمان والقرآن، وتزكية نفوسهم، بمنهج يرتكز على المنهجية النبوية في تربية الأطفال (الإيمان قبل القرآن)، مع الاستفادة من أحدث الأساليب التربوية والتعليمية المنضبطة.

- ٣. **روضة المتدبر الصغير:**

وهي روضة نوعية، غير ربحية، تهدف إلى إلى بناء إنسان الإيمان والعمران؛ المتميز في محراب الحياة، ومحراب النسك والصلاة؛ من خلال تربية الأطفال (قبل عمر السادسة) بمنهج يرتكز على المنهجية النبوية في تربية الأطفال (الإيمان قبل القرآن)، مع الاستفادة من أحدث الأساليب التربوية والتعليمية المنضبطة.

ثانيا: في مجال التدريب:

- ١. **التدريب الخارجي (الدورات التدريبية):**

جُمْلة مَنْ تم تدريبهم على برامج المشروع في الفترة الماضية لا يقل - بفضل الله - عن عشرة آلاف متدرب داخل مصر وخارجها، على تفاوت في عدد ساعات التدريب ومستويات المتدربين ونوعه، وقد كان عدد الحضور - بفضل الله - في بعض الدورات ببعض محافظات مصر يزيد على ٣٠٠ متدرب، بل إن عدد الحضور - بفضل الله - في دورة تدريبية مكثفة ليوم واحد في إحدى محافظات مصر قد زاد على ٥٠٠ متدرب.

- ٢. **التدريب الداخلي (في مؤسساتنا):**

طلاب وطالبات مدارس «القرآن علم وعمل» ومعهد العلم والعمل، والذين

زاد عددهم في السنوات الماضية – بفضل الله – على ٨٠٠ طالب وطالبة في فروع المدرسة المختلفة في بعض محافظات مصر، وكذلك طلاب وطالبات أكاديمية «المتدبر الصغير» في فروعها المختلفة ببعض محافظات مصر، والذين زاد عددهم على ألف طفل وطفلة – بفضل الله – وحده في العامين الماضيين.

■ **ثالثا: في مجال التوعية:**

١. **يعتني المشروع بإحياء المنهج النبوي في التعامل مع القرآن ونشر ثقافة التدبر بين جماهير المسلمين**، وتوعيتهم إلى أهمية ذلك، وذلك من خلال إصدارات ورقية توعوية، ومقاطع صوتية ومرئية كسلسلة «رسائل الفجر»، وسلسلة «القرآن من جديد»، وسلسلة «لا تسودوا وجهي»، وسلسلة «تباريح قلبية قرآنية» وغيرها.

٢. **بالإضافة إلى بعض الدورات التوعوية المكثفة للجماهير**، والمحاضرات، والدروس القصيرة، وخطب الجمعة، والمتابعة الإلكترونية من خلال خدماتنا على: الواتس أب، والتليجرام، والفيس بوك وغيرها.

٣. **وتم تنظيم مؤتمر جماهيري ليوم واحد بعنوان «المنهج النبوي في تعليم القرآن الكريم (التحديات والآليات)»**؛ وكان يهدف إلى تعريف الجماهير بالمنهج النبوي في التعليم القرآني ودعوتهم لتطبيقه.

٤. **وهناك فِرَق توعوية تعمل بين قطاعات خاصة من الجماهير:** كفريق «حاملات القرآن» بالجامعات والمدارس، والذي يهدف لتوعية طالبات الجامعات والمدارس من خلال إصدار مجلات ونشرات ومسابقات ومحاضرات قصيرة وغيرها.

رابعا: في مجال الإصدارات المكتوبة:

١. **أصدر المشروع العديد من الكتب والرسائل، نذكر منها هنا:** كتاب «النشرة التعريفية بمشروع (القرآن علم وعمل)»، كتاب «النشرة التعريفية بمنهج المتدبر الصغير»، كتاب «رحلة البحث عن أهل القرآن»، كتاب «بالوحي نحيا»، كتاب «المنهج النبوي في تعليم الأطفال القرآن»، كتاب «سورة النصر علم وعمل»، كتاب «سورة الفلق علم وعمل»، كتاب «سورة العصر علم وعمل»، كتاب «الآية الثانية من سورة الملك علم وعمل»، كتاب «تدبر القصص»، كتاب «رحلة اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن»، كتاب «حقوق القرآن»، كتاب «مدارس العلم والعمل لأهل القرآن»، كتاب «العلم والعمل، ألم وأمل»، كتاب «الميلاد الجديد»، كتاب «سباق المحبين»، كتاب «أسعد أيامي».

٢. **بالإضافة إلى إصدارات المنهج المتعلقة بالأطفال:** ككتب منهج المتدبر الصغير: الرسالة القرآنية، كن أترجة، كن أحسن الناس عملا، رحلة اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن، رحلة البحث عن أهل القرآن، وغيرها الكثير.

٣. **وكذلك الإصدارات الداخلية** كالمواد التعليمية الخاصة بتدريب المعلمين والمدربين وغيرها.

خامسا: في مجال الإصدارات الصوتية والمرئية:

١. **أنتج المشروع** العديد من الإصدارات والسلاسل الصوتية والمرئية للجماهير وللمتدربين وللمدربين.

٢. **ويشرف المشروع على إنتاج مقاطع فيلمية تدبرية منضبطة شرعيا؛** كفيلم «الصندوق»، والذي تم ترشيحه للمشاركة في برنامج «قمرة»، وتم عرضه



ضمن حلقات البرنامج في رمضان الماضي.

■ سادسا: في مجال الأنشطة الإلكترونية والتفاعلية:

١. تقديم الخدمات التالي:

* خدمة بالوحي نحيا (على الواتس أب).
* خدمة بالوحي نحيا (على التليجرام).
* صفحة بالوحي نحيا (على الفيس بوك).
* قناة بالوحي نحيا (على الساوند كلاود).
* قناة بالوحي نحيا (على اليوتيوب).
* وجاري تجهيز موقع بالوحي نحيا.

٢. الشروع في إنتاج ألعاب إلكترونية تعليمية تفاعلية لأطفال أكاديمية المتدبر الصغير.

۞ عناوين للتواصل مع المشروع:

١. للتواصل مع المشرف العام على المشروع: د. شريف طه يونس:

* رقم الهاتف المتنقل الدولي والواتس أب: ٠٠٢٠١١٤٢٥٧٣٨٨٠
* البريد الإلكتروني: Together4thebest@gmail.com

٢. للتواصل معنا عبر خدماتنا وقنواتنا على الإنترنت:

* خدمة بالوحي نحيا (على الواتس أب): ٠٠٢٠١١١٤١١٦٧٦٠
* خدمة بالوحي نحيا (على التليجرام):

https: / /telegram.me /wahynahia



* صفحة بالوحي نحيا (على الفيس بوك):

/https: / /www.facebook.com /wahynahia

* قناة بالوحي نحيا (على الساوند كلاود):

https: / /soundcloud.com /rouhalhayat

* قناة بالوحي نحيا (على اليوتيوب):

https: / /www.youtube.com /channel /UCsK6xahNEpNvb738zwsYC8A

٣. يمكنكم تحميل أحدث نشرة تعريفية بمشروع «القرآن علم وعمل» (سبتمبر ٢٠١٦)، وأحدث نشرة تعريفية بمنهج المتدبر الصغير (سبتمبر ٢٠١٦) من خلال الرابط التالي:

http: / /www.mediafire.com /?69jty217efru8







ثالثاً: تقارير المؤتمرات العلمية



المؤتمر الدولي القرآني الأول

﴿ توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة ﴾

نظمت كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد بأبها بالمملكة العربية السعودية المؤتمر الدولي القرآني الأول، بعنوان «توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة». وذلك في مدينة «أبها» بالمملكة العربية السعودية، ثلاثة أيام: من الأحد إلى الثلاثاء (١٥-١٧ محرم ١٤٣٨هـ)، الموافق (٢٨-٢٩ أكتوبر ٢٠١٦م).

أهداف المؤتمر:

١. **ربط الأمة بكتاب الله تعالى** مصدر تلقيها وسبيل نجاتها وطريق عزها وسعادتها في الدارين.

٢. **إبراز دور القرآن الكريم** في علاج المشكلات المعاصرة.

٣. **النهوض بالدراسات القرآنية**؛ لتؤدي دورها في علاج القضايا الإسلامية المعاصرة، والإسهام بالنهوض الشامل للمجتمع.

٤. **توظيف طاقات الباحثين وجهودهم** في علاج المشكلات المعاصرة.

٥. **إبراز دور** المملكة في خدمة القرآن الكريم وعلومه.

محاور المؤتمر:

■ **المحور الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاعتقادية والفكرية:**

دخل تحت هذا المحور:

١- الخلل في التعامل مع مصادر التلقي وفهمها.



٢- المادية الإلحادية.

٣- التكفير بين الإفراط والتفريط.

٤- الفهم الخاطئ للحرية والمساواة.

٥- اهتزاز الثقة بالهُوية الإسلامية.

٦- التشكيك في الثوابت.

- **المحور الثاني: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات السياسية:**

ويدخل تحت هذا المحور:

١- واجبات الراعي والرعية بين الإفراط والتفريط.

٢- فصل السياسة عن الدين.

٣- الخلط بين مبدأ الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية.

- **المحور الثالث: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاجتماعية:**

ويدخل تحت هذا المحور:

١- ضعف التواصل والتكافل الاجتماعي.

٢- المشكلات الأسرية.

٣- دعوات تفكيك المجتمعات الإسلامية (المذهبية، الطائفية...).

٤- مشكلات الشباب.

٥- مشكلات المرأة.

- **المحور الرابع: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاقتصادية:**

ويدخل تحت هذا المحور:

١ – التساهل في التعامل مع المال العام.

٢ – سوء الإنفاق.

٣ – أكل المال بغير حق.

٤ – الفقر.

٥ – البطالة.

■ **المحور الخامس: توظيف الدراسات القرآنية في علاج مشكلات مفهوم الجهاد:**

ويدخل تحت هذا المحور:

١ – الفهم الخاطئ لمفهوم الجهاد وضوابطه.

٢ – مفهوم الإرهاب وتطوره.

٣ – الاعتداء على الدماء المعصومة.

■ **المحور السادس: توظيف الدراسات القرآنية في علاج مشكلات التعلم والتعليم:**

ويدخل تحت هذا المحور:

١ – التقليل من شأن العلماء، وأثرهم في الأمة.

٢ – العزوف عن العلم الشرعي.

٣ – الفصل بين العلم والعمل.

٤ – ضعف مخرجات المؤسسات التعليمية.

٥ – ضعف الاجتهاد والإبداع العلمي.

۞ بحوث المؤتمر:

■ محتويات المجلد الأول:

* تقويم الفهم الخاطئ للحرية والمساواة في ضوء القرآن الكريم.
  - أ.د. أحمد بن محمد الشرقاوي
* الدراسات المقاصدية القرآنية ونقضها للمقاربات العلمانية لآيات الأحكام
  - أحمدي الشيخ التجاني
* معالم الهوية الإسلامية الثوابت القرآنية وإغراءات مادية
  - د. بصير نور الدين
* معالجة القرآن الكريم لأزمة الهوية وخواء الذات من خلال قصة آدم
  - د. محمد يسري إبراهيم حسين
* هوية المسلم بين الاستعلاء والانهزام (دراسة قرآنية)
  - أ. د. صالح يحيى صواب
* الحوار ومنهج البناء الفكري في القرآن الكريم (أصول وخصائص القواعد)
  - د. محمد شاكر المودني
* دورة الدراسات القرآنية في مواجهة الشبهات التنصيرية
  - د. محمد بودبان
* الإرهاب الفكري وعلاجه في ضوء القرآن الكريم
  - د. محمد إقبال فرحات



* **التشكيك في الثوابت (الوحي القرآني أنموذجًا)**

- د. حمادي هواري

* **منهج الشيخ ابن عثيمين في توظيف التفسير لعلاج المشكلات المعاصرة**

- د. حسن بن علي بن منيع الشهراني

* **معالجة مشكلة الاستبداد في ضوء الدراسات القرآنية**

- د. محمد أمين مقراوي

* **دورة القيادة الناجحة في معالجة الانحراف الفكري في ضوء القرآن الكريم**

- د. عبد المحسن أحمد محمد علي

* **مقاصد القرآن في رعاية المال العام وأثر ذلك في علاج الفساد المالي**

- د. محمد رشيد أبو غزالة

* **التصحر مشكلة تصدى لها القرآن الكريم**

- د. عبد الشافي أحمد علي الشيخ

* **المنهج القرآني في علاج مشكلة الفساد**

- د. أنس سليمان المصري النابلسي

* **منهجية القرآن في علاج مشكلة المرأة (حقوق الزوجة نموذجًا)**

- د. محمد شافعي مفتاح بوشية

* **معالجة التفكك الأسري بهداية القرآن الكريم في ضوء سورة التحريم**

- ذاكر دمير



* مشكلة النشوز وكيف عالجها القرآن

- أ. د. عبد الفتاح محمد خضر

* الهدي القرآني في التعامل مع وسائل التواصل الاجتماعي

- د. أحمد مصطفى محمد منصور

* المنهج القرآني في علاج مشكلات الشباب الاجتماعية المعاصرة

- د. أحمد حامد محمد سعيد

محتويات المجلد الثاني:

* العنف الأسري وسبل علاجه في ضوء القرآن الكريم

- د. مفرح بن سليمان القوسي

* علاج البطالة في ضوء القرآن الكريم

- د. حسين عبد العال حسين محمد

* النشوز بين الزوجين (دراسة قرآنية)

- عبير بنت مشبب محمد أحمد آل جعال الأحمري

* هدي القرآن الكريم في معالجة انحراف الأبناء من خلال قصتي ابن نوح وأبناء يعقوب عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ

- د. محمد بن سعيد بن خلوفه العجلان العمري

* ترشيد الإنفاق من منظور قرآني

- د. عبد الله بن حسين العمودي



* **تحرير مصطلح الجهاد قرآنيًّا**

- علي محمد أسمر أبو شحادة

* **توظيف الدراسات القرآنية في الوقاية من التطرف والإرهاب**

- د. عبد الرؤوف أحمد بني عيسى

* **الجهاد في القرآن الكريم نظريات في المقاصد والعلل**

- د. عبد الرحمن بوكيلي

* **علاج القرآن الكريم لسفك الدماء المعصومة (دراسة موضوعية)**

- د. توفيق بن علي زبادي

* **الإرهاب بين الدفع والطلب والاعتداء في ضوء القرآن الكريم**

- د. غزوة بنت عابس محمد الشهري

* **أسباب الإرهاب والعلاج القرآني لها**

- د. إسماعيل طاهر محمد عزام

* **توظيف الدراسات القرآنية في علاج ضعف مخرجات المؤسسات العلمية**

- محمود أحمد العسكري

* **منهج القرآن الكريم في تعظيم العلم وأهله وأثر ذلك على المجتمع**

- د. أحمد بن فارس السلوم

* **مشكلات التعلم وعلاجها في ضوء سورة الكهف**

- د. سعيد بن محمد بن سعد الشهراني



* الفصل بين العلم والعمل وعلاجه في ضوء القرآن الكريم

- د. دلال محمود أحمد شطناوي

* تطوير المعلم في القرآن الكريم (قصة موسى مع الخضر عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ نموذجًا)

- د. علي محمد الشيخ

* أثر القرآن الكريم في معالجة المشكلات السلوكية للطالب

- د. عبد الكريم بن عبد العزيز الشملان

* التطبيقات التربوية المتضمنة في سورة الضحى وسبل توظيفها في إثارة الدافعية لدى المعلم

- د. الزهرة الأسود

* العزوف عن العمل وعلاجه في ضوء القرآن الكريم

- أ. عبد الرحمن بن العربي تلي

* الانتماء إلى الإسلام وأساليب تعزيزه في الدراسات القرآنية

- د. ابن نعيمة بلقاسم عبد الغفار

محتويات المجلد الثالث:

* استثمار القرآن الكريم في المستجدات الاقتصادية المعاصرة

- علي بن محمد نجم

* التقليل من شأن العلماء خطورته وعلاجه في ضوء القرآن الكريم

- د. محمد رزيق الرحيلي



* التصوير القرآني لمشكلات الشباب الاجتماعية (أسبابها وعلاجها)

- د. عبد الرحمن محمد رضوان حرش

* الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم وأثرها في إقامة الفهم وتقويمه

- د. عبد الواحد الوزاني

* الحركة الإلحادية في بنغلاديش (أسبابها وظواهرها وعلاجها في ضوء القرآن الكريم)

- د. محمد معين الدين

* علاج القرآن للتساهل في حق الحياة

- د. جمال عبد اللطيف الأمير

* أكل المال بغير حق (أسبابه وعلاجه في ضوء الكتاب العزيز)

- د. ديارا سياك

* القيم القرآنية الحاكمة لبناء أسرة المكارمة ودورها في علاج العنف الأسري

- د. حميد مسرار

* الحلول القرآنية في التعامل مع المشكلات الداخلية

- د. دلهوم لخضر

* وظيفة المرأة من خلال القرآن الكريم

- أنيسة الكركاري



* أثر اتباع خطوات الشيطان على المشكلات الأسرية وعلاجها في ضوء القرآن الكريم
  - د. نبيل محمد مرعي سعيد
* ردود الشيخ الشعرواي على شُبه المشككين اللغوية في تفسيره (عرض ودراسة)
  - د. محمود محروس محمود إبراهيم
* ضوابط المعرفة في القرآن الكريم وأثرها في تحقيق الأمن الفكري
  - د. مختار محمود عطا الله
* منهج القرآن الكريم في علاج الشائعة في ضوء آيات حادثة الإفك
  - د. مها بن عبد الله الهدب
* أخوة النسب أهميتها وعلاج مشكلاتها في ضوء القرآن الكريم
  - د. سارة بنت هليل الميري
* الخلل في مناهج تلقي العلم وعلاجه من خلال الدراسات القرآنية
  - محمد عالم أبو البشر شاهر ملوك
* المنهج القرآني في حماية المال العام
  - د. حمد أحمد عبابنة
* الدراسات القرآنية في مواجهة النزاعات الاستشراقية
  - د. عبد الرحمن أبو المجد صالح
* التكفير بين الإفراط والتفريط ومنهج القرآن في معالجته
  - د. عبد الحميد أحمد مرشد حمود



* مصطلح الكفر في الخطاب القرآني وإشكالية المفهوم والمعاصرة

- د. محمد الأمين محمد سليلا







﴿ وفيما يلي أهم توصيات هذا المؤتمر القرآني المبارك - ببركة القرآن الكريم ﴾

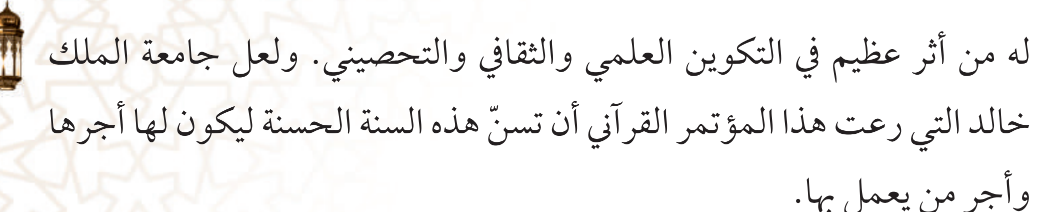
أولًا: يوصي المؤتمر برفع برقية شكر وتقدير لخادم الحرمين الشريفين الملكِ سلمان بن عبد العزيز آل سعود - حفظه الله ورعاه -، ولحكومته الرشيدة على الموافقة الكريمة على إقامة هذا المؤتمر، وبرقيةٍ شكر أخرى لصاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن خالد بن عبد العزيز - حفظه الله - أمير المنطقة لرعايته للمؤتمر.

ثانيًا: يتوجه المؤتمر بالشكر الجزيل لجامعة الملك خالد ممثلة في معالي مديرها الأستاذ الدكتور/ فالح بن رجاء الله السلمي -وفقه الله - ووكلائه الكرام، واللجنةِ التنظيمية برئاسة سعادة وكيل الجامعة للشؤون التعليمية والأكاديمية، ومسؤولي الجامعة كافة، ولكلية الشريعة وأصول الدين، وقسم القرآن الكريم وعلومه، على استضافة المؤتمر والإعداد المميز له، وحسن التخطيط والتنظيم، والذي لقي استحسانَ كلِ من حضر المؤتمر وشارك فيه وسمع عنه - ولله الحمد والمنة -.

ثالثًا: يوصي المؤتمر جامعةَ الملك خالد باستمرار انعقاد المؤتمر دوريًا كل ثلاث سنوات، على أن يعالج كل مؤتمر منها موضوعًا من الموضوعات المهمة التي تحتاجها الأمة، ويُقترح أن يكون المؤتمر القادم بعنوان: «القرآن الكريم وبناء الحضارة».

رابعًا: يوصي المؤتمر جامعةَ الملك خالد بتأسيس مركز بحثي في كلية الشريعة وأصول الدين يُعنى بعلاج المشكلات المعاصرة من خلال الكتاب والسنة.

خامسًا: يوصي المؤتمرُ باعتماد مادة القرآن الكريم مقررا دراسيا على جميع الطلاب في المرحلة الجامعية على اختلاف تخصصاتهم، كمتطلب جامعي؛ لما



له من أثر عظيم في التكوين العلمي والثقافي والتحصيني. ولعل جامعة الملك خالد التي رعت هذا المؤتمر القرآني أن تسنّ هذه السنة الحسنة ليكون لها أجرها وأجر من يعمل بها.

سادسًا: يوصي المؤتمرُ القائمين على وسائل الإعلام بتكثيف البرامج القرآنية، مع الحرص على البرامج التي تلامسُ الواقعَ وتعالجُ مشكلاتِ أمتنا المعاصرة من خلال القرآن الكريم، كما يحث العلماء والباحثين المتخصصين في القرآن وعلومه على المبادرة الإيجابية وتقديم برامج إعلامية متنوعة، مع التركيز على الوسائل الجديدة المؤثرة، والحرص على إبراز هدايات القرآن الكبرى ومقاصده العظمى.

سابعًا: يوصي المؤتمرُ بتأسيس بوابة إلكترونية تجمع الباحثين في الدراسات القرآنية من مختلف الجامعات والكليات والأقسام العلمية المتخصصة في القرآن الكريم وعلومه وما في حكمها في العالم الاسلامي، من أجل التعاون وتبادل الخبرات للارتقاء بالبرامج التعليمة، وتنسيق الجهود البحثية وتبادل الخبرات، إضافة إلى جمع نتاجهم البحثي في مكان واحد.

ثامنًا: يوصي المؤتمر القائمين على التعليم في العالم الإسلامي بالاهتمام بمناهج التعليم من حيث اشتمالُها على أسس راسخة ومبادئ ثابتة مستمدة من الكتاب والسنة، تحصن الأجيال الناشئة من الانحراف بمختلف صوره الفكرية والسلوكية، وتسهم في حل المشكلات التي تواجههم في مجالات الحياة كافة. مع التوصية بالتركيز على المقررات المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه، وخاصة مقرر التفسير الموضوعي؛ لما له من أهمية في إبراز الهدي القرآني في معالجة المشكلات.

تاسعًا: يوصي المؤتمر الأقسام العلمية بتوجيه طلاب الدراسات العليا بالاهتمام بالبحوث التي تعالج المشكلات المعاصرة في ضوء هدي الكتاب والسنة، وجعل ذلك من أولويات البحث العلمي.

عاشرًا: يوصي المؤتمر بجمع ما اشتملت عليه البحوث التي قُدمت في هذا المؤتمر من توصيات ومبادرات عملية، ونشرها على أوسع نطاق، مع تكليف لجنة لمتابعة هذه التوصية.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



Tadabbor Magazine

العَدَدُالأوَّل السَّنَةالأولى مُحَـرَّمُ ١٤٣٨هـ الموَافِق أُكْتُوبَرُ ٢٠١٦م





Tadabbor Magazine

It's a periodical scientific precise magazine. It is concerned with refereeing and publishing research and scientific studies which are related to fields of interpretation of the Holy Qur'an. This magazine is being issued twice a year.

Vision:-

This magazine should be researchers' first choice to publish their researches which are related to interpretation the holy Qur'an.

Mission:

This magazine should be precise scientific pot for researchers to publish their scientific works which related to interpretation the holy Qur`an according to international professional criteria for publication.

Target:-

- Encouraging scientific research which is related to interpretation of the holy Qur`an.
- Publishing scientific research and studies which are related to interpretation on the holy Qur`an.
- Applying a scientific communication between those concerned with Qur`anic studies through the exchange of experiences.



- Opening new horizons for a scientific research which is specialized in the fields of interpretation the holy Qur`an.

Publishing fields in the magazine:-

First: Research and studies in the fields of interpretation the holy Qur`an:

- Scientific Rooting in Interpretation of the Holy Qur`an.
- Qur`anic Topics.
- Qur`anic Purposes.
- The Inimitability of the Holy Qur`an.
- Qur`anic Rhetoric.
- Teaching Interpretation of the Holy Qur`an.
- Deduce from the holy Qur`an.

Second: Forums and conferences reports which are related to the interpretation of the holy Qur`an.

Third: Abstracts of the outstanding scientific researches in the fields which are related to the interpretation on the holy Qur`an.

Fourth: The issues raised by the Editorial Board for which asks the specialists in the fields related to the interpretation of the holy Qur`an.









Terms and Conditions of Publishing

First: The nature of the published materials:

The magazine aims to provide an opportunity for researchers in all countries around the world to publish their scientific production in the field of the interpretation of the holy Qur`an. This field is authentic and serious, and has the ethics of scientific research and scientific methodology.

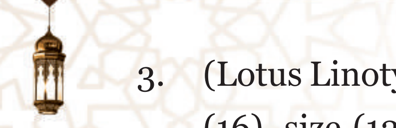
The magazine publishes materials which were never previously published in the Arabic language and accepts the materials in any of the following categories:

- The Old research.
- Scientific reviews.
- Abstracts of outstanding scientific thesis.
- Reports of forums and scientific conferences.

Second: Guidelines for researchers to submit their researches:

1. Research's pages number must not exceed (50) pages, size (17*24), including Arabic and English summaries and references and not less than 25 pages.
2. Page margins should be 2 cm from the (top, bottom, right, and left) a single line spacing.





3. (Lotus Linotype) is the font to be used for Arabic with size (16), size (12) for footnote and abstract and size (11) for tables and shapes.

4. (Roman New Times) is the font to be used for English with size (12) and size (10) for footnote, abstract, tables and shapes.

5. Qur`anic verses should be written in accordance with the copy of the Holy Qur`an on the King Fahd Compiler for Printing the Holy Qur`an with size (16), plain-colored (non-blackish).

6. Footnotes on each page should be put in the bottom separately. Footnotes' numbering of each page is independent and footnotes are adjusted automatically not manually.

7. Research data is written in Arabic and English, and should include (research title, researcher's name, title and his/her contact information, and titles of his/her previous scientific thesis).

8. The abstract's number of words must not exceed (250) words. It must include the following elements: (subject of research, its objectives, its methodology, the most important results and the most important recommendations) and taking care of editing accurately.

9. Each abstract (Arabic/English) is followed by function words (key words). These words should indicate the subject of research and main issues included accurately,



so that its number not exceeding (6) words.

10. The research should be free of any linguistic and/or grammatical mistakes.

❊❊❊

Research Elements

The researcher regulates his research in accordance of (scientific research methodology) as follows:

1. Writing an Introduction contains: (subject of research, its borders, its objectives, its methods, its procedures, and research plan).
2. Indicating the previous studies - if available - and his scientific addition on.
3. Dividing research into sections (subjects) according to (the research plan), so that they are related to each other.
4. Displaying a specific idea in each section (subject) to be a part of the central idea.
5. The research is written in an accurate scientific formulate. This formulate is free from linguistic and/or grammatical mistakes with the accuracy of the documentation.
6. Writing a conclusion with summary for the research which includes (results) and (recommendations).
7. Writing the underlying footnote by mentioning (the book's title, author's name, and part / page) by the applicable scientific approach in documenting the Islamic studies and the Arabic language. Example: Tongue of Arabs by Ibn Manzor (233\2). Qur`anic verse: it is referred to only in the text with the name of the chapter, followed by a colon: then the verse number (Al-Nisaa`:55).



Researcher should be documenting the references at the end of the research according to the following order:

1. If the reference is a book: (<< the title of the book>> Author’s last name (nickname) then the first name and other names, the name of examiner - if available - , then edition statement, the city of publishing, publisher’s name then the year of publication. Ex: <<Al-Game`Al-Sahih>> .Al- Tirmidhi, Abu Issa Mohamed Ibn Issa. Examining by: Ahmad Muhammad Shakir and others. 2nd Edition, Bairut: Dar Ehyaa` Al-turath Al-Arabi, 2004 AC.

2. If the reference (a scientific thesis not printed): (<< the title of the thesis>>. then Researcher's last name (the family name), then the first name and other names. Then, the type of thesis (Master | Ph. D.). The place: the name of the college, the name of the university, and then year). Example: << Jacob bin Shaybah Alsodosi: his implications and approach in the wound and the amendment(Aatharih wa manhagih fi Al-Garh wa Altadeel >>. Al-Mutairi, Ali bin Abdullah. Master Thesis, Saudi Arabia: College of Education, King Saud University, 1418 AH.

3. If the reference (an article of the magazine): (<< the title of the article >>, Author's last name (family name), then the first name and other names, then the magazine or Journal name, the place , hardcover number (editions number), the year of publication, the page from .. to ..). Example: << Imam Affan bin Muslim Al-SSaffar and his method of receiving, performance and criticism>>.





Al-Mutairi, Ali bin Abdullah. Qassim University Magazine: Islamic science, Qassim. (3), (1), 1431 AH, 35-85.

4. In addition to the mentioning of some abbreviations that have not such a statement in the reference data, which are as follows:
   - Without the name of publisher: (W. P).
   - Without the edition number: (W. P).
   - Without the date of publication: (W. D).

- Reasearcher should mention resources at the end of research according to the following:
- Sending a research site to the magazine is considered to be an undertaking by the researcher that the research has not been published before, neither it was submitted for publication, and will not be submitted for publication as well, until the end of arbitration proceedings in the magazine.
- The editorial board of the magazine has the right of the initial examination of the research, and reports his eligibility for arbitration, or rejects it.
- The researcher acquainted with the summary of arbitrators' reports for consideration and adjusts accordingly. He explains his opinion whereas it is not objected with their words and the body settled the dispute between them.
- In the case of (the acceptance of the research for publication), a message is sent to the researcher about (the acceptance of the research for publication). When the



research is rejected for publication, a message is sent as (an apology) for the researcher.

- The researcher, after the publication of his works in the magazine hass the right to publish it again after six months of its issuance, but He must refer to the publication of his work in the magazine.
- Sending a research via magazine's website is considered as an acceptance from the researcher of the terms of publishing in the magazine, and the Editorial Board has the right to determine the priorities of research publishing.
- The opinions which are expressed in the published researches reflect the views of the researchers only, and not necessarily the opinion of the magazine.
- The Certified authentication system for foreign references in the magazine is the system of (Chicago University).
- In case of publishing the research, the researcher is given two copies of the magazine and also ten copies of the edition, which his research was published in.
- Published scientific articles in the magazine reflect the views of its owner.



TADABBOR MAGAZINE

Index

3) Reports of Scientific Conferences

- The 1st Quranic International Conference (Using Quranic Studies in Resolving Contemporary Issues)

4) Summaries in English Language:

❊❊❊

Research abstract

Inimitability of Holy Quran According to Abdul Hamid Bin Badees. (Compilation & Studying)

By: Nabil Bin Ahmad Balhy.

Qur'an is an immortal scientific miracle indicates to its divine source, Ibn Badis plied in deduce the aspects of Quraan's miracles during his explanation.

During the time when the fascination with west's materialistic civilization became more common, Ibn Badis plied to enhance the confidence in the faithful's hearts with the book of God and its Sciences.

This research aimed to combine the scattering opinions about the miracle of the Qur`an and its sides coupled with its applied examples in this divine world.

It displayed its integrated view of this kind of Qur`anic sciences, and it has been adopting to achieve this analytical inductive method.

Its explanations were extrapolated and its ideas and expressions relating to the miracle of Qur'an were analyzed. It was the most important results: Ibn Badis was a connoisseur of arts of the miracles of the Qur`an.

He has a balanced holistic view for the sides of the miracles of the Qur`an. He recruited this knowledge in breeding generations on Qur`an's foundations.



So it was the most important recommendations: the need to discuss the issue of miracles in the Qur’an upon the reformers scientists from the (Algerian Muslim Scholars Association); and its role in the Islamic renaissance and the reform of the nation.

It is an important aspect was not given the right of research and analysis.

Key words:

Ibn Badis, The inimitability of the Holy Quran, terms of the miracles, the rhetoric miracle, the scientific miracle.



Research abstract

Rhetorical Questioning in The Light of The Holy Quran

By: Prof. Ismail Sa’ed Rodwan.

This research titled (Rhetorical question in the light of the Holy Qur`an), which is one of the eloquence of the Qur’an Sciences, a part of the formation section of it, used in non-query Interrogative purposes and has been studying in the framework of analytical descriptive approach.

The research has preface, during which the review of the importance of the subject, the reasons for its choice, the study’s objectives and its purpose, prior studies, researcher’s approach and the research plan.

The research is divided into three sections: Whereas the first section treated the concept of Rhetorical question, which is defined as a compound term by defining each meaning separately; the lexical and contextual meaning.

It mentioned what was written by the authors in their works of Qur`anic sciences, Arabic language’s experts on this delicate subject, and as well as the knowledge of how the Qur’an displayed this exact topic.

It was found that applied examples of the rhetorical question in the Qur`an exceeded hundred and fifty positions.

The second section, discussed examples about the rhetorical question in addressing the disbelief people; who are from bygone



nations, Polytheists of the Arabs, the People of the Book and the hypocrites.

The third section, Examples of the rhetorical question was mentioned in addressing the people of faith; who includes the angels the prophets and the believers.

Conclusion showed seven results and three recommendations, and, has been back to seventy-one references.



Research abstract

The Devine Rules for the Universe and Society in The Holy Quran (Kind-Spoken & Insights).

Dr. Rasheed Kohous

The Divine Sunan are the Qur`an's philosophy for the universe and the life. And, it's a balance that gives you knowledge about Nations and civilizations; Nation's life are not upright unless it understands these cosmic and social Divine Sunan, its life is accorded and adapted to it.

If the nation turned away from that and lost its way out of ignorance, or heedlessness, or carelessness, or stubbornness and arrogance, it inevitably will face the same fate of the fold and it will face its punishment without failure or favor.

Research Targets:-

- Emphasizing on the importance of the subject of Divine Sunan and its position in the Qur`an.
- Definition of the cosmic and social Divine Sunan.
- Highlighting the observance of Divine Sunan in nation's life.

Research Methodology:

This research does not out from the scope of the Qur`an; it is an objective study only from the Book of Allah . It adopted the inductive, analytical and deductive approach; by keeping track




of Qur`anic verses which related to Divine Sunan, then analyzed it by the adoption of the sayings of the interpreters, deduce the meanings and connotations, and what the verses guide to.

The most important search results:

The Qur`an brought out the Divine Sunan, showed its importance in the life of individuals, nations, and civilizations; and the impact of care of it.

The Divine Sunan including those related to the universe (this kind out of the human will and choice), There are those which related to human behavior - his movement in society and history - and legitimate eligibility. These types are linked to each other and they cannot be separated.

The Failure to observe Divine Sunan in human life has harmful impacts on the human; whether he is individual or group or nation or civilization.

Research Recommendations:-

Inclusion of the subject << Divine Sunan >> within the study courses in the universities of Islamic sciences and its colleges.

Customize university thesis at colleges and Islamic institutions to study of divine sunan in the Holy Qur`an; through theorization and application.

Key words:

Interrogative - denial - Holy Qur'an - negation - reprimand - exclamation.

Research abstract

The Devine Rules for the Universe and Society in The Holy Quran (Kind-Spoken & Insights) The Chapter of Al-Nasr, is a Science and Deeds.

Dr. Sherif Bin Taha Youssuf

Research topic:

(The chapter of Al-Nasr) is a science and deed, meditative applied study for (the chapter of Al-Nasr), using project's methodology (the Qur`an is a science and deed), which based on the approach of the Prophet methodology in dealing with the Holy Qur`an.

Targets:-

Activating what has been rooting in the project (the Qur'an is science and deed) with regard to the methodology of the Prophet in dealing with the Qur'an; (with science and deed); to bring the matter of understanding and reflection on the Qur'an, work on it, do its rights, full utilization of it , and help Muslims on the Full utilization of (the chapter of Al-Nasr) in particular (with science and deed) as an example in this way.

Methodology:-

I have not adopted only one approach in this study; because the nature necessitated in some sections adopting an inductive method more and in others adopting analytical method.



That's although it may be rare that one of Study sections or chapters has been limited to one approach, but in total the inductive method has the largest share, followed by the analytical one.

I cared about matters that serve the understanding, reflection and application directly, even the sections which related to explanations and Qur`anic sciences that we displayed.

We displayed it from an objective side emphasizing on its scientific and applied reflection. It was Used the maps, designs, and diagrams to summarize and highlight many points.

Planning:

The study came as introducing as prepared to research, three sections, and reinforcing conclusion, then The conclusion came with the most important results and recommendations.

We tried in this study to show a set of important requirements and answer a series of questions related to the full and complete consideration of the chapter of Al-Nasr, with knowledge and deed, rooting and activation.

Those things has been summarized in the (intention), (methodology), (importance), (mechanism), (realistic models) and (continuity).

The most important results:

This study proved the ability (the approach of knowledge and



deed) to apply on the chapters of the Holy Qur`an.

The prophet's sunnah full of meditative and applied prospects regarding the Qur`anic verses and chapters.

Prophetic dealing with the Quraan has been deeper and more complete than just doing the rights of buildings from reading, intonation and save the story of the chapter.

And that the short buildings chapters as a chapter of victory, God has included preaching meanings that a person needs to reform his life and afterlife.

The most important recommendations:-

1. the necessity of adopting the integrated approach of the Prophet in Qur`anic Education: (faith and the Qur'an, knowledge and deed) in Qur`anic education institutions, circulated it, and training of workers in the Qur`anic education institutions on its assets and rules, and to invite the Muslim masses to return to it.
2. Exert more effort for the chapters and the verses which Muslims used much. They are frequently repeating these verses in their life these days; because they are easy to approach and include the treasures which people needs to be near to them.
3. Necessity to raise Muslims' awareness (with rooting and activation) with necessity of reading Prophetic Sunnah to know about meditative and applied prospectors for



Qur`anic chapters and verses; emphasizing on that studying of the chapter (Sura)should not be limited on what stated in the explanation books because that leads to the purpose of (scientific education), but the practical education (with Interpretation and Following) is the most important.

Key words:-

Victory – interpretation - science – deed - Method – sunnah (ways of life).



TADABBOR MAGAZINE

Periodical, Scientitic and Arbitral Magazine specializes in arbitration and dissemination studies and searches related to Holy Quran, biannual issued

The first issue, the first year, Muharam 1438 AH, Approved in October 2016 AC

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(ص) ٢٩

TADABBOR MAGAZINE Index:







مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد الثاني السنة الأولى رجب ١٤٣٨هـ الموافق إبريل ٢٠١٧م

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص ٢٩)



موضوعات العدد:



مجلة دورية علمية محكمة تُعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بتدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العددُ الثاني السَّنة الأولى رجب ١٤٣٨هـ الموافق إبريل ٢٠١٧م





مجلة تدبر

ص٣٢٨؛ ١٧×٢٤سم

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٥٨٨٣

بتاريخ: ١٤٣٨/٦/٢٤

ردمد: ٧٦٤٢-١٦٥٨



سعر المجلة (٢٠ ريالاً سعودياً أو ما يعادلها)

المجلة مصرحة من وزارة الثقافة والإعلام بالمملكة العربية السعودية بالرياض

برقم ٣٧٠٨ وتاريخ ٠٤/ ٠٣/ ١٤٣٧هـ

للمراسلات والاشتراكات

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم:

رئيس التحرير

للمراسلة:

البريد الإلكتروني: tjs@tadabbor.com

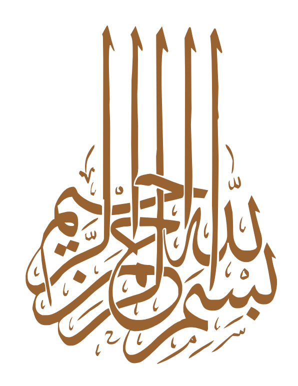
جوال وواتس أب: ٩٦٦٥٠٣٠٧٢٣٣٣+

جوجل بلس، تويتر، فيسبوك، انستجرام، تليجرام: @tjstadabbor

الموقع الإلكتروني: http://tjs.tadabborq.com/






بسم الله الرحمن الرحيم



مجلة تدبُّر

دورية علمية محكَّمة، تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات العلمية المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة.

الرُّؤيَة:

أن تكون المجلة خيار الباحثين الأول لنشر بحوثهم في تدبر القرآن الكريم.

الرِّسَالَة:

أن تكون وعاءً علميًّا محكَّمًا للباحثين لنشر أعمالهم العلمية في تدبر القرآن الكريم وما اتصل به وفق معايير مهنية عالمية للنشر.

الأَهدَاف:

* **تشجيع** البحث العلمي المتصل بتدبر القرآن الكريم.
* **نشر** البحوث العلمية والدراسات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.
* **تحقيق التواصل العلمي** بين المعنيين بالدراسات القرآنية من خلال تبادل الخبرات.
* **فتح آفاق جديدة** للبحث العلمي المتخصص في مجالات تدبر القرآن.

مجالَاتُ النَّشرِ في المَجلَّة

أولًا: البحوث والدراسات في مجالات تدبر القرآن الكريم:

* التأصيل العلمي في تدبر القرآن الكريم.



- الموضوعات القرآنية.
- المقاصد القرآنية.
- الإعجاز القرآني.
- البلاغة القرآنية.
- تعليم تدبر القرآن الكريم.
- الاستنباط من القرآن الكريم.

ثانيًا: تقارير الملتقيات والمؤتمرات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

ثالثًا: ملخصات الرسائل العلمية المتميزة في المجالات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

رابعًا: ما تطرحه هيئة التحرير من قضايا تستكتب فيها المتخصصين في المجالات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.







قواعد وشروط النشر

أولًا: طبيعة المواد المنشورة:

تهدف المجلة إلى إتاحة الفرصة للباحثين في جميع بلدان العالم لنشر إنتاجهم العلمي في مجال تدبر القرآن الكريم، الذي تتوافر فيه الأصالة والجدة، وأخلاقيات البحث العلمي، والمنهجية العلمية.

وتقوم المجلة بنشر المواد التي لم يسبق نشرها باللغة العربية، وتقبل المواد في أي الفئات التالية:

- البحوث الأصيلة.
- المراجعات العلمية.
- مستخلصات الرسائل العلمية المتميزة.
- تقارير الملتقيات والمؤتمرات العلمية.

ثانيًا: إرشادات للباحثين لتقديم بحوثهم:

١. لا يتجاوز عدد صفحات البحث (٥٠) صفحة مقاس (١٧×٢٤) متضمنة الملخصين العربي والإنجليزي، والمراجع، ولا يقل عن (٢٥) صفحة.

٢. هوامش الصفحة تكون ٢ سم من (أعلى، وأسفل، ويمين، ويسار)، ويكون تباعد الأسطر مفردًا.

٣. يستخدم خط (Lotus Linotype) للغة العربية بحجم (١٦)، وبحجم (١٢) للحاشية والمستخلص، وبحجم (١١) للجداول والأشكال.

٤. يستخدم خط (Times New Roman) للغة الإنجليزية بحجم (١٢)، وبحجم (١٠) للحاشية والمستخلص والجداول والأشكال.



٥. تكتب الآيات القرآنية بخط (Lotus Linotype) بحجم (١٦).

٦. توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة، ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلًا، وتضبط الحواشي آليًّا لا يدويًّا.

٧. تكتب بيانات البحث باللغتين العربية والإنجليزية، وتحتوي على: (عنوان البحث، اسم الباحث والتعريف به، بيانات التواصل معه، عناوين رسائله العلمية).

٨. لا يتجاوز عدد كلمات المستخلص (٢٥٠) كلمة، ويتضمن العناصر التالية: (موضوع البحث، وأهدافه، ومنهجه، وأهم النتائج، وأهم التوصيات) مع العناية بتحريرها بشكل دقيق.

٩. يُتبع كل مستخلص (عربي/ إنجليزي) بالكلمات الدالة (المفتاحية) المعبرة بدقة عن موضوع البحث، والقضايا الرئيسة التي تناولها، بحيث لا يتجاوز عددها (٦) كلمات.

١٠. سلامة البحث من الأخطاء اللغوية والنحوية.





عناصر البحث

❁ يَنظِمُ الباحِثُ بحثَه وَفق مُقتضَيات (مَنهج البَحْثِ العِلْمِيّ) كالتَّالي:

١- كتابة مقدمة تحتوي على: (موضوع البحث، وحدوده، وأهدافه، ومنهجه، وإجراءاته، وخطة البحث).

٢- تبيين الدراسات السابقة - إن وجدت - وإضافته العلمية عليها.

٣- تقسيم البحث إلى أقسام (مباحث) وفق (خطة البحث)، بحيث تكون مترابطة.

٤- عرض فكرة محددة في كل قسم (مبحث) تكون جزءًا من الفكرة المركزية للبحث.

٥- يكتب البحث بصياغة علمية متقنة، خالية من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع الدقة في التوثيق.

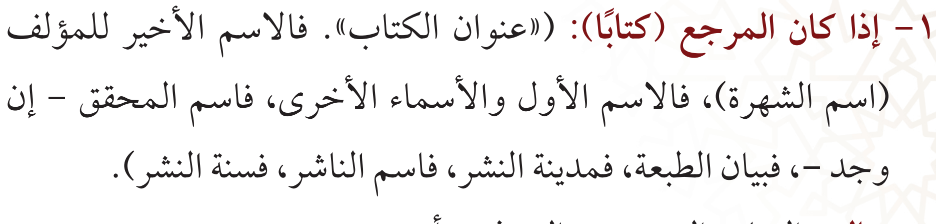
٦- كتابة خاتمة بخلاصة شاملة للبحث تتضمن أهم (النتائج) و(التوصيات).

٧- كتابة الحاشية السفلية يكون بذكر (عنوان الكتاب، واسم المؤلف، والجزء/ الصفحة) حسب المنهج العلمي المعمول به في توثيق الدراسات الشرعية واللغة العربية.

مثال: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٢٣٣).

أما الآية القرآنية: فيشار إليها في المتن فقط باسم السورة يتبعه نقطتان: ثم رقم الآية [النساء: ٥٥].





١- إذا كان المرجع (كتابًا): («عنوان الكتاب». فالاسم الأخير للمؤلف (اسم الشهرة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى، فاسم المحقق - إن وجد -، فبيان الطبعة، فمدينة النشر، فاسم الناشر، فسنة النشر).

مثال: «الجامع الصحيح». الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخرين. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٤م.

٢- إذا كان المرجع (رسالة علمية لم تطبع): («عنوان الرسالة». فالاسم الأخير للباحث (اسم العائلة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى. فنوع الرسالة (ماجستير/ دكتوراه)، فالمكان: فاسم الكلية، فاسم الجامعة، فالسنة).

مثال: «يعقوب بن شيبة السدوسي: آثاره ومنهجه في الجرح والتعديل». المطيري، علي بن عبد الله. رسالة ماجستير، السعودية: كلية التربية، جامعة الملك سعود، ١٤١٨هـ.

٣- إذا كان المرجع (مقالًا من دورية): («عنوان المقال»، فالاسم الأخير للمؤلف (اسم العائلة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى، فاسم الدورية، فالمكان، فرقم المجلد (رقم العدد)، فسنة النشر، فالصفحة من ص... - إلى ص...).

مثال: «الإمام عفان بن مسلم الصفار ومنهجه في التلقي والأداء والنقد». المطيري، علي بن عبد الله. مجلة جامعة القصيم: العلوم الشرعية، القصيم. م (٣)، (١)، ١٤٣١هـ، ٣٥ - ٨٥.





٤- **هذا بالإضافة إلى ذكر بعض الاختصارات** إن لم يوجد لها أي بيان في بيانات المرجع، وهي كالتالي:

❊ بدون اسم الناشر: (د. ن).

❊ بدون رقم الطبعة: (د. ط).

❊ بدون تاريخ النشر: (د. ت).

يوثق الباحث المراجع في نهاية البحث حسب النظام التالي:

١ - **إرسال البحث لموقع المجلة** يُعد تعهدًا من الباحث بأن البحث لم يسبق نشره، وأنه غير مقدم للنشر، ولن يقدم للنشر في جهة أخرى حتى تنتهي إجراءات تحكيمه في المجلة.

٢ - **لهيئة تحرير المجلة** حق الفحص الأولي للبحث، وتقرير أهليته للتحكيم، أو رفضه.

٣ - **يطلع الباحث على خلاصة تقارير المُحكّمين** ليعدل بحثه وفقها، ويبين رأيه فيما لا يؤخذ به من أقوالهم، وتحسم الهيئة الخلاف بينهما.

٤ - **في حال (قبول البحث للنشر)** يتم إرسال رسالة للباحث بـ(قبول البحث للنشر)، وعند رفض البحث للنشر يتم إرسال رسالة (اعتذار) للباحث.

٥ - **للباحث بعد نشر عمله في المجلة** أن ينشره مرة أخرى بعد مضي ستة أشهر من صدورها، على أن يشير إلى نشره في المجلة.

٦- **إرسال البحث عبر الموقع الإلكتروني للمجلة** يُعد قبولًا من الباحث بـ(شروط النشر في المجلة)، ولهيئة التحرير الحق في تحديد أولويات نشر البحوث.



٧ – الآراء الواردة في البحوث المنشورة تعبر عن وجهة نظر الباحثين فقط، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

٨ – نظام التوثيق المعتمد في المجلة بالنسبة للمراجع الأجنبية هو نظام (جامعة شيكاغو).

٩ – في حال (نشر البحث) يمنح الباحث نسختين من المجلة مع عشر نسخ مستلة من عدد المجلة التي تم نشر بحثه فيها.

المَوَادّ العِلْمِيّة المَنْشُورَة فِي المَجَلّة تُعَبّر عَن آرَاءِ أَصْحَابِهَا





الفهرس

الموضـــــــــــــــــوع | الصفحة







افتتاحية العدد



كلمة رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن نظامًا قويمًا، وحبلًا متينًا، من تمسك به نجا، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِي صراطًا مستقيمًا، جعله الله هاديًا للتي هي أقوم، وتبيانًا لكل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ فهو مشتمل على كل علم نافع، من علوم الأولين والآخرين، وما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم.

وصلى الله وسلم على سيدنا ورسولنا محمد، إمام الأتقياء وسيد الأنبياء، الذي أرسله ربه شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة، وأقام الملة.

وبعد:

فإن العناية بكتاب الله تعالى ونشر علومه ومعارفه، من أجلِّ الأعمال وأفضلها في الدنيا والآخرة.

ومع تشعب العلوم والمعارف، وتنوع الاهتمامات، وتعددت التخصصات، وكثرة الدارسين والمهتمين والباحثين عن المعرفة - تدعو الحاجة إلى تنوع أوعية النشر وتعددها، للرقي بالدراسات القرآنية وتطويرها؛ خدمة لكتاب الله واهتمامًا بنشر هداياته علمًا وعملًا.

وقد أسهمت المجلات العلمية المحكمة المتخصصة بجهد كبير في خدمة المعارف والعلوم والعناية بالموضوعات البحثيّة والمنهجية والعلمية، وتأتي مجلة «تدبر » كإسهام معرفي في خدمة القرآن الكريم وعلومه، والدراسات المتعلقة به.

ويسعدني أن أقدم بين يدي القارئ الكريم العدد الثاني من هذه المجلة، والذي جاء -بفضل الله- زاخرًا بالبحوث العلمية التي تناولت قضايا هامة، ذات صلة مباشرة بحياتنا اليومية، وذلك بعد أن تم عرضها وتحكيمها ومناقشتها، ثم إجازتها للنشر.

وإن من توفيق الله سبحانه أن هدى لاختيار اسم هذه المجلة (مجلة تدبر)، وقد استُلهم فيه حاجة العصر الذي اقتضت طبيعته البحث والتخصص والمواكبة، حتى نتمكن من مخاطبة أهله بما يناسبهم.

وقد خطَت مجلة تدبر في باكورة أعدادها خطواتها الواثقة بموضوعاتها المتنوعة في مجال تدبر القرآن وخدمته، مع ما لقيه صدور العدد من عقبات الولادة التي تخطّاها بعون الله وتوفيقه، ثم بجهود أعضاء هيئة التحرير وزملائهم المهتمين، الذين لا يرجون منّا جزاءً ولا شكورًا، بل احتسبوا ذلك لله، وسطرت بذلك قصة نجاح يحكيها العدد الأول من المجلة؛ فقد لقي العدد ترحيب الزملاء في الجامعات والمعاهد والمراكز، والمشايخ الأجلاء، والمهتمين بالدراسات القرآنية.

وها نحن نضع بين يدي القارئ الكريم العدد الثاني من مجلة تدبر، بموضوعات متنوعة، وباحثين من عدد من بلدان العالم، مع تقارير للرسائل العلمية والمؤتمرات المختصة بتدبر القرآن ومجالاته.

والمجلة تطمح وتطمع في تقديم موضوعات حيَّة وجادَّة، ومتميزة في موضوع تدبر القرآن ومجالاته، والعلوم الخادمة لتدبر القرآن والعمل به، والتأثر بصبغته في الحياة والعلوم.



ولنا أملٌ بأن يتحقق ذلك بشكل أفضل في الأعداد القادمة -بإذن الله- بتظافر الجهود بين الباحثين والمهتمين، وتفاعلهم مع الفاحصين وأعضاء هيئة التحرير، في اختيار الموضوعات وتقويمها للأفضل بإذن الله.

ولذا ندعو الباحثين إلى إثراء المجلة بالجديد، والبحث في مسائل التدبر وقضاياه، التي لا تزال بحاجة للمزيد من الإثراء والتحليل والدراسة والتأطير؛ ليتميز تدبر القرآن والتأثر به، ويؤتي ثماره، وتعود حضارة أهله قائمةً على سوقها، منافسةً حضارات الأمم الماديّة.

فإنّ المجلة منهم ولهم، وهي ترتقي بهم. وبجهودهم يستمر العطاء، وبنوعيته وجهد الجميع مع توفيق الله يتحقق التميز والارتقاء.

وإنني لأدعو الله لهيئة تحرير المجلة بالتوفيق والسداد، وأن يكونوا عند حسن الظنِّ بهم؛ لِما يبذلونه من جهودٍ حثيثةٍ للارتقاء بالمجلة وأبحاثها.

والحمد لله، والشكر له سبحانه ابتداءً وانتهاءً على التوفيق والسداد.

ثم الشكر لكل من ساهم ودعم بفكره أو ماله أو جهده، والله لا يضيع أجر المحسنين.

رئيس التحرير

أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي

الأستاذ بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة





أولًا: البحوث



أ.د. أحمد بن محمد الشرقاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر.

والأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وجامعة الشارقة سابقاً

sharkawe2000@yahoo.com

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر في - التفسير وعلوم القرآن باطروحته منهج الشيخ سعيد حوى في كتابه الأساس في التفسير (دراسة مقارنة)
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين جامعة الأزهر في التفسير وعلوم القرآن باطروحته (المرأة في القصص القرآني) دراسة موضوعية مقارنة .
- من مؤلفاته :
- المرأة في القصص النبوي.
- الكتب السابقة في القرآن الكريم دراسة موضوعية
- القرآن والحضارة، القرآن والكون، القرآن والمرأة.
- صلاة الاستخارة، الصبر عند فقد الولد، يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر، المنهل القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، مناهج المفسرين، الوسيط في تاريخ التشريع، مناهج البحث والمكتبة الإسلامية.



ملخص البحث

من وجوه البلاغة القرآنية الفريدة تذييل الآيات بما يتناسب مع مضمونها، ويأتي مبينا ومقررا لمعانيها، ولقد وقف المفسرون عند هذه السمة القرآنية، وأمعنوا النظر فيها، وهذه الدراسة تدور حول بيان معنى التذييل ، وأهمية دراسته، والفرق بينه وبين الفاصلة، وتبرُزُ أَهَمِّيَّةُ دراسةِ التذييل في وجوه منها : الاستعانةُ بهذا العلمِ على فهمِ كتابِ اللهِ، وإبرازُ جانبٍ مُهم من جوانبِ الإعجازِ القرآني، وبيانُ مشكلِ التذييلِ، وردُّ شُبُهَاتِ المستشرقينَ وأعداءِ الدين حول الوحدة القرآنية. فضلا عن الاستعانة بهذا العلمِ في تثبيتِ حفظِ القرآنِ، كما تعرضُ الدراسة لفوائد التذييل وأصولُ الوقوفِ على لطائفهِ، وسماته، ولقد استفاد الباحث من مراجع البلاغة والتفسير وعلوم القرآن، وعُني بالتأصيل لهذه الموضوع ، مفرقا بين التذييل والفاصلة، مبيّنا أثر دراسة هذا العلم على فهم المعاني واستنباط الدقائق، ودفع الإيهام.

كلمات مفتاحية :

بلاغة ، تأصيل، تذييل ، الآيات، القرآن.

❊ ❊ ❊



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمدُ لله واهِبِ النِّعَمِ، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ واسعُ الجودِ عظيمُ الكرَمِ، أرسل رسولَهُ رحمةً لجميعِ الأمَم، وخصَّهُ بجوامِعِ الكلمِ وأطايبِ الحِكَم، وأكملَ له الدينَ وأتمَّ عليه النِّعَم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبِهِ أولي العزائِمِ والهِمَمِ، وعلى من تَبعَ سُنَّته وسار على هديِهِ على الوجهِ الأتمِّ.

وبعدُ:

فالقرآنُ الكريمُ رسالةٌ خالدةٌ، ونِعَمٌ متجددةٌ، هدًى ونورٌ، ومنهاجٌ ودستورٌ، وخطابٌ لكلِّ العصور، ورحمةٌ وشفاءٌ لما في الصدور، وتدبُّرُ القرآنِ الكريمِ سبيلُنا إلى اقتطافِ ثَمَرَاتِهِ، واجتلاءِ أنواره، واقتباسِ هداياتِهِ، ومعرفةِ أحكامِهِ، والوقوفِ على لطائفِهِ وحِكَمِهِ؛ ومما هو حريٌّ بالتدبُّر والإمعانِ ما خُتمتْ به الآياتُ من تذييلاتٍ، تنمُّ عن بلاغةٍ وافيةٍ، وتَبينُ عن حِكَمٍ ساميةٍ.

وهذا بحثٌ في التذييل، كتبته منذ ثماني سنوات، وكنت أعيد النظر فيه بين الفينة والأخرى، ولعله الآن جديرٌ بالنشر، وقد جعلته بعنوان «**بلاغة القرآن في تذييل الآيات - دراسة تأصيلية**». وأسأل الله القبول.

أهمية الموضوع

- **للموضوع أهمية بالغة، نجملها فيما يأتي:**

١) **إبراز جانب من جوانب الإعجاز القرآني** في تناسقه وجماله وروعته،



وتفرُّده بهذا الأسلوب.

٢) **الرد على شبهات أعداء الإسلام** الذين زعموا أن القرآن الكريم ليس له اتساق، ولا يجمعه سياق.

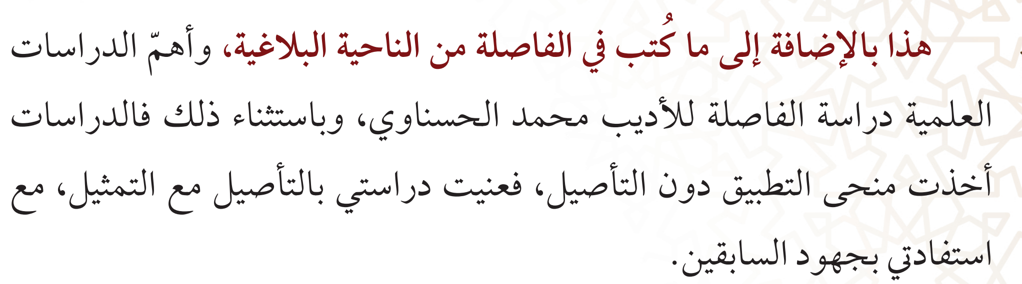
٣) **الاستعانة بهذه الدراسة** على تدبُّر كلام الله تعالى وفهمه وتفسيره.

الدراسات السابقة

قامت جامعة الأزهر بتكليف بعض الأساتذة ببحوث تطبيقية حول تذييل بعض الآيات، وكنتُ ممن كُلِّفت بكتابة التذييل؛ فكتبت في حزب من القرآن، من سورة آل عمران، ومن سورة النساء، سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، وتم تحكيم هذا البحث وإجازته من قِبَل اللجنة العلمية الدائمة لترقيات الأساتذة، وكنتُ أرجع إليه بين الفينة والفينة، ثم قررتُ إعادة كتابته مع التركيز على الجانب التأصيلي، والتمثيل لكل ما أذكر.

لكن لم أجد دراسة تأصيلية لهذا الموضوع باستثناء دراسة حديثة ظهرت عام ٢٠١٣م، لباحثة جزائرية، بعنوان «التذييل في القرآن - دراسة بلاغية - سورة البقرة نموذجًا»، نالت بها الباحثة فاطمة معزوز درجة الماجستير في الأدب، ولقد قرأتها فوجدت فرقًا كبيرًا بين دراستي وبينها من جهة التأصيل والتمثيل، ومن جهة المفاهيم والرؤى؛ فهي لم تضع تعريفًا محددًا لجمل التذييل القرآنية، وترى الباحثة أن جملة التذييل قد تقع في وسط الكلام، والذي اخترته أنها تقع في ختام الآية، وقامت بالمقارنة بين التذييل وأشياء أخرى ليست مناظرة له ولا ملتبسة به حتى تحتاج لمقارنة، كما أنها أطالت كثيرًا في قرابة ٥٠ صفحة في الكلام عن السياق بما يُعدّ عبئًا على البحث.





هذا بالإضافة إلى ما كُتب في الفاصلة من الناحية البلاغية، وأهمّ الدراسات العلمية دراسة الفاصلة للأديب محمد الحسناوي، وباستثناء ذلك فالدراسات أخذت منحى التطبيق دون التأصيل، فعنيت دراستي بالتأصيل مع التمثيل، مع استفادتي بجهود السابقين.

خُطَّة البحث

- **أما عن خُطَّتي في هذا البحثِ، فهي على النحوِ الآتي:**

* **قمتُ بتقسيم البحثِ إلى: مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمةٍ.**
* **المقدمةُ**: والحديثُ فيها عن أهميةِ الموضوعِ، وخطةِ البحثِ، ومنهجِهِ.
* **تمهيد**: معنى التذييل، وأهمية دراسته. ويحتوي على مبحثين:
* **المبحث الأول: تعريف التَّذييل في اللغة والاصطلاح، والفرق بينه وبين الفاصلة.**
* **المبحث الثاني: أَهَمِّيَّةُ دراسةِ التذييل في القرآن**، وقد اشتمل على ما يأتي:
  - أولًا: الاستعانةُ بهذا العلمِ على فهمِ كتابِ اللهِ.
  - ثانيًا: إبرازُ جانبٍ مُهمٍ من جوانبِ الإِعجازِ القرآني.
  - ثالثًا: بيانُ مُشكلِ التذييلِ.
  - رابعًا: ردُّ شُبُهَاتِ المستشرقين وأعداءِ الدين حول الوَحدة القرآنية، وترتيب القرآن.
  - خامسًا: الاستعانةُ بهذا العِلْم في تثبيتِ حفظ القرآن.
* **الفصل الأول: فوائد التذييل وأصولُ الوقوفِ على لطائفهِ، وفيه مبحثان:**



❊ **المبحث الأول: فوائد التذييل**: وقد اشتمل على ما يأتي:

- أولًا: التبيين.
- ثانيًا: تقرير المعاني.
- ثالثًا: جمال العبارة.
- رابعًا: إثراءُ المَعْنَى.
- خامسًا: حُسْن التعليل.
- سادسًا: حُسْن الخِتام.
- سابعًا: الاحتراس.
- ثامنًا: التنوع والتفنُّن.
- تاسعًا: التعميم.

❊ **المبحث الثاني: أصولُ الوقوفِ على لطائفهِ**، وقد اشتمل على:

- أولًا: مراعاةُ مقاصدِ القرآنِ الكريم.
- ثانيًا: الدرايةُ باللغةِ العربيةِ وأساليبِها وفنونِها.
- ثالثًا: مراعاةُ قواعدِ التفسيرِ وأُصُولِهِ.
- رابعًا: النظرةُ الكليةُ للسورةِ.
- خامسًا: النظرُ في السياقِ.
- سادسًا: التذَوُّق وصفاءُ الذهنِ ومعايشةُ القُرْآنِ.

❊ **الفصل الثاني: فنون التذييل وسماته. وفيه مبحثان:**



* **المبحث الأول: من فنون التذييل في القرآن.** وقد اشتمل على:

- أولًا: التتميم.
- ثانيًا: التصدير.
- ثالثًا: التوشيح.
- رابعًا: التمكين.
- خامسًا: الإيغال.

* **المبحث الثاني: من سمات التذييل:**

- أولًا: مراعاة الفاصلة.
- ثانيًا: التناسب.
- ثالثًا: التعميم.
- رابعًا: الوضوح والبيان.
- خامسًا: التكرار.
- سادسًا: العمق والدقة.
- سابعًا: التنوع والتفنن.

* **ثم الخاتمة وقد ضمَّنْتُهَا:**

- خلاصةَ البحث ونتائجَه.
- أهمَّ التوصيات.
- ثبتًا بمراجعِ البحث.
- فهرسَ الموضوعات.

منهج البحث

يجمعُ هذا البحثُ بين المنهج التحليلي والمنهج الاستنباطي، حيثُ التأمُّلُ والتدبُّرُ والاستنتاجُ والاستخلاصُ، والاستنباطُ، إضافةً لما يأتي:

١) **القيام بدراسة تذييلات القرآن دراسة تدبرية؛** للوقوف على خواصّها ولطائفها.

٢) **الاطِّلاع على ما كُتِبَ عن فن التذييل،** وكذلك الفاصلة قديمًا وحديثًا.

٣) **رجعتُ إلى ما تيسَّر لي الرجوعُ إليه من كتب التفسير وعلوم القرآن،** حتى تكوَّنتِ الفكرةُ واتضحت الرؤيةُ، فبدأتُ بالدراسةِ النظريةِ؛ حتى تكونَ عونًا وضياءً على فهمِ معاني التذييل واستخراجِ لَطَائِفِهِ ودُرَرِهِ.

٤) **الجمع بين التأصيل والتمثيل؛** لإبراز روائع أسلوب التذييل وجلال مقاصده.

٥) **الآيات القرآنية منسوخةٌ برسم المصحف العثماني،** مع بيان اسم السورة ورقم الآية.

٦) **ضبطُ الأحاديث والآثارِ مع تخريجِهَا،** وبيان حكمها، وتوضيح غَرِيبِهَا.

٧) **ضبطُ الأشعار وعزوُها إلى من قالها،** مع بيانِ مَوْضِعِ الشاهِدِ منها إذا احتَاجَ إِلى بيانٍ.

وبعدُ:

فهذا جهدُ المُقِلّ، فإن كان فيه من خيرٍ، فلله الحمدُ وله الفضلُ، وأسألُهُ تعالى القَبُولَ، فهو خيرُ مأمولٍ، وإن كان فيه من تقصيرٍ، فأرجُو من القارئ الكريمِ أن ينظر لي بعينِ الوُدّ، ويدعو لي بالمغفرة والرحمة.

وصلِّ اللهم على معلِّم الناسِ الخيرَ والحكمة، نبيِّنا وإمامِنا وقدوتِنا محمدٍ ناصح الأمة، ومن كشف الله به الغُمّة، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والهمّة، ومن تبعهم بصدق وعزمة، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.





تمهيد

معنى التذييل وأهمية دراسته

المبحث الأول

تعريف التَّذييل في اللغة والاصطلاح، والفرق بينه وبين الفاصلة

أولًا: التَّذييلُ في اللغة:

أصلُه من الذَّيْلِ وهو: آخِرُ كُلِّ شَيْءٍ، ومنه طرفُ الثوبِ، ورِدَاءٌ مُذَيَّلٌ: طَوِيلُ الذَّيْل، وذَيْلُ المَرْأَةِ: طرف ردائها، وذالَتِ المرأة تَذيلُ: جرَّت ذيلَها على الأرضِ وتبخترتْ، وقد ذَيَّلَ ثَوْبَهُ تَذْيِيلًا، ومنه قول طَرَفَةَ بنِ العَبدِ:

فَذالَتْ كما ذالَتْ وَليدَةُ مجلسٍ ... تُري رَبَّها أَذْيالَ سَحْلٍ[1] مُمَدَّدِ[2]

وفي الحديث «عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَمْ تَجُرُّ الْمَرْأَةُ مِنْ ذَيْلِهَا؟ قَالَ (شِبْرًا)، قُلْتُ إِذًا يَنْكَشِفُ عَنْهَا! قَالَ: (ذِرَاعٌ لَا تَزِيدُ عَلَيْهِ)»[3].

(١) ذالت: ماست، وتبخترت الناقة في مشيتها كما تتبختر وليدة، أي صبيَة عُرِضَت على أهل مجلس، فأرخت ثوبها، واهتزت بأعطافها، أو تراقصت حتى دار ذيل ثوبها، والسحل: الثوبُ الأبيضُ النقيُّ والممدد الذي ينجر في الأرض. يراجع شرح القصائد العشر، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي (ص: ٧٧).

(٢) يراجع: لسان العرب لابن منظور ١١/ ٢٦٠، ومختار الصحاح للرازي ١/ ٢٢٦، والمصباح المنير للفيومي ١/ ٢١٣، وتاج العروس للزبيدي ٧/ ٣٢١ مادة ذ ي ل.

(٣) رواه النسائيُّ في السنن كتاب الزينة - باب ذيول النساء حديث ٥٣٣٧، ورواه ابنُ ماجه في السنن كِتَاب اللِّبَاسِ بَاب ذَيْلِ الْمَرْأَةِ كَمْ يَكُونُ؟ حديث ٣٥٨٠، ورواه أحمد في المسند ٦/ ٢٩٥ و٣٠٩، ورواه البيهقي في السنن ٢/ ٢٣٣ عن محمد بن إسحاق عن نافع عن صفية بنت أبي عبيد عن أم سلمة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا إسناد رجاله ثقات لولا عنعنة ابن إسحاق لكنه توبع، فرواه مالك في الموطأ=

ثانيًا: التذييل في الاصطلاح:

جاء في سرِّ الصناعتين: «التذييل: إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكَّدُ عند من فهمه»[١]، وهذا تعريفٌ ليس جامعًا مانعًا؛ إذ تشمل الإعادة على إطلاقها، دون تقيد بختام الجملة، كما أنه أدرج في التعريف مقصود التذييل.

وفي سرِّ الفصاحة: «وأما التذييلُ: فهو العبارةُ عن المعنَى بألفاظٍ تزيدُ عليه»[٢]. وليس هذا التعريف بالجامع المانع.

وجاء في كتاب البديع في نقد الشعر: «اعلم أن التذييل: هو أن تأتي في الكلام جملةٌ تحققُ ما قبلها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وكذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] وهو كثير في القرآن»[٣]. ولم يبين أسامة بن منقذ في تعريفه موقع جملة التذييل.

وفي الإيضاح: «التذييلُ: تعقيبُ الجملةِ بجملةٍ تشتملُ على معناها للتوكيدِ»[٤].

ولم يُشر القزويني إلى موقع جملة التذييل التي تأتي في ختام الكلام، كذلك لم يبين مقاصد التذييل الأخرى كالتبيين، ودفع الإيهام، والتعميم.

= ٣/ ١٠٥: عن أبي بكر بن نافع عن أبيه نافع مولى ابن عمر به، ومن طريق مالك أخرجه أبو داود في السنن، كِتَاب اللِّبَاسِ بَاب فِي قَدْرِ الذَّيْلِ ٢/ ١٨٤ حديث ٣٥٩٠، وابن حبان في صحيحه حديث ١٤٥١، وأبو بكر بن نافع ثقة من رجال مسلم؛ فالإسناد صحيح على شرطه.

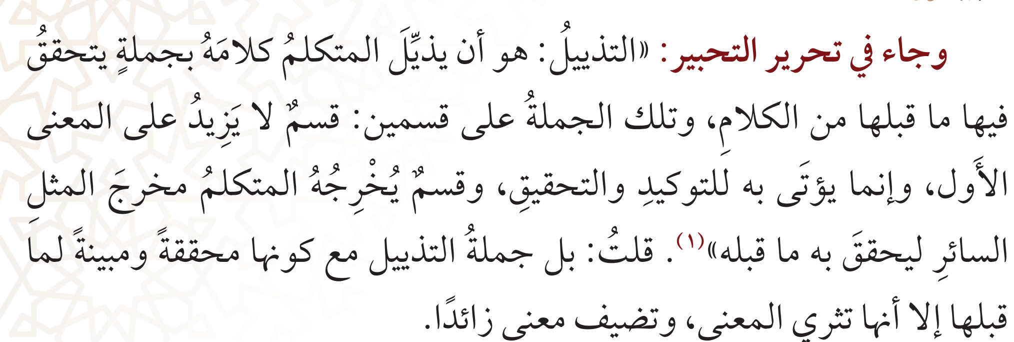
(١) كتاب «الصناعتين» لأبي هلال العسكري، الفصل الرابع عشر في التذييل ص ٢٨٥.

(٢) سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي ص ١٦٤: ١٦٧، ويراجع تلخيص المفتاح للقزويني ص ٢١١.

(٣) البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ، باب التذييل ص ٥٣ باختصار.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين القزويني باب الإطناب ص ١٩٠، ويراجع: علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ص ١٧٧.





وجاء في تحرير التحبير: «التذييلُ: هو أن يذيِّلَ المتكلمُ كلامَهُ بجملةٍ يتحققُ فيها ما قبلها من الكلامِ، وتلك الجملةُ على قسمين: قسمٌ لا يَزِيدُ على المعنى الأَول، وإنما يؤتَى به للتوكيدِ والتحقيقِ، وقسمٌ يُخْرِجُهُ المتكلمُ مخرجَ المثلِ السائرِ ليحققَ به ما قبله»[1]. قلتُ: بل جملةُ التذييل مع كونها محققةً ومبينةً لما قبلها إلا أنها تثري المعنى، وتضيف معنى زائدًا.

■ **ويلاحَظُ على هذه التعريفات:**

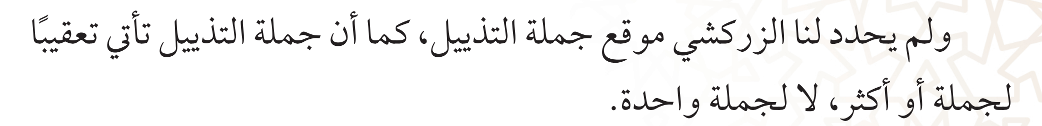
* **أنها تَشْمَلُ التذييلاتِ الواردةَ في القرآنِ،** وكذلك ما وردَ في كلامِ العربِ من نثرٍ وشعرٍ.
* **الغرضُ من التذييل:** تحقيقُ المعاني وتوكيدُها وتقريرُها، فضلًا عن الإيضاحِ والتبيينِ.
* **أن التذييلَ عند علماءِ البلاغةِ** قد يقعُ في وَسَطِ الكلامِ، أو في آخِرِهِ.
* **التوافُقُ والانسجامُ** بين معنى جملةِ التذييلِ والكلامِ المُذيَّلِ.
* **جملة التذييل القرآنية مستقلة بلفظها ومعناها غالبًا،** فتسير مثلًا سائرًا يحسن اقتباسه.

ولا يختلفُ كثيرًا تعريفُ التذييلِ عند علماءِ التفسيرِ وعلومِ القرآنِ عن تعريف البلاغيين؛ ففي البرهان والإتقان: التذييل: «أن يأتيَ بجملةٍ عقب جملة، والثانية تشتمل على المعنى الأول؛ لتأكيد منطوقه أو مفهومه؛ ليظهر المعنى لمن

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الأصبع باب التذييل ص ٣٨٧، ويراجع في ذلك: خزانة الأدب وغاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي ١/ ٢٤٢، ومعجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة ص ٢٣٤، والمعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني د. إنعام نوال عكاوي ص٣٠٠، وجاء في التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: «التذييلُ: تعقيبُ جملةٍ بجملةٍ مشتملةٍ على معنَاهَا للتأكيدِ» التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي ١/ ١٦٨.

لم يفهمه ويتقرر عند من فهمه»[(١)].



ولم يحدد لنا الزركشي موقع جملة التذييل، كما أن جملة التذييل تأتي تعقيبًا لجملة أو أكثر، لا لجملة واحدة.

والذي أراه أنَّ جملةَ التذييلِ: جملةٌ مستقلة تأتي في ختامِ الآي بعدَ تَمَامِ المعنى لبيانه وتقريرِه.

جملة مستقلة لفظًا ليس لها تعلقٌ لغويٌّ بما قبلها، بل هي مستأنفة غالبًا، وقد تأتي مقرونة بحرف العطف.

تأتي في ختام الآي: فالتذييل هو في خواتيم الآيات ولا يكون في وسطها، لبيان المعنى وتوضيحه أو دفع إيهام، ولتقريره: لتوكيده وتحقيقه.

والتذييل قد يقع ختامًا لآية، أو لآيتين، أو أكثر.

فخرج بذلك: الجملة المتصلة بما قبلها لفظًا: كالواقعة في جواب الشرط، أو خبر المبتدأ وغيرها، فليست تذييلا؛ إذ لا يمكن فصلها عمَّا قبلها فلا تستقل بمعنى، لذا فلن نتوقف في دراستنا التطبيقية عند الآيات التي لم تختم بتذييل: أي بجملة مستقلة محققة لما قبلها من المعنى.

ثالثًا: الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

الصلةُ بينهما واضحةٌ جليَّةٌ؛ فذيلُ الشيءِ هُو نهايتُه، وذيلُ الثوبِ طرفُهُ، وذيلُ الكلامِ آخرُهُ ومُنتَهَاهُ، والتذييلُ هو الجملةُ التي تردُ بعد تمام المعنى؛ للبيان أو التقرير أو لكليهما معا، فكأنَّه شبَّه هذه الجملةَ لزيادتِها، وكونِ المعنى يتمُّ بدونها

(١) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ هـ) - النوع الخامس عشر ٣/ ٦٨، والإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) - ١/ ٣١٤.

بالزائد من ذيلِ المرأةِ الذي ينجرُّ على الأرضِ، فَيَزِيدُ الثوبَ حُسنًا وتأنُّقًا، وقد جَرَت الأذواقُ على ضرورةِ التناسقِ بين الثوبِ وذيلِه، من جهةِ الألوانِ والنقوشِ والخيوطِ وغيرِها، مع مراعاةِ التنوعِ والتفننِ والتناسب في الشكل، شأنُ التذييل الذي لا بدَّ وأن يتناسبَ مع سابقِه، ويدلَّ عليه ويقرِّره ويزيدَه روعةً وحُسنًا، والتذييلُ يكونُ في النثر والشعرِ، وهو لونٌ من ألوانِ البلاغةِ وفنٌّ من فنونها، وهو من روائعِ أساليبِ القرآنِ وبدائعِ نظمِه.

رابعًا: الفاصلة في اللغة والاصطلاح:

١- الفاصلة في اللغة:

من الفصل والبيان، قال الأزهري: «وأواخِرُ الآياتِ في كِتَابِ اللهِ فَوَاصِلُ، بِمَنْزِلَةِ قَوَافِي الشِّعر، واحِدَتُها فاصلةٌ...»[١].

وقال ابن منظور: «الفواصلُ أواخرُ الآياتِ في كتابِ الله»[٢]، «وسُمِّيتْ فواصلُ؛ لأنه ينفصلُ عندها الكلامانِ، حيث إن آخرَ الآيةِ فَصْلٌ بينها وبينَ ما بَعْدَها»[٣].

٢- الفاصلة في الاصطلاح:

جاء في البرهان للزركشي: «الفاصلةُ كلمةُ آخرِ الآيةِ كقافيةِ الشعرِ وقرينةِ السجعِ»[٤].

وعرَّفها الرُّماني والباقِلاني بأنها: «حروفٌ متشاكلةٌ في المقاطع، يقعُ بها إفهامُ المعاني»[٥].

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري: أبي منصور الأزهري ١٢/ ١١٨ باب الصاد واللام مادة «ف ص ل» باختصار.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١١/ ١٨٩، ويراجع كتاب التوقيف على مهمات التعاريف، للإمام المناوي ص ٥٥٨.

(٣) الفاصلة القرآنية، للدكتور عبد الفتاح لاشين ص ٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٥٣ النوع الثالث: معرفة الفواصل ورؤوس الآي، ويراجع: الإتقان في علوم القرآن، النوع التاسع والخمسون: في فواصل الآي ٢/ ٩٦.

(٥) النكت في إعجاز القرآن، للرماني ص٩٧، وإعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني ص ٢٧٠، ويراجع: مرشد الخلان، عبد الرازق على إبراهيم موسى ص ٣٤.





وقيل في تعريفها: «هي الكلمةُ التي تُخْتَمُ بها الآيةُ، وبها يتمُّ معناها، ويزدادُ وُضُوحًا وجلاءً»[(١)]، وعلى هذا فليس كلُّ خِتَامِ آيةٍ فاصلةً؛ لأن الآيةَ قد تُختمُ قبل تمامِ المعنَى.

وعرَّفها أبو عمرو الداني بأنها «كلمةُ آخِرِ الجملة» قال: «وأما الفاصلة: فهي الكلام التام المنفصل عما بعده، والكلام التام قد يكون رأسَ آية وكذلك الفواصل، يكنَّ رؤوسَ آيٍ وغيرها، فكل رأس آيةٍ فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعُمّ النوعين وتجمع الضربين»[(٢)].

وعرَّفها د. أحمد بدوي: بأنها الكلمة التي تُخْتَمُ بها الآية من القرآن[(٣)].

واختار الأديب محمد الحسناوي في كتابه «الفاصلة في القرآن»، أن الفاصلة: «هي كلمة آخر الآية: كقافية الشعر، وسجعة النثر»[(٤)].

وفرَّق د. السيد خضر بين تعريف الفاصلة من جهة الصوت، ومن جهة الدلالة، أما بالاعتبارِ الصوتي فهي آخِرُ كلمةٍ في الآيةِ، وأما باعتبارِ الدلالةِ فيقول: «وباعتبار الدلالة نجد جملة الفاصلة، وفيها تكون كلمة الفاصلة جزءًا من تركيب جملة مستقلَّة في نهاية الآية، وهي جمل تأتي للتعقيب أو لتقرير مضمون الآية غالبا»[(٥)].

قلتُ: وليس كل فاصلة قرآنية جزءًا من تذييل؛ إذ كل آية لها فاصلة، وإن لم تختم بتذييل.

(١) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم نذير حمدان ص ٤١.

(٢) البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو الداني ص ١٢٦.

(٣) من بلاغة القرآن، أحمد بدوي ص ٧٥.

(٤) الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي ص ٢٩.

(٥) الفواصل القرآنية دراسة بلاغية، للدكتور السيد خضر ص ٥٧.



خامسًا: بين التذييل والفاصلة:

* الفواصل تقع في الشعر والسجع وغيرهما من فنون الكلام كما تقع في كتاب الله تعالى.
* الفاصلةُ هي المقطع الأخير من الكلمة الأخيرة في الآية، تمَّ بها المعنى أم لم يتمَّ.
* التذييلِ تقريرٌ للمعنى وبيانٌ له.
* التذييل لا يقعُ إلا بجملةٍ، أما الفاصلة فالمقطع الأخير من آخر الآية.
* لكُلّ نهايةِ آيةٍ فاصلةٌ، وليس لكلّ آيةٍ تذييلٌ.
* الفاصلة للآية كالقافية للبيت، بها يعرف ختامُها، ويُراعَى في الفواصلِ غالبا التوافق اللفظي والانسجام الصوتي، مع السياق.
* معرفة الفواصل أمرٌ يسيرٌ، بينما الوقوف على التذييل يحتاج لدراسة وتدقيق.
* درج بعض المفسرين والبلغاء على الاكتفاء بمراعاة الفواصل كتعليل، وربما يغلق بذلك الباب عن النكات البلاغية واللطائف والدقائق المعنوية التي تُحجبُ عن القارئ، فلا يرى سوى مراعاة الفاصلة، أو رعاية الفواصل.



المبحث الثاني



أَهمِّيَّةُ دراسةِ التذييل في القرآن



تذييلُ الآياتِ القرآنية:

سمةٌ فريدةٌ من سمات القرآن الكريم، تدلُّ على بلاغَتِه وروعتِه، وجمالِه وجلالِه، وتُعينُ على فهمِ المعنى، واستنباطِ الأحكام، من هنا مسَّت الحاجةُ إلى الوقوفِ عند تذييلاتِ الآياتِ، وإطالةِ النَّظرِ فيها، وإبرازِ معانِيها، وبيانِ تناسبِها وتآخيها.

وفيما يلي أتناولُ أهميةَ التذييل، بشيء من التفصيلِ، فأقولُ - وعلى الله قصدُ السبيلِ -:

أولًا: الاستعانةُ بهذا العلمِ على فهمِ كتابِ الله:

أَمَرَنَا الله بتدَبُّرِ كتابِهِ وإمعانِ النظرِ في مبانِيهِ ومعايشةِ معانيه وتذوُّقِ أساليبِهِ وتتبُّعِ تراكيبِهِ؛ لاستنباطِ الأحكامِ، واستجلاءِ المعاني، وإن دراسةَ أساليبِ التذييل: مما يُعينُ على فهمِ معنى محكمِ التنزيلِ، ويَبينُ عن كثيرٍ من اللطائفِ والدقائقِ.

قال الرماني: «الفواصل: حروفٌ متشاكلةٌ في المقاطعِ، توجبُ حُسْنَ إفهامِ المعاني»[(١)].

تأمل في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ [النساء: ١٢٨، ١٢٩].

---

(١) إعجاز القرآن للرماني ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد زغلول سلام ص ٩٧.



* لماذا خُتمت الآية الأولى بـ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ وخُتمت الثانية بـ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾؟

فالآية الأولى: إذا خافت الزوجةُ إعراضَ زوجها وانصرافَه عنها، فلها أن تتغاضَى عن بعضِ حقوقِها في النفقة أو في المبيتِ إرضاءً لزوجها، فإذا اتفقَا على ذلك فلا بأسَ، إبقاءً للعشرة بينهما، فالصلحُ خيرٌ، وإن ترتَّب عليه التَّغاضي عن بعض الحقوق؛ ذلك أن النَّفْس قد جُبِلَتْ على الشُّح، يحرص الإنسان على نيل حقوقه كاملة، وربما قصَّر في حقوق غيره، لكن إذا وفَّى الإنسانُ حقَّ غيره وتنازل عن بعض حقوقه، فهذا من باب السماحة، ومن شيم أهل التقى والإحسان، لذا كان تذييلُ الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾: أي وإن تُحسنوا في صلتكم بربكم بمراقبته تعالى، وتُحسنوا في تعاملاتكم مع الناس، ﴿وَتَتَّقُواْ تَعۡمَلُونَ﴾ من الإحسان والتقوى وسائر الأعمال، ﴿خَبِيرٗا﴾: بطبائع النفوس وبواعثها، ﴿خَبِيرٗا﴾ ببواطن الأمور وظواهرها، ﴿خَبِيرٗا﴾ بأعمالكم يجازيكم عليها، «فالإحسانُ والتقوى هما مناطُ الأمر في النهاية، ولن يضيعَ منهما شيءٌ على صاحبه، فإن الله خبيرٌ بما تعملُه كل نفس؛ خبيرٌ ببواعِثِهِ وكوامِنِهِ. والهُتَافُ للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى، والنداءُ لها باسم الله الخبير بما تعمل، هُتافٌ مؤثر، ونداءٌ مُستجابٌ، بل هو وحدَه الهُتَافُ المؤثِّرُ والنداء المستجاب»[(١)]. «وإنْ تُحْسِنُوا بإمساكِهِنَّ بمعروفٍ وحُسْنِ المعاشرةِ، مع عدمِ موافقتِهن لطباعِكم، وَتَتَّقُوا ظلمَهُن بالنشوزِ والإعراضِ، فاللهُ تعالى يثيبُكم عليه»[(٢)].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٢٥٢.
(٢) حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ٢/ ٤٥٠. ويراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٤٠٧.



وفي الآية الثانية: دعوةُ الأزواج إلى الإصلاح والتقوى، بالعدل بين الزوجات والوفاء بحقوقهنَّ وحُسن معاشرتهنَّ، فمن فعَلَ ذلك غَفرَ اللهُ له ما سَلَفَ من إفراطٍ وتفريطٍ، وعفَا عما بَدَرَ منه من ميل قلبيٍّ لا سلطانَ له عليه. ولمَّا كان الميلُ المنهيُّ عنه ظلمًا، هو الميلُ الماديُّ في النفقةِ والمسكنِ والقسمةِ، وجاءت الدعوةُ إلى تحرِّي العدل والإنصاف، والسعيِّ للإصلاح بقدر المستطاع، نَاسَبَ ذلك البشارة بالمغفرة والرحمة على ما فات قبل نزول هذه الآيات، أو على ما ليس بوسعِ الإنسانِ طالما أنه اجتهدَ بقدرِ طاقتهِ إلى مراعاةِ حدِّ العدالةِ والإصلاحِ.

ثانيًا: إبراز جانبٍ مهمٍّ من جوانب الإعجاز القرآني:

فالبحثُ فيه يكشفُ عن تناسبٍ دقيقٍ وترابط عميق بين صدرِ الآية وما تضمَّنته من معانٍ، وبين ختامها حيث تقريرُ المعاني وتوكيدُها، والتذييل يَزيدُ المُذيَّل حُسنًا ورونقًا وروعةً، فبالتذييل تزداد المعاني جلاءً، وتزدانُ الألفاظُ والعبارات روعةً وسناءً، وتتجلَّى لطائفُ الصلات ودقائقُ المناسبات بين الآياتِ بما يكشفُ عن الوحدة الموضوعيةِ للقرآن، ويبرزُ جانبًا من جوانب إعجازه البلاغي.

ولقد ذكر الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من وجوه إعجاز القرآن الوجه الثالث: «..أنه بديعُ النظمِ عجيبُ التأليفِ، متناهٍ في البلاغةِ إلى الحدِّ الذي يُعْلَمُ عجزُ الخلْقِ عنه...»[(١)].

قال البوصيري:

لها مَعانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ في مَدَدٍ ... وفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الحُسْنِ والقِدَمِ

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٥ ويراجع ما ذكره في ص ٣٧. ويراجع: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٠٩ وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ص ٢٨٠، والأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٧/ ٣٦٠٢.

فما تُعَدُّ وَلا تُحصى عَجَائِبُها ... ولا تُسامُ عَلَى الإكثارِ بالسَّأَمِ

فالدُّرُّ يَزدادُ حُسْنًا وَهْوَ مَنْتَظِمُ ... وَليسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غيرَ مَنْتَظِمِ[1]

وقال د. محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه النبأ العظيم: «لعمري لئن كان للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءته الصادقة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، لعمري إنه في ترتيب آيِه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات»[2].

وقال الشيخ سعيد حوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن منزِّلَ هذا القرآنِ المحيطَ بكل شيء جعَلَ في كتابه من أسرار الإعجاز، ومن تشابك الصِّلات بين سُوَرِه وآياته ما به يعرف أن هذا لا يمكن أن يكون إلا إذا كان مُنزِّل هذا القرآن هو الله رب العالمين، الذي أحاط بكل شيء علمًا»[3].

۞ ثالثًا: بيان مُشْكَلِ التذييل:

فقد تخفى وجوه المناسبة بين ختام الآية والسياق، وهنا تأتي أهميةُ دراسةِ هذا العلمِ والتعمُّقِ فيه لإيضاحِ المشكلِ ودفعِ ما يوهِمُ ظاهِرُهُ التعارضَ.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ١١٨].

فهذا من المُشكِل، قال أبو حيان: «وظاهر قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

(١) البردة للبوصيري، شرح البردة، تأليف السوسي على كان حيا قبل ١١٦١ مخطوط ٨١١,٥ ش.س ٤٦٨٦ بجامعة الملك سعود لوحة ٢٧.

(٢) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٠٩.

(٣) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٧/ ٣٦٠٢. وينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ص ٢٨٠.



أنه جواب الشرط، والمعنى ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنع عليك ما تريده، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيما تفعله تُضِلّ من تشاء وتهدي من تشاء...»[1].

قلتُ: في جواب الشرط مناسبةٌ لطيفةٌ؛ فإنه لما ادَّعى النصارى أن الله تعالى أرسل عيسى ابن مريم - وهو في زعمهم الباطل واعتقادهم الفاسد - ابنه الوحيد، الذي أرسله ليكون فداء وكفارة لخطايا البشرية، وكأنه تعالى - على زعمهم - عَجَزَ عن مغفرتها بغير هذا الأسلوب الغريب العجيب، من هنا بيَّن سبحانه قدرتَهُ على المغفرة؛ حيث لا يمتنع عليه شيء، فإن شاء أن يُعذِّب وإن شاء أن يغفِر دون افتقارٍ إلى واسطةٍ أو وسيلةٍ تتنافى مع عزَّته تعالى وحكمته، والعقل السليم يمجُّ هذه العقيدةَ الملتويةَ التي تأباها الفطرة السويَّة، وما هي إلا مضاهاةٌ لبعضٍ من الأديان الوثنية القديمة، والتي تحمِلُ أسطورةَ الثالوث والصلب والفداء.

كذلك لمَّا جاء في صدر الآية على لسان المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ ناسبَ ذلك مقام العزَّة والحكمة، فهو تعالى العزيز الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، وهو الحكيم في أقداره وأحكامه ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، وقيل: المعنى إن تُبقِهم على كُفرِهم حتى يموتوا، وتُعذِّبهم فإنهم عبادك، وإن تهدهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده، الحكيم فيما تفعله، تضلُّ من تشاء وتهدي من تشاء.

رابعًا: ردُّ شبهات المستشرقين وأعداء الدين حول الوحدة القرآنية:

في دراسة هذا الموضوع ردٌّ علميٌّ على أعداء الإسلام من الطاعنين في وحدة القرآن الكريم عمومًا، وتناسب التذييل في القرآنِ على وجهِ الخُصُوصِ، حيث

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٦٢، ويراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣٤٨.




أثاروا الشُّبَهَ حول ترتيبِ القرآنِ، وزَعَمُوا أن آياتِ القُرْآنِ لا يجمعُهَا سياقٌ، وأوصوا بإعادةِ ترتيبِ القرآنِ.

ففي دائرة المعارف البريطانية: أن القرآن لا حكمة في ترتيبه، واستدلوا على هذه الدعوى بالفواصل والتذييلات القرآنية، حيث جاء فيها: «وكان القرآن يعطي للقارئ أنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية، ويؤكِّد صحَّة ذلك طريقة ختم هذه الآيات، بآيات مثل: (إن الله عليم)، (إن الله حكيم)، (إن الله يعلم ما لا تعلمون)، وأن هذه الأخيرة لا علاقة لها مع ما قبلها، وأنها وضعت فقط لتتميم السجع والقافية»[(١)].

ويقول المستشرق الفرنسي بلاشير[(٢)]: «إن إعادة ترتيب السور الذي اقترحه [نولدكه][(٣)] ينال هنا كامل الأهمية؛ لأنه يلقي على المصحف أضواء مطمئنة، ويرد وضع النصوص إلى آفاق سهلة الإدراك لكونها مقرونة إلى السياق التاريخي المعقول (يعني وفق نزولها).

ويقول بلاشير أيضا: «ويتوصل القارئ الغربي إذ ذاك بمنطق لا تكلُّف فيه إلى الاقتناع بأن الحياة قد أعيدت للصحف فما عاد يظهر على شكل متتابع مُصطَنع وغير منتظم للنصوص، بل على شكل سلسلة من الموضوعات عالجها محمد خلال عشرين عامًا وفقا لمقتضيات دعوته».

---

(١) يراجع قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، للدكتور فضل حسن عباس ص ٧٩ – ٩٣.

(٢) مستشرق فرنسي من أشهر كتبه تاريخ الأدب العربي وكتابه القرآن: نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره – تراجع ترجمته في كتاب المستشرقون للأستاذ/ نجيب العقيقي (١/ ٣٠٩: ٣١٢).

(٣) مستشرق ألماني ت١٩٣٠م له مؤلفات عديدة منها تاريخ النص القرآني – تراجع ترجمته في كتاب المستشرقون للأستاذ/ نجيب العقيقي (٢/ ٣٧٩: ٣٨٣).

ثم يقول في الموضوع نفسه: «والمهم منذ تلك اللحظة أن يقبَل قارئُ القرآن بالانقياد، وتدلُّ التجربة فيما يبدو أن التقيد بالمراحل الزمنية للترتيب الذي اقترحه نولدكه وأخذ به بعض المترجمين يجعل قراءة المصحف سهلة بل ممتعة»[١].

وما ذهب إليه بلاشير ومن قبله نولدكه أغرب إليه المستشرق اليهودي جولدزيهر في كتابه مذاهب التفسير الإسلامي، حيث يقول: «إن القرآن في جميع الشوط القديم للتاريخ الإسلامي لم يحرز الميل إلى التوحيد العقدي للنص إلا انتصارات طفيفة»[٢].

وأقول: إن التذييلات والفواصل القرآنية مبنيَّةٌ أولًا على مراعاةِ المعنَى، وثانيًا على اعتبار تناسب اللفظِ والنَّظم، وإن كان مراعاةُ اللفظِ والنظمِ ليس مطَّردًا، **ومرجعُ ذلك إلى أُمُورٍ منها:**

- أن المعنَى هو الأَصلُ، واللفظُ والنظمُ تابعٌ له.
- التفنُّنُ والتنوُّعُ في الأساليبِ القرآنيةِ، وهذا من سماتِ القرآن التي تفرَّد بها عن غيره؛ ذلك أنه ليس بسجعٍ ولَا شعرٍ، كما أنه ليس كالكلام المرسل، معاذ الله أن يشتبهَ كلامُه تعالى بكلام غيره.
- الأسلوبُ القرآني سهلٌ يسيرٌ لا تكلُّف فيه، بل يتسم بالرصانة والعمق، مع عذوبته وحلاوته.

خامسًا: الاستعانةُ بهذا العلم في تثبيت حفظ القرآن الكريم:

من فوائد دراسة التذييل أيضًا تثبيت حفظ القرآن الكريم، حيث يقع اللبسُ

---

(١) القرآن: نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، لبلاشير، ترجمة رضا سعادة ص٢٣: ٤٤.

(٢) الإطناب.




أحيانًا في ختامِ الآيةِ، فيعينُ هذا العلمُ على تجنُّبِ ذلك، ولقد عُني العلماءُ والباحثون بالتأليفِ في الآياتِ المشتبهاتِ، جمعًا وتحليلًا [1].

❊ ❊ ❊

(١) ومن الكتب المؤلفة في ذلك: درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠هـ)، ط دار الآفاق الجديدة بيروت، والبرهان في متشابه القرآن، للكرماني محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت٥٠٠ هـ)، ط دار صادر بيروت، ودار الاعتصام بالقاهرة، وملاك التأويل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، للإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ) ط دار الغرب الإسلامي بيروت، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لبدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣هـ)، ط جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي، ودار الوفاء بالمنصورة.



الفصل الأول

فوائد التذييل وأصولُ الوقوفِ على لطائفه

المبحث الأول

فوائد التذييل

للتذييلِ فوائدُ عديدةٌ، فهو لونٌ من ألوان الإطنابِ[1] به تآلُفُ الجُمَلِ وتألُّقُها، وتعانقُ العبارات وتأنُّقُها، وانجلاءُ المعاني وتدفُّقُها، وهو من المحسِّناتِ البلاغيةِ؛ حيثُ حُسْنُ الختامِ، وبَرَاعَةُ المقطعِ، وتَعَانُقُ الأطرافِ، وَعُمْقُ الصِّلَةِ، ومن الفوائدِ الجمَّة:

أولًا: التبيين:

فالتذييلُ إيضاحٌ وتبيين، به انجلاءُ المعانِي، وتبيانُ الحِكَم، فالقرآنُ الكريمُ كتابٌ مبينٌ، آياتُهُ بيناتٌ وحُجَجُهُ ساطعاتٌ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٣٤﴾ [النور: ٣٤]، بل إن الهدف الأساسي للتذييل هو البيان، ومن المعلوم أن القرآن يُبيِّن بعضه بعضًا.

تأمل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ١٠٠ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

جملة التذييل: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: وهي بيانٌ للمخرجِ من هذه الفتنِ، والعصمةِ من تلك المكائدِ، فمن يلوذ بجنابه ويُديمُ طرقَ

(١) مذاهب التفسير الإسلامي لجولدزيهر ص ٥ ترجمة د عبد الحليم النجار.



أبوابه ويستمسكُ بكتابه، ينجِّيه من طُرُقِ أهلِ الزيغِ والضلالِ، ويهديه إلى صراطِهِ المستقيمِ.

قال القاسمي: «أي: من يتمسك بدينه الحق الذي بيّنه بآياته على لسان رسوله، وهو الإسلام، والتوحيد، المعبر عنه بسبيل الله، فهو على هدى لا يضل متبعه.

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون حثًّا لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم – انتهى – فالجملة حينئذ تذييل لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾... إلخ؛ لأن مضمونه أنكم إن تطيعوهم لخوف شرورهم ومكايدهم، فلا تخافوهم والتجؤوا إلى الله في دفع ذلك؛ لأن من التجأ إليه كفاه»[1].

وتأمَّل التَّذْييل في قولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، فلماذا أتى بصفة القدرة؟

قال أبو حيَّان: «وأتى بصيغةِ المبالغَةِ في القدرةِ؛ لأنه تعالى لا يمتنعُ عليه شيءٌ أرادَهُ، وهذا تخويفٌ، وبيانٌ لاقتدارِهِ»[2].

ثانيًا: تقريرُ المعاني:

يأتي التذييلُ مقررًا لما سبقه من معانٍ، ومؤكدًا لها، وهذه سمةٌ من سمات البيان القرآني، حيث تتآلفُ المعاني ويعضِّد بعضُها بعضًا. تأمل في ختام الآية التي تدعو للتوبة دائما بالمغفرة والرحمة المؤكدة بأساليب التوكيد؛ لفتح باب الطمع والرجاء واليقين في مغفرة الله والبشارة برحمته، فالمخطئ في أمسِّ الحاجة لهذا التأكيد، ليُقبِل على التوبة ويطمئن قلبه، فما من ذنب في القرآن مهما عَظُم ومهما

(١) محاسن التأويل للقاسمي ص ٩١٢، ويراجع الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٢٢).
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٣٨٣.



قبح، وما من تقصير أو تفريط، إلا وقد أعقبه القرآن بالدعوة للتوبة، وما من دعوة للتوبة إلا واقترنت وذيلت ببيان وتقرير مغفرة الله ورحمته، تأمل قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، وأفاد التعبيرُ بـ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: الدوامَ والاستمرارَ، أي كان ولا يَزَالُ[1].

والجمعُ بين هذينِ الاسمينِ الجليلينِ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يشيرُ إلى الكرمِ الغامِرِ، والفضلِ العميمِ، فهو تعالى مع تجاوزِهِ عن الزلاتِ، وإقالتِهِ العثراتِ، وعفوِهِ عن السيئاتِ، رحيمٌ بعبادِهِ، مُتفضِّلٌ عليهم يغمرُهم بلطفِهِ، ويشملُهُم بكرمِهِ وإِحْسَانِهِ، وفي ذلك تقويةٌ لداعِي الرجاءِ في حُصُولِ المغفرةِ، وشحذٌ للهِمَمِ. وتقديمُ المغفرةِ على الرحمةِ لأنَّه بالمغفرةِ تُستدركُ الرحمة، فهي سبيلُها ومُقدِّمتُها، بالمغفرة غفَرَ لهم ما بَدَرَ من إفراطٍ أو تفريطٍ، وبالرحمةِ بلَّغَهُمْ أعْلَى المراتبِ وَمَنَحَهُم الأجرَ قبلَ تَمَامِ الأعمال، وبالمغفرةِ نجَّاهُم من النيرانِ، وبالرحمةِ أدخلهم الجِنان.

---

(١) قال الإمام السيوطي: «كان فعل ناقص... معناه في الأصل المضي والانقطاع نحو ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ [التوبة: ٦٩]، وتأتي بمعنى الدوام والاستمرار نحو ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء ١٠٠]، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] أي لم نزل كذلك، وعلى هذا المعنى تتخرجُ جميعُ الصفات الذاتية المقترنة بكان». الإتقان ١/ ١٩٢، وقريب من ذلك ما ذكره الإمام الراغب الأصفهاني: في المفردات ٢/ ٣٢٦.



وفي إيثار صيغة المبالغة ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [صيغة فعول وفعيل] تأكيدٌ وبيانٌ لشمولِ مغفرتِه تعالى وسَعةِ رحمته، وفي ذلك ترجيةٌ لهم.

ومن تقرير المعنى أيضا: التذييل بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

جملة التذييل: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: تنويهٌ بمقامِ إبراهيمَ وحثٌّ على اتِّباعِ ملَّتِهِ، فقد اصطفى اللهُ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واتخذه خليلًا.

قال الزمخشري: «وفائدتُها استطرادٌ لتأكيد وجوب اتِّباع ملَّته؛ لأنَّ مَنْ بَلَغَ مِن الزُّلْفَى عند اللهِ أن اتَّخَذَه خَلِيلًا، كان جديرًا بأن يُتَّبع»[(١)].

ومن تقريرها ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠] من تذييل. فتأمل كيف ناسب هنا ذكر السعة، تقريرا لما تقدَّم من توسِعَتِهِ.

قال الرازي: «... فهو تعالى واسعُ الرزق، واسعُ الفضل، واسعُ الرحمة، واسعُ القدرة، واسعُ العلم، فلو ذَكَرَ تعالى أنه واسعٌ في كذا لاختصَّ ذلك بذلك المذكور، ولكنه لما ذكر الواسعَ وما أضافه إلى شيء معينٍ، دلَّ على أنه واسعٌ في جميعِ الكمالاتِ»[(٢)]. وناسب ذكر وصف الحكمة، لبيان أنه تعالى حكيم في سعته وفضله على عباده، حكيم في أحكامه وأقداره.

ولتقرير الأحكام: تُذَيَّلُ الأوامرُ بما يُرَغِّبُ فيها ويُحَبِّبُهَا للنفوسِ، وتُذَيَّلُ النواهِي بما يَزْجُرُ عنْها ويُنَفِّرُ منهَا ويُرَهِّبُ من عاقبتِهَا. من ذلك على سبيل المثال

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٣٠١.
(٢) التفسير الكبير للرازي ١١/ ٦٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: ١١].

قال ابن عاشور: «تذييل للمنهيات المتقدمة وهو تعريض قوِيٌّ بأن ما نُهوا عنه فُسوق وظلم، إذ لا مناسبة بين مدلول هذه الجملة وبين الجملِ التي قبلها لولا معنى التعريض بأن ذلك فسوق وذلك مذموم ومعاقب عليه، فدلّ قوله: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ على أن ما نهوا عنه مذموم؛ لأنه فسوق يعاقَب عليه ولا تُزيلُه إلا التوبة؛ فوقع إيجاز بحذف جملتين في الكلام اكتفاء بما دل عليه التذييل»[(١)].

ومن تذييل القصة المقرر لمعانيها قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، حيث وردت هذه القصة، وجاء التذييل منوِّهًا بأهمية القصص في التفكر والاعتبار.

قال ابن عاشور: «... وهذا تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكرًا وموعظة، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم؛ لأن للأمثال واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكُّر مشاهدة الحالة بالحواسّ، بخلاف التذكير المجرد عن

(١) نفس المرجع ١٤/ ٢٤.




التنظير بالشيء المحسوس»[١].

ثالثًا: جمالُ العبارة:

فالتذييلُ لونٌ بديعٌ من ألوانِ البلاغةِ، به تتألقُ العباراتُ روعةً وجمالًا، وتنسجمُ الحروفُ والأصواتُ سُهولةً وانتظامًا، وتنسابُ الكلماتُ عُذُوبةً وسلاسة، مع تناسُقِ الألفاظِ واتساقِ العِبَارَاتِ، فهو سهلُ المساقِ حَسَنُ الاتساقِ، حُلوُ المذاق، قريبٌ من فهمِ السامعِ، عذبُ المساغِ في اللَّهواتِ والمسامعِ، وإنما يتجلَّى جمالُ العِبارةِ في تناسُبِ الألفاظِ وتناسُقِهَا، وتنوُّعِ الأساليبِ وتَأَلُّقِهَا، وثراءِ المعاني وتأنُّقها، فكلَّما أمعنْتَ النظرَ وأطلتَ التدبُّر وأجلْتَ الفِكَرَ، وجدتَ نفسَك أمام معنى جديدٍ، غير الذي سَبَقَ إلى فهمك أولَ مرَّةٍ، وكذلك حتى ترى للجملةِ الواحدةِ أو للكلمةِ الواحدةِ وُجُوهًا عدَّةً، كُلُّهَا يحتملُها النصُّ وتستوعبُهَا العبارةُ القرآنيةُ، كأنما هي دُرَّةٌ يتيمةٌ تُبهِر الأبصارَ كلَّما نظرتَ إليها من أيِّ ناحيةٍ وجدتَ حسنًا وجمالًا، وروعةً وبهاءً، ولمعةً وضياءً، أو كروضةٍ غَنَّاء في واحةٍ فيحاء، هبَّتْ نسائمُها، فتضوَّعَتْ رياحينُها، وغرَّدتْ أطيارُها، وتبسمتْ أزهارُها، وتضاحكتْ جداولُها، وتفتَّقتْ ثمارُها، وَأينعَتْ قِطافُها؛ إنها رياضُ القرآن الكريمِ، وواحةُ الذِّكر الحكيم:

وحديقةُ الفرقانِ ضاحكةُ الرُّبَا ... بالتُّرجُمانِ شَذِيَّةٌ غَنَّاءُ

والوحيُ يقْطُرُ سَلْسَلا من سَلْسَلٍ ... واللَّوْحُ والقلمُ البديعُ رَوَاءُ[٢]

وتأمَّل جناس الاشتقاق وهو من ألوان البديع في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾ [النساء: ١٠٧]. بين ﴿يَخۡتَانُونَ﴾،

---

(١) نفس المرجع ٦/ ١٤.

(٢) الشوقيات، لأمير الشعراء أحمد شوقي، الهمزية (١/ ٣٥).

و﴿خَوَّانًا﴾ وهذا لونٌ من ألوان البديع، وفيه تنفيرٌ واستهجانٌ لصفةِ الخيانةِ.

والالتفات من التكلُّم للغَيبةِ، مع إظهار اسم الجلالةِ في ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠٨]: «لإدخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة»[1]. مراعاةٌ لمقام الرهبة والإجلال، ولفتٌ للأذهان، ولتستقلَّ الجملةُ؛ فتخرجُ مخرج المثل.

والتعبيرُ بالاسم الظاهر في موضع الإضمار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ١٠١]: لبيانِ سببِ هذه العداوةِ، وهو الكفرُ، فهي عداوةٌ لا يُرْجى انقضاؤُها، كَمَا قِيلَ:

كُلُّ الْعَدَاوَاتِ قَدْ تُرْجَى مَوَدَّتُهَا   إِلَّا عَدَاوَةُ مَنْ عَادَاكَ فِي الدِّينِ

والتعبيرُ بالاسم الظَّاهرِ في مقام الإضمار ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لتشريفِ وتعظيمِ أمرِ الصلاةِ، وكذلك ليَخْرُجَ التذييلُ مَخْرَجَ المثل، ولهذا حَسُنَ الإظهارُ ليستقلَّ عما قبلَهُ. وكذلك العدول عن الضمير للاسم الظاهر ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقلْ عليكم؛ فعبَّر بالاسم الظاهر للتأكيد على أنها لا تُقبلُ إلا من أهلِ الإيمانِ، وأنه حَريٌّ بهم أن يقيمُوها فَهِيَ بُرهَانٌ وشِعارٌ على إيمانِهم.

وحَسُنَ فصلُ جملة التذييل عما قبلها: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣] لِما بين الجملتينِ من كمالِ الانقطاعِ؛ فجملةُ التذييلِ خبريةٌ، والتي قبلها جملةٌ إنشائيةٌ طَلَبيةٌ؛ لذَا حَسُنَ الفَصْلُ بينَهُمَا.

---

(١) فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني من شيوخ الأزهر، ٤٠٥



■ **والتقديم والتأخير:**

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾ [النساء: ١٠٧]: تقديمُ الخيانةِ على الإثمِ لأنهم خانُوا الأمانَةَ وألصقُوا التهمةَ بالأبرياءِ، فَوَصْفُ الخيانةِ لأنهم سَرَقُوا وَأَنْكَرُوا الوديعةَ، والإثم: باعتبارِ تهمةِ البريء.

قال أبو حيان: «وقُدِّمَتْ صفةُ الخيانةِ على صفةِ الإثمِ، لأنها سببٌ له، أو لتواخي الفواصل»[1]، فتقديمُ الخيانةِ على الإثمِ: لترتيبِ أفعالهم؛ فهم خانوا أولًا، ثم افترَوا على الآخرين، وهذا الافتراءُ إثمٌ كبيرٌ، كما أن الخائن آثمٌ، فالخيانةُ إثمٌ.

■ **والطباق:**

في جملة التذييل ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة: ٢٤٥].

■ **واللفُّ والنشر المرتب:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: ٥٤]، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ يقابله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ يقابله ﴿عَلِيمٌ﴾.

رابعًا: إثراءُ المَعْنَى:

حيثُ يضيفُ التذييلُ معانيَ جديدةً، يستخلصُها مَنْ تدبَّر في تذييل الآياتِ، وأمعنَ النظَرَ في السياقِ، حيث تتدفقُ المعاني، وتتواردُ الخواطر، وتتفتَّقُ الفِكَرُ،

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٣٥٩ بتصرف.



وتتفجَّرُ ينابيعُ البيان.

■ **تقرأ النصَّ القرآني:**

فتلقَى فيه ثراءً ووفاءً بالمعنى المرادِ، فهو رسالةُ كلِّ العصورِ وخطابٌ لجميع الأجيالِ؛ معجزة خالدة ورسالة متجددة ونهرٌ مُطَّرِد، وبحرٌ زاخرٌ لا ساحلَ له.

يقول صاحبُ المناهلِ تحتَ عنوان (قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى): «ومعنى هذا أنك في كلٍّ من جمل القرآن تجدُ بيانًا قاصدًا مقدرًا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير تجده قد جلَّى لك المعنى في صورة كاملة لا تنقص شيئا يعتبر عنصرًا أصليًّا فيها أو حلية مكملة لها، كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلًا فيها وغريبا عنها، بل هو كما قال الله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: ١]»[١].

كما يأتي التذييل بلطائف المعاني، ودقائق الفوائد من ذلك على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التغابن: ١٧].

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾: أي شاكرٌ للمحسن إِحسانه، حليمٌ بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم، بل يرحم ضعفَهم ويُمهلهم لعلهم يتوبون، ومِنْ شُكْرِهِ تعالى لعباده مجازاتُه لهم بالأجرِ الجزيلِ على العملِ القليلِ.

(١) مناهل العرفان، للزرقاني ٢/ ٢٣٣.

وقد أشار الشنقيطي: هاهنا إلى لطيفة فقال: «وقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾ أي لا يعجل بالعقوبة بل يستر ويتجاوز عن الذنوب، ومجيء هذا التذييل هنا يُشْعِرُ بالتوجيه في بعض نواحي إصلاح الأسرة، وهو أن يقبلَ كلٌّ من الزوجين عملَ الآخر بشكر، ويقابل كلَّ إساءةٍ بحلمٍ ليتم معنى حُسن العشرة، ولأن الإنفاق يستحق المقابلة بالشكر والعداوة تُقابَلُ بالحِلْم»[(١)].

■ **وثراءُ المعنى:**

من دلائل عَظَمَةِ القرآن، ومن وجوهِ إعجازِهِ وفنونِ بلاغَتِهِ وينابيعِ عطائِهِ لا تنضبُ معانِيه ولا تنقضي عجائبُه ولا تنْفَدُ خزائنُهُ.

ومع هذا الثراء والتنوع فلا تلقى تناقضًا ولا تلمسُ اختلافًا بين هذه المعاني، بل تراها متآخيةً متلازمةً.

قال البوصيري:

جاءَ النبيُّون بالآياتِ فانصرمتْ ... وجئتَنَا بكتابٍ غيرِ مُنصرمِ
آياتُهُ كلمَا طَالَ المدَى جُدُدٌ ... يَزِينُهُنَّ جمالُ العِتْقِ والقِدَمِ
فالدُّرُّ يزدادُ حُسنًا وَهْوَ منتظمٌ ... وليسَ ينقُصُ حسنًا غيرَ مُنتظمِ[(٢)]

من هنا تتجلَّى فوائدُ الوقوف على لطائف التذييل؛ وذلك لفهمِ المعاني ومعرفة الوجوه. عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا: لا يفقهُ الرجلُ كلَّ الفقهِ حتى يَرَى للقرآنِ وُجُوهًا كثيرةً[(٣)].

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٨/ ٣٣٠.
(٢) البردة للبوصيري، شرح البردة، تأليف السوسي على، مخطوط لوحة ٢٧.
(٣) المصنف، لابن أبي شيبة ٧/ ١٨٧، والمصنف، لعبد الرزاق ١١/ ٢٥٥ حديث ٢٠٤٧٣، والطبقات الكبرى، لابن سعد ٢/ ٣٥٧.

خامسًا: حُسْنُ التعليل:

قد يأتي التذييلُ لبيان علَّةٍ أو لِتَجْلِيةِ حكمةٍ، ولذلك في القرآن أمثلةٌ كثيرةٌ، منها ما ذكره البقاعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧]، قال: «ولما كان المراد – كما أشار إليه بكان – الإخبار بجميع الأعمال الكائنة بالفعل أو القوة، حَسْنَ التعليل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧]، أي بصاحبتها من الخواطر والعزوم، وذلك بما دلت عليه الصحبة كل ما لم يبرز إلى الخارج، فهو بما برز أعلم»[(١)].

ومثال ذلك: التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢].

جملة التذييل: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ وذلك إشارة إلى سبب كفرهم وقتلهم الأنبياء، وهو إصرارهم على العصيان واعتداؤهم، ويمكن أن تكون إشارة إلى جميع ما ذُكِرَ في الآيةِ من ضرب الذِّلَّةِ والمسكنة وغضب الله عليهم وكفرِهم وقتلِهم الأنبياءَ بغير حقٍّ. وما مصدرية أي بسبب عصيانهم واعتدائهم، وهذا نشر على ترتيب اللف فكفرهم بالآيات سببه العصيان، وقتلهم الأنبياء سببه الاعتداء»[(٢)].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٧/ ٢٣٢، ومثال ذلك أيضًا ما ذكره الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ١٩]، يراجع روح المعاني للألوسي ١٨/ ٢٥٧.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٤/ ٥٧ باختصار.

وفي حاشية محيي الدين شيخ زاده: «إشارة إلى علة العلة، ولهذا المعنى قال أرباب المعاملات: مَن ابتُلِيَ بترك السنة وقع في ترك الفرض، ومَن ابتُلِيَ بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة، ومَن ابتُلِيَ بذلك وقع في الكفر»[(١)].

وقال صاحب المنار: «جرَّأهم على ذلك سبقُ المعاصي والاستمرارُ على العداءِ، فتدرَّجوا من الصغائر إلى الكبائر، إلى أكبر الموبقات وهو الكفر وقتل الأنبياء والمصلحين، فصار هذا العصيانُ والاعتداءُ خُلُقًا للأمة، وطبعًا لها يتوارثه الأبناء عن الآباء بلا نكير»[(٢)]. «وهذه الجملة: مؤكدةٌ لما قبلها، فالعصيان والاعتداء هو عين الكفر وقتلهم الأنبياء، ويحتمل أنها ليس مؤكدةً بل هي علةُ العِلَّةِ؛ فعلَّةُ ضَرْبِ الذِّلَّةِ والمسكنة والغضب من الله: كفرُهم وقتلُهُم الأنبياء، وعلةُ الكفرِ والقتلِ: عصيانُهُم أمرَ الله وتجاوزَهم الحدّ»[(٣)].

والتعبير بالماضي ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾ لإفادة تحقق العصيان، وبالفعل «كان» مع المضارع ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ لبيان اعتداءاتهم المتكررة المستمرة بلا توقف، مع مراعاة الفاصلة.

---

(١) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي ٣/ ١٤٩.

(٢) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار للسيد رشيد رضا ٤/ ٧٠ وقد ذكر الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه التفسير القرآني للقرآن، وكذلك الشيخ سعيد حوى في كتابه الأساس في التفسير، كلاما طيبا حول هذه الآية وما قبلها، وهو قريبٌ مما ذكرناه وترجع قيمةُ ما كتبه الخطيب إلى أنه كتبه بعد النكسة بثلاثة شهور كما أشار إلى ذلك في تفسيره: «لنتخذ منها أملًا يدفئ صدورنا، ويطمئن قلوبنا، ويخفف آلام جراحنا التي نعانيها من هذا الحدث الذي نعيش فيه في مرارةٍ وألمٍ وقلقٍ... وإننا مطمئنون إلى فهمنا للآية الكريمة، واثقون من معطياتها التي لا تتخلف أبدا» نفس المرجع ١/ ٥٥٩.

(٣) حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للشيخ محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمِي العلوي الهرري الشافعي ٥/ ٦٥.

مثال آخر: التَّذْييلُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣]. أي فرضًا محدَّدَ الأوقات، لا يجوزُ إخْرَاجُها عن أوقَاتِهَا في شيء من الأحوالِ، بل لا بد من أدائِهَا في أوقاتِها سَفَرًا وحَضَرًا، وأَمْنًا وخَوْفًا.

فقد جاءت جملةُ التذييل مؤكدةً ومقررةً لما قبلها، ومبينةً الحكمة في هذه الرخصة، وهي التمكنُ من إقامة الصلاة التي لها أوقاتُها المعلومةُ، قال ابن عاشور: «والجملةُ مسوقةٌ مساقَ التعليل للحرصِ على أدائها في أوقاتها»[(١)].

سادسًا: حُسْنُ الخِتامِ:

كما يأتي التذييل إيذانًا بتمام الكلام، فيتضَوَّعُ منه مسكُ الختام، ويفوحُ عبقُهُ، فإنه آخرُ ما يبقى في الأذهانِ، ولَذا تفنن فيه الأدباء وبرعوا فيه «لأنه ربما حفظ من دون سائر الكلام، فيتعين أن يجتهد في رشاقته وحلاوته وجزالته»[(٢)]. فكما أن لحُسن المطلع روعتَه ووقعَه، كذلك للخاتمةِ وقعُها في النفوسِ، وروعتُها في القلوبِ، وأثرُها الذي يبقَى في الأذهانِ؛ فهي آخرُ عهدِ المستمِعِ بالمتكلِّمِ.

وحين نقرأ كلامَ الباري نلمسُ ذلك الإحكامَ، ونستشعرُ تلك الروعةَ، ونتذوقُ هذه العذوبةَ والحلاوةَ في كل ما ورد ختامًا لقصة أو مقطع أو سورة، حيث يأتي السياق معقِّبًا أحسن تعقيب، فيأتي بتمام الموضع واكتماله، ويسوق نتائجه ويبرزُ أبعاده، كما يُجَلِّي عِبَرَهُ وعظاتِهِ، وفوائدَهُ وثمراتِهِ.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٥/ ١٨٩.
(٢) الفوائد المشوق لابن القيم ص ١٣٨.



مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠].

قال ابن عاشور: «تذييلٌ مؤذنٌ بانتهاء الكلام، لأنّ هذه الجملة جمعت عبودية كلِّ الموجودات لله تعالى، فناسبت ما تقدَّمَ من الردِّ على النصارى، وبيَّنت أنَّ جميعها في تصرّفه تعالى، فناسبت ما تقدّم من جزاء الصادقين...»[(١)].

ومن الأمثلة على ذلك: المناسبة بين ختام سورة الأنعام وما حوته، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ **[الأنعام: ١٦٥].**

قال ابن عاشور: وجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييل للكلام وإيذان بأنّ المقصود منه العمل والامتثال؛ فلذلك جمع هنا بين صفة ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ ووصف ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ليناسب جميع ما حوته هذه السّورة. وبهذا ينتظم تذييل السورة بمضمونها؛ حيث تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها في القلوب.

سابعا: الاحتراس:

وهو أن يكون الكلام محتملًا لشيء بعيد، فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال[(٢)]،

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٤/ ٣٥٣. باختصار. ويراجع التحرير والتنوير لابن عاشور ٥/ ٢١٩، و١٠/ ٤١. ويراجع: التفسير الموضوعي لسورة الأنعام، للمؤلف، ولقد عُنِيَ العلماءُ بإبراز الصلة بين نهاية السورة ومضمونها كما فعل البقاعي وأبو السعود وسيد قطب وسعيد حوَّى وغيرُهم وللإمام السيوطي رسالةٌ وجيزةٌ بعنوان «مراصد المطالع في تناسب المطالع والمقاطع» وهي مطبوعةٌ.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٦٤ - القسم الثاني والعشرون الاحتراس، ويراجع: الإتقان ٢/ ١٩٩، والإيضاح في علوم البلاغة ص١٩٢ النوع السابع عشر التكميل ويراجع: إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٩٥.

وقيل: «توق عن إيهام خلاف المقصود»[(١)].

ومثال ذلك الاحتراس في قولِهِ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠]، حيث جملةُ التذييل: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وفيها احتراسٌ لدفعِ ما قد يُتوهَّمُ من انتفاء الإيمان عن سائر أهل الكتاب، فإن منهم من آمن، وإنما يسري النفيُ على أكثرهم الذين آثروا الكفر، وثبتوا عليه وهذا من دقَّةِ تعبير القرآن، وإنصافه في الحكم على الآخرين، حيث بيَّن أن من أهل الكتاب من اختار طريق الإيمان، وفي هذا درسٌ للدعاةِ والمصلحين أن يتحرَّوا الدقةَ في الحكم، ويتجنبوا التعميم في الأحكام، بِلا دليلٍ.

مثال آخر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠٢].

جاءت جملة التذييل احتراسًا ودفعًا لما قد يتوهم. قال أبو السعود فقال: «﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾: تعليلٌ للأمر بأخذ الحذر، ﴿أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ بأن يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا بأموركم، ولا تهملوا في مباشرة الأسباب كي يحل بهم عذابُهُ بأيديكم، وقيل: لما كان الأمرُ بالحَذَرِ من

(١) فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني ص ٤٠٤.



العدو مُوهِمًا لتوقع غَلَبَتِهِ واعتزازِهِ، نَفَى ذلك الإيهامَ بأن الله تعالى ينصرُهُم ويُهِينُ عدُوَّهُم لتقوَى قلوبُهم»(١).

ومن أمثلة الاحتراس في تذييل الآيات قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: ٤٤]. إذ الدعاء عليهم مشعِرٌ بأنهم مستحقون الهلاك احتراسًا إذ قد يُتَوَهَّمُ أن الهلاك «يشمل من يستحق ومن لا يستحق، فأكَّد بالدعاء على المستحقين»(٢).

ثامنا: التنوعُ والتفننُ:

كذا من فوائد التذييل التنوعُ في الأساليب والتفننُ في الكلام، وذلك: بإبراز المعنى الواحد في قوالبَ متعددةٍ وصياغاتٍ متنوعةٍ وفي سياقاتٍ مختلفةٍ؛ لتقريرِ هذهِ المعاني وترسيخِها، مع مراعاةِ السياقِ الذي به تنتظِمُ المعانِي، ونجد في تذييلات الآيات ذلك فتارة يقدم صفة وتارة يؤخرها على ما اقترنت به، وتارة يختم الآية بتعليل أو رجاء، ثم يختم ما يليها بتعليل آخر أو رجاء، وتارة يختم بوصف ثم يعقبه بوصف آخر، حتى اشتملت التذييلات على معظم أسماء الله الحسنى، وختمت ببيان جميع مقاصد القرآن، وغير ذلك من وجوهٍ ومعانٍ، وهذا من خصائص الأسلوب القرآني، كما قال ربنا ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ [الإسراء: ٨٩].

فتصريف الآيات مجيء المعاني في صور متعددة، وسياقات متنوعة تقريرًا لها

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٢/ ٢٢٨. وحاشية القونوي على تفسير البيضاوي لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي القونوي ٧/ ٢٨٦.
(٢) روح المعاني للألوسي ٢٠/ ٣٠٢.



وإثراء وبيانًا فوق بيان، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

تاسعا: إخراج الكلام مخرج المثل:

فالملاحظ أن جملة التذييل مع ارتباطها الوثيق بما قبلها، إلا أنها مستقلة بمعناها وتركيبها ودلالتها، بحيث يمكن اقتباسها بل يحسن ويجملُ ذلك، كما هي عادة الخطباء والأدباء، وقد سبق تقسيم ابن أبي الأصبع التذييل لقسمين: «قسمٌ لا يَزِيدُ على المعنى الأول، وإنما يؤتَى به للتوكيدِ والتحقيقِ، وقسمٌ يُخْرِجُهُ المتكلمُ مخرجَ المثلِ السائرِ ليحققَ به ما قبله»[(١)].

ومن ذلك التَّذْييلُ في قولِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠٨]. وأغلب تذييلات القرآن خرجت مخرج المثل، فتصلح لاقتباسها في المواعظ والحوارات والخطب.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الأصبع باب التذييل ص ٣٨٧، ويراجع في ذلك: خزانة الأدب وغاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي ١/ ٢٤٢، ومعجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة ص ٢٣٤، والمعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني د. إنعام نوال عكاوي ص٣٠٠، وجاء في التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: «التذييلُ: تعقيبُ جملةٍ بجملةٍ مشتملةٍ على معنَاهَا للتأكيدِ «التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي ١/ ١٦٨. ويراجع فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني من شيوخ الأزهر، ص ٤٠٣.





كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]. جاء في ختام عهد أبي بكر لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالخلافة اقتباسه[1] لقوله تعالى ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾[2]. وكان ختام كثير من الخطب: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨][3].

❊ ❊ ❊

(١) الاقتباس: تضمين الكلام نثرًا أو نظمًا شيئًا من قرآن أو حديث»، التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي(١٠٣١هـ)، ص٨١.

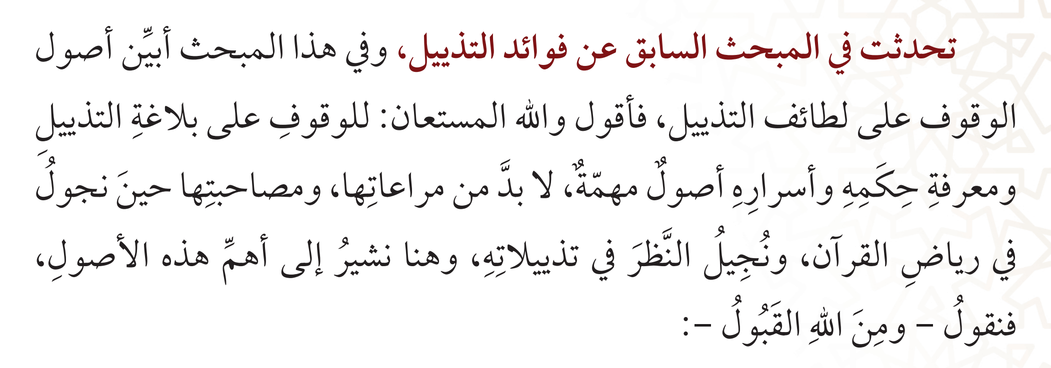
(٢) الكامل في اللغة والأدب للمبرد (١/ ١٤).

(٣) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، (٢/ ٤٥١).

المبحث الثاني



أصولُ الوقوفِ على لطائفه



تحدثت في المبحث السابق عن فوائد التذييل، وفي هذا المبحث أبيِّن أصول الوقوف على لطائف التذييل، فأقول والله المستعان: للوقوفِ على بلاغةِ التذييل ومعرفةِ حِكَمِهِ وأسرارِهِ أصولٌ مهمّةٌ، لا بدَّ من مراعاتِها، ومصاحبتِها حينَ نجولُ في رياضِ القرآن، ونُجيلُ النَّظرَ في تذييلاتِهِ، وهنا نشيرُ إلى أهمِّ هذه الأصولِ، فنقولُ - ومِنَ اللهِ القَبُولُ -:

أولًا: مراعاةُ مقاصد القرآن الكريم:

دراسةُ مقاصدِ القرآنِ مما يُعِينُ على تنسُّمِ عِطرِهِ وشذاه، وتذوُّقِ لطائِفِهِ وقطوفِهِ، والتحقُّقِ من دلالاتِهِ والتعمُّقِ في هداياتِهِ، والتبحُّرِ في دقائقِ معانِيهِ.

بل إن كثيرًا من التذييلات يكشف لنا عن مقاصد القرآن عمومًا ومقاصد مواضيعه (أحكامه، وقصصه، وأمثاله، ومواعظه، ووصاياه).

لعلكم تعقلون (سبعة مواضع)، لعلكم تتقون (ستة مواضع)، لعلكم تشكرون (في ثمانية مواضع)، لعلكم تفلحون (أحد عشر موضعًا)... وهكذا.

بل يلاحظ التناسب بين هذه المقاصد، ففي سورة الأنعام آيات الوصايا العشر قال تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ



﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، فالتعقل طريق التذكر والتذكر طريق التقوى. فثمرة التعقل والتذكر تقوى الله تعالى. ونظيره ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

ثانيًا: الدرايةُ باللغةِ العربيةِ وأساليبِها وفنونِها:

فمن المؤهّلاتِ الأساسيةِ لمن يدرسُ التذييلَ وغيرَهُ من عُلوم البلاغَةِ، أن يكون على درايةٍ بلغةِ العربِ وأساليبِهِم وفنونِهِم في الكلام.

قال مجاهدٌ: «لا يحلُّ لأحدٍ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أن يتكلمَ في كتابِ اللهِ إذَا لم يكُنْ عالمًا بلغاتِ العربِ»[1].

فجملة التذييل لا بد أن تكون مستقلة عما قبلها لفظًا ومعنى، وهذا أمرٌ يحتاج من الباحث لدراية بقواعد اللغة، فليس كل نهاية آية تذييلًا، إذ قد يكون خبرًا لمبتدأ، أو جوابًا لشرط سابق، أو حالًا مما قبله.

والنظر في هذا يمكّن الباحث من معرفة التذييل من غيره، فلا يمر بآية ويغفل عن ختامها بتذييل، أو يقول: إنها ختمت بتذييل وما هو بتذييل، كذلك إبراز جماليات التذييل يحتاج لاطلاع على فنون البلاغة؛ إذ التذييل لون من ألوان البديع، وبعضهم يذكره في أغراض الإطناب وفنونه.

ثالثًا: مراعاةُ قواعِدِ التفسيرِ وأصوله:

قواعدُ التفسيرِ هِيَ: أحكامٌ كليةٌ تُعِينُ على فهمِ القرآنِ واستنباطِ أحكامِهِ،

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ١/ ٢٩٢، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٤٤٣.



ولا بد لمن طَرَقَ بَابَ التفسيرِ أن يكون على درايةٍ بقواعِدِهِ التي يُسْتَضَاءُ بها في هذا الطريق؛ فمن خلالها يسيرُ المفسِّر على بيِّنةٍ من أمرِهِ، ويستعينُ بمعرفتِهَا على فهمِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واستخلاصِ المعاني، واستنباطِ الأحكامِ، والوقوفِ على العِبَرِ والفوائِدِ، فينبغي مراعاة قواعد التفسير عامة، فضلًا عن مراعاة القواعد المتعلقة بالتذييل خاصةً.

ومنها على سبيل المثال: مراعاةُ السياقِ القريبِ والبعيدِ، أعنِي السياقَ العامَّ للسورةِ، والسياقَ القريبَ للآيةِ موضع البحث، فالتذييلُ جزءٌ من الآيةِ؛ لذا ينبغي تدبُّرُها في سياقِها. الأصلُ هو القولُ بمقتضَى الظاهرِ، فلا نقولُ بالعدولِ إلا بقرينة، في العدولِ عن مقتضى ظاهِرِ الكلامِ ما يَنُمُّ عن دقائقَ عجيبةٍ ولطائفَ بليغةٍ.

رابعًا: النظرة الكلية للسورة:

كما ينبغي استحضارُ مقاصد القرآن بوجه عامٍّ؛ كذلك على المفسر أن يقف أمام مقاصد السورةِ ومعالمها؛ فإنَّ هذا مما يفتحُ له آفاقا رحيبةً في فهم لطائفِ التذييلِ، وهذا يتمُّ من خلال تلاوةِ السورةِ وتدبُّرها ومدارستها، مع مراعاة النظرة الكلية الشاملة التي تعين على فهم مقاصدها والوقوف على محورها العام الذي تنتظمُ في سلكِه آياتُها وتدُورُ في فُلْكِهِ موضوعاتُها، مما يساعدُ في جني لطائفِ التذييلِ، والأمرُ يتطلبُ القراءةَ المتأنيةَ للسورةِ، مع تكرارِ القراءةِ بتدبُّرٍ وإمعانٍ.[(١)]

وقد قرر ذلك المبحث الإمامُ الشاطبيُّ فقال: «اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالاقتصار على بعضِها غير مفيد

(١) يراجع في هذا الموضوع: مبادئ أساسية في فهم القرآن، لأبي الأعلى المودودي ص ٤٩: ٥١، ويراجع ما ذكره السيوطي حول هذا المعنى في الإتقان ٢/ ١٢٨ وما ذكره الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم للأستاذ ص ١٥٣، ١٥٤.





للمقصود منها، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها»[1].

تأمل في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١﴾ [الأنبياء: ٥١].

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾ [الأنبياء: ٨١، ٨٢]: تلحظ عناية الله تعالى ورعايته ولطفه وإحاطة علمه وحفظه لأنبيائه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولم تتكرر هذه الصيغ وتجتمع في سورة أخرى، وفي هذا مناسبة لعنوان السورة (الأنبياء) ومقصودها، بيان إكرام الله ولطفه بهم.

خامسًا: النظر في السياق:

فمن الأمور الأساسية للناظر في تذييل الآيات أن يُنْعِمَ النظرَ في السياق السابق واللاحق، حتى يقف على لطائف التذييل وفوائده: عن مسلم بن يسار قال: إذا حدثتَ عن اللهِ حديثًا فقفْ حتى تنظُرَ ما قبلَهُ وما بعدَهُ[2].

وقال الزركشيُّ في البحر المحيط: «... والسياقُ يرشِدُ إلى تبيين المجملات

---

(١) الموافقات، للشاطبي ٣/ ٤١٥. ويراجع: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للبقاعي ص١٥٥، ويُراجعُ ما ذكره السيوطيُّ في الإتقان حول هذا المعنى: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢/ ١٢٨.

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (٢/ ٢٦١ حديث ٦٩٥).

وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات، وكلُّ ذلك يُعْرَفُ بالاستعمال».

وقال في البرهان: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علمٌ جمٌّ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[1].

تأمل التذييل في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران: ٩٨].

لما ختم الآية السابقة بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ناسب أنْ يُنكِرَ على كفارِ أهل الكتابِ كفرَهم بآيات الله مع قيامِ الحُجَّةِ عليهم، فكفرهم أشنعُ وأقبحُ من كفر غيرهم لأنهم أوتوا الكتاب فكفروا جحودًا وعنادًا، وبغيا وحسدًا، «فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم متعمِّدون الكفر بالله وبرسوله على علم منهم، ومعرفةٍ من كفرهم»[2].

وتأمَّل التذييل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، كيف جاء بعده الأمر بالاعتصام ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وتأمَّلْ حسن وروعة الترتيب بين التذييلات: التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٣٨) ويراجع البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٦/ ٥٢).

(٢) جامع البيان للطبري ٦/ ٥٢.



﴿خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١١٩]. لما بيّن الوصف والحال بيّن العاقبة والمآل، فهذا الضال عاقبته الخسران.

سادسًا: التذوُّق وصفاءُ الذهنِ ومعايشةُ القُرْآنِ مع الاستعانة بالله:

الوقوفُ على لطائف التذييل، وإدراكُ معانيه ومراميه، يحتاجُ إلى تذوُّقٍ سليمٍ، وسجيَّةٍ نقيَّةٍ.

قال السَّكَّاكيُّ: «اعلم أن شَأْنَ الإعجازِ عجيبٌ، يدركُ ولا يمكنُ وصفُه، كاستقامةِ الوزنِ تدركُ ولا يمكنُ وصفُها، وكالمَلاحة، ومُدْرِكُ الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا...»(١).

ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: ٣٨]، حيث وقع التذييلُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

قيل: عزيزٌ في حكمه فهو الغالب القاهر، وفي شرعه الحكيمِ العزةُ والكرامة والأمنُ والاستقامةُ، فهو عزيزٌ في شرع الرّدع، حكيم في إيجاب القطع.

وقيل: عزيزٌ في انتقامِهِ من السارقِ وغيرِهِ من أهلِ المعصيةِ، حكيمٌ في فرائضِهِ وحدودِهِ، روي أنَّ أعرابيًّا سَمِعَ قارئًا يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ إلى آخرها، وَخَتَمَهَا بقوله: والله غفور رحيم، فقال: ما هذا كلامُ فصيحٍ، فقيل له: ليس التلاوةُ كذلك، وإنما هي ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ فقال: بخٍ بخٍ: عزَّ، فَحَكَمَ، فَقَطَعَ(٢).

وقال ابن الجوزي في مقدمة تفسيره لسورة التوبة – براءة –: «وقد نُقل عن

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ١/ ١٨١، ويراجع الإتقان في علوم القرآن، للإمام السيوطي ١/ ٤٤٤.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٢٠٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٤٢٥.

بعض العرب أنه سمع قارئًا يقرأ هذه السورة، فقال الأعرابي: إني لأحسب هذه من آخر ما نزل من القرآن، قيل له: ومن أين علمت؟ فقال: إني لأسمع عهودًا تُنْبَذُ ووصايا تُنَفَّذ»[1]. وهكذا أدرك الأعرابي أن السورة من أواخر ما نزل، وذلك بسليقته الحاضرة وذوقه الصافي.

كذلك ذكر بعض المفسرين قصةً أخرى لأعرابي تلي على مسامعه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾ [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩]، فختمها القارئ خطأ «فاعلموا أن الله غفور حكيم»، فأنكر الأعرابي ذلك وقال بفطرته النقية وقريحته الصافية: ما هكذا نزلت! «إن كان هذا كلام الله فلا يقول: كذا، فالحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل!»[2].

من هنا ندرك أثر صَفَاءِ الذِّهن في تذوق كلامِ الله، وتنسُّم عَبَقِه وَشَذَاهُ، فهذا أعرابي عاش حياةً فطريةً في البادية جعلت منه صاحب ذهنٍ وقّاد، وسمع مرهف، وتدبُّرٍ واعٍ لكلام الله تعالى، فتدبر القرآن لا يتمُّ إلا بصفاءِ ذهنٍ وحضورِ قلبٍ وإلقاءِ سمعٍ، والتذييلُ من دقائقِ المعاني ولطائفِ الأساليبِ التي تحتاجُ في استجلائِها إلى تجريدِ الفكرِ واستجماع القلبِ، فلا بدَّ من حضورِ القلبِ وصفائِهِ حتى يرى تلك المعاني بوضوحٍ وجلاءٍ، ويحيا بها عملا وسلوكا، فكلما تفرَّغَ القلبُ من همومِ الدنيا ومشاغِلِهَا، وطَهُر من التعلُّقِ بها وجعل الآخرةَ همَّه وشُغلَه، تَجَلَّتْ له المعاني وأقبلتْ عليه اللطائفُ وَحَضَرَتْهُ الفوائدُ.

---

(١) نفس المرجع ٣/ ١٤٤.

(٢) الكشاف، للزمخشري، (١/ ٢٨٠)، والتفسير الكبير، الرازي (٥/ ٣٥٤)



قال الزَّرْكَشِيُّ في البرهان: «اعلم أنه لا يحصُلُ للناظرِ فهمُ معاني الوحي، ولا يظهرُ له أسرارُهُ وفي قلبه بدعةٌ، أو كِبرٌ، أو هوى، أو حبُّ الدنيا، أو وهو مُصِرٌّ على ذنبٍ أو غيرُ متحققٍ بالإيمانِ أو ضعيفُ التحقيقِ أو يعتمدُ على قولِ مُفَسِّرٍ ليس عنده علمٌ أو راجعٌ إلى معقولِهِ، وهذه كلُّهَا حُجُبٌ وموانعُ بعضُها آكَدُ من بعض»[(١)].

كذلك: واجبُ من ينهضُ لهذه المهمةِ الجليلةِ الشأنِ مهمةِ الوقوف على تذييلات القرآن: أن يتعايش مع القرآن بقلبه ووجدانه وروحه وعاطفته، وَيَتَمَثَّلَ القرآنَ الكريمَ في جميع شؤونه وسائر أحواله، [(٢)]، فمعايشةُ القرآنِ الكريم: مِنْ أعظمِ السُّبُلِ إلى فهمِ أحكامِهِ والوقوفِ على معانيه وإدراك حِكَمِهِ ومراميه، ومن تأمَّل على سبيل المثالِ في العواملِ التي أعانت الصحابة على التعمُّق في فهمِ كلامِ الله؛ لوجد من أهمِّها معايشتُهُمْ للقرآن، وحياتُهُم في ظلاله يتنسَّمُون عبيره وشذاه، ويترسَّمون سبيلَهُ وهُداه، ويقتبسون من أنواره، ويقتطفون من أزهاره، ويجتنونَ من ثماره، ولن تتفتح لنا أكمامُ التذييلاتِ، ولن تتفتَّق لنا الثمراتُ إلا حين نتعايش مع كتاب الله تعالى تلاوةً وتدبُّرا، وعلمًا وعملًا، ودعوةً وتربيةً، ولا بد مع ذلك

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٢/ ١٨٠، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢/ ٤٧٩. ويراجع: أخلاق حملة القرآن، للآجُرّي ٤٠ (بتصرف).

(٢) كما كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعيشُ بالقرآنِ ويحيا بالقرآنِ ويتنفَّسُ بالقرآن، فكان القرآنُ له زادا، وسراجا، وروحا، ومنهاجا، فالقرآنُ حياةُ القلوبِ، ونورُ الدروبِ، ومِنْهَاجُ الحياةِ، روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ ابْنِ عَامِرٍ: أنه سأل أمَّ المؤمنين عائشة: قال لها يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: (أَلَيْسَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟) قَالَ: قُلْتُ بَلَى، قَالَتْ (فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة اللّيل، ومن نام عنها أو مرض – ١/ ٥١٢ حديث ١٣٤١.



كله من الاستعانة باللهِ تعالى الذي أَمَرَنَا اللهُ بتدَبُّرِ كتابِهِ، وإمعانِ النظرِ في مبانِيهِ ومعايشةِ معانِيه وتذوُّقِ أساليبِهِ وتتبُّعِ تراكيبِهِ؛ لاستنباطِ الأحكامِ، واستجلاءِ المعاني.

❊ ❊ ❊



الفصل الثاني

فنون التذييل وسماته

المبحث الأول

من فنون التذييل في القرآن

بيّنا فيما سبق، فوائد التذييل، وأصول الوقوف على لطائفه، وهنا نبين فنونَه، وسماته، والمقصود بفنونه: أنواعه، والسمات هي خصائصه، والغرض من هذا المبحث، زيادة توضيح معنى التذييل، وإبراز لطائفه وجمالياته.

للتذييل في القرآنِ: أنواعٌ كثيرةٌ متنوعةٌ، وألوانٌ رائعةٌ ماتِعةٌ، تنمُّ عن حُسنٍ وجمالٍ، وبهاءٍ وجلالٍ، وفصاحةٍ وبيانٍ، منها:

أولًا: التتميم:

«وهو أنْ يؤْتَى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرُ المرادِ بفَضْلَةٍ تُفِيدُ نُكْتَةً»[1]. ومثاله قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: ١٦]، «قيل: لما لم يكن قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ مفيدًا لذهاب رؤوس أموالهم، أتبعه بقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾، فكمُلَ المعنى بذلك، وتمَّ به المقصودُ»[2]، وإن صح المعنى بدونه، ولكن أفاد معنى متممًا.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، النوع الثامن عشر ٢/ ٧٥. ويراجع الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (٣/ ٢١٣)، والفضلة كالحال والمفعول ونحوه. وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لتقي الدين السبكي (٧٧٣)، (١/ ٤١٦). فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني ص ٤٠٥

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ١/ ٨٠.



وجاء في الطراز: «التتميم: الإتيان بجملة عقيب كلام متقدم، لإفادة التوكيد له والتقرير لمعناه، ومثاله قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧] فقوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ إنما ورد على جهة التوكيد، لما مضى من الكلام الأول، ومثاله: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ثم قال: ﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾[1]».

ثانيًا: التصدير:

وهو التناسب اللفظي والمعنوي بين صدر الآية وعجزها، وهو من رد العجز على الصدر، ومثاله قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٦]. فجاء ختام الآية مناسبا لأولها.

قال الشيخ أبو زهرة: «ذيَّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآية بهذا النص الحكيم للإشارة إلى أنهم ظالمون، فهم ظلموا أنفسهم، وظلموا الرسول، وظلموا الحقائق وطمسوا على بصائرهم، فلا يمكن أن تدخل الهداية إلى قلوبهم»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. وهذا من أدب الدعاء، ومن باب التوسل لله بأسمائه، وقد بدأت الآية بالطلب (وهب) وختمت باسم الله الوهاب، بما يزيد العبد رجاء لربه، فضلًا عن التوسل بأسماء الله تعالى. وقد لا حظت في القرآن الكريم ختام الأدعية بأسماء الله الحسنى، سواء في أدعية الأنبياء أو الصالحين أو الأدعية التي ذكرها القرآن بإطلاق، وهذا يدل على وحدة المنهج، تأمل على سبيل المثال دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة المؤيد بالله ٧٤٥هـ (٣/ ٢٠١).

(٢) زهرة التفاسير، الشيخ محمد أبو زهرة ٣/ ١٣٠٦.



إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٩]، ودعاء امرأة عمران ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

ودعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١]، ودعاء زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩]. وهكذا نلمس من خلال التذييل وحدة منهج الأنبياء والصالحين في الدعاء.

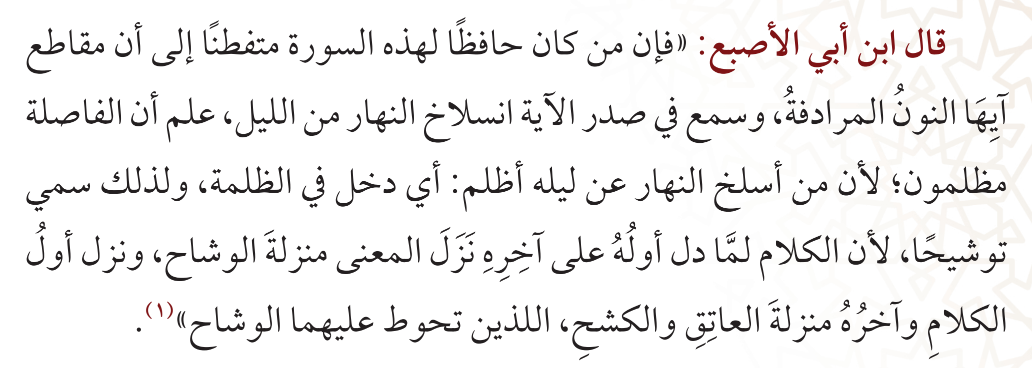
ومثاله أيضًا **التَّذْيِيلُ** في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]. فبدأت ببيان وجوهٍ لفضل الله على نبيه، وختمت ببيان عموم فضله تعالى على نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من رد الصدر على العجز، تقريرًا للمعنى وإثراء له، فضلًا عن جمال النظم.

قال الرازي: «وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب»[1].

ثالثًا: التوشيح:

أن يكون معنى الآية مشيرًا إلى تذييلها، ومثَّلوا له بقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ

(١) التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٢١٦)، ورد الصدر على العجز: أن يجعل أحد اللفظين المكرّرين، أو المتجانسين، أو الملحقين بهما في أوّل الفقرة، والآخر في آخرها. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لتقي الدين السبكي (٧٧٣)، (٢/ ٢٩٣).



ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ [يس: ٣٧].

قال ابن أبي الأصبع: «فإن من كان حافظًا لهذه السورة متفطنًا إلى أن مقاطع آيِهَا النونُ المرادفةُ، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل، علم أن الفاصلة مظلمون؛ لأن من أسلخ النهار عن ليله أظلم: أي دخل في الظلمة، ولذلك سمي توشيحًا، لأن الكلام لمَّا دل أولُهُ على آخِرِهِ نَزَلَ المعنى منزلةَ الوشاح، ونزل أولُ الكلامِ وآخرُهُ منزلةَ العاتِقِ والكشحِ، اللذين تحوط عليهما الوشاح»[١].

ومثاله قوله تعالى فتبارك الله ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤].

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: لمَّا نزلتْ هذهِ الآيةُ قال عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هكذا نزلَ يا عمرُ[٢].

وقال مقاتل والزجاج: كان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذْ أُنْزِلَتْ عليه هذه الآية: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ فقال عمر: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾، فقال النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**هكذا أُنْزِلَتْ عَلَيَّ**»[٣] وروي مثل ذلك عن عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ بِالْإِسْلَامِ، فَدَعَاهُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ يَكْتُبُ لَهُ شَيْئًا، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ التي في المؤمنين

(١) تحرير التحبير، لابن أبي الأصبع ص ٣٥٨.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٥٣)..

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٥٣)، وبحر العلوم، السمرقندي (٢/ ٤٧٦)، وعزاه السيوطي: ٦/ ٩٤ إلى الطبراني وابن مردويه.



﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ ﴾ [المؤمنون: ١٢] أَمْلَاهَا عَلَيْهِ فَلَمَّا انْتَهَى إلى قَوْلِهِ ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ ﴾ [المؤمنون: ١٤] عَجِبَ عبدُ الله من تَفْصِيل خَلْقِ الإنسان فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ فقَالَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ عَلَيَّ...»[1].

رابعًا: التمكين:

وهو أن تمهد قبلها تمهيدا تأتى به الفاصلة ممكّنة في مكانها مستقرة في قرارها مطمئنة في موضعها، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقًا تامًّا، بحيث لو طُرِحَت اختلَّ المعنى واضطرب الفهم[2].

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فلقد مهَّد لهذا التذييل بما يدلُّ عليه أبلغ دلالة، فلقد رد الله الأحزاب ففرَّق جمعَهم وشتت شملَهم، ولم يتحققْ لهم ما رَمَوا إليه من هذا الغزو، وكفى الله المؤمنين القتال.

قال البقاعي: «ولما كان هذا أمرًا باهرًا، أتبعه ما يدل على أنه عنده يسير فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ أي الذي له كل صفة كمال دائمًا أزلًا وأبدًا ﴿قَوِيًّا﴾ لا يعجزه شيء ﴿عَزِيزٗا﴾ يغلب كل شيء[3].

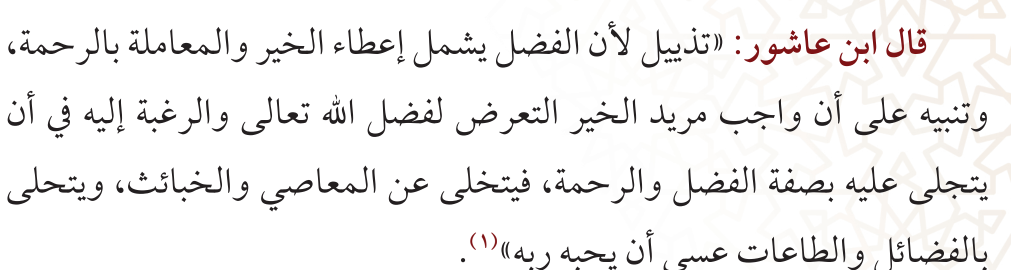
ولزيادة التمكين يعود الاسم الظاهر، فترى العدول عن المضمر إلى الظاهر: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص: ٢٢٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٧٨، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٣٥١.

(٣) نظم الدرر، للبقاعي، (٦/ ٩٥).



قال ابن عاشور: «تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة، فيتخلى عن المعاصي والخبائث، ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه»(١).

خامسًا: الإيغال:

وهو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحًا وشرحًا وتوكيدًا وحُسنًا، وأصل الكلمة من قولهم: أوغَلَ في الأمرِ، إذا أبْعَدَ الذهابَ فيهِ، فتسميته بالإيغال؛ لأن المتكلم قد تجاوز المعنى الذي هو آخذٌ فيه، وبلغ إلى زيادةٍ على الحدِّ(٢). ومنه: «ختم الكلام بما يفيد نكتة يتمُّ المعنى بدونها»(٣).

وزعم بعضهم أنه خاصٌّ بالشعر، وُردَّ بأنه وقع في القرآن، من ذلك: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠ - ٢١]، فقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إيغال؛ لأنه يتم المعنى بدونه، إذ الرسول مهتد لا محالة، لكن فيه زيادة مبالغة في الحثِّ على اتباع الرسل والترغيب فيه.

قال الزركشي: «فَإِنَّ الْمَعْنَى تَمَّ بِقَوْلِهِ: ﴿أَجْرًا﴾، ثُمَّ زَادَ الْفَاصِلَةَ لِمُنَاسَبَةِ رُءُوسِ الآي، فأوغل بها كما ترى، حتى أتى بها تفيد معنى زائدا عَلَى مَعْنَى الْكَلَامِ»(٤).

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (١/ ٦٣٦).

(٢) استفدت هذا المعنى من بعض كتب البلاغة، يراجع البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ (ت ٥٤٤)، ص١٠٠، والصناعتين، لأبي هلال العسكري: حسن بن عبد الله ٣٧٢، ٢٩٦ والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، (٢/ ٣٣٣)

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص ١٩٩.

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٩٧).

وقال ابن أبي الأصبع: «ومن إيغال الكتاب العزيز أيضًا قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾، فإن المعنى تمَّ بقوله سبحانه: ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾، ثم أراد الفاصلة لمناسبة رؤوس الآي، فأوغل بها كما ترى، حيث أتى بها تفيد معنى زائدًا على معنى الكلام، وجاء في الكلام إيغال حسن بعد تتميم»[1].

قال ابن عاشور: «أي وهم متصفون بالاهتداء إلى ما يأتي بالسعادة الأبدية، وهم إنما يدعونكم إلى أن تسيروا سيرتهم، فإذا كانوا هم مهتدين فإن ما يدعونكم إليه من الاقتداء بهم دعوة إلى الهدى، فتضمّنت هذه الجملة بموقعها بعد التي قبلها ثناء على المرسلين وعلى ما يدعون إليه، وترغيبًا في متابعتهم.

واعلم أن هذه الآية قد مثَّل بها القزويني في «الإيضاح» و«التلخيص» للإطناب المسمى بالإيغال، وهو أن يؤتى بعد تمام المعنى المقصود بكلام آخر يتم المعنى بدونه لنكتة، وقد تُبيِّن لك مما فسَّرنا به أن قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ لم يكن مجرد زيادة، بل كان لتوقف الموعظة عليها، وكان قوله: ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ كالتوطئة له. ونعتذر لصاحب «التلخيص» بأن المثال يكفي فيه الفرض والتقدير»[2].

❃ ❃ ❃

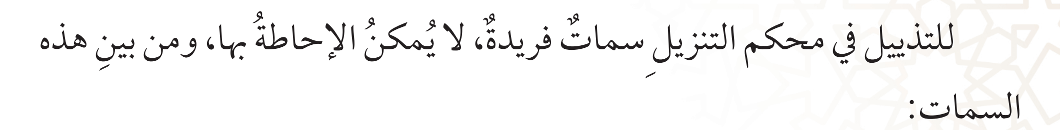
---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ابن أبي الأصبع (ص: ٢٣٦)

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٢/ ٢١٤)

المبحث الثاني

﴿ سمات التذييل ﴾



للتذييل في محكم التنزيلِ سماتٌ فريدةٌ، لا يُمكنُ الإحاطةُ بها، ومن بينِ هذه السمات:

۞ أولًا: مراعاة الفاصلة:

وهذه سمةٌ بارزةٌ في تذييلاتِ الآيات، ذلك أن للقرآن أسلوبًا فريدًا ومسلكًا عجيبًا لا يشبه كلام البشر؛ فهو ليس بشعر ولا سجع ولا يشبه الكلام المرسل؛ ذلك؛ لأنه كلام من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

۞ ثانيًا: التناسب:

«ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر، والقرآن العظيم كله متناسب، لا تنافر فيه ولا تباين»(١). **وللتناسب صورٌ عديدةٌ منها:**

■ تناسب الأطراف:

ويسمى «تعانق الأطراف»، وذلك في تشابه الألفاظ فضلًا عن تناسب المعاني، ومثال ذلك ختام يونس: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩]، مع مطلع سورة هود ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٣ – ٥٤].

---

(١) الفوائد المشوقة لابن القيم ٨٧، ٨٨.



فالمجرمون لا يجدون مصرفًا لِما هم فيه، وكيف وقد ذهبت الدنيا دارُ العمل، وصاروا في دار الجزاء، وقد نكبوا عن طريق النجاة وأعرضوا عنه في الدنيا، وهو كتاب الله تعالى الذي صرَّف الله تعالى فيه من الآيات والعبر ووجوه الوعيد وأساليبه المتنوعة؛ ليذَّكروا ويعتبروا فما زادهم إلا نفورًا وإعراضًا.

■ **تناسب أول تذييل في مطلع السورة مع تذييل ختامها:**

كما في سورة الحشر، قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحشر: ١]، مع قوله تعالى في ختامها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤].

■ **تناسب تذييل ختام السورة بتذييل ختام السورة التي تليها:**

تأمل في ختام سورة الحجر وختام سورة النحل تجد توجيهات للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تثبِّت قلبه وتشدُّ أزره ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، وفي ختام النحل ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨].

وتأمَّل ختام سورة المزمل بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠]، مع ختام سورة المدثر ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٦].

■ **التناسب بين الألفاظ والمعاني، ويسمى بائتلاف اللفظ مع المعنى:**

وهو عند أهل البلاغة أن تكون الألفاظ مناسبة للمعنى المقصود موائمة له،





«فإذا كان المعنى فخمًا كان اللفظ الموضوع له جزلًا، وإذا كان المعنى رقيقًا كان اللفظ رشيقًا، وإذا كان المعنى غريبًا كان اللفظ كذلك، وهو وادٍ من أودية البلاغة، وكنز من كنوز البيان، وسيأتي مثالٌ له عند الحديث عن العمق والدقة.

ثالثًا: التعميم:

ومن السمات الغالبة على التذييل القرآني التعميم، حيث يغلب على التذييل أسلوب التعميم؛ مما يخرجه مخرج المثل السائر، والقاعدة الراسخة.

تأمل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾ [آل عمران: ٨٦] فقد ورد في سبب نزولها: عن ابن عباس رضي الله عنهما قالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، أَسْلَمَ ثُمّ ارْتَدّ وَلَحِقَ بِالشّرْكِ ثُمّ تَنَدّمَ فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ سَلُوا لِي رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا: إِنّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ، وَإِنّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَتْ ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾ [آل عمران: ٨٦]، إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)﴾ [آل عمران: ٨٩] فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قومهُ فَأَسْلَمَ[1].

فقد أفاد التذييل التعميم؛ احتراسًا من قصر عدم الهداية على شخص بعينه، أو أهل طائفة بعينها، بل كل ظالم ليس جديرًا بهداية الله تعالى، إذ العبرةُ بعمومِ

(١) رواه النسائي في السنن عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ كتاب تحريم الدم. باب توبة المرتد. الحديث رقم: ٤٠٦٦ وأخرجه ابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن ص ٤٢٧ والحاكم في المستدرك ٢/ ١٤٢، ٤/ ٣٦٦ وقال في كلا الموضعين: صحيح الإسناد ولم يُخرِّجاهُ ووافقه الذهبي، كما رواه الطبريُّ في تفسيره بإسنادٍ صحيح: جامع البيان ٣/ ٣٢٨ والبيهقي في اسنن الكبرى ٨/ ١٩٥.

اللفظِ لا بخصوصِ السببِ، وسياقُ الآيات في كفارِ أهل الكتاب، وإن كانت تشملُ كلَّ من اختار طريق الكفر بعد جلاءِ البرهانِ، أو ارتدَّ عن الإسلامِ.

قال السعدي: «فهؤلاء ظلَموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتَّبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه، ظلمًا وبغيًا واتباعًا لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية؛ لأن الذي يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن يُيسِّر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية»[1].

۞ رابعًا: الوضوح والبيان:

من سمات التذييل القرآني الوضوح والبيان، فلا غموض فيه ولا خفاء، وهذه سمة عامة من سمات القرآن، فهو كتاب بيِّنٌ واضح، فيأتي التذييل واضحًا بيِّنًا، وقد سبق الحديث عن التوضيح والتبيين في فوائد التذييل.

۞ خامسًا: التكرار:

وهو مُسْتطابٌ في كلام الخالقِ جَلَّ وَعَلَا؛ له حلاوتُه وتأثيرُه، وله فوق ذلك مقاصدُه، وهو وسيلةٌ من وسائل البيان والتقرير والإقناع، ومنهجٌ تربوي أصيلٌ، وفيه موعظةٌ وتذكيرٌ، وزيادةُ تفصيلٍ وبيانٍ.

وإذا كان التكرار في كلام البشر كثيرًا ما يملُّ منه القارئ والسامع، فإن التكرار في القرآن سمةٌ من سماتِهِ الرائعة وأساليبه البديعة، ودليلُ على صدقه وبرهان على أنه من كلام الخالق جَلَّ وَعَلَا وقد قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ

(١) تفسير السعدي (١/ ١٣٧).



﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣]، أي يشبهُ بعضه بعضًا في روعته ورفعته، وجماله وجلاله ومقاصده، وأحكامه وحكمه، وقصصه وأمثاله وحواراته[١].

۞ سادسًا: العمق والدقة:

من سمات التذييل القرآني: العمق والدقة في المعاني والألفاظ؛ فالقرآن كتاب محكمٌ مفصَّلٌ نزل من لدن حكيم خبير.

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: ١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل: ٦].

قال ابن عطية في مقدمة التفسير: «إن كتاب الله لو نُزِعَت منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد، ونحن يتبيّن لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهه في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذٍ في سلامة الذوق، وجودة القريحة»[٢].

۞ سابعًا: التنوع والتفنن:

ذكرتُ في فوائد التذييل كونه من ألوان التصريف في القول، ومن أساليب القرآن وفنونه، وهنا أذكر كون التنوع والتفنن سمةً من سمات التذييل بوجه خاص، فللتذييل صورٌ متنوعة وفنونٌ رائعةٌ تتناسب مع المضمون والسياق،

---

(١) ويراجع ما ذكره الزرقاني في مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.

(٢) مقدمة المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٩، وقد نبَّه الباقلاني كذلك على دقة القرآن الكريم في اختيار الألفاظ، وأن الكلمة في القرآن تنزل في مكانها المناسب لها، مستقرة غير نافرة، وضرب لهذا أمثلة كثيرةً إعجاز القرآن الباقلاني ١/ ١٨٤، ويراجع ما ذكره الخطَّابي حول هذا المعنى في كتابه: بيان إعجاز القرآن للخطابي: أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٩.



وتضفي على رياض القرآن وحدائقه المونقة بهجةً وضياءً وروعةً ورواء، وصدق من قال:

عباراتُنا شتَّى وحسنُكَ واحِدٌ ... وكُلٌّ إلى ذاكَ الجمَالِ يُشِيرُ

■ ومن التنوع في التذييل:

اتفاق صدر الآية مع اختلاف فاصلتها، وله شواهدُ كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [براهيم: ٣٤]، حيث سبق الحديث عن الكفر وعاقبته، ومن بدَّلوا نعمة الله كفرًا: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

فسياق السورة في الحديث عن نِعَم الله تعالى المبثوثة في هذه السورة الكريمة، ومنها مغفرتُه تعالى ورحمتُه لعباده.

وأشار الرازي إلى نكتة لطيفة، فقال عند تفسيره لموضع النحل: «البحث الثاني: أنه تعالى قال في هذا الموضع: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة، كأنه يقول: إذا حصلَت النعم الكثيرة فأنتَ الذي أخذتَها وأنا الذي أعطيتَها، فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما كونك ظلومًا كفارًا، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفورًا رحيمًا، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلومًا فأنا



غفور، وإن كنت كفارًا فأنا رحيم، أعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير، ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء، ونسأل الله حُسن العاقبة والرحمة»[1].

■ ومن التنوع والتفنن:

التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران: ٩٨].

التَّذْيِيلُ في الآية التي تليها: قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩].

فالآية الثانية أشد من الأولى في الوعيد؛ حيث جمعوا إلى جانب كفرهم صدهم عن سبيل الله، فكان التهديد الثاني أشد من الأول، لأنه أنكر عليهم في الآية السابقة مجاهرتهم بالكفر وإصرارهم عليه، ثم أنكر عليهم في هذه الآية سعيَهم واحتيالهم في الصدِّ عن سبيل الله من آمن، وحرصَهم الدائب على نشر الزيغ والانحراف والإضلال أشد من الضلال.

قال البيضاوي: «لما كان المنكَرُ في الآية الأولى كفرَهم وهم يجهرون به ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾، ولما كان في هذه الآية صدهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾»[2]. فالمتأمل في الجملتين يلحظ التدرج في مخاطبتهم وترهيبهم، وأضيف إلى ذلك أن التذييلات المتلاحقة يكمل بعضها بعضًا.

---

(١) التفسير الكبير الرازي (١٩/ ١٠٠)

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ٨٣.

ومن التنوع والتفنن أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء: ١١٦]. «خُتِمت الآيةُ المتقدمةُ بقوله: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ﴾ وهذه بقوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ﴾؛ لأن الأولى في شأن أهل الكتاب وهم عندهم علمٌ بصحة نبوته، وأن شريعتَهُ ناسخةٌ لجميعِ الشرائعِ، ومع ذلك فقد كابَروا في ذلك وافترَوا على اللهِ، وهذه في شأنِ قومٍ مشركينَ ليس لهم كتابٌ ولا عندهم علمٌ، فَنَاسَبَ وصفُهم بالضلالِ، وأيضًا قد تقدم هنا ذكرُ الهُدَى وهو ضدُّ الضَّلال»[1].

كذلك في هذا التنوع بيانٌ لكون المشرك بالله قد جمع بين هذين الإثمين بين افترائه على الله تعالى وبين ضلاله؛ فالشِّركُ افتراءٌ وإثمٌ عظيمٌ كما أنه أعظمُ أنواع الضلالة، وأبعدُها عن الصواب والاستقامة.

■ ومن التنوع في التذييل:

ما نلحظه من ختام الآيات بأساليب متنوعة إنشائية أو خبرية، مثل ختامها بجملة منفية: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [النور: ٤٧]، فادعوا الإيمان وجاء الختام نافيًا دعواهم.

■ ختامها بالاستفهام:

تأمل قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢﴾

[القصص: ٧١، ٧٢].

(١) يراجع درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص٧٩، ٨٠.

قال الرازي: «وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون؛ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل أفلا تبصرون؛ لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه»(١).

وقال الألوسي: «ولعله لاعتبار الأولية والآخرية ذُيِّلَت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، بناء على أن المعنى ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ممن سلف من آبائكم، أو مما سلف منا أن آلهتكم لا تقدر على مثل ذلك! والثانية بقوله سبحانه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بناء على أن المعنى ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أنتم عجزها عن مثل ذلك.

وقيل في وجه تذييل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ دون قوله سبحانه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: إن المفروض لو تحقق بقي معه السمع دون الابصار؛ إذ ظلمة الليل لا تحجب السمع وتحجب البصر، وفي وجه تذييل الثانية بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ دون أفلا تسمعون أن تحقق المفروض وعدمه سيان في أمر السمع دون الإبصار، إذ لضياء النهار مدخل في الإبصار، وليس له مدخل في السمع أصلا»(٢).

ختامها بالشرط:

قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فجاءت الجملة الشرطية تحذيرية لمن يخالف

---

(١) التفسير الكبير، للرازي (٢٥/ ١٣).
(٢) روح المعاني، (٢٠/ ١٠٨).



شرع الله في الطلاق، مقررة للأحكام الشرعية مؤكدة أن العدل فيها، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١﴾ [الأنفال: ١]. وحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه. وفي التذييل إلهاب لمشاعر المؤمنين، وحث لهم على الطاعة.

- **ختامها بالمدح:**

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]. حيث جاء أسلوب المدح مقررًا لما جاء من أوصاف النعيم مجملًا له. وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفيه تقرير للأحكام، وتشويق للنفوس المحبة لربها بامتثال أوامره والتزام ما يحبه.

- **ختامها بالذم:**

﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ٩٩﴾ [هود: ٩٩].

- **ختامها بالتعليل:**

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ٥٨﴾ [المائدة: ٥٨]. فلو عقلوا لعظموها.

- **ختامها بالأمر:**

﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٠٣﴾ [البقرة: ٢٠٣]، والتناسب بين الحج والحشر واضحٌ. «قال الحَرَالِّي: وكلية الحج ومناسكه مطابق في الاعتبار لأمر يوم الحشر ومواقفه، من خروج الحاج من وطنه متزودًا



كخروج الميت من الدنيا متزودًا بزاد العمل، ووصوله إلى الميقات وإهلاله متجردًا كانبعاثه من القبر متعريًا، وتلبيته في حجه كتلبيته في حشره»(١).

ومع هذا التفنن والتنوع في التذييلات إلا أن الحُسْنَ واحد، فالقرآن الكريم في درجةٍ واحدةٍ من الفصاحة والبيان والحسنِ والروعة والبلاغة والرفعة؛ فهو كلام الله تعالى الذي لا تَـمَلُّ منه النفوسُ ولا يشبعُ منه الوجدانُ، قال ابن قتيبة: «وجعل الله تعالى القرآن متلوًّا، لا يُمَلُّ على طولِ التلاوةِ، ومسموعًا لا تَمُجُّه الآذانُ، وغضًّا لا يخلَق على كثرة الترداد»(٢).

ثامنا: التناسق:

وهذا التناسق نلمسه في التشابه اللفظي والمعنوي بين التذييلات في السورة الواحدة، مع حُسن الترتيب، تأمل في سورة المنافقون: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون: ٧، ٨]، فجاءت الخاتمتان مختلفتين إثراء للمعنى واستيعابًا للمقصود، كما أن البلاغة تقتضي الترقي في النفي من الأعلى للأدنى، فنفى عنهم الفقه ثم نفى العلم، يقال: فلان ليس بفقيه ولا عالم، ولا يقال: فلان ليس بعالم ولا فقيه، فالفقه أعلى مرتبة من العلم.

كما أن الحقيقة الأولى غيبية لا يدركها إلا من له علم وفهم وإدراك، والثانية مشاهدة ملموسة فلا تخفى سوى على جاهل لا علم له. وقد أشار الفيروزأبادي لمعنى لطيف فقال: «قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ وبعده: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾،

(١) نظم الدرر للبقاعي، (١/ ٣٨٣).

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣.



لأنَّ الأوّل متّصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وفي معرفتها غموض يَحتاج إلى فطنة، والمنافق لا فطنة له؛ والثاني متّصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ أي: لا يعلمون بأَنَّ الله مُعِزّ لأَوليائه ومذِلٌّ لأَعدائه.»[1].

كذلك في سورة الحشر: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر: ١٣، ١٤]، فالتفقه أعلى مرتبة من مجرد التعقل؛ لذا نفى الأعلى قبل نفي الأدنى.

فالآية الأولى اشتملت على حقيقة لا تغيب إلا على من لا فقه له؛ إذ هي تُعبِّر عما في ضمائرهم، فكان الأحرى بهم أن تمتلئ قلوبهم برهبة الله، لكنها امتلأت برهبة الخلق، ولو كانوا يفقهون لقدروا الله حق قدره. والحقيقة الثانية لا تغيب إلا على من لا عقل له، فهي واضحة جليّة تعبر عن ظاهر حالهم، التحصُّن وبناء الجدران والتشرذم فيما بينهم فلا يجمعهم إلا كراهية المسلمين.

قال الشيخ زكريا الأنصاري: «ختمه هنا بقوله ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ وبعده بقوله ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ لأن الأول متصل بقوله: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي لأنهم يفقهون ظاهر الشيء دون باطنه، والفقهُ معرفةُ الظاهر والباطن، فناسب نفيُه الفقه عنهم. والثاني متَّصلٌ بقوله: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ أي لو عقلوا لاجتمعوا على الحقِّ ولم يتفرَّقوا، فناسب نَفيُ العقلِ عنهم»[2].

---

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ٣٢٠)

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، الشيخ زكريا الأنصاري (ت: ٩٢٦هـ) (١/ ٥٥٨).

وقال النيسابوري: «وإنما قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ وفي الأوّل ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ لأن الفقه معرفة ظاهر الشيء وغامضه فنفي عنهم ذلك كما قلنا، وأراد هاهنا أنهم لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا، فتشتُّتُهم دليلُ عدم عقلهم؛ لأن العقل يحكم بأن الاجتماع معِين على المطلوب والتفرق يوهن القوى ولا سيما إذا كانوا مبطلين»(١).

وقال عبد الكريم الخطيب: «ولهذا جاء وصفهم هنا ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ على حين جاء وصفهم في مقام خوفهم من الناس أشد من خوفهم من الله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ إذ كان العقل - مجرد العقل - كافيا في تقدير السلامة من الخطر، وأن السلامة رهن بالاجتماع لا بالتفرق، حتى إن بعض الحيوانات لتهتدي إلى هذا بغريزتها، فإذا واجهها خطر واجهته جبهة واحدة، لم يفر منها أحد. أما في مقام الخشية لله، فإنها لا تكون عن عقل - مجرد عقل - بل لا بد من عقل، معه فقه وعلم»(٢).

وفي سورة الطلاق: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝٥﴾ [الطلاق: ٤، ٥].

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري (٦/ ٢٨٧)

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب (ت١٣٩٠) (١٤/ ٨٧٣).



ففي ثنايا الحديث عن أحكام الطلاق نلمسُ هذه اللطائف التربوية من ترسيخٍ للإيمان وتهذيبٍ للنفوس وتزكية لها، وتحليق بها في أجواء الفضيلة، ومن تغذية للعقول وتوعيةٍ لها وتبصرةٍ للقلوب، وغرسٍ للقيم. فتقوى الله تعالى والتوكل عليه واليقين بما عنده خيرُ ما يواجهُ به العبدُ ما يعتريه من هموم، وما يعترضه من مشكلات وأزمات.

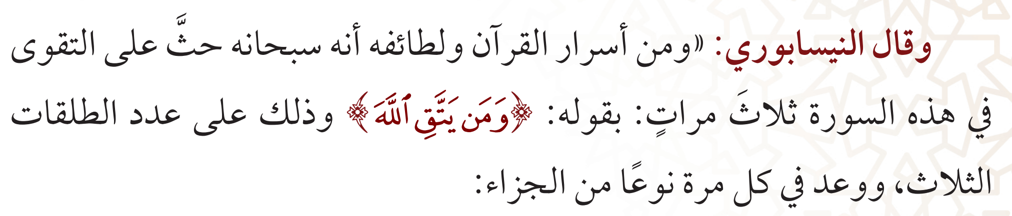
وللتقوى أثرها في حياة المسلم ومعاملاته وسلوكه؛ والأتقياء أوفى الناس وأحرصهم على أداء الحقوق، من هنا تأتي أهمية التقوى في الامتثال لشرع الله تعالى في الطلاق. والملاحظ ارتباط جميع آيات الطلاق في القرآن بالحضّ على التقوى، تأمل في قول سبحانه في سورة البقرة في ثنايا الحديث عن أحكام الطلاق والأمر بالعدل والإحسان: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣١] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١﴾ [البقرة: ٢٤١].

وفي النساء بعد الحديث عن أحكام النساء والوصية بهن ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾: حضّ على التقوى في سائر الأحوالِ، ولا سيما فيما سبق من أمر الطلاق، والمعنى ومن يتق الله فيطلق للسُّنّة ولم يضارّ المعتدّة، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد، ولم يظلم ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ من الهموم والكروب والكُربِ والمِحَن.

قال البيضاوي: «وعدٌ لعامَّة المتقين بالخلاص عن مضارِّ الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون»[(١)].

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي ٣/ ٤١٥.

وقال النيسابوري: «ومن أسرار القرآن ولطائفه أنه سبحانه حثَّ على التقوى في هذه السورة ثلاثَ مراتٍ: بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وذلك على عدد الطلقات الثلاث، ووعد في كل مرة نوعًا من الجزاء:

* **الأول:** أنه يخرجه مما دخل فيه وهو كاره، ويتيح له خيرًا ممن طلقها.
* **الثاني:** اليسر في الأمور والموالاة في المقاصد ما دام حيًّا.
* **الثالث:** (أفضل الجزاء) وهو ما يكون في الآخرة من النعماء»[1].

وقال صاحب الظلال: «﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. مخرجًا من الضيق في الدنيا والآخرة، ورزقًا من حيث لا يقدر ولا ينتظر، وهو تقريرٌ عام، وحقيقة دائمة، ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحي بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقي المتقون ربَّهم في هذا الشأن بصفة خاصة، وهو الشأنُ الذي لا ضابط فيه أحسّ ولا أدقّ من ضابط الشعور والضمير، فالتلاعب فيه مجاله واسع، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير»[2].

وقد جمعت هذه الوعود الثلاث لأعظم ما يحتاجه الإنسان، فالمُمتحَن والمُبتلَى يبحث عن المخرج، سيما لو كانت المحنة في الحياة الزوجية، يحتاج إلى تيسير من الله تعالى أن ييسر الله على الزوج المُعسَّر للوفاء بالتزاماته المالية والمعيشية، وييسر على الحامل حملها ووضعها، ثم الجميع في حاجة لتكفير الله تعالى السيئات، سيّما ما قد يقع بين الزوجين، بسبب الغضب والكراهية والنفور، فيلاحظ هذا الترتيب العجيب، لشدّ ما يحتاجه المُمتحَن إلى المخرج، ثم بعد

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري (٧/ ١٧٥).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٠٨).



إسعافه بالمخرج يحتاج للتيسير، ثم في النهاية يحتاج للمغفرة والرحمة والفضل من المولى القدير.

❊ ❊ ❊



الخاتمة

وتشتمل على:

* أولًا: خلاصةُ البحثِ ونتائـجُه.
* ثانيًا: توصيات.
* ثالثًا: المراجع.

أولًا: خلاصةُ البحثِ ونتائِجُه:

* بعد هذه الرحلةِ في رحابِ القرآنِ: يمكننا أن نقدِّم خلاصةَ البحثِ ونتائجَه في السطور التالية:
* جملةُ التذييل: جملةٌ تأتي في ختام الآية بعد تمام المعنى لتقريره وبيانه، وهي من خصائص أسلوب القرآن، ومن فنون بلاغته، وأفانين روعته، وغرضها البيان والتقرير وإثراء المعنى وتحقيقه. وخرج بقولنا جملة: شبه الجملة، والمفردة؛ فإنها لا تصلح تذييلا، بل التذييل جملة اسمية أو فعلية.
* بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للتذييل صلةٌ قويَّةٌ.
* الفاصلةُ هي الكلمةُ الأخيرةُ في الآيةِ، تمَّ بها المعنى أم لم يتمَّ، أما التذييلُ: فإنه يأتي بتمامِ المعْنَى.
* التذييلُ لا يكونُ إلا جملةً، أما الفاصلةُ فإنها المقطع الأخير في آخر كلمة بالآية، وقد تكون الآية كلها فاصلة، مثل البداية بالأحرف المقطعة في أوائل السور لمن عدها آية، وقد تكون الآية كلمة واحدة فتكون الفاصلة مقطعها الأخير.





* كُلُّ نهايةِ آيةٍ فاصِلَةٌ، وليسَ كُلُّ فَاصِلةٍ تذييلا.
* يُراعى في التذييلِ دائما تَنَاسُبُ المعنى، ويُراعى في الفاصلةِ غالبًا التوافقُ اللفظيُّ والانسجامُ الصوتيُّ، مع اتساق المعنى.
* تأتي جملةُ التذييلِ موصولةً تارةً ومفصولةً تارة، حَسْبَ سِيَاقِهَا واتسَاقِهَا.
* تُحَقِّقُ جملةُ التذييلِ أغراضًا كثيرةً، منها: التبيين والتقريرُ، والتعليلُ والاحتراسُ، وغيرُ ذلك مما يدلُّ على التناسق والتناسب بين جملة التذييل والكلام المُذيَّل.
* عُنِيَ عددٌ من المفسرين بالوقوف عند لطائف التذييلات، وإبراز معانيها، وبيان تناسبها وتآخيها، وتجلية لطائفها ودقائقها، ولا تكادُ تخلو سائرُ كتب التفسير من بيانٍ للتذييل على تفاوتٍ بينها في مدى العنايةِ بهذا الموضوع، وممن عُنِيَ بإبراز لطائفِ التذييل في القرآن: أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط، والبقاعي في نظم الدرر، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم، والبيضاوي في أنوار التنزيل، والعديد من كتَّابِ حواشيه، والألوسي في روح المعاني، وابن عاشور في التحرير والتنوير، وغيرُهم.
* للتذييلِ في محكم التنزيلِ سماتٌ فريدةٌ، ومزايا عديدةٌ، لا يُمكِنُ الإحاطةُ بها، كما لا يمكنُ لمن يجُولُ في روضٍ أو ينظُرُ لبحرٍ أن يحيطَ بأسراره ويحصِيَ عجائبَه، ومن بينِ هذه السمات الفريدة: التناسب، التعميم، الوضوح والبيان، التكرار، العمق والدقة، التنوع والتفنن.
* للتذييلِ فوائدُ عديدةٌ، وحِكَمٌ رشيدةٌ، فهو لونٌ من ألوانِ الإطنابِ به تَآلُفُ الجُمَلِ وتألُّقُها، وتعانقُ العبارات وتأنُّقُها، وانجلاء المعاني وتدفُّقُها، وفيه من المحسِّنات البلاغية ما فيه؛ حيث حسنُ الختام، وبراعةُ المقطع،



وتعانقُ الأطراف، وجمالُ الفاصلة، وعمقُ الصِّلَة، وغير ذلك.

* للوقوفِ على بلاغةِ التذييلِ ومعرفةِ حِكَمِهِ وأسرارِهِ: أصولٌ مهمةٌ لا بدَّ من مراعاتِها، من هذه الأصولِ: الاستعانةُ باللهِ تعالى على فهمِ كلامِهِ، ومراعاةُ مقاصدِ القرآنِ الكريمِ، والدرايةُ باللغةِ العربيةِ وأساليبِهَا وفُنُونِهَا، ومراعاةُ قواعِدِ التفسيرِ وأُصُولِهِ، والنظرةُ الكليَّةُ للسورةِ، والنظرُ في السياقِ، والتذوُّقُ، وصفاءُ الذِّهْنِ، مع معايشةِ القُرْآنِ الكريمِ عملا وسلوكًا ودعوةً.

* يأتي التذييل القرآني مؤكدا للمفهوم تارة وقد يأتي مؤكدًا للمفهوم والمنطوق معًا، كما ذكرنا في بلاغة «التصدير».

* نظرةُ المفسِّرِ للبلاغَةِ القرآنيةِ نظرةٌ عميقةٌ واعيةٌ، بعيدةُ المَدى، لا تتوقفُ عندَ إبرازِها، بل تنطلقُ منها إلى فَهْمٍ عَمِيقٍ واستنباطٍ دقيقٍ للمعاني والأحكامِ، فهي وسيلةٌ للمفسِّر لا غايةً، وهي مفاتيحُ لأبوابِ التدبُّرِ.

* مِن خِلالِ الدراسةِ التطبيقيةِ: رأينَا مَدَى الدِّقةِ والعُمْقِ في التذييلاتِ، ومَدَى تَنَاسُبِهَا وتَلاحُمِهَا مع الآيةِ.

* رأينا كيف حوتْ جُمَلُ التذييلِ واستوعبتْ كثيرًا من فنونِ البلاغة بأسلوبٍ سهلٍ لا تكلّفَ فيه ولا غموضَ.

* للتذييل أثرٌ بالغٌ في ترسيخ العقيدة وتقرير الأحكام الشرعية، بالحض على امتثالها، وبيان مقاصدها وحِكَمِها، وإقامة الحجة، ودحض شُبَه المبطلين.

* يأتي التذييل بحكمة تشريعية، أو بمقصد قرآني، كما يأتي باسم أو اسمين مقترنين من أسماء الله الحسنى، وقد يأتي بجملة تحضيضية، أو تعجبية، أو إنكارية، أو غير ذلك من معان ومقاصد.



ثانيًا: توصيات:

آمل من أساتذتي الكرام المطالبة بإضافةِ مقرَّرٍ دراسيٍّ في مرحلة الإجازة والدراسات العليا، يُعنى بالغوص في أعماق البلاغة القرآنية، وتوظِيفِهَا في فهم المعاني واستنباط العبرِ والأحكام، وإبراز إعجاز القرآن، وروائع أساليبه ونظمه.

وبعد: فما كان في هذا البحث من صوابٍ فلله الحمد والمنة، وما كان من خطأ فمن نفسي، وما توفيقي إلا بالله.

***



المصادر والمراجع

١ القرآن الكريم

كتب التفسير وعلوم القرآن:

١. **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، ط عالم الكتب بيروت، بدون.

٢. **أحكام القرآن**، لابن العربي: أبي بكر محمد بن عبد الله (٥٤٣ هـ)، دار الفكر بيروت ١٤٠٨هـ.

٣. **أخلاق حملة القرآن**، للآجري محمد بن حسين الآجري (٣٦٠ هـ)، ط دار الكتاب العربي.

٤. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، لأبي السعود محمد بن محمد مصطفي العمادي الحنفي (ت ٩٨٢ هـ)، ط دار الفكر، بدون.

٥. **الأساس في التفسير**، للشيخ سعيد حوى (ت ١٤٠٩هـ)، ط دار السلام بالقاهرة ١٤٠٥هـ، ط١.

٦. **أسباب النزول**، للواحدي: أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)، ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٥هـ.

٧. **إعجاز القرآن**، للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣ هـ) بهامش الإتقان في علوم القرآن ط عالم الكتب بيروت، بدون.

٨. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، للبيضاوي ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن





عمر بن محمد البيضاوي (ت ٦٩٢ هـ)، ط دار الرشيد بيروت ١٤٢١هـ.

٩. **بحر العلوم**، لعلاء الدين السمرقندي، (ت ٨٦٠ هـ)، ط دار الفكر بيروت ط١ ١٤١٨هـ.

١٠. **البحر المحيط**، للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت ٧٥٤ هـ)، ط دار إحياء التراث العربي ط سنة ١٤١١هـ ثانية.

١١. **بدائع الفوائد**، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، ط دار ابن الجوزي بالرياض.

١٢. **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة**، عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي (ت ١٤٠٣ هـ) مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط١ ١٤١٤هـ.

١٣. **البرهان في علوم القرآن**، لبدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ هـ) دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٦هـ.

١٤. **بيان إعجاز القرآن**، للخطابي أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم (ت٣٨٨ هـ) ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط دار المعارف ط٣.

١٥. **البيان في عدّ آي القرآن**، لأبي عمرو الداني الأندلسي ت ٤٤٤هـ ط منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق بالكويت ١٤١٤هـ.

١٦. **تأويل مشكل القرآن**، لابن قتيبة الدينوري أبي محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، ط دار التراث.



١٧. **التحرير والتنوير**، للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، ط دار سحنون للنشر والتوزيع تونس.

١٨. **التسهيل لعلوم التنزيل**، للإمام المفسر محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي ت ٧٩٢هـ.

١٩. **تفسير القرآن العظيم**، لابن أبي حاتم للإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (ت ٣٢٧هـ)، ط مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة ١٤١٩هـ.

٢٠. **تفسير القرآن العظيم**، للإمام عبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١)، ط دار المعرفة بيروت.

٢١. **تفسير القرآن العظيم**، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير(ت ٧٧٤)، ط دار طيبة ٢ –١٤٢٠هـ.

٢٢. **التفسير القرآني للقرآن**، عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر العربي بالقاهرة.

٢٣. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن السعدى (ت ١٣٧٦)، ط مؤسسة الرسالة ١، ١٤٢٣هـ.

٢٤. **جامع البيان في تفسير القرآن**، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠)، ط دار إحياء التراث العربي ط٢.

٢٥. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧١)، ط دار الكتب العلمية بيروت.

٢٦. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، للثعالبي عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، ط مؤسسة الأعلمي بيروت، بدون تاريخ.




٢٧. **الجواهر في تفسير القرآن**، طنطاوي جوهري ١٣٥٨هـ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٢هـ.

٢٨. **حاشية الشهاب «عناية القاضي وكفاية الراضي»، على تفسير البيضاوي** لشهاب الدين الخفاجي ت ١٠٦٩ هـ، ط دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

٢٩. **حاشية الصاوي على الجلالين**، أحمد بن محمد الصاوي المالكي (ت سنة ١٢٤١ هـ)، ط دار إحياء التراث العربي.

٣٠. **حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي، م**حمد بن مصلح الدين مصطفى القونوي الحنفي ت ٩٥١ هـ على تفسير القاضي البيضاوي ت٦٨٥هـ ط دار الكتب العلمية بيروت.

٣١. **حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمِي العلوي الهرري الشافعي ط دار طوق النجاة بيروت ١٤٢١هـ.

٣٢. **ختم الآيات بأسماء الله الحسنى ودلالتها**، د. على سليمان العبيد بحث محكم ط دار العاصمة بالرياض ط١ ١٤١٨هـ.

٣٣. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، أحمد بن يوسف، السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) ط١ دار القلم بدمشق ١٤٠٧هـ.

٣٤. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، لجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ)، ط دار الفكر سنة ١٤٠٣هـ.

٣٥. **درة التنزيل وغرة التأويل** للخطيب الإسكافي أبي عبد الله محمد بن عبد الله (ت٤٢٠)، ط دار الآفاق الجديدة بيروت أولى ١٣٩٣هـ.



٣٦. **روح البيان**، للبروسوى إسماعيل حقي (ت ١٣٧٠ هـ)، ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٣٧. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، لشهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ)، ط دار إحياء التراث العربي ط ٤ سنة ١٤٠٥هـ.

٣٨. **زاد المسير في علم التفسير**، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٦ هـ)، ط المكتب الإسلامي بيروت ط١ سنة ١٣٨٥ هـ سنة ١٩٦٥م.

٣٩. **زهرة التفاسير**، محمد أبي زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٣٩٤ هـ)، ط دار الفكر العربي.

٤٠. **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلمات ربنا الحكيم الخبير**، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧ هـ)، ط دار المعرفة بيروت ط ٢، بدون تاريخ.

٤١. **شرح الهداية في توجيه القراءات**، لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت ٤٤٠ هـ) مكتبة الرشد بالرياض ط ١٤١٦هـ.

٤٢. **صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم**، عبد الرحمن محمد الدوسري ت١٣٩٩هـ ط دار المغني للنشر والتوزيع بالرياض ط١ ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م.

٤٣. **الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم**، نذير حمدان. ط دار المنارة جدة ط ١ – ١٤١٢هـ.



٤٤. **العجاب في بيان الأسباب**، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، ط دار ابن الجوزي بالرياض.

٤٥. **الغاية في القراءات العشر**، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري (ت ٣٨١هـ)، ط مطابع العبيكان ط١ - ١٤٠٥هـ.

٤٦. **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، لنظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري ت ٧٢٨هـ، ط البابي الحلبي سنة ١٣٨١هـ، ط أولى.

٤٧. **فتح البيان في مقاصد القرآن**، صديق حسن خان القنوجي (١٣٠٧هـ) مطبعة العاصمة بالقاهرة سنة ١٩٦٥م.

٤٨. **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن**، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، (ت ٩٢٦هـ) حققه: محمد علي الصابوني، ط دار القرآن الكريم، بيروت، ط١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٤٩. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي بن الشوكاني (ت١٢٥٠ هـ) - ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٥٠. **فهمُ القرآنِ ومعانيهِ**، لأبي عبدِ الله الحارثِ بن أسدِ بنِ عبدِ اللهِ المحاسبيِّ (ت ٢٤٣هـ)، ط ٢ دار الكندي، دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ.

٥١. **في ظلال القرآن**، لسيد قطب (ت ١٩٦٦م) دار الشروق سنة ١٤٠٧ هـ - ط ١٣.

٥٢. **قطف الأزهار في كشف الأسرار**، للسيوطي، وزارة الأوقاف ١٤١٤هـ ١٩٩٤م قطر.



٥٣. **قواعد التدبر الأمثل**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ط دار القلم دمشق ١٤٠٩هـ ط٢.

٥٤. **الكتاب المُوضَح في وجوه القراءات وعللها**، نصر بن علي بن محمد أبي عبد الله الشيرازي الفارسي النحوي المعروف بابن أبي مريم (ت ٥٦٥هـ) طبع الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة ١٤١٤هـ ط ١.

٥٥. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، لمحمود بن عمر الزمخشري المعتزلي (ت ٥٢٨ هـ)، ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٥٦. **كشف التنزيل في تحقق مباحث التأويل**، لأبي بكر الحداد اليمني(ت ١١٣٢هـ)ط١، دار المدار الإسلامي بيروت ٢٠٠٣م.

٥٧. **لباب التأويل في معاني التنزيل**، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي (ت ٧٤١ هـ) ط٢ البابي الحلبي١٣٧٥هـ.

٥٨. **اللباب في علوم الكتاب**، لابن عادل الحنبلي لسراج الدين أبي حفص: عمر بن علي بن عادل الحنبلي، الدمشقي. ط دار الكتب العلمية ط١ -١٩٩٨م.

٥٩. **محاسن التأويل**، محمد جمال الدين القاسمي، ت١٣٢٢، ط دار إحياء الكتب العربية. مصر.

٦٠. **المحرر الوجيز**، لابن عطية عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، ط مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر - الدوحة ١٤٠٣هـ.



٦١. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، النسفي عبد الله بن أحمد بن محمود (ت ٧١٠هـ)، ط دار الفكر.

٦٢. **مراصد المطالع الطالع في تناسب المطالع والمقاطع**، للسيوطي ط مكتبة دار المنهاج بالرياض ١٤٢٦ هـ ط١

٦٣. **مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن**، عبد الرازق على إبراهيم موسى، ط المكتبة العصرية بيروت.

٦٤. **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعى (ت ٨٨٥ هـ)، ط مكتبة المعارف بالرياض ١٤٠٨هـ.

٦٥. **معالم التنزيل**، للبغوي الحسين بن مسعود (ت ٥١٦هـ)، ط دار الكتب العلمية بيروت.

٦٦. **معاني القرآن الكريم**، للإمام أبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ، ط مركز إحياء التراث الإسلامي – مكة المكرمة ط١٤٠٨هـ ط١.

٦٧. **معاني القرآن** لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، ط دار السرور بيروت.

٦٨. **معاني القرآن وإعرابه**، للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري (ت ٣١١ هـ)، ط سنة ١٤٠٨هـ، ط أولي ط عالم الكتب ٠

٦٩. **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) دار الفكر ١٤٠٥هـ.

٧٠. **المفردات في غريب القرآن**، للراغب الأصفهاني: للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢ هـ)، ط دار القلم – دمشق.

٧١. **النبأ العظيم**، د. محمد عبد الله دراز(ت ١٣٧٧ هـ)، ط مطبعة السعادة ١٣٨٩ هـ، ١٩٦٩ م.

٧٢. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، لبرهان الدين البقاعي (٨٨٥هـ)، ط دار الكتب العلمية.

٧٣. **النكت في إعجاز القرآن**، للرماني أبي الحسن علي بن عيسى (٣٨٤هـ) ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز تحقيق محمد زغلول سلام وآخرون ط دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨ م.

كتب السنة:

٧٤. **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**، للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسى (ت ٧٣٩ هـ)- تحقيق شعيب الأرنؤوط – ط مؤسسة الرسالة بيروت.

٧٥. **الأدب المفرد** للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ط دولة الإمارات ١٤٠١هـ .

٧٦. **سنن ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ)، ط دار الحديث بالقاهرة.

٧٧. **سنن أبي داود**، لأبي داود سليمان بن شعث السجستاني الأزدي (٢٥٧ هـ)، ط دار الفكر، بدون.





٧٨. **سنن الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٩٧ هـ) دار الفكر ١٤٠٨هـ.

٧٩. **سنن الدارقطني**، علي بن عمر(٣٨٥ هـ)، ط دار المحاسن بالقاهرة ١٣٨٦هـ.

٨٠. **السنن الكبرى** للبيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين)، ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٨١. **سنن النسائي**، أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، ط دار الكتب العلمية بيروت.

٨٢. **شرح القصائد العشر**، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، (ت: ٥٠٢هـ): إدارة الطباعة المنيرية. ١٣٥٢هـ.

٨٣. **شعب الإيمان** للبيهقي ط دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ، ط أولى.

٨٤. **صحيح البخاري**، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦)، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٨٥. **صحيح مسلم**، الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (ت ٢٦١ هـ) دار إحياء الكتب العربية.

٨٦. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للهيثمي نور الدين علي أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧)، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٢هـ.

٨٧. **المستدرك على الصحيحين**، للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) وفي ذيله تلخيص المستدرك للإمام شمس الدين الذهبي ت ٨٤٨هـ، ط دار الكتب العلمية.



٨٨. **المسند**، للإمام أحمد بن حنبل ط المكتب الإسلامي، بدون تاريخ.

٨٩. **مسند أبي يعلى الموصلي (٣٠٧)** ط دار القبلة جدة ومؤسسة علوم القرآن بيروت ط١- ١٤٠٨هـ.

٩٠. **المصنف للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١)** ط٢ المكتب الإسلامي ١٤٠٣.

٩١. **المعجم الكبير**، للطبراني أبي القاسم سليمان بن أحمد ٣٦٠هـ، ط دار البيان العربي ط ٢، بدون.

٩٢. **الموطأ**، للإمامِ مالك - برواية الإمام محمَّد بن الحَسَن ط دار القلم دمشق، ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩١م

كتب اللغة:

٩٣. **الإيضاح في علوم البلاغة**، لجلال الدين القزويني (ت ٧٣٩ هـ)، ط دار الكتاب المصري.

٩٤. **بديع القرآن**، لابن أبي الإصبع عبد العظيم بن عبد الواحد القيرواني المصري (ت ٦٥٤)، دار نهضة مصر، ٢، بدون.

٩٥. **البديع في نقد الشعر**، لأسامة بن منقذ (ت ٥٤٤)، ط البابي الحلبي بالقاهرة.

٩٦. **تاج العروس من جواهر القاموس**، للإمام محب الدين أبي الفضل السيد محمد المرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي نزيل مصر(ت ١٢٠٥ هـ)، ط المطبعة الخيرية بجمالة مصر ١٣٠٦هـ.



٩٧. **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر**، لابن أبي الأصبع (ت ٦٥٤)، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر.

٩٨. **تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع**، الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ)، ط البابي الحلبي ١٣٨٥هـ.

٩٩. **تهذيب اللغة**، لأبي منصور محمد بن أحمد بن طلحة الأزهري الهروي (ت ٣٧٠)، ط الدار المصرية.

١٠٠. **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، أحمد زكي صفوت، ط المكتبة العلمية بيروت.

١٠١. **خزانة الأدب وغاية الأرب**، لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي (ت ٨٣٧) دار صادر بيروت.

١٠٢. **سر الفصاحة**، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي(ت ٤٦٦)، ط دار الكتب العلمية ١، ١٤٠٢هـ.

١٠٣. **شرح البردة**، تأليف السوسي على كان حيا قبل ١١٦١ مخطوط ٥, ٨١١ ش.س ٤٦٨٦ بجامعة الملك سعود.

١٠٤. **الشوقيات**، لأمير الشعراء أحمد شوقي، دار كنوز المعرفة.

١٠٥. **الصناعتين**، لأبي هلال العسكري: حسن بن عبد الله (ت ٣٩٥)، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠١هـ.

١٠٦. **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني ط دار الكتب العلمية، بدون.



١٠٧. **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح** لتقي الدين السبكي (٧٧٣)، المكتبة العصرية بيروت ط ١٤٢٣هـ، ط١.

١٠٨. **علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع**، للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ط دار القلم بيروت ط٢، ١٤٠٢هـ.

١٠٩. **الفاصلة القرآنية**، للدكتور عبد الفتاح لاشين ط دار المريخ بالرياض ١٤٠٢هـ.

١١٠. **الفاصلة في القرآن**، محمد الحسناوي، ط المكتب الإسلامي بيروت ط٢، ١٤٠٦هـ١٩٨٦.

١١١. **الفواصل القرآنية دراسة بلاغية**، للدكتور السيد خضر - مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط١ ١٤٢٠هـ.

١١٢. **فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح**، لعبد الرحمن الشربيني من شيوخ الأزهر، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول ١٣٢٦هـ.

١١٣. **القاموس المحيط**، لمجد الدين الفيروزآبادي (ت٨١٧)، ط المكتبة التجارية الكبرى ط٥.

١١٤. **الكامل في اللغة والأدب**، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار الفكر العربي - القاهرة ط ثالثة ١٤١٧هـ.

١١٥. **لسان العرب**، لجمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن منظور (٧١١ هـ). ط دار المعارف، بدون تاريخ.



١١٦. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، لأبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٩٥.

١١٧. **مختار الصحاح**، للرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٠)، ط مكتبة لبنان.

١١٨. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، للعلَّامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ت ٧٧٠هـ، ط المكتبة العصرية بيروت.

١١٩. **معجم البلاغة العربية**، د. بدوي طبانة، ط دار المنارة جدة ط ١٤٠٨هـ.

١٢٠. **المعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني**، د. إنعام عكاوي دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ.

١٢١. **مفتاح العلوم**، للسكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر(ت٦٢٦ هـ)ط المكتبة العلمية الجديدة بيروت.

١٢٢. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، ط دار صادر- بيروت - لبنان.

١٢٣. **نهاية الأرب في فنون الأدب**، للنويري: شهاب الدين: أحمد بن عبدالوهاب النويري الكندي (ت: ٧٣٢ هـ).







الفهرس

الموضـــــــــــــــوع	رقم الصفحة



الموضـــــــوع	رقم الصفحة





الأستاذ المساعد بقسم العلوم الإسلامية

كلية التربية - جامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان

alsuwafi@squ.edu.om

- حصل على درجة الماجستير من جامعة آل البيت ـ المملكة الأردنية الهاشمية في تخصص القرآن الكريم وعلومه بأطروحته : (الوحدة الإنسانية في القرآن الكريم)
- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة الزيتونة ـ الجمهورية التونسية في العلوم الإسلامية في تخصص علوم القرآن والتفسير (بأطروحته: منهج ابن بركة في علوم القرآن والتفسير في كتابه الجامع دراسة منهجية مقارنة)
- من مؤلفاته:
- الوقف والابتداء واثرهما في المعاتي القرانية
- القران الكريم واستشراف القيم الانسانية : قيمة العدل انموذجا
- السند : مفهومه واهميته واثره في التفسير
- الالفات السبع في القران الكريم بين الرسم والقراءة
- تدبر القران الكريم وصناعة الشخصية المسلمة



ملخص البحث

يتناول هذا البحث جانبًا مهمًّا في الحياة الإنسانية، فهو يبيِّن المنهج القرآني: أُسُسه وقواعده في التعامل، من خلال دراسة تدبُّريَّة تأمُّليَّة في سورة الحجرات، وقد جاء تقسيمه إلى: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين.

* **المُقدِّمة** تتضمن نبذة عن الموضوع وأهميته، وأهداف الدراسة، والمنهجية، وأسئلة الدراسة، والدراسات السابقة، والخُطَّة.

* **التمهيد** فقد كان حول سورة الحجرات: بيان التنـزيل، ومقتضيات المضمون.

* **المبحث الأول كان بعنوان: «منهج التعامل مع الله ورسوله»**، وشمل مطلبين:

  - **الأول**: منهج التعامل مع الله تعالى عقيدة وشريعة.
  - **والثاني**: منهج التعامل مع المقام النبوي.

* **المبحث الثاني فقد كان عن منهج التعامل الإنساني**، وشمل مطلبين:

  - **الأول**: منهج التعامل في ظِلّ الوَحدة الإنسانية.
  - **والثاني**: منهج التعامل في ظِلّ المجتمعات الإنسانية.

* **وأخيرًا الخاتمة**: حوَت أهم النتائج والتوصيات.

ويهدف البحث إلى إبراز منهج القرآن الكريم في تعامُل المسلم مع الله تعالى، ومع رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعامُل المسلم مع غيره من بني البشر، كما ورد في سورة الحجرات، واستخلاص أهمية هذا المنهج القرآني وبيان دوره في تنظيم حياة المسلم.

كلمات مفتاحية:

الحجرات ، التعامل ، المنهج ، التدبر ، التأمل.



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله، خلَق الإنسان وكرَّمه، وفضَّله على سائر مخلوقاته، وجعلَه خليفة في الأرض، والصلاة والسلام على سيدنا محمد قدوة العالمين، وسيد الأولين والآخرين، صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندما جعل هذا الإنسان خليفة في الأرض، وضَع له المنهج الذي يسير عليه، والقواعد والأسس التي ينطلق منها، تَمثَّل ذلك في إنزال الرسالات السماوية إلى البشر، وآخر هذه الرسالات الرسالة الخاتمة التي جاء بها سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد جاء بالهدى والنور، والمنهج الربَّانيّ (القرآن الكريم).

والحديث عن المنهج القرآني حديث عن النظام المُحكَم للكون وما فيه؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي أبدَع الكون من العدم، وأوجَد فيه من المخلوقات ما لا يُحصى عددًا، وجعَل أشرف هذه المخلوقات وأكرمَها بني آدم ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقد اختار لهذا المخلوق المُكرَّم منهجًا ودستورًا في الحياة، ينظِّم سلوكه في الأرض، وعلاقته بخالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلاقته بنفسه، وبغيره.





وقد حوى القرآن الكريم المناهج التي يحتاجها البشر في تعاملاتهم في حياتهم المعاشية، ولم يدَع جانبًا من جوانب الحياة إلا كانت له نظرته الخاصة، ومنهجه المُستقلّ؛ بحيث ينتج من مجموع مناهجه وأنظمته، تشريع متكامل لمناحي الحياة كلها ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣][١].

حوى القرآن الكريم المنهج القويم المتكامل للتعامل، ولا نستطيع في مثل هذا البحث المتواضع أن نأتي على جزئيات هذا المنهج، فهو شامل لجميع نواحي الحياة الإنسانية ومجالاتها المختلفة.

وقد لفت انتباهي وأنا أقرأ سورة الحجرات وأتدبَّرُها؛ ما فيها من كنوز عظيمة، وما تحمله من معانٍ سامية، وما تتضمنه من مناهج مُحكَمة، وما يتخلل ذلك من أوامرَ ونواهٍ وتوجيهات، إن هذه السورة الكريمة حريّ بالمرء أن يتوقف عندها؛ سواء بالتأمل والتدبر، أو بالتحليل والدراسة، ولعلّي أستفيد مما سطَّره الكاتبون قبلي، أو أُفيد بما يفتح الله عليّ.

ومهما كُتب حولها من دراسات، فلن يزال البحث واسعًا، والمجال خصبًا للباحثين والدارسين، وصدق رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - إذ يقول في وصف القرآن الكريم: «وهو الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلَق على كثرة الردّ»[٢]. لذا اخترت سورة الحجرات لتكون أنموذجًا للمنهج القرآني في التعامل، ورغم أنها من السور القصار؛ إلا أنها تمثل منهجًا متكاملًا؛ حيث حوت

---

(١) يُنظر: مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم (٢٤٩).

(٢) جزء من حديث طويل، رواه الترمذي وغيره، يُنظر: سنن الترمذي، للترمذي، رقم الحديث (٢٩٠٦)، باب: فضل القرآن، (٥/ ١٧٢).



أهم المرتكزات والقواعد والأسس التي من شأنها أن تجعل المجتمع مجتمعًا مثاليًّا راقيًا يسير وفق المنهج السديد، ولذلك سُمِّيت هذه السورة بسورة «الآداب والأخلاق».

أهمية الموضوع:

تبرز أهمية الدراسة في الآتي:

١) **تناولها لموضوع غاية في الأهمية في حياة المسلم**، وهو المنهج الذي ينبغي أن يسلكه في تعامله مع الله تعالى، ومع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع الآخرين.

٢) **تقديمها توجيهات قرآنية غاية في الرُّقيّ في مجال التعامل**، في ظِلّ تأزُّم العلاقات الإنسانية في العصر الراهن.

٣) **ما ستُقدِّمه من توصيات تتعلق بأسس التعامل**، والموضوعات التي تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة في هذا المجال.

أهداف الدراسة تتمثل في الآتي:

١) **إبراز منهج القرآن الكريم في تعامل المسلم مع الله تعالى**، ومع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ورد في سورة الحجرات.

٢) **توضيح منهج القرآن الكريم في تعامل المسلم مع غيره** كما ورد في سورة الحجرات.

٣) **استخلاص أهمية هذا المنهج القرآني** ودوره في تنظيم حياة المسلم.





أسئلة الدراسة:

- **تسعى الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:**

- **ما المنهج القرآني في تعامل المسلم مع الله تعالى** كما ورد في سورة الحجرات؟
- **ما المنهج القرآني في تعامل المسلم مع الرسول** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ورد في سورة الحجرات؟
- **ما المنهج القرآني في تعامل المسلم مع غيره** في ظِلّ الوَحدة الإنسانية كما ورد سورة الحجرات؟
- **ما المنهج القرآني في تعامل المسلم مع غيره** في ظِلّ المجتمعات الإنسانية كما ورد سورة الحجرات؟

الدراسات السابقة:

مثل هذا الموضوع يجب أن يكون فيه دراسات كثيرة ومتنوعة؛ لأنه يلامس حياة المجتمع الإنساني اليومية، ومع أن هناك دراسات عديدة أجريت حول سورة الحجرات، إلا أنها تميل إلى الناحية التفسيرية؛ سواء التفسير التحليلي، أو التفسير الموضوعي، أو التركيز على بيان الجوانب الخُلُقية والتربوية، وأهم الدراسات التي تسنَّى لي الاطلاع عليها الآتي:

١) الأمين (١٩٧٦م)، سورة الحجرات منهج تربوي لمجتمع مثالي، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز: تناولت هذه الدراسة تعريفًا للتربية وأهدافها وتاريخها، مع التركيز على التربية



الإسلامية، ثم التعريف بسورة الحجرات، وإبراز عناصرها الأساسية، وناقشت بعض الجوانب المتعلقة بالتربية.

٢) **اللوح (٢٠٠٤م)، التربية الأخلاقية في ضوء سورة الحجرات،** بحث مُقدَّم إلى المؤتمر التربوي الأول «التربية في فلسطين وتغيرات العصر» كلية التربية – الجامعة الإسلامية، ٢٣ - ٢٤/ ٢٠٠٤م: وهذه الدراسة قائمة على منهج التفسير الموضوعي لسورة الحجرات، وقد تم تقسيم الموضوع على أساس مقاطع السورة، كل مقطع يحمل موضوعًا معينًا، وعلاقة هذه المقاطع ببعضها، وربط الآيات بالواقع الحالي للأمة الإسلامية.

٣) **الشنقيطي (٢٠٠٦م)، الأوامر في سورة الحجرات،** بحث نشر في المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الإنسانية والإدارية): تناول الأوامر الواردة في سورة الحجرات، وقسَّمَه إلى تمهيد وثمانية فصول: التمهيد في الأمر وتعريفه، وحكمه، وأنواعه. أما الفصول فقد تناولت الأوامر في سورة الحجرات.

٤) **العمر (٢٠١١م)، سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية:** وهو عبارة عن تفسير لسورة الحجرات، يتضمن قسمين: الأول: تناول دراسة الآيات وتفسيرها تفسيرًا تحليليًّا؛ من حيث أسباب نزول الآيات، والقراءات الواردة في السورة، وبعض أحكام التجويد، وتناول معاني الآيات وتفسيرها، وما ورد في السورة من أحكام. والقسم الثاني: تناول دراسة السورة دراسة موضوعية شاملة.

٥) **زغرب (٢٠١٦م) الوصايا التسع في سورة الحجرات في التعامل مع الناس،** تناول فيه الوصايا التسع المعروفة في سورة الحجرات، ولأن المؤلف إمام وخطيب مسجد الفرقان بفلسطين، فإنه تناول الموضوع بأسلوب وعْظِيّ دعَويّ.



٦) عودة، أدب المعاملة وأثره في بناء العلاقات الإنسانية من منظور قرآني، بحث بالشبكة العالمية:

ركّز على جانبين:

الأول: التوجيهات القرآنية التي تحث على الالتزام بأدب التعامل مع الآخرين، ودوره في بناء العلاقات الإنسانية.

الثاني: الوقوف مع أنموذج تطبيقي، وهو موقف يوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ مع السجناء، وانعكاس ذلك على علاقته بهم.

۞ المنهجية:

اتبعتُ في هذا البحث المنهجين: الاستنباطي، والاستردادي؛ حيث قمت بتحديد الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع الدراسة، واستنباط دلالاتها ومعانيها، والاسترشاد بأقوال المفسرين والعلماء والباحثين، ولم أتعمق في اختلافات العلماء في المسائل الفقهية؛ وإنما حاولتُ الاقتصار على المختصر المفيد؛ تجنبًا للحشو والتطويل، فحسبي إظهار جوانب المنهج القرآني في التعامل، ولم ألتزم بترتيب آيات السورة، وإنما استشهدت بالآيات حسب مقتضى تقسيم البحث.

۞ خُطَّة الدراسة:

تشمل هذه الدراسة الآتي:

* **مقدمة:** حوت نبذة عن الموضوع وأهميته، وأهداف الدراسة، والدراسات السابقة، والمنهجية المُتَّبَعة.
* **التمهيد:** في سورة الحجرات: بيان التنـزيل ومقتضيات المضمون.




* **المبحث الأول: منهج التعامل مع الله ورسوله، وشمل مطلبين:**

- المطلب الأول: منهج التعامل مع الله تعالى عقيدة وشريعة.
- المطلب الثاني: منهج التعامل مع المقام النبوي.

* **المبحث الثاني: منهج التعامل الإنساني، وشمل مطلبين:**

- المطلب الأول: منهج التعامل في ظِلّ الوَحدة الإنسانية.
- المطلب الثاني: منهج التعامل في ظِلّ المجتمعات الإنسانية.

* **الخاتمة: حوت أهم النتائج والتوصيات**

❊ ❊ ❊





التمهيد

في سورة الحجرات

بيان التنزيل ومقتضيات المضمون

١) تعريف بالسورة:

* سورة الحجرات مدنية.
* عدد آياتها ثماني عشرة آية[١].
* هي السورة الثامنة بعد المئة في ترتيب نزول السور.
* نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم.
* وكان نزول هذه السورة سنة تسع، وتسميتها **بسورة الحجرات** لِذِكر الحجرات بها[٢] كعادة تسمية بقية السور القرآنية؛ إذ تُسمَّى بأشهَر شيء ذكَرَتْه السورة، والمقصود بالحجرات: حجرات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي بيوت أزواجه الطاهرات.

وسورة الحجرات تمثل المنهج الرباني المتكامل للمجتمع الإنساني، «وهي - على وجازتها - جمعت أحكامًا جليلة ضخمة، تتعلق بحقائق التربية الخالدة، وأسس المدنية الفاضلة، حتى سمّاها بعض العلماء سورة الأخلاق»[٣].

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة الكريمة أنها تكاد تستقل بوضع معالم

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٣٦٤)، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني، (٥/ ٨٣).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٧٨).

(٣) قبس من نور القرآن الكريم، للصابوني (١٢/ ٢٠٣).



كاملة لعالم نظيف، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم، والتي تكفل قيامه وصيانته، عالَم يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، عالَم نقي القلب، نظيف المشاعر، عفّ اللسان، وقبل ذلك عفّ السريرة، عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره[(١)].

■ **غرض السورة الكريمة بشكل عام:**

* **إرشاد المؤمنين إلى بعض الآداب التي ينبغي الالتزام بها في التعامل مع الله ورسوله**، وكذلك بعض المناهج في التنظيم الاجتماعي.
* **كما أن هذه السورة ركزّت على بعض المبادئ والقواعد والأسس في التعامل بين الناس**، كما حوت بعض الأمور التشريعية والعقدية، وحقائق عن الوجود الإنساني[(٢)].
* **وهذه الموضوعات كلها تهدف إلى تخلية المجتمع من الأمراض الاجتماعية**، وتحليته بالفضائل والقيم العليا.

٢) أهم موضوعاتها:

شملت سورة الحجرات موضوعات متعددة: تنوعت بين الأحكام، والآداب، والإيمان. وكلها تهدف إلى سلوك المنهج القويم في التعامل؛ سواء كان هذا التعامل مع الله تعالى وشرعه القويم، أو التعامل مع رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تعامل الناس بين بعضهم، مع الرباط الوثيق المتصل بالله سبحانه خالق الكون والإنسان، والحاكم والمتصرف فيهما، قال الفخر الرازي عند الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]: «هذه السورة

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٦/ ٣٣٣٥).
(٢) سورة الحجرات منهج تربوي لمجتمع مثالي، للأمين (٥٢).





فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله تعالى، أو مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو مع غيرهم من أبناء الجنس»[١].

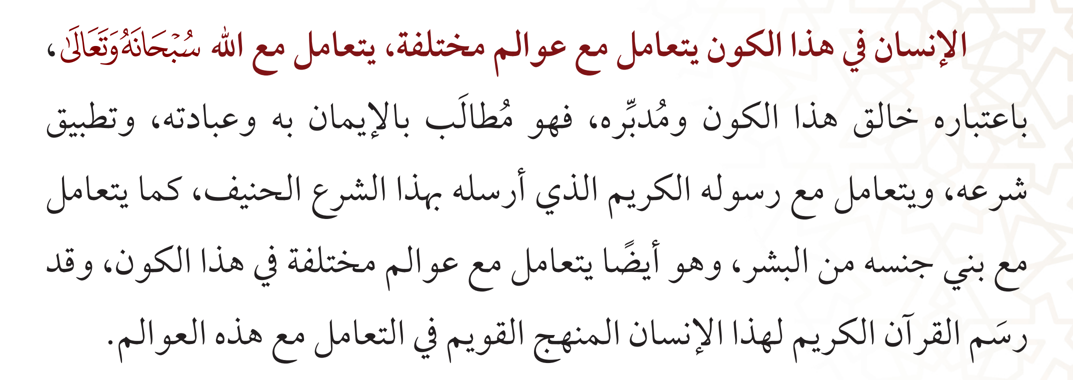
❊ ❊ ❊

(١) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ٩٧-٩٨).

المبحث الأول



منهج التعامل مع الله ورسوله



الإنسان في هذا الكون يتعامل مع عوالم مختلفة، يتعامل مع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، باعتباره خالق هذا الكون ومُدبِّره، فهو مُطالَب بالإيمان به وعبادته، وتطبيق شرعه، ويتعامل مع رسوله الكريم الذي أرسله بهذا الشرع الحنيف، كما يتعامل مع بني جنسه من البشر، وهو أيضًا يتعامل مع عوالم مختلفة في هذا الكون، وقد رسَم القرآن الكريم لهذا الإنسان المنهج القويم في التعامل مع هذه العوالم.

۞ ويشير القرآن الكريم إلى مبدأ مهم في التعامل:

فالدِّينُ في المنظور القرآني ليس صلاةً وصيامًا في جهة، وجلافةً وجَفَاءً في التعامل في الجهة الأخرى، بل هو وَحْدَةٌ متكاملة يرتبط فيها الجانب الإيماني بالجانب العَملي في الحياة، قال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فهذه الآية تشير إلى ملامح الشخصية الإسلامية التي ترتكز على جانبين اثنين: جانب الفكر والإيمان وأداء العبادات، وجانب الممارسة في السلوك الذاتي، وفي العلاقة مع الناس ومع المواقف الصعبة في الحياة.

نلمح ذلك من خلال تحديد طبيعة البِرّ الذي يعني التوسُّع في الخير والإحسان،





كما يذكر أهل اللغة[١]، لأنه يمثِّل سرَّ الشخصيَّة لدى المؤمن في آفاق التصوُّر وميدان التعامل، فبالإيمان والعمل تتكامل الشخصية وتنطلق[٢].

❊ ❊ ❊

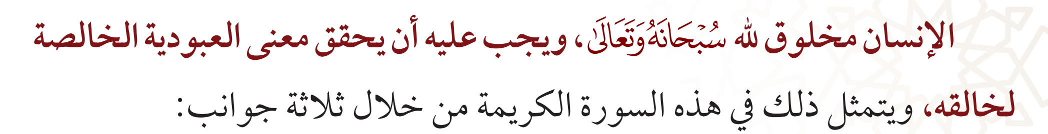
(١) يُنظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني (٥٠).

(٢) أدب المعاملة وأثره في بناء العلاقات الإنسانية من منظور قرآني، لعودة عبد (٣٠٠).

المطلب الأول



منهج التعامل مع الله تعالى عقيدة وشريعة



الإنسان مخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويجب عليه أن يحقق معنى العبودية الخالصة لخالقه، ويتمثل ذلك في هذه السورة الكريمة من خلال ثلاثة جوانب:

* **الأول: الإيمان الحقيقي الخالص لله سبحانه.**
* **الثاني: اتباع شرع الله المُنزَّل على سيدنا محمد** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
* **الثالث: تقوى الله تعالى.**

أولًا: في جانب الإيمان:

بيَّنت السورة الكريمة منهجًا سديدًا في التعامل مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الجانب الإيماني، فقد بيّنت حقيقة الإيمان والإسلام[1]، ورسمت المنهج الذي يجب أن يسلكه الإنسان المسلم، وأنه لا يمكنه ادِّعاء الإيمان بمجرد دخوله في الإسلام، فالله يعلم ما في ضمير الإنسان ومُطَّلِع عليه؛ فبدأت الآيات ببيان الخطأ الذي وقع فيه الأعراب الذين يظنون أنهم آمنوا، وادعوا بمجرد دخولهم الإسلام مقام الإيمان، بل ويمنُّون على النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإيمانهم، فبيّنت السورة الكريمة لهؤلاء أن الأَوْلى أن يحمدوا الله تعالى على توفيقه إياهم للهداية إلى الإيمان ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات: ١٤].

قيل: إن هذه الآيات نزلت في أعراب بني أسد، قالوا: آمنَّا أول ما دخلوا في الإسلام، ومَنُّوا على رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتَلَتْك

---

(١) كثر كلام العلماء حول الإسلام والإيمان والفرق بينهما، ولا مجال للحديث هنا عن ذلك اختصارًا.

العربُ ولم نُقاتِلك[1].

فأراد الله أن يُعلِّمهم حقيقة ما هو قائم في نفوسهم وهم يقولون هذا القول، وأنهم دخلوا في الإسلام استسلامًا، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان. فدل بهذا على أن حقيقة الإيمان لم تستقرّ في قلوبهم، ولم تشْرَبها أرواحهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤][2].

والذي يظهر أن هؤلاء الأعراب قالوا هذا الكلام جهلًا منهم، فإنهم يظنون أنهم بمجرد دخولهم الإسلام أصبحوا مؤمنين خُلَّصًا.

قال ابن تيمية: «وسياق الآية يدل على أن الله ذمهم لكونهم منُّوا بإسلامهم لجهلهم وجفائهم وأظهروا ما في أنفسهم مع علم الله به»[3].

ثم إن المنهج القرآني لم يُنكر على هؤلاء الأعراب هذا التصرف فحسب، بل بيَّن لهم الصواب، وهو أن حقيقة الإيمان ليست دعوى باللسان، وإنما عقيدة راسخة في القلب، تظهر آثارها في تصرفات الإنسان[4]، فالمؤمن الحق هو من أخلص في إيمانه، وصدَّق تصديقًا جازمًا لا يمازجه شكّ ولا ريب، وقام بما يجب عليه تجاه خالقه، ودينه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات: ١٥].

ويؤكِّد القرآن الكريم أن هذا هو الإيمان الصادق ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ «الصادقون في عقيدتهم، الصادقون حين يقولون إنهم مؤمنون، فإذا لم تتحقق

---

(١) مسند البزار، للبزار، حديث رقم (٥١٤١) مسند ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١١/ ٣٢٨)، والأحكام الشرعية الكبرى، للإشبيلي (٤/ ٢١١).

(٢) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٤٩).

(٣) الإيمان، لابن تيمية (١٩٣).

(٤) قبس من نور القرآن الكريم، للصابوني (١٢/ ٢٢٢).



تلك المشاعر في القلب، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة، فالإيمان لا يتحقق، والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون»(١).

كما أوضحت الآيات الكريمة ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من الأدب مع الله سبحانه، الذي لا يخفى عليه ما في الضمائر، ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحجرات: ١٦].

ثم يأتي التوجيه الرباني إلى الرسول ﷺ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧] أي: يمنُّون عليك بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم(٢)، فالله غني عن عباده وعن إيمانهم وعبادتهم، والعباد هم المحتاجون إليه سبحانه. لو تفكَّر الإنسان العاقل الذي هداه الله إلى الإيمان، لأيقَنَ بصدق أنه ممنون لله بهذا التوفيق الذي هداه الله إليه؛ فالإيمان يمنح الإنسان التصور الصحيح لهذا الكون، وهذه الحياة وما فيها من أسرار، تنعكس عليه في حياته وفي تعامله مع الكون بما فيه من عوالم مختلفة.

وتختم السورة الكريمة بتنبيه هؤلاء الأعراب وغيرهم على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المتفرِّد بعلم الغيب يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه ما عليه حالكم من أعمال، وحتى ما تُكِنّه الصدور وتُخفِيه النفوس ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: ١٨].

ثانيًا: في جانب التشريع:

المُشرِّع هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإنسان مُطالَب بأن يُطبِّق شرع الله في جميع شؤون الحياة، ولا يمكن لأي إنسان أن يُقدِّم أو يؤخِّر شيئًا في شرع الله.

(١) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٥٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٩٠).



وفي هذه السورة الكريمة، بل في بدايتها رسمٌ للمنهج الذي ينبغي على الإنسان اتباعه تجاه شرع الله الذي بعث به رسوله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بنداء عباد الله المؤمنين، محدِّدة المنهج الذي يجب عليهم اتباعه في تعاملهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشرعه الذي بُعِث به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره بتبليغه إياهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾ [الحجرات: ١] «أي: لا تُقدِّموا قولًا ولا فعلًا بين يدي الله وقول رسوله وفعله، فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا»[١].

قرأ الجمهور ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ بضم الفوقية وكسر الدال مشددة. وقرأ يعقوب بفتحهما ﴿تَقَدَّمُوا﴾ على أن أصله: لا تتقدموا[٢].

والتقدم حقيقته: المشي قبل الغير، وفعله المجرَّد: قدم من باب نَصَرَ، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [هود: ٩٨]. وهنا استعارة تمثيلية؛ بتشبيه حال من يفعل فِعلًا دون إذن من الله ورسوله، بحال من يتقدم مماشيه في مشيه ويتركه خلفه[٣]. أي لا تُقدِّموا أنفسكم في حضرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: لا تجعلوا لأنفسكم تقدُّمًا ورأيًا عنده، وحينئذ تتحد القراءتان في المعنى، وهما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال، وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال[٤].

والمقصود: لا تعجلوا بقضاء أمر قبل أن يُقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله ورسوله، بل كُونوا تبعًا لحكم الله ورسوله في جميع الأمور[٥]. وقد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦/ ٢٧٣).

(٢) القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة، لشرف (٥١٥).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٠).

(٤) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ٩٢).

(٥) جامع البيان في تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٢١/ ٣٣٥). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٦٤).



حصل من قوله ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ معنى اتبعوا الله ورسوله[1].

ومفاد هذا المنهج هو أنه لا يمكن للبشر - بأي حال من الأحوال - أن يقترحوا أحكامًا تشريعية، فضلًا عن أن يكون لهم الصدارة في سَنّ الأحكام الشرعية، فالله سبحانه هو المُشرِّع، أو أن يُبدوا رأيًا في أي حكم شرعه الله عليهم، وإنما عليهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، فأحكام الله لا تقبل المفاصلة ولا المساومة، ولا يحقّ لأي إنسان أن يعترض على حكم الله، أو أن يتدخل في تغيير شيء من أحكامه، بل التسليم المُطلَق، والعمل دون تردُّد، لأن الحاكمية المُطْلَقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو وحده مصدر التشريعات والأحكام، عن طريق إنزالها على رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإنسان يجب أن يتلقى أحكام الله وتشريعاته بالقبول والتسليم، وعليه تنفيذها؛ باتباع الأوامر الإلهية، والانتهاء عما نهى الله عنه.

لذا فإن العالم الإسلامي مطالب اليوم أن يقف عند هذه الآية الكرية، ويتدبر فحواها، ويعي مدلولها، في سنّ التشريعات، وإصدار القوانين المنظمة للمجتمعات؛ لأنه لا يحق للمسلمين ولو اجتمعوا أن يُشرِّعوا شيئًا من عقولهم ما دام كتاب الله تعالى ورسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أظهرهم، والواجب عليهم أن ينطلقوا من هدي الله ومنهجه، المتمثل في الكتاب والسُّنّة.

ثالثًا: في جانب التقوى:

تقوى الله تعالى عامل مهمٌّ لتزكية النفس وتهذيبها، ويترتب عليها آثار مهمّة في حياة الإنسان، فالتقوى قوّة داخليّة وقدرة نفسية تمتلك من خلالها النفس القدرة على إطاعة الأوامر الإلهيّة، وعلى مقاومة ميولها وأهوائها، ومنشؤها الخوف من

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨١).



الله، وأثرها تجنّب معصيته وسخطه، وهي تساعد الإنسان على تجنُّب حبائل الشيطان وإغراء الدنيا[1].

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في بيانِ حقيقة التقوى: «وأما التقوى فحقيقتُها العملُ بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر، وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنَّهي، وخوفًا من وعيده»[2].

ومن خلال هذا التَّعريف والبيان لحقيقة التَّقوى، والتأمل في آيات هذه السورة الكريمة تظهر أهميتها في حياة الإنسان؛ فقد أمر الله بها، وجعلها ثمرة طاعته في أداء العبادات التي كلَّف بها العباد، كما جعلها الميزان الحقيقي لتفاضل النَّاس، ولذلك كان مقرُّها القلب، الَّذي هو أعظم عضوٍ في الإنسان، والَّذي عليه مدار صلاح سائر الأعضاء والأركان، حيث بصلاحه يصلح الجسد كلُّه، وبفساده يفسد الجسد كلُّه[3].

وقد ورد ذكر التقوى في هذه السورة الكريمة في مواضع مختلفة، تنوعت بين الأمر بها، وبيان أثرها، وامتداح الملتزمين بها، وهي على النحو الآتي:

ورد الأمر بها في افتتاح السورة الكريمة -بعد نهي المؤمنين من التقدم بين الله ورسوله- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١]، «فهو أدب نفسي مع الله ورسوله، وهو منهج في التلقِّي والتنفيذ، وهو أصل من أصول التشريع والعمل في الوقت ذاته، وهو منبثق من تقوى الله، وراجع إليها، هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم»[4].

---

(١) تزكية النفس وتهذيبها، للأميني (١٠١).

(٢) الرسالة التبوكية، لابن قيم الجوزية (٨).

(٣) التقوى: حقيقتها وأهميتها وثمرتها، شبكة راية الإصلاح.

(٤) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٣٨).



ويأتي ذكر التقوى في الآية الثالثة من السورة الكريم، ليس أمرًا بها، ولكن امتداحًا للذين يسيرون على منهج الله، وينفذون أوامره، فهم الذين نجحوا في الامتحان، نتيجة التقوى التي يتحلون بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ [الحجرات: ٣]. أي: أخلص قلوبهم، والمعنى: اختبر الله قلوبهم فوجدهم مخلصين[١].

قال ابن جرير: «هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها وأخلصها للتقوى، يعني لاتقائه بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخلص جيدها، ويبطل خبثها»[٢]، فهؤلاء هم الذين تقع السكينةُ عليهم من هيبة حضرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بسبب التقوى، فهم الذين امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى بانتزاع حُبِّ الشهوات منها[٣].

ويعود السياق بالأمر بالتقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات: ١٠]، والأمر هنا في هذا الموضع فيه إشارة إلى ما يصونهم عن التشاجر؛ لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره[٤].

ثم يأمر الله تعالى بالتقوى بعد أمره عباده المؤمنين باجتناب الظن السيئ، ونهيه سبحانه عباده عن التجسس والغيبة، وهي أمراض نفسية اجتماعية خطيرة، تأكيدًا منه سبحانه أن التقوى تعصم صاحبها من الوقوع في مثل هذه المحظورات،

---

(١) سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية، للعمر (٢٧).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢/ ٢٨٢).

(٣) لطائف الإشارات للقشيري (٣/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ١٠٦).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات: ١٢].

ثم يأتي البيان الإلهي ليبيّن أن التقوى هي الميزان الحقيقي الذي يتفاضل به الناس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

قال البيضاوي: «فإن التقوى بها تكمل النفوس، وتتفاضل بها الأشخاص، فمن أراد شرفًا فليلتمسه منها، كما قال ﷺ: «**من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله**»[(١)].

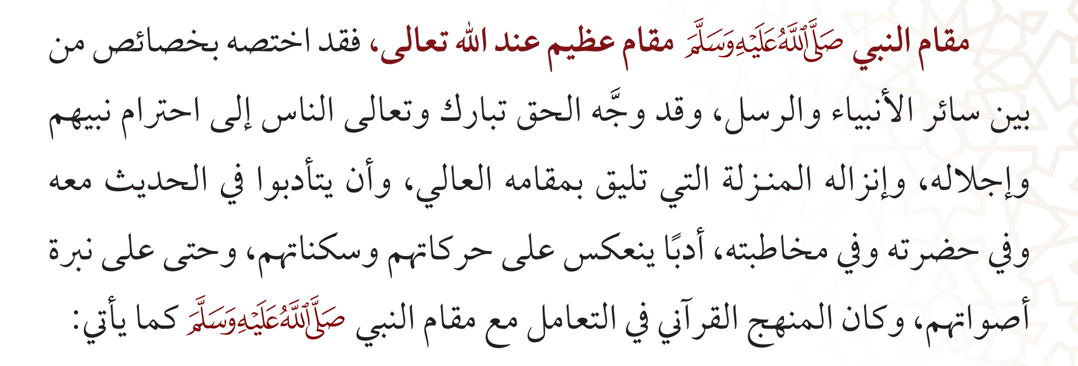
* * *

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (٥/ ١٣٧). والحديث رواه القضاعي، مسند الشهاب، رقم الحديث (٣٦٧)، (٢/ ٢٣٤). وذكره الجرجاني في الضعفاء وضعّف راويه. يُنظر: الكامل في الضعفاء، للجرجاني (٨/ ٤٠٥).



المطلب الثاني

منهج التعامل مع المقام النبوي



مقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقام عظيم عند الله تعالى، فقد اختصه بخصائص من بين سائر الأنبياء والرسل، وقد وجَّه الحق تبارك وتعالى الناس إلى احترام نبيهم وإجلاله، وإنزاله المنزلة التي تليق بمقامه العالي، وأن يتأدبوا في الحديث معه وفي حضرته وفي مخاطبته، أدبًا ينعكس على حركاتهم وسكناتهم، وحتى على نبرة أصواتهم، وكان المنهج القرآني في التعامل مع مقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يأتي:

١) عدم رفع الصوت في حضرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

من المناهج القرآنية في التعامل عمومًا هو خفض الصوت، وعدم رفعه، يظهر ذلك في التوجيه القرآني في قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، والحكمة من ذلك كما يقول الألوسي: «أنه أوفر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع، وفهمه»[(١)].

وإذا كان هذا المنهج مطلوبًا مع العامة؛ فإنه يكون أكيدًا مع من لهم مكانة وشأنًا عند الله سبحانه وعند البشر، وعلى هذا المنهج القرآني جاء التوجيه بخفض الصوت في حضرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه السورة الكريمة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢].

وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري في صحيحه في قصة وفد بني تميم بسنده إلى ابن الزبير، قال: قَدِم ركب من بني تميم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة. قال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس. قال

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي (١١/ ٩٠).

أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. قال عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ حتى انقضت الآية[1].

والرفع: مستعار لجهر الصوت جهرًا متجاوزًا لمعتاد الكلام[2].

قال الفخر الرازي في تفسير ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾: «المراد حقيقته؛ وذلك لأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام»[3].

وإذا كانت الآية الكريمة قد نزلت في أفضل الناس وخيرة الرجال من صحابة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهما رفعا صوتيهما في أمر يريان فيه مصلحة لدين الله، أمام حضرة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن ذلك منهما بقصد الإيذاء؛ فكيف بغيرهما من عامة المسلمين[4]؟!

٢) عدم الجهر بالقول في مخاطبة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢] فقوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ نهي عن جهر آخر وهو الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لوجوب التغاير بين مقتضى قوله ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] ومقتضى ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾[5].

---

(١) صحيح البخاري، للبخاري، حديث رقم (٤١٠٩) باب: وفد بني تميم (٤/ ١٥٨٧).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٤).

(٣) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ٩٣).

(٤) يُنظر: قبس من نور القرآن الكريم، للصابوني (١٢/ ٢٠٨).

(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٤).

أخرج ابن جرير الطبري عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ «كانوا يجهرون له بالكلام، ويرفعون أصواتهم، فوعظهم الله، ونهاهم عن ذلك»[1]. وإذا كان هذا في مجلس النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وفي حضرته، فإنه كذلك بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، فاحترام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يجب أن يكون في كل الأحوال؛ سواء كان في حضرته أو في غيبته، في حياته أو في مماته، قال الحافظ ابن كثير: «قال العلماء: يُكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يُكره في حياته؛ لأنه محترم حيًا وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه، دائمًا»[2].

٣) الثناء على من يغض الصوت في حضرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ:

امتدح الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الممتثلين للنهي الإلهي عن رفع الصوت وعن الجهر بالقول في حضرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وجعل منزلتهم منزلة المؤمنين الصادقين، الذين أخلصوا في إيمانهم، واستحقوا بذلك المثوبة عند الله تعالى، وهي المغفرة والأجر العظيم منه سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ [الحجرات: ٣].

فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] كان أبو بكر لا يكلم رسول الله إلا كأخي السرار[3]، أي: مصاحب السرّ من الكلام، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية[4]. أي إنَّ الذين يَكُفُّون رفع أَصواتِهم عند رسول الله.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢١/ ٣٣٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٦٨).

(٣) أسباب نزول القرآن، للواحدي (٤٠٣).

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٥).





فأصل الْغَضِّ: الْكَفُّ فِي لِين، ومنه غَضُّ الْبَصَرِ، وهو كَفُّهُ عَنِ النَّظَرِ[1]، والغض هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار.

والامتحان: الاختبار والتجربة، وهو افتعال من مَحَنَهُ إذا اختبره، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة، كقولهم: اضطره إلى كذا.

واللام في قوله ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ لام العلة، والتقدير: امتحن قلوبهم لأجل التقوى، أي لتكون فيها التقوى، أي ليكونوا أتقياء[2].

إن هذا المنهج الذي تربى عليه الصدر الأول هو الذي ارتقى بهم إلى المكانة التي تبوَّءُوها في التعامل الإنساني؛ سواء مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو مع غيره، إنه المنهج الرباني الذي من اتبعه سار في درب الهداية والتوفيق.

٤) تأنيب الذين نادوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وراء الحجرات:

وبعد نهي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن رفع الصوت والجهر به في حضرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وثنائه على الذين يغضُّون أصواتهم في حضرته إجلالًا واحترامًا؛ قابل ذلك بتأنيب من خالَف هذا المنهج القويم والأدب الرفيع، ولم يعرف كيف يتأدب في خطابه مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بل وصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء بأنهم جاهلون لا يعقلون، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

وسبب نزول هذه الآية الكريمة أن ناسًا أتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجعلوا ينادونه وهو في الحجرة: يا محمد يا محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية[3].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢١/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: أسباب نزول القرآن، للواحدي (٤٠٣) وما بعدها.





وبيَّن الحق تبارك وتعالى لهؤلاء النفر ما هو أوْلَى من تصرفهم هذا، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾، فإن هذا يكسبهم وقارًا بين أهل المدينة، ويستدعي لهم الإقبال من الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، إذ يخرج إليهم غير كاره لندائهم إياه، ورفع أصواتهم في مسجده فكان فيما فعلوه جلافة[1].

ومن ذلك كله يؤخذ أن هذه الآداب التي ينبغي أن يتأدب بها المسلم أمام المربي والقدوة للإنسانية جمعاء، فإنه كذلك ينبغي أيضًا أن يتأدب بها أمام المُربِّين والأساتذة والعلماء؛ فإن العلماء ورثة الأنبياء، فيجب احترامهم وإجلالهم، ويجب أن يُنزَل الناس منازلهم، فلا يكون الحديث معهم كالحديث بين الأقران والأصدقاء، فهذا هو المنهج القرآني في التعامل الإنساني، كما أنه هو منهج السلف الصالح، منذ زمن الصحابة رضوان الله عليهم[2].

❊ ❊ ❊

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية، للعمر (١١٢).





المبحث الثاني

منهج التعامل الإنساني

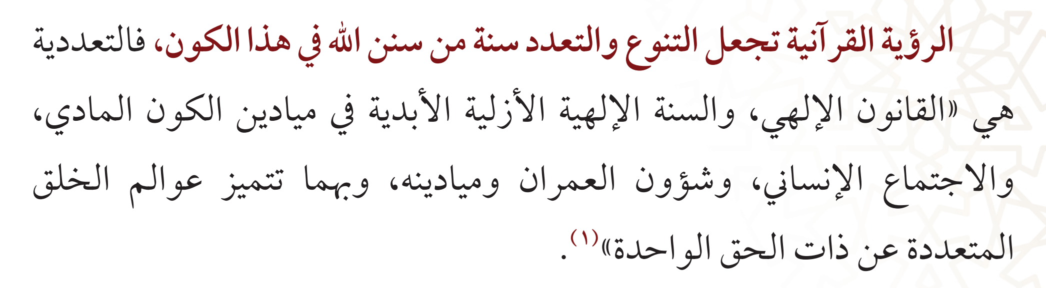
الإنسان مدني بطبعه، فقد جعل الله تعالى في فطرته ضرورة التعامل مع الآخر والاحتياج إليه، لكي تتكامل الحياة الإنسانية، ولذلك فإن الإنسان لا يستطيع العيش منفردًا، فلا بد أن يعيش في مجتمع، ومن خلاله يتعامل مع غيره في شتى أنواع مجالات الحياة، والمجتمعات الإنسانية تتنوع وتختلف في المعتقدات والأفكار، وطرق العيش، كتنوع الأعراق والألسن والألوان، ولا مفرَّ للإنسان عن التعامل مع هذه الأصناف المختلفة، وقد وضع القرآن الكريم المنهج القويم للتعامل الإنساني، بوضع الأسس والقواعد المؤطرة لذلك، وسنتناول من خلال هذا المبحث ما ورد في سورة الحجرات في هذا الإطار.



المطلب الأول



منهج التعامل في ظِلال الوَحدة الإنسانية العامة



الرؤية القرآنية تجعل التنوع والتعدد سنة من سنن الله في هذا الكون، فالتعددية هي «القانون الإلهي، والسنة الإلهية الأزلية الأبدية في ميادين الكون المادي، والاجتماع الإنساني، وشؤون العمران وميادينه، وبهما تتميز عوالم الخلق المتعددة عن ذات الحق الواحدة»(١).

ومن ذلك تنوع الإنسانية إلى ذكر وأنثى، وشعوب وقبائل، يقول الله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فقد أشار القرآن الكريم إلى ميادين حكمت فيها السنة الإلهية بالتنوع والتعدد في إطار الوَحدة، فمنها أن الله تعالى اقتضت حكمته أن يكون من مظاهر الوَحدة الإنسانية هو خلقهم من ذكر وأنثى، ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ أي: من آدم وحواء، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم(٢). والمعنى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من رجل وامرأة، فكل واحد منكم إنسان مولود من إنسانية، لا تفترقون من هذه الجهة، والاختلاف الحاصل بالشعوب والقبائل - وهو اختلاف حاصل بالجعل الإلهي - ليس لكرامة وفضيلة، وإنما هو لتتعارفوا، فيتم بذلك اجتماعكم.

تنوّع الإنسانية للتعارف والتعاون:

والقرآن الكريم إذ يقرر هذا التنوع والتعدد ويبين الحكمة من ذلك؛ فإنه يدعو

---

(١) هل الإسلام هو الحل، لعمارة (٥٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٨٥). والكشاف، للزمخشري (٤/ ٣٧٧).

إلى توظيف ذلك في إقامة علاقات التعارف بين بني الإنسان، وذلك مدعاة إلى التفاعل والتكامل، فمنطوق قوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ يجعل التعارف بين أبناء بني آدم من أسمى الأهداف للحياة الإنسانية، ذلك أن التعارف إذا تم على الوجه الذي ينشده الحق ويتطلبه الكمال الإنساني؛ فإنه يحقق معاني الحياة الكريمة، فيتم تبادل المنافع بين الشعوب، فتأتلف، وتشيع بين الناس معاني الإخاء والتعاون(١).

يقول العقاد: «فالتعدد في الأمم وسيلة للتعارف والتعاون، وليس بوسيلة للادعاء والتنابذ والتعصب للأجناس والتعالي بالعصبيات»(٢).

فالقرآن الكريم وضع الإنسان في موضعه الصحيح، حين جعل تقسيمه إلى ذكر وأنثى، وأنه ينتمي بشعوبه وقبائله إلى الأسرة الإنسانية التي لا تفاضل بين الإخوة فيها بغير العمل الصالح، وبغير التقوى.

مقياس التفاضل الإنساني:

إن القرآن الكريم حين أعلن المساواة الإنسانية في الآية السابقة؛ فإنه جعل مجالًا لتفاضلها عندما قال بعد ذلك في الآية ذاتها ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.

«والمراد بالأكرم: الأنفس والأشرف، والأتقى: الأفضل في التقوى»(٣)؛ ففتح بذلك مجال التنافس والتفاضل في القيم العليا التي يستطيع الإنسان أن يحققها ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]؛ أي الرغبة في التنافس إلى طاعة الله(٤).

قال ابن عاشور: «لأنهم لما تساووا في أصل الخلقة من أب واحد وأم واحدة،

---

(١) أهداف الإسلام في توجيه الإنسان، لرفاعي (٣٣٩).

(٢) المجموعة الكاملة، للعقاد (٧/ ٤٦).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني (٥٥٧).





كان الشأن أن لا يفضل بعضهم بعضًا إلا بالكمال النفساني، وهو الكمال الذي يرضاه الله لهم، والذي جعل التقوى وسيلته، ولذلك ناط التفاضل بالكرم بـ(عند الله) إذ لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله به»[1].

وكما نلاحظ من هذا المعيار الذي أقره القرآن للتفاضل وسمح به في ظِلّ الإنسانية، فإن هذا المعيار يرتبط برباط اتصال الإنسان بخالقه، وليس له أي مرد إلى أصل الكيان الإنساني ومجال التكريم، «وفي هذا المعيار في التفاضل تبدو الصلة بالله هي الصلة الوحيدة التي تسمح بأن يتفاضل الناس على أساسها، فالتفاضل ليس مرده إلى الناس، بل مرده إلى الله عَزَّوَجَلَّ»[2].

فالتقوى الواردة في الآية والتي جعلها القرآن الكريم مجالًا للتفاضل هي كما قال عفيف طبارة: «فضيلة أراد بها القرآن إحسان الصلة ما بين الإنسان والخلق، وإحسان الصلة ما بين الإنسان وخالقه... والمراد أن يتقي الإنسان ما يغضب ربه، وما فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره»[3].

❊ ❊ ❊

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ٢١٨).

(٢) أصول المجتمع الإسلامي، لجمال الدين محمد (١٠٩).

(٣) روح الدين الإسلامي، لطبارة (٢٨٣).





المطلب الثاني

منهج التعامل في ظِلال المجتمعات الإنسانية

حوت سورة الحجرات منهجًا أنموذجيًا في التعاملات في الحياة اليومية للمجتمعات الإنسانية، ذلك بأنها شملت عدة وصايا؛ تنوعت بين الأوامر والنواهي، والمتأمل في هذه الوصايا يجدها تنصب في تجنب أمراض نفسية لها ضرر بالمجتمعات الإنسانية، أراد القرآن الكريم من خلال هذه الوصايا التحذير من الآفات التي قد تصيب النفس البشرية وتؤثر في العلاقات الإنسانية، فـ«المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدي القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس، وهي من كرامة المجموع»[1].

أولًا: الأوامر:

الأوامر الإلهية حكمها الوجوب ما لم تصرفه قرينة كما هو مقرر عند العلماء، والقرآن الكريم أنزله الله ليس للتلاوة فحسب؛ وإنما للتطبيق والعمل، لأنه منهج حياة للإنسانية، وقد ورد في سورة الحجرات أوامر تُعد من الضروريات، لأنها أساس التعامل والتعايش الإنساني، وبفقدها لا مجال للعيش والتعايش، وهذه الأوامر قواعد مهمة في حياة المجتمعات التي تنشد الحياة الآمنة المستقرة، التي تسودها المحبة والألفة والمودة، ويغمرها الإخاء والصفاء والنقاء، وهذه القواعد هي:

١- التبيّن في الأخبار:

قبول الأخبار الكاذبة دون تبيّن من أمرها من الأسباب الرئيسة في تفرق الناس

(١) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٤٤).



وتباغضهم؛ لذا جاء التوجيه القرآني بالمنهج الصحيح حين تلقي أي خبر من الأخبار، خاصة الأخبار مجهولة المصدر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦].

ذكر الواحدي أن هذه الآية الكريمة نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بني المصطلق ليجمع الصدقات، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم تلقوه تعظيمًا لله تعالى ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحدّثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهمّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله تعالى، فبدا له في الرجوع، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ من غضب الله وغضب رسوله. فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

يقول الفخر الرازي معقبًا على أسباب نزول هذه الآية الكريمة: «بل نقول هو نزل عامًا لبيان التثبت، وترك الاعتماد على قول الفاسق»[٢]. وهو يقصد بذلك أن سبب نزول هذه الآية عام في خبر الفاسق، وليس إطلاق الفاسق خاصًا بالوليد؛ لأنه اجتهد فأخطأ، ولا يُسمى بسبب ذلك فاسقًا على الحقيقة، فأكثر المفسرين على أن الوليد كان ثقة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصار فاسقًا بكذبه، أي كاذبًا، ونقل القرطبي عن ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله: الفاسق الكاذب[٣]،

(١) أسباب نزول القرآن، للواحدي (٤٠٧).
(٢) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ٩٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨/ ٢٨٣).





والظاهر أنه سمي فاسقًا تنفيرًا وزجرًا عن الاستعجال في الأمر من غير تثبت، فهو متأول ومجتهد، وليس فاسقًا على الحقيقة(١).

وعلى العموم فإن مدلول الآية عام، وهو يتضمن منهج التمحيص والتثبت من خبر الفاسق، فأما الصالح فيؤخذ بخبره؛ فهذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، ولا بد من التبيّن والتثبت، وفي خبر الفاسق أوكد، والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت، لأنه أحد مصادره(٢).

وقد كثر كلام العلماء حول قصة نزول هذه الآية الكريمة والوليد بن عقبة وعدالة المُخبر والشاهد بما لا مجال للخوض في ذلك، فالذي يعنينا هو المنهج الذي ينبغي أن نتبعه في تلقي الأخبار والتعامل معها. فإن الطبيعة البشرية دائمًا في عجل من أمرها ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء: ١١]، فالنفس البشرية تتلقى الأخبار الجديدة بالقبول والتأثر، وبمجرد سماع الخبر ينطلق الفكر إلى ردة فعل معاكسة، دون وعي أو تفكر في العواقب، وللشيطان نصيب في حث الإنسان على ذلك، فعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»(٣).

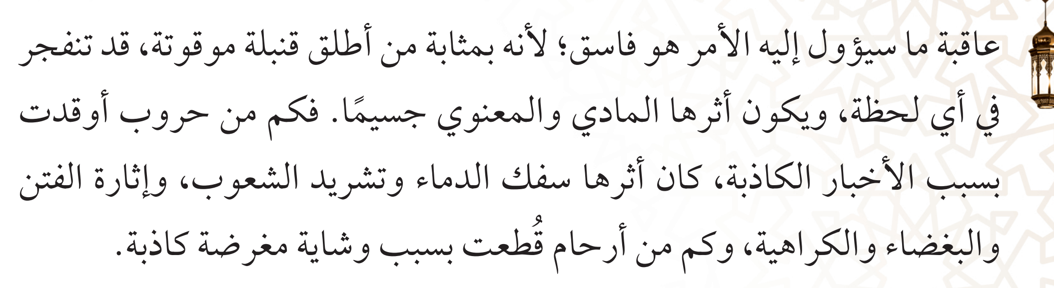
والخطاب القرآني هنا بهذه الصيغة يومئ إلى أمر مهم جدًّا، وهو ضرورة التبيّن والتثبت من الخبر قبل اتخاذ القرار؛ لأن القرار يجب أن يُبنى على حقائق، وليس على شيء لم يتبيّن صوابه من خطئه؛ ولذلك جاء الخطاب القرآني ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾، ولم يقل: إن جاءكم خبر أو جاءكم مُخبر بنبأ، ولوصف المُخبر بالفسق دلالة واضحة؛ وهي أن الذي يتعمد حمل الخبر المغلوط دون تفكر في

---

(١) التفسير المنير، للزحيلي (٢٦/ ٢٢٧).

(٢) التفسير التربوي للقرآن الكريم، للباز (٣/ ٣٢٠).

(٣) سنن البيهقي الكبرى، للبيهقي، رقم الحديث (٢٠٠٥٧) باب التثبت في الحكم (١٠/ ١٠٤).



عاقبة ما سيؤول إليه الأمر هو فاسق؛ لأنه بمثابة من أطلق قنبلة موقوتة، قد تنفجر في أي لحظة، ويكون أثرها المادي والمعنوي جسيمًا. فكم من حروب أوقدت بسبب الأخبار الكاذبة، كان أثرها سفك الدماء وتشريد الشعوب، وإثارة الفتن والبغضاء والكراهية، وكم من أرحام قُطعت بسبب وشاية مغرضة كاذبة.

وفي القراءتين ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ و﴿فتثبَّتوا﴾ تأكيد لمعنى التأكد والاحتياط في قبول الأخبار؛ فقد قرأ الجمهور: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ بفوقية فموحدة فتحتية فنون، من البيان. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿فتثبَّتوا﴾ بفوقية فمثلثة فموحدة ففوقية، من الثبت[(١)].

* **التبيين**: تطلُّب البيان وهو ظهور الأمر.
* **التثبت**: التحري وتطلُّب الثبات وهو الصدق.

ومآل القراءتين واحد وإن اختلف معناهما، وهو الأمر بالتأني وعدم العجلة حتى تظهر الحقيقة فيما أنبأ به الفاسق[(٢)].

فتبيَّنُوا كراهة أن تصيبوا قومًا بخطأ فتصبحوا نادمين على ما فعلتم. فلو أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عمل بقول الوليد بن عقبة، لغزا بني المصطلق، وسفك الدماء، وأخذ الأموال بغير حق، فالله يرشد عباده إلى هذا الأدب، ويحذرهم من العمل بالخبر قبل الكشف عنه والتثبت منه[(٣)].

يقول صاحب الظِّلال: «ويُخصّص الفاسق لأنه مظنة الكذب، وحتى لا يشيع

---

(١) القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة، لشرف (٥١٦)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨/ ٢٨٣).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٧/ ٤١١).

(٣) التفسير الواضح، للحجازي (٣/ ٥٠٣).



الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها، فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذًا بها، فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره، وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطًا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء، ولا تعجل الجماعة في تصرف بناءً على خبر فاسق، فتصيب قومًا بظلم عن جهالة وتسرع، فتندم على ارتكابها ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل في اندفاع»[(١)].

والتعبير بكلمة (إنْ) في قوله ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ التي هي للشك؛ للإشارة إلى أن الغالب في المؤمن أن يكون نبيهًا يقظًا، يستطيع أن يفهم ويدرك المغازي، وما تؤول إليه الأمور، وما يترتب عليها، لذا لا يأتيهم كاذب يكذب عليه، وإن حصل فلا يكون إلا نادرًا[(٢)].

«إن من يتأمل في واقع الناس اليوم، وينظر في الكم الهائل من الأخبار التي نسمعها في كل يوم، ويرى الاختلاف والتباين بين مصادر هذه الأخبار، يدرك عظمة هذا الدين، وسمو هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام، وأمر به القرآن، وحفظته السنة، وحفظت به السنة»[(٣)].

ولذلك يقول سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦]: «التثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق»[(٤)].

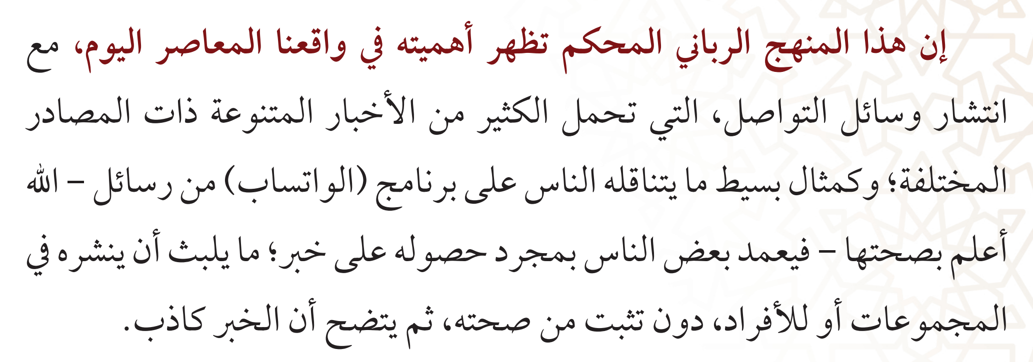
---

(١) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٤١).

(٢) تفسير آيات الأحكام، للسايس، وآخرون (٤/ ٤٦٠).

(٣) سورة الأحزاب دراسة تحليلية وموضوعية، للعمر (١٧٦).

(٤) في ظلال القرآن، لقطب (٤/ ٢٢٢٧).



إن هذا المنهج الرباني المحكم تظهر أهميته في واقعنا المعاصر اليوم، مع انتشار وسائل التواصل، التي تحمل الكثير من الأخبار المتنوعة ذات المصادر المختلفة؛ وكمثال بسيط ما يتناقله الناس على برنامج (الواتساب) من رسائل – الله أعلم بصحتها – فيعمد بعض الناس بمجرد حصوله على خبر؛ ما يلبث أن ينشره في المجموعات أو للأفراد، دون تثبت من صحته، ثم يتضح أن الخبر كاذب.

إن مثل هذا العمل له آثاره السلبية في أوساط المجتمعات الإنسانية، فقد يترتب عليه أحقاد وعداوات على مستوى المجتمعات والأفراد، فحري بالإنسان أن يتمسك بالمنهج القرآني قبل أن ينقل أي خبر كان، خاصة ونحن نملك – في عالمنا اليوم – إمكانات ووسائل التثبت السريع التي تمكننا من الوصول إلى مصادر الأخبار بسرعة فائقة.

٢ – الصلح بين المتخاصمين:

قد يترتب على عدم التثبت من الأخبار الكاذبة اتخاذ مواقف متضادة ينتج عنها خصام وشجار وقتال، وقد يكون ذلك ليس قصدًا، ولكن سوء فهم يحدث للناس، سواء على المستوى الفردي أو الطائفي، وقد يدخل الشيطان بين الناس فيُحدث بينهم الفرقة والخصام، والتنازع والاقتتال، وقد تأخذ الناس الحمية الجاهلية فيتعصبون لطائفتهم دون التحقق من سبب النزاع والشقاق، وهذا حاصل كثيرًا في المجتمعات الإنسانية، لذا أتبع القرآن الكريم هذا المنهج الكريم في التعامل في مثل هذه المواقف، فلو حصل اقتتال بين طائفتين من المؤمنين، فإنه يتعين على الآخرين أن يقوموا بواجب الصلح، وإن أبت إحدى الطائفتين وبغت على الأخرى وتعذر الصلح؛ فيجب الوقوف بجانب الطائفة المبغي عليها، من باب نصرة المظلوم وكف الظالم عن الظلم، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ





ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ [الحجرات: ٩].

وقد روى أنس بن مالك - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما في الصحيحين - في سبب نزول هذه الآية الكريمة قال: قيل للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وركب حمارًا، فانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطيب ريحًا منك. فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتمه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال[١].

وانطلاقًا من قاعدة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»؛ فإن إصلاح ذات البين في أي قضية كانت مطلوب، وهو منهج إسلامي رصين، قرَّره الشرع الحنيف، وحث عليه، بل جعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ درجته أعلى من درجة كثير من الأعمال التعبدية، فعن أَبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ**». قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ**»[٢].

والصلح في الأساس كما هو في لغة العرب اسم من المصالحة، وهي المسالمة بعد المنازعة[٣]؛ لذلك فإن «إصلاح ذاتِ البين لا يأتي إلا بالخير، ففيه تأليفٌ بين القلوب وتقويةٌ للروابط ودفعٌ للشحناء، وبه تسكن النفوس، ويزول الخلاف

---

(١) صحيح البخاري، للبخاري، حديث رقم (٢٥٤٥) باب: ما جاء في الإصلاح بين الناس (٢/ ٩٥٨). وصحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، رقم الحديث (٤٧٦٢) (٥/ ١٨٣).

(٢) صحيح ابن حبان، لابن حبان، كتاب الصلح، رقم الحديث (٥٠٩٢) (١١/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: كتاب التعريفات، للجرجاني (١٣٤).



وتذهَب الفرقة، لذا دعانا الله تعالى إليه وأمرنا به»[1].

والتعبير بـ (إنْ) في قوله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقع قتال بين المسلمين، وإن وقع فإنه نادر[2]، وذكر القرآن الكريم الطائفة، وهي الجماعة من الناس، الذين يجمعهم رأي أو مذهب يمتازون به عن سواهم، وقد تُطلق على الواحد فصاعدًا[3].

وإن نظرةً إلى واقعنا المعاصر شاهد على أحوال المسلمين اليوم، من اقتتال وتفرق، فما أحوجنا إلى أن نتأمل ونتدبر ما يوجه إليه كتابنا الماثل بين أيدينا، ويدعونا إليه، ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى تطبيق هذا المنهج القرآني إذا أردنا الفلاح والنجاح في الحال والمآل، إننا نعيش زمن التفرق والانقسام، والتكاره والتباغض، بل الاقتتال البغيض، الذي ينطلق من فكر الطائفية والعرقية، فيا أمة الإسلام أفيقي واستفيقي من هذه الغفلة، فسبيل خلاصنا هو المنهج القرآني، الذي أنزله رب العزة والجلال لنطبقه في حياتنا.

٣- العدل والقسط:

وتبعًا لمنهج الصلح بين المتخاصمين السابق ذكره فإن المنهج القرآني يؤكد أن هذا الصلح يجب أن يكون عادلًا لكلا الطرفين. يقول الله تعالى في الآية السابقة: ﴿... فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد أمره بالإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين بالقسط، وهو العدل الذي لا تقوم المجتمعات ولا تستقر إلا به، والعدل هو: وضع الشيء

---

(١) الوصايا التسع في سورة الحجرات في التعامل مع الناس، لزغرب (٢٦).

(٢) تفسير آيات الأحكام، للسايس (٤/ ٤٦٦).

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه، للدرويش (٧/ ٢٥١).



في موضعه الصحيح؛ بإعطاء كل ذي حق حقه، من غير تفرقة، وعلى قدم المساواة.

وأمره سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالعدل مطلقًا في جميع الأحوال وفي جميع الأمور؛ فهو مطلوب من الحاكم مع رعيته، ومن الرعية مع الحاكم، مع الأب تجاه أبنائه، ومن الرجل مع زوجاته، ومن المعلم مع طلابه، وهكذا، والعدل في الإسلام عدل مطلق كما ذكرنا، حتى إنه مطلوب مع العدو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: ٨]، بل إنه مطلوب من الإنسان مع نفسه.

ولم يكتف المنهج القرآني بالأمر بالعدل فحسب؛ بل أكد على قضية القسط، وهذا تأكيد على أهمية العدل بين الفئات المتنازعة، فمعنى ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] أي: اعدلوا إن الله يحب العادلين، فـ ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ من «أَقْسَطَ» الرباعيّ، بخلاف «قَسَطَ» الثلاثيّ الذي معناه الجَوْر، يُقال: قَسَط الرجل؛ إذا جار، وأقْسَط؛ إذا عدَل.

قال ابن منظور: المُقسِط: هو العادل. يقال: أقسَط يُقسِط فهو مُقسِط إذا عدل، وقَسَطَ يُقسِط، فهو قاسط إذا جار[١].

- **فأصل كلمة القِسْط تأتي بمعنيين[٢]:**

الأول: بمعني العدل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] فهي تعني في الآية اعدلوا إن الله يحب العادلين[٣]، وبهذا المعنى

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (قسط) (١١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، للدامغاني (٣٨٥).

(٣) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨/ ٢٨٧).

يكون أصل الكلمة مأخوذًا من الفعل الرباعي أقسط واسم الفاعل منه مقسط.

الثاني: بمعنى الجور والميل عن الحق، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥] أي الجائرون الظالمون المائلون عن الحق. وعلى هذا فهي مأخوذة من الفعل الثلاثي «قَسَط» واسم الفاعل منه «قاسِط» أي بمعنى ظالِم وجائِر.

ولذلك قال الفخر الرازي: «الإقساط إزالة القسط وهو الجور والقاسط هو الجائر»[(١)].

كما أن المنهج القرآني في هذا الجانب منهج مُحكم ودقيق، ذلك أن ذكر العدل والقسط في الإصلاح بعد فيْئَة الفِئَة الباغية، فيه إشارة إلى أن الطائفة المغلوبة مظنة أن تتعرض إلى ظلم، وكأن المنطوق القرآني يقول: لا يحملنكم قهركم إياهم على ظلمهم[(٢)].

٤- اجتناب الظن السيئ:

سوء الظن بالآخرين مرض نفسي، يُبتلى به بعض بني الإنسان، وهو عادة سيئة، نهى عنها القرآن الكريم، وأرشد إلى المنهج الصحيح عند الابتلاء بهذه الظاهرة السيئة، والظن في لغة العرب من ظنَّ الشَّيء ظنًّا؛ علمه بغير يقين، وقد تأتي بمعنى اليقين.

الظِّنة: التهمة[(٣)].

والتحذير هنا من الظن السيئ، الذي هو غير متيقن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا

(١) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ١٠٦).

(٢) تفسير آيات الأحكام، للسايس (٤/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (ظنَّ) (٨/ ٢٧١،٢٧٢).

﴿مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات:١٢]، ولذلك نلحظ هذا الأسلوب الرائع من القرآن الكريم في نهيه عن هذا الأمر؛ فإنه لم يقل: اجتنبوا الظن، وإنما قال: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ لأن الظن قد يكون حسنًا وقد يكون سيئًا، لكن الغالب بين الناس هو الظن السيئ.

والسرّ في ذلك كما يقول الدرويش: «للإيذان بأن في الظنون ما يجب أن يُجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين؛ لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد تأمل وبُعد نظر وتمحيص واستشعار للتقوى»(١).

والظن السيئ هو أن يسيء الإنسان بغيره، يقول الماوردي: «سوء الظن هو عدم الثقة بمن هو لها أهل»(٢).

وقال ابن القيم: «سوء الظن: هو امتلاء القلب بالظنون السيئة بالناس؛ حتى يطفح على اللسان والجوارح»(٣).

وقال ابن كثير: «سوء الظن هو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله»(٤).

ولذلك اعتبر النبي ﷺ الظن أكذب الحديث، حيث قال فيما رواه أبو هريرة: «**إياكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث**»(٥).

وبما أن الظن قد يحدث في نفس الإنسان؛ فقد كان المنهج النبوي تجنيب

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه، للدرويش (٧/ ٢٥٨).
(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي (٦/ ١٨٦).
(٣) الروح، لابن قيّم الجوزية (٢٣٨) بتصرف.
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٧٧) بتصرف.
(٥) صحيح البخاري، للبخاري، رقم الحديث (٥٧١٧) باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٥/ ٢٢٥٣). وصحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٦٧٠١)، باب: تحريم الظن والتجسس (٨/ ١٠).



أصحابه أن يقعوا في ذلك، مخافة أن يقعوا في سوء الظن الذي يؤدي بهم إلى المعصية، وهذا من شفقته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه، فعن صفية بنت حُيَيّ قالت: «**كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معتكفًا، فأتيته أزوره ليلًا، فحدَّثته، ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسرعا، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: على رسلكما، إنها صفية بنت حُيَيّ. فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا أو قال: شيئًا**»(١).

قال النووي: «الحديث فيه فوائد: منها بيان كمال شفقته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أُمَّته، ومراعاته لمصالحهم، وصيانة قلوبهم وجوارحهم، وكان بالمؤمنين رحيمًا؛ فخاف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُلقي الشيطان في قلوبهما فيهلكا؛ فإنَّ ظنَّ السوء بالأنبياء كُفْر بالإجماع، والكبائر غير جائزة عليهم، وفيه أنَّ من ظنَّ شيئًا من نحو هذا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَر. وفيه استحباب التحرز من التعرض لسوء ظن الناس في الإنسان، وطلب السلامة، والاعتذار بالأعذار الصحيحة، وأنه متى فعل ما قد ينكر ظاهره مما هو حق، وقد يخفى أن يبين حاله ليدفع ظنَّ السوء»(٢).

إن الإسلام بهذا المنهج يريد أن يتحلى الإنسان بنقاء القلب وصفاء الروح؛ فإن الذي يتعود أن يسيء الظن بالآخرين يقع في كثير من الأمور المحذورة: منها عدم الثقة في الآخرين، مما يفقده جدية التعامل معهم، بل يجد نفورًا منهم في التعامل معه، هذا بالإضافة إلى ما يُحدثه سوء الظن من عدم تعاون بين أفراد المجتمع عندما يفقد بعضهم الثقة في بعض.

---

(١) صحيح البخاري، للبخاري، رقم الحديث (٣١٠٧) باب: صفة إبليس وجنوده (٣/ ١١٩٥). وصحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٥٨٠٨) باب: بيان أنه يستحب ... (٧/ ٨).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي (١٤/ ١٥٦).

ثانيًا: النواهي:

كما هو الحال في وجوب تنفيذ أوامر الله تعالى، فإن الحال كذلك في وجوب امتثال النواهي التي نهى الله عنها، ولو التزم المسلمون بهذا الأمر لكانت المجتمعات الإنسانية طاهرة من الآفات الاجتماعية الخطيرة التي تئن الأمم تحت وطأتها، لما يشهده العالم من تفتت وضياع بسبب وقوعهم فيما نهى الله عنه وحذَّرهم منه، وهذه القواعد هي:

١- عدم السخرية من الآخر:

السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء[1].

وقد نهى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن السخرية بالآخرين؛ لما له من أثر على العلاقات الإنسانية؛ أفرادًا وجماعات، فالساخر من الآخرين والمتعالي عليهم بعلمه أو ماله أو جاهه؛ أو غيرها من الأمور المادية يرى من نفسه أنه فوق الآخرين، ونسي أن من يسخر منهم قد يفوقونه في جوانب أخرى تفوق ما عنده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١].

روي عن أنس أنه قال: نزلت في نساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عيَّرن أم سلمة بالقِصَرِ، وقال عكرمة عن ابن عباس إن صفية بنت حييّ بن أخطب أتت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فقالت: يا رسول الله؛ إن النساء يعيرنني، ويقلن: يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي**

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٣/ ١٣١).



موسى، وإن زوجي محمد»، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

إن السخرية بالآخرين هو نيل من كرامتهم، واستخفاف بإنسانيتهم، وخوض في أعراضهم، والإنسان مخلوق مُكرَّم عند الله تعالى، فهو الذي خلَقه وسوَّاه، وكرَّمه، وعندما يسخر إنسان من إنسان؛ فإنه يستخفّ بكل هذه الموازين والخصائص التي حظي بها الإنسان من خالقه جَلَّ جَلَالُهُ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»[2].

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث الشريف يُحذِّر من تسوِّل له نفسه التعدي على حرمات الآخرين، ولذلك قام إجماع المسلمين على تحريم وتجريم هذا الأمر.

قال ابن حجر: «وقد قام الإجماع على تحريم ذلك»[3].

أي: الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين بخَلقهم أو خُلقهم؛ لما يُحدثه من أثر سيئ تجاه المجتمعات، «وهكذا ينبغي لكل مجتمع يريد السلامة والرقي والتقدم أن يكون حريصًا على التآخي والتعاون بعيدًا عن كل ما يؤثر سلبًا على المجتمع، ومن أشدّ ذلك وأخطرِه مرضُ الاستهزاء والسخرية، فهو يثير الأحقاد، ويدعو للمخْيلةِ والاحتقار، ويسبب الفرقة والاختلاف، ويورث العداوة والبغضاء، ويوهن بناء المجتمع القوي المتماسك. لقد نهى الله عن الاستهزاء والسخرية لأنها رذيلة من أخس رذائل البشر، وصفةٌ من أقبح صفات هذا الخلق الذميم،

---

(١) أسباب نزول القرآن، للواحدي (٩٤-٩٥).

(٢) صحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٦٧٠٦) باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٨/ ١٠).

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر، ج٢، ص٣٣.



يدل على خسة صاحبه ولؤم طبعه وفساد نشأته وانحطاط مستواه. والاستهزاء قد يكون بنظرة أو كلمة أو إشارة أو محاكاة أو غمز أو همز أو لمز، ومرد ذلك كله إلى القلب، فإذا انعقد على شيء من ذلك وقع المحذور»(١).

٢- عدم لمز الآخرين:

اللَّمْزُ: الطعن والضرب باللسان.(٢)

وأعظم اللمز إذا كان ذلك بسبب خِلقة خُلق عليها، أو أمر لا حيلة للمرء فيه: كالفقر، والدمامة، والقصر، فهذا من الله، وعيب الإنسان بذلك سوء أدب مع الله، واعتراض على خلقه وقدره.

ولا ينشأ اللمز إلا من مرض الاحتقار، فإذا احتقر المسلم أخاه لَمَزه، ولذلك قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه**»(٣).

والمنهج القرآني لم يكتف بتحريم اللمز فحسب؛ بل جعل لمز الإنسان لأخيه الإنسان لمزًا لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]؛ لأن لكل فرد في المجتمع كرامته التي لا تمسّ، وهي من كرامة المجموع، ولمز أي فرد هو لمز للنفس، لأن الجماعة كلها وَحدة واحدة، فكرامتها واحدة(٤).

---

(١) الوصايا التسع في سورة الحجرات في التعامل مع الناس، لزغرب (٤٧).

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه، للدرويش (٧/ ٢٥٢).

(٣) صحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٦٧٠٦) باب: تحريم ظلم المسلم... (٨/ ١٠).

(٤) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٤٤).



«فالقرآن الكريم يؤسس لقواعد اللياقة الاجتماعية والأدب النفسي للتعامل في المجتمع الإنساني، فالمجتمع الفاضل من وجهة النظر القرآنية لا بد وأن يقوم على أسس من الأدبيات الذوقية التي ينبغي أن تحكم العلاقات السائدة بين أبنائه، إنه المجتمع الذي يترفَّع أبناؤه عن الهمز واللمز والسخرية، ويكون الأدب هو الخُلُق الذي يحكم تعاملهم، فيما بينهم»[(١)].

٣- عدم التنابز بالألقاب:

التَّنابُزُ: التَّدَاعِي بالأَلقاب، وهو يكثر فيما كان ذمًّا.

وتَنابَزوا بالألقاب: أي لقَّبَ بعضهم بعضًا[(٢)].

وقد نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن ذلك في هذه السورة الكريمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ [الحجرات: ١١].

والألقاب جمع لقب، وهو اسم غير الذي سمي به الإنسان، والمراد هنا: لقب السُّوء[(٣)]، وهو منافٍ للاحترام المتبادل بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتعديًا على الحقوق المتبادلة بينهما، فمن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به، ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه بمثل هذا[(٤)].

إن من طبع الإنسان أنه يكره إطلاق لقب قبيح عليه، ولكن قد يُطلق عليه اللقب في موقف معيَّن أو بدون قصد، فيُصبح معروفًا بذلك اللقب، وإذا كان هذا

---

(١) أدب المعاملة واثره في بناء العلاقات الإنسانية من منظور قرآني، لعودة (٣٢٠).

(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادة (نبز)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، مادة (نبز) (٣/ ٨٩٧).

(٣) فتح القدير، للشوكاني (٥/ ٩١).

(٤) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٤٤).



اللقب معيبًا ولا يرتضيه الإنسان فلا يجوز مناداته به؛ لأنه محل سخرية واستهزاء به؛ لذا حرّمه الإسلام ونهى عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، عن أبي جبير بن الضحاك قال: قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحدًا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فنزلت[(١)].

ومن الطبيعي أن يغضب الإنسان من مناداته بلقب سيئ لا يرتضيه ولا يستسيغه، لما فيه من منقصة وتنقص.

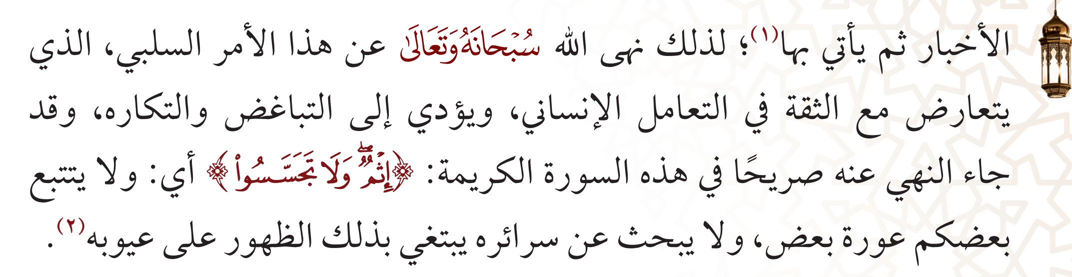
فقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ **أي:** لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها[(٢)].

قال السعدي في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ «أي: لا يعيِّر أحدكم أخاه، ويُلقِّبه بلقب ذمٍّ يكره أن يُطلق عليه»[(٣)]. وقد توعَّد الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى - من يتصف بهذه الصفة الذميمة (أي صفة اللمز)، قال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١] وكلمة «ويل» تحمل الوعيد، والوبال، وشدّة العذاب لكل من همَزَ ولمَزَ غيره بفعله أو قوله.

٤- عدم التجسس:

التجسس: البحث عن العورات والمعايب، وكشف ما ستره الناس[(٤)]. وهو مأخوذ من الجَسِّ، وهو من جَسِّ الخبر، ومعناه: بحث عنه وفحص، والتَّجَسُّسُ التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشرِّ، والجاسُوسُ: العين يَتَجَسَّسُ

(١) لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي (١٨٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٧٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (١/ ٨٠١).
(٤) التفسير المنير، للزحيلي (٢٦/ ٢٤٧).



الأخبار ثم يأتي بها[1]؛ لذلك نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن هذا الأمر السلبي، الذي يتعارض مع الثقة في التعامل الإنساني، ويؤدي إلى التباغض والتكاره، وقد جاء النهي عنه صريحًا في هذه السورة الكريمة: ﴿إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره يبتغي بذلك الظهور على عيوبه[2].

وقد نهى عنه أيضًا رسولنا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، حيث قال في الحديث الذي رواه أبو هريرة: «**إيَّاكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسَّسُوا، ولا تجسَّسُوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[3].

فهذه أمراض إن تفشّت في المجتمع فكّكت أوصاله، وأفسدت أركانه، ولم تعُد هناك ثقة بين بني الإنسان بعضهم في بعض، فعن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»[4].

يقول المناوي: «(إن الأمير إذا ابتغى الريبة) أي: طلب الريبة، أي: التهمة في الناس بنية فضائحهم، أفسدهم وما أمهلهم، وجاهرهم بسوء الظن فيها، فيؤديهم ذلك إلى ارتكاب ما ظنَّ بهم ورموا به ففسدوا. ومقصود الحديث: حثُّ الإمام على التغافل، وعدم تتبع العورات، فإنَّه بذلك يقوم النظام، ويحصل الانتظام، والإنسان قلَّ ما يسلم من عيبه، فلو عاملهم بكلِّ ما قالوه أو فعلوه اشتدت عليهم

---

(١) يُنظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (جس) (٢/ ٢٨٣). وتاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، مادة (جس) (١٦/ ٤٩٩). وتهذيب اللغة، للأزهري، مادة (جس) (١٠/ ٢٤٢).

(٢) تفسير المراغي، للمراغي (٩/ ٢٥١).

(٣) صحيح البخاري، للبخاري، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٥/ ٢٢٥٣). وصحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٦٧٠١)، باب: تحريم الظن والتجسس (٨/ ١٠).

(٤) سنن أبي داود، لأبي داود، رقم الحديث (٤٨٨٩)، باب في النهي عن التجسس،(٤/ ٢٧٢)، والمستدرك على الصحيحين، للحاكم، رقم الحديث (٨١٣٧)، كتاب الحدود (٤/ ٤١٩).





الأوجاع، واتسع المجال، بل يستر عيوبهم، ويتغافل، ويصفح، ولا يتبع عوراتهم، ولا يتجسس عليهم»[1].

إننا في عصر التقنية الحديثة امتلكنا وسائل متقدمة ومُيسَّرة، يستطيع بها الإنسان التجسّس بكل سهولة ويسر، فليحذر الإنسان من أن تغُرَّه هذه الوسائل، فيعمد إلى استخدامها في التجسس على الآخرين دون تفكر في عواقبها ونتائجها.

٥- النهي عن الغيبة:

من أكثر الأمراض الاجتماعية شيوعًا في الأوساط الإنسانية هي الغيبة.

والغِيبة: الوَقيعة في النَّاس؛ لأنَّها لا تقال إلا في غَيْبَة، يقال: اغتابه اغتيابًا إذا وقع فيه وذكره بما يكره من العيوب، والاسم الغيبة، وهي ذكر العيب بظهر الغيب[2].

وقد بيَّنها رسولنا الكريم ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، أن رسول الله قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**». **قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:** «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**». **قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أخي مَا أَقُولُ؟ قَالَ:** «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»[3].

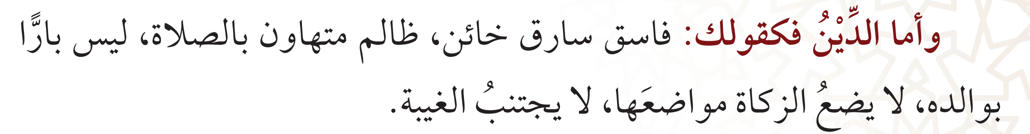
قال النووي: فأما الغيبة فهي ذكرُك الإنسانَ بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه، أو نفسه أو خَلقه أو خُلقه، أو ماله أو ولده أو والده، أو زوجه أو خادمه أو مملوكه، أو عمامته أو ثوبه، أو مشيته وحركته وبشاشته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كتابك، أو رمزتَ أو أشرتَ إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك. أما البدن فكقولك: أعمى أعرج أعمش أقرع، قصير

(١) فيض القدير، للمناوي (٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، مادة (غيب) (٣/ ٥٠٠، ٥٠١).

(٣) صحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٦٧٥٨) باب: تحريم الغيبة (٨/ ٢١).

طويل أسود أصفر.



وأما الدِّيْنُ فكقولك: فاسق سارق خائن، ظالم متهاون بالصلاة، ليس بارًّا بوالده، لا يضعُ الزكاة مواضعَها، لا يجتنبُ الغيبة.

وأما الدنيا: فقليلُ الأدب، يتهاونُ بالناس، لا يرى لأحد عليه حقًا، كثيرُ الكلام، كثيرُ الأكل أو النوم، ينامُ في غير وقته، يجلسُ في غير موضعه، وأما المتعلِّق بوالده فكقوله: أبوه فاسق، أو هندي أو نبطي أو زنجي، نجار حداد.

وأما الخُلُق فكقوله: سيئ الخلق، متكبّر مُرَاءٍ، عجول جبَّار، عاجز ضعيفُ القلب، مُتهوِّر عبوس، خليع، ونحوه.

وأما الثوب: فواسع الكمّ، طويل الذيل، وَسِخُ الثوب، ونحو ذلك، ويُقاس الباقي بما ذكرناه. وضابطُه: ذكرُه بما يكره[1].

وما أكثر ما تتداول هذه الألفاظ في أوساط المجتمعات، فلا تُفقد في التجمعات اليومية، بل أصبحت وكأنها عادة من العادات، يسيرة على الألسن.

لذلك كان منهج القرآن الكريم في النهي عن هذه الآفة الخطيرة بأسلوب تمثيلي يجعل الإنسان العاقل يبتعد عنها كل البعد، والتركيز على هذا الأمر بهذه الطريقة إنما هو لتفشيها في المجتمعات تفشيًا ملحوظًا، ولسهولتها على المغتاب وتلذذه بها في المجالس، هذا من ناحية. كما أن لها نتائج وخيمة وضرر بالمجتمع. قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: ١٢] وقد أتبع القرآن الكريم النهي عن الغيبة بمشهد تمثيلي تأباه الفطرة الإنسانية السليمة وتشمئزّ منه؛ فقد شبّه المغتاب بالإنسان الذي يأكل

---

(١) الأذكار النووية، للنووي (٣٣٦) بتصرف.





لحم أخيه وهو ميِّت، ووجه الشبه أن الميِّت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه.

وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس.

وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا؛ كذلك أن يمتنع من غيبته حيًا[1].

ونقل القاسمي عن ابن الأثير في (المثل السائر) في بحث الكناية: «فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتًا، ثم جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة.

فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له، مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله؛ فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جدًا، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه؛ لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة.

وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة؛ لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها، آمران بتركها، والبعد عنها، ولما كانت كذلك جُعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه، فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة.

وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة، فلما جُبلت عليه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦/ ٣٠٣، ٣٠٤).



النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها مع العلم بقبحها، فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهًا، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها وجدتها مناسبة لما قصدت له»[1].

❊ ❊ ❊

(١) محاسن التأويل، للقاسمي (٨/ ٥٣٧).

الخاتمة

منهجية التعامل أمر بالغ الأهمية والخطورة، فقد جعل الإسلام الالتزام بالدين في قسمٍ كبيرٍ منه متوقفًا على الأدب وحسن المعاملة.

ومن منطلق هذه الأهمية جاء القرآن الكريم ليضع لنا المناهج القويمة والأسس السليمة للتعامل، باعتباره موضوعًا أساسيًا من موضوعات هذا الدين. فقد أصّل القرآن الكريم لأدب التعامل، وأقامه على مجموعة من القواعد والأسس التي ينبثق من خلالها نتائج إيجابية وحسنة في العلاقات.

المنهج القرآني في التعامل شامل للوجود كله؛ وجميع تعاملات الإنسان مردها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو المشرِّع الذي يجب أن تُتَّبع تعاليمه أمرًا ونهيًا، فالإنسان أولًا وأخيرًا يتعامل مع الله سبحانه عقيدة وشريعة.

يقوم المنهج القرآني في التعامل والعلاقات بين أبناء الإنسانية على أسس وقواعد ترتكز على الاحترام المتبادل بين الناس، وحفظ الحقوق الإنسانية، كما أنه ينضبط بمبادئ تكفل إيجاد الروابط السليمة في بناء المجتمع الإنساني والارتقاء به إلى أعلى المستويات، وتحقيق أسمى القيم الاجتماعية وأرقاها، لتكون هي الحاكمة على علاقات الناس ببعضهم بعضًا.

المنهج القرآني في التعامل هو المنهج الأمثل والأحسن، وهو المنهج الذي يعود بانعكاسات إيجابية على العلاقات. ولو أن الإنسان المسلم التزم هذا المنهج لأصبح أنموذجًا حيًا للشخصية الاجتماعية الرّاقية المهذبة النقية، ولو أن أفراد الإنسانية أخذوا بتعاليم القرآن الكريم ومنهجه لكانت المجتمعات الإنسانية





ظاهرة من الآفات الاجتماعية الخطيرة التي تئن الأمم تحت وطأتها، لما يشهده العالم من تفتت وضياع.

وفي الختام أوصي بما يأتي:

١- **الاهتمام بإجراء الدراسات التي تبرز المنهج القرآني في مختلف جوانب الحياة الإنسانية؛** فالقرآن الكريم معين لا ينضب، ومجال البحث فيه واسع.

٢- **التركيز على المناهج القرآنية في تأليف كتبنا ومناهجنا وإجراء بحوثنا،** وعدم الجري وراء المناهج البشرية المستوردة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المصادر والمراجع

١. **الأحكام الشرعية الكبرى**. الإشبيلي، محمد عبد الحق. تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة. الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠٠١م.

٢. **إحياء علوم الدين**. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (د.ط) بيروت: دار المعرفة (د. ت).

٣. **أدب الدنيا والدين**. الماوردي، علي بن محمد. (د.ط) دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

٤. **أدب المعاملة وأثره في بناء العلاقات الإنسانية من منظور قرآني**. عودة عبد عودة. الشبكة العالمية، الرابط:

faculty.mu.edu.sa/download.php?fid=134454

٥. **الأذكار النووية**. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. (د. ط) بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤م.

٦. **أسباب نزول القرآن**. الواحدي، علي بن أحمد. تحقيق: كمال بسيوني زغلول، (د. ط) بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).

٧. **أصول المجتمع الإسلامي**. جمال الدين محمد. ط١،القاهرة وبيروت: دار الكتاب المصري واللبناني، ١٩٩٢م.

٨. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**. الشنقيطي، محمد الأمين. (د. ط) بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.





٩. **إعراب القرآن الكريم وبيانه**. الدرويش، محيي الدين. ط٦، دمشق وبيروت: اليمامة ودار ابن كثير، ١٩٩٩م.

١٠. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. البيضاوي، عبد الله بن عمر. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

١١. **أهداف الإسلام في توجيه الإنسان**. رفاعي، علي. مجلة الأزهر، ج (٤) السنة (٤٤)، ١٩٧٢م.

١٢. **الإيمان. ابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم. ط٥، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩٦م.

١٣. **تاج العروس من جواهر القاموس**. الزبيدي، السيد محمد مرتضى. الكويت: التراث العربي، ١٩٧٥م.

١٤. **التحرير والتنوير**. ابن عاشور، محمد الطاهر. ط١، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠٠م.

١٥. **تزكية النفس وتهذيبها**. الأميني، إبراهيم. دار البلاغة، ط٤، بيروت: (د.ن) ٢٠٠٠م.

١٦. **تفسير آيات الأحكام**. السايس، محمد علي، وآخرون. ط٢، دمشق وبيروت: دار ابن كثير ودار القادري، ١٩٩٦م.

١٧. **التفسير التربوي للقرآن الكريم**. الباز، أنور، ط١، القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠١٤م.





١٨. **تفسير القرآن العظيم**. ابن كثير. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.

١٩. **التفسير الكبير**. الفخر الرازي. ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٢٠. **تفسير المراغي**. المراغي، أحمد مصطفى. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

٢١. **التفسير المنير**. الزحيلي، وهبة بن مصطفى. ط٢، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١٨هـ.

٢٢. **التفسير الواضح**. الحجازي، محمد محمود. ط١٠، بيروت: دار الجيل الجديد، ١٤١٣هـ.

٢٣. **التقوى: حقيقتها وأهميتها وثمرتها**. شبكة راية الإصلاح. الرابط: https://rayatalislah.com/index.php/.../211-2013-07-22-14-23-54.

٢٤. **تهذيب اللغة**. الأزهري، محمد بن أحمد. تح: محمد عوض مرعب. ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م.

٢٥. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تحقيق: عبد الرحمن بن المعلا اللويحق. ط١، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.

٢٦. **جامع البيان في تأويل آي القرآن**. ابن جرير الطبري، محمد بن جرير. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. ط١: دار هجر للطباعة والنشر والإعلان، ٢٠٠١م.




٢٧. **الجامع لأحكام القرآن**. القرطبي، محمد بن أحمد. (د.ط) بيروت: دار الفكر، ١٩٩٨م.

٢٨. **الرسالة التبوكية**. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. تحقيق: محمد عزيز شمس. ط١، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ١٤٢٥هـ.

٢٩. **الروح. ابن قيّم الجوزية،** محمد بن أبي بكر. (د. ط) بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).

٣٠. **روح الدين الإسلامي**. طبارة، عفيف. ط٣٠، بيروت: دار العلم للملايين: ١٩٩٥م.

٣١. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. الألوسي، محمود بن عبد الله. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

٣٢. **الزواجر عن اقتراف الكبائر**. ابن حجر، أحمد بن محمد الهيتمي. ط١، دار الفكر، ١٩٨٧م.

٣٣. **سنن البيهقي الكبرى**. البيهقي، أحمد بن حسين. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، ١٩٩٤م.

٣٤. **سنن الترمذي**. الترمذي، محمد بن عيسى. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي (د. ت. ط).

٣٥. **سنن أبي داود**. أبو داود، سليمان بن الأشعث. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. (د. ط)، بيروت: المكتبة العصرية (د.ت).

٣٦. **سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية**. العمر، ناصر بن سليمان. الشبكة العالمية، الرابط:



https://d1.islamhouse.com/data/ar/ih_books/single4/ar_Surat_Alhogorat.pdf.

٣٧. **سورة الحجرات منهج تربوي لمجتمع مثالي**. الأمين، عبد الحميد عمر. رسالة ماجستير، السعودية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٧٦م، (نسخة مرقونة).

٣٨. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. الجوهري،** إسماعيل بن حماد. تحقيق: أحمد عبد الغفور. ط٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.

٣٩. **صحيح البخاري**. البخاري، محمد بن إسماعيل. تحقيق: مصطفي ديب البغا. ط٢، بيروت: دار ابن كثير واليمامة: ١٩٨٧م.

٤٠. **صحيح ابن حبان**. ابن حبان. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م.

٤١. **صحيح مسلم**. مسلم، مسلم بن الحجاج. (د. ط) بيروت: دار الجيل ودار الآفاق الجديدة

٤٢. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**. الشوكاني، محمد بن علي. تحقيق: سيد بن إبراهيم. ط٣، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٧م.

٤٣. **في ظلال القرآن**. قطب، سيد. ط٧، بيروت والقاهرة: دار الشروق، ١٤١٢هـ.

٤٤. **فيض القدير**. المناوي، محمد (عبد الرؤوف). ط١، مصر: المكتبة التجارية الكبر، ١٣٥٦هـ.




٤٥. **قبس من نور القرآن الكريم**. الصابوني، محمد علي. ط١، بيروت: دار السلام، ١٩٩٧م.

٤٦. **القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة**. شرف، جمال الدين محمد. ط٤، طنطا: دار الصحابة للتراث، ٢٠١٠م.

٤٧. **الكامل في الضعفاء**. الجرجاني، أحمد بن عدي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود. ط١، بيروت: الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٤٨. **كتاب التعريفات**. الجرجاني، علي بن محمد. (د. ط) بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.

٤٩. **الكشاف**. الزمخشري، محمود بن عمر، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧م.

٥٠. **لباب النقول في أسباب النزول**. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. (د. ط) بيروت: دار الكتب العلمية.

٥١. **لسان العرب**. ابن منظور. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ١٩٩٧م.

٥٢. **لطائف الإشارات**. القشيري، عبد الكريم بن هوازن. تحقيق: إبراهيم البسيوني. ط٣.مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (د. ت)،

٥٣. **مباحث في إعجاز القرآن**. مصطفى مسلم. ط٢، الرياض: دار المسلم، ١٩٩٦م.

٥٤. **المجموعة الكاملة**. العقاد، عباس، ط١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤م.



٥٥. **محاسن التأويل**. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد. تحقيق: محمد باسل عيون السود. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

٥٦. **المستدرك على الصحيحين**. الحاكم، محمد بن عبد الله. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.

٥٧. **مسند البزار**. البزار، أحمد بن عمرو. ط١، مكتبة المدينة المنورة، ٢٠٠٩م.

٥٨. **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٥٩. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ.

٦٠. **هل الإسلام هو الحل**. محمد عمارة. ط١، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٥م.

٦١. **الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز**. الدامغاني، الحسين بن محمد. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٣م.

٦٢. **الوصايا التسع في سورة الحجرات في التعامل مع الناس**. زغرب، شبكة الألوكة، ٢٠١٦م، الرابط: www.alukah.net.







الفهرس

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة

❊ ❊ ❊



د. وفاء بنت صالح الفايز

أستاذ العقيدة والثقافة الإسلامية المساعد بقسم الدراسات الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الملك فيصل بالأحساء

Drwafa1@hotmail.com

- حصلت على درجة الماجستير من كلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض باطروحته : مباحث العقيدة في الحزب الستين من القرا ن الكريم.
- حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن بالرياض باطروحته : أراء الحكيم الترمذي توفي عام (٣٢٠هـ) في العقيدة والتصوف عرضاً ودراسة.
- من مؤلفاتها:
- الغلو والتكفير في ندوة السلفية بجامعة الإمام محمد بن سعود.
- دور الإعلام على المرأة المسلمة المعاصرة تحديات وأخطار ونشر في اعمال مؤتمر المرأة بجامعة القصيم.





ملخص البحث

إن التسامح تشريع رباني أصيل يرسخ به أمن المجتمعات، وقد عني القرآن الكريم بتثبيت أواصره لتستقر الأمة كلها، لا سيما في ظل حقد الحاقدين، لذا خاطب الإسلام الوجود كله وطالبه بترسيخ التسامح لتناغمه مع طبيعة الحياة فيه.

وإن القرآن الكريم بترسيخه التسامح في المجتمعات أعفى البشرية من تولي وضع النظم الفكرية عن التخطيط لحياة الإنسان الكريمة، فنظامه قائم صالح، ونظام الإسلام هو النظام الوحيد الصالح لبقاء الحياة الصالحة الآمنة، ومنهج الإسلام وإلى يوم القيامة ثابت على مبدأ إحياء التسامح بين الناس، فثم تكامل بين التسامح والأمن، وإن المطالع لآي الله في القرآن الكريم ؛ يجد ما يرجوه من منهج حياة يرسم خطو السير الحياتي على مبدأ التسامح في الدولة الواحدة، فحين نادى القرآن البشرية في هذا الجانب، ناداها على اعتبار حقيقتها الإنسانية مذكرا إياها بأصل خلقتها، وجامعية خلقها، والقرآن مليء بالدساتير التسامحية، ورسالته السمحة رسالة شاملة موجهة إلى جميع الناس مع إلزامية صيانة أمن الإنسانية على مبدأ التسامح، والمتحقق في التوجيه الرباني في القرآن ؛ يجد ما يحقق طلبته في إثبات أصالة التسامح في ترسيخ الأمن الاجتماعي .

كلمات مفتاحية :

التسامح، الأمن، المجتمع، الإسلام، القرآن، تحقيق.

***



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، أحمده سبحانه على السراء والضراء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، خاتم الرسل وأفضل الأنبياء، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، **أما بعد:**

فإن التسامح تشريع رباني أصيل يُرسَّخ به أمن المجتمَعات، وقد عني القرآن الكريم بتثبيت أواصره لتستقر الأُمّة كلها، لا سيما في ظل رسائل المُغرضين وتدابير الحاقدين؛ لذا خاطب الإسلام الوجود كله، وطالبه بترسيخ التسامح لتناغمه مع طبيعة الحياة فيه.

إن القرآن الكريم بترسيخه التسامح في المجتمعات أعفى البشرية، ومنهج الإسلام منذ وُجدَت قصة الإنسان على الأرض وإلى قيام الساعة قائم، ويكفل الأمن والتسامح، وإن المُطالِع لآيات القرآن الكريم يجد ما ينشده من حياة كريمة على مبدأ التسامح في الدولة الواحدة، فحين نادى القرآن البشرية في هذا الجانب، ناداها على اعتبار حقيقتها الإنسانية مُذكِّرًا إياها بأصل خلقتها، وجامعية خلقها، فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

كما وجَّه المسلمين إلى كيفية التعامل بالتسامح حتى مع الأغيار، فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]، والقرآن مليء بهذه الدساتير التسامحية، ورسالته السمحة رسالة شاملة موجَّهة إلى جميع الناس، مع إلزامية صيانة أمن الإنسانية على مبدأ التسامح، والمتحقِّق في التوجيه الرباني في القرآن، يجد ما يُحقق طِلْبتَه في إثبات أصالة التسامح في ترسيخ الأمن الاجتماعي.

أولًا: أهمية الدراسة:

يقتضي العرض الحياتي في عقد الأيام المتتابعة في حياة الأمم والشعوب، وتعطيل الحقائق التي كفَلها الإسلام لتحقق المجتمعات بالتسامح - ضرورة الإفصاح عن وجه الإسلام في ربطه للتسامح بأمن المجتمَع.

ثانيًا: حدود الدراسة:

تدور حدود الدراسة حول أمن الفرد في مجتمعه، في ظِلّ التسامح في ضوء القرآن الكريم، وكيف رسَّخ الإسلام بقاء الأمم والأوطان بترسيخ أمن أفرادها، ومدى ضمان التسامح بكل مضامينه: من تراحم، وإيثار، وصفاء، وإخاء، ووئام، لتحقيق هذا المأرب.

ثالثًا: منهج البحث:

اتبع الباحث انطلاقًا من مبدأ التكامل المنهجي المنهج الوصفي؛ حيث يصف الباحث ملامح الأمن الاجتماعي في ضوء القرآن الكريم في ظِلّ خُلُق التسامح.



رابعًا: الدراسات السابقة:

تعرض موضوع التسامح والمجتمع لعديد من الدراسات السابقة، ومنها:

١) **التسامح وثقافة الاختلاف رؤى في بناء المجتمع وتنمية العلاقات**، للشيخ حسن الصفَّار، وقد نشرته دار المحجَّة البيضاء، بيروت لبنان، وقد عرض لأثر التسامح في معالجات الاختلاف الذي يمثِّل تحديًا للمجتمع وأمنه.

٢) **قوة الحب والتسامح**، للدكتور إبراهيم الفقي، وهو كتاب رائع يدعو إلى المودَّة والوئام عن طريق بثّ التسامح في المجتمع.

٣) **دراسة: التسامح في الإسلام**، للدكتور شوقي أبو خليل، ويتناول فيه قضايا مهمة، ونجح نجاحًا مبهرًا، وهو يناقش أعداء السلام والمتربِّصين للأُمّة، وطرَحَ أسئلة لمفارقات عديدة، وعمِلَ على استخدام الحُجّة والبراهين الصادقة.

٤) **كتاب العدل والتسامح في القرآن**، للدكتور هارون يحيى، وفيه صِلة التسامح بالعدل في ضوء القرآن الكريم، وأثر ذلك في ترسيخ الأمن في المجتمع.

- **وجاءت الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة:**

* **التمهيد**: وفيه تحديد المفاهيم.
* **المبحث الأول**: أثر التسامح في التكوين الآمن لعناصر المجتمع في ضوء القرآن الكريم.
* **المبحث الثاني**: أثر التسامح الدعوي في ترسيخ الأمن الاجتماعي.





❊ **المبحث الثالث**: أثر التسامح مع الآخر في ترسيخ الأمن الاجتماعي في ضوء القرآن الكريم.

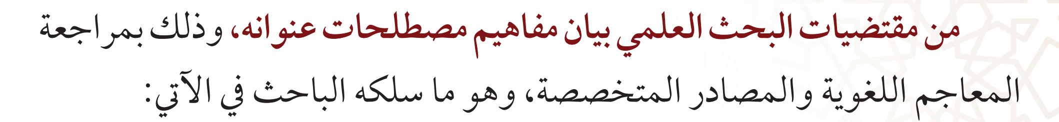
❊ **الخاتمة**: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

❊ ❊ ❊

التمهيد



تحديد المفاهيم



من مقتضيات البحث العلمي بيان مفاهيم مصطلحات عنوانه، وذلك بمراجعة المعاجم اللغوية والمصادر المتخصصة، وهو ما سلكه الباحث في الآتي:

أولًا: مفهوم التسامح لغةً وعُرفًا:

بمطالعة المعاجم اللغوية، تبيَّن أن لفظة «تسامُح» من مادة «سَمَحَ»: «السَّماحُ والسَّماحةُ: الجُودُ، سَمُحَ سَماحَة، والمُسامَحة: المُساهَلة، وتَسامحوا: تَساهَلوا، وقولهم: الحَنِيفِيَّة السَّمْحة: ليس فيها ضِيق ولا شِدَّة، ولقد سَمُحَ (بالضم) سَماحة: جادَ بما لديه، وأَسْمَحَتِ الدابَّة بعد استصعاب: لانَت وانقادَت، وتقول العرب: عليكَ بالحقِّ فإِن فيه لَمَسْمَحًا، أَي مُتَّسَعًا، وعُودٌ سَمْح بَيِّنُ السَّماحةِ والسُّموحةِ لا عُقْدَة فيه، وقيل: التَّسْمِيحُ: السير السهل»[(١)].

أما التسامح عُرفًا:

قيل في التعريف بالتسامح: «بناء العلاقات الإنسانية السويَّة في غير استسلام للشرِّ، مع ضرورة دفع العداوة بالتي هي أحسن»[(٢)].

وقيل هو: «استحقاق كل فرد في الأُمّة أن يعتقد ما يراه حقًّا، وأن تكون له الحرية في تأدية شعائر دِينه كما يشاء، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء»[(٣)].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، (٢/ ٤٨٩)، ومختار الصحاح، الرازي، (١/ ٣٢٦)، المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، (١/ ٢٨٨)، ابن الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، (٢، ٩٩٠)، المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، (١/ ١٧٤).

(٢) المسلمون في موكب الإنسانية، سالم، صـ ٦٠.

(٣) الإسلام وأهل الذمة، الخربوطلي، صـ ٩٥.



ثانيا: الأمن الاجتماعي:

مفهوم الأمن لغةً واصطلاحًا: تتقارب معاني الأمن في كل من المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، حيث تلتقي جميعها على أن الأمن هو تحقيق السَّكينة والطمأنينة والاستقرار على مستوى الفرد والجماعة.

معنى الأَمْن لُغةً:

فالأَمْن في المعنى اللغوي ضد الخوف، والأَمِنُ: المستجير ليأمن على نفسه، والأمانة: ضد الخيانة، وآمَن به: صَدَّقه، والإيمان: الثقة وقبول الشريعة، والأمين: القويّ[1].

المعنى الاصطلاحي:

هو الطمأنينة والهدوء والقدرة على مواجهة الأحداث والطوارئ دون اضطراب[2]، وتشير هذه التعريفات بنوعيها (اللغوي والاصطلاحي) إلى أن «الأمن، والسَّكينة، والاستقرار» مترادفات تُحقِّق النهضة والطمأنينة للفرد والجماعة.

ولا يزعم الباحث أنه أحاط بكل موضوع البحث، ولكنه جهد المُقلّ، فعلى أساتذتي وكل من يطَّلِع على هذا البحث أن يُقوِّمني بالتوجيه فيما عسى أن يكون قد سقط مني بغير عمد، أو سها علي بغير قصد.

أما الاجتماعي:

فهو من المُجتمَع والجَمْع «والجَمْعُ، كالمَنْع: تَأْلِيفُ المُتَفَرِّقِ، وقيل الجَمْعُ: ضَمُّ الشَّيْءِ بتَقْرِيبِ بَعْضِه مِن بَعْضٍ، وقيل: الجَمْعُ: جَماعَةُ النّاسِ، وعليه فالمُجتمَع

(١) مختار القاموس، الزاوي، ص٣.

(٢) الأمن والمخابرات، نميري، (نظرة إسلامية)، ص ٩، ١٠.



هو موضع اجتماع الناس.

- **والأمن الاجتماعي هو:**

الطمأنينة والهدوء والقدرة على مواجهة الأحداث والطوارئ التي تؤدي إلى ذبذبة الاستقرار داخل المجتمَعات الآمنة.

❊ ❊ ❊





المبحث الأول

أثر التسامح في التكوين الآمن لعناصر المجتمع

عندما يُقلِّب القارئ في كتاب الله، يجد مُثُلًا حية لإرساء مفهوم الأمن الاجتماعي في ظِلّ خُلُق التسامح؛ مُثُلًا تؤصِّل لضرورة التسامح في حياة الأمم وبقائها، فلا أمان ولا حياة من غير تسامح.

وفيما يأتي نؤصِّل لضرورة التسامح في أمن الفرد في مجتمعه، والذي به يتحقق أمن المجتمع كله، ومن هنا تتشعب صور التسامح في نسج الأمن الاجتماعي عبر عدة منافد، نبرزها فيما يأتي:

أولًا: تحقيق الأمن المعيشي للفرد وانعكاسه على المجتمع:

إن أمن الفرد في مجتمعه في ظل التسامح من نسيج شريعة خاصة من لدن إله واحد، يعلم ما يناسب طبيعة حياة الفرد في هذا الوجود، وقد رسَّخ الإسلام بقاء الأُمم والأوطان بترسيخ أمن أفرادها، ويبدو التسامح بكل مضامينه من تراحم وإيثار وصفاء وإخاء ووئام وسيلة كبرى في تحقيق هذا المأرب، والتسامح مع الفرد وتأمين حياته المعيشية منبثق في الأصل من قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ٨- ١٢].

وفي قول رسول الله ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جارُه بوائقَه»[١].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، عن أبي سعيد بن شريح، انظر: صحيح البخاري حديث رقم ٢٣٢٧، (٨/ ١٢).





والرؤية الإسلامية لمفهوم الأمن على أساس التسامح تقتضي أن يكون الأمن اجتماعيًّا، لا تقف طمأنينته عند دنيا الفرد، بل جعلَتْ جماعيَّته السبيل لتحقيقه في الإطار الفردي، وإن هذه الرؤية الإسلامية قد تجاوزت بأهمية الأمن الاجتماعي الحق الإنساني لتجعله فريضة إلهية، وواجبًا شرعيًّا، وضرورة من ضرورات استقامة العمران الإنساني، كما جعلت هذه الرؤية الإسلامية إقامة مقومات الأمن الاجتماعي الأساس لإقامة الدين، فرتَّبت على صلاح الدنيا بالأمن صلاح الدين، وليس العكس كما قد يحسب الكثيرون[١].

وقد حرص القرآن الكريم إلى كسر حواجز النفور بتشريع الزكاة وفرضها، والصدقة بكل أنواعها والترغيب فيها؛ ليجتذب القلوب نحو التسامح والحب بين عناصر المجتمع، بل جعل ذلك من صور التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]، أي «وجعلوا في أموالهم جزءًا مقسومًا مُعيَّنًا للفقراء والمحتاجين على سبيل البِّر والصِّلة، والسائل: هو الفقير الذي يبتدئ بالسؤال، والمحروم: هو الذي يتعفّف عن السؤال، فيحسبه الناس غنيًا، فلا يتصدّقون عليه»[٢]، ففي ذلك استشعار بالحنوّ والشعور الإيجابي، وهو بطبيعة الحال يمنع القلق المجتمعي المترتب على الفقر وضيق العيش.

وقد حثّ الإسلام على التسامح حتى في حركة البيع والشراء، يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبينًا ربط الاقتضاء مع التسامح بعِلّة الرحمة من الله تعالى: «**رحم**

(١) عمارة، الإسلام والأمن الاجتماعي، صـ١٧.

(٢) الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (٢٧/ ١٧).



الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»[1]، وانطلاقًا من القرآن الكريم تكوَّنت مسارات شرعية في دعم الفرد، منها:

ثانياً: التسامح وتحقيق الأمن المالي للفرد:

يُعدّ الأمن المالي للفرد نواة لمعالجة ارتباك المجتمع، فهو يُحِدّ من وقوع الجريمة والسلب والنهب والفساد، ويمكن تفعيل ذلك بالتسامح في معاملة الغير، وإخراجه من دائرة الفقر إلى الأمن المعيشي والاستقرار النفسي، وذلك من خلال تفعيل سبل المعالجة الإسلامية لحالات الفقر؛ ومنها:

١) التسامح مع المدين العاجز عن السداد بإنظاره:

حثَّ القرآن على التسامح مع المعسر؛ قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

أي: تسامحوا مع المدين و«إنظاره إلى أن يُيسِّر الله عليه فيعطيكم رأس مالكم الذي أخذه منكم»[2].

حيث يعجز الفرد عن سداد القرض نظرًا لشدة حاجته، والأفضل في هذه الحالة إسقاط الخزانة أو الصندوق لهذا القرض عن المُقترِض، وقد بثَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُوح الإحسان في مثل هذه الأحوال فقال: «**مَن أنظرَ معسرًا أو وضَعَ عنه، وقاه الله من فَيْح**[3] **جهنم**»[4].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، عن أبي سعيد بن شريح، انظر: صحيح البخاري حديث رقم ٢٣٢٧، (٨/ ١٢).

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري، (١/ ٢٧٠).

(٣) فيح: الحر، أو سطوع الحر وفورانه، يقال: فاحت القدر تفيح وتفوح إذا غلت، ابن منظور، لسان العرب المحيط، (٤/ ١١٥٢).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده، برقم ٨٦٩٦ نقلًا عن الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد، للشيخ=

٢) التسامح بالبذل والإيثار:

إن التسامح هو الذي يقود عملية العصف الشعوري الوجداني الرحيم، ويدفعه نحو الإيثار والبذل والشعور الواحد على حدّ فعل الأنصار مع إخوانهم المهاجرين، والذي وردَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩]، وقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحُمَّى**»[١].

ذلك المعنى الإيماني الذي يجري في عروق وأوردة المؤمنين، يكمن في صِلَتِهم بالله تعالى استشعارًا بملكيته الحقيقية للكون والسماوات والأرض ومن فيهن «وهي صِلة لا يوجد لها نظير ولا أساس للقياس من بين الصِّلات، في الأصالة والعمق، والسعة والاحتواء، والشمول والإحاطة، وأقلّ ما يقال فيها أنها صِلة الخالق والمخلوق، والربّ والمربوب، والرازق والمرزوق، والمالك والمملوك، والحاكم والمحكوم، أنها صِلة هذا الرب الكريم الكمالية، وأفعاله البديعة، وربوبيته الحكيمة الرحيمة، ورعايته اللطيفة الدقيقة، وأن يُخلَص له الحُبّ ويهيم به القلب، وتُبذَل في سبيله المُهَج والأرواح، فضلًا عن الأموال

= أحمد عبد الرحمن البنا، كتاب: القرض والدَّين، باب: فضل من أنظر معسرًا أو وضع له، (١٥/ ٩٦)، وسند الحديث جيد على حدّ قول الشيخ أحمد البنا. راجع له كتابه: بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، (ط. دار الأنوار بمصر، طبعة أولى، بدون تاريخ) (١٥/ ٩٧)، وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد، الحديث رواه الإمام أحمد، وفيه عبد الله بن جعوبة السلمي، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله رجال الصحيح، (٤/ ١٣٣، ١٣٤).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ٢٣٢٣ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، من حديث النعمان بن بشير، (١٠/ ٥٤٠).





والأملاك)[1]، ذلك المعنى هو الأداة الفعّالة القوية التي تُحرِّك الهِمم نحو عملية الإنفاق.

ثالثًا: التسامح الأُسريّ وأثره في تحقيق الأمن الاجتماعي:

إن الشعور بالاستقرار الذي يجده كل واحد من الزوجين في الآخر نتيجة إحسانهما والألفة القائمة بينهما، يُعدّ حقلًا خصبًا لتربية العلاقات الإنسانية، وبيئة مهيأة لتغذية الصلات الاجتماعية، وهو ما يصوِّره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]، «فجعَل بين الزوجين مودّة ورحمة، فهما يتوادّان ويتراحمان، وما شيء أحبَّ إلى أحدهما من الآخر من غير رَحِمٍ بينهما»[2].

«وإذا كانت الأسرة تُعَدُّ الوسط الاجتماعي الأوَّل الذي يُؤمِّن وسائل المعيشة لأفراده، ويمرِّنهم على الحياة، ويُشكِّلهم ليكونوا أعضاء عاملين في المجتمع، صار من الثابت أن المجتمع -الذي من أشكاله الأسرة- لا يضمّ أفرادًا فحسب، ولكنه يضم أفرادًا وما يتولَّد عن وجودهم الاجتماعي من صِلات وعلاقات»[3].

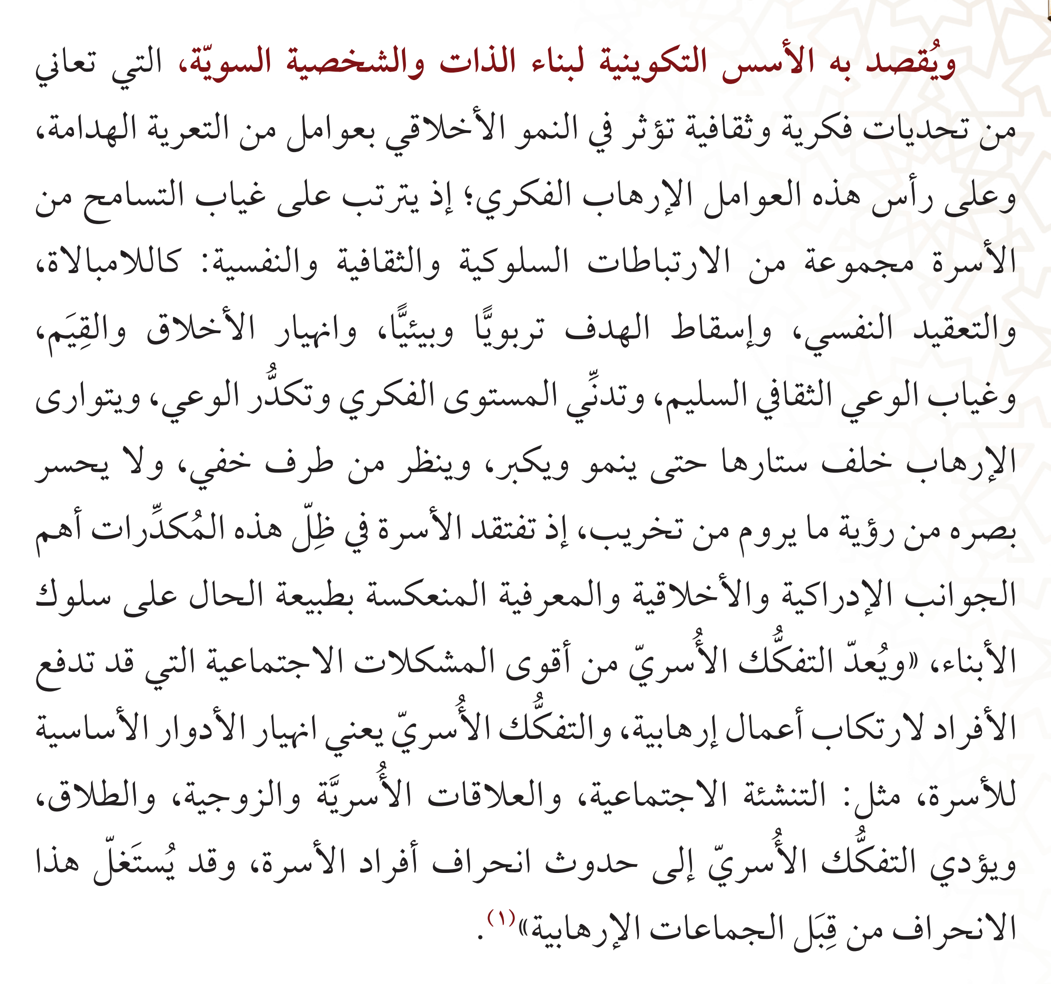
ومما لا شك فيه أن استقرار الزوجين وتوافر جوّ التسامح بينهما؛ ينعكس عنه تلقائيًّا أولاد مستقِرِّين نفسيًّا ومعنويًّا وعلميًّا، وإذا تحقّق ذلك تحقق الأمن الاجتماعي؛ لأن إفراز جيل مُضطرِب يُعدّ سببًا في اضطراب المجتمع كله وعدم استقراره، ومن أهم النتائج المترتبة على استقرار الزوجين وتوافر جوّ التسامح بينهما، ما يأتي:

---

(١) الأركان الأربعة، الندوي، صـ٨٩.

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي، البغوي، (٣/ ٥٧٥).

(٣) المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، التومي، صـ٢٦٨.



١) التكوين الآمن للأولاد نفسيًّا وفكريًّا :

ويُقصد به الأسس التكوينية لبناء الذات والشخصية السويّة، التي تعاني من تحديات فكرية وثقافية تؤثر في النمو الأخلاقي بعوامل من التعرية الهدامة، وعلى رأس هذه العوامل الإرهاب الفكري؛ إذ يترتب على غياب التسامح من الأسرة مجموعة من الارتباطات السلوكية والثقافية والنفسية: كاللامبالاة، والتعقيد النفسي، وإسقاط الهدف تربويًّا وبيئيًّا، وانهيار الأخلاق والقِيَم، وغياب الوعي الثقافي السليم، وتدنِّي المستوى الفكري وتكدُّر الوعي، ويتوارى الإرهاب خلف ستارها حتى ينمو ويكبر، وينظر من طرف خفي، ولا يحسر بصره من رؤية ما يروم من تخريب، إذ تفتقد الأسرة في ظِلّ هذه المُكدِّرات أهم الجوانب الإدراكية والأخلاقية والمعرفية المنعكسة بطبيعة الحال على سلوك الأبناء، «ويُعدّ التفكُّك الأُسريّ من أقوى المشكلات الاجتماعية التي قد تدفع الأفراد لارتكاب أعمال إرهابية، والتفكُّك الأُسريّ يعني انهيار الأدوار الأساسية للأسرة، مثل: التنشئة الاجتماعية، والعلاقات الأُسريَّة والزوجية، والطلاق، ويؤدي التفكُّك الأُسريّ إلى حدوث انحراف أفراد الأسرة، وقد يُستَغلّ هذا الانحراف من قِبَل الجماعات الإرهابية»(١).

وهذا الجوّ المُلبَّد بمثل هذه الثقافات، مدعاة لصياغة دوافع وقدرات وإمكانات التكوين المتطرف نفسيًّا واجتماعيًّا وتربويًّا ومهنيًّا، ورعاية مظاهر الشخصية الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية.

٢) ضبط التهيئة الوقائية لأفراد الأسرة من الاستقطاب للانحراف :

تتطلب المجتمعات الحديثة من الأسرة الاهتمام بالرفق، والتسامح في كافَّة

---

(١) مستقبل الإرهاب في هذا القرن، العموش، (٨٢، ٨٣).



مراحل النمو؛ لتهيئة الأولاد وتحصينهم من براثن الانحراف الناتج عن الضغط العصبيّ، والكَبْت، والحَجْر الفِكريّ، وعدم منحهم مساحة واسعة للتعبير عن آرائهم.

والأسرة مسئولة عن تحقيق ذلك الغرض عن طريق تنظيم المواقف المختلفة التي تحصِّن الدافع النفسي ضد المشكلات والاضطرابات والأمراض، وهي الطريقة التي يسلكها الشخص كي يتجنب الوقوع في مشكلة ما.

والتوعية السلوكية والقِيَمِيّة تنعكس تلقائيًّا على الحِسّ الأمني في نفسية الأولاد «فهي تهدف إلى إكساب الأطفال أساليب سلوكية معيَّنة، ودوافع وقِيَم واتجاهات يرضى عنها المجتمع الذي يعيش فيه الفرد، بحيث تُشكِّل طُرقَ تفكيره، وأنماطَ سلوكه، وحُكمَه على المعاني والأشياء»[(١)].

وقد عني القرآن برعاية الأسرة، وصاغ أمثلة قرآنية لكل أسرة؛ لتقتفي على آثارها أمثلة للتوجيه المتسامح نحو مكارم الأخلاق وأداء العبادات، والذي يترتب عليه تنمية نوازع الأمن بكل توجهاته المجتمعيّة، والتي تُعدّ ثمارًا للتربية النافعة، والتوجيه السديد، فلا يكفي أن نُظهِر لأولادنا عاطفة متسامحة حانية، ورحمة متدفقة، وبِرًّا مسكوبًا، بل لا بد أن يكون ذلك مشفوعًا بالكلمة المُوجِّهة، والإشارة المُؤدِّبة برِفق ولِين وتسامُح، قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه: آية ١٣٢]، وتلك طبيعة في الأسرة النبويّة، فتدبَّر دعوةَ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ [إبراهيم: ٤٠].

---

(١) الأبعاد السياسية مفهوم الأمن في الإسلام، منجود، ص ٤٤-٤٥.



يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَن أهملَ تعليمَ ولدِهِ ما ينفعه، وَتَرَكَهَ سُدى؛ فقد أَساءَ إليه غايةَ الإساءة، وأكثرُ الأولادِ إنما جاء فسادُهُم من قِبَلِ الآباءِ وإهمالِهِم لهم، وتركِ تعليمِهِم فرائضَ الدِّينِ وَسُنَنَه، فأضاعوها صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسِهِم ولم ينفعوا آباءَهُم كِبَارًا»[1].

فهذه السمات تجعل من أولادنا أكثر عُرضَة للتأثر بالأفكار والتوجُّهات وأكثر عُرضَة للخروج عن الضوابط والأنظمة، ويترتب عليه التوجُّه نحو الانحراف والجريمة، وبالتالي فإنَّ الأسرة لها دور مُهِمّ في تكوين شخصية مثالية.

۞ رابعًا: أثر التسامح في ترسيخ الأمن في المجتمع كله:

إن القرآن الكريم بدعوته إلى التسامح في كل مجالات الحياة والعلاقات الاجتماعية؛ حوَّل المجتمع كله إلى كتلة متضامنة ذات كيان آمن حصين، لا أفراد متناثرة بغير نظام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فالله تعالى يأمر عباده المؤمنين به المُصدِّقين برسوله أن يأخذوا بجميع عُرى الإسلام وشرائعه، والأخذ بالسِّلْم والتسامح تحقيقًا للأمن الاجتماعي، فـ«السِّلْم» هو الصُّلح، وترك الحرب راجع إلى هذا المعنى.

فدعوة الحقِّ - تعالى - الناسَ جميعًا للدخول في السلام والأمن، ورفع الإيمان عن المسلم الذي لا يأمن جاره أذاه وسوءاته؛ لأن التسامح والإخاء والأمن كلها تنطلق من تحت سماء التوحيد.

(١) الأمن القومي والأمن الجماعي الدولي، شوقي، صـ٢٨.

يقول الإمام ابن القيِّم(١): «تجرَّد منها - أي القلوب والأنفُس - التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقُّق بُطلانه؛ فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همُّها على من أيقنَتْ بالقُدوم عليه، فوجَّه العبدُ وجهَه بكُلِّيته إليه، وأقبلَ بقلبه ورُوحه وهمِّه عليه، فاستسلم لله وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوى سرُّه وعلانيتُه فقال: (لا إله إلا الله) مخلِصًا من قلبه، وقد تخلَّص قلبُه من التعلُّق بغيره، والالتفات إلى ما سواه»(٢).

وقد بيَّن لنا القرآن الكريم أن الناس مهْمَا تعدَّدت أجناسهم وألوانهم، فإن أباهم جميعًا هو آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١].

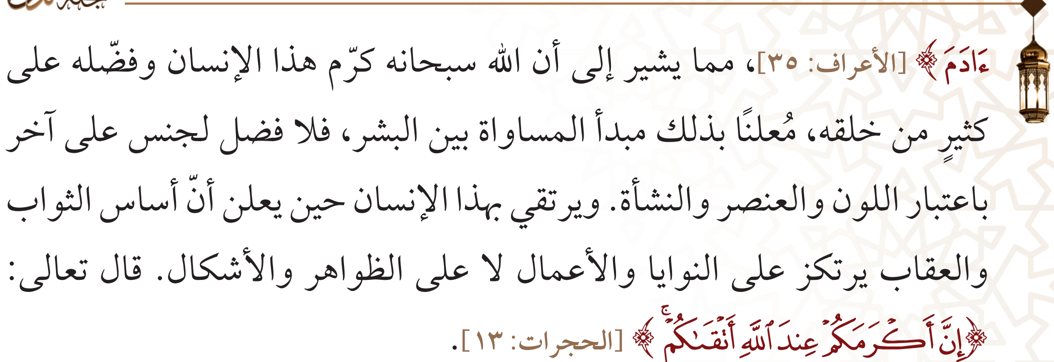
فالقرآن يُؤكِّد وحدة أصل الناس وصِلة القُربى بينهم، باعتبارهم إخوة ينحدرون من أصل واحد، وإنّ هذا التوحُّد في الأصل والمنشأ، حريٌّ به أن يقود الناس إلى الإحسان والتعاون والتفاهم والالتقاء على الخير والمَحبَّة.

والناظر في صيغ الخطاب القرآني، يجد أنها تؤكد وحدة الأصل الإنساني، فكثيرًا ما تتكرر في القرآن صِيغ النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، و﴿يَٰبَنِيٓ

---

(١) ابن القيِّم هو: هو محمد بن أبي بكر بن سعد الزرعي، نسبة إلى بلدة أزرع، ثم الدمشقي، أبو عبد الله شمس الدين، من أجلة العلماء، وكذلك كان أبوه، فقد كان قيِّمًا على الجوزيّة، وهي مدرسة في دمشق، ولذلك عرف بابن الجوزيَّة، وُلد في السابع من صفر سنة ٦٩١هـ، أحد تلاميذ الإمام ابن تيمية، وتسبب في نشر علمه، قال عنه الإمام الشوكاني: كان طويل النفس في مؤلفاته، له ملكة قوية، توفي وقت العشاء الآخرة، ليلة الخميس، الثالث عشر من شهر رجب سنة ٧٥١هـ. انظر كتاب: الروح، ابن قيم، (٤/ ٧٤).

(٢) الفوائد، ابن قيم، ص ٥٦.



ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٣٥]، مما يشير إلى أن الله سبحانه كرّم هذا الإنسان وفضّله على كثيرٍ من خلقه، مُعلنًا بذلك مبدأ المساواة بين البشر، فلا فضل لجنس على آخر باعتبار اللون والعنصر والنشأة. ويرتقي بهذا الإنسان حين يعلن أنّ أساس الثواب والعقاب يرتكز على النوايا والأعمال لا على الظواهر والأشكال. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولكن البشريّة حين تُغيِّبُ عقولها، وتطمس ضمائرها، تتناسى هذا المبدأ، وتضرب بكل هذه القيم عُرض الحائط، فتنتشر العنصرية البغيضة، وهنا يتجلّى دور التسامح في ضبط سلوكيات الأفراد نحو تعامل مثالي يعلوه الإخاء وتكسوه الرحمة.

وبعد أن بيّن لنا القرآن وحدة الأصل الإنساني، بيَّن لنا في سياقٍ آخر أنَّ هذا الأصل تفرَّعت عنه الشعوب والقبائل والأمم، وأنَّ الهدف من هذا التنوع بين الناس هو الإحسان والوصال والتفاهم والتعارف فيما بينهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

وإذا كان القرآن الكريم قد اهتم ببناء المعاملات الإنسانية على المستوى الإنساني العام، فهو في الوقت نفسه لم يَغفل عن أهمية بناء هذه العلاقات في مستوياتها الخاصة، بدءًا بالعلاقة القائمة بين الزوجين، ومرورًا بالأسرة والأقارب والجيران حتى المجتمع المسلم.

والتسامح في المجتمع المسلم ضرورة لتحقيق الأمن فيه، لذلك حفَّز الإسلام على العفو، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠]، «والعفو في أعلى مراتب التسامح والفضيلة إذا

كان مع القدرة على ردّ السيئة بمثلها، ويزداد رفعة إذا قُصِد به وجْه الله تعالى، ولم يُقصد به مجرد حسم النزاع، أو الاستجابة إلى شفاعة أحدٍ من الناس، أو غير ذلك من الأَغراض التي لم يدخل فيها جانب الله، وإنما يحسن العفو إذا كان يؤدي إلى أثرٍ جميل، من حلول السلام محل الوئام، وارتداع المسيء عن إساءَته»[1].

«ولقد أسهمَ في تحقيق هذه الغاية العظمى (غاية الأمن الاجتماعي على أساس التسامح) أن الله تعالى أودعَ في الإنسان نزعتين إنسانيتين متباينتين في الظاهر، لكنهما متكاملتان، وهما:

- **النزعة الفردية:**

وهي التي تجعله يحب الخير لنفسه، ويدفع الشر عنها، ويحرص على تحقيق ذاته.

- **والنزعة الاجتماعية:**

وهي التي تدفعه إلى صف الجماعة وحضن المجتمع»[2].

«لأن الله تعالى جعَل بحِكْمته حاجة الفرد إلى الفرد كحاجة العضو إلى العضو في الجسد الواحد، ويُفهَم هذا إذا عُلِم أن سلوك الفرد ورغباته كالحبّ والوفاء والتميّز والفخر، لا بد لها من محيط اجتماعي تُمارَس فيه»[3].

وقد تأسس المجتمع الإسلامي الأول بكل ألوانه القبَلِيّة والدينية في المدينة المنورة على أساس التسامح بكل صوره ومضامينه، فالأوائل بنوا كيان الوطن الإسلامي، وأسَّسوا لأصوله وقواعده وفق هذه الإنسانية المنبثقة من التسامح

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، (٢/ ٩٥٣).

(٢) علم الاجتماع والمجتمع المسلم، شاهين، صـ ٨٥.

(٣) المرجع السابق صـ ١١





والتراحم والتوادّ، فحياة المهاجرين إلى طَيْبة مع إخوانهم الأنصار مليئة بالتسامح، أدّى إلى حدوث اندماج وتعايش ووئام وتآخ يُعلِّم البشرية معنى المُواطَنة في ظِلّ خُلُق التسامح والوئام، وقد حكى القرآن هذا الاندماج المبني على المحبة والتسامح والإيثار فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨، ٩].

فقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يعني: حاجة، أي: يُقدِّمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك[1].

«وفي شعر للنعمان بن عجلان الأنصاري، إشادة بعمل قومه الأنصار، إذ قَسَّموا أموالهم وديارهم بينهم وبين المهاجرين، قال:

وقُلْنا لقوم هاجروا مرحبًا لكم ... وأهلًا وسهلًا قد أَمِنتم من الفقرِ
نُقاسمكم أموالنا وديارنا كقِسْمة ... أيسار الجَزُور على الشَّطْرِ

وفي كلماته يبدو بريق المؤاخاة ووحدة النسيج بين المهاجرين والأنصار بعد مَقْدمهم بخمسة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر»[2]، «فعن عروة قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكان أول راية عقدها راية عبيدة بن الحارث: وفيها: آخي النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، على المُوَاساة والحقّ، وقد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٨/ ٧٠).
(٢) نفس المرجع (٧/ ٣٩٧).





روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: آخى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار، وورَّث بعضهم من بعض، حتى نزلت: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ [الأحزاب: ٦][١].

على هذا المفهوم من الانسجام والتسامح ذابت الكيانات في مجتمع واحد، يجمع عناصره الإلف والإخاء، وتمثَّلت قُوَّة المجتمع وقام أمانه، فمصالح المجتمعات تتحقق بتكاتف أفراد المجتمع وانسجامهم على المحبة والتسامح، وجسد الأمة عندما يتمزق يكون جسدًا ضعيفًا، حتى لو توهَّم من يملك اليد أن عنده عضلات يمكنه أن يبطش بها، أو من يملك الرأس أن عنده عقل يفكر ويبدع به، فقُوَّة اليد الحقيقية هي عندما تكون جزءًا من جسد متماسك.

❊ ❊ ❊

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، (٢/ ٣٢).



المبحث الثاني



أثر التسامح الدعوي في ترسيخ الأمن الاجتماعي

قبل عرض أهم الصفات التي يتحلَّى بها الدعاة إلى الله تعالى، لا بد من التجذير لها من حيث مصدريتها واكتسابها، وذلك فيما يلي:

أولًا: التسامح وسيلة الأنبياء في تأمين مجتمع الدعوة إلى الله:

ارتبط التسامح بمنهج الدعوة عند الأنبياء ارتباطًا وثيقًا، لضرورة ذلك في تهيئة المجتمع وترويضه ترويضًا آمنا يُبعِده عن الجاهلية والانفلات الأمني، لذلك تقع على كاهل الدعاة إلى الله تعالى نفس المسئولية، وهي تحتاج إلى تعبئة الداعية بالإيمان برسالته، فلا تنتصر دعوة إلا بالداعية الذي يؤمن بها، ويُحسِن عرضَها، ويكون نموذجًا حيًّا لتعاليمها[1]، ويرجع تجذير صفات الدعاة إلى الله تعالى إلى منهج الأنبياء والمرسلين الذي حكاه القرآن الكريم، كما يرجع إلى تربية النبي وتوجيهه للدعاة ليسيروا على أرقى منهج تسامُحيّ حكيم يضمن أمن المجتمع الإنساني.

إن تسامح الدعاة في الدعوة إلى الله أداة لضبط المجتمعات، وضمان لترسيخ مفهوم الأمن، بدلا من القلاقل وسفك الدماء؛ ولا شك أن ذلك قبس من أخلاق الأنبياء والمرسلين التي جمعت إرادة اللين، والرحمة، والحكمة، والصبر، والحِلم، والرضا، والتحمُّل، والعزم عند العفو، والتسامح مهما كان ردّ فِعل المدعو.

ومن خلال القرآن نقف على بعض النماذج الدعوية في حكايته عن تسامح

---

(١) دعاة لا بغاة، جريشة، صـ ١٧٥ – ١٧٧.




الأنبياء في أممهم، وتحمُّلهم وصبرهم على نتائج النصيحة مع شِدّة معاناتهم وعزمهم في آن واحد، في سبيل تأمين المجتمعات وتهيئتها للسماع:

«وقد حكى القرآن الكريم موقف قوم نوح منه حين نصحهم بنزع الشرك، وكيف اتهموه بالضلال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٠]، فقد دعا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه ودعاهم للخير حين خاطبهم، وعبَّر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة؛ ليتحققوا أنه ناصح متسامح، ومُريد خيرهم، ومُشفِق عليهم، وأضاف ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى ضميره؛ للتحبيب والترقيق لاستجلاب اهتدائهم، وقوله لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ إبطال للحالة التي كانوا عليها، حيث كانوا مشركين، بمدلول قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: أفرِدُوه بالعبادة ولا تُشركوا معه الأصنام، والمعنى: اتركوا عبادة غير الله خوفًا من عذاب يوم عظيم، وبنى نَظْم الكلام على خوفه عليهم دلالة على إمحاض النصح لهم، وحرصه على سلامتهم، حتى جعل ما يضرُّ بهم كأنه يضرُّ به[1].

«ثم نفى عنه التباس ضلالة ما به، دلَّ على أنه على الصراط المستقيم»[2]، وذلك في قوله ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾، وهو ردٌّ لقول الملأ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والملأ من قومه هم الرؤساء والأجلّة والأشراف، وسُمُّوا بذلك لأنهم ملئوا بما يحتاج إليه منهم، ويقال: لأنهم ملئوا الناظر هَيْبَة إذا اجتمعوا في موضع، وفي رده عليهم بيان لأدب الخُلق في حسن الجواب والمخاطبة، لأنه

(١) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ابن عاشور، (١/ ١٥٦٢).
(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (٤/ ٣٢٤).



ردّ جهلهم بأحسن الجواب»[١]، «فإنهم جعلوا الضلال متمكنًا منه، فنفى هو أن يكون للضلال متلبس به، وجملة ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ صفة لرسول أو مستأنفة، والمقصود منها إفادة التجدد، وأنه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم تأسيًّا لهم من متابعته إياهم، وأنه لهم ناصح، ونصيحته وقعت خالصة للمنصوح مقصودًا بها جانبه»[٢]، وهو مراده من قوله ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي «أمنعكم من الفساد، وأدعوكم إلى التوحيد، وأُحذِّركم من العذاب. وقال أهل اللغة: أنصح لكم وأنصحكم لغتان بمعنى واحد، كما يقال: شكرْتُ لكَ، وشكرْتُكَ»[٣]، وذلك في مجموعه يُحقِّق الأمن في مجتمعهم.

وجاءت الدعوة الحانية المتسامحة في نصيحة سيدنا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ **بعبادة الله وتوحيده،** وكيف نازعه قومه وصبرَ على تسامحه في نصيحته وتحمَّلَ أذى ألسنتهم، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأعراف ٦٥-٦٧]، إنه نصحهم في تسامح بنبذ الشرك وهجرانه، فاتهموه بالسفاهة، وهي «الحُمْق والطيش وعدم البصيرة بالحياة حين خرج عن إجماع قومه، وواجههم بعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، واتهموه بالكذب حين قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾، فيما جئت به من الرسالة، ودعوت إليه من التوحيد ونبذ الآلهة غير الله تعالى، فأجاب هود عَلَيْهِ السَّلَامُ رادًّا لشبهتهم فقال: ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، فلست كما تزعمون أن بي سفاهة،

---

(١) بحر العلوم، السمرقندي، بتحقيق: د.محمود مطرجي، (١/ ٥٤٠).
(٢) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ابن عاشور، (١/ ١٥٦٣).
(٣) السمرقندي، بحر العلوم، (١/ ٥٤٠).




ولكني أحمل رسالة أبلغكموها، وأنا في ذلك ناصح لكم، مُريد لكم الخير، أمين على وحيّ الله تعالى إليّ، أمين لا أغشكم ولا أخونكم فما أريد لكم إلا الخير»[1].

ونبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصح قومه بترك الشرك والظلم، وبشَّرهم بأن الله سيُمكِّنُهم في الأرض، وسيُدخِلهم جنات تجري فيها الأنهار خالدين فيها أبدًا في الآخرة إن استجابوا لنصيحته، وكل الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- نصحوا أقوامهم. والأصل في ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ مخاطبًا النبي الأمين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكُلَّ من يملك مؤهلات الدعوة إلى يوم القيامة: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فبالحكمة والمجادلة تخاطب طاقة الفكر وبالموعظة الحسنة تخاطب عاطفة القلب، ومن خلال مخاطبة الفكر والقلب يرسخ الوازع الديني في النفوس.

وقد حفَّز النبي طُلَّابه من الدعاة إلى يوم القيامة بمكافأة الله تعالى لمن نصح بالهدى، وحذَّر من خالف بالنكال، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»[2]، وهذا يُبيِّن حكمة رسول الله في نصيحته للدعاة أيضًا، ببيان مكافأة الله لمن دعا إلى الهدى وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

ثانيا: من صور التسامح وأثره في أمن المجتمع:

١) الحكمة والتلطُّف والحسن وتحقيق الأمن في العلاقات الاجتماعية:

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري، ١٨٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم ٢٦٧٤، كتاب العلم، باب مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً وَمَنْ دَعَا إِلَى هُدًى أَوْ ضَلَالَةٍ، (٨/ ٦٢).



إن الداعية يرُدّ الناس إلى الحق، ويذُبّ عن الفهم مجاهيل الفكر؛ لذا حثّ الله الدعاة على الحكمة والتلطُّف عند الدعوة فقال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ودعوته إلى سَبيل ربه، «أي إلى الإسلام ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ بالمقالة المُحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضِّح للحق المُزيل للشُّبهة ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنك تُناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها. ويجوز أن يريد القرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طُرق المُجادَلة من الرفق واللين، من غير فظاظة ولا تعنيف»[1]، وذلك أمر من الله تعالى لرسوله «بأن يدعو إلى دِين الله وشرعه بتلطُّف، وهو أن يسمع المدعو حكمة، وهو الكلام الصواب القريب الواقع من النفس أجمل موقع»[2]، وعليه فهو أمر لمن حمل على عاتقه مسئولية الدعوة إلى الله تعالى.

وقد «أمر الله جَلَّ وَعَلَا نبيه موسى وهارون -عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام-: أن يقولا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: ٤٤]، أي: كلامًا لطيفًا سهلًا رقيقًا، ليس فيه ما يُغضِب ويُنفِّر، والقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾[النازعات: ١٧-١٩]، وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته.

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (٢/ ٦٠).
(٢) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (٥/ ٥٣٠).



٢) الصبر والتصبر والاصطبار والعزم على المصابرة أداة للقضاء على الصِّدام الفكري:

إن الصبر والتصبُّر والاصطبار والمصابرة، صفات يضطلع بمعانيها الدعاة إلى الله تعالى عند الدعوة، وآليّة لتحقيق عدم الصدام الفكري، وأداة لامتصاص غضب المدعوين، وذلك «بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره: فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسُن إنْ كان خُلُقًا له ومَلَكه سُمِّي صبرًا، وإن كان بتكَلُّف وتمرُّن وتجرُّع لمرارته سُمِّي تصبُّرًا، كما يدل عليه هذا البناء لغة، فإنه موضوع للتكلُّف، كالتحلُّم والتشجُّع والتكرُّم والتحمُّل ونحوها، وإذا تكلَّفَه العبدُ واستدعاه صار سجيَّة له، وكذلك العبد يتكلَّف التعفُّف حتى يصير التعفُّف له سجيَّة، كذلك سائر الأخلاق»[١].

وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبُّر، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتصبُّر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسُّب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبُّر يتكرر حتى يصير اصطبارا، وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين: كالمشاتَمة، والمضارَبة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]»[٢]، والداعية يتقلَّب بين وجوه هذه الصفات المؤلمة عند دعوته، وهي متفاوتة في قوتها حسب طبيعة المنصوح: فمنهم من يحتاج إلى الصبر، ومنهم من يحتاج إلى تصبُّر، أو مصابرة، أو اصطبار، وهو يلاقي الكثير من الآلام من هذه الأشواك البشرية ما دام في طريق الدعوة؛ لأنهم يعتبرون نصحه لهم وأمره ونهيه فضولًا فيما لا يعنيه، وتدخُّلًا شخصيًّا لا يهُمُّه.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن قيم صـ ١٢.

(٢) عدة الصابرين، ابن قيم الجوزية، صـ ١٣.



ومعنى ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ «اصبِرُوا على دينكم، وصابِرُوا الوعد الذي وعدكم الله»[١] إذن فالمصابرة نتيجة الصبر، فلا يزال الداعية يصبر على خصوم دعوته حتى يصل إليها.

ومن هنا وجَّه الله تعالى نبيه إلى الصبر على خصومه، فتلك سُنَّة يلاقيها الدعاة عند البلاغ، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وذلك لِمَا لاقاه النبي من «تكذيب المشركين لرسالته، بجعلهم القرآن مُفترًى، واستهزائهم به، فأمر الرسول ﷺ بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، وضربَ له المَثَل بالرسل أولي العزم، وأولو العزم: أصحاب العزم، أي المُتَّصِفون به. والعزم: نية محققَّة على عمل أو قول دون تردد»[٢].

٣) الحِلم والعفو والصفح عن المخالفين أدواتٌ لترويض نفسيَّة المخالفين:

من صفات الداعية أن يكون حليمًا متسامحًا في دعوته، وإن الناظر في سيرة أُسوة الدعاة عليه الصلاة والسلام، ليجد نموذجًا حيًّا في العفو، ليس مع المؤمنين فحسب، بل مع أعدائه أعداء الدين أيضًا، الذين أمر الله تعالى بمجالدتهم بالسيوف، غير أن تلك الصور من العفو كان لها أثرها في أنفس أولئك، وأدَّت ببعضهم إلى الإيمان بالله عز وجل، ليكون للدعاة أسوة به ﷺ. فلم يلجأ إلى العنف، مع من اعتدى عليه أو رماه بمنقصة، بل أحسن إليهم، فأثَّر هذا الإحسان على كثير منهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ

(١) النكت والعيون، الماوردي، (١/ ٤٤٤).
(٢) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ابن عاشور، (٢٦/ ٥٦).

ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣]، و«ظاهره الأمر بالمعروف والصفح عنهم جميعهم، وذلك بعث على حُسن التخلُّق معهم ومكارم الأخلاق»(١).

والدعاة المُخلِصون يَتَّصِفون بهذه الصفة الحميدة، التي تكون عاقبتُها توثُّقَ العلاقات، وزيادةَ المحبَّة، والْتِئامَ الصفوف، وقوَّةَ المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، والمراد منه أمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمصابرة على الابتلاء في النفسِ والمالِ، وتحمُّلِ الأذى، وتَرْك المُعارَضة والمُقابَلة، وذلك لأنه أقرب إلى دخول المُخالِف في الدين(٢).

❊ ❊ ❊

(١) تفسير البحر المحيط، أبي حيان (٣/ ٤٦٢).

(٢) الحنبلي، أبو حفص، اللباب في علوم الكتاب، (٦/ ١٠١).

المبحث الثالث

أثر التسامح مع الآخر في ترسيخ الأمن الاجتماعي

إن التسامح يحمل القلوب إلى الاستكانة للمجتمع حُبًّا وانتماءً ودفاعًا؛ لأن الاستكانة للوطن تنبعث من التوجيه الإسلامي، وعلى أساسه يتكون التعامل مع الآخرين بمفهوم يتسع اتساع العلاقات الإنسانية بين بني البشر، وللتسامح حاكمية مُطلقَة على الروابط التي تكون لنسيج الوطن والمجتمع، وفيما يأتي نلقي الضوء على بعض آثار التسامح مع الآخر في تكوين الأمن الاجتماعي:

أولًا: تحقيق الأمن الاجتماعي في ظل المودة والرحمة بين المسلمين وغيرهم:

يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

لعل هذه الآية من أوضح الآيات التي تميِّز بين الولاء وبين التسامح والبِّر وحُسن التعامل، فالآية تُرسِّخ مفهوم الأمن الاجتماعي لغير المسلمين في ديار الإسلام، والتسامح معهم في المعاملة، وعلى بِرِّهم والإحسان إليهم، طالما أنهم مسالمين ولهم ولاء وانتماء لوطنهم، «والروابط التي تجمع بين الناس كثيرة: فمن رابطة الدم، إلى رابطة الفكرة والمبدأ، ورابطة العمل والوظيفة، ورابطة الصداقة والصحبة، ورابطة الجنس والعرق، والرابطة التجارية والاقتصادية، ورابطة العقيدة التي تُعدّ من أقوى الروابط وأمتنها. وقوّة رابطة العقيدة لا تعني أنَّ أدب التعامل مع الآخرين لا يدور إلا في نطاقها، ولا يشمل التعامل مع أصحاب




العقائد الأخرى من غير المسلمين، بل إنَّ أدب التعامل يتسع ليشمل الإنسانية كلَّها، ولا بدّ لنا في هذا السياق من التفريق بين التسامح في التعامل مع الآخرين والولاء لهم، فإن الولاء هو المحبة والنصرة»[1]، والتسامح يعني مودتهم وبرَّهم.

ثانيا: تحقيق الانسجام والتعايش السلمي:

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٥﴾ [المائدة: ٥]، والآية أحلَّت طعام أهل الكتاب ونساءهم، وهما أمران يستلزمان التعايش والتساكن والانسجام.

وأكدت النصوص النبوية ما وردَ في الآيات القرآنية من انسيابية التسامح عند ممارسة مفهوم التعايش مع غير المسلمين المُسالِمين في واقع المجتمع الأول، وبإشراف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي جاءت مضامينها في السنة النبوية، ومن أبرزها ما يأتي:

١) عيادة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمرضاهم:

عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**كان غلام يهودي يخدم النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فمرض، فأتاه النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يعودُه، فقعد عند رأسه فقال له: أَسْلِمْ، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أَطِعْ أبا القاسم. فأَسْلَم، فخرج النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[2].

---

(١) شرح كتاب التوحيد، ابن عبد الوهاب، ص٣٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ١٣٥٦، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، (١/ ٤٥٥).



«ومن العلماء من قيَّد عيادة المريض برجاء دخوله في الإسلام، ومنهم من أجاز بإطلاق»[١].

■ ٢) **قبول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهديتهم:**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: لما فُتحت خيبر أُهدَيت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاة فيها سُمّ فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود. فجمعوا له فقال: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ عنه؟ فقالوا: نعم، قال لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أبوكم؟ قالوا: فلان. فقال: كذبتم، بل أبوكم فلان. قالوا: صدقتَ. قال: فهل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتُ عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبْنا عرفت كَذِبَنا كما عرفتَه في أبينا. فقال لهم: مَن أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلُفُونا فيها. فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخسئوا فيها والله لا نخلُفُكم فيها أبدًا، ثم قال: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا؟ قالوا: نعم. قال: ما حمَلَكم على ذلك؟ قالوا: أردْنَا إن كنتَ كاذبًا نستريح، وإن كنتَ نبيًّا لم يضُرَّك**»[٢].

والشاهد أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبِل الهدية من غير المسلمين، وهذا يدلُّ على الانسجام في التعايش، رغم مخالفتهم في العقائد، ومخالفتهم لما جاء به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومكرهم وخداعهم، وعدم صدقهم، وخيانتهم.

---

(١) قال ابن بطَّال: إنما تُشرع عيادته إذا رجا أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فأما إذا لم يطمع في ذلك فلا. وقال ابن حجر: والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف المقاصد فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى. وقال الماوردي: عيادة الذمي جائزة والقربة موقوفة على نوع حرمة تقترن بها من جوار أو قرابة. راجع فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي، (ط.دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩) (١٠/ ١١٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم، ٣١٦٩، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم، (٣/ ١١٥٦).




٣) تعامل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم بالاستدانة والرهن:

انساب التعايش في الوطن مع غير المسلمين بصورة فائقة، فقد تسامح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع اليهود في المعاملات المالية رغم نكثهم وخيانتهم، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: «توفي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير»[(١)].

وهذا الحديث يدلُّ على مدى عمق التواصل المجتمعي والتعايش مع غير المسلمين تحت مفهوم المُواطَنة وبعيدًا عن الموالاة.

٤) قيام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجنازتهم واحترام آدميتهم:

قام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متسامحا لجنازة يهودي، وتعامل معهم على أساس إنساني ومفهوم تعايشي، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «**مرَّ بنا جنازة، فقام لها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقمنا معه، فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي، قال: إذا رأيتم الجنازة فقوموا**»[(٢)].

ويترجم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سرّ قيامه بعِلَّة تقدير الكرامة الإنسانية في حديث عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض – أي من أهل الذمة – فقالا: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي. فقال: أليست نفسًا؟!»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ٢٩١٦، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقميص في الحرب، (٣/ ١٠٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ١٣١١، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، (٣/ـ١٠٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ١٣١٢، كتاب الجنائز باب من قام لجنازة يهودي، (٣/ ٥٨).



وبذلك تعامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مع غير المسلمين في الدولة** على أساس المُواطَنة القائمة على العلاقات الإنسانية بين بني آدم.

٥) وثيقة المدينة وترسيخ الأمن الاجتماعي من خلال التسامح:

إن وثيقة المدينة هي أعظم الوثائق الدستورية الإسلامية في الدولة الإسلامية لحقوق المُواطَنة منذ بزوغ شمسها بالمدينة المنورة (سنة ١ هجرية وسنة ٦٦٢ ميلادية)، **ومما جاء في وثيقة المدينة:**

«وإنه من تَبِعَنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أُمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسَه وأهلَ بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بن عوف، وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأَوْس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظَلَم وأَثِم فإنه لا يُوتِغ إلا نفسَه وأهلَ بيته، وإنَّ جَفْنَةَ بَطْنٌ من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشَّطِيبَة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البِرَّ دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بِطَانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنه لا يُنحَجَزُ على ثَأْرٍ جُرْحٌ، وإنه من فتَك فبنفسه فتَك وأهل بيته إلا من ظَلَم.

وإن الله على أبَرِّ هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصرَ على من حاربَ أهلَ هذه الصحيفة، وإن بينهم النصحَ والنصيحةَ والبِرَّ دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود



يُنفِقون مع المؤمنين ما داموا مُحارَبين»[1].

وكانت تلك الوثيقة نقطة انطلاق لعدة حقوق كفلها الإسلام لغير المسلمين، في صورة تسامحية تُرسِّخ مفهوم المُواطَنة باتساع شديد؛ ليستوعب غير المسلمين على الأساس الإنساني عالية لا تُرى في أيَّة مِلّة أو نِحْلة.

ثالثا: تحقيق مفهوم المُواطَنة بين المسلمين والآخر بشكل آمن:

«سخَّر الله بتسامح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلوب الناس له، حتى زجَّ فيها عناصر الأخلاق واحدًا تلو الآخر، وأقام وطَن الإسلام على التسامح والبِرّ والوئام، ومن يلج مسير التاريخ يُدهَش في وقائعه وهو يستقرئ بين دفتيه كثيرًا من هذه المَشاهد التي حطَّت ركاب القلوب عند طاعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستسلِمة وخاضِعة.

وذلك التسامح هو ضمانة بقاء غير المسلمين في الوطن الإسلامي ليعيشوا فيه حياة كريمة، فقد شملهم الإسلام بيُسره ورِفقه؛ فتسامح معهم في كثير من القضايا والأحكام، ومنحهم كثيرًا من الحقوق»[2]، وفي حادثة «ثُمَامَة» وإسلامه شاهد عظيم يُثبِت أن مثل هذا الموقف لم يك عابرًا ولا وحيدًا، وأن تسامح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع غير المسلمين في الوطن الإسلامي ثابت لا يتغير، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**بعَثَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيلًا قِبَل نَجْد؛ فجاءت برَجُل من بني حنيفة يقال له (ثُمَامَة بن أُثال)، فربطوه بسارية من سواري المسجد؛ فخرج إليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: (ما عندك يا ثُمامَة)؟ فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعِم تُنعِم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئتَ، فتُرِك حتى كان الغد فقال: (ما عندك يا ثمامة)؟ فقال: ما قلتُ لك، إن تُنعِم**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المعافري، (٣/ ٣٣).

(٢) الاستعانة بغير المسلمين، لطريقي، (١/ ١٨).



تُنعِم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: (ما عندك يا ثمامة)؟ فقال: عندي ما قلتُ لك، فقال: (أطْلِقُوا ثُمامَة)، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ دين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ، وإنَّ خَيْلَك أخذتني وأنا أريد العُمرة؛ فماذا ترى؟ فبشَّرَه رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر؛ فلَمَّا قَدِم مكة قال له قائل: صبوتَ؟!، قال: لا، ولكن أسلمتُ مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حِنْطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ»[1].

إنها مشاهد تُبرِز عَظَمة الإسلام في مراعاة حقوق غير المسلمين والتسامح معهم، وبهذا التسامح فتَحَ النبي ﷺ قلوبًا تلهَّت بعبادة الحجارة والأوثان، وتلذَّذت بتُرَّاهات الجاهلية، وشهد التاريخ بذلك.

رابعا: تحقيق حقهم في التقاضي ودفع الظلم عنهم:

قال تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، فإن لم يتحاكموا إلينا، كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمي عندهم لأصل إلهي، قال تعالى: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ٢٤٢٢، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، (٤/ ١٥٨٩).



ﱡﭐ... ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٣ﱠ [المائدة: ٤٣][1].

وهذا تطبيق واضح لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: ٨].

أي: «لا يحمِلَنَّكم بُغْض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد في كل حال، وقال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السماوات والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سَهْلُ بن عثمان، حدثنا عبدُ الله بن جعفر، عن زيد بن أسلم قال: «كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدَّهم المشركون عن البيت، وقد اشتدَّ ذلك عليهم، فمرَّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق، يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصُدّ هؤلاء كما صدَّنا أصحابُهم، فأنزل الله هذه الآية»[2].

«فعاشوا فى أكنافها محاطين بنعمة العدل والإنصاف من المسلمين؛ وذلك لِما نحمله من قيم ومبادئ عظيمة وأحكام عادلة لأهل الذمة يعجز الغرب والشرق أن يعمل مثلها، فإذا بهم يعيشون في رغد من العيش، فالعدل في حقيقته تجسيد لأفكار الرسالة ومثلها الأعلى، وبقاؤها المحور الذى يدور في فلكه الأشخاص والأشياء»[3].

---

(١) الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، الصَّلاَّبي (١/ ٩٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٢/ ١٢) .

(٣) الكيلاني، أهداف التربية الإسلامية فى تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية، صـ ٣٢١، ٣٢٢.



والتاريخ الإسلامي المجيد زاخر بمواقف عملية كثيرة تُؤكِّد وتُطبِّق قيمة العدل العظيمة، ويشهد لذلك أيضا موقفُ يهود الدونمة، عندما وقع عليهم الظُّلم والخَسْف في محاكم التفتيش.

قرَّر الإسلام الحماية القانونية للمواطنين من غير المسلمين، وكفل لهم المساواة أمام القضاء، وظهر ذلك عندما «جاء رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال له: يا أمير المؤمنين، لقد تسابقتُ مع ابن عمرو بن العاص والي مصر، فسبقتُه فضربنى بسوطه، وقال لى: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فلتحضر إلي ومعك ابنك، فلما حضرَا أعطى عمر بن الخطاب السوط للرجل المصري ليضرب ابن عمرو قائلا له: (دونك الدُّرَّة فاضرب ابن الأكرمين)!!»[(١)].

وقد كفَلَ الإسلامُ غير المسلمين داخل الواطن الإسلامي في التقاضي، «فعن إبراهيم بن يزيد التيمي، عن أبيه قال: وجد علي بن أبي طالب دِرْعًا له عند يهودي التقطها فعرفَها فقال: دِرْعي سقطَتْ عن جَمَل لي أَوْرَق، فقال اليهودي: دِرْعي وفي يدي. ثم قال له اليهودي: بيني وبينك قاضي المسلمين، فأتوا شُريحًا، فلما رأى عليًّا قد أقبل تحرَّف عن موضعه وجلس علي فيه، ثم قال علي: لو كان خصمي من المسلمين لساويته في المجلس، ولكني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (**لا تُساووهم في المجلس وألجِئُوهم إلى أضيق الطرق، فإن سَبُّوكم فاضربوهم، وإن ضربوكم فاقتلوهم**).

ثم قال شُرَيح: ما تشاء يا أمير المؤمنين؟ قال: دِرْعي سقطت عن جمل لي أَوْرَق والتقطها هذا اليهودي، فقال شُرَيح: ما تقول يا يهودي؟ قال: درعي وفي

(١) مناقب عمر، ابن الجوزى ، صـ ٩٨ ، ٩٩.

يدي. فقال شُرَيح: صدقتَ والله يا أمير المؤمنين أنها لَدِرْعُك، ولكن لا بد من شاهدَيْن، فدعَا قَنْبَرًا مولاه والحَسنَ بن علي، وشهدَا أنها لَدِرْعُه، فقال شُرَيْح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك لك فلا نُجِيزها. فقال علي: ثكلتك أمك، أما سمعتَ عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: الحسن والحسين سيِّدَا شباب أهل الجنة؟ قال: اللهم نعم. قال: أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة؟! والله لأوجهنك إلى بَانْقِيَا تقضي بين أهلها أربعين يومًا.

ثم قال لليهودي: خذ الدِّرْع، فقال اليهودي: أمير المؤمنين جاء معي إلي قاضي المسلمين، فقضى عليه ورضي! صدقتَ والله يا أمير المؤمنين، إنها لَدِرْعُك سقطَتْ عن جملٍ لكَ التقطتُها، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فوهبها له عليٌ وأجازه بتسعمائة، وقُتِل معه يوم صِفِّين - السياق لمحمد بن عون- وقال عبد الله بن سليمان: فقال علي: الدِّرْع لكَ، وهذا الفرس لكَ، وفرَضَ له في تسعمائة، ثم لم يَزَل معه حتى قُتِل يوم صِفِّين»[1].

❋ ❋ ❋

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصبهاني، وقال عنه: غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، تَفَرَّدَ بِهِ حَكِيمٌ، وَرَوَاهُ أَوْلَادُ شُرَيْحٍ عَنْهُ عَنْ عَلِيٍّ نَحْوَهُ (٤/ ١٣٩)، وذكره الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني، في سبل السلام، (٤/ ١٢٥)، وورد في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، (٧/ ٢٦).



الخاتمة

من خلال التطواف العلمي السابق، يظهر لنا جليًّا أثرُ التسامح في ترسيخ الأمن الاجتماعي بكل أشكاله، ومن خلال ما سبق نَصِل إلى عِدّة نتائج وتوصيات:

أولًا: أهمُّ النتائج:

١) **أنَّ الإسلام كفَلَ بتسامحه أمْنَ المجتمعات،** وانتظمت تحت منهاجه كافَّةُ أنساقها على اختلاف لغاتها وعقائدها وتوجهاتها، بضوابط الإسلام التي ضمنت تحقيق الأمن.

٢) **عالجَ الإسلام بالتسامح والبِرِّ والقِسط** مشكلات غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية، وضَمِن حقوقهم وأحسَنَ إليهم.

٣) **ليس الأمن الاجتماعي على أساس التسامح موقوتًا بتاريخ،** أو مُحدَّد بزمان، أو مرتبط بحقبة تاريخية معينة، بل هو تشريع ربَّاني أصيل يشمل الزمان (أيّ زمان)، والمكان (كُلّ مكان)، ولو راجَعْنا التاريخَ وجَدْنا ذلك.

٤) **أنَّ القرآن والسنة النبوية** يؤكدان انسيابية ممارسة التسامح والأمن مع غير المسلمين المُسالِمين، ويشهد لذلك واقع المجتمع الأول وبإشراف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي جاءت مضامينها في السنة النبوية.

ثانيًا: أهمُّ التوصيات:

١) **عَقْد ندوات ومؤتمرات عالمية يُدعى فيها كُلُّ أصحاب الديانات والنِّحَل؛** لكشف حقيقة الإسلام في ترسيخ مفهوم الأمن الاجتماعي، بالتسامح مع

كل الأنساق على اختلافها.

٢) **تكثيف الجهود العلمية من قِبَل المؤسسات الحكومية والخيرية والإعلامية،** في إبراز تأكيد الإسلام للتسامح والعيش الآمن في الأوطان تحت ظلاله.

٣) **إصدار منشورات تثقيفية لعناصر المنظومة المجتمعية،** تدعو إلى التسامح داخل الأوطان تحقيقًا للأمن والنهوض والتوافق، ونبذ الخلاف والافتراق.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊



المصادر والمراجع

١. **شرح صحيح البخارى**، ابن بطال (أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، (ط. مكتبة الرشد – السعودية، طبعة ثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).

٢. **مناقب عمر**، ابن الجوزي، (ط. دار الكتب العلمية، بدون تاريخ).

٣. **جوامع السيرة**، ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد، الأندلسي، الظاهري، تحقيق إحسان عباس (ط. دار المعارف – مصر، ط. أولى، بدون تاريخ).

٤. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي، (ط.دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩).

٥. **زاد المعاد**، ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر، (ط. مؤسسة الرسالة، بيروت).

٦. **البداية والنهاية**، ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، (ط. مكتبة المعارف، بيروت، بدون تاريخ).

٧. **«الخراج»**، أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، (ط.دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ).

٨. **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، (ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، طبعة ثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).





٩. **سنن ابن ماجه**، ابن ماجه، (المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ).

١٠. **سنن أبي داود**، أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (ط. دار الكتاب العربي بيروت، بدون تاريخ).

١١. **المجتمع الإنساني فى ظل الإسلام**، أبو زهرة، محمد، (ط. الدار السعودية للنشر والتوزيع- جدة، طبعة ثانية، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م).

١٢. **الفروق**، أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق عمر حسن القيام، (مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م).

١٣. **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (دار الكتب المصرية – القاهرة، طبعة ثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).

١٤. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مسند الأنصار، مؤسسة الرسالة، ط. ثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م).

١٥. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، (ط. دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩).

١٦. **القاموس السياسي**، أحمد عطية الله، (ط. دار النهضة العربية، ط. ثانية، سنة ١٩٦٨م).

١٧. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، (ط. السعادة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).





١٨. **صحيح الترغيب والترهيب**، الألباني، محمد ناصر الدين، (مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الخامسة).

١٩. **الجامع الصحيح المختصر**، البخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي) تحقيق: مصطفى ديب البغا، (ط.دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط. ثالثة، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م).

٢٠. **معالم التنزيل**، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، (ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م).

٢١. **فتوح البلدان**، البلاذي، (ط القاهرة سنة ١٩٣٢م).

٢٢. **سنن البيهقي الكبرى**، البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (ط. دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ – ١٩٩٤).

٢٣. **شعب الإيمان**، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، (ط. دار الكتب العلمية – بيروت، طبعة أولى، ١٤١٠هـ).

٢٤. **مشكاة المصابيح**، التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، (ط. المكتب الإسلامي – بيروت، ط. ثالثة – ١٤٠٥ – ١٩٨٥م).

٢٥. **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، كتاب المناقب، باب فضل مكة



(ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون تاريخ).

٢٦. **التعريفات**، الجرجاني، علي بن محمد بن علي، تحقيق: إبراهيم الأبياري (ط. دار الكتاب العربي - بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٥هـ).

٢٧. **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام**، جواد علي، (ط. دار الساقي، طبعة رابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٢٨. **المستدرك**، الحاكم، (ط دار المعرفة - بيروت، بدون تاريخ).

٢٩. **نظرية القيم السياسية**، حامد ربيع، (مكتبة القاهرة الحديثة، سنة ١٩٧٢م).

٣٠. **مجموعة الوثائق السياسية، في العهد النبوي والخلافة الراشدة**، حميد الله، (ط القاهرة سنة ١٩٤١م).

٣١. **الأعلام**، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، (ط. دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، ٢٠٠٢م).

٣٢. **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري (ط. دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٣٣. **مختار الصحاح**، الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، تحقيق: محمود خاطر (ط. مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥ - ١٩٩٥).

٣٤. **عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين**، رضا، محمد رضا، (ط دار الكتب العلمية، ط ثالثة، سنة ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م).



٣٥. **مناهل العرفان في علوم القرآن**، الزرقاني، محمد عبد العظيم، (ط. عيسى البابي الحـلبي، طبعة ثالثة، بدون تاريخ).

٣٦. **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار**، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (ط. إدارة الطباعة المنيرية، بدون تاريخ).

٣٧. **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، سيد قطب، (ط.دار الشروق: القاهرة، ٢٠٠٢).

٣٨. **الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية**، الصلابي، عَلي محمد محمد، (المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط. أولى، بدون تاريخ).

٣٩. **في سبل السلام**، الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني، (ط. الباب الحلبي، ط. الرابعة ١٣٧٩هـ، ١٩٦٠م).

٤٠. **تاريخ الأمم والملوك**، الطبري، (ط القاهرة، سنة ١٩٧٩م).

٤١. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (نشر جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويت، ١٤٢٢هـ الموافق ٢٠٠١م).

٤٢. **الاستعانة بغير المسلمين**، عبد الله الطريقي، (ط. رئاسة إدارات البحوث العلمية، الرياض، بدون تاريخ).

٤٣. **السيرة النبوية لابن هشام**، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، (الناشر دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ).

٤٤. **الموسوعة السياسية**، عبد الوهاب الكيالي، (المؤسسة العربية للدراسات




والنشر، ط. أولى، سنة ١٩٨٧م).

٤٥. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، تحقيق: بكري حياني (ط. الرسالة، ط. الخامسة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٤٦. **كتاب العين، باب الطاء والنون**، الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، (ط.دار ومكتبة الهلال، بدون تاريخ).

٤٧. **في ظلال القرآن**، قطب، سيد قطب، (القاهرة دار الشروق، ط ٢٥، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م).

٤٨. **أهداف التربية الإسلامية فى تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية**، ماجد عرسان الكيلاني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة إسلامية المعرفة ٢٠، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م).

٤٩. **نظم الأمن والعدالة فى الإسلام**، محمد الحسيني عبد العزيز. (ط. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢).

٥٠. **المجتمع الإسلامي وأصول الحكم**، محمد الصادق عفيفي، (ط.دار الاعتصام – القاهرة، ط. أولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

٥١. **لسان العرب، باب قلل**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، (ط. دار صادر – بيروت، ط. أولى، بدون تاريخ).

٥٢. **الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم**، مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، (دار الجيل بيروت، د. ت).



٥٣. **النسائي**، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، (مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، طبعة ثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦).

٥٤. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي) (دار الفكر، بيروت – ١٤١٢ هـ).

٥٥. **المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، النووي، يحيى بن زكريا، (ط.دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان).

٥٦. **بحوث في الإسلام والمجتمع**، وافي، علي عبد الواحد، (ط القاهرة سنة ١٩٧٧م).

٥٧. **الموسوعة الفقهية**، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، (الكويت، ط. ثانية، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م).

❊ ❊ ❊



الفهرس

الموضـــــوع	رقم الصفحة



أ. د. عَبْدُ الفَتَّاحِ مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ خِضْر

أستاذ ورئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر

عضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه {تبيان}

Khedr299@hotmail.com

- حصل على درجة الماجستير من كلية اصول الدين والدعوة بطنطا ـ جامعة الأزهر في التفسير وعلوم القرآن بأطروحته: (المجمل والمبين في القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية اصول الدين والدعوة بطنطا ـ جامعة الأزهر في التفسير وعلوم القرآن بأطروحته: (العلامة الجمل وحاشيته على تفسير الجلالين تحقيق ودراسة).

- من مؤلفاته:
- ١) تفسير سورة يوسف تفسيرا تحليليا
- ٢) الحزب الثاني من القرآن الكريم دراسة بيانية
- ٣) علم الدخل
- ٤) عادات العربية القولية في ضوء القرآن الكريم
- ٥) العلامة الجمل وحاشيته على تفسير الجلالين تحقيق ودراسة





مُلخَّص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن بحثي هذا الموسوم بـ«من أصول تفسير القرآن بالقرآن» يُعنى بالجانب التأصيليّ للنوع الأحسن من أنواع التفسير؛ وهو تفسير القرآن بالقرآن.

وتكْمُن أهميةُ التأصيل العِلميَّة للعلوم في إرجاعها إلى معايير معينة نحتكم إليها عند اللزوم، وهذا له ما بعده.

وتفسير القرآن بالقرآن له أصول مُقرَّرة نستطيع الوقوف عليها من خلال القرآن الكريم ذاته، ومن خلال صنيع أهل الرسوخ في العلم من سادتنا المُفسِّرين.

وللحقيقة أقول: إن عدم تأصيل الأصول العِلميَّة المتعلِّقة بتفسير القرآن بالقرآن حتى وقتنا هذا، عرَّض كتاب الله للفَهْم الشاذِّ، والتكلف المردود في تناول ألفاظ القرآن الكريم ونصوصه، وسمَح لكل زاعق وناعق أن يلج مولج المُفسِّرين؛ مما أغرى الجُهَّال بالاجتراء على كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

الهدف من هذه الدراسة:

إيقاظ هِمَم السادة العلماء المتخصصين - في زمن اختلاط المفاهيم - لبذل الوُسع تجاه تراثهم التفسيري، ولنفي ما لحق به من تَحْرِيف، أو انتحال، أو تَأْويل لا يليق، وذلك من خلال جهود علمية صادقة تضع معايير (مقاييس وموازين) تستخلص من خلالها أصول تفسير القرآن بالقرآن، ليصير عِلْمًا ضابطًا لبيان القرآن الكريم، يبدأ بالفهم السليم، وينتهي إلى الاستنباط الأمثل.

■ **وهذا الهدف يمثل جانبين:**

الأول: نظريّ؛ حيث إبراز العلم التأصيليّ المعياريّ الضابط لقبول تفسير القرآن بالقرآن، وما ينبغي أن يكون عليه القبول أو الرفض.

والثاني: تطبيقيّ؛ حيث النماذج التطبيقيَّة لصور تفسير القرآن بالقرآن.

منهج البحث:

سرْتُ في بحثي هذا على المنهج الاستقرائيّ التقعيديّ التطبيقيّ، حيث استقرأتُ ما عليه أثبات العلماء، وما أرسَوْه من قواعد يقينيَّة تُقرِّر أصول تفسير القرآن بالقرآن ومتى يُقبَل، ثم أَتبعتُ ذلك بجانبٍ تطبيقيٍّ عمَليٍّ تمثيليٍّ.

ويُهيب البحث والباحث بألا يتكلم في تفسير القرآن إلا من استكمل شروط المُفسِّر وجمَعَ أدواته العِلميَّة، ووقَفَ على معايير جزئياته؛ حتى لا يقع في الخطأ؛ فيَضلَّ ويُضِلَّ.

كما يُوصي بتدريس معايير التفسير وأصوله كمادَّة تأسيسيَّة لطلابنا المتخصِّصين، مع الإفادة من مستجدات ما يُصنَّف في هذا الشأن، وهذا البحث لَبِنة في ميدان هذه التوصية.

الكلمات المفتاحية:

أصول، تفسير، معايير، القرآن، استنباط.

❋ ❋ ❋







مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن تأصيل العلوم بإرجاعها إلى معايير معينة نحتكم إليها عند اللزوم من الأهمية بمكان، وتفسير القرآن بالقرآن له أصول مُقرَّرة نستطيع الوقوف عليها من خلال القرآن الكريم ذاته، ومن خلال صنيع أهل الرسوخ في العِلم من سادتنا المُفسِّرين.

وللحقيقة أقول: إن عدم تأصيل الأصول العِلميَّة المتعلِّقة بتفسير القرآن بالقرآن حتى وقتنا هذا، عرَّض كتاب الله للفهم الشاذ، والتكلُّف المردود في تناول ألفاظ القرآن الكريم ونصوصه، وسمَح لكل زاعق وناعق أن يلِج مولج المُفسِّرين؛ مما أغرى الجُهَّال بالاجتراء على كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

والأمة اليوم - في زمن اختلاط المفاهيم - يجب عليها أن تقف عند تراثها التفسيريّ، تنفي ما لَحِق به من تَحْرِيف أو انتحال، كما تنفي عنه أي تَأْويل لا يلِيق، وذلك من خلال جهود عِلميَّة صادقة، تضع معايير تستخلص من خلالها أصول تفسير القرآن بالقرآن، ليصير عِلْمًا ضابِطًا لبيان القرآن الكريم، يبدأ بالفهم السليم، وينتهي إلى الاستنباط الأمثل.

وأقصد بهذا البحث الكشف عن المعايير (المقاييس والموازين) الضابطة لاعتماد كل أصل من أصول تفسير القرآن بالقرآن، ببيان ما ينبغي أن يكون عليه، تأمينًا لفهمه فهمًا مستقيمًا.

وهذه الدراسة تمثل جانبين:

الأول منهما مَعْنِيّ بالتنظير، حيث إبراز العلم التأصيليّ المعياريّ الضابط لقبول تفسير القرآن بالقرآن، وما ينبغي أن يكون عليه القبول أو الرفض.

والجانب الثاني مَعْنِيّ بالتطبيق، حيث النماذج التطبيقيَّة لصور تفسير القرآن بالقرآن.

هذا وقد سِرْتُ في بحثي هذا على المنهج الاستقرائيّ التقعيديّ التطبيقيّ، حيث استقرأتُ ما عليه أثباتُ العلماء، وما أرسَوْه من قواعد يقينيَّة تُقرِّر أصول تفسير القرآن بالقرآن ومتى يُقبَل، ثم اتبعت ذلك بجانب تطبيقيّ عمليّ تمثيليّ.

وقد بذلتُ فيه وُسعي بقدر طاقتي، والله الموفِّق والمستعان.





المطلب الأول

معايير صحَّة تفسير القرآن بالقرآن

المعيار الأول: أن يكون القرآن ذاته هو المُفسِّر للقرآن:

بيَّن العلماء أن تفسير القرآن بالقرآن هو أحكَم أنواع التفسير وأحسنُها، حيث نقلوا «إجماع العلماء على أن أشرفَ أنواع التفسير وأجلَّها تفسير كتاب الله بكتاب الله؛ إذ لا أحد أعلمَ بمعنى كلام الله جَلَّجَلَالُهُ من الله جَلَّوَعَلَا»[1].

ومن قبل قال الزمخشريّ في الكِشاف: «وأسَدُّ المعاني ما دلَّ عليه القرآن»[2].

وقال ابن القيِّم: «تفسير القرآن بالقرآن أَوْلى التفاسير وأبلغُها ما وجد إليه سبيلًا»[3].

وقد نقل ابن كثير قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا أَحْسَنُ طُرُقِ التَّفْسِيرِ؟ فَالْجَوَابُ: إِنَّ أَصَحَّ الطُّرُقِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ، فَمَا أُجمِلَ في مكان فإنه قد بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وما اخْتُصِرَ من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر»[4].

هذه الأقوال السالفة تُحمَل بلا ريب على تفسير الله تعالى المتكلِّم بالقرآن لكلامه عَزَّوَجَلَّ اتصالًا أو انفصالًا[5]، وهذا المعيار لا يختلف فيه اثنان، ولا مجال

(١) أضواء البيان للشنقيطي (١/ ٨). وعبارة د. الذهبي تتفق مع ما علَّل به الشنقيطي وجه الأحسنية لهذا النوع من التفسير بقوله: «لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه وأعرفُ به من غيره». التفسير والمفسِّرون (١/ ٣١).

(٢) الكشاف، الزمخشريّ، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٥/ ٢٤٥).

(٣) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم (١/ ١١١).

(٤) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: ٣٩. وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٨.

(٥) أقصد بالاتصال: أن تأتي الآية أو الآيات المفسِّرة متعاقبة مجاورة للآية المفسَّرة، وأقصد بالانفصال: أن تكون الآية المبيِّنة منفصلة في نفس السورة أو في سورة أخرى، ولا يختلف اثنان في تلازم الآيتين=



فيه للاختلاف أصلًا، بخلاف ما إذا توسَّعنا في هذا المعيار بأن نجعل تفسير القرآن بالقرآن معتمِدًا على إعمال الفِكْر بالنظر إلى حيثيَّة معينَّة في الآية، هذه الحيثيَّة تُثير سؤالًا أو استشكالًا مُعيَّنًا أجدُ جوابَه بإعمال الفِكْر، وبذْل الجُهْد، وإفراغِ الوُسْع في التدبُّر والتفحُّص في آيات القرآن العظيم، وبالرجوع إلى أدوات المُفسِّر على اختلاف تصانيفها وفنونها اللغويَّة والأصوليَّة والعَقَديَّة... إلخ، كل ذلك مزدان بعِلم الموهبة الممنوحة من ربّ العباد إلى من أخلصَ في حاله مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وتفسير القرآن بالقرآن ليس تفسيرًا متعلقًا ببيان المفردة لغويًّا أو تحليليًّا، فهذا مقدور المفسر من العلماء، لكن ما ليس مقدوره هو هذا البيان الذي يُوقِفنا على هداياتٍ وتوجيهاتٍ وأسرارٍ هي مضمون مُرادات الله من اللفظ المُبيَّن قرآنيًّا.

۞ وعلى هذا فإن هذا المعيار - كما هو واضح من عنوانه - ينقسم إلى قسمين:

صريح، وهو ما لا دخل للعلماء فيه: كبيان المُجمَل، وتخصيص العامِّ، وتقييد المُطلَق، وتأويل الظاهر، وحَمْل قصص الأنبياء والأُمم السابقة بعضه على بعض إيجازًا وبسطًا، وغير ذلك مما يتفق مع خطِّ الأُصوليين في كُتبهم[(١)] مما لا يتطرَّق إليه الاحتمال.

والقسم الثاني: شديد الشبه بالصريح لقُرآنيته، والذي أبعده عن الصراحة في تفسير القرآن بالقرآن هو بذل المجهود، وشدة التأمل والتدبر من العلماء من أجْلِ الوصول إلى تلاقي الآيات على سبيل الإيضاح والبيان.

وهذا لا يُقبل إلا بعد التيقُّن من سلامة العقيدة، وسلامة اللسان باستجماع

= (المفسَّرة والمفسِّرة) لكن دور العالم في الجمع بين الآيتين.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١: ٢٧.



المفسِّر لعلوم الآلة، التي من خلالها يكون البيان، مع الابتعاد عن مجرَّد التشابه اللفظيِّ؛ لذا ينبغي التنبُّه لذلك وغيره مما يُوقع المُفسِّر في خطأ شنيع: هو حُكمه على صنيعه بأنه تفسير القرآن بالقرآن.

كما حذَّر الأصبهانيُّ من التلفيق في تفسير القرآن بالقرآن، حيث قال: «بأن يُلفّق بين اثنين، نحو قول من زعَم أن الحيوانات كُلَّها مُكلَّفة محتجًّا بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر ٢٤]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، فدلَّ بقوله: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أنهم مُكلَّفون كما نحن مُكلَّفون»(١).

(١) تفسير الراغب: ص١١. بيان أن الحيوانات غير مكلفة رغم أنها أمم أمثالنا، يكون بمعرفة أن المثليَّة ليست من جميع الوجوه كما أفاض في ذلك علماء التفسير، ومنهم العلَّامة الرازيّ في «مفاتيح الغيب» (١٢/ ٥٢٤) حيث قال ما نصه: «الْآيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الدَّوَابَّ وَالطُّيُورَ أَمْثَالُنَا، وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُمَاثَلَةَ فِي أَيِّ الْمَعَانِي حَصَلَتْ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: الْمُرَادُ حُصُولُ الْمُمَاثَلَةِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ وَإِلَّا لَكَانَ يَجِبُ كَوْنُهَا أَمْثَالًا لنا في الصورة والصِّفَةِ وَالْخِلْقَةِ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ؛ فَظَهَرَ أَنَّهُ لَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْمُمَاثَلَةَ حَصَلَتْ فِي أَيِّ الْأَحْوَالِ وَالْأُمُورِ فَبَيِّنُوا ذَلِكَ.
وَالْجَوَابُ: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَعْيِينِ الْأَمْرِ الَّذِي حَكَمَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ بِالْمُمَاثَلَةِ بَيْنَ الْبَشَرِ وَبَيْنَ الدَّوَابِّ وَالطُّيُورِ، وَذَكَرُوا فِيهِ أَقْوَالًا:
الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: نَقَلَ الْوَاحِدِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «يُرِيدُ: يَعْرِفُونَنِي وَيُوَحِّدُونَنِي وَيُسَبِّحُونَنِي وَيَحْمَدُونَنِي». وَإِلَى هَذَا الْقَوْلِ ذَهَبَ طَائِفَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَقَالُوا: إِنَّ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ تَعْرِفُ اللهَ وَتَحْمَدُهُ وَتُوَحِّدُهُ وَتُسَبِّحُهُ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٤٤]، وَبِقَوْلِهِ فِي صِفَةِ الْحَيَوَانَاتِ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النُّورِ: ٤١] وبِمَا أَنَّهُ تَعَالَى خَاطَبَ النَّمْلَ وَخَاطَبَ الْهُدْهُدَ، وَقَدِ اسْتَقْصَيْنَا فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْقَوْلِ وَتَحْقِيقِهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ.
وَالْقَوْلُ الثَّانِي: الْمُرَادُ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ فِي كونها أُممًا وجماعات، وفي كونها مَخْلُوقَةً بِحَيْثُ يُشْبِهُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيَأْنَسُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَيَتَوَالَدُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ كَالْإِنْسِ، إِلَّا أَنَّ لِلسَّائِلِ أَنْ يَقُولَ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لَا يُفِيدُ فَائِدَةً مُعْتَبَرَةً؛ لِأَنَّ كَوْنَ الْحَيَوَانَاتِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، فَلَا فَائِدَةَ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهَا. =



من هنا نستطيع القول: إن تفسير القرآن بالقرآن منه ما لا تدخُّل لأحد فيه،

= **الْقَوْلُ الثَّالِثُ:** الْمُرَادُ أَنَّهَا أَمْثَالُنَا فِي أَنْ دَبَّرَهَا الله تَعَالَى وَخَلَقَهَا، وَتَكَفَّلَ بِرِزْقِهَا، وَهَذَا يَقْرُبُ مِنَ الْقَوْلِ الثَّانِي فِي أَنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى الْإِخْبَارِ عَمَّا عُلِمَ حُصُولُهُ بِالضَّرُورَةِ.

الْقَوْلُ الرَّابِعُ: الْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا أَحْصَى فِي الْكِتَابِ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَحْوَالِ الْبَشَرِ: مِنَ الْعُمْرِ، وَالرِّزْقِ، وَالْأَجَلِ، وَالسَّعَادَةِ، وَالشَّقَاوَةِ، فَكَذَلِكَ أَحْصَى فِي الْكِتَابِ جَمِيعَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي كُلِّ الْحَيَوَانَاتِ. قَالُوا: وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وَلَيْسَ لِذِكْرِ هَذَا الْكَلَامِ عَقِيبَ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ﴾ فَائِدَةٌ إلا ما ذكَرْناه.

الْقَوْلُ الْخَامِسُ: أَرَادَ تَعَالَى أَنَّهَا أَمْثَالُنَا فِي أنها تُحشَر يوم القيامة يُوصَل إِلَيْهَا حُقُوقُهَا، كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يُقْتَصُّ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ».

الْقَوْلُ السَّادِسُ: مَا اخْتَرْنَاهُ فِي نَظْمِ الْآيَةِ، وَهُوَ أَنَّ الْكُفَّارَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِتْيَانَ بِالْمُعْجِزَاتِ الْقَاهِرَةِ الظَّاهِرَةِ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ عِنَايَتَهُ وَصَلَتْ إِلَى جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ كَمَا وَصَلَتْ إِلَى الْإِنْسَانِ. وَمَنْ بَلَغَتْ رَحْمَتُهُ وَفَضْلُهُ إِلَى حَيْثُ لَا يَبْخَلُ بِهِ عَلَى الْبَهَائِمِ، كَانَ بِأَنْ لَا يَبْخَلَ بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ أَوْلَى، فَدَلَّ مَنْعُ الله مِنْ إِظْهَارِ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ الْقَاهِرَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَا مَصْلَحَةَ لِأُولَئِكَ السَّائِلِينَ فِي إِظْهَارِهَا، وَأَنَّ إِظْهَارَهَا عَلَى وَفْقِ سُؤَالِهِمْ وَاقْتِرَاحِهِمْ يُوجِبُ عَوْدَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ إِلَيْهِمْ.

الْقَوْلُ السَّابِعُ: مَا رَوَاهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ: «مَا فِي الْأَرْضِ آدَمِيٌّ إِلَّا وَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ بَعْضِ الْبَهَائِمِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُقْدِمُ إِقْدَامَ الْأَسَدِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوَ الذِّئْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْبَحُ نُبَاحَ الْكَلْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَطَوَّسُ كَفِعْلِ الطَّاوُسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُشْبِهُ الْخِنْزِيرَ فَإِنَّهُ لَوْ أُلْقِيَ إِلَيْهِ الطَّعَامُ الطَّيِّبُ تَرَكَهُ، وَإِذَا قَامَ الرَّجُلُ عَنْ رَجِيعِهِ وَلَغَ فِيهِ. فَكَذَلِكَ نَجِدُ مِنَ الْآدَمِيِّينَ مَنْ لَوْ سَمِعَ خَمْسِينَ حِكْمَةً لَمْ يَحْفَظْ وَاحِدَةً مِنْهَا، فَإِنْ أَخْطَأْتَ مَرَّةً وَاحِدَةً حَفِظَهَا، وَلَمْ يَجْلِسْ مَجْلِسًا إِلَّا رواه عنه». ثُمَّ قَالَ: «فَاعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّكَ إِنَّمَا تُعَاشِرُ الْبَهَائِمَ وَالسِّبَاعَ، فَبَالِغْ فِي الْحِذَارِ وَالِاحْتِرَازِ». وبناء على ما تقدم في تفسير المثلية أستطيع القول بأن الحقَّ في هذه المسألة أن المماثلة ليست من جميع الوجوه كما جزَمَ بذلك الرازي وغيره، والمراد بالأُمَّة هنا الجماعة، والمِثليَّة مِثليَّة خَلْق واهتداء، وغير ذلك مما يشترك فيه الأحياء؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، والنذير من الوجوه التي تميز بها البشر: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].وقال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥]، نلحظ كلمة «لِلنَّاسِ» وعلى هذا يكون التفسير: وما من أُمَّة من الأُمم العاقلة التي يصلُح إرسال النذير إليها وتفهم خطاب التكليف، إلا خلا فيها نذير.



وهذا هو ما ينطبق به أصل المصطلح، ومنه ما لا يأتي إلا باجتهاد المجتهدين من الراسخين في التفسير، وفي كلٍّ تفسير القرآن بالقرآن وبه.

المعيار الثاني: صحَّة الحديث الشريف:

مما يلي معيار تفسير القرآن بالقرآن معيار تفسير السُّنَّة للقرآن(١)، لكن أي معيار يجعلنا نقبَل تفسير السُّنَّة للقرآن بالقرآن؟

الجواب: إنه متى رفع الحديث إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتيقَّنَ المُفسِّر من أن الحديث الصحيح المراد يقصد ذات الآية المُفسَّرة، فهو حديث صالح لتفسير كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، ويكون بذلك طبَّق المعيار الثاني لتفسير القرآن، وهو التفسير بالسُّنَّة الصحيحة، وقيَّدْنا هذا المعيار بالصحة؛ لأنه قد اختُلِقَ على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تفسير القرآن كما اختُلِقَ عليه في غيره(٢).

---

(١) قال الإمام الشافعيّ: (كلّ ما حكم به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو ممّا فهمه من القرآن). قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾ [النحل:٦٤] ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا إنّي أوتيت القرآن ومثله معه». أخرجه أحمد برقم١٧١٧٣. قلتُ: قال محقق مسند أحمد طبعة الرسالة: ٢٨/ ٤١١، إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير عبد الرحمن بن أبي عوف الجُرَشي، فمن رجال أبي داود والنسائي، وهو ثقة. وانظر مقدمة في أصول التفسير ص ٤٥. وأُنبِّه إلى أن هذا المعيار عام في تفسير السنة للقرآن، لكنني جئتُ به معيارًا فيما يخص تفسير القرآن بالقرآن عن طريق السنة؛ لصدور هذا النوع من التفسير عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يكسبه حصانة من طعن الطاعنين.

(٢) قال الزركشيّ في البرهان: لطالب التَّفْسِيرِ مَآخِذُ كَثِيرَةٌ، أُمَّهَاتُهَا أَرْبَعَةٌ: ذكر على رأسها: النَّقْلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا هُوَ الطِّرَازُ الْأَوَّلُ، لَكِنْ يَجِبُ الْحَذَرُ مِنَ الضَّعِيفِ فِيهِ وَالْمَوْضُوعِ؛ فَإِنَّهُ كَثِيرٌ، وَإِنَّ سَوَادَ الْأَوْرَاقِ سَوَادٌ فِي الْقَلْبِ. قَالَ الْمَيْمُونِيُّ: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: ثلاثة كُتُبٍ لَيْسَ لَهَا أُصُولٌ: الْمَغَازِي، وَالْمَلَاحِمُ، وَالتَّفْسِيرُ. قَالَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ: وَمُرَادُهُ أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّهَا لَيْسَ لَهَا أَسَانِيدُ صِحَاحٌ مُتَّصِلَةٌ، وَإِلَّا فَقَدْ صَحَّ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ. (البرهان ٢/ ١٥٦).

وتفسير السُّنَّة يقال فيه ما قيل في تفسير القرآن بالقرآن، من أنه ليس تفسيرًا آليًّا، أي: يُستخدم فيه عِلْم الآلة من النحو والاشتقاق والتصريف والبيان المعجميّ التحليليّ لمادّة اللفظ وما تدور حوله، بل إن تفسير القرآن بالقرآن عن طريق السُّنَّة يوضح جانبًا من جوانب هدايات القرآن واستجلاء أسراره، ومعرفة مُكتنَزات اللفظ القرآني عن طريق مِشكاة النبوَّة.

۞ المعيار الثالث: صحَّة نسبة تفسير القرآن بالقرآن إلى الصحابي:

مكانة الصحابة محفوظة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسُنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠].

يقول الحاكم في مستدركه: «فَإِنَّ اللهَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - أَنْعَمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِاصْطِفَائِهِ بِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ أَخْيَارَ خَلْقِهِ فِي عَصْرِهِ، وَهُمُ الصَّحَابَةُ النُّجَبَاءُ، الْبَرَرَةُ الْأَتْقِيَاءُ، لَزِمُوهُ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، حَتَّى حَفِظُوا عَنْهُ مَا شَرَّعَ لِأُمَّتِهِ بِأَمْرِ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ -، ثُمَّ نَقَلُوهُ إِلَى أَتْبَاعِهِمْ، ثُمَّ كَذَلِكَ عَصْرًا بَعْدَ عَصْرٍ إِلَى عَصْرِنَا هَذَا، وَهُوَ هَذِهِ الْأَسَانِيدُ الْمَنْقُولَةُ إِلَيْنَا بِنَقْلِ الْعَدْلِ عَنِ الْعَدْلِ، وَهِيَ كَرَامَةٌ مِنَ اللهِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ خَصَّهُمْ بِهَا دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ»(١).

وما ينطبق على تفسير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **من حيث الصحَّة،** يَنطَبِق معياره على تفسير الصحابي للقرآن بالقرآن، بحيث إن ما ثبتت صحته إلى الصحب الكرام فمقبول يحتج به في التفسير.

---

(١) المستدرك للحاكم: ١/ ٢.



يقول صاحب مناهل العرفان: «القسم الثالث: وهو بيان القرآن بما صحَّ وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم.

قال الحاكم في المُستدرَك: إن تفسير الصحابي الذي شَهِد الوحيَ والتنزيلَ له حُكم المرفوع. كذلك أطلق الحاكم، وقيَّده بعضُهم بما كان في بيان النزول ونحوه مما لا مجال للرأي فيه...»[١] كذا الأمور الغيبية، وألَّا يكون المفسِّر ممن يُورد الإسرائيليات[٢].

المعيار الرابع: اتفاق السياق:

يجب مراعاة معيار السياق في كل من النص القرآني المفسِّر والنص القرآني المفسَّر، فلا يصلح بحال أن أُبيِّن آية قرآنية تحمل استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا بآية أخرى تحمل استفهامًا مَحْضًا، أو أُفسِّر آية خبريَّة بآية إنشائيَّة، أو العكس؛ لأن ذلك يستدعي تخُالف السياقَين، وتخالُفهما يعني أنه لا يصلُح أن تكون إحداهما محمولة على الأخرى.

- **يُمثِّل ابن عاشور لفساد حَمل الآيتين على بعضهما مع عدم الاتفاق في السياق[٣] بأمثلة منها:**

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧] حيث قال: «وقد ألَمَّ بمعنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا

---

(١) مناهل العرفان: ٢/ ١٣.

(٢) النكت على ابن الصلاح: ٢/ ٥٣٢.

(٣) قال البناني في حاشيته على جمع الجوامع: «السياق هو ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه» ١/ ٢٠.



لَنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٤-٨][1]، والسياق يثبت عمومًا وخصوصًا بين الآيتين، ومن هنا لا يصلُح أن يكونا تفسيرًا للقرآن بالقرآن.

ومن خير ما يدل على أن مثل هذا التنظير لا يصلُح في تفسير القرآن بالقرآن، ما ذكرَه ابنُ عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة: ١٠]، حيث قال: «وينبغي أن يكون المراد بـ (الإنسان) الكافر، جريًا على سياق الآيات السابقة؛ لأنه المقصود بالكلام، وإن كان كل إنسان يُنبَّأ يومئذ بما قدَّم وأخَّر من أهل الخير ومن أهل الشر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠]. واختلاف مقامات الكلام يمنع من حمل ما يقع فيها من الألفاظ على محمل واحد؛ فإن في القرآن فنونًا من التذكير لا تلزم طريقة واحدة، وهذا مما يَغفل عن مراعاته بعضُ المُفسِّرين في حملهم معاني الآيات المتقاربة المغزى على محامل متماثلة»[2].

---

(١) التحرير والتنوير: ٩/ ١٥٧. والعموم كائن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ حيث اشتملت الآية الكريمة على إعلام الله نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه سبحانه ليبعثن على اليهود مَن يُذيقهم سوء العذاب والإذلال إلى يوم القيامة، والخصوص كائن في ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾ وهو يُبيِّن أن اليهود سيفسدون في الأرض مرتين، وهذا سياق وذاك سياق، وبما أن الجهة مُنفكَّة بين السياقين، فلا يمكن أن يُجمع بين الآيتين قرآنيًّا ليكونا من باب تفسير القرآن بالقرآن.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٤٦ وانظر بحث الزميل د. جمال حسان، تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير دراسة منهجية نقدية ص: ٢٦٠.



ولا يصلُح الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣] وأي آية في القرآن تمَّ ذِكر «الناس» فيها؛ لأن «الناس» الأولى والثانية في هذه الآية عامٌّ مخصوصٌ؛ لذا لا تتناسب تطابُقيَّة الآية مع آية أخرى عامَّة أُريدَ بها العُموم(١).

❊ ❊ ❊

(١) جامع البيان للطبري: ٧/ ٢٠٤.



المطلب الثاني

أهم صور تفسير القرآن بالقرآن

المطلب السابق يُمثِّل الجانب النظريِّ الذي يخصُّ ضبط المقياس أو المعيار، الذي من خلاله يُقبَل تفسير القرآن بالقرآن، وهذا المطلب - الذي نحن بصدده - يُمثِّل الجانب التطبيقيِّ للمعايير، وذلك بضرب الأمثلة من واقع القرآن الكريم المُبرهِنة على أصل تفسير القرآن بالقرآن.

(١) بيان المُجمَل:

ليس في مقدور كل أحد حمل المُجمَل على المُبيَّن، ولا المُطلَق على المُقيَّد، ولا العامِّ على الخاصِّ، بل إن هذا لخواصِّ أهل العِلْم كما قال شيخنا الذهبي - رحمه الله تعالى -: «ليس حمل المُجمَل على المُبيَّن، أو المُطلَق على المُقيَّد، أو العامِّ على الخاصِّ، أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهيِّن الذي يدخل مقدور كل إنسان، إنما هو أمر يعرفه أهلُ العِلْم والنظر خاصَّة»[(١)]، وهاكَ بعض الأمثلة:

أولًا: تفسير القرآن بالقرآن:

جدير بي أن أُبيِّن أنه ليس معنى تفسير القرآن بالقرآن إغلاق باب الاجتهاد، أو الشعور بالحرَج من التعرُّض لتفسير القرآن وتدبُّره ممن استجمعَ شروطَ المُفسِّر وآدابه، بل إن القرآن حمَّال أوجُه - أي إن اللفظ يحمل أكثر من معنى - كما قال أبو الدَّرْدَاءِ: «لَا تَفْقَهُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى تَرَى لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا كَثِيرَةً»[(٢)]، «وفي كلام علي

(١) ومثل ما جاء في البقرة: ٢٢٠، ٢٢٢، والمائدة: ٥، والأعراف: ١٨٧، والأحزاب: ٣٣، ٦٣.
(٢) جامع معمر بن راشد ملحق بمصنف عبد الرزاق: ١/ ٢٥٥.



رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مخاطبًا من يخوض مع الخوارج: لا تناظروهم بالقرآن فإنه حمَّال ذو وجوه. أي يحمِّل كل تأويل فيحتمِله، وذو وجوه أي: معانٍ مختلفة»[1] اختلاف تنوع لا تضادّ[2]، أي إن كل المعاني تنضوي تحت جنس واحد.

وقد حفلَ القرآن الكريم بتفسير بعضه بعضًا في آيات كثيرة، وذلك من خلال قنوات تفسيريَّة متعددة، منها ما لا يختلف عليه أحد، ومنها ما كان على سبيل التوسُّع، وها هي أهمُّ قنوات هذا الصنف الأحسن من التفسير:

آيات السؤال والجواب في القرآن الكريم:

* **مثل السؤال عن الأهِلَّة والإجابة عنها في قوله تعالى:** ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

* **والسؤال عن الإنفاق والإجابة عنه في قوله تعالى:** ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

* **كذا السؤال عن القتال في الأشهر الحُرُم:** ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير: ١/ ٤٣٨، والطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ١٨١.

(٢) اختلاف التنوع ما يمكن الجمع فيه بين الأقوال، كالقراءات المتعددة للكلمة واحدة، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقارئَيْن: «كلاكما مُحسِن» رواه البخاري كِتَاب الخُصُومَاتِ، بَابُ مَا يُذْكَرُ فِي الإِشْخَاصِ وَالخُصُومَةِ بَيْنَ المُسْلِمِ وَاليَهُودِ رقم: ٢٤١٠. أما اختلاف التضادّ: فلا يمكن الجمع فيه بين القولَيْن؛ إذ الضدَّيْن لا يجتمعان. وللمزيد انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٣/ ٢٦٨.



* والسؤال عن الخمر والمَيْسر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

* والسؤال عن حلال المطعومات: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ [المائدة: ٤].

* والسؤال عن الساعة في مواضع منها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وفي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦].

* والسؤال عن الأنفال في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال: ١]، نلاحظ أن السؤال يتَّجه إلى حيثيَّة مُعيَّنة، كذا الجواب، وهذا لا يمنع بيان العلماء لبقية الحيثيَّات الموجودة في السؤال والجواب.

ومن هذا ما وردَ بصيغة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾[1].

* منه قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ [المدثر: ٢٦، ٢٧]، ثم بيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٢٨-٣٠].

(١) «قَالَ يحيى بن سلام: بلغني أن كل شيء فِي الْقُرْآنِ (وَما أَدْراكَ) فَقَدْ أَدْرَاهُ إِيَّاهُ وعلمه. وكل شي قَالَ: (وَمَا يُدْرِيكَ) فَهُوَ مِمَّا لَمْ يَعْلَمْهُ. وقال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه: (وَما أَدْراكَ) فإنه أخبر به، وكل شي قال فيه: (وما يدريك) فإنه لم يخبر به». تفسير البغوي :٥/١٥٦، والقرطبي ١٨/٢٥٦.



* وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٧-١٩].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطارق: ٢، ٣].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر: ٢-٥].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: ٥-٩].

بيان ما يحتويه لفظٌ ما:

* كاحتواء البِرّ للآتي بعده في الآية الكريمة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

* وكقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

* ومنه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾ [المطففين: ١٠، ١١].

الجمع بين ما يُتوهَّم أنه مُختلِف:

كجمع الآيات الواردة في خَلْق آدم، والسؤال للعباد يوم القيامة، وما جاء في قصص الأنبياء بإرجاع المُجمَل إلى مُبيِّنه، والغامض إلى مُوضِّحه... إلخ.

ذكر الموصوف وإتباعه بأوصافه: كتفسير أولياء الله بأنهم الذين آمنوا وكانوا



يتقون في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

تخصيص العامِّ:

* من ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]، وقد فُسِّر ﴿مَا يُتْلَىٰ﴾ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

* وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: ١١٥].

هذا الجانب من تفسير القرآن بالقرآن لا دخْلَ فيه لأحد، بل إن القرآن هو الذي بيَّن نفسَه بنفسِه، وهذا لا يعني أنه لا يصحُّ لأحد من المُفسِّرين أن يتدبَّره، ويَسْتكنِه ألفاظَه من خلال الإعراب والتصريف والاشتقاق والبيان ليقدِّم أسرار السؤال، ويظهر ما فتحَ الله عليه به من فيوضات الجواب، وغير ذلك مما سقتُ له أمثلة.

كما أُنبِّه إلى أنه باستقراء القرآن الكريم نستطيع أن نأتي بأمثلة غاية في الكثرة، لكن المقام هنا يضيق عن مزيد من الأمثلة.

أما الذي أعملَ فيه العلماءُ اجتهادَهم بجمع ما يتوافق من القرآن مع القرآن، فصوره متعددة: منها بيان الإجمال الواقع بسبب الاشتراك:

- **مثال الاشتراك في الاسم «القُرْء»:**

في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ فِيهِ إِجْمَالٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْءَ يُطْلَقُ لُغَةً عَلَى الْحَيْضِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الطُّهْرِ، وقد أشار تعالى إلى أن المراد بأقراء العِدَّة الأطهار بقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، فاللام للتوقيت، ووقت الطلاق المأمور به في الآية الطُّهر لا الحيض، وتدلُّ له قرينة زيادة التاء في قوله: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ لدلالتها على تذكير المعدود وهو الأطهار، فلو أراد الحيضات لقال: ثلاث قروء (بلا هاء)؛ لأن العرب تقول: ثلاثة أطهار، وثلاث حيضات[1].

---

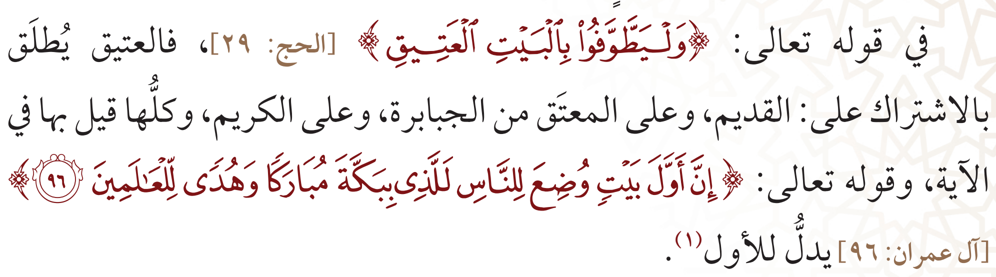
(١) ولمزيد من البسط انظر علماء أحكام القرآن: منهم الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ١١٣ حيث قال: «قال أبو عمرو ابن الْعَلَاءِ: مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يُسَمِّي الْحَيْضَ قُرْءًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّي الطُّهْرَ قُرْءًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْمَعُهُمَا جميعًا، فَيُسَمِّي الطُّهْرَ مَعَ الْحَيْضِ قُرْءًا، ذَكَرَهُ النَّحَّاسُ...».

قال العلماء: قَرَأَتِ الْمَرْأَةُ قُرْءًا، إِذَا حَاضَتْ أَوْ طَهُرَتْ. وَقَرَأَتْ - أَيْضًا - إِذَا حَمَلَتْ. وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْقُرْءَ الْوَقْتُ، فَإِذَا قُلْتَ: وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ أَوْقَاتٍ، صَارَتِ الْآيَةُ مُفَسَّرَةً فِي الْعَدَدِ، مُحْتَمَلَةً فِي الْمَعْدُودِ، فَوَجَبَ طَلَبُ الْبَيَانِ لِلْمَعْدُودِ مِنْ غَيْرِهَا، فَدَلِيلُنَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ يُؤْمَرُ بِالطَّلَاقِ وَقْتَ الطُّهْرِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُعْتَبَرُ فِي الْعِدَّةِ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ يَعْنِي وَقْتًا تَعْتَدُّ بِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، يُرِيدُ مَا تَعْتَدُّ بِهِ الْمُطَلَّقَةُ وَهُوَ الطُّهْرُ الَّذِي تُطَلَّقُ فِيهِ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ: «مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ». [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ]، وَهُوَ نَصٌّ فِي أَنَّ زَمَنَ الطُّهْرِ هُوَ الَّذِي يُسَمَّى عِدَّةً، وَهُوَ الَّذِي تُطَلَّقُ فِيهِ النِّسَاءُ.

وَلَا خِلَافَ أَنَّ مَنْ طَلَّقَ فِي حَالِ الْحَيْضِ لَمْ تَعْتَدَّ بِذَلِكَ الْحَيْضِ، وَمَنْ طَلَّقَ فِي حَالِ الطُّهْرِ فَإِنَّهَا تَعْتَدُّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ بِذَلِكَ الطُّهْرِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى.

قال أبو بكر بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ: مَا أَدْرَكْنَا أَحَدًا مِنْ فُقَهَائِنَا إِلَّا يَقُولُ بِقَوْلِ عَائِشَةَ فِي أَنَّ الْأَقْرَاءَ هِيَ الْأَطْهَارُ. فَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ فِي طُهْرٍ لَمْ يَطَأْ فِيهِ، اعْتَدَّتْ بِمَا بَقِيَ مِنْهُ وَلَوْ سَاعَةً، وَلَوْ لَحْظَةً، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ طُهْرًا ثَانِيًا بَعْدَ حَيْضَةٍ، ثُمَّ ثَالِثًا بَعْدَ حَيْضَةٍ ثَانِيَةٍ، فَإِذَا رَأَتِ الدَّمَ مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ حَلَّتْ لِلْأَزْوَاجِ، وَخَرَجَتْ مِنَ الْعِدَّةِ. فَإِنْ طَلَّقَ مُطَلِّقٌ فِي طُهْرٍ قَدْ مَسَّ فِيهِ، لَزِمَهُ الطَّلَاقُ وَقَدْ أَسَاءَ، وَاعْتَدَّتْ بِمَا بَقِيَ مِنْ ذَلِكَ الطُّهْرِ.=



- **ومن أمثلة الاشتراك في اسم - أيضًا - تفسير القرآن للعتيق:**

في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، فالعتيق يُطلَق بالاشتراك على: القديم، وعلى المعتَق من الجبابرة، وعلى الكريم، وكلُّها قيل بها في الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران: ٩٦] يدلُّ للأول[1].

= احْتَجَّ الْكُوفِيُّونَ بقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ أَبِي حُبَيْشٍ حِينَ شَكَتْ إِلَيْهِ الدَّمَ: «إِنَّمَا ذَلِكِ عِرْقٌ، فَانْظُرِي: فَإِذَا أَتَى قُرْؤُكِ فَلَا تُصَلِّي، وَإِذَا مَرَّ الْقُرْءُ فَتَطَهَّرِي ثُمَّ صَلِّي مِنَ الْقُرْءِ إِلَى الْقُرْءِ». [قال محقق سنن ابن ماجه الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة المنذر بن المغيرة. وأخرجه أبو داود (٢٨٠)، والنسائي ١/ ١٢١ و١٨٣ - ١٨٤ من طريق الليث بن سعد، بهذا الإسناد. وقد اختُلِف في إسناد هذا الحديث على عروة بن الزبير كما بينّاه في مسند أحمد (٢٧٣٦٠)].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ [الطلاق: ٤]. فجعل المأيوس مِنْهُ الْمَحِيضَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْعِدَّةُ، وَجَعَلَ الْعِوَضَ مِنْهُ هُوَ الْأَشْهُرَ إِذَا كَانَ مَعْدُومًا. وَقَالَ عُمَرُ بِحَضْرَةِ الصَّحَابَةِ: عِدَّةُ الْأَمَةِ حَيْضَتَانِ، نِصْفُ عِدَّةِ الْحُرَّةِ، وَلَوْ قَدَرْتُ عَلَى أَنْ أَجْعَلَهَا حَيْضَةً وَنِصْفًا لَفَعَلْتُ. وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ إِجْمَاعٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ عَشَرَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمُ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ، وَحَسْبُكَ مَا قَالُوا! وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨] يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: يَتَرَبَّصْنَ ثَلَاثَةَ أَقْرَاءٍ، يُرِيدُ كَوَامِلَ.

وهذا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا عَلَى قَوْلِنَا بِأَنَّ الْأَقْرَاءَ الْحَيْضُ؛ لِأَنَّ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ الطُّهْرُ يَجُوزُ أَنْ تَعْتَدَّ بِطُهْرَيْنِ وَبَعْضِ آخَرَ، لِأَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ حَالَ الطُّهْرِ، اعْتَدَّتْ عِنْدَهُ بِبَقِيَّةِ ذَلِكَ الطُّهْرِ قُرْءًا. وَعِنْدَنَا تَسْتَأْنِفُ مِنْ أَوَّلِ الْحَيْضِ حَتَّى يَصْدُقَ الِاسْمُ، فَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ فِي طُهْرٍ لَمْ يَطَأْ فِيهِ، اسْتَقْبَلَتْ حَيْضَةً، ثُمَّ حَيْضَةً، ثُمَّ حَيْضَةً، فَإِذَا اغْتَسَلَتْ مِنَ الثَّالِثَةِ خَرَجَتْ مِنَ الْعِدَّةِ.

قُلْتُ: هَذَا يَرُدُّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧] فَأَثْبَتَ الْهَاءَ فِي ﴿ثمانيةَ أيَّام﴾؛ لِأَنَّ الْيَوْمَ مُذَكَّرٌ، وَكَذَلِكَ الْقُرْءُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ.

وَوَافَقَنَا أَبُو حَنِيفَةَ عَلَى أَنَّهَا إِذَا طُلِّقَتْ حَائِضًا أَنَّهَا لَا تَعْتَدُّ بِالْحَيْضَةِ الَّتِي طُلِّقَتْ فِيهَا، وَلَا بِالطُّهْرِ الَّذِي بَعْدَهَا، وَإِنَّمَا تَعْتَدُّ بِالْحَيْضِ الَّذِي بَعْدَ الطُّهْرِ. وَعِنْدَنَا تَعْتَدُّ بِالطُّهْرِ، عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ. وَقَدِ اسْتَجَازَ أَهْلُ اللُّغَةِ أَنْ يُعَبِّرُوا عَنِ الْبَعْضِ بِاسْمِ الْجَمِيعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة: ١٩٧] وَالْمُرَادُ بِهِ شَهْرَانِ وَبَعْضُ الثَّالِثِ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ثلاثةَ قُروءٍ﴾، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(١) أضواء البيان: ١/ ٨.





- **ومن أمثلة الاشتراك في الفعل:**

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التكوير: ١٧]، فإنه مُشترَك بين إقبال الليل وإدباره، وقد جاءت آية تؤيِّد أن معناه في الآية «أقبَلَ».

قال ابن كثير: «وَعِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَسۡعَسَ﴾ إِذَا أَقْبَلَ، وَإِنْ كَانَ يَصِحُّ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْإِدْبَارِ، لَكِنَّ الْإِقْبَالَ هَاهُنَا أَنْسَبُ؛ كَأَنَّهُ أَقْسَمَ تَعَالَى بِاللَّيْلِ وَظَلَامِهِ إِذَا أَقْبَلَ، وَبِالْفَجْرِ وَضِيَائِهِ إِذَا أَشْرَقَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ [الليل: ١، ٢]، وَقَالَ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضُّحى: ١، ٢]، وَقَالَ ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ»[1]، كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ [الشمس: ٣، ٤].

- **ومن ذلك الاشتراك في الحرف:**

قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: ٧] فالواو في ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ محتملة للعطف وللاستئناف، لكن آية الجاثية ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣] أن الواو في قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ جملة مستأنفَة مبتدأ وخبر، وليست معطوفة على الجملة السابقة؛ لأن الختم على القلوب والأسماع والغشاوة على خصوص الأبصار[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٨/ ٣٣٨.

(٢) أضواء البيان: ١/ ٩.

الإبهام:

- ١) إبهام في اسم جنسٍ مجموعٍ:

مثل قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٣٧] فأبهم الكلمات وبيَّنها بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣][1].

- ٢) إبهام في اسم جنسٍ مُفرَدٍ:

مثل قوله: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، فقد أبهمها هنا وبيَّنها بقوله سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦﴾ [القصص: ٥، ٦][2].

- ٣) بيان الإبهام في اسم جمع:

مثل قوله في حق ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾ [النمل: ٤٣]، فأبهم القوم وبيَّنهم بأنهم سبأ بقوله سبحانه عن الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ [النمل: ٢٢، ٢٣][3].

---

(١) أضواء البيان: ٣/ ٤٥.

(٢) السابق: ٨/ ٧٥.

(٣) والقوم هم سبأ بلا مخالف.



- ٤) **بيان الإبهام في صِلَة الموصول:**

كقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]، لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ؟ وَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩][١].

- ٥) **بيان الإبهام في معنى حرف:**

مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤] فـ (مِنْ) هنا للتبعيض، لكن هذا البعض المدلول عليه بحرف التبعيض المأمور بإنفاقه مُبهَم هنا، وقد بيَّنه تعالى بقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] والعفو: الزائد عن الحاجة[٢].

- ٦) **بيان الإبهام الواقع بسبب احتمال مُفسّر الضمير:**

مثل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧﴾ [العاديات: ٧]، فإنه يحتمل عود الضمير على الإنسان أو الربِّ جَلَّجَلَالُهُ المذكور في الآية السابقة ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾ [العاديات: ٦]...

قال الفخر: «إِنَّ قَوْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات: ٨] الضَّمِيرُ فِيهِ عَائِدٌ إِلَى الْإِنْسَانِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهُ عَائِدًا إِلَى الْإِنْسَانِ لِيَكُونَ النَّظْمُ أَحْسَنَ..»[٣].

---

(١) أضواء البيان: ١/ ٨.

(٢) مفاتيح الغيب: ٦/ ٤٠٢.

(٣) مفاتيح الغيب :٣٢/ ٢٦٢.

● ٧) **بيان الكيفية:**

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، لم يُبِنْ كيفية الوعد بها من حيث الاجتماع أو الافتراق، لكن آية الأعراف بيَّنت ذلك، قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] ومن ذلك في القرآن الكثير(١).

● ٨) **ذِكْر السبب أو المُتعلِّق:**

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، بيَّن سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سبب هذه القسوة بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦](٢).

وكبيان مُتعلِّق التحريض في قوله تعالى: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [النساء: ٨٤] بأنه على القتال، فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

● ٩) **بيان بقيَّة الحِكَم:**

كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] «حيث ذكر حكمة واحدة من حِكَم خَلْق النجوم في هذه الآية، ثم بيَّن سبحانه في آيات أخرى بقيَّة الحِكَم، فقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات: ٦، ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ

(١) أضواء البيان: ٣/ ٥١.
(٢) السابق :٣/ ٥٤.



ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ﴾ [فصلت: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ ﴾ [الملك: ٥][1].

۞ تقييد المُطْلَق:

ومن ألوان بيان القرآن بالقرآن تقييد المُطْلَق، من ذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾ [المائدة: ٣]، «وَالدَّمُ هُنَا هُوَ الدَّمُ الْمُهْرَاقُ، أَيِ: الْمَسْفُوحُ، وَهُوَ الَّذِي يُمْكِنُ سَيَلَانُهُ كَمَا صُرِّحَ بِهِ فِي آيَةِ [الأنعام ١٤٥] في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا ﴾، حَمْلًا لِمُطْلَقِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مُقَيَّدِ آيَةِ الْأَنْعَامِ، وَهُوَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ عُرُوقِ جَسَدِ الْحَيَوَانِ بِسَبَبِ قَطْعِ الْعِرْقِ وَمَا عَلَيْهِ مِنَ الْجِلْدِ، وَهُوَ سَائِلٌ لَزِجٌ أَحْمَرُ اللَّوْنِ مُتَفَاوِتُ الْحُمْرَةِ بِاخْتِلَافِ السِّنِّ وَاخْتِلَافِ أَصْنَافِ الْعُرُوقِ.

ومن ذلك تفسير المغضوب عليهم في قول الله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة:٧] باليهود؛ لقول الله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ ﴾ [البقرة:٩٠]. ومن تفسير الضالِّين بالنصاري في ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧]؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:٧٧][2].

۞ تخصيص العامِّ:

■ من أمثلة تخصيص القرآن بالقرآن:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فإن عمومه

---

(١) السابق: ٧/ ٤١.

(٢) التحرير والتنوير: ٨/ ١٣٦ ومن أراد المزيد وجد.

خُصَّ بالحوامل في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤]، وخُصَّ أيضًا عمومه الشامل للمدخول بها وغيرها بقوله تعالى في غير المدخول بها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٣٤﴾ [البقرة: ٢٣٤] خُصَّ بقوله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤].

ونحو ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ﴾ [البقرة: ٢٢١] خُصَّ بقوله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥][١].

هذا.. ومن الجدير ذكره هنا أن القرآن الكريم لا نهاية لأنواع بيانه لذاته، وما تمَّ التمثيل له هنا هو مجرَّد سردٍ رمزيٍّ لصنوف غير محدودة ولا معدودة من بيان القرآن بالقرآن[٢].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣/ ٢٠٠.

(٢) يقول عمدة المفسرين لهذا النوع من التفسير في العصر الحاضر شيخنا الشنقيطي، الذي اعتمدتُ في التنظير السابق المذكور عاليه على ما كتبه في أضواء البيان وحُقَّ لي ولغيري أن ينقل منه متيقنا من سيادة مادته في هذا الباب من التفسير: أن المقصود مما ذكره من أنواع البيان في مقدمة كتابه: بيان كثرة الأنواع التي تضمنها القرآن تفسيرا للقرآن واختلاف جهاتها، وعلي هذا كانت غزارة هذا النوع من التفسير التي احتوت كتابه أضواء البيان، والفضل لمن سبق، والاستقصاء يحتاج إلى مشروع علميّ كبير يعمل فيه فريق من خبراء التفسير.

ثانيًا: تفسير القرآن بالقرآن من خلال السُّنَّة:

كنتُ قد بيَّنتُ أن معيار قبول تفسير القرآن بالقرآن عن طريق السُّنَّة صِحَّة الحديث برفعه إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومما صحَّ من ذلك:

* تفسير الظُّلْم بالشِّرْك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[١]، فقد فسَّر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية [الأنعام ٥٩] بآية [لقمان ٣٤].

* وقد فسَّر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية الأنعام: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩] بآية لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤] فيما رواه ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ»**[٢].

---

(١) التحرير والتنوير: ٨/ ١٣٦ وما أراد المزيد وجد.

(٢) البخاري كتاب: تفسير القرآن باب: إن الله عنه علم الساعة رقم ٧٣٧٩، ٦/ ٥٦.



* وتفسيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعاء بالعبادة فيما رواه النُّعْمَان بْن بَشِير، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»، وَقَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، قال أبو عيسى: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»[١].

ومن باب تخصيص العامِّ:

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قال: أَخْبَرَتْنِي أُمُّ مُبَشِّرٍ، أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ، إِنْ شَاءَ اللهُ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**» قَالَتْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **قَدْ قَالَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢][٢].

ومن ذلك - أيضًا - عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا بِالْخَيْرَاتِ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا الَّذِينَ اقْتَصَدُوا، فَأُولَئِكَ يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَاسَبُونَ فِي طُولِ الْمَحْشَرِ، ثُمَّ هُمُ الَّذِينَ تَلَافَاهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ، فَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ

---

(١) الترمذي كتاب: أبواب تفسير القرآن باب: ومن سورة البقرة، رقم: ٢٩٦٩، ٥/ ٢١١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ - بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَهْلِ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رقم: ٢٤٩٦جـ ٤ / ١٩٤٢.



ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]»[1].

واللون الغالب فيما فسَّره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن ليس من هذا اللون، أي تفسير القرآن بالقرآن عن طريق السُّنَّة، بل تفسير السنة للقرآن عمومًا.

۞ ثالثًا: تفسير الصحابة للقرآن:

مما لا شكَّ فيه أن تفسير الصحابة للقرآن له مقبوليته؛ لأنهم - رضوان الله عليهم أجمعين - عاشوا نور القرآن، ولابسوا تنزيله، وعرفوا أحواله، وصاحبوا من نزل عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أنهم أهل اللسان الذي نزل به القرآن، كما أنهم عرفوا أحوال من نزل فيهم القرآن، مع ما تسلَّحوا به من سلامة مقصدهم، وحُسن فهمِهم، وبالرغم من هذا فهُم لم ينقلوا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل ما يتعلق بآيات القرآن؛ ولعلَّ السبب هو فهمُهم النابع من لغتهم العربية الأصيلة، ومكنتهم مما عرفوه عن نبيهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يخُصّ القرآن وبيانه، وهذا اقتضى منهم الظَّنّ الحسن بمن بعدهم، وأنه مثلهم أو يدانيهم.

ومن أمثلة تفسير الصحابة للقرآن بالقرآن: تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ [الطور: ٥] بالسماء ثم الاستشهاد بآية الأنبياء.

عن خَالِدَ بْنَ عَرْعَرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ: «وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ: هُوَ السَّمَاءُ» قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢][2].

ومن أمثلته أيضا: عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ﴿وَإِذَا

---

(١) المسند :٣٦ / ٥٧، ٥٨، رقم: ٢١٧٢٧. صحَّحه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ٩٥. وقال الشيخ شعيب الأرناؤط في تحقيقه على المسند: «إسناده ضعيف لانقطاعه بين على بن عبد الله وأبي الدرداء بينهما فيه أبو خالد البكريّ كما في تاريخ البخاري ٩/ ١٨.

(٢) جامع البيان للطبري: ٢٧/ ١٨.



﴿ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير: ٧] قَالَ: هُمَا الرَّجُلَانِ يَعْمَلَانِ الْعَمَلَ، فَيَدْخُلَانِ بِهِ الْجَنَّةَ، وَقَالَ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] قَالَ: ضُرَبَاءَهُمْ[1].

(٢) اتحاد السياق:

سبق بيان ضرورة اتحاد السياق في تفسير القرآن بالقرآن، وهو قاسم مشترك في هذا اللون من التفسير عمومًا، لكننا ذكرناه هنا منفردًا بعنصر؛ للتأكيد على أهميَّته ومفصليَّته في هذا اللون الأمثل من التفسير، ومن ذلك:

اتحاد السياق في تفسير السِّجِّيل بالطين لورود الآيتين اللَّتَيْن تتحدثان عنه في سياق واحد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود: ٨٢، ٨٣] وفي نفس قصة لوط - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه - جاءت الآية الأخرى المُفسِّرة للسِّجِّيل: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤].

ومن أمثلة اتحاد السياق - أيضًا -:

تفسير السماء بالسقف المبنيِّ فوقنا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢] أي: سقفًا مبنيًا فوقكم لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ [الطور: ٥][2].

ومن ذلك قوله تعالى - أيضًا -: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا

(١) السابق: ٣٠/ ٦٩.

(٢) تفسير البغوي: ٧/ ٣٥٧



﴿وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦]، أي: هي مُصمَتة لا خَرْق فيها، الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك: ٣] من فتور: يعني أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل[١].

وبهذا المثال الأخير تكون ورقات هذا البحث قد تمَّت.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

❋ ❋ ❋

(١) الكشاف: الكشاف: ٤/ ٣٨١.



الخاتمة

بعد سياحة فكرية في هذا البحث الذي استمدَّ مكانته السامية من موضوعه، **أستطيع أن أستخلص منه ما يلي :**

أولًا: يؤكِّد البحث علوَّ مرتبة تفسير القرآن بالقرآن على ما دونه من مراتب التفسير الأخرى.

ثانيًا: يُثبِت البحث أن أصل تفسير القرآن بالقرآن خالص للمُتكلِّم بالقرآن سبحانه، فهو سبحانه الذي يعلَم مراده من كلامه، وهذا هو أصل إطلاق مصطلح تفسير القرآن بالقرآن.

ثالثًا: بالرغم من أن أصل تفسير كلام الله تعلُّم كائن بكلام الله تعالى، إلا أن هذا الأصل لا يمنع الراسخين في العلم المستجمعين لشروط المُفسِّر وآدابه: من النظر إلى زوايا اللفظ القرآني، والبحث عن مكنون هداياته، وإرجاع مُطلَقه إلى مُقيّده، وعامِّه إلى خاصِّه، ومُشكِله إلى مُوضِّحه، ومُجمَله إلى مُبيّنه..إلخ ما يتصل ببيان القرآن بالقرآن.

رابعًا: معيار قبول تفسير القرآن بالقرآن: أن يكون القرآن ذاته هو المفسِّر للقرآن (تصريحًا)، وأن معيار قبول السُّنَّة هو صِحَّة الحديث الشريف - كما أن معيار قبول قول الصحابي هو صحة نسبة قوله إليه، بالشروط المذكورة داخل البحث - مع حتميَّة اتفاق السياق في كل مُكوِّنات هذا النوع من التفسير.

خامسًا: حَفِل البحث بدراسة نظريَّة تطبيقيَّة تُؤكِّد الدراسة المعياريَّة التأصيليَّة لهذا اللون الشريف من التفسير.




سادسًا: يُهيب البحث والباحث بأن لا يتكلم في تفسير القرآن إلا مَن استكملَ شروط المُفسِّر وجمَعَ أدواته العِلميَّة، ووقَفَ على معايير جزئياته؛ حتى لا يقع في الخطأ فيَضلَّ ويُضِلَّ.

التوصيَّات

أُوصي بتدريس معايير التفسير وأصوله كمادَّة تأسيسية لطُلَّابنا المتخصصين، مع الإفادة من مستجدات ما يُصنَّف في هذا الشأن، وهذا البحث يخدم في محراب هذه التوصية.

❊ ❊ ❊



المصادر والمراجع

التفسير وعلوم القرآن:

١. «أضواء البيان». الشنقيطي. محمد الأمين. (د.ط) بيروت: دار الفكر، ١٤١٥/ ١٩٩٥م.

٢. «البرهان في علوم القرآن» الزركشيّ. أبو عبد الله بدر الدين محمد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مصر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.

٣. «التبيان في أقسام القرآن». ابن قيِّم الجوزيَّة، محمد بن أبي بكر- تحقيق: محمد حامد الفقي (د.ط)- بيروت: دار المعرفة (د.ت).

٤. «التحرير والتنوير» ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، تونس: دار سحنون تونس (د.ت).

٥. «تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير دراسة منهجية نقدية» د. جمال حسان مخطوط بالأردن.

٦. «تفسير الراغب الأصفهاني» أبو القاسم الحسين بن محمد تحقيق: د. محمد عبد العزيز بسيوني. ط ١، مصر: كلية الآداب بطنطا، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

٧. «تفسير القرآن العظيم» الدمشقيّ، إسماعيل بن عمر، تحقيق: سامي بن محمد سلامة مصر: دار طيبة للنشر والتوزيع (د.ت).



٨. «**التفسير والمفسرون**» الذهبيّ، محمد حسين مصر: مكتبة وهبة بالقاهرة (د.ت).

٩. «**جامع البيان**» الطبريّ، محمد بن جرير. تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركيّ بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية ط١، مصر: دار هجر، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

١٠. «**الجامع لأحكام القرآن**» القرطبيّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ط٢، مصر: دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١١. «**دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر**» الجُرجانيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ط١، بريطانيا: مجلة الحكمة. ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

١٢. «**الكَشَّاف**» الزمخشريّ، أبو القاسم محمود بن عمر. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي. (د.ط، د.ت).

١٣. «**معالم التنزيل**» البغويّ، الحسين بن مسعود. تحقق: عبد الرزاق المهدي ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

١٤. «**مقدمة في أصول التفسير**» ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، لبنان: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م (د.ت).

السُّنَّة وعلومها:

١٥. «**الجامع الصحيح**» البخاريّ، محمد بن إسماعيل، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١. بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.





١٦. «جامع معمر بن راشد» الأزديّ، أبو عروة راشد مولاهم تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.ط٢، باكستان: المجلس العلمي ١٤٠٣هـ.

١٧. «سنن الترمذي الجامع الصحيح» الترمذيّ أبو عيسى محمد بن عيسى. تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض. ط٢، مصر: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.

١٨. «صحيح مسلم» مسلم بن الحجاج بن مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.(د.ط.ت) بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٩. «مجمع الزوائد» الهيثميّ، علي بن أبي بكر. تحقق: حسام الدين القدسيّ د.ط.ت. مصر: مكتبة القدسي، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.

٢٠. «المستدرك على الصحيحين» للنيسابوريّ، محمد بن عبد الله الحاكم تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.ط١. لبنان: دار الكتب العلمية - بيروت.١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٢١. «مسند الإمام أحمد» الشيبانيّ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. تحقق: أحمد محمد شاكر ط١، مصر: دار الحديث بالقاهرة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.





الفهرس

الموضـــــــــــــــــــــــوع	رقم الصفحة





ثانيًا: مُستخلصاتُ الرّسائِل والمَشارِيعُ العِلْميّة

مجلة تدبر



تقرير عن رسالة علمية
بعنوان: تدبر القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

الباحث/ عبدالله بن عمر بن أحمد العمر

المحاضر بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

- الدرجة: الماجستير.
- الجهة المانحة للدرجة: كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- سنة الإجازة: ١٤٣٧هـ.
- الوَصْف الماديّ: تقع في مجلد من ٣٦٠ صفحة.



التعريف بالرسالة

تناولت الرسالة دراسة موضوع تدبُّر القرآن الكريم عند شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي مكوَّنة من: مقدمة، وتمهيد، وخمسة فصول، وخاتمة، وفهارس، وهي على التفصيل الآتي:

* **المقدمة:** وفيها موضوع البحث، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخُطَّة البحث.
* **التمهيد:** وفيه: ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعنايته بتدبُّر القرآن الكريم.
* **الفصل الأول:** مفهوم التدبُّر ومنزلته عند ابن تيمية، وفيه ثلاثة مباحث:
  - **المبحث الأول:** مفهوم التدبُّر عند ابن تيمية.
  - **المبحث الثاني:** أهميَّة التدبُّر.
  - **المبحث الثالث:** حُكْم التدبُّر وأحوال الناس معه.
* **الفصل الثاني:** شروط الانتفاع بالتدبُّر وضوابط سلامته عند ابن تيمية، وفيه مبحثان:
  - **المبحث الأول:** شروط الانتفاع بالتدبُّر.
  - **المبحث الثاني:** ضوابط سلامة التدبُّر.
* **الفصل الثالث:** الأمور المُعينَة على التدبُّر، والمانِعَة منه عند ابن تيمية، وفيه مبحثان:



- **المبحث الأول**: الأمور المُعِينة على التدبُّر.
- **المبحث الثاني**: موانع التدبُّر.

* **الفصل الرابع**: طُرُق التدبُّر عند ابن تيمية، وفيه مبحثان:

- **المبحث الأول**: طُرُق التدبُّر الجُزئيّ.
- **المبحث الثاني**: طُرُق التدبُّر الكُلِّيّ.

* **الفصل الخامس**: ثمرات التدبُّر عن ابن تيمية، وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول**: الثمرات القَلبيَّة.
- **المبحث الثاني**: الثمرات العِلْمِيَّة.
- **المبحث الثالث**: الثمرات العَمَلِيَّة.

* **الخاتمة**: وتضمَّنَت أهمَّ النتائج والتوصيات.
* **الفهارس**: وشملت فهرس الآيات، والأحاديث، والآثار، والأعلام، والمراجع، والموضوعات.







مزايا الرسالة

من أبرز مزايا الرسالة:

١) **الاعتماد على شخصيَّة عِلميَّة واحدة**؛ لما يتميز به ذلك من بناء النصوص الواردة عنها على تعريفها للتدبُّر.

٢) **اختيار شخصية ابن تيمية** والتي كان لها العناية البالغة بتدبُّر القرآن الكريم تأصيلًا وتطبيقًا.

٣) **استقصاء نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية في تدبُّر القرآن الكريم، وبناء صورة متكاملة عن الموضوع من خلالها.**

٤) **العناية بمفاصل موضوع التدبُّر** من بيان حقيقته، وموضوعه، وعلاقته بالألفاظ المقاربة والتفسير والاستنباط، والعلاقة بين التدبُّر وثمرته، وأصل ثمرات التدبُّر.

أبرز نتائج الرسالة:

وقد انتهى البحث بجملة من النتائج، استخلص الباحث أهمها:

١) **أن مفهوم التدبُّر عند شيخ الإسلام هو النظر العامُّ**، وقد يختصُّ بنوع منه متى ما اقترَن بغيره في الكلام، كما في اقترانِ التدبُّر بالتذَكُّر في القرآن الكريم.

٢) **أن الاجتهاد في معرفة التفسير**، والاستنباط لمعرفة الدقائق داخلان في عموم مفهوم التدبُّر.





٣) **أن موضوع تدبُّر القرآن الكريم هو ألفاظه ومعانيه**، وفقًا لما عليه أهل السُّنَّة والجماعة في مُسمَّى الكلام، والعُمدة في صِحَّة التدبُّر هو وجود المعنى فكلُّ ما له معنى صحَّ تدبُّره.

٤) **أن التدبُّر بالنظر إلى المفردة غير ممكن ما لم تكن في سياقها.**

٥) **أن التدبُّر سبب ومؤثِّر**؛ والمؤثِّر إمَّا تامٌّ تحقَّقت ثَمَرتُه اللَّازِمة له، أو ناقص لم تتحقَّق ثَمَرتُه، ويصحُّ نفي التدبُّر الناقص لانتفاء ثمرته.

٦) **اختلاف ما يحصل للمتدبِّر من الثمرات ناتج عن أمور متعددة، وجامعُها:** قوَّةُ المقتضي لذلك، وضعْفُ المانِع عنه.

٧) **أن أهميَّة التدبُّر نابعة من أمر الله به سبحانه، وجعله مقصدًا من مقاصد إنزاله، وذمّ أضداده**، وكذلك ما جاء من تدبُّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن الكريم، ويُضاف إلى هذه النصوص مما يُبيِّن أهمية تدبُّر القرآن الكريم: أن تدبُّره سبب للهداية، والإعراض عنه من أسباب الضلال والغواية، وما ينتج عن التدبُّر من الثمرات العظيمة المتنوعة دال كذلك على أهمية التدبُّر وعظيم مكانته ومنزلته.

٨) **أن تدبُّر القرآن الكريم فرْضٌ كفاية على عموم الأمة**، وقد يكون فرْض عَيْن على المُكلَّف؛ بحسب قُدرتِه ومعرفته وحاجته.

٩) **أن أحوالَ الناس في تدبُّر القرآن الكريم على ثلاث درجات**: المتدبِّر تمامَ التدبُّر، والمتدبِّرُ تدبُّرًا ناقصًا، والمُعْرِض عن التدبُّر.

١٠) **أن من أبرز الأسباب المُعِينة على تدبُّر القرآن الكريم**: ذكر الله تعالى ودعاؤه والافتقار إليه، **ومن أشدِّ الأمور المانِعَة مِن تدبُّرِ القرآن الكريم:**





أَلَّا يُقدَر القرآن قَدْرُه، فيستَلْهِمَ منه الهُدى، بل يُظَنُّ عدمُ كفايته في ذلك.

١١) أن ثمرات تدبُّر القرآن الكريم متنوعة؛ فمنها القَلبيُّ والعِلْمِيُّ والعَمَلِيُّ، والثمرات العِلْمِيَّة هي الأصل فيها، ومنها يتفرَّعُ عملُ القَلْب وعملُ الجوارِح.

❊ ❊ ❊



أبرز توصيات الباحث

من أبرز التوصيات التي أوصى بها الباحث ما يلي:

١) **الانطلاق في دراسة بعض الموضوعات التي لم تُفرَد بالدراسة إلَّا متأخرًا من شخصية واحدة، ودراستها بصورة متكاملة؛** لِما في ذلك من تفسير كلام المُتكلِّم بعضه ببعض، وعدم حَمْله على مراد غيره.

٢) **أهمية استجلاء موضوع تدبُّر القرآن الكريم في ضوء استعمال العرب، والسلف منهم على وجه الخصوص،** وذلك لتحديد المدلول، وما يُبنى عليه.

٣) **الإبقاء على بحث موضوع تدبُّر القرآن الكريم في حيز أعمال القلوب،** وعدم الانتقال به إلى حيز العمليَّات العِلميَّة الدقيقة: كالاجتهاد لمعرفة التفسير، والاستنباط لمعرفة الدقائق، إذ لكل منها عمل عِلْميٌّ خاصٌّ، وإن كان يصِحُّ إطلاقها عليه؛ ومن أبرز ما يستدعي ذلك من الفروق بين أعمال القلوب والأعمال العِلميَّة: الاختلافُ في طبيعَتِها، فالغالب على أعمال القلوب العموم والخفاء؛ مما يستلزم التوصيف العامَّ، أمَّا ما يُذكَر من دقائق فإنما هو اجتهاديّ، ووَصْف لما يجده القائل في نفسه، بينما الأصل في الأخرى التدقيق والتنقيب، فهي جارية على قواعد وأُسس عِلميَّة.

٤) **دراسة موضوع تدبُّر القرآن الكريم دراسة موضوعية في القرآن الكريم،** لا تقتصر على لفظ «التدبُّر»، بل تعُمُّ التدبُّر ومرادفاته وما جاء في معناه.





٥) **دراسة موضوع تدبُّر القرآن الكريم عند ابن القيم دراسة مستقلة**؛ وذلك لِمَا له من عناية واهتمام بهذا الموضوع.

٦) **ترشيد المُمارَسات التي تُعنى بتدبُّر القرآن الكريم في الواقع العمليِّ**، بما أفاده مضمون هذا البحث.

٧) **عدم الاقتصار في الدعوة للتدبُّر على الفوائد المُستنبَطة**، بل تعميمُها لكلِّ ما يصدُق عليه، مع العناية بضوابط كل صورة منه.

❋ ❋ ❋



إعداد

اللجنة العلمية في الهيئة العالمية

لتدبر القرآن الكريم



تقرير عن كتاب تدبُّر المُفصّل

تزخر المكتبة العِلميَّة -بفضل الله تعالى- بنهضة مباركة في القرآن الكريم وعلومه، وقد أسهم في ذلك وجود المؤسسات القرآنية المتخصِّصة التي كان لها اعتناء بهذا الجانب، ومن هذه المؤسسات المباركة: **(الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم)** التي انشئت خصيصًا للعناية بتدبُّر القرآن الكريم والتخصُّص فيه، وكان من أهمِّ أهدافها إنجازُ «**مصحف التدبُّر**» لآيات القرآن الكريم، ليكونَ على هامش المصحف العثمانيِّ.

وبناء على ذلك تمَّ وضعُ لجنة عِلميَّة قامت بوضع الأُسس العِلميَّة المعتبَرة، لينطلق العمل في هذا المشروع المبارك على ضوء هذه الأُسس.

وقد تمَّ -بفضل الله- الانتهاء من المرحلة الأولى لهذا المشروع من سورة (ق)، وحتى سورة (الناس)، وقد طُبِع في مُؤلَّف لطيف عُنْوِن له بـ«تَدبُّر المُفصَّل»

۞ فكرة الكتاب:

هو جمع الهِدايات القرآنيَّة من بطون كتب التفسير، وكُتب تدبُّر القرآن الكريم، وممَّا كتَبه أهلُ العِلْم المعاصرون، وتنقيحُها وترتيبُها، ثم صوغُها بأسلوب مُيسَّر مختصر معاصر، مصحوب بإشارات وتوجيهات في تزكية النَّفْس، والحثِّ على العمل والانتفاع بالآيات.

■ **وقد جاء ترتيب الكتاب على النحو الآتي:**

- ذكر اسم السورة.
- كتابة الآية القرآنيَّة أو الآيات بالرسم العثماني.



* شرح ما ينبغي بيانُه من معاني غريب المفردات.
* ذكر الهدايات القرآنيَّة المتعلِّقة بالآية أو الآيات.
* إثبات ما سبَق في حاشية المصحف؛ حتى يتسنَّى للقارئ الوقوفُ على الهدايات مع الآيات في موطن واحد.

وقد انتُخِب لهذا المشروع فريقُ عملٍ متخصِّص في الدراسات القرآنية، كان له الفضل -بعد الله- في جمع الهدايات، وفرزها، وتحريرها، ثم صياغتها وتحكيمها.

وحتى تُوحَّد إجراءات عمل الفريق، حَدَّدت اللجنة منهجيَّة عِلميَّة من ستة مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة جمع الهدايات والوقَفات:

وذلك باستقراء جملة من كتب التفسير المتقدِّمة والمتأخِّرة والمعاصرة، من سورة (ق) حتى سورة (الناس)، وجَمْع ما تضمَّنته هذه الكتبُ من الوقَفات والفوائد التدبُّريَّة، إضافة إلى تتبُّع أبرز المُعرِّفات المعنيَّة بكتابة التغريدات القرآنيَّة في موقع التواصل الاجتماعيِّ (تويتر) لأهل التخصُّص، وقد بلغت عشرين مرجعـًا، من أبرزها:

١) **جامع البيان، للطبريّ.**

٢) **الجامع لأحكام القرآن، للقُرطبيّ.**

٣) **بدائع التفسير، لابن القيِّم.**

٤) **تفسير القرآن العظيم، لابن كثير.**



٥) نَظْم الدُّرَر، للبِقاعيّ.

٦) إرشاد العقل السليم، لأبي السُّعود.

٧) تيسير الكريم الرَّحمن، للسَّعديّ.

٨) أضواء البيان، للشِّنقيطيّ.

٩) التحرير والتنوير، لابن عاشور.

١٠) تفسير القرآن الكريم، لابن عُثيمين.

إضافة إلى ستَّة وعشرين معرِّفًا في (تويتر).

۞ المرحلة الثانية: مرحلة فرز وتحكيم الفوائد والوقَفات:

وذلك بعد جَمْعها، وترتيبها حسبَ السُّور والآيات، وحذْفِ المكرَّر منها، وما ليس له تعلُّق بالتدبُّر، أو فيه مخالَفةٌ لمعنى الآية.

۞ المرحلة الثالثة: مرحلة صياغة الفوائد صياغة عِلميَّة أدبيَّة:

أما المرحلة الثالثة فقد كانت لصياغة هذه الفوائد صياغة عِلميَّة أدبيَّة تُراعي مضمونَ كلام المُفسِّر، بأسلوب سهل وعبارة مختصَرة، وذلك حرصًا على تقريب المعاني والهدايات المُنتخَبة من كتب المفسِّرين للقُرَّاء الكرام.

۞ المرحلة الرابعة: مرحلة المراجعة العِلميَّة للهدايات المَصوغة مع نصِّ عبارة المُفسِّر:

وفي المرحلة الرابعة جاءت المراجعة العِلميَّة للهدايات المَصوغة مع نصِّ عبارة المُفسِّر؛ للتحقُّق من تضمُّنها معنى النصِّ الأصليِّ دون إخلال، ولا مخالفة لمعنى الآية.



المرحلة الخامسة: مرحلة بيان معاني غريب المُفرَدات:

وفي المرحلة الخامسة بُيِّنت معاني غريب المُفرَدات، حيث اختِيرتْ أهمُّ الكلمات التي تحتاج إلى شرح وبيان من غريب الألفاظ، وشُرحَت شرحًا موجزًا، بالاستفادة غالبًا من كُتب (غريب القرآن المُعتمَدة المُتقدِّم منها والمُعاصِر).

المرحلة الأخيرة: مرحلة التحكيم والتقويم العِلميِّ:

وفي المرحلة الأخيرة جاء التحكيم والتقويم العِلميِّ، من قِبَل فريق علميٍّ متخصِّص، وَفق معاييرَ عِلميَّة تضمَن -بإذن الله- إخراجَ هذه المادَّة بأسلوب منهجيٍّ عِلميٍّ مُيسَّر، يكون له أثرٌ مباشر في إعانة القارئ على الانتفاع بالآيات، وحثِّه على العمل والتطبيق.

وقد ذيَّلَت الهيئةُ في مقدِّمة الكتاب وصايا عَمليَّة وطُرق تطبيقيَّة للاستفادة من هذا الكتاب على الوجه الأمثل، سواء للقارئ والقارئة، أو لربِّ الأُسرة وإمام المسجد، أو للمجاميع العِلميَّة والتربويَّة، وهي:

١) **قراءة الوِرد القرآنيِّ المحدَّد**، ثم النظر في الهدايات المكتوبة في هامشه، والعيش معها في ظِلال كلِّ آية؛ لتكونَ منطلَقًا للعمل والتطبيق.

٢) **تخصيص وِرد محدَّد وقراءته على جماعة المسجد في أدبار بعض الصلوات**، يتولَّاه إمام المسجد.

٣) **تخصيص وِرد محدَّد في حلَقات ومدارس ودُور تحفيظ القرآن الكريم**، لقراءته على الطلبة والطالبات، يتولَّاه مُعلِّمو القرآن الكريم ومُعلِّماته.

٤) **المُدارَسة العِلميَّة والعَمليَّة**، ويمكن أن تكون وَفق طريقتين:





■ **الطريقة الأولى:**

تقوم جماعةٌ من الطلاب بتدارس وِرد مُحدَّد من هذا الكتاب بما فيه من هدايات، مع بيان إجماليٍّ لمعنى الآيات؛ لتكون مُنطلَقًا للخروج بهدايات أخرى جديدة.

■ **الطريقة الثانية:**

تقوم جماعةٌ من الطلاب بقراءة هدايات الكتاب قراءةً متأنِّية، بقصد تكوين ملَكة التدبُّر، وذلك بالنظر في الهِداية وموضعها في الآية، ودلالة الآية عليها، واستنباط كيفيَّة التدبُّر وطريقته.

وقد كان هذا المشروع برعاية مباركة من مؤسَّسة محمَّد وعبد الله إبراهيم السُّبَيعيّ الخيرية؛ فجزاهم الله خيرَ الجزاء على دعمهم ورعايتهم هذا المشروع، وكلَّ من أسهمَ في خدْمتِه، ونشْرِه وتطبيقِه.

والحمد لله أولًا وآخرًا.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وآله وصحبه أجمعين.

❋ ❋ ❋



ثالثًا: تقارير المؤتمرات العلمية



وذلك برعاية معالي وزير الشؤون الدينيَّة والأوقاف

والسيد والي ولاية قسنطينة بالجزائر.

والذي أقيم خلال الفترة من ٤-٦ ربيع الأول ١٤٣٨ هـ

الموافق ٣-٥ ديسمبر ٢٠١٦ م



تقرير عن الملتقى الدولي السادس للقرآن الكريم بعنوان

﴿ تدبُّر القرآن الكريم: حقيقته، قواعده، مفاتيحه، عقباته ﴾

تشهد الساحة العِلميَّة والدَّعَويَّة في مختلف الأقطار الإسلامية والعربية وغيرها نهضة مباركة حول تدبُّر القرآن الكريم، سواء من الناحية المفهوميَّة التأصيليَّة أو التطبيقيَّة، وفي هذا الإطار نظَّمت اللجنة الدينيَّة لجامع الأمير عبد القادر (مدرسة عبد الحميد بن باديس للقراءات) بالجمهورية الجزائرية - الملتقى الدولي السادس للقرآن الكريم بعنوان:

«تدبُّر القرآن الكريم: حقيقته، قواعده، مفاتيحه، عقباته»

وذلك برعاية معالي وزير الشؤون الدينيَّة والأوقاف

والسيد والي ولاية قسنطينة بالجزائر.

والذي أقيم خلال الفترة من ٤-٦ ربيع الأول ١٤٣٨ هـ
الموافق ٣-٥ ديسمبر ٢٠١٦ م

وقد دعت الحاجة إلى هذا الملتقى لمعالجة ظاهرة قِلَّة الاهتمام بتدبُّر القرآن الكريم في مقابل العناية بحِفْظه وإقرائه؛ ممَّا نتج عن ذلك قِلَّة من يتدبَّر آياته ويقف عند حدوده ويتخلَّق بأخلاقه.

فكان هذا الملتقى لأجل الوقوف على مَكْمن الخلل وموضع الداء، ومعرفة أسباب ذلك لمعالجتها.

وقد انطلق الملتقى من أهداف رأى أنها تعالج هذه الظاهرة -بإذن الله-، وهي:

١) الرجوع بالأُمَّة إلى حُسْن التعامل مع القرآن الكريم.

٢) تيسير قواعد التدبُّر لعامَّة المسلمين.

٣) العمل بالقرآن الكريم والتخلُّق بأخلاقه.

٤) جَمْع كلمة المسلمين.

٥) دَرْء الفتن والمصائب عن المسلمين.

كما انتظم الملتقى أربعة محاور أساسيَّة، كل محور منها تندرج تحته محاور فرعيَّة:

- **وجاء المحور الأول حول حقيقة التدبُّر وأحكامه:**

ويندرج تحته الحديث عن مقاصد إنزال القرآن الكريم، وبيان حقيقة التدبُّر في الكتاب والسُّنَّة، ومفهومه عند السلف، كما يتطرق هذا المحور للحديث عن أهمية التدبُّر، وحُكْمه وأثره في صِحَّة العبادة وقبولها، وتحرير المصطلحات القريبة من التدبُّر والمتعلِّقة به.

- **أما المحور الثاني فهو: قواعد التدبُّر:**

ويندرج تحته قواعد التدبُّر في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، والحديث عن قواعد التدبُّر عند علماء السلف من المتقدِّمين، وقواعده لدى المتأخِّرين من أهل العِلْم.

- **وجاء الحديث في المحور الثالث عن مفاتيح التدبُّر:**

واندرج تحته جملة من المفاتيح: كعبادة التفكُّر والتأمُّل، وأثرها في التدبُّر، وتصفية القلب من الأمراض الباطنة، والتزام قواعد التدبُّر، والصيام والقيام وأثرهما في التدبُّر، والاستعداد لتلقِّي القرآن.

▪ **وتطرَّق المحور الرابع إلى الحديث عن عقبات التدبُّر العِلميَّة والسُّلوكيَّة، وسُبُل تذليلها:**

ومما يندرج تحت هذا المحور: الإسراف في المعاصي وسُبُل التخلص منها، والعُجْمة وضَعْف اللسان العربيّ وسُبُل التخلُّص منها، الاستعجال في تلقِّي القرآن وقراءته وإقرائه، والمبالغة في إقامة حروفه على حساب حدوده ومعانيه.

واختتم الملتقى بالحديث عن **مناهج التعليم القرآني، ومدى إسهامها في خدمة مشروع التدبُّر.**

وقد استكتب في هذا الملتقى عددٌ من الباحِثين والعلماءِ والمتخصِّصِين في الدراسات القرآنية والإسلامية، وِفْق منهجيَّة عِلْميَّة محدَّدة من اللجنة المُنظِّمة، وخلُص الفريق إلى إجازة الأوراق العِلميَّة المُطبِّقة للشروط، وتمَّ طرحُها والنقاش حولها خلال ثلاثة أيام، خلُص فيها المشاركون إلى جُملة من التوصيات التي يُوصون بتفعيلها والاهتمام بها، وهي:

* **إقامة دورات تدريبيَّة وندوات شهريَّة في وسائل مُدارَسة القرآن الكريم قصدَ تدبُّره.**
* **إنشاء ورشات علميَّة وتربويَّة للطلبة على هامش الملتقى.**
* **التنسيق مع وسائل الإعلام السمعيَّة والبصريَّة لإنشاء كُرسيِّ مُدارَسة القرآن.**
* **دعوة الأساتذة والباحثين إلى العناية بجمع قواعد التدبُّر عند المُفسِّرين.**
* **طباعة مُداخَلات الملتقى وتسجيلها ونسخها في أقراص، ونشرها في الشبكة العنكبوتية لتعُمَّ الفائدة.**
* **التواصل مع الجهات العِلميَّة القرآنيَّة للإفادة والاستفادة.**
* **اقتراح عنوان للملتقى القادم بعنوان «الإصلاح الاجتماعي في ضوء القرآن الكريم».**



وقد لاقى الملتقى صدًى طيِّبًا في الأوساط العِلميَّة والقرآنيَّة، بفضل من الله تعالى، ثم بجهود المُنظِّمين والرُّعاة لهذا الملتقى، فالحمد لله أولًا وآخرًا.

* * *

Tadabbor Magazine

The Second Edition, First Year, Ragab 1438 AH, April 2017 AD





Tadabbor Magazine

It’s a periodical scientific precise magazine. It is concerned with refereeing and publishing research and scientific studies which are related to fields of interpretation of the Holy Qur’an. This magazine is being issued twice a year.

Vision:-

This magazine should be researchers’ first choice to publish their researches which are related to interpretation the holy Qur’an.

Mission:

This magazine should be precise scientific pot for researchers to publish their scientific works which related to interpretation the holy Qur`an according to international professional criteria for publication.

Target:-

- Encouraging scientific research which is related to interpretation of the holy Qur`an.
- Publishing scientific research and studies which are related to interpretation on the holy Qur`an.
- Applying a scientific communication between those concerned with Qur`anic studies through the exchange of experiences.



- Opening new horizons for a scientific research which is specialized in the fields of interpretation the holy Qur`an.

Publishing fields in the magazine:-

First: Research and studies in the fields of interpretation the holy Qur`an:

- Scientific Rooting in Interpretation of the Holy Qur`an.
- Qur`anic Topics.
- Qur`anic Purposes.
- The Inimitability of the Holy Qur`an.
- Qur`anic Rhetoric.
- Teaching Interpretation of the Holy Qur`an.
- Deduce from the holy Qur`an.

Second: Forums and conferences reports which are related to the interpretation of the holy Qur`an.

Third: Abstracts of the outstanding scientific researches in the fields which are related to the interpretation on the holy Qur`an.

Fourth: The issues raised by the Editorial Board for which asks the specialists in the fields related to the interpretation of the holy Qur`an.







Terms and Conditions of Publishing

First: The nature of the published materials:

The magazine aims to provide an opportunity for researchers in all countries around the world to publish their scientific production in the field of the interpretation of the holy Qur`an. This field is authentic and serious, and has the ethics of scientific research and scientific methodology.

The magazine publishes materials which were never previously published in the Arabic language and accepts the materials in any of the following categories:

- The Old research.
- Scientific reviews.
- Abstracts of outstanding scientific thesis.
- Reports of forums and scientific conferences.

Second: Guidelines for researchers to submit their researches:

1. Research's pages number must not exceed (50) pages, size (17*24), including Arabic and English summaries and references and not less than 25 pages.
2. Page margins should be 2 cm from the (top, bottom, right, and left) a single line spacing.



3. (Lotus Linotype) is the font to be used for Arabic with size (16), size (12) for footnote and abstract and size (11) for tables and shapes.

4. (Roman New Times) is the font to be used for English with size (12) and size (10) for footnote, abstract, tables and shapes.

5. Qur`anic verses should be written in (Lotus Linotype) with size (16), plain-colored.

6. Footnotes on each page should be put in the bottom separately. Footnotes' numbering of each page is independent and footnotes are adjusted automatically not manually.

7. Research data is written in Arabic and English, and should include (research title, researcher's name, title and his/her contact information, and titles of his/her previous scientific thesis).

8. The abstract's number of words must not exceed (250) words. It must include the following elements: (subject of research, its objectives, its methodology, the most important results and the most important recommendations) and taking care of editing accurately.

9. Each abstract (Arabic/English) is followed by function words (key words). These words should indicate the subject of research and main issues included accurately, so that its number not exceeding (6) words.



10. The research should be free of any linguistic and/or grammatical mistakes.

❊❊❊

Research Elements

The researcher regulates his research in accordance of (scientific research methodology) as follows:

1. Writing an Introduction contains: (subject of research, its borders, its objectives, its methods, its procedures, and research plan).
2. Indicating the previous studies - if available - and his scientific addition on.
3. Dividing research into sections (subjects) according to (the research plan), so that they are related to each other.
4. Displaying a specific idea in each section (subject) to be a part of the central idea.
5. The research is written in an accurate scientific formulate. This formulate is free from linguistic and/or grammatical mistakes with the accuracy of the documentation.
6. Writing a conclusion with summary for the research which includes (results) and (recommendations).
7. Writing the underlying footnote by mentioning (the book's title, author's name, and part / page) by the applicable scientific approach in documenting the Islamic studies and the Arabic language. Example: Tongue of Arabs by Ibn Manzor (233\2). Qur`anic verse: it is referred to only in the text with the name of the chapter, followed by a colon: then the verse number (Al-Nisaa`:55).



Researcher should be documenting the references at the end of the research according to the following order:

1. If the reference is a book: (<< the title of the book>> Author’s last name (nickname) then the first name and other names, the name of examiner - if available - , then edition statement, the city of publishing, publisher’s name then the year of publication. Ex: <<Al-Game`Al-Sahih>> .Al- Tirmidhi, Abu Issa Mohamed Ibn Issa. Examining by: Ahmad Muhammad Shakir and others. 2nd Edition, Bairut: Dar Ehyaa` Al-turath Al-Arabi, 2004 AC.

2. If the reference (a scientific thesis not printed): (<< the title of the thesis>>. then Researcher's last name (the family name), then the first name and other names. Then, the type of thesis (Master | Ph. D.). The place: the name of the college, the name of the university, and then year). Example: << Jacob bin Shaybah Alsodosi: his implications and approach in the wound and the amendment(Aatharih wa manhagih fi Al-Garh wa Altadeel >>. Al-Mutairi, Ali bin Abdullah. Master Thesis, Saudi Arabia: College of Education, King Saud University, 1418 AH.

3. If the reference (an article of the magazine): (<< the title of the article >>, Author's last name (family name), then the first name and other names, then the magazine or Journal name, the place , hardcover number (editions number), the year of publication, the page from .. to ..). Example: << Imam Affan bin Muslim Al-SSaffar and

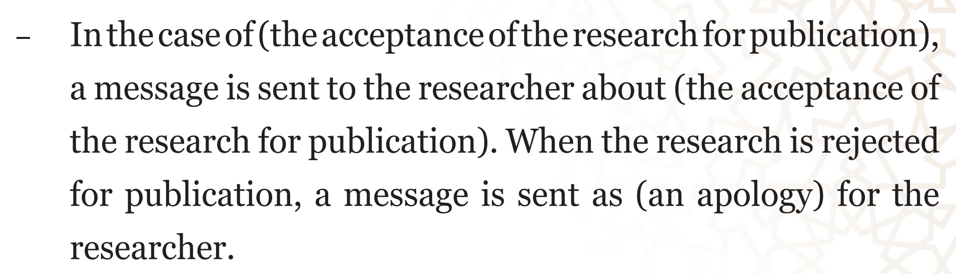


his method of receiving, performance and criticism>>. Al-Mutairi, Ali bin Abdullah. Qassim University Magazine: Islamic science, Qassim. (3), (1), 1431 AH, 35-85.

4. In addition to the mentioning of some abbreviations that have not such a statement in the reference data, which are as follows:
   - Without the name of publisher: (W. P).
   - Without the edition number: (W. P).
   - Without the date of publication: (W. D).

- Reasearcher should mention resources at the end of research according to the following:
- Sending a research site to the magazine is considered to be an undertaking by the researcher that the research has not been published before, neither it was submitted for publication, and will not be submitted for publication as well, until the end of arbitration proceedings in the magazine.
- The editorial board of the magazine has the right of the initial examination of the research, and reports his eligibility for arbitration, or rejects it.
- The researcher acquainted with the summary of arbitrators' reports for consideration and adjusts accordingly. He explains his opinion whereas it is not objected with their words and the body settled the dispute between them.





- In the case of (the acceptance of the research for publication), a message is sent to the researcher about (the acceptance of the research for publication). When the research is rejected for publication, a message is sent as (an apology) for the researcher.
- The researcher, after the publication of his works in the magazine hass the right to publish it again after six months of its issuance, but He must refer to the publication of his work in the magazine.
- Sending a research via magazine's website is considered as an acceptance from the researcher of the terms of publishing in the magazine, and the Editorial Board has the right to determine the priorities of research publishing.
- The opinions which are expressed in the published researches reflect the views of the researchers only, and not necessarily the opinion of the magazine.
- The Certified authentication system for foreign references in the magazine is the system of (Chicago University).
- In case of publishing the research, the researcher is given two copies of the magazine and also ten copies of the edition, which his research was published in.
- Published scientific articles in the magazine reflect the views of its owner.





TADABBOR MAGAZINE

Index

1) Researches:

2) The Abstracts of Scientific Thesis and Projects:

3) Reports of Scientific Conferences

- Report of The Sixth International Assembly for Contemplation of The Holy Qur’an.

4) Summaries in English Language:

❊❊❊



The Rhetoric of The Qur'an At the end of the verses A Rooting study

by

Prof. Dr Ahmad bin Muhammad Al-Sharqawi

Professor of Qur'an Sciences at Al-Azhar University

Arab Republic of Egypt

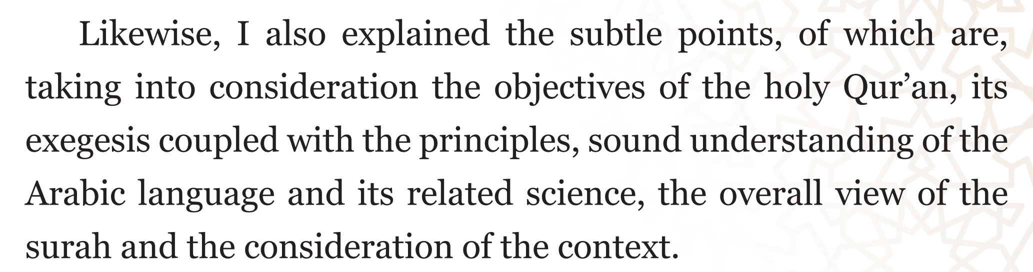
Research summary

This study illustrates the meaning of appendix in Qur'an, the importance of its study, and the difference between appendix and a comma.

Reviewing the appendix in the Qur'an is important on many levels. For instance, utilizing this science in order to reach more understanding of the book of Allah (The Holy Qur'an), emphasizing the important aspects of the Qur'anic inimitability, making apparent the complications of the appendix and the refutation of the orientalists and their ideologies and those who oppose the understanding of the religion regarding the unity and the structures of the Qur›an, whilst also providing benefits from this science in order to establish the preservation of the Qur'an.

The research also examines the subtle points along with the benefits of the appendix. These benefits include; clarification, sound understanding, beauty of expression, richness of meaning, worthy explanation, good conclusion and caution.





Likewise, I also explained the subtle points, of which are, taking into consideration the objectives of the holy Qur'an, its exegesis coupled with the principles, sound understanding of the Arabic language and its related science, the overall view of the surah and the consideration of the context.

I then explained the disciplines related to appendixes, which are as follows; conclusion, commentaries, chapters and their relationships, generalization and clarification.

Finally within the conclusion, I included a conclusion, the important recommendations, research references and an index.

Keywords: rhetoric, appending, verses, The Holy Qur'an.





The Qur’anic Methodology: Its Foundations and Principles in Interaction

A Reflective and Contemplative Study on Sūrat al-Hujurāt

Dr. Said Bin Rahsid Al Sawafi

Assistant Professor – Islamic Science Department

College of Education- Sultan Qaboos University

Abstract

This research is about an important aspect of human life; it illustrates the Qur’anic Methodology, its foundations and principles in interaction, through a reflective and contemplative study of Sūrat al-Hujurāt.

The study is divided into an introduction, an opening and two chapters. The introduction gives an idea about the topic and its importance, the aim of the study, the methodology, the research questions, the literature review, and the research plan. The opening chapter is about Sūrat al-Hujurāt, the text of the revelation and the requirements of the content.

The first chapter comprises the method of interaction with Allah and His Messenger, and includes two subtitles. The first one discusses the method of interaction with Allah, may He be exalted, in Belief (‘Aqīdah) and Legal system (Sharī’ah).

The second subtitle is about the interaction with the Prophetic



context. The second chapter is about the method of human interaction.

This title includes two subtitles: While the first one is about interaction in the shadow of the unity of mankind, the second one deals with the method of interaction in terms of human societies. Finally, the conclusion includes the most important results and recommendations.

The aim of this research is to present the methodology of the Holy Qur’an for the interaction of the Muslim with Allah and His Messenger, Peace be Upon Him.

It also highlights the interaction between the Muslim and other non-Muslim human beings as mentioned in Sūrat al-Hujurāt.

It finally extracts the importance of this Qur’anic method and explains its role in organizing Muslim life.





Tolerance in The Holy Qur'an and Its Reflection in Establishing The Social Security

Wafaa Bint Saleh Al-Fayez

Professor Assistant of Akida and Islamic Culture

Department of Islamic Studies Faculty of Arts

The King Faisal University

Summary

Tolerance is a divine enactment The Holy Qur'an has established its ties to settle the entire nation, especially due to the hatred of the hateful ones, so Islam addressed the whole existence and demanded to establish tolerance in order to harmonize with the nature of life in it.

The Holy Qur'an, by enshrining tolerance in societies, exempts mankind from assuming the status of intellectual systems for planning the life of a decent human being. As the system of Islam is the only valid system for the survival of a safe life.

The Islam way, until the Day of Resurrection, is based on the principle of the revival of tolerance among people, giving the strong relation between tolerance and security. A reader of Allah's words in the verses of The Holy Qur'an would find what they hope for in a life curriculum that is drawn based on the principle of tolerance in one state.



When Qur'an addressed the human beings regarding this aspect, it addressed them according to their human nature, reminding them with their origin.

The Qur'an is full of tolerant constitutions, and its merciful message is a comprehensive one which is addressed to all people, with the imperative of maintaining the security of humanity on the principle of tolerance. An attentive person in divine guidance in the Holy Qur›an finds what they seek to prove the authenticity of tolerance in establishing social security.



Fundamentals of Interpretation of Qur’an By Qur’an

Prof. Dr. Abdul Fattah Muhammad Ahmad Khedr

Professor and Head of Department

of Qur’an Inerpretation - Azhar University

Praise to Allah, The Lord of all lords. And peace and blessings to be upon the most honorable messenger; our master Muhammad, and on his family and his companions.

This research of mine titled as “Fundamentals of Interpretation of Qur’an By Qur’an” is concerned with the rooting aspect of the best method for interpreting Qur’an; that is interpreting Qur’an by Qur’an. The importance of scientific rooting process of sciences lies in bringing them back to certain criteria which we seek their guidance when necessary.

Interpretation of Qur’an By Qur’an has its established fundamentals that we can refer to through The Holy Qur’an Itself and through our genuine interpretation masters’ work.

And for honesty, I must say that not having the scientific assets that are related to interpretation of Qur’an by Qur’an rooted till this moment has caused an abnormality in understanding the book of Allah (The Holy Qur’an) and rejected artificial understanding the words of the Holy Qur’an and its texts. It has also allowed every loud-mouthed to endure the interpreters way, which encouraged ignorant ones to dare the words of Allah (The Holy Qur’an).





The aim of this thesis: to awaken the intention of specialized scientific interpreters - during such era of mixed concepts- to do their best towards their heritage of interpretation, and to disproof any distortion, plagiarism, or misleading interpretation that might have occurred. That could be reachable through honest scientific efforts that are dedicated to set indicators (measurements) to abstract the fundamentals of interpretation of Qur'an by Qur'an; so it becomes an established criterion science for illustrating the Holy Qur'an; a science that starts with the right understanding and ends with the most accurate conclusion.

This aim represented in two aspects:

1. The theoretical one which is concerned with presenting the rooting science standards which are responsible for adapting the criteria of accepting or rejecting interpretation of Qur'an by Qur'an.
2. The applicable one which is concerned with applicable samples of interpreting Qur'an by Qur'an.

Methodology:

In this research of mine, I've followed the practical inductive methodology; starting by reviewing standards of fundamentals of Interpreting Qur'an by Qur'an and when it should be accepted, which were already approved and established by scientists, I then followed them in accordance with a practical applicable aspect.



The research and researcher request that not everyone to endure interpretation of Qur'an except those who acquired all terms of an interpreter and owned all the scientific tools required, an interpreter must stick to the standards to avoid any mistake the might mislead him and his followers.

It is also recommended to teach the standards and fundamentals of interpretation as a major subject for our specialized students, and also to keep them updated with all updates in such field, and so this research is considered as a seed for this recommendation.



- Report of “Illustrative Tadbbor” Compilation
- Thesis Report (Contemplation of The Holy Qur’an According to Sheikh Ibn Taymema – May Allah have mercy upon him)
- Report of The Sixth International Assembly for Contemplation of The Holy Qur’an



TADABBOR MAGAZINE

Periodical, Scientitic and Arbitral Magazine specializes in arbitration and dissemination studies and searches related to Holy Quran, biannual issued

The Second Edition, First Year Ragab 1438 A.H. April 2017 A.D

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

﴿ص﴾ ٢٩

TADABBOR MAGAZINE Index:





مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد الثالث السنة الثانية محرم ١٤٣٩هـ الموافق أكتوبر ٢٠١٧

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]







مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد الثالث السنة الثانية محرم ١٤٣٩هـ الموافق أكتوبر ٢٠١٧



مجلة تدبر

٤٥٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع: ٥٨٨٣/ ١٤٣٨

بتاريخ ٢٤/ ٦/ ١٤٣٨

ردمد: ٧٦٤٢ - ١٦٥٨



سعر المجلة (٢٥) ريالاً سعودياً أو ما يعادلها

المجلة مصرحة من وزارة الثقافة والإعلام
بالمملكة العربية السعودية بالرياض برقم ٣٧٠٨ وتاريخ ٤/ ٣/ ١٤٣٧هـ

للمراسلات والاشتراكات

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم:

رئيس التحرير

tjs@tadabbor.com

+966 503072333

tjstadabbor

tjs.tadabbor.com

المواد العلمية المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها

صف وإخراج الخطيب







مجلة تدبر

دورية علمية محكَّمة، تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات العلمية المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة.

- **المرجعية:** مصرحة من وزارة الثقافة والإعلام بالمملكة العربية السعودية.

الرسالة:

أن تكون المجلة خيار الباحثين الأول لنشر بحوثهم في تدبر القرآن الكريم.

الرؤية:

أن تكون وعاءً علميًّا محكَّمًا للباحثين لنشر أعمالهم العلمية في تدبر القرآن الكريم وما اتصل به وفق معايير مهنية عالمية للنشر.

الأهداف:

- **تشجيع** البحث العلمي المتصل بتدبر القرآن الكريم.
- **نشر** البحوث العلمية والدراسات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.
- **تحقيق التواصل العلمي** بين المعنيين بالدراسات القرآنية من خلال تبادل الخبرات.
- **فتح آفاق جديدة** للبحث العلمي المتخصص في مجالات تدبر القرآن.



مجالات النشر في المجلة

أولًا: البحوث والدراسات في مجالات تدبر القرآن الكريم:

١. التأصيل العلمي في تدبر القرآن الكريم.

٢. تعليم تدبر القرآن الكريم.

٣. الاستنباط من القرآن الكريم.

٤. المقاصد القرآنية.

٥. الإعجاز القرآني.

٦. البلاغة القرآنية.

٧. الموضوعات القرآنية.

ثانيًا: تقارير الملتقيات والمؤتمرات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

ثالثًا: ملخصات المشاريع والرسائل العلمية المتميزة في المجالات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

رابعًا: ما تطرحه هيئة التحرير من قضايا تستكتب فيها المتخصصين في المجالات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.




مجلة تدبر



قواعد وشروط النشر

أولًا: طبيعة المواد المنشورة:

تهدف المجلة إلى إتاحة الفرصة للباحثين في جميع بلدان العالم لنشر إنتاجهم العلمي في مجال تدبر القرآن الكريم، الذي تتوافر فيه الأصالة والجدة، وأخلاقيات البحث العلمي، والمنهجية العلمية.

وتقوم المجلة بنشر المواد التي لم يسبق نشرها باللغة العربية، وتقبل المواد في أي الفئات التالية:

- البحوث الأصيلة.
- المراجعات العلمية.
- مستخلصات المشاريع والرسائل العلمية المتميزة.
- تقارير الملتقيات والمؤتمرات العلمية.

ثانيًا: إرشادات للباحثين لتقديم بحوثهم:

١. لا يتجاوز عدد صفحات البحث (٥٠) صفحة مقاس (١٧×٢٤) متضمنة الملخصين العربي والإنجليزي، والمراجع، ولا يقل عن (٢٥) صفحة.

٢. هوامش الصفحة تكون (٢ سم) من: أعلى، وأسفل، ويمين، ويسار، ويكون تباعد الأسطر مفردًا.

٣. يستخدم خط (Linotype Lotus) للغة العربية بحجم (١٦)، وبحجم (١٢) للحاشية والمستخلص، وبحجم (١١) للجداول والأشكال.



٤. يستخدم خط (Roman New Times) للغة الإنجليزية بحجم (١٢)، وبحجم (١٠) للحاشية والمستخلص والجداول والأشكال.

٥. تكتب الآيات القرآنية وفق المصحف الإلكتروني لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بحجم (١٦) بلون عادي (غير مسوَّد).

٦. توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة، ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلًا، وتضبط الحواشي آليًّا لا يدويًّا.

٧. تكتب بيانات البحث باللغتين العربية والإنجليزية، وتحتوي على: (عنوان البحث، اسم الباحث والتعريف به، بيانات التواصل معه، عناوين رسائله العلمية).

٨. لا يتجاوز عدد كلمات المستخلص (٢٥٠) كلمة، ويتضمن العناصر التالية: (موضوع البحث، وأهدافه، ومنهجه، وأهم النتائج، وأهم التوصيات) مع العناية بتحريرها بشكل دقيق.

٩. يُتبع كل مستخلص (عربي/ إنجليزي) بالكلمات الدالة (المفتاحية) المعبرة بدقة عن موضوع البحث، والقضايا الرئيسة التي تناولها، بحيث لا يتجاوز عددها (٦) كلمات.

١٠. سلامة البحث من الأخطاء اللغوية والنحوية.



عناصر البحث:

يَنظِمُ الباحِثُ بَحْثَه وَفْقَ مُقْتَضَيَاتِ (مَنْهَجِ البَحْثِ العِلْمِيّ) كَالتَّالي:

١- كتابة مقدمة تحتوي على: (موضوع البحث، وحدوده، وأهدافه، ومنهجه، وإجراءاته، وخطة البحث).

٢- تبيين الدراسات السابقة - إن وجدت - وإضافته العلمية عليها.

٣- تقسيم البحث إلى أقسام (مباحث) وفق (خطة البحث)، بحيث تكون مترابطة.

٤- عرض فكرة محددة في كل قسم (مبحث) تكون جزءًا من الفكرة المركزية للبحث.

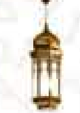
٥- يكتب البحث بصياغة علمية متقنة، خالية من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع الدقة في التوثيق.

٦- كتابة خاتمة بخلاصة شاملة للبحث تتضمن أهم (النتائج) و(التوصيات).

٧- كتابة الحاشية السفلية يكون بذكر (عنوان الكتاب، واسم المؤلف، والجزء/ الصفحة) حسب المنهج العلمي المعمول به في توثيق الدراسات الشرعية واللغة العربية.

مثال: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٢٣٣).

أما الآية القرآنية: فيشار إليها في المتن فقط باسم السورة يتبعه نقطتان: ثم رقم الآية [النساء: ٥٥].



۞ يُوَثِّقُ البَاحِثُ المَرَاجِعَ فِي نِهَايَةِ البَحْثِ حَسَبَ النِّظَامِ التَّالِي:

١ - إذا كان المرجع (كتابًا): («عنوان الكتاب». فالاسم الأخير للمؤلف (اسم الشهرة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى، فاسم المحقق - إن وجد-، فبيان الطبعة، فمدينة النشر، فاسم الناشر، فسنة النشر).

مثال: «الجامع الصحيح». الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخرين. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٤م.

٢- إذا كان المرجع (رسالة علمية لم تطبع): («عنوان الرسالة». فالاسم الأخير للباحث (اسم العائلة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى. فنوع الرسالة (ماجستير/ دكتوراه)، فالمكان: فاسم الكلية، فاسم الجامعة، فالسنة).

مثال: «يعقوب بن شيبة السدوسي: آثاره ومنهجه في الجرح والتعديل». المطيري، علي بن عبد الله. رسالة ماجستير، السعودية: كلية التربية، جامعة الملك سعود، ١٤١٨هـ.

٣- إذا كان المرجع (مقالًا من دورية): («عنوان المقال»، فالاسم الأخير للمؤلف (اسم العائلة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى، فاسم الدورية، فالمكان، فرقم المجلد (رقم العدد)، فسنة النشر، فالصفحة من ص... - إلى ص...).

مثال: «الإمام عفان بن مسلم الصفار ومنهجه في التلقي والأداء والنقد». المطيري، علي بن عبد الله. مجلة جامعة القصيم: العلوم الشرعية، القصيم. م(٣)، (١)، ١٤٣١هـ، ٣٥ - ٨٥.





٤- **هذا بالإضافة إلى ذكر بعض الاختصارات** إن لم يوجد لها أي بيان في بيانات المرجع، وهي كالتالي:

بدون اسم الناشر: (د. ن).

بدون رقم الطبعة: (د. ط).

بدون تاريخ النشر: (د. ت).

۞ **إرسال البحث لموقع أو بريد المجلة** يُعد تعهدًا من الباحث بأن البحث لم يسبق نشره، وأنه غير مقدم للنشر، ولن يقدم للنشر في جهة أخرى حتى تنتهي إجراءات تحكيمه في المجلة.

۞ **لهيئة تحرير المجلة** حق الفحص الأولي للبحث، وتقرير أهليته للتحكيم، أو رفضه.

۞ **يطلع الباحث على خلاصة تقارير المُحكّمين** ليعدل بحثه وفقها، ويبين رأيه فيما لا يؤخذ به من أقوالهم، وتحسم الهيئة الخلاف بينهما.

۞ **في حال (قبول البحث للنشر)** يتم إرسال رسالة للباحث بـ(قبول البحث للنشر)، وعند رفض البحث للنشر يتم إرسال رسالة (اعتذار) للباحث.

۞ **للباحث بعد نشر عمله في المجلة** أن ينشره مرة أخرى بعد مضي ستة أشهر من صدورها، على أن يشير إلى نشره في المجلة.

۞ **إرسال البحث عبر الموقع أو البريد الإلكتروني للمجلة** يُعد قبولًا من الباحث بـ(شروط النشر في المجلة)، ولهيئة التحرير الحق في تحديد أولويات نشر البحوث.



۞ **الآراء الواردة في البحوث المنشورة** تعبر عن وجهة نظر الباحثين فقط، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

۞ **نظام التوثيق المعتمد في المجلة** بالنسبة للمراجع الأجنبية هو نظام (جامعة شيكاغو).

۞ **في حال (نشر البحث)** يمنح الباحث خمس نسخ من عدد المجلة التي تم نشر بحثه فيها.

المواد العلمية المنشورة في المجلة تُعبّر عن آراء أصحابها



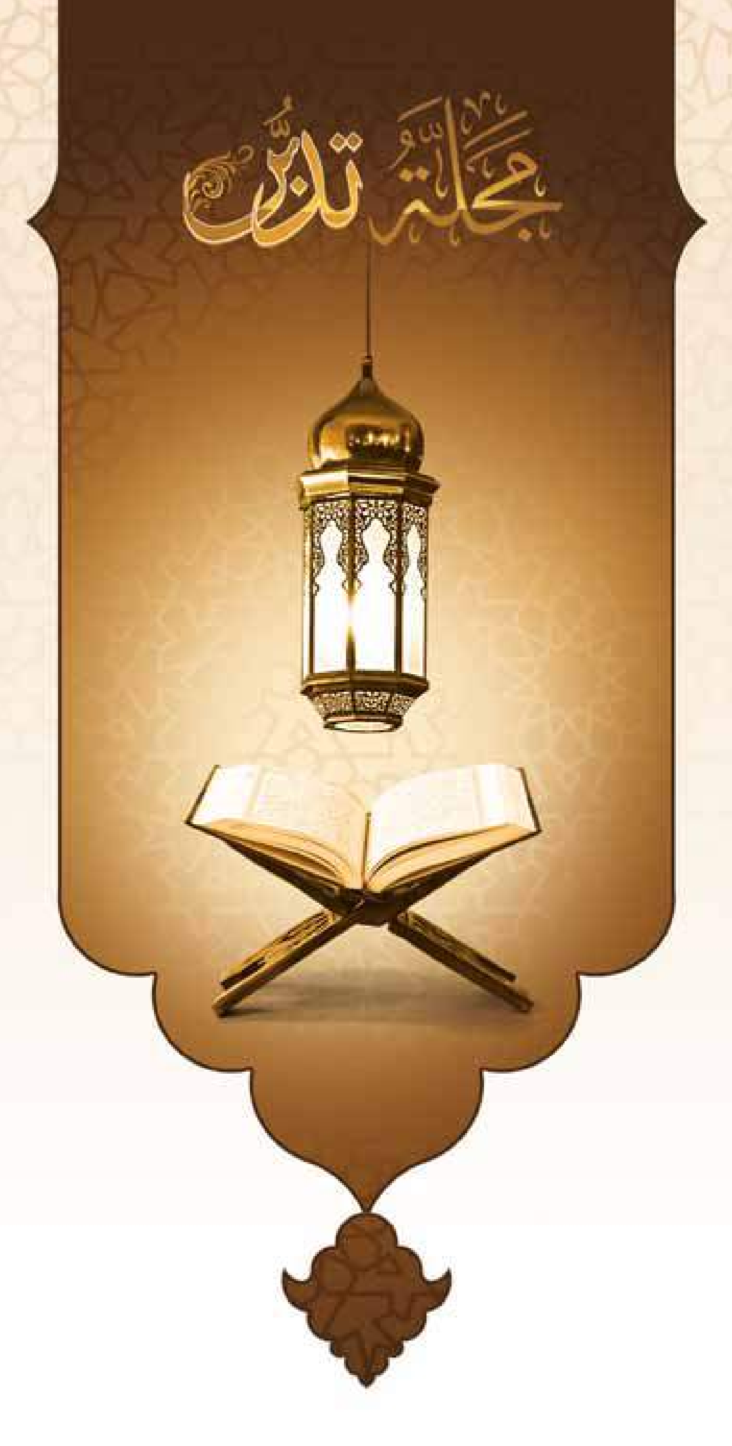




المحتويات







افتتاحية العدد


مجلة تدبر



كلمة رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن أجل ما صرفت فيه الأعمار، وقضيت فيه الأيام، الاشتغال بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا قراءة وتعلماً وتعليماً وتدبراً وتفسيراً، فهو الحجة البالغة والصراط المستقيم، ولذلك توافرت همم علماء الأمة، على تدبر القرآن الكريم وبيان معانيه، وتوضيح دلالاته، وإيضاح مقاصده، وبسط علومه، وكان لهم في ذلك مؤلفات وبحوثٌ جليلة، وبرامج مسطورة، أودعوا فيها علمهم، وأبانوا فيها جهدهم، وأبرزوا خبرتهم، فكانت الحاجة ماسّةً لتحكيمها وطباعتها ونشرها، في مجلةٍ علميةٍ دوريةٍ؛ لتبقى للأمة مرجعاً، وللباحثين مصدراً، تحفظ فيها أقوال العلماء و فهومهم في تدبر الكتاب المبين بشتى مجالاتها، لئلا تزيغ بالناس الأهواء، وتضطرب بهم الأفكار، وتُزِلَّهم الفتن، وتُضِلَّهم الاختلافات.

وقد خطت مجلة تدبر-بحمد الله تعالى- في عامها الأول خطواتها الموفقة بموضوعاتها المتنوعة في مجال تدبر القرآن الكريم، والعناية بذلك.



ولقيت المجلة الترحيب والاعتراف في عددٍ من الجامعات والمعاهد والمراكز، والأساتذة الفضلاء، وعامة المهتمين بالدراسات القرآنية.

واليوم نضع بين يدي القارئ الكريم العدد الثالث من مجلة تدبر، بموضوعات متنوعةٍ، وباحثين من مختلف بلدان العالم، مع تقارير للرسائل العلمية، والبرامج العملية المطروحة في الساحة، والمؤتمرات المختصة بتدبر القرآن ومجالاته.

والمجلة تطمح وتطمع في تقديم موضوعات حيّة وجادة، ومتميزة في موضوع تدبر القرآن ومجالاته، والعلوم الخادمة له؛ إحياءً للعمل به ورغبةً في التأثر بصبغته في الحياة والعلوم.

ولن يتحقق ذلك بشكل أفضل إلاَّ بتضافر الجهود بين الباحثين والمهتمين، وتفاعلهم مع الفاحصين الفضلاء، وأعضاء هيئة التحرير في اختيار الموضوعات وتقويمها للأفضل بإذن الله.

فإنّ المجلة ترتقي بكم، وتستمر بعطائكم، ويتحقق لها التميز بإسهامكم.

فإنَّ إثراء المجلة بالجديد، والبحث في مسائل التدبر وقضاياه لاتزال بحاجة للمزيد من التحليل والدراسة والاطلاع على الممارسات الناجحة والتطبيق العملي؛ ليتميز علم تدبر القرآن ويحقق الغاية المنشودة منه بالعمل بالقرآن، وتعود حضارة أهله قائمة على سوقها، منافسةً حضارات الأمم الماديّة.

من هنا فإنّ المجلة ترتقي بكم، فهي منكم ولكم، وبتوفيق الله ثم بتعاونكم وجهودكم بجودة ماتقدمون يستمر العطاء ويتحقق التميز والارتقاء.



وأدعو الله لهيئة تحرير المجلة بالتوفيق والسداد، وأن يكونوا عند حسن الظنِّ بهم؛ لما يبذلونه من جهودٍ حثيثةٍ للارتقاء بالمجلة وأبحاثها.

والحمد لله، والشكر له سبحانه، ابتداءً وانتهاءً على التوفيق والسداد.

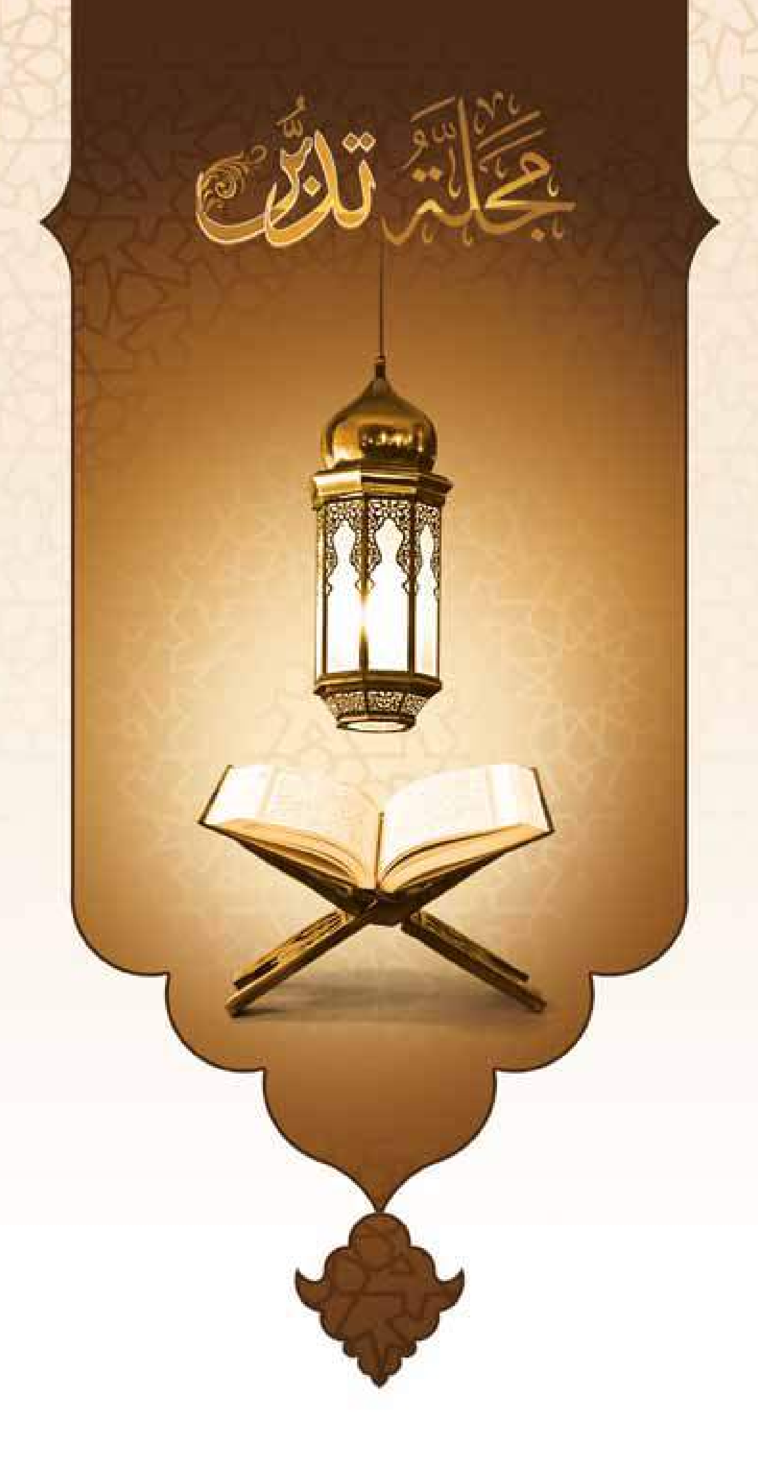
ثم الشكر لكل من ساهم ودعم بفكره أو ماله أو جهده، والله لا يضيع أجر المحسنين.

رئيس هيئة التحرير

أ.د. مُحَمَّد بن عَبْدِ اللهِ الْعَزِيز الْعَوَاجِي




مجلة تدبر



أولًا: البُحُوث


مجلة تدبر



عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر

- مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر بمصر
- حصل على درجة (الماجستير) في أصول الدين - قسم التفسير وعلوم القرآن، من جامعة الأزهر بأطروحته: درء إيهام التعارض بين آيات القرآن الكريم .
- حصل على درجة (الدكتوراه) في أصول الدين - قسم التفسير وعلوم القرآن، من جامعة الأزهر بأطروحته: البحوث القرآنية في تراث ابن حزم الأندلسي - جمع ودراسة ونقد .

النتاج العلمي:

- سبق الغايات في نسق الآيات للعلامة أشرف علي التهانوي تحقيق ودراسة
- فرائد القرآن - صفحات من التدبر في آيات الذكر الحكيم
- مسألة عموم المشترك وموقف المفسرين منها
- الإلحاد العلماني في آيات القرآن الكريم- دراسة نقدية

البريد الإلكتروني: alazhary.osama@gmail.com



مستخلص البحث

يأتي هذا البحث ليحاول تقديم إجابة محددة لهذا السؤال الكبير «كيف نتدبر القرآن ؟» ويسعى بمنهج استنباطي، وعبر النظر في تراثنا التدبري إلى أن يستنبط الأسلوب والطريقة، ويتلمس المنهج والوسيلة، بما يمكن من الإضافة إلى ما تركه الآباء والبناء عليه، في عملية مستمرة من الإنتاج والإبداع في تدبر القرآن الكريم.

إن الهدف من هذا البحث ليتمثل في إبراز أساليب محددة للتدبر تيسر على قارئ القرآن ودارسه المهمة، وتساعد العامة والخاصة في عملية «تثوير القرآن» لاستخراج علومه وحكمته التي لا تنفد. وقد بدأ البحث بتجلية مفهوم التدبر وتخليصه مما يقاربه من مفاهيم كالتفسير، والتذكر، والتفكر، والاستنباط، ونحوها، ثم بين أهمية التدبر، وحكمه، وشروطه، وأنواعه، وفوائده ومفاتيحه، وموانعه، باختصار، ثم توسع نوعا ما في ذكر ما يراه يمثل أساليب منهجية في تدبر القرآن الكريم، وختم بذكر أشهر الأخطاء المنهجية التي تقع في عملية التدبر.

الكلمات المفتاحية: القرآن – التدبر – الاستنباط.

....





المُقَدِّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد

فقد انتشرت في السنوات الأخيرة دعوات محمودة لإحياء فريضة تدبر القرآن الكريم، ولاقت بحمد الله قبولًا طيبًا لدى الخاصة من أهل القرآن، والعامة من المسلمين على سواء. وفي وقت قصير تحركت الهمم، واشتعل الحماس لإعادة التواصل من جديد مع القرآن الكريم، وبُذلت جهود في جانبين مهمين من هذا الموضوع:

الأول: تأصيل علم التدبر القرآني.

والثاني: تطبيقات التدبر القرآني.

وفي الجانب التطبيقي يمكن للمتابع رصد منهجين أيضا[(١)]:

أولهما: منهج جمع التراث التَدَبُّري المُتَفرِّق في مصادر التفسير وغيرها من كتب العقائد والتزكية والتراجم...إلخ.

ثانيهما: منهج الإنتاج والإبداع في تدبر القرآن الكريم.

ومع تداخل المنهجين في كثير من الأعمال، فقد ظلت الغلبة دائمًا للمنهج الأول -أعني منهج جمع ونقل التراث التدبري عن السابقين الأولين

(١) المنهج في اللغة: الطريق الواضح، وفي الاصطلاح: الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بوساطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحديد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة، انظر: مختار الصحاح- نهج، (ص: ٣٢٠)، والبحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية لرجاء وحيد (ص: ١٢٩).



من الربانيين العلماء-، وهذا أمر طبيعي؛ إذ كان الجهد فيه يسيرًا والثمرة عظيمة. ففي منهج الجمع لا يحتاج الباحث إلى شيء أكثر من الصبر على القراءة لجرد الكتب، مع بعض الذكاء في اختيار المصادر الأغنى بمادة تدبرية. فما يكاد يخطو خطوات حتى تنثال[1] عليه الدُرَر من كل جانب. ولكن يبقى هذا العمل مجرد عملية استيراد، تأخذ من إبداع الآخرين وجهودهم مُنتَجًا جاهزًا، دون أن تحاول بذل الجهد لإبداع مُنتجِها الخاص في التدبر القرآني.

ولمَّا كان الاستيراد دائمًا أيسر من الإنتاج، وقطف الثمر أحلى من غرس الشجر، فقد قلَّ السائرون على الطريقة الثانية، أعني طريق الإنتاج والإبداع بما يحتاجه من تكاليف، وساعد على ذلك أسباب؛ منها غياب المنهجية العلمية لعملية التدبر القرآني، وهو ما ظل يثير هذا السؤال المباشر والمتكرر دائمًا «كيف نتدبر القرآن؟». إننا نملك تراثًا رائعًا من التدبر، وهدفنا ليس مجرد نقل التدبر؛ بل إنتاجه. هدفنا ليس قطف الثمرة، بل غرس شجرة طيبة تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها.

ومن هنا يأتي هذا البحث ليحاول تقديم إجابة محددة لهذا السؤال الكبير **«كيف نتدبر القرآن؟»**.

ومن العبث في البحث عن كيفية التدبر أن نبدأ من الصفر، كيف ونحن نمتلك تراثًا فريدًا تركه لنا العلماء والربانيون، عبر خمسة عشر قرنًا من الزمان. لذا كان علينا أن ننظر في هذا التراث لنكتشف الأسلوب والطريقة، ونعرف

(١) تقول العرب: انثال عليه القول: إذا تتابع وكثر فلم يدر بأيه يبدأ. انظر: المحكم لابن سيده (١٠/ ٢١٢).



المنهج والوسيلة، بما يمكننا من الإضافة إليه والبناء عليه، في عملية مستمرة من الإنتاج والإبداع في تدبر القرآن الكريم.

أسباب اختيار البحث :

١. الرغبة في كتابة بحث قرآني ينفع الله به العامة والخاصة من المسلمين، ولا يقتصر نفعه على المتخصصين من أهل العلم.

٢. الرغبة في استخلاص أساليب العلماء في تدبر القرآن، لاستثمارها في مواصلة رحلة التَّفَهُّم لكتاب الله واستنباط فوائده.

٣. كثرة الانحرافات المنهجية في فهم القرآن وتدبره، وهو ما دفع الباحث إلى محاولة ضبط عملية التدبر القرآني وتنقيتها من الشوائب.

٤. تلبية رغبة بعض طلبة العلم النابهين في وضع أساليب منهجية تيسر لهم تدبر القرآن، وتعصمهم من الخطأ في فهمه.

هدف البحث :

إن الهدف من إبراز هذه الأساليب هو تيسير مهمة التدبر على قارئ القرآن ودارسه، ومساعدة العامة والخاصة في عملية «**تثوير القرآن**»[(١)]

(١) أخذت هذا التعبير من قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن!»، وفي لفظ عنه أيضا:» أثيروا القرآن فإن فيه خبرَ الأولين والآخرين»، والمراد بتثوير القرآن: البحث فيه، والتفتيش عن معانيه، لاستخراج حكمه وأحكامه. يقال: ثوَّرَ الأمرَ تثويرا: بحثه. وثوَّرَ القرآنَ: بحث عن معانيه وعن علمه، قال شَمِر: تثوير القرآن: قراءته، ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه. وقيل: هو أن يُنقّر عنه، ويفكر في معانيه وتفسيره. انظر: تهذيب اللغة- (ث و ر)، (١٥/ ٨٠)، وإحياء علوم الدين (١/ ٢٨٣)، وتاج العروس- (ث و ر)، (١٠/ ٣٤٣).



لاستخراج علومه وحكمته التي لا تَنْفَد، فإن إعجابنا بروائع الوقفات التدبرية التي نجدها لدى السلف والأئمة ينبغي أن يُحَرِّك هِمَمَنا لاكتشاف الطريقة التي انتهجوها، والأساليب التي استعملوها للخروج بهذه الثمرة الطيبة لِنَنْسِجَ على مِنوالهم ونحذو حَذْوهم في تفهُّم كتاب الله تعالى.

منهج البحث:

يعتمد الباحث في بحثه هذا «المنهج الاستقرائي» الذي يتمثل في دراسة جهود العلماء في تدبر القرآن الكريم، بهدف معرفة الأساليب المنهجية التي استعملوها، والطرق العلمية التي سلكوا عليها في عملية التدبر.

خطة البحث:

يتضمن هذا البحث مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، كالتالي:

المقدمة: وتتضمن أهمية البحث، وأسباب اختياره، وخطته، ومنهجه.

المبحث الأول: التدبر: مفهومه، ومبادئه.

المبحث الثاني: أساليب منهجية في تدبر القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أخطاء منهجية في عملية التدبر.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

هذا، وأسأل الله الكريم أن يرزقنا حسن الفهم وحسن العمل، وأن يتقبل منا القليل، ويعفو عن الكثير، وأن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين.





المبحث الأول:
التدبر: مفهومه، ومبادئه.

في هذا المبحث نتناول بإذن الله تعالى الحديث عن التدبر لنبين مفهومه، وأهميته، وحكمه، وشروطه، وأنواعه، وأهم فوائده، ومفاتيحه، ثم نختم بموانعه.

۞ تعريف التدبُّر:

التدبر في اللغة: هو التفكر، والتفهم، والنظر في عواقب الأمور، وما تؤول إليه[1]، ولا يختلف مفهومه عند المفسرين عن مدلوله في اللغة، وعباراتهم في تفسير معناه متقاربة، وأوضحها عبارة الزمخشري حيث يقول: تدبُّر الأمرِ: تأمُّله، والنظر في أَدْبَاره، وما يؤول إليه في عاقبته ومُنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه، وتَبَصُّر ما فيه»[2]، زاد الشهاب الخفاجي: سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لَوَاحقه وأَعْقَابه»[3].

والتدبر بهذا يعني شيئًا غير تفسير ظواهر الآيات وشرح معناها؛ بل هو نوع من «التأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يَدْبُرُ ظاهرها من التأويلات الصحيحة

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٤/ ٨٠)، وأساس البلاغة (١/ ٢٧٨)، و تاج العروس (١١/ ٢٦٦).

(٢) الكشاف للزمخشري (١/ ٥٤٠).

(٣) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي المسماة بعناية القاضي وكفاية الراضي (٣/ ١٥٩).



والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المَتْلُوّ، لم يَحل منه بكثير طائل[1]، وكان مَثَله كَمَثل من له لِقحةٌ دَرُورٌ لا يَحلِبُها، ومُهْرَة نَثُور[2]لا يَسْتَوْلِدُها»[3].

قال ابن عاشور: «وأصله أنه من النظر في دُبُر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للمتأمل بَادِئَ ذِي بَدْءٍ»[4]. وصيغة التَّفَعُّل تدل على التكثير، والتوكيد[5]، والتدرج، قال ابن القيم: «وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مره بعد مرة ولهذا جاء على بناء التَّفَعُّل كالتَّجرُّع والتَّفهُّم والتَّبيُّن»[6].

ومما سبق نفهم أن التدبر تأمل عقلي في معاني القرآن، فما كان من نحوِ نَقْلِ لغةٍ، وبيان سبب نزولٍ لا يُسمَّى تدبرا، وأنه يختص بما وراء الظواهر القريبة، فما كان شرحًا لظاهر اللفظ لا يُسمَّى تدبرًا.

الفرق بين التدبر والتفكر والتذكر والتفسير والاستنباط:

هـذه كلمـات متقاربـة المعنـى، بَيْـدَ أن بينهـا فروقًـا دقيقة، نشـير إليها باختصار:

(١) قوله: لم يَحْل منه بكثير طائِلٍ، أي لم يستفد منه كبير فائدة، انظر: الصحاح للجوهري- ح ل أ (٦/ ٢٣١٩).

(٢) اللقحة: الناقة الحلوب، والدَّرُورُ: كثيرة اللبن، ونثور: كثيرة الولد، انظر: تهذيب اللغة- ل ق ح، (٤/ ٣٤)، والصحاح للجوهري- درر (٢/ ٦٥٦)، وتاج العروس - ن ث ر (١٤/ ١٧١).

(٣) الكشاف للزمخشري (٤/ ٩٠)، وذكر الشاطبي قوله تعالى [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ] [النساء: ٨٢] ثم قال: ظاهر المعنى شيء، وهم عارفون به؛ لأنهم عرب، والمراد شيء آخر..» الموافقات (٤/ ٢٠٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٨٧).

(٥) اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري (٢/ ٢٧١).

(٦) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٨٣).

أما التفكر، فقال أبو هلال العسكري: التدبر تصرف القلب بالنظر في العواقب، والتفكر تصرف القلب بالنظر في الدلائل»[1]. وأكثر ما يرد التفكر في القرآن «في سياق النظر في خلق الله، والتأمل في بديع صنعه؛ كما في قوله سبحانه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، والتدبر مختص بالقرآن وآياته»[2].

وأما التذكر فهو: استحضار الذهن ما كان يعلمه، فنسيه أو غفل عنه، فالتذكر على هذا من آثار التدبر، والتدبر سبب مُفْضٍ إلى التذكر[3]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩].

وأما التفسير، فقال الزركشي: هو علم يُعْرَف به فَهْمُ كتاب الله المنزَّل على نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمِه»، وبه يظهر أن التفسير أعم من التدبر، إذ كان التفسير هو بيان المعنى بالنقل أو بالعقل، وباللغة أو بالخبر، والتدبر مختص بالجهد العقلي كما سبق. نعم قد يكون التدبر أعم من جهة المُخاطَب به، فإن التفسير علم لا يتصدى له غير العلماء الراسخين، والتدبر مأمور به كل أحد، والتفسير من فروض الكفايات يختص به بعض العلماء فيكفي عن بقية الأمة، والتدبر «تكليف شخصي لكل فرد لا ينوب فيه أحدٌ عن أحدٍ، والتفسير عمل علمي تعليمي يقصد به البيان والتبيين، والتدبر عمل قلبي يطلب به التبصر والتذكر والاعتبار»[4].

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٧٥).

(٢) مجالس القرآن لفريد الأنصاري (١/ ٧٤) بتصرف.

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥٢).

(٤) انظر: مجالس القرآن لفريد الأنصاري (١/ ٧٢) بتصرف.



وأما الاستنباط، فقال العلماء: هو استخراج ما خَفِيَ المرادُ به من اللفظ»[١]، وخصَّه الزمخشري بالمعضلات[٢]، ويُفْهَم من ذلك « أن التدبر أصل الاستنباط، فلا يمكن الاستنباط من النص قبل تدبره والتأمل في معانيه، وأن التدبر يَعُمُّ العلماء وغيرهم، والاستنباط خاصٌّ بأولي العلم»[٣]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء:٨٣]، وأن الاستنباط يختص بالخفيات والمعضلات، قال الجصاص: الدليل الذي لا يحتمل إلا معنى واحدًا، لا تنازع فيه، ولا يحتاج إلى استنباط»[٤].

أهمية التدبر:

تتجلَّى أهمية التدبر في أن الله تعالى جعله الطريق لإدراك هداية القرآن، وتحصيل بركته العلمية والعملية «فقد نزل القرآن الكريم ليكون آية على صحة نبوة سيّدنا محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وليكون ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝٨٩﴾ [النحل: ٨٩]، وهذا يقتضِي أن يكون حقه الإيمان به، وحُسن ترتيله، وحُسن تدبره، والعمل بما فيه وتعليمه، والدعوة إليه بلسان الحال ولسان المقال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ

(١) التفسير البسيط للواحدي (٦/ ٦٤٣)، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي (٤/ ١٥٨).

(٢) الكشاف للزمخشري (١/ ٥٤١).

(٣) انظر: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل، أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم، الورقة الثانية: تحرير معنى التدبر عند المفسرين لفهد الوهبي (١٠١).

(٤) أحكام القرآن للجصاص (٣/ ١٨٤) باختصار.

﴿ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، فهذه (اللام) في ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ لام الغاية والحكمة، فمن لم يأخذ حظَّه من مدخولهما لن يأخذ حظَّه من بركته، والبركة من الكلمات الحبيبة التي تنشرح لها قلوب العباد، فإنَّها مرتبطة بالنماء والزيادة، والثبات والدوام، فقرر القرآن بهذه الكلمة نَعْتين للكتاب: تَجَدُّد عطائه ودوام نفعه. ومن ثَمَّ حثَّ على تدبره لاستخراج ما فيه من خير مُتجدِّد لا يزول ولا يحول ولا يَغِيض، فهو لا يَصْلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ وعصرٍ ومِصرٍ فحسب؛ بل هو يُصلِح كلَّ ذلك ويقوِّمه ويُقِيمُه على سواء الصراط»[١].

وقد أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أهل مدارسة القرآن هم أهل رحمة الله، عليهم تتنزَّل السكينة، وبهم تَحُفُّ الملائكة، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[٢].

حُكْمُ التدبر:

صرَّحت عبارات كثير من العلماء بوجوب تدبر القرآن وتفهمه، والتشديد على من ترك ذلك وأعرض عنه، ففي تفسير قوله تعالى:

(١) العزفُ على أنوار الذِّكر – معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة، د. محمود توفيق محمد سعد، (٩) باختصار.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (٢٦٩٩)، (٤/ ٢٠٧٤).



﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩] قال القرطبي: وفي هذا دليل على، وجوب معرفة معاني القرآن»[١].

وكذا قال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد:٢٤]: دلَّت هذه الآية على وجوب التدبر في القرآن ليُعرَف معناه»، وكذا قال البقاعي[٢].

وقال في «التذكار»: قال العلماء: يجب على القارئ إحضار قلبه، والتفكير عند قراءته، لأنه يقرأ خطاب الله الذي خاطب به عباده، فمن قرأ ولم يتفكر فيه وهو مِن أهْلِ أن يُدرِكه...كان كَمَن لم يقرأه»[٣].

وعدَّ ابن كثير ترك تدبر القرآن داخلا في هجره الذي ورد ذَمُّه في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان:٣٠]

قال ابن كثير: «وترك تدبره وتفهمه من هِجرانه»[٤].

وقال الغزالي: ومن لم يكن له فهمُ ما في القرآن –ولو في أدنى الدرجات– دخل في قوله تعالى ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [محمد: ١٦]»[٥].

وتواترت أقوال الصحابة والتابعين والأئمة وأحوالهم دالة على أهمية التدبر ووجوب العناية به، وذمِّ قراءةٍ لا فهم فيها ولا تدبر؛ فعن علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/ ١٩٢).

(٢) المرجع السابق (٥/ ٢٩٠)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٤٠).

(٣) التذكار في أفضل الأذكار (١٩٥ – ١٩٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ١٠٨).

(٥) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٣).





قال: «**لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها**»[1].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً**[2]**مِنَ الدَّهْرِ وَأَحَدُنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَنَتَعَلَّمُ حَلالَهَا وَحَرَامَهَا وَآمِرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ نَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا كَمَا تَتَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْقُرْآنَ الْيَوْمَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ، قَبْلَ الْإِيمَانِ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ، وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلَ**»[3]. وعن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَأَوْا الْقُرْآنَ رَسَائِلَ مِنْ رَبِّهِمْ فَكَانُوا يَتَدَبَّرُونَهَا بِاللَّيْلِ وَيُنَفِّذُونَهَا بِالنَّهَارِ**»[4].

واشْتَدَّ الحسن على أقوام تَبَاهَوا بالحفظ، وتركوا التدبر والعمل، فقال: «**إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبُّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده! حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله! ما يُرى القرآن**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤/ ٣٤٤).

(٢) البَرهة بالفتح ويُضم: الزمان الطويل، أو أعمُّ. تاج العروس - بره، (٣٦/ ٣٤٠).

(٣) فضائل القرآن للمستغفري (١/ ٢٧٥) والدَّقَل: نوع من التمر رديء، إذا انتثر تفرق سريعاً ولم يلصق بعضه ببعض. فالمقصود النهي عن قراءة سريعة لا تدبر فيها، غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٣٤٤).

(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٥).



له في خلق ولا عمل! حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَسٍ! والله ما هؤلاء بالقُرَّاءِ ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعة! متى كانت القُرَّاءُ مثل هذا؟! لا كثَّر الله في الناس أمثالهم!!»[1]. وقال: نزل القرآن ليُتَدَبَّر ويُعملَ به؛ فاتخذوا تلاوته عملاً»[2].

وقال الشنقيطي: كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم فهو مُعْرِض عنها مُستحِقٌّ للإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات؛ إن كان الله أعطاه فهمًا يَقْدِر به على التدبر، وقد شكا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠]»[3].

الحاجة إلى التدبر:

قد يسأل سائل: لماذا يحتاج القرآن إلى تدبر وتأمل؟ أليس قد أنزله الله بيّنًا واضحًا مُفَصَّلًا؟

والجواب: بلى، وهو مع ذلك محتاج إلى تأمل طويل، وتفكر وتدبر لأسباب منها:

---

(١) مختصر قيام الليل للمروزي (ص: ١٧٦).

(٢) تفسير السمعاني (٤/ ١١٩).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٥٧). لكن عبارة السيوطي تصرح بكونه سنة من السنن وذلك حيث يقول في الإتقان (١/ ٣٦٨): وتسن القراءة بالتدبر والتفهم فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم».



أولا: لأن الله تعالى أنزله بعلمه، وعِلمُهُ سبحانه يفوت علوم الخلق بمراحل هائلة، فلا جرم احتاج إلى تدبر وتفسير يقرِّبه من أفهام الخلق[(١)].

ثانيا: لأن كلامه سبحانه موجز غاية الإيجاز، مختصر غاية الاختصار، جامع لمعانٍ كثيرة في ألفاظ قليلة، ومثله يحتاج إلى تفكر وتأمل لاستخراج كنوزه، وبَسْط معانيه. يُروَى أنَّ فُضَيل بن عِياض قال لقوم قصدوه ليأخذوا عنه العلم: لو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاءً لما تريدون! فقالوا: تعلمنا القرآن! فقال: إنَّ في تعلُّمكم القرآن شُغلًا لأعماركم وأعمار أولادكم! لو طلبتموه لاستغنيتم به عن كلام فضيل وابن عيينة، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨][(٢)].

ثالثا: لأنه كتاب مُعْجِز، فاق بأسلوبه ومضمونه قدرات الإنس والجن، «وإذا كان بهذه المنزلة من الإعجاز في نَظْمِه ومعانيه، احتاجت ألفاظه في استخراج معانيها إلى زيادة التأمل لها وفضل الرويَّة فيها، ولا يُقتَصَر فيها على أوائل البديهة، ولا يُقنَع فيها بمبادئ الفكرة، ليصل بمبالغة الاجتهاد وإمعان النظر إلى جميع ما تضمنته ألفاظه من المعاني واحتملته من التأويل»[(٣)].

رابعا: لأننا أصبحنا غرباء عن القرآن حين استعجمت ألسنتنا، وضعفت لغتنا، وصرنا نحتاج إلى الدراسة والتعلم سنين عددًا؛ لندرك من معاني القرآن

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ١٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٢٢) بتصرف يسير.

(٣) النكت والعيون للماوردي (١/ ٣٣).



ما كان يدركه الأولون بأول النظر، أو بقليل التدبر. جاء عن بعضهم، وقال له قائل: جئت أسألك عن حرف من الغريب، فَقَالَ: هُوَ كلام القوم، إنما الغَريب أنتَ وأمثالُك من الدُّخَلاء فيه! [1].

المأمورون بالتدبر:

يظهر لمن يتتبع آيات التدبر في القرآن الكريم أنها نزلت في طوائف مختلفة من الناس: فإن آية سورة النساء -أعني قوله تعالى-: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] قد نزلت في قوم من المنافقين كانوا إذا حضروا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أظهروا الإيمان والطاعة وإذا برزوا من عنده خالفوا، فأنزل الله فيهم ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾[النساء:٨١]، ثم قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، قال ابن جرير: أفلا يتدبر المُبَيِّتُون -غير الذي تقول لهم- يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجّة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لاتِّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض» [2]. فهذا أمر للمنافقين بتدبر القرآن الكريم.

---

(١) غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي (١/ ٧) .

(٢) جامع البيان للطبري(٨/ ٥٦٧).

وكذا آية سورة القتال نزلت في شأن المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [محمد:٢٠]، فإذا أمروا بالجهاد نكصوا على أعقابهم ولم يصدقوا الله في جهاد أعدائه فأنزل الله فيهم قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤]، ووصمهم الله تعالى بالردة عن دينهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:٢٥]، يقول ابن جرير: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعِظُهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويتفكَّرون في حُججه التي بيَّنها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ يقول: أم أقفل الله على قلوبهم، فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعِبَر»[1]. فهذه أيضا في المنافقين يأمرهم الله أن يتدبروا القرآن ويتفهموا آياته.

ونزلت آية سورة «المؤمنون» - أعني قوله تعالى-: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون:٦٨] في قوم من المشركين المستكبرين، الذين قلوبهم في غمرة من القرآن، ولهم أعمال سوء هم لها عاملون: كذبوا بآيات الله، وسخروا برسوله، واستكبروا عن طاعته، ورمَوه بالعظائم؛ فأنزل الله فيهم: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون:٦٨-٧٠]، فهذا أمر بالتدبر موجه إلى المشركين المكذبين.

(١) المرجع السابق (٢٢/ ١٧٩).



وقد يأتي الأمر بالتدبر لكل من أنزل إليهم القرآن من إنس وجن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٣٢]، قال ابن جرير: قد أمر الله جل ثناؤه عباده بتدبُّره، وحثَّهم على الاعتبار بأمثاله»[١].

فمن استقرأ هذه الآيات ونحوها، وتتبَّع سياقها، وعرف أسباب نزولها، ظهر له جليًا أن الخطاب بتدبر القرآن قد توجَّه إلى جميع الخلق من إنس وجن، ومؤمن وكافر، وعالم وجاهل، وأن كل مُخاطَب بألفاظ القرآن مُخاطَب بتدبر معانيه وتفهم أحكامه.

فليس الأمر بالتدبر خاصًا بالعلماء دون العامة، ولا بالمسلمين دون الكافرين؛ بل هو عام شامل لكل من أراد هداية الله من مؤمن وكافر، يقول الشنقيطي: اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، قول لا مستند له من دليل شرعي أصلًا.

بل الحق الذي لا شك فيه، أن كل من له قدرة من المسلمين، على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما، أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعًا. وأما ما علمه منهما علمًا صحيحًا ناشئًا عن تعلُّمٍ صحيح، فله أن يعمل به، ولو آية واحدة أو حديثًا واحدًا. ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من لم يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس.

---

(١) المرجع السابق (١/ ٨٣).

ومما يوضح ذلك؛ أن المخاطَبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، وليس أحد منهم مستكملًا لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول؛ بل ليس عندهم شيء منها أصلًا. فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي لَما وبَّخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولَما أقام عليهم الحجة به حتى يُحصِّلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى»[(١)].

وعَدَّ الشيخ تركَ التدبر داخلًا في هجر القرآن.

۞ شروط التدبر:

وهل يشترط في المتدبر شروط المفسر، فيختص التدبر بالعلماء دون العامة؟ ذهب إليه بعضهم[(٢)]، وفيه نظر من وجوه منها:

١- أن أكثر آيات التدبر إنما وردت في القرآن خطابًا للكافرين والمنافقين، فلو لم يكونوا أهلًا للتدبر لما توجَّه الأمر به إليهم، ولَما ذمَّهم الله بتركه، ولَما قامت الحجة عليهم بالقرآن.

٢- أنه قد ورد الأمر الإلهي بالتدبر عامًا لجميع الخلق، غير مخصوص ببعض دون بعض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، فمن ادَّعى الخصوص لزمه الدليل.

فلعل الأولى بالصواب أن يقال: إنه لا يلزم فيمن يتصدى لتدبر القرآن

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٥٨).

(٢) انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (ص: ٤٥).



شروط المفسر؛ فإن التدبر نوع من التأمل يأتي بعد الفهم، وقد يعتمد المتدبر تفسير أهل العلم بقراءة أو سماع أو سؤال، ثم يجتهد في التدبر.

وقد يقال بتعبير آخر: إن لكل أحد التدبر فيما اتضح معناه واستغنى عن التفسير دون ما أشكل. وإن الأمر بالتدبر أمر بتحصيل المعنى وفهمه، «لأنه مُحَالٌ أن يُقال لمن لا يفهم ما يقال ولا يَعْقِل تأويلَه: اعتبر بما لا فَهْمَ لك به ولا معرفةَ، إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به»[1].

وقد يقال: إن التدبر نوع من الفهم الخاص، لا يُؤَاخَذ به العاميُّ ما لم يتجه إلى نشره وإذاعته، فعند ذلك لابد من عرضه على أهل العلم لتقويمه، وتمييز صوابه من خطئه.

وعلى كل حال؛ لا أرى أحدًا يملك الحق في أن يقول لإنسان مسلم أو كافر عالم أو جاهل: لا تحاول أن تفهم كلام ربك ورسالته إليك، ولا تتجرأ على التفكر في معانيها والتأمل في دلالتها.

بل هو مأمور بكل ذلك أمرا جازمًا، غير معذور في ترك شيء منه، خاصة وأن أكثر القرآن واضح المعنى، قريب المَأخَذ، واقرأ من أوله واسترسل صفحات وصفحات؛ هل ترى كلمة غريبة أو تركيبًا مُعضِلًا أو آية مشكلة؟ إلا في النادر القليل؟ ألا ترى أكثره سهل الألفاظ واضح المعاني داني القِطَاف؟.

أخشى أنه قد رسخ في عقول كثير من المسلمين أن هذا القرآن صعب مُسْتَصعَب، وَعْرٌ مُسْتوعَر! وأن بين عامة الناس وبين فهم معانيه أودية مُهلِكة،

(١) جامع البيان للطبري (١/ ٨٣).



وأهوالًا مُرْدِيَة! فأنتجت هذه الظنون الفاسدة إعراضًا عن معاني القرآن جملة، وعزوفًا عن محاولة التفكر والتدبر في أحكامه وحكمه جميعًا، حتى رضي أكثرهم من الغنيمة بالإياب، واكتفى عن هديه وأنواره بالتبرك بقراءته وتحصيل الثواب! إذ كان فهمُه مُختَصًّا بالعلماء، وأين نحن من العلماء! بل أين العلماء؟!

هذا والقرآن يُبْدِئ ويُعيد بقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

نعم؛ قد يُنصَح المتدبر بما يُسدِّد فهمه، ويؤمر بسؤال أهل العلم فيما أشكل، والتوقف فيما الْتَبس، أما أن يُمنَع من التفهم جملة، وتُغلَق دونه أبواب التدبر ونوافذه كلها، فلا.

وإنما تَرِدُ شروط المفسر فيمن يتصدى لتعليم معاني القرآن وتفهيمها لغيره؛ فإن هذه مهمة مخصوصة بأهل العلم، مشروطة بتحصيل أدوات ومعارف معينة.

إنه الفرق إذن بين التعلُّم والتعليم، وبين التفهُّم والتفهيم، فالأول حق لكل إنسان، بخلاف الثاني فإنه حِكْر موقوف على المتخصصين.

وكذا الأمر في سائر العلوم والمعارف، فإنه لا يُمنَع إنسان مهما كان مستواه العلمي أو تخصصه من قراءة كتاب في الطب ومحاولة تفهمه بما تيسر له من فهم، ولكنه سيُمنَع حتمًا من التصدي لتدريس علم الطب لطلابه، ومن وصف العلاج للمرضى، ومن إجراء العمليات الجراحية للمصابين، فإن هذه



أمور تتطلب علمًا وخبرة لا يحصلهما المرء إلا بدراسة علوم كثيرة وبممارسة عملية طويلة.

۞ أنواع التدبر:

قال ابن عاشور: معنى ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يتأمَّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يتأمَّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبّر تفاصيله.

وثانيهما: أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنّه من عند الله، وأنّ الذي جاء به صادق»[١].

۞ فوائد التدبر:

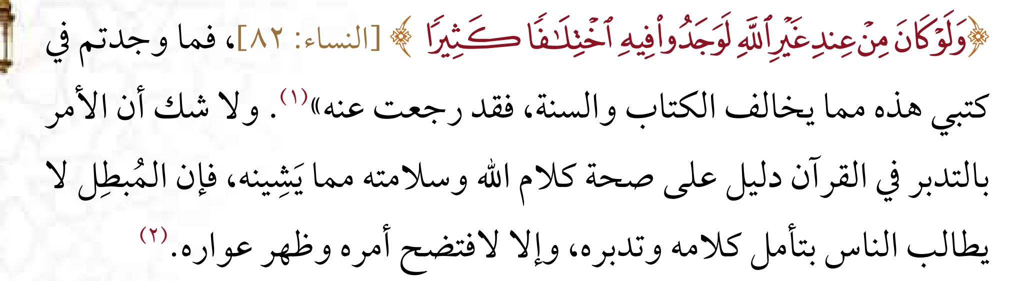
ولتدبر القرآن فوائد لا تُحصى، نذكر منها ما يسمح به المقام:

١- اليقين بصدق القرآن وأنه وحي الله تعالى: قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، قال قتادة: يقول: إن قول الله لا يختلِف، وهو حق ليس فيه باطل، وقول الناس يختلِف»[٢]. وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فمن ذا الذي يَسْلَم من خطأٍ أو سهوٍ وإن بلغ من العلم ما بلغ، هذا الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ رجل من أذكياء العالم يقول عن كتبه: لقد ألفت هذه الكتب ولم آلُ فيها، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ؛ لأن الله تعالى يقول:

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧).

(٢) تفسير القرآن لابن المنذر (٢/ ٨٠٤).



﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنة، فقد رجعت عنه»[١]. ولا شك أن الأمر بالتدبر في القرآن دليل على صحة كلام الله وسلامته مما يَشِينه، فإن المُبطِل لا يطالب الناس بتأمل كلامه وتدبره، وإلا لافتضح أمره وظهر عواره.[٢]

٢- تحصيل هداية القرآن، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ وَأَقْرَبَ إِلَى نَجَاتِهِ؛ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَى مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَى مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهِمَا، وَعَلَى طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَآلِ أَهْلِهِمَا، وَتَتُلُّ [تضع] فِي يَدِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ

---

(١) تفسير الإمام الشافعي جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (٢/ ٦٣٠).

(٢) ودليل على أن القرآن معلوم المعنى، «خلاف ما يقوله من يذهب إلى أنه لا يعلم معناه إلا النبي والإمام المعصوم، لأنه لو كان كذلك لما تهيأ للمنافقين معرفة ذلك بالتدبر، ولما جاز أن يأمرهم الله تعالى به، وأن يجعل القرآن حجة في صحة نبوته، ولا أن يجعل عجزهم عن مثله حجة عليهم» التفسير الكبير للفخر الرازي (١٠/ ١٥٢).



فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ...، فَتُشْهِدُهُ الْآخِرَةَ حَتَّى كَأَنَّهُ فِيهَا، وَتَغَيِّبُهُ عَنِ الدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا، وَتُمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي كُلِّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْعَالَمُ. فَتُرِيهِ الْحَقَّ حَقًّا، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَتُعْطِيهِ فُرْقَانًا وَنُورًا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَتُعْطِيهِ قُوَّةً فِي قَلْبِهِ، وَحَيَاةً، وَسَعَةً وَانْشِرَاحًا وَبَهْجَةً وَسُرُورًا، فَيَصِيرُ فِي شَأْنٍ وَالنَّاسُ فِي شَأْنٍ آخَرَ...»[(١)].

ومن فاز بهداية القرآن فاز بخير الدنيا والآخرة، وعُصِم من الضلال، وسَلِم من الشقاء، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: تَضَمَّنَ الله لمن قرأ القرآن واتَّبع ما فيه: ألا يَضِل في الدنيا ولا يَشْقَى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾»[(٢)].

٢- تحصيل شفاء القرآن: قال الحارث المُحَاسَبي: ضَمِن من لا [يُخفَرُ][(٣)] ضمانُه، ووَعَدَ من لا يُخلَف وعدُه -جلَّ ربُّنا- أن ما أنزل من كلامه شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، فما أحق من أغفلَ فهمَ كتابه أن يستحي من ربه عَزَّوَجَلَّ، ويأسف على ما مضى من عمره ومرضِ قلبه، وهو لا يزداد إلا سقما ومرضا، وذلك لقلة مبالاته بدائه، وتَرْكِ طلبِ شفائه بما قال مولاه، وتدبُّرِ ما تكلم به خالقه»[(٤)].

---

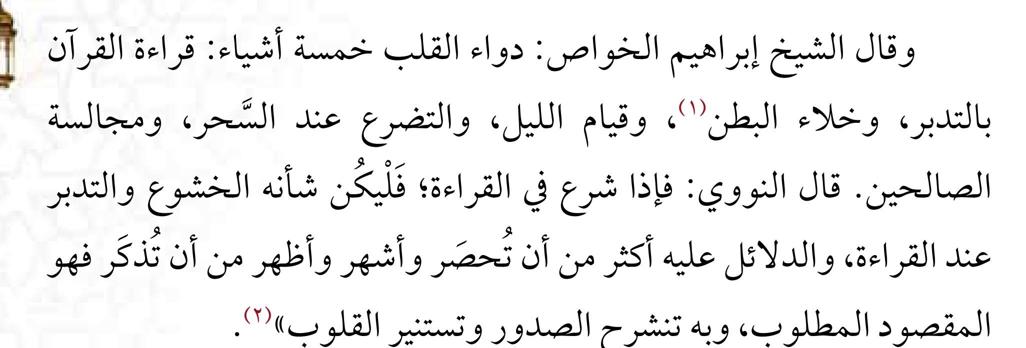
(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٥٠) باختصار.

(٢) جامع البيان (١٨/ ٣٨٩).

(٣) في الأصل «يخفى» ولا معنى له، فلعل الصواب ما أثبته، فإنه يقال: أخفر الذمةَ، إذا لم يف بها وانتهكها. انظر: تاج العروس- خفر (١١/ ٢٠٦).

(٤) العقل وفهم القرآن للمحاسبي (ص: ٣١٥).





وقال الشيخ إبراهيم الخواص: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن[١]، وقيام الليل، والتضرع عند السَّحر، ومجالسة الصالحين. قال النووي: فإذا شرع في القراءة؛ فَلْيكُن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة، والدلائل عليه أكثر من أن تُحصَر وأشهر وأظهر من أن تُذكَر فهو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب»[٢].

٣- تعظيم الأجر والثواب: قال الإمام الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والقليل من الدرس للقرآن مع الفكر فيه وتدبره أحب إليَّ من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبُّر ولا تفكُّر فيه، وظاهر القرآن يدل على ذلك والسُّنة وقول أئمة المسلمين. قال رجل لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث، قال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأُرَتلَها أحب إليَّ من أن أقرأ كما تقول. وسُئل مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قراءتهما واحدة، وركوعهما، وسجودهما، وجلوسهما، أيهما أفضل؟ قال: الذي قرأ البقرة، ثم قرأ: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾»[٣].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مما ينبغي أن يُعلَم؛ أن فضل القراءة والذكر والدعاء والصلاة وغير ذلك قد يختلف باختلاف حال الرجل؛ فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر، والصلاة بخشوع وحضور قلب أفضل من الصلاة بدون

---

(١) إن أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قلة الطعام فنعم، وهو أمر كثرت الأحاديث في الحث عليه والترغيب فيه، وإن أراد الجوع فلا، إذ لا فضيلة له عقلًا ولا شرعًا؛ بل كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله منه. وراجع في ذلك كلام ابن الجوزي في تلبيس إبليس عَلَى الصوفية فِي مطاعمهم ومشاربهم، فصل من كتابه تلبيس إبليس (ص: ١٨٤) وما بعدها.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٨٢، ٨٤).

(٣) أخلاق حملة القرآن للآجري (ص: ٩٦) باختصار الأسانيد.



ذلك»[1]. وقال في موضع آخر: والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه، والعمل به، فإن لم تكن هذه هِمَّةَ حافظه؛ لم يكن من أهل العلم والدين»[2].

٤-دفع أوهام التعارض عن كلام الله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَإِذَا حَصَلَ التَّدَبُّرُ لَمْ يُوجَدْ فِي الْقُرْآنِ اخْتِلَافٌ أَلْبَتَّةَ»[3].

مفاتيح التدبر:

نقصد بمفاتيح التدبر تلك الأمور التي تفتح بابه، وتُعين عليه، وتُيسِّر الطريق إليه، فمنها ما يلي:

١- **تعظيم القرآن:** وطريق ذلك أن يستحضر القارئ في قلبه عظمة المتكلم سبحانه، «ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، ولن تَحضُره عظمةُ المتكلِّم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله؛ فإذا حضر بباله العرش والكرسي، والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مُتَرَدِّدون بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، وهذا غاية العظمة والتعالي، فبالتفكر في أمثال هذا

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٣٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٥٥).

(٣) الموافقات في أصول الشريعة (٤/ ٢٠٩).



يَحضُر تعظيم المتكلِّم ثم تعظيم الكلام، والمُعَظِّم للكلام الذي يتلوه؛ يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه »[1].

وقد مدح الله قوما فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣]، قال الحارث المحاسبي: كلام العالِم عندنا أحلى وألَذُّ وأرفع وأجَلُّ من كلام الجاهل، وكلام الشريف من كلام الوضيع، وكلام مَن أحسن إلينا لا كَمَن لا إحسان له إلينا، وكلام الناصح المُتَحَنِّن أحسن من كلام من لا ينصحنا ولا يَتَحَنَّن علينا، حتى إن كلام الوالدة نجد له من اللذة والحلاوة ما لا نجد من كلام غيرها؛ لمعرفتنا برحمتها ونصحها وتحننها علينا؛ فلا أحد أعظم من الله عَزَّوَجَلَّ عندنا قدرًا، ولا أشرف، بل لا شرف ولا قدر لمن لم يجعل الله عَزَّوَجَلَّ له الشَّرف والْقَدر، ولا أحد أعلم من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا أحد أقرب لنا ولا أرْحم ولا أعظم تَحَنُّنًا من الله تعالى، بل لم يرحمنا راحم، ولم ينصحنا ناصح، ولم يَتَحَنَّن علينا مُتَحَنِّن، إلا بما استودع لنا في قلبه وسخَّره لنا بالرحمة والنصح... فإذا عَظُم في صدرك تعظيم المتكلم سبحانه؛ لم يكن عندك شيء أرفع ولا أشرف ولا أنفع ولا ألذ ولا أحلى من استماع كلام الله -جلَّ وعزَّ- وفَهْم معاني قوله تعظيما وحُبًّا له وإجلالا»[2].

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨١).

(٢) العقل وفهم القرآن (ص: ٣٠٤) بتصرف واختصار.

٢- الاستماع والإنصات: قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، قال ابن جرير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: يقول: «أَصْغُوا لَهُ سَمْعَكُمْ لِتَتَفَهَّمُوا آيَاتِهِ، وَتَعْتَبِرُوا بِمَوَاعِظِهِ، وَأَنْصِتُوا إِلَيْهِ لِتَعْقِلُوهُ وَتَتَدَبَّرُوهُ، وَلَا تَلْغُوا فِيهِ فَلَا تَعْقِلُوهُ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يَقُولُ: لِيَرْحَمَكُمْ رَبُّكُمْ بِاتِّعَاظِكُمْ بِمَوَاعِظِهِ، وَاعْتِبَارِكُمْ بِعِبَرِهِ، وَاسْتِعْمَالِكُمْ مَا بَيَّنَهُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ فَرَائِضِهِ فِي آيِهِ»[١].

يقول ابنُ مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إذا سمعتَ اللهَ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٠٤] فأَصْغِ لها سمعَك، فإنَّه خير تُؤمَر به، أو شرّ تُصرَف عنه**»[٢].

وقال الليث: يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقوله تعالى ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] و«لعل» من الله واجبة»[٣].

قال المحاسبي: ولقد ذم مولانا عَزَّوَجَلَّ المتشاغلين عند استماعهم بالمحادثة، فقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]، فاحرص أن لا يكون فيك خُلُقٌ ذمَّ الله عَزَّوَجَلَّ به كافرًا وإن كنت مؤمنًا، فإن من كمال الإيمان مخالفة أهل الكفر بالقول والفعل فيما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه»[٤].

(١) جامع البيان للطبري (١٣/ ٣٤٥) باختصار يسير.

(٢) النكت والعيون (٥/ ٥١٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٩).

(٤) العقل وفهم القرآن للمحاسبي (ص:٣٢١).



٣- **صدق النية**: فإن الله إذا علم من عبده نية صادقة في تفهم كلامه، وقصدًا صالحًا إلى معرفة الحق والعمل به؛ وفَّقَه وأعانه، وسَدَّدَ عقله، وهَدَى قلبه، وفتح له باب الفهم، ويسَّر له طريق العمل. وإذا رأى الله عَزَّوَجَلَّ عبدَه إنما يطلب من معاني القرآن ما يَتَزَيَّن به في المجالس ويتَصَنَّع به عند العباد، ويَتباهَى به على المنابر؛ خَتَم على قلبه فلم يدرك هداية القرآن، ولم ينتفع بأنواره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣][1].

٤- **حضور القلب**، سأل بعضُهم أحدَ العلماء: بِمَ أستعين على فهم معاني ما أتلو أو يُتلَى عليَّ؟ فقال: بإحضار عقلك، فبذلك تفهم وتذكر، ألم تسمعه عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]، قال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ لا يُحَدِّث نفسَه بغير ما يسمع، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال: شاهد القلب. قال: فكيف أُحْضِر عقلي؟ قال: بأن تَجْمَع فهمَك؛ حتى لا يكون فهمُك متفرقًا في شيء غير طلب الفهم لكلام مولاك، وتمنع جوارحَك أن تشتغل بما لا يشتغل به عقلُك، وتستعمل كل جارحة بما يعينك على الفهم؛ كنظرك في مصحف، واستماعك إلى تلاوتك، أو تلاوة غيرك»[2].

٥- **التواضع وترك الكبر والعناد**: فإن المستكبر عن قبول الحق لا تَنفُذ هدايات القرآن إلى قلبه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا

---

(١) انظر المرجع السابق (ص:٣٢٠).

(٢) العقل وفهم القرآن للمحاسبي (ص: ٣١٩).



يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

٦- **فهم المعنى الأصلي ولو إجمالا**: فإن التدبر والتفهم لا يُعقَل إلا بعد العلم بالمعنى الأصلي، وفهم المراد من الكلام ولو بصورة إجمالية، يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَفِي حَثِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ عَلَى الِاعْتِبَارِ بِمَا فِي آيِ الْقُرْآنِ، مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالتِّبْيَانِ... مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَةَ تَأْوِيلِ مَا لَمْ يَحْجُبْ عَنْهُمْ تَأْوِيلَهُ مِنْ آيَاتٍ، ... فَكَذَلِكَ مَا فِي آيِ كِتَابِ اللهِ، مِنَ الْعِبَرِ وَالْحِكَمِ وَالْأَمْثَالِ وَالْمَوَاعِظِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: اعْتَبِرْ بِهَا، إِلَّا لِمَنْ كَانَ بِمَعَانِي بَيَانِهِ عَالِمًا، وَبِكَلَامِ الْعَرَبِ عَارِفًا، وَإِلَّا بِمَعْنَى الْأَمْرِ لِمَنْ كَانَ بِذَلِكَ مِنْهُ جَاهِلًا، أَنْ يَعْلَمَ مَعَانِي كَلَامِ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَتَدَبَّرُهُ بَعْدُ، وَيَتَّعِظُ بِحِكَمِهِ وَصُنُوفِ عِبَرِهِ»[(١)].

٧- **تكرير التلاوة والترتيل مع الدرس والتأمل في المعاني والأسرار**: فإنه نعم المعين على انفتاح معاني القرآن، وانكشاف أسراره، يقول ضياء الدين بن الأثير -أحسن الله إليه-: اعلم أن المُتَصَدِّي لحل معاني القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس؛ فإنه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل، وهذا شيء جرَّبته وخبرته؛ فإني كنت آخذ سورة من السور وأتلوها، وكلما مرَّ بي معنى أثبته في ورقة مفردة، حتى أَنتهِي إلى آخرها، ثم آخذ في حلِّ تلك المعاني التي أثبتها واحدًا بعد واحد، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة، وأفعل ما فعلته أولا، وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر في كل مرة من المعاني ما لم يظهر لي في المرة التي قبلها»[(٢)].

---

(١) جامع البيان للطبري (١/ ٧٦)، ط: دار هجر.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ١٢٧).

٨- **اعتقاد التخصيص**: ويَعنُون به أن يستشعر القارئ أنه المخصوص بالآية عامة -كانت- أو خاصة، فينبغي لمن يريد التدبر ألا يغادر الآية قبل أن يعرف حظَّه منها، يقول أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو أن يُقَدِّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن؛ فإنْ سمع أمرًا أو نهيًا قَدَّر أنه المَنْهيُّ والمأمور، وإنْ سمع وعدًا أو وعيدًا فكمِثْل ذلك، وإنْ سمع قصص الأولين والأنبياء علم أنَّ السَمَر غير مقصود، وإنما المقصود ليَعتبِر به، وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه. فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته؛ ولذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، فليُقَدِّر العبد أن الله يُثَبِّت فؤادَه بما يقُصُّه عليه من أحوال الأنبياء، وصبرهم على الإيذاء، وثباتهم في الدين؛ لانتظار نصر الله تعالى.

وكيف لا يقدر هذا؟ والقرآن ما أنزل على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرسول الله خاصة؛ بل هو شفاءٌ وهدًى ورحمةٌ ونورٌ للعالمين؛ ولذلك أمر الله تعالى الكافَّة بشكر نعمة الكتاب، فقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾ [محمد: ٣] ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥] ﴿هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية: ٢٠] ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارئ الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس؟! فَلْيُقَدِّر أنه المقصود، قال الله تعالى:



﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]. قال محمد بن كعب القُرَظِي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله»[1].

وقال مُطرِّف بن عبد الله: «إني لأَسْتَلْقِي من الليل على فراشي فأتدبر القرآن كله، فأَعرض نفسي على أعمال أهل الجنة فأرى أعمالهم شديدة ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ [الذاريات: ١٧]، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزمر: ٩]، فلا أرى صفتي منهم؛ فأَعرض نفسي على أعمال أهل النار قالوا ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ٤٧﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٧]، فأرى القومَ مُكذِّبين فلا أراني فيهم، فأمُر بهذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ١٠٢]، فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم»[2].

وعن نافع قال: «كان ابن عمر يشتري السُّكَّرَ فيتصدق به فنقول له: لو اشتريت لهم بثمنه طعامًا كان أنفع لهم من هذا؟ فيقول: إني أعرف الذي تقولون؛ ولكني سمعت الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢] وابن عمر يحب السُّكَّر!»[3].

ويقول المُفكِّر محمد إقبال: قد كنت تعمَّدت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم، وكان أبي يراني فيسألني، ماذا أصنع؟ فأجيبه: أقرأ القرآن.

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٥).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٨/ ٢٩٨).

(٣) كتاب تفسير القرآن لابن المنذر (١/ ٢٨٨).

وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات، يسألني سؤاله فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له: مالك يا أبي: تسألني نفس السؤال، وأجيبك جوابًا واحدًا، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غدٍ؟! فقال: إنما أردت أن أقول لك يا ولدي: اِقرأ القرآن كأنما أُنزل عليك! ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن، وأُقْبِل عليه، فكان من أنواره ما اقتبسْتُ، ومن دُرَرِهِ ما نَظَمْتُ»[(١)].

موانع التدبر:

وقد يَحُول بين العبد وبين التدبر والتفهم أمورٌ، ذكر بعضها حجة الإسلام الغزالي فقال: إنَّ أكثر الناس مُنِعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحُجُب أَسْدَلَها الشيطان على قلوبهم؛ فعَمِيَت عليهم عجائبُ أسرار القرآن...، وحُجُب الفهم أربعة:

أولها: أن يكون الهَمُّ مُنصرِفًا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يَتَوَلَّى حِفْظَهُ شَيْطَانٌ وُكِّلَ بِالْقُرَّاءِ لِيَصْرِفَهُمْ عَنْ فَهْمِ معاني كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف، يُخَيِّلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ مَخْرَجِهِ، فهذا يكون تأَمُّله مقصورًا على مخارج الحروف، فأنَّى تَنْكشف له المعاني؟

ثانيها: أن يكون مُقلِّدًا لمذهب سمعه بالتقليد، وجَمُد عليه، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع، فهذا شخص قَيَّدَه معتقدُه عن أن يُجَاوِزَه، فلا يُمكِنه أن يخطر بباله غيرُ معتقدِه، فصار نظرُه موقوفًا على مسموعه، فإنْ لَمَعَ بَرْقٌ على بُعْدٍ، وبَدَا له معنى من المعاني التي تُباين مَسْموعَه، حَمَل عليه شيطانُ

---

(١) روائع إقبال لأبي الحسن الندوي (ص ٤٢).



التقليد حَمْلةً، وقال: كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف مُعتقَد آبائك؟! فيرى أن ذلك غرور من الشيطان، فيتباعد منه، ويحترز عن مثله، ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم حجاب، وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد، أو بمجرد كلمات جَدَليَّة حَرَّرَها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم، فأما العلم الحقيقي فكيف يكون حجابًا وهو مُنتهى المطلب؟!

ثالثها: أن يكون مُصِرًّا على ذنب، أو مُتَّصِفًا بكِبْرٍ، أو مُبْتَلَى في الجملة بهوًى في الدنيا مُطاع؛ فإنَّ ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخَبَث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يَتجلَّى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حُجِب الأكثرون، وكلما كانت الشهوات أشد تراكمًا كانت معاني الكلام أشد احتجابًا، وكلما خَفَّ عن القلب أثقال الدنيا قَرُبَ تَجَلِّي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة، والشهواتُ مثل الصَّدأ، ومعاني القرآن مثل الصُّور التي تتَرَاءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تَصْقِيل الجِلاء للمرآة، وقد شرط الله عَزَّوَجَلَّ الإنابة في الفهم والتذكير، فقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [غافر: ١٣].

رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيرًا ظاهرًا، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأنَّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسَّر القرآن برأيه فقد «تبوَّأ مَقعَدَه من النَّار[١]»، فهذا أيضًا من الحُجُب العظيمة»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد، مسند عبد الله بن العباس، (٣/ ٤٩٦)، برقم (٢٠٦٩)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف؛ لضعف عبد الأعلى الثعلبي، ومع ذلك فقد حسَّنه الترمذي وصححه ابن القطان.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٥) باختصار.

قال: «فإن الوعيد فيمن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه، فيستجرّ شهادة القرآن إليه، ويحمله عليه، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية، لغوية أو نقلية. ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسَّر القرآنُ بالاستنباط والفكر؛ فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة، ونعلم أنَّ جميعها غير مسموع من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع، فيكون ذلك مستنبطًا بحُسن الفهم وطول الفكر؛ ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اللهم فقِّهْهُ في الدين وعلِّمه التأويل»»[1].

....

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٧)، والحديث أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، (١٤٣)، (١ / ٤١). دون قوله: «وعلمه التأويل»، وهو في مسند أحمد بن حنبل (١/ ٢٦٦) تام.



المبحث الثاني
أساليب منهجية في تدبر القرآن الكريم

يَقصِد هذا المبحث إلى محاولة الإجابة على هذا السؤال المهم والمُلِحّ دائمًا: «**كيف نتدبر القرآن؟**».

وله جوابان: إجمالي وتفصيلي؛ أما الأول: فنذكر فيه كيفية التدبر إجمالًا، وأما الثاني: فنُفَصِّل فيها عددًا من الأساليب المنهجية في تدبر القرآن تفصيلًا.

فنقول وبالله التوفيق: لَمَّا كان التدبر هو التأمل والتفكر في كلام الله تعالى، كان طريق مَن يطلبه أن يتفهَّم معاني الآيات، ولا يقف عند ظواهرها القريبة، «وَصِفَةُ ذَلِكَ أَنْ يَشْغَلَ قَلْبَهُ بِالتَّفْكِيرِ فِي مَعْنَى مَا يَلْفِظُ بِهِ فَيَعْرِفَ مَعْنَى كُلِّ آيَةٍ وَيَتَأَمَّلَ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ وَيَعْتَقِدَ قَبُولَ ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ مِمَّا قَصَّرَ عَنْهُ فِيمَا مَضَى اعْتَذَرَ وَاسْتَغْفَرَ وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ اسْتَبْشَرَ وَسَأَلَ أَوْ عَذَابٍ أَشْفَقَ وَتَعَوَّذَ أَوْ تَنْزِيهٍ نَزَّهَ وَعَظَّمَ أَوْ دُعَاءٍ تَضَرَّعَ وَطَلَبَ»[(١)].

يقول أبو حامد الغزالي: وينبغي أن يَسْتوضِح من كل آية ما يليق بها؛ إذ القرآن يشتمل على ذِكْر صفات الله عَزَّوَجَلَّ وذِكْر أفعاله، وذِكْر أحوال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وذِكْر أحوال المكذِّبين لهم، وأنهم كيف أُهلِكوا، وذِكْر أوامره وزواجره، وذِكْر الجنة والنار.

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٦٩).

أما صفات الله عَزَّوَجَلَّ فليتأمل معانيها، لتنكشف له أسرارها، فتحتها معانٍ مدفونة لا تنكشف إلا للمُوفَّقين، فلْيكُن حريصًا على طلب ذلك الفهم، فإنَّ أعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته؛ إذ لم يُدرِك أكثرُ الخلق منها إلا أمورًا لائقةً بأفهامهم، ولم يعثروا على أغوارها.

وأما أفعاله تعالى: فليَفْهَم التالي منها صفات الله عَزَّوَجَلَّ وجلالَه، إذ الفعل يدل على الفاعل، فتدل عظمته على عظمته، فمن عرف الحق رآه في كل شيء؛ إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عَرَفه، ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الواقعة: ٦٣]، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الواقعة: ٦٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الواقعة: ٧١] فلا يَقصُر نظره على الماء والنار والحرْث والمَنِيّ؛ بل يتأمل في المَنِيّ وهو نُطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم، والعروق والعَصَب، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة، من الرأس، واليد، والرِّجل، والكبد، والقلب، وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة، من السمع، والبصر، والعقل، وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب، والشهوة، والكِبر والجهل، والتكذيب، والمجادلة، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧]، فليتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عَجَب العجائب، وهو الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب، فلا يزال ينظر إلى الصَّنعة فيرى الصانع.

وأما أحوال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: فإذا سمع منها كيف كُذِّبوا وضُرِبوا وقُتِل بعضُهم! فليفهم منه صفة الاستغناء لله عَزَّوَجَلَّ عن الرسل والمُرسَل إليهم، وأنه



لو أهلك جميعَهم لم يؤثر في ملكه شيئا. وإذا سمع نُصرتَهم في آخر الأمر؛ فليفهم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته لنصرة الحق.

وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود وما جرى عليهم، فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته، وليكن حظُّه منه الاعتبار في نفسه، وأنه إن غفل وأساء الأدب واغْترَّ بما أُمْهِل، فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية.

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه؛ لأن ذلك لا نهاية له، وإنما لكل عبد بقدر رزقه ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]، فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه فأما الاستقصاء فلا مَطمَع فيه»[1].

هذا ما يتعلق بكيفية التدبر إجمالًا، فأما التفصيل فيظهر في هذه الأساليب المنهجية التي نذكرها بإذن الله تعالى مقرونة بنماذج تطبيقية توضح المراد بها، على أنه لا يحتاج إلى تنبيه أن نقول: إن أساليب التدبر ليست محصورة فيما نذكر، وإن بإمكان الباحث والقارئ استنباط أساليب جديدة أو اكتشافها لدى السابقين من العلماء والربانيين.

أولًا- الاعتبار:

ولفظ الاعتبار مأخوذ من العبور وهو المجاوزة من شيء إلى شيء، ولهذا سميت العَبرة عَبرة؛ لأنها تنتقل من العين إلى الخد. وعلى هذا فقد قيل:

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٣) باختصار.



الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها؛ ليُعرف بالنظر فيها شيءٌ آخر من جنسها.»[1]، وقيل: هو النظر في الشيء ليُعرف به جنسُه ومثلُه[2].

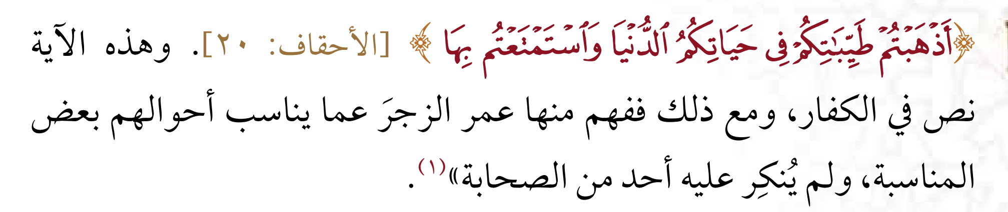
وقد أمر الله بالاعتبار في قوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر: ٢]، ودلنا على مواطن العبرة في آياتٍ، منها قوله ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، يعني: الرسل والأنبياء. قال الغزالي: «وأكثر أسرار القرآن مُخَبَّأة في طَي القصص والأخبار، فكن حريصا على استنباطها؛ ليُكشَف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المُزخرفة الخارجة عنه»[3].

وقيل: «إذا أخبر الله سبحانه بغضبه على قوم وعقابه إياهم، فظاهر ذلك: إخبارٌ عنهم، وباطنُه: عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الأمة»[4].

فمن الاعتبار أن يَعْبُرَ بالآية عمن نزلت فيه من الكفار والمنافقين مثلًا إلى غيرهم، فإن مَن فَعَل فِعْلَهم لا يَأْمَن أن يُعاقَب عقابَهم. وقد قال بعض المفسرين: كل آية في الكفار تَجُرُّ ذيلَها على عُصاة المؤمنين»[5].

قال القرطبي: فإن قيل: فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل في الكافرين، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة؟ قيل له: لا يستبعد أن يُنتزع مما أنزل الله في المشركين أحكامٌ تليق بالمسلمين. وقد قال عمر: إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواء، وتوضع صحفة وترفع أخرى، ولكنا سمعنا قول الله تعالى:

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٩/ ٥٠٤).
(٢) تفسير السمعاني (٥/ ٣٩٧).
(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٣).
(٤) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لأبي الحسن المباركفوري (٧/ ٢٠٧) بتصرف يسير.
(٥) – البحر المديد (٣/ ٢٨٣).



﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. وهذه الآية نص في الكفار، ومع ذلك ففهم منها عمر الزجرَ عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة، ولم يُنكِر عليه أحد من الصحابة»[(١)].

وروي عن جابر قال: رأى عمر لحمًا معلقًا في يدي فقال: ما هذا يا جابر؟ فقلت: اشْتَهيتُ لحما فاشتريته، فقال: أوَ كلما اشتهيتَ اشتريتَ يا جابر؟ أما تخاف هذه الآية ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠][(٢)].

ومن الاعتبار أن يتجاوز المرء خصوص الآية ليُعَمِّمَها على ما يشابهها من أحوال وأشخاص.

وقد يكون هذا التعميم في الأشخاص وقد يكون في الأحوال. أما الأشخاص فما نزل في شخص يَعمُّ كل شخص مثله يكون إلى يوم القيامة.

يقول الماتريدي: الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١] في حقيقة المعنى للخلق كلهم؛ لأن على كل الخلائق ألا يَغْلُوا في دينهم»[(٣)].

ويقول ابن القيم: سورة التكاثر سورة مكية نزلت خطابًا لقوم لا يؤمنون بالبعث والنشور، وقد قال النبي ﷺ لأبى بكر وعمر وقد أكلوا لحم شاة: والذى نفسى بيده لتُسألُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة! أخرجكم من بيوتكم

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٩٢).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: صفة النبي ﷺ، باب: ما جاء في أكل اللحم، (٥/ ١٣٧٠)، رقم: (٣٤٥١).

(٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٣/ ٤٢٥).

الجوع، ثم لم تَرْجِعوا حتى أصابكم هذا النعيم!»[1]، فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار، وأيضًا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيرا، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر، وخطاب القرآن عام لمن بلَغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله فهو متناوِل لمَن بَعدَهم وهذا معلوم بضرورة الدين...فالخطاب للإنسان من حيث هو إنسان»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] يقول الشنقيطي: الظاهر أنهم اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، الذين خَلَفوا أنبياءهم وصالحيهم قبل نزول الآية فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات. وعلى كل حال؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يدخلون في الذم والوعيد المذكور في هذه الآية»[3].

وأما التعميم في الأحوال، فما نزل في حال ينبغي أن يَعُمَّ ما يماثلها من أحوال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: ١٢١] قال أهل النظر: في هذا دليل على أن مَن أحلَّ ما حرم الله، أو حرَّم ما أحلَّ الله فقد أشرك»[4].

(١) أخرجه مسلم: كتاب: الأشربة، باب: جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، (٣/ ١٦٠٩)، رقم: (٢٠٣٨).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٩١).

(٣) أضواء البيان (٤ / ٣٠٨).

(٤) معاني القرآن للنحاس (٢/ ٤٨٢).

وعن سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: الصلاة مِكْيال، مَن أَوفَى أُوفِي له، ومَن طَفَّف فقد علمتم ما للمطففين»[1]. فهذه آية في التجارة؛ أخذنا منها فائدة في الصلاة.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَذارِ حَذارِ من التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فإنك إنْ تهاونت به ثبَّطَك اللهُ وأقعدك عن مَراضيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ٨٣﴾ [التوبة: ٨٣].»[2] فهذه آية وردت في القعود عن الجهاد؛ أخذنا منها حرمة القعود عن شيء من مَراضي الله جملة، وعقوبة ذلك.

ثانيًا- المقارنة:

وهي أن يجمع ويَقرِن بين آيتين في موضوع واحد؛ فيظهر له من المعاني ما لا يظهر في واحدة منهما، ومن ذلك ما فعله سهل بن عبد الله حين قرن بين قوله تعالى في حق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ١٣﴾ [محمد -١٣]، وبين قوله تعالى في حق موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص: ٢١]، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في الآية الأولى دليل على تفضيله على الكليم، لأنه لم يخرج خوفًا منهم، كما خرج موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكنه [أُخرِج][3]، كما قال الله تعالى: ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾، ولم يقُل خَرجتَ ولا جَزِعت»[4].

---

(١) -مصنف عبد الرزاق: كتاب الصلاة، باب المحافظة على الأوقات (٢/ ٣٧٣)، (٣٧٥٠)، وانظر: الدر المنثور: (٨/ ٤٤٢).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٦٩٩). وانظر للاستزادة: الفوز الكبير في أصول التفسير للدهلوي (ص: ١٩١)، وفصول في أصول التفسير لمساعد الطيار (ص: ١١١).

(٣) في الأصل «ولكنه خرج»، ولعل الصواب ما أثبته.

(٤) تفسير التستري: ١٤٦.

قال الجاحظ: وفي القرآن معانٍ لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس»[1]. فينبغي أن يبحث عن حكمة هذا الاقتران، والمعاني المقصودة من التزامه.

فمن قرائن القرآن ما ذكره الإمام فخر الدين الرازي حيث قال: واعلم أنه تعالى قرن إلزام بر الوالدين بعبادته وتوحيده في مواضع:

أحدها: في هذه الآية: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦].

وثانيها: قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وثالثها: قوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: ١٤].

قال: وكفى بهذا دلالة على تعظيم حقهما ووجوب برهما والإحسان إليهما»[2].

وبين الإمامُ الحكمةَ في هذا الاقتران فكان مما قال: «إنما أرْدفَ عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه:

أحدها: أن نعمة الله تعالى على العبد أعظم، فلا بد من تقديم شكره على شكر غيره، ثم بعد نعمة الله فنعمة الوالدين أعمُّ النِّعم، وذلك لأن الوالدين

---

(١) البيان والتبيين (١/ ٤٢).

(٢) التفسير الكبير (١٠/ ٧٦).



هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده، كما أنهما مُنْعِمان عليه بالتربية، وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود، بل بالتربية فقط، فثبت أنَّ إنعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالى.

وثانيها: أنَّ الله سبحانه هو الْمُؤَثِّرُ في وجود الإنسان في الحقيقة، والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العُرف الظاهر، فلما ذكر المؤثر الحقيقي أَردفَه بالْمُؤَثِّرِ بحسب العرفُ الظاهر.

وثالثها: أنَّ الله تعالى لا يطلب بإنعامه على العبد عِوضًا أَلْبَتَّةَ، بل المقصود إنما هو مَحْضُ الإنعام، والوالدان كذلك؛ فإنهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عِوضًا ماليًّا ولا ثوابًا، فإن مَنْ يُنْكِرُ الْمِيعَادَ يُحْسِنُ إلى ولده ويربيه، فمن هذا الوجه أَشْبَهَ إِنْعَامُهُمَا إِنْعَامَ اللهِ تعالى.

الرابع: أنَّ الله تعالى لا يَمَلُّ من الإنعام على العبد، ولو أتى العبدُ بأعظم الجرائم، فإنه لا يقطع عنه موادَّ نعمه ورَوادِفَ كرمه، وكذا الوالدان لا يَمَلَّان الولدَ ولا يقطعان عنه موادَّ مِنَحِهما وكرمِهما، وإن كان الولدُ مُسيئًا إلى الوالدين...»[1].

ومن قرائن القرآن؛ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَهَذَانَ الْأَصْلَانِ وَهُمَا التَّوَكُّلُ، وَالْعِبَادَةُ قَدْ ذُكِرَا فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، قُرِنَ بَيْنَهُمَا فِيهَا، هَذَا أَحَدُهَا.

الثَّانِي: قَوْلُ شُعَيْبٍ ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

(١) التفسير الكبير (٣/ ٥٨٦).



الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الرَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة: ٤].

الْخَامِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٨].

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد: ٣٠].

قال: فَهَذِهِ سِتَّةُ مَوَاضِعَ يُجْمَعُ فِيهَا بَيْنَ الْأَصْلَيْنِ، وَهُمَا «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

قال: وَسِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ انْتَهَى إِلَى هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ، حَتَّى قِيلَ: أَنْزَلَ اللهُ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ مَعَانِيَهَا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ هَذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ فِي الْمُفَصَّلِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْمُفَصَّلِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَمَعَانِيَ الْفَاتِحَةِ فِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]»[١].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٩٥).

ثالثًا- المقابلة:

وهي أن يجمع القارئ بين الآية وما يقابلها من آيات فيظهر له من المعاني ما خفي عنه، فإن الأشياء بضدِّها تتميز، والفرق بينها وبين المقارنة أن الأولى تكون بين الآيات المتوافقة في الموضوع، وهذه تكون بين المتقابلات.

ومن أمثلة المقابلة ما ذكره القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: يُقَالُ: إِنَّ مَنْ أُعْطِيَ الْحِكْمَةَ وَالْقُرْآنَ فَقَدْ أُعْطِيَ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ مَنْ جَمَعَ علم كتب الأولين مِنَ الصُّحُفِ وَغَيْرِهَا، لِأَنَّهُ قَالَ لِأُولَئِكَ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال عن القرآن ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال بعض الحكماء: مَنْ أُعْطِيَ الْعِلْمَ وَالْقُرْآنَ يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ، وَلَا يَتَوَاضَعَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِأَجْلِ دُنْيَاهُمْ، فَإِنَّمَا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ أَصْحَابُ الدُّنْيَا، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّى الدُّنْيَا مَتَاعًا قَلِيلًا، فقال: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: ٧٧]، وسَمَّى العلمَ والقرآنَ ﴿خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ فقال ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩]»[١].

وقال الفخر الرازي: ثم تفكَّر أن الله تعالى ما أَعطَى من العلم إلا القليل، قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، وسَمَّى الدنيا بأَسْرِها قليلًا ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: ٧٧]، فما سمّاه قليلًا لا يُمْكننا أن نُدرِك كمِّيته، فما ظنك بما سمَّاه كثيرًا!»[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/ ٣٣٠) بتصرف .

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٤٠٠).

❁ رابعًا- التركيب:

ونعني به أن الفائدة قد تُؤْخَذ من تركيب آيتين أو أكثر معًا، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالْمَقْصُودُ تَفَاوُتُ النَّاسِ فِي مَرَاتِبِ الْفَهْمِ فِي النُّصُوصِ، وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ مِنْ الْآيَةِ حُكْمًا أَوْ حُكْمَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ مِنْهَا عَشَرَةَ أَحْكَامٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ فِي الْفَهْمِ عَلَى مُجَرَّدِ اللَّفْظِ دُونَ سِيَاقِهِ، وَدُونَ إيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ وَتَنْبِيهِهِ وَاعْتِبَارِهِ، وَأَخَصُّ مِنْ هَذَا وَأَلْطَفُ ضَمُّهُ إلَى نَصٍّ آخَرَ مُتَعَلِّقٍ بِهِ فَيَفْهَمُ مِنْ اقْتِرَانِهِ بِهِ قَدْرًا زَائِدًا عَلَى ذَلِكَ اللَّفْظِ بِمُفْرَدِهِ، وَهَذَا بَابٌ عَجِيبٌ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ لَا يَتَنَبَّهُ لَهُ إلَّا النَّادِرُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الذِّهْنَ قَدْ لَا يَشْعُرُ بِارْتِبَاطِ هَذَا بِهَذَا وَتَعَلُّقِهِ بِهِ.

وَهَذَا كَمَا فَهِمَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ تَلِدُ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ»[1].

ويقول النيسابوري: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨] مع قوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] ظاهر في أن العلماء بالله هم خير البرية، اللهم اجعلنا منهم»[2].

(١) إعلام الموقعين (١/ ٣٥٤).

(٢) غرائب القرآن للنيسابوري (٦/ ٥٤٥).



ويقول الفيروز آبادي: واعلم أن الشكوى إلى الله عَزَّوَجَلَّ لا تنافي الصبر؛ فإن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَدَ بالصبر الجميل، والنبيُّ إذا وَعَدَ لا يُخلِف، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وكذلك أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر الله عنه أنه وجده صابرًا، مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وإنما ينافي الصبرَ شكوى الله، لا الشكوى إلى الله؛ كما رأى بعضُهم رجلًا يشكو إلى آخر فاقةً وضرورة، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك!»[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فقد ذهب بعض العلماء إلى أنها دالَّة على تحريم الخمر، وذلك أن الآية دالَّة على أن الخمر مشتملة على الإثم، والإثم حرام لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فكان مجموع هاتين الآيتين دليلًا على تحريم الخمر[2].

وقد يُستعمل هذا التركيب بشكل أوسع من مجرد آيتين أو ثلاث إلى عملية «ربط للجزئيات بكلياتها، أي أنك تقرأ القرآن وأنت تربط جزئياته بالكليات فيتكوَّن في ذهنك هرم تصاعدي حتى تصل إلى الغايات، أو المقاصد، ثم تُوَحِّد بينها حتى تصل إلى المقاصد الكبرى»[3].

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز (ص: ٩٨٢).

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٢٩٢)، و التفسير الكبير (٦/ ٣٩٩).

(٣) عشر رسائل من أجل فهم أفضل للقرآن الكريم، لمصطفى الحسن، مقال منشور على موقع https://www.facebook.com/notes/396908123679018.



خامسًا- ملاحظة مواقع الأسماء الحسنى ومناسباتها:

يقول الغزالي: وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، إذ لم يُدرك أكثر الخلق منها إلا أمورًا لائقةً بأفهامهم، ولم يعثروا على أغوارها»[(١)].

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]، قال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي الآية سؤال يقال هذا موضع قدرة فكيف قال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾؟ فالجواب: أنهم لما قالوا ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨﴾ [مريم: ٨٨] كادت الجبال تزول، وكادت السموات يَنْفَطِرن، وكادت الأرض تَخِرُّ لِعِظَم ما قالوا فأَسْكنها الله -جل وعز-، وأخَّر عقابهم، وحَلُم عنهم؛ فذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾[(٢)] وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الله كان حليمًا عمَّن أشرك وكفر به مِن خَلْقِه في تركه تعجيلَ عذابه له، غفورًا لذنوب من تاب منهم، وأناب إلى الإيمان به، والعمل بما يُرضيه»[(٣)].

وفي قوله تعالى على لسان عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في شأن من اتخذوه إلهًا من دون الله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، تراه قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ولم يَقُل: فإنك أنت الغفور الرحيم. قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأنه قَصَدَ التسليم لأمره والتفويض لحُكمه. ولو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لَأَوْهَم الدعاءَ بالمغفرة لمن مات على شركه، وذلك مستحيل»، وقال

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٣).

(٢) معاني القرآن – النحاس (٥/ ٤٦٥).

(٣) جامع البيان (٢٠/ ٤٨٢).



ابن الأنباري: معنى الكلام: لا ينبغي لأحدٍ أن يعترض عليك، فإن عذَّبتَهم، فلا اعتراض عليك، وإن غفرت لهم -ولستَ فاعلاً إذا ماتوا على الكفر- فلا اعتراض عليك. وقال غيره: العفو لا يَنْقُص عزَّك، ولا يخرج عن حكمك.»[1]

سادسًا- ملاحظة الترتيب:

فإن للترتيب في القرآن حكمة، وللتقديم والتأخير معنى، والموفَّق من هُدِيَ إليه. يقول عبد القاهر الجرجاني: وهو باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويُفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شِعرًا يروقك مَسمَعُه، ويلْطُف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك، أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان»[2]. ففي قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ [التوبة: ٤٣] قال بعض السلف: سمعتم بمُعاتَبة أحسن من هذا؟! بدأ بالعفو قبل المعاتبة»[3].وقال ابن عطية: قَدَّم له ذِكرَ العفو قبل العتاب إكرامًا له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ [المائدة: ٨٢] يقول أبو السعود: في تقديم اليهود على المشركين بعد

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٣٧٨)، زاد المسير في علم التفسير (١/ ٦٠٦) وللدكتور على بن سليمان العبيد بحثان طيبان عن ختم الآيات بالأسماء الحسنى ودلالتها أحدهما نظري والآخر تطبيقي درس فيه الفاتحة والبقرة.

(٢) دلائل الإعجاز (١/ ١٠٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٥).

(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٣٨).

لَزِّهما في قَرَنٍ واحد إشعارٌ بتقدمهم عليهم في العداوة، كما أن في تقديمهم عليهم في قوله تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ﴾ [البقرة: ٩٦] إيذانًا بتقدمهم عليهم في الحرص»[1].

وفي قوله تعالى ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧] قال ابن عطية: في تقديم ﴿رِجَالًا﴾ تفضيل للمُشاة في الحج، قال ابن عباس: ما آسَى على شيء فاتني إلا أن أكون حججت ماشيًا، فإني سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النحل: ٣١] قال البيضاوي: وفي تقديم الظَّرف ﴿فِيهَا﴾ تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢] قيل: قدَّم الظالم لئلا ييْأَس من رحمته، وأَخَّر السابق لئلا يُعْجَب بعمله. وقيل: إنما رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس، لأنّ أحوال العبد ثلاث: معصية، وغفلة، ثم توبة وقُرْبة. فإذا عصى دخل في حيّز الظالمين، وإذا تاب دخل في جملة المقتصدين، وإذا صحَّت التوبة، وكثُرت العبادة والمجاهدة دخل في عداد السابقين. وقيل: في تقديم الظالم ثم المقتصد إيذانٌ بأن المقتَصدِين أكثر من

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٧١).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ١١٨).

(٣) أنوار التنزيل (٣/ ٢٢٥).



السابقين. والظالمون أكثر الأقسام، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] يقول أبو السعود: الفاء لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله تعالى، وفي تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعار بأنه لا ينفع دونها»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] قالوا: في تقديم (عَدُوِّى)، إشارة إلى أنه المهم، وإن فُرِض أن لم يكن عدوًا لهم»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦] يقول نظام الدين النيسابوري: في تقديم الظَّرف مزيد تقريع! يعني أنه لِنعمة ربه خصوصًا لَشديدُ الكُفران، فكيف نعمة غيره مثل الأبوين ونحوهما؟!»[4].

سابعًا- ملاحظة التقسيم:

فإن من يقرأ قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠، ٢٠١]

(١) الكشف والبيان للثعلبي (٨/ ١٠٨)، غرائب القرآن للنيسابوري (٥/ ٥١٧).
(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٢٤٩).
(٣) غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني لشهاب الدين الكوراني (ص: ١٤٢).
(٤) غرائب القرآن للنيسابوري (٦/ ٥٥٠).

يَلْحظُ أنَّ ثَمَّة قسمًا ثالثًا لم يُذْكَر، وهو من يسأل اللهَ الآخرةَ فحسب، فينبغي عليه أن يبحث عن الحكمة في السكوت عنه. قال الرازي: واختلفوا في أن هذا القسم هل هو مشروع أو لا؟ والأكثرون على أنه غير مشروع؛ وذلك أن الإنسان خُلِقَ محتاجًا ضعيفًا، لا طاقة له بآلام الدنيا، ولا بمشاقِّ الآخرة، فالأَوْلَى له أن يستعيذ بربه من كل شرور الدنيا والآخرة، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟». قَالَ نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ اللهِ لاَ تُطِيقُهُ -أَوْ لاَ تَسْتَطِيعُهُ-، أَفَلاَ قُلْتَ: ﴿ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١]، قَالَ:» فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ»[(١)]. واعلم أنه سبحانه لو سلَّط الألم على عِرْق واحد في البدن، أو على مَنْبِت شَعْرةٍ واحدةٍ لشَّوش الأمر على الإنسان، وصار بسببه محرومًا عن طاعة الله تعالى، وعن الاشتغال بذكره، فمن ذا الذي يستغني عن إمداد رحمة الله تعالى في أُولاه وعُقْباه؟. فثبت أن الاقتصار في الدعاء على طلب الآخرة غير جائز، وفي الآية إشارة إليه حيث ذكر القسمين وأهمل هذا القسم الثالث»[(٢)].

ومنه قوله تعالى في قصة أصحاب السبت: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥]، ينبغي الالتفات إلى أن ثَمَّةَ قِسمًا ثالثًا وهم

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا (٤/ ٢٠٦٨)، (٢٦٨٨).

(٢) التفسير الكبير (٥/ ٣٣٦).



الساكتون المذكورون في قوله ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فما شأنهم؟. عن عكرمة أنه رأى ابن عباس قرأها فبكى ثم قال: أرى اليهود الذين نَهَوْا قد نجَوا، ولا أرى الآخرين ذُكِروا، ونحن نرى أشياء نُنْكِرُها فلا نقول فيها! قال: قلتُ: إنَّ جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كَرِهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾؟ قَالَ: فأَمر بِي فَكُسِيتُ بُرْدَيْنِ غَلِيظَيْنِ»[١].

ثامنًا- ملاحظة مفهوم العبارة:

فكما أن للكلام دلالة بمنطوقه، كذلك له دلالة بمفهومه، ويقصد بالمنطوق: ما فهم من دلالة اللفظ قطعًا في محل النطق، وبالمفهوم: ما فُهم من اللفظ في غير محل النطق، وهو نوعان، أحدهما: مفهوم الموافقة: وهو ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت موافقًا لمدلوله في محل النطق، وثانيهما: مفهوم المخالفة وهو ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت مخالفًا لمدلوله في محل النطق»[٢].

فمن ملاحظة مفهوم الموافقة أنْ يلاحظ القارئ تنبيه الآيات بالأدنى على الأعلى وبالأعلى على الأدنى.

فأما التنبيه بالأدنى على الأعلى فنحو قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨] قال الفضيل: لم تَتَزَيَّن العبادُ بشيءٍ أفضل من الصدق،

(١) جامع البيان للطبري (١٣/ ١٨٩)، وقال الشيخ شاكر: «إنَّ» في قول عكرمة بمعنى نعم، يعنى: إنه قد كان، وإنهم قد نجوا.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (٣/ ٦٩).



والله عَزَّوَجَلَّ سائلٌ الصادقين عن صدقهم، فكيف بالكذابين المساكين؟! ثم بكى»[1].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] يقول أبو جعفر النحاس: فإنْ قيل ما الفائدة في كتبه وهو يعلمه؟ فالجواب عن هذا: أنه لتعظيم الأمر، أي اعلموا أنَّ هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف بما فيه ثواب وعقاب»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣ - ٤٥] قال يحيى بن معاذ: هذا رِفْقُكَ بمن يَدَّعِي الربوبية فكيف رِفْقُكَ بمن يَدَّعِي العبودية؟ وقيل: هذا رِفْقُكَ بمن آذاك، فكيف رِفْقُكَ بمن يُؤذَى فيك! وهذا رِفْقُكَ بمن عاداك، فكيف رِفْقُكَ بمن عادى فيك؟ وهذا رِفْقُكَ مع أعدائك فكيف رِفْقُكَ مع أوليائك؟»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ﴾ [الرحمن: ٥٤] قال ابن كثير: نبه على شرف الظهارة بشرف البطانة، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى.

عن عبد الله بن مسعود قال: «**هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟**»[4]

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٤٤).
(٢) معاني القرآن (٢/ ٤٣٧)
(٣) حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي (١/ ٤٤٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٥٠٣)

وأما التنبيه بالأعلى على الأدنى فنحو قوله تعالى ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥] يقول أبو جعفر النحاس: هذا حُكْم الله فيمن عصاه من الأنبياء فكيف غيرهم»[(١)].

ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] يقول السمرقندي: معناه: لو زاد حرفًا واحدًا على ما أَوْحَيْتُه إليه أو نَقَص، لعاقبتُه، وكان هو أكرم الناس عليَّ. وفي الآية تنبيه لغيره، لكيلا يغيروا شيئًا من كتاب الله تعالى، ولا يَتَقَوَّلوا فيه شيئًا من ذات أنفسهم»[(٢)].

ونحو قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ [لقمان: ٣٣]، قال صِدِّيق خان: ذكر سبحانه هنا فَرْدَين من القَرابات، وهما الوالد والولد، وهما الغاية في الحُنوِّ والمحبة والشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القَرابات لا يَجزي بالأولى، فكيف بالأجانب»[(٣)].

ومن ملاحظة مفهوم المخالفة في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: ١٥]، يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في حال الرضا»[(٤)].

---

(١) معاني القرآن للنحاس (٤/ ١٧٩).

(٢) تفسير السمرقندي (٣/ ٤٩٣).

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن (١٠/ ٣٠٢).

(٤) معرفة السنن والآثار للبيهقي (١/ ١٩٢).

ويقول ابن تيمية: قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦]، له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله[١]، ودلالة بمفهومه: فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مُستَحق بالإحسان؛ فهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بُعْد الرحمة من غير المحسنين؛ فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة»[٢].

وفي قوله تعالى في صفة الكفار: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾ [المدثر: ٤٨]، يقول الرازي: خصَّهم بذلك، فوجب أن يكون حال المسلم بخلافه بناء على مسألة دليل الخطاب»[٣].

تاسعًا- ملاحظة العلاقة بين العمل وجزائه:

إذا قرأت جزاءً فلاحظ العمل قبله، فإن الجزاء من جنس العمل. يقول الحسن -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: إن الناس أخفوا لله طاعة؛ فأخفى لهم ثوابًا ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧]، وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ٥٧﴾ [ص: ٥٧]، يقول: «الغسَّاق» عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى»[٤].

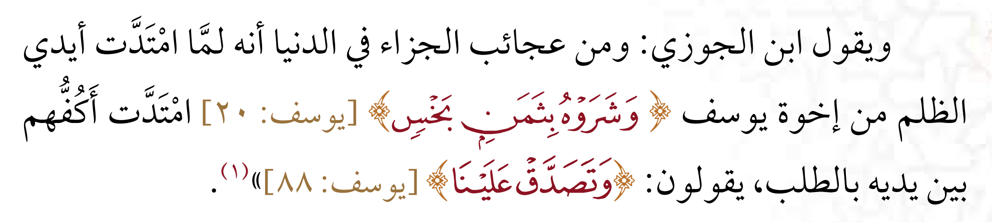
---

(١) دلالة الإيماء: أن يقترن اللفظ بوصف، لو لم يكن هو أو نظيره للتعليل لكان بعيدا، فيحمل على التعليل دفعا للاستبعاد. إرشاد الفحول للشوكاني (٢/ ١٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٧).

(٣) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (٣/ ٥٧)

(٤) الكشاف للزمخشري (٤/ ١٠٢)، وعن أبي هبيرة الزيادي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: أيّ شيء الغسَّاق؟ قالوا: الله أعلم، فقال عبد الله بن عمرو: هو القَيْح الغليظ، لو أن قطرة منه تُهَراقُ =



ويقول ابن الجوزي: ومن عجائب الجزاء في الدنيا أنه لمَّا امْتَدَّت أيدي الظلم من إخوة يوسف ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] امْتَدَّت أَكُفُّهم بين يديه بالطلب، يقولون: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾، يقول السعدي: فأولئك ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُبعِدهم ويَطردُهم عن قُرْبه ورحمته، ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فَجُوزوا من جنس عملهم، كما أن مُعَلِّم الناس الخير، يُصلِّي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فَجُوزِي من جنس عمله»[٢].

عاشرًا- ملاحظة شروط الوعد وأسباب الوعيد:

إذا قرأت وعدًا فلاحظ شرطه المُقترِن به، فقَلَّما كان الوعد إلا مشروطًا، وكذا الوعيد. يقول الغزالي: لا يُرَى ذكرُ المغفرة والرحمة إلا مقرونًا بشروط يَقْصُر العارف عن نَيْلها كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ﴾، ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقوله تعالى:

= في المغرب لأنتنت أهل المشرق، ولو تُهْرَاقُ في المشرق لأنتنت أهل المغرب. وقال ابن قتيبة: الغسّاق: ما يَسيل من جلود أهل النار وهو الصديد. يقال: غَسَقتْ عينُه؛ إذا سالتْ. جامع البيان للطبري (٢١/ ٢٢٧)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٨١).

(١) صيد الخاطر (١٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٧).

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر:١-٣]، ذكر أربعة شروط. وحيث اقتصر ذكر شرطًا جامعًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالإحسان يجمع الكُلَّ»[(١)].

وعن الوليد بن مسلم قال: أَضَاف بأبي شيخٌ من أهل الحجاز، فبات ليلته يردد هذه الآية ويبكي إلى الصباح «﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾[آل عمران: ١٣٣]» فلمَّا غدا إلى المسجد غَدَوتُ معه، فقلت له: يا عَمِّ، لقد أبكتك الليلة آيةٌ ما يُبكَى عند مثلها! إنها آية رحمة! فقال لي: يا ابن أخي، وما ينفعني أو يُغني عني عَرْضُها إن لم يكن لي فيها مَوضِعُ قَدَمٍ»[(٢)].

وعلى قدر الوفاء بالشَّرط يكون تحقُّق الوعد، فمن وَفَّى وَفَّى اللهُ له ومن نقص فلا يلومَنَّ إلا نفسه، قال ابن القيم: فمن كان عبدًا لله قائمًا بحقه في المكروه والمحبوب؛ فذلك الذي تناوله قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، فالكِفاية التامة مع العبودية التامة، والناقصة [مع الناقصة]، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه.»[(٣)]

وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨]، دفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكمالِه، ومادةُ الإيمان وقوتُه بذكر الله تعالى، فمن

(١) -الإحياء (١/ ٢٨٥).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٧/ ٢٣٦).

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٦) باختصار.



كان أكمل إيمانًا، وأكثر ذكرًا؛ كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكرًا بذكر ونسيانًا بنسيان.»[1]

وهذا مَبني على قاعدة مُفادُها: أن «الحكم المُعَلَّق على وصف يَقوَى بقوته، ويَنقُص بنقصه».[2]

وفي قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١٠] يقول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»[3].

الحادي عشر- ملاحظة فروق التعبير:

ما زال العلماء يستنبطون المعاني الدقيقة، واللطائف الخفية من ملاحظة الفروق اللغوية والأسلوبية بين كلمات القرآن وآياته، وقد تكون هذه الفروق بين ألفاظ القرآن أو بين تراكيبه، وقد تكون واضحة قريبة الفهم تُدرَك بأدنى تأمُّل، وقد تَدِق حتى لا يدركها إلا الماهر بأساليب العرب العالم بدقائق كلامها.

ويساعد القارئ على التَمرُّس بهذا الأسلوب إتقان علوم البلاغة العربية، ودراسة كتاب أو أكثر من كتب الفروق اللغوية.

فمن ذلك ما تراه من الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴿٧١﴾﴾، وقوله ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴿٧٣﴾﴾، قال ابن عطية

---

(١) المرجع السابق (ص: ٧٢).

(٢) قواعد التفسير جمعا ودراسة، د.خالد السبت (٢/ ٤٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٢٧١).



في الأولى: والكلام هنا يقضي أنَّ فتحها إنما يكون بعد مجيئهم، وفي وقوفهم قبل فتحها مَذَلَّة لهم، وهكذا هي حال السجون، ومواضع الثِّقاف والعذاب، بخلاف قوله في أهل الجنة ﴿وَفُتِحَتْ﴾، فالواو مُؤذِنة بأنهم يجدونها مفتوحة، كمنازل الأفراح». قال الزمخشري: بدليل قوله تعالى ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ﴾ [ص: ٥٠][1].

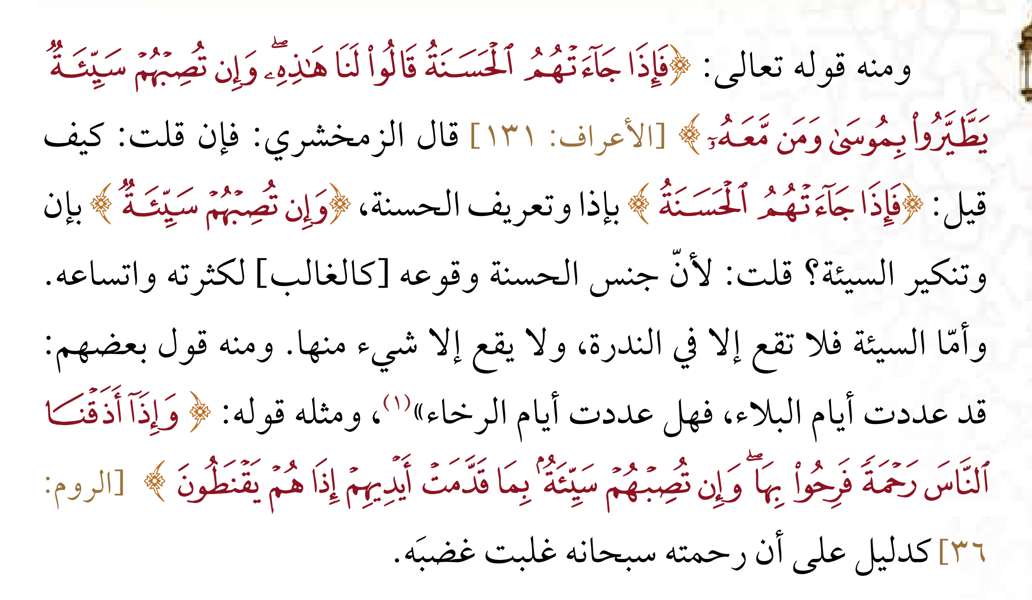
ومنها ما ذكره الفخر الرازي حيث قال: ما السبب في أنه لم يقل: (قل) ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾ [المسد: ١]؟ وقال في سورة الكافرون ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]؟ الجواب: من وجوه الأول: لأن قرابة العمومة تقتضي رعاية الحرمة، فلهذا السبب لم يقل له «قل ذلك» لئلا يكون مشافهًا لعمه بما يسوؤه، بخلاف السورة الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعمامًا له.

الثاني: أن الكفار في تلك السورة طعنوا في الله، فقال الله تعالى: يا محمد أجب عنهم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾. وفي هذه السورة طعنوا في محمد، فقال الله تعالى: اسكت أنت فإني أجيبهم ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾.

الثالث: لما شتموك فاسكت؛ حتى تندرج تحت هذه الآية ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ⑥٣﴾ [الفرقان: ٦٣] وإذا سكتَّ أنت، أكون أنا المجيب عنك، واعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى على أن من لا يُشافِهِ السفيه كان الله ذابًا عنه وناصرًا له ومعينًا»[2].

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٦١٠)، والكشاف (٤/ ١٥٠).

(٢) التفسير الكبير (٣٢/ ١٥٥) باختصار وتصرف.



ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: ١٣١] قال الزمخشري: فإن قلت: كيف قيل: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ بإذا وتعريف الحسنة، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ بإن وتنكير السيئة؟ قلت: لأنّ جنس الحسنة وقوعه [كالغالب] لكثرته واتساعه. وأمّا السيئة فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا شيء منها. ومنه قول بعضهم: قد عددت أيام البلاء، فهل عددت أيام الرخاء»[١]، ومثله قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] كدليل على أن رحمته سبحانه غلبت غضبَه.

۞ الثاني عشر- ملاحظة الإشارة[٢]:

والمعنى الإشاري إنما يُقبَل بشرائط ذكر منها ابن القيم أربعة هي: أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحًا في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم؛ فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا»[٣].

والأصل فيه ما ورد عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا في سورة النصر حيث قال: «هو أَجَلُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أَعْلَمَه اللهُ له». وأقره عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قائلًا: ما أعلم منها إلا ما تعْلَم.

(١) الكشاف (٢/ ١٤٤) بتصرف يسير، وانظر: نظم الدرر (١٥/ ٩٥).

(٢) التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا. وقد اختلف العلماء في جوازه، فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه. انظر: مناهل العرفان للزرقاني (٢/ ٧٨)، و التفسير والمفسرون (٢/ ٢٦١).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٩)، وانظر كلام الشاطبي في الموافقات (٤/ ٢٣٢) وما بعدها.



قال ابن حجر: «وفيه جواز تأويل القرآن بما يُفْهَم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمُه في العلم، ولهذا قال علي -رضي الله تعالى عنه-: أوْ فَهْمًا يؤتيه اللهُ رجلًا في القرآن»[(١)].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة: ٧٩]، حيث قال فيه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يُدرِك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوِّث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي، ولا يجد طعمه ويَلْتَذ بقراءته وفهمه وتدبره إلا من آمن به، ولم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه، فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج، ومن قال إن له باطنًا يخالف ظاهرَه ففي قلبه منه حرج، ومن لم يُحكِّمه ظاهرًا وباطنًا في أصول الدين وفروعه ففي قلبه منه حرج، ومن لم يأْتمِر بأوامره، ويَنزَجِر عن زواجره، ويصدِّق جميع أخباره ففي قلبه منه حرج. وكل هؤلاء لا تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يُفْهَم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم، وأنت إذا تأملت قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ وأعطيت الآية حقها ... فهمت هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق»[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا ١١﴾ [النساء: ١١] قال الفخر: وفي الآية إشارة إلى الانقياد إلى الشرع وترك ما يَميل إليه الطبع»[(٣)].

(١) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٧٣٦).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤٣) باختصار.

(٣) التفسير الكبير (٩/ ٥١٩) وانظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي (١/ ٣٥٤).

وفي قوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، قال الآلوسي: وفي الآية إشارة إلى أن التَلَذُّذَ والتَنَعُّمَ وعدم الاستعداد للآخرة والتأهب لها؛ ليس من أخلاق مَن يطلب النجاة، وجاء عن الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل... وعن علي -كرم الله تعالى وجهه-: إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل، واتباع الهوى، فإن طولَ الأمل يُنْسِي الآخرةَ، واتباعَ الهوى يَصُدُّ عن الحق»[(١)].

وفي قوله تعالى ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [فصلت: ٣٣]، قال الآلوسي: وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون عاملًا عملًا صالحًا ليكون الناس إلى قبول دعائه أقرب، وإليه أسكن»[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]، يقول ابن عاشور: وفي الآية إشارة إلى أن المرء الكامل لا يثق إلا بالله؛ لأن التوكل على الأحياء المُعَرَّضين للموت وإن كان قد يفيد أحيانا لكنه لا يدوم»[(٣)].

الثالث عشر- تنزيل الآيات على الواقع :

على من أراد أن ينتفع بالقرآن أن يُديم تنزيل آياته على واقعه الذي يحياه، وسبيلُه أن يَعرِض نفسَه وواقعَه على كتاب الله تعالى، وأن يطلب شاهدًا من القرآن في كل موقف يمر به في ليله ونهاره.

(١) روح المعاني (٧/ ٢٥٧).

(٢) المرجع السابق (١٢/ ٣٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٩).

وإنما يُحرَم كثير من الخلق فهم القرآن والانتفاع به حين يظنون أن آيات القرآن نزلت لواقع غير واقعهم، ولقوم غير قومهم، ولأناس غير أنفسهم، فإذا ذُكِر الظالمون: فَهُم فرعون وهامان وقارون، وإذا ذُكِر المتقون: فَهُم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وإذا ذُكِر أهلُ الجنة: فَهُم العشرة المبشرون، وإذا ذُكِر أهلُ النار: فَهُم الكفرة المشركون!! فكيف ينتفع بالقرآن مَن لا يرى لنفسه فيه ذِكْرًا، ولا لحاله فيه حُكْمًا، ولا لدائه فيه دواءً؟

يقول ابن القيم: «أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ بِدُخُولِ الْوَاقِعِ تَحْتَهُ -يعني القرآن-، وَتَضَمُّنِهِ لَهُ، وَيَظُنُّونَهُ فِي نَوْعٍ وَفِي قَوْمٍ قَدْ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يُعْقِبُوا وَارِثًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ.

وَلَعَمْرُ اللهِ إِنْ كَانَ أُولَئِكَ قَدْ خَلَوْا، فَقَدْ وَرِثَهُمْ مَنْ هُوَ مِثْلُهُمْ، أَوْ شَرٌّ مِنْهُمْ، أَوْ دُونَهُمْ، وَتَنَاوُلُ الْقُرْآنِ لَهُمْ كَتَنَاوُلِهِ لِأُولَئِكَ»[١].

إن القرآن رفيق الحياة ودليلها، لا ينتفع به إلا من عاش به ومات عليه، عن عامر بن مطر قال: قال لي حذيفة: كيف أنت يا عامر بن مطر: إذا أخذ الناسُ طريقًا والقرآنُ طريقًا، مع أَيِّهِمَا تكون؟ قال عامر: فقلت له مع القرآن، أحيا مع القرآن وأموت! قال: فأنت أنت إذا!»[٢]، قال ابن حزم: اللهم إني أقول كما قال عامر: أكون والله مع القرآن، أحيا مُتَمَسِّكًا به، وأموت إن شاء الله مُتَمَسِّكًا به، ولا أُبالي بمن سلك غير طريق القرآن، ولو أنهم جميع أهل الأرض غيري»[٣].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة:٧/ ٤٨٥، (٣٧٤٢٦).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٤/ ١٨٦).



وهذا الأسلوب يحتاج إلى أن يكون الإنسان حافظًا مُتقِنًا لكتاب الله تعالى، مُمتلِكًا مع ذلك مهارة استحضار الآيات في كل موقف وحادث يمر به في حياته اليومية، فإن لم يتيسر له الحفظ كان عليه أن يُدمِن القراءة باحثًا مُنقِّبًا عن الآيات التي تعالج مشاكله، وتداوي أمراض نفسه ومجتمعه.

وقد يحتاج الحافظ المتقن إلى مثل هذه المراجعة والتلاوة؛ إذا لم تسعفه مَلَكَةُ الاستحضار في استدعاء الآية التي يريد.

بينما الشافعي في مجلسه إِذْ جَاءَ شَيْخٌ عَلَيْهِ ثِيَابُ صُوفٍ، وَفِي يَدِهِ عُكَّازَةٌ، فَقَامَ الشَّافِعِيُّ وَسَوَّى عَلَيْهِ ثِيَابَه، وَسَلَّمَ الشَّيْخُ، وَجَلَسَ، وَأَخَذَ الشَّافِعِيُّ يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْخِ هَيْبَةً لَهُ إِذْ قَالَ الشَّيْخُ: أَسْأَلُ؟ قَالَ: سَلْ قَالَ: مَا الحُجَّةُ فِي دِيْنِ اللهِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللهِ. قَالَ: وَمَاذَا؟ قَالَ: سُنَّةُ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَمَاذَا؟ قَالَ: اتِّفَاقُ الأُمَّةِ. قَالَ: مِنْ أَيْنَ قُلْتَ: اتِّفَاقُ الأُمَّةِ؟ فَتَدَبَّرَ الشَّافِعِيُّ سَاعَةً، فَقَالَ الشَّيْخُ: قَدْ أَجَّلْتُكَ ثَلاَثًا فَإِنْ جِئْتَ بِحُجَّةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَإِلاَّ تُبْ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَتَغَيَّرَ لَوْنُ الشَّافِعِيِّ، ثُمَّ إِنَّهُ ذَهَبَ فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى اليَوْمِ الثَّالِثِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ، وَقَدِ انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَيَدَاهُ وَرِجلاَهُ، وهو مِسْقَامٌ![1] فجلس، فلم يكن بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ جَاءَ الشَّيْخُ فَسَلَّمَ وَجَلَسَ، فَقَالَ: حَاجَتِي فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: نَعَمْ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْم قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] قَالَ: فَلاَ يُصْلِيهِ عَلَى خِلاَفِ المُؤْمِنِيْنَ إِلَّا وَهُوَ فَرْضٌ.

(١) المِسقام: السقيم، وَقيل: هُوَ الْكثير السقم. انظر: المحكم لابن سيده (٦/ ٢٥١).



فَقَالَ: صَدَقْتَ وَقَامَ فَذَهَبَ. فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: قَرَأْتُ القُرْآنَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيلَةٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ»[١].

هذا؛ وليكن المرء على يقين من أن وقائع الحياة مهما كثرت وتنوعَّت فلن يَعْدَم المتفطِّن لها في كتاب الله حكمًا نافعًا، وبيانًا شافيًا، إجمالًا كان هذا البيان أو تفصيلًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل ما أَشْكَل على النُّظَّار، واختلف فيه الخلائق، في النظريات والمعقولات؛ ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدَرْكِها»[٢].

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا أحد من العلماء لجأ إلى القرآن في مسألة إلا وجد لها فيه أصلًا، وأقرب الطوائف من إعْواز المسائل النازلة أهلُ الظواهر الذين يُنكِرون القياس، ولم يثبت عنهم أنهم عجزوا عن الدليل في مسألة من المسائل»[٣].

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهذا ابن حزم الظاهري رجل أبطل القياس والرأي والاستحسان[٤] وضيَّق مفهوم الإجماع، ولم يعجَز عن دليل؛ بل كان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل أبواب الفقه ليس منها باب إلا وله أصل في الكتاب والسنة نعلمه،

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/ ٣٦٣) باختصار يسير.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٩).

(٣) الموافقات في أصول الشريعة (٣/ ٣٧١).

(٤) راجع: «ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل» لابن حزم.



والحمد لله..»[١]. بل ربما كان لمذهبه الظاهري أثر في دَفْعِه دفعًا إلى إثارة النصوص الشرعية واستثمارها أفضل استثمار، وقد قال بعضهم: من اتَّسع علمه بالنصوص قَلَّت حاجته إلى القياس، كالواجد ماءً لا يجزئه التيمم، وإنما يحتاج إليه في القليل»[٢].

والمقصود أن من أراد الانتفاع بالقرآن فَلْيَصِلْ ما بين واقعه وبين القرآن، ويجعله ميزانًا يَزِن به أمرَه، وفرقانًا يُفَرِّق به بين حقه وباطله، ودواءً يداوي به داءَه.

ومن أمثلة ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ [الشعراء: ١٣٠] يقول القرطبي: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة، لاسيما بالديار المصرية منذ وَلِيَتْها البحرية[٣]، فيبطشون بالناس بالسَّوط والعصا في غير حق، وقد أخبر ﷺ أن ذلك يكون. كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:« صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس...»[٤].

---

(١) مراتب الإجماع لابن حزم (ص: ٩١).

(٢) المسودة في أصول الفقه (ص: ٥٢٠).

(٣) البحرية جماعة من المماليك الترك اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيّوب وجعلهم بطانته ومعظم عسكره، ثم انقلبوا على ولده من بعده فقتلوه، واستولوا على حكم مصر، انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٦/ ٣٣١).

(٤) -الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ١٢٤)، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات، (٣/ ١٦٨٠)، (٢١٢٨).

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، يقول الغزالي: وكذلك من كسر غُصنًا من شجرة، من غير حاجة ناجزة مهمة، ومن غير غرض صحيح، فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد: أما اليد فإنها لم تخلق للعبث؛ بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة. وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نُشُوّه فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده؛ مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل»[١].

ويقول ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المُحكَم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكز خان[٢]، الذي وضع لهم «الياسق»، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بَنِيه شرعًا مُتَّبَعًا، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٩٤).

(٢) جَنكِز خان ملك التتار وسلطانهم الأول الذي خرب البلاد، وأفنى العباد، واستولى على الممالك وليس للتتار ذكر قبله، إنما كانت طوائف المغول بادية بأراضي الصين، فقدموه عليهم، وأطاعوه في كل شيء، مات في رمضان، سنة أربع وعشرين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٤٣).



ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير»[1].

۞ الرابع عشر- التماس الحكمة الإلهية في كل أمر ونهي وقضاء وقدر:

فقد وصف الله كتابه بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١]، وجعل من أسمائه الحسنى أنه سبحانه ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢﴾ [البقرة: ٣٢]، وهو ما يعني أنه تعالى «ما خلق شيئًا إلا لحكمة، ولا شرع شيئًا إلا لحكمة، وحُكمه القدري والشرعي والجزائي مُشتَمِل على الحكمة»[2]. وكذا ما أخبر الله من خبر، ولا قصَّ علينا من قصة إلا وفي ضمنها حكمة عالية، وعبرة بالغة، عَلِمَها مَن عَلِمَها، وجَهِلَها مَن جَهِلَها.

وقد توجد هذه الحكمة منصوصة في الآية أو في غيرها، من قرآن أو سنة، وقد تُستنبَط من مجموعة نصوص، وقد تُفهَم من السياق، وقد تكون حكمة عقلية تُفهَم بممارسة الحياة، وإدراك واقع البشر.

وطلب هذه الحِكَم -دون مغالاة أو تكلف- أمر محمود؛ فإن لمعرفة حكمة الله في قضائه وقدره وتشريعه آثارًا لا تُنكَر في اطمئنان القلوب إلى عدل الله ورحمته، وفي إزالة شبهة تعرض للنفس، وفي المسارعة إلى الامتثال عند الأمر، وفي الرضا بالقضاء عند نزوله...إلخ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٣١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٧٧١).



لكن ينبغي التنبيه إلى أن هذه الحكمة ليست منصوصة في كل شيء، ولا هي واضحة لكل أحد، وقد يُخطِئ العالم في تعيينها، وقد يخفيها الله اختبارًا لتسليم العباد، والحكم الإلهي واجب الطاعة في كل حين، وعلى كل حال ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

أمثلة:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ قال ابن العربي: والحكمة في ذلك أن الأهل أعرف بأحوال الزوجين، وأقرب إلى أن يرجع الزوجان إليهما»[١].
قلت: وأحرص على الإصلاح، وأبعد من التهمة، وأستر لأسرار الزوجين.

وفي قصة بقرة بني إسرائيل يقول أبو البركات النسفي: والحكمة في ذبح البقرة وضربه ببعضها -وإن قدر على إحيائه بلا واسطة - الإشعارُ بحسن تقديم القربة على الطلب، والتعليم لعباده ترك التشديد في الأمور، والمسارعة إلى امتثال أوامر الله من غير تفتيش وتكثير سؤال، وغير ذلك. وقيل: إنما أمروا بذبح البقرة دون غيرها من البهائم؛ لأنها أفضل قرابينهم، ولعبادتهم العجل، فأراد الله تعالى أن يهون معبودهم عندهم»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [البقرة: ٦] قال نجم الدين النيسابوري: والحكمة في الإنذار

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٤٢)
(٢) مدارك التنزيل (١/ ١٠٠)



مع العلم بالإصرار إقامةُ الحجة، وليكون الإرسـال عاما، وليثاب الرسول»[١] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] قال الإمام فخر الدين: والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان أنَّ من حلف في كل قليل وكثير بالله؛ انطلق لسانه بذلك، ولا يبقى لليمين في قلبه وقع، فلا يُؤمَن إقدامه على اليمين الكاذبة، فَيَخْتَلُّ ما هو الغرض الأصلي في اليمين، وأيضا كلما كان الإنسان أكثر تعظيمًا لله تعالى كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أَجَلَّ وأعلى عنده من أن يَسْتَشْهِدَ به في غرض من الأغراض الدنيوية»[٢].

وفي قوله تعالى في شأن جلد الزانية والزاني: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: ٢]، قال القشيري: أي ليكون عليهم أشدَّ، وليكون تخويفًا لمُتعَاطي ذلك الفعل، ثم من حقِّ الذين يشهدون ذلك الموضع أن يتذكروا عظيم نعمة الله عليهم أنهم لم يفعلوا مثله، وكيف عصمهم من ذلك. وإن جرى منهم شيء من ذلك يذكروا عظيم نعمة الله عليهم كيف ستر عليهم ولم يفضحهم، ولم يُقِمْهم في الموضع الذي أقام فيه هذا المُبتَلى به.»[٣]، وزاد الرازي: ولِمَا فيه من رفع التهمة عمن يَجلِد، وقيل: أراد بالطائفة

---

(١) إيجاز البيان عن معاني القرآن (١/ ٦٦).

(٢) التفسير الكبير (٦/ ٤٢٥)، وكلامه محمول على أن معنى الآية: لا تكثروا الحلف بالله، وهو اختياره، وأكثر المفسرين على أن المعنى: لا تجعلوا الله علَّةً مانعةً لكم من البر والتقوى، وأنها نزلت في الرجل يحلف بالله تعالى لا يصل رحمه، ولا يكلم قرابته، ونحو ذلك. انظر: الكشف والبيان للثعلبي (٢/ ١٦٤)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/ ٩٧).

(٣) لطائف الإشارات (٢/ ٥٩٤).



الشهود؛ لأنه يجب حضورهم ليُعلمَ بقاؤهم على الشهادة. قال: ونبَّه تعالى بقوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، على أن الذين يشهدون يجب أن يكونوا بهذا الوصف، لأنهم إذا كانوا كذلك عظُم موقع حضورهم في الزجر، وعظُم موقع إخبارهم عما شاهدوا، فيخاف المجلود من حضورهم الشهرة، فيكون ذلك أقوى في الانزجار، والله أعلم»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، يقول الإمام فخر الدين: ذَكَرَ قصة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وكيفية أحواله، والحكمة فيه أن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، [فالمشركون][2] كانوا معترفين بفضله مُتَشَرِّفين بأنهم من أولاده، ومن ساكني حرمه، وخادمي بيته، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضًا مُقِرِّين بفضله مُتَشَرِّفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أمورًا تُوجِب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبولَ قولِ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه...»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ [طه: ٤٢، ٤٣]، يقول الإمام: المعنى لا تَنِيَا؛ بل اتخذا ذكري آلة لتحصيل المقاصد، واعتقدا أنَّ أمرًا من الأمور لا يتمشَّى لأحد إلا بذكري، والحكمة فيه أن مَن ذكرَ جلالَ الله استحقر غيره فلا يخاف أحدًا،

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٣١٧).

(٢) في الأصل «فالمشركين» وهو لحن لا يخفى.

(٣) التفسير الكبير (٤/ ٣٠).



ولأن مَن ذكرَ جلالَ الله تقوَى روحُه بذلك الذكر، فلا يضعُف في المقصود، ولأن ذاكر الله تعالى لابد وأن يكون ذاكرًا لإحسانه، وذاكر إحسانه لا يفتُر في أداء أوامره»[1].

ومن أراد توسعًا في فهم حكمة القرآن فعليه بالإمام فخر الدين، فهو فارس ذلك الميدان، والناس فيه رجال[2]. وفي كتب مقاصد الشريعة ومحاسنها من ذلك شيء كثير.

الخامس عشر- التساؤل:

ينبغي للمتدبر أن يثير التساؤلات التي تفتح له أبواب الفهم في القرآن، وتفُكَّ له مغاليقه، وعليه أن يعلم أننا لا نهدف بهذه الأسئلة إلى محاكمة القرآن، حاشا لله ولكتابه، بل نسعى بها إلى تحريك العقول نحو التماس معانيه وفهم إشاراته، وأسئلتنا هي أسئلة جاهل يتعلم لا عالم يحاكم، وقد نطلب الفهم ولا نعطى؛ فلا يبقى إلا مواصلة البحث مع الباحثين، أو تسليم كتسليم الراسخين، قائلين ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]، موقنين أن الناس ﴿لَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقد أكثر المفسرون من أسلوب السؤال والجواب، مستعملين إياه في إثارة مكنونات القرآن، والتماس غرائب معانيه، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، نرى الرازي يطرح أسئلة منها: لماذا كان العلم

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ٥٢).

(٢) «رجال» جمع «راجل»، وهو الماشي على رجليه. وانظر في بيان حكمة القرآن عند الفخر: التفسير الكبير (١/ ٩٥)، (٦/ ٣٩٦)، (٦/ ٤٨٣)، (٧/ ١٥٧)، (٩/ ٥٣٠)، (١٠/ ٤٩)، (١٢/ ٤٨٧)، (١٥/ ٤٨٨)، (١٦/ ٧٧) وغيرها.

سببًا في الخشية؟ وما العلم الذي ينتج هذه الخشية؟ ثم يقول -أحسن الله إليه-: أما بيان أن العالم بالله يجب أن يخشاه؛ فذلك لأن من لم يكن عالمًا بالشيء استحال أن يكون خائفًا منه، ثم إنَّ العلم بالذات لا يكفي في الخوف، بل لا بد له من العلم بأمور ثلاثة، منها:

العلم بالقدرة، لأن الملك عالم باطلاع رعيته على أفعاله القبيحة، لكنه لا يخافهم لعلمه بأنهم لا يقدرون على دفعها.

ومنها: العلم بكونه عالمًا، لأن السارق من مال السلطان يعلم بقدرته، ولكنه يعلم أنه غير عالم بسرقته فلا يخافه.

ومنها العلم بكونه حكيمًا، فإن المُسخَّر عند السلطان عالم بكون السلطان قادرًا على منعه، عالمًا بقبائح أفعاله؛ لكنه يعلم أنه قد يرضى بما لا ينبغي فلا يحصل الخوف، أما لو علم اطلاع السلطان على قبائح أفعاله، وعلم قدرته على منعه، وعلم أنه حكيم لا يرضى بسفاهته، صارت هذه العلوم الثلاثة موجبة لحصول الخوف في قلبه.

فثبت أن خوف العبد من الله لا يحصل إلا إذا علم بكونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات، قادرًا على كل المقدورات، غير راضٍ بالمنكرات والمحرمات. فثبت أن الخوف من لوازم العلم بالله»[1].

وقد يكون السؤال بكيف، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، يتبادر إلى الذهن سؤال هو: كيف تزيدهم آيات القرآن إيمانًا؟ وقد أجاب العلماء بأجوبة منها:

---

(١) التفسير الكبير (٢/ ٤٠٦)



١- أنَّ الآيات تتضمن من الدلائل ما يزيد الإيمان، وبكثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين.

٢- أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ويُقِرُّون به، فكلما سمعوا آية جديدة أتَوا بإقرار جديد، فكان ذلك زيادة في الإيمان والتصديق.

٣- أو يزيد بالعمل بموجبها، وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، بناء على أن العمل داخل فيه[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩]، قال المرتضى: فإن سأل سائل، كيف يصح أن يسأل من لا ذنب له ولا عقل، فأي فائدة في سؤالها عن ذلك، وما وجه الحكمة فيه؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد أنَّ قاتلها طولب بالحجة في قتلها، وسئل عن قتله لها بأي ذنب كان، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجة. فالقتلة هاهنا هم المسؤولون على الحقيقة، لا المقتولة، وإنما المقتولة مسؤول عنها. ويجري هذا مجرى قولهم (سألت حقي)، أي طالبت به. ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤]، أي مطالبًا به مسؤولا عنه.

والوجه الآخر: أن يكون السؤال توجه إليها على الحقيقة، على سبيل التوبيخ له، والتقريع له، والتنبيه له، على أنه لا حجة له في قتلها. ويجري هذا

(١) انظر: جامع البيان للطبري (١٤/ ٥٧٧)، والتفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٤٤٤)، والتفسير الكبير للرازي (١٥/ ٤٥١)، وأنوار التنزيل للبيضاوي (٣/ ٤٩).

مجرى قوله تعالى لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ، على طريق التوبيخ لقومه، وإقامة الحجة عليهم»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]، قال الثعلبي: فإن قيل: ما وجه قوله ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهم كفّار لم يكونوا في نور قط؟

ثم أجاب هو وغيره بأجوبة منها:

١- أن الآية في اليهود كانوا مؤمنين بمحمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يبعث، فلما بعث كفروا به، وجحدوا ما وجدوه في كتبهم من نعته وصفته ونبوّته، بيانه قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾[البقرة: ٨٩]، قاله مقاتل وقتادة.

٢- أنها نزلت في قوم مُرْتَدِّين، قاله مجاهد.

٣- أنها في جميع الكفّار. والمعنى أنهم لما كانوا مُتَمَكِّنين من الإسلام ثم عُدلوا وصُرفوا عنه؛ فكأنهم أخرجوا منه، وهو كقول القائل: أخرجني أبي من ميراثه، وهو لم يدخل فيه، وكقوله تعالى إخبارًا عن يوسف: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]، ولم يكن أبدًا على دينهم حتّى تركه، وكقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]، ولم يكن فيه قط.

٤- أنهم كانوا على الفطرة عند أخذ الميثاق عليهم، فلما حَمَلُوهم على الكفر أخرجوهم من نور فطرتهم[٢].

(١) محاسن التأويل (٩/ ٤١٣).

(٢) انظر: الكشف والبيان (٢/ ٢٣٨)، والنكت والعيون (١/ ٣٢٩)، والنكت في معاني القرآن وإعرابه للمجاشعي (ص: ١٦٧)، وتفسير السمعاني (١/ ٢٦١)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٤٤).



السادس عشر- ملاحظة أساليب القرآن التربوية والاقتداء بها:

وهذا الأسلوب أشار إليه الشاطبي حين قال: «فإن من علوم القرآن قسمًا هو مأخوذ من عادة الله تعالى في إنزاله، وخطاب الخلق به، قبل النظر إلى ما حواه من المعارف والخيرات، ويشتمل على أنواع من القواعد الأصلية، والفوائد الفرعية، والمحاسن الأدبية؛ فلنذكر منها أمثلة يستعان بها في فهم المراد:

منها: ترك الأخذ من أول مرة بالذنب، والحِلم عن تعجيل المعاندين بالعذاب، وإن استعجلوا بالعذاب.

ومنها: تحسين العبارة بالكناية ونحوها في المواطن التي يحتاج فيها إلى ذكر ما يُستحيا من ذكره في عادتنا؛ كقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣، والمائدة: ٦].

ومنها: التأني في الأمور، والجري على مجرى التثبت، والأخذ بالاحتياط، وهو المعهود في حقنا؛ فلقد أنزل القرآن على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ نجوما في عشرين سنة؛ حتى قال الكفار: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: ٣٢]، فقال الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ومنها: كيفية تأدُّب العباد إذا قصدوا باب ربِّ الأرباب بالتضرع والدعاء؛ فقد بيَّنَ مَسَاقُ القرآن آدابًا اسْتُقْرِئَتْ منه، وإن لم يَنُصَّ عليها بالعبارة؛ فقد

أغنت إشارة التقرير عن التصريح بالتعبير، فأنت ترى أن نداء الله للعباد لم يأت في القرآن في الغالب إلا ب«يا» المشيرة إلى بُعد المنادِي؛ لأن صاحب النداء مُنَزَّه عن مُدَانَاةِ العباد، موصوف بالتعالي عنهم والاستغناء، فإذا قرر نداء العباد للرب أتى بأمور تستدعي قرب الإجابة:

ومنها: إسقاط حرف النداء المشير إلى قُرْبِ الْمُنَادَى، وأنه حاضر مع المُنادِي، غير غافل عنه؛ فدلَّ على استشعار الراغب هذا المعنى؛ إذ لم يأتِ في الغالب إلا «ربنا» «ربنا»، كقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ومنها: كثرة مجيء النداء باسم الرب المقتضي للقيام بأمور العباد وإصلاحها.

ومنها: تقديم الوسيلة بين يدي الطلب؛ كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ الآية [الفاتحة: ٥-٦]، وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران: ١٦]»[(١)].

وعند الحديث عن معاتبة القرآن رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول القاضي عياض: «يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْمُجَاهِدِ نَفْسَهُ، الرَّائِضِ بِزِمَامِ الشريعة خُلُقَهُ، أن يتأدب بآداب الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَمُعَاطَاتِهِ وَمُحَاوَرَاتِهِ، فَهُوَ عُنْصُرُ الْمَعَارِفِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَرَوْضَةُ الْآدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَلْيَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْمُلَاطَفَةَ الْعَجِيبَةَ فِي السُّؤَالِ مِنْ رَبِّ الْأَرْبَابِ الْمُنْعِمِ عَلَى الْكُلِّ، الْمُسْتَغْنِي عَنِ الجميع، ويستثْر مَا فِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ، وَكَيْفَ ابْتَدَأَ بِالْإِكْرَامِ قَبْلَ الْعَتْبِ، وَآنَسَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ ذِكْرِ

(١) الموافقات (٤/ ٢٠٢)



الذَّنْبِ- إِنْ كَانَ ثَمَّ ذَنْبٌ- .وقال تعالى ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: ٧٤]"[1] .

ومن أدب القرآن الذي يُقتَدى به ما ورد في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٧]، قال أبو السعود: «والعدولُ عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جَرَى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعمِ والخيرِ إليه عَزَّوَجَلَّ دون أضدادها، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: ١٠]»[2].

قال الآلوسي: نَعَم، الأدبُ من خير رأس مال المؤمن، فلا ينبغي أن يُنسَب إليه سبحانه إلا الأفضل فالأفضل، كما قال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠][3].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾ [الروم: ٣٦]، وقول الخضر في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وفي الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢][4].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ١٣١).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ١٩).

(٣) روح المعاني (١/ ١٢٠).

(٤) تفسير لقرآن العظيم لابن كثير (٦/ ١٤٦).

السابع عشر- التماس فرائد القرآن[1]:

ونعني بفرائد القرآن تلك الآيات المتميزة التي حازت فضلًا خاصًّا، ومنزلة فريدة بين آيات القرآن الكريم. وقد نقلت لنا الأحاديث والآثار عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن الصحابة والتابعين عنايتهم بالبحث والتنقير عن فرائد آيات القرآن الكريم التي تمثل زُبدة حكمته العالية، وخلاصة علومه السامية، فكان أن تحدثوا عن مِثل: أعظم آية في القرآن، وأحكم آية، وأجمع آيةٍ لخيرٍ وشرٍ، وأرجى آية، وأشد آية، وأخوف آية وأعدل آية، وهَلُمَّ جَرًّا.

وتَبِعَهم عدد من علماء القرآن؛ فأفردوا لهذا البحث الطريف جانبًا من كتبهم المؤلَّفة في علوم القرآن، فعل ذلك الغزالي في «جواهر القرآن ودرره»، وعلم الدين السخاوي في «جمال القراء»، والزركشي في «البرهان»، والسيوطي في «معترك الأقران والإتقان»[2]. وتناثر الحديث عن هذا الموضوع في بطون كتب التفسير، والأصل في ذلك ما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، «أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

---

(١) هذه تسميتي، وقد سماها السيوطي «مفردات القرآن»، وقد كُتِبتْ في هذا الموضوع أبحاثٌ مختصرة عن أحكم آية وأعظم آية، وكاتب هذه السطور بصدد الانتهاء من بحث جامع ينظم شتات هذه الفرائد بإذن الله تعالى.

(٢) انظر: جواهر القرآن (ص: ٦٢) وما بعدها، وجمال القراء وكمال الإقراء (ص: ١٤٧) وما بعدها، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٤٤٦) وما بعدها، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٥٧) وما بعدها، والإتقان في علوم القرآن (٤/ ١٤٨) وما بعدها.



قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»[(١)]. فتكرار السؤال من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دليل على الأمر بالتماس مثل هذه الآيات وإعمال الذهن في البحث عنها.

وعن الشعبي قال: لقي عمر بن الخطاب رَكْبًا في سفر، فيهم ابن مسعود فأمر رجلًا يناديهم: من أين القوم؟ قالوا: أقبلنا من الفج العميق نريد البيت العتيق، فقال عمر: إن فيهم لعالِمًا، وأمر رجلًا أن يناديهم: أيُّ القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال نادِهِم: أيُّ القرآن أحكم؟ فقال ابن مسعود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، قال نادِهِم: أيُّ القرآن أجمع؟ فقال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فقال نادِهِم: أيُّ القرآن أحزن؟ فقال: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فقال نادِهِم: أيُّ القرآن أرْجَى؟ فقال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ ۝٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]، فقال: أَفيكُم ابنُ مسعود؟ قالوا: نعم»[(٢)].

....

(١) صحيح مسلم:كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف، وآية الكرسي (١/ ٥٥٦)، (٨١٠).

(٢) الطيوريات لأبي طاهر السلفي (١/ ٢٤٧).



المبحث الثالث
أخطاء منهجية في عملية التدبر

هذا مبحث قصير يتعلق بالأخطاء المنهجية في عملية التدبر القرآني، لم أطِل الكلام فيه؛ بل جعلته كعلامات تحذيرية على الطريق.

أولًا: الاكتفاء بالتفكر عن التعلم إعجابا بالعقل:

فإن التفكر في الآيات لا يصح أن يكون إلا بعد العلم بمعانيها، قال الطبري: «لِأَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَا يَفْهَمْ مَا يُقَالُ لَهُ وَلَا يَعْقِلُ تَأْوِيلَهُ: اعْتَبِرْ بِمَا لَا فَهْمَ لَكَ بِهِ، وَلَا مَعْرِفَةَ مِنَ الْقِيلِ وَالْبَيَانِ إِلَّا عَلَى مَعْنَى الْأَمْرِ بِأَنْ يَفْهَمَهُ وَيَفْقَهَهُ، ثُمَّ يَتَدَبَّرَهُ وَيَعْتَبِرَ بِهِ. فَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ، فَمُسْتَحِيلٌ أَمْرُهُ بِتَدَبُّرِهِ، وَهُوَ بِمَعْنَاهُ جَاهِلٌ»[1].

وقال الغزالي: «النقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولًا؛ ليَتَّقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتَّسع التفهُّم والاستنباط، ومن ادَّعى فهم أسرار القرآن ولم يُحكِّم التفسير الظاهر، فهو كمن يدَّعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب»[2].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، إشارة إلى وجوب الجمع بين التعلم والتفكر؛ فقد دلَّت الآية على أن في القرآن

(١) جامع البيان (١/ ٨٢).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٩١).



ما يحتاج إلى البيان التوقيفي، وفيه ما يحتاج إلى التفكر العقلي، فمن استخدم العقل فيما سبيله التوقيف؛ فقد أفرط في الثقة به، ومن اكتفى بالتوقيف دون إعمال عقله بالتفكير؛ فقد فرَّط وقصَّر فيما أمر به، والانتفاع بالقرآن يحتاج إلى البيان النبوي مع التفكير العقلي.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة»[(١)].

۞ ثانيا: الاكتفاء بالتعلم عن التفكر وقوفا عند حدِّ النقل:

وهذا قد يكون تورعًا من الشخص، أو كسلًا، أو استصغارًا لنفسه، أو ظنًا منه أن المنقول قد أتى على معاني القرآن جملةً ولم يترك للنظر بقية، وتلك أعذار واهية، وظنون فاسدة، إذ كانت أدلة وجوب التدبر كلها لازمة للخلف لزومها للسلف بلا فرق، وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لقد نزلَتْ عليَّ الليلةَ آيةٌ، ويلٌ لِمَن قرأها ولم يتفكَّرْ فيها** ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»[(٢)]، فعموم هذا الوعيد شامل لكل قارئ لا يتدبر، مِن سلفٍ وخلف.

يقول الماوردي: امتنع بعض المُتَوَرِّعَةِ ممن قَلَّت في العلم طبقتُه، وضعُفت فيه خبرتُه، أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده، عند وضوح شواهده، إلا أن يَرِدَ بها نَقْلٌ صحيح، ويدُلَّ عليها نصٌ صريح، وهذا عُدول عمَّا تعبَّد

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٣).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: الرقائق، باب: التوبة، رقم (٦٢٠)، (٢/ ٣٨٦)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

الله تعالى به خَلْقَه في خطابهم بلسان عربي مبين، أبَان عن مُراده، وقطع أعذار عباده، وجعل لهم سُبلًا إلى استنباط أحكامه، كما قال الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ولو كان ما قالوه صحيحًا، لكان كلام الله غير مفهوم، ومُراده بخطابه غير معلوم، ولصار كاللُّغز المُعَمَّى، فبطل الاحتجاج به، وكان ورود النص على تأويله، مُغْنيًا عن الاحتجاج بتنزيله، وأعوذ بالله من قول في القرآن يؤدِّي إلى التوقف عنه، ويؤول إلى ترك الاحتجاج به»[(١)].

وذمَّ أبو حامد الغزالي صنيعَ «من قرأ تفسيرًا ظاهرًا واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما! وأنَّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي المنهي عنه»، وعدَّه حجة الإسلام «من الحُجُب العظيمة عن القرآن»، فقال: «والآثار تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالًا رَحْبًا، ومُتَّسعًا بالغًا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس مُنتهَى الإدراك فيه»[(٢)].

ووَجْهُ ذلك: أنه ليس كل ما ورد عن السلف مسموعًا من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ كان كثير منه مختلفًا اختلافًا لا يمكن الجمع بينه، فليس إلا أنهم اجتهدوا رأيهم واستنبطوا بفكرهم، والاجتهاد على هذا اتباعٌ لسنتهم وسيرٌ على منهجهم. ولو كان المأثور مسموعًا كله لم يمنع ذلك أيضًا من فهمٍ وتدبرٍ يزيد عليه ولا ينقُضُه، خاصة وقد أمر به الشارع وكرَّر، وأوْعد على تركه وحذَّر[(٣)].

---

(١) النكت والعيون (١/ ٣٤).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٥)، (١/ ٢٩٠)، (١/ ٢٩١) وفيه رد مذهب الاكتفاء بالمنقول من أربعة أوجه.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٢٩٠).



ثالثا: التفلُّت من قواعد اللغة ودلالتها:

فينبغي على دارس القرآن استثمار ألفاظ القرآن واستنباط معانيها دون مبالغة في تحميل الألفاظ ما لا تحتمل من المعاني، ودون تعمُّقٍ مُتكلَّف قد يقود إلى معانٍ ضعيفة واهية الصلة بالألفاظ، فإن للألفاظ منطوقًا ومفهومًا، وعبارةً وإشارةً، ومعانيَ أصليةً وأخرى ثانويةً، وهي درجات تتدرج من القوة إلى الضعف بحسب قُربها من ظواهر الألفاظ وبُعدها عنها، فعلى الدارس أن يعرف هذه الموازين، وأن يتمسك بدلالة اللغة؛ فلا يقبل من المعاني إلا ما ثبت نسبه ثبوتًا صحيحا باللفظ القرآني، وأن يداوم البحث عن هذا النسب؛ فإنه قد ينقطع عند التعمُّق، فيقع في تأويل باطني فاسد لا علاقة له بالألفاظ!

فكم من أناس تركوا دَلالة اللغة، وهاموا في أودية التأويلات الباطنية، وألحدوا في آيات الله، وحرَّفوا كلامه عن مواضعه، وافتروا عليه الكذب! وجعلوا «يقولون: كلام الله رموز وألغاز لا يُنبِئ ظاهرهُ عن حق، ومفهومه عن صدق، ويجعلون ذلك من الذرائع إلى إبطال الشرائع»[(١)]. وهل ضاعت الرسالات، وفسدت الشرائع قبلنا إلا بأيدي هؤلاء الكذبة الذين ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقد شهد تاريخ الأمة الإسلامية حربًا فكرية وعسكرية على هذه الفئة الضالة، التي تسعى إلى تلويث مصادره العذبة من القرآن والسنة، وكتب العلماء كتبًا كثيرة في التحذير من ضلال الباطنية، وإبطال مذهبهم، منها: «فضائح الباطنية» لأبي حامد الغزالي، و«بُغية المُرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية» لتقي الدين بن تيمية، وقولُه فيه

(١) كتاب الاعتقاد للراغب الأصفهاني (ص ٤٣).

صريح بكفرهم، وذلك حيث قال: «وهم في الباطن من أعظم بني آدم كفرًا وإلحادًا، حتى صار شعارهم «الملاحدة» عند الخاص والعام، وهم كافرون بما جاءت به الرسل مطلقًا، ومن أعظم الناس مُنافَقَةً لجميع الناس من أهل الملل: المسلمين واليهود والنصارى، وغير أهل الملل»[(١)].

وقد ظهرت مؤخرًا طوائف من الباطنية الحديثة، يفوقون أسلافهم خُبْثًا وكيدًا للإسلام وأهله! أعني -هؤلاء العلمانيين- الذين خرجوا علينا بنظريات شاذة، تتحدث عن القراءة الجديدة، ونسبية النصوص والمعرفة، وموت المؤلف، وحتمية التأويل، ونحوها مما يصُبُّ كله في اتجاه تعطيل دلالة القرآن والسنة وإسقاطها بالكلية، يقول بعضهم: إن النص بطبيعته مجرد صورة عامة تحتاج إلى مضمون يملؤها، وهذا المضمون بطبيعته قالب فارغ! يمكن ملؤه من حاجات العصر ومقتضياته، التي هي بناء الحياة الإنسانية..! ومن ثَمَّ فالتأويل ضرورة للنص، ولا يوجد نص إلا ويمكن تأويله من أجل إيجاد الواقع الخاص به، ولا يعني التأويل هنا إخراج النص من معنى حقيقي إلى معنى مجازي لقرينة، بل هو وضع مضمون معاصر للنص إخراج النص من معنى حقيقي إلى معنى مجازي لقرينة، لأن النص قالب دون مضمون!!»[(٢)]. إلى آخر هذا العبث الذي يفضى لا محالة إلى إبطال العقل والشرع معًا، وإسقاط التفاهم بين البشر جملة، وإبطال كلام صاحبه قبل كل ذلك كله، إذ كيف يمكن التفاهم مع إنسان لا يقر بأن للكلام معنى، ولا للألفاظ دلالة

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٥١٢).

(٢) نقد الخطاب الديني، نصر أبو زيد (١٨١).



أصلًا؟! وهو مع ذلك يطالبك بأن تفهم من كلامه ما لا يفهمه هو من كلام غيره![1].

رابعًا: الانشغال بالدقائق اللفظية عن المعاني الكلية:

إن الانشغال بالدقائق اللفظية والاستغراق فيها كثيرًا ما يكون حائلًا بين الإنسان وبين فقه المعنى القرآني والتدبر في مقصوده الأصلي، وانظر إلى هذا النموذج الذي طرحه بعض الإخوة على أنه أسئلة تعين على التدبر في سورة الكوثر: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾، لِمَ جاء التعبير عن الرب سبحانه بضمير الجمع وليس الإفراد؟ لِمَ عبَّر بالضمير وليس الاسم الظاهر؟ لِمَ عبر بضمير الجمع (نا)، وليس: نحن؟ لِمَ أكَّد الخبر؟ لِمَ جاء التأكيد بإنَّ؟ لِمَ قدَّم المُسند إليه «ضمير الجلالة»؟ لِمَ عبَّر بالإعطاء دون الإيتاء؟ لِمَ عبَّر عن الإعطاء بالفعل وليس الاسم؟ لِمَ عبَّر عن الإعطاء بالفعل الماضي؟ لِمَ عُرِّف «الكوثر»؟ لِمَ لَمْ يقيد «الكوثر» بالمضاف «نهر»؟»[2]. إلى آخر ما ذكر من هذا النوع.

فهذه التدقيقات اللفظية لا علاقة لها بالتدبر؛ بل هي أقرب إلى أن تكون تمارين لغوية ونحوية وبلاغية على القرآن، ربما تنفع صاحبها في تنمية قدراته اللغوية أكثر مما تفيده في فهم القرآن، والانتفاع بهديه.

---

(١) انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٣/ ٣٠٢) وما بعدها، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/ ٦٣٣) وما بعدها.

(٢) من مقال للأستاذ: يوسف العليوي بعنوان «أسئلة التدبر البلاغية» منشور في موقع «ملتقى أهل التفسير» http://vb.tafsir.net/tafsir٣٩٧٠٤/

وإنْ رأيتَ فيها فائدةً ما تفيد المعنى القرآني فهي فائدة جزئية ضيقة، تشغلك عن رؤية المعنى الكلي، والصورة الكاملة، والمقصد الأعظم للآية والسورة، وحالك حينها كحال من يفحص لوحة رائعة الجمال بعدسة مُكَبِّرة، فمهما تنقل فيها بعدسته لن يرى في كل مرة إلا بضع سنتيمترات قليلة لا تعبر بحال عن اللوحة الباهرة.

يقول الشاطبي: «كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو التَفَقُّه في العبارة، بل التَفَقُّه في المعبر عنه وما المراد به، هذا لا يرتاب فيه عاقل». ثم بيَّن أنَّ هذا التعمُّق في تحليل الألفاظ ربما كان مُشَوِّشًا على المعاني الكبرى المقصودة من القرآن، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأيضًا؛ فإنه حائل بين الإنسان وبين المقصود من الخطاب، من التفهم لمعناه ثم التعبد بمقتضاه، وذلك أنه إعذار وإنذار، وتبشير وتحذير، ورَدٌّ إلى الصراط المستقيم؛ فكم بين من فهم معناه، ورأى أنه مقصود العبارة، فداخله من خوف الوعيد، ورجاء الموعود ما صار به مُشَمِّرًا عن ساعد الجد والاجتهاد، باذلًا غاية الطاقة في الموافقات، هاربًا بالكلية عن المخالفات، وبين مَن أخذ في تحسين الإيراد والاشتغال بمآخذ العبارة ومدارجها، ولِمَ اختلفت مع مرادفتها مع أن المعنى واحد، وتفريع التجنيس، ومحاسن الألفاظ، والمعنى المقصود في الخطاب بمعزل عن النظر فيه؟!»[(١)].

لا ننكر أن دراسة لغة القرآن ونحوه وبلاغته أداة ضرورية لفهم القرآن، ولكننا ننكر أن تتحول الأدوات إلى مقاصد، والمفاتيح إلى غايات، وأن يتم

(١) الموافقات (٤/ ٢٦٢) وانظر كلام الغزالي في الفرق بين المعنى والتفسير في إحياء علوم الدين (٤/ ٩٥)، وفي الفرق بين علوم الصدف وعلوم الجوهر في جواهر القرآن (ص: ٣٥) فإنه أصل كلام الشاطبي.



الوقوف عندها والتعمق فيها حتى تتحول كثير من كتب التفسير إلى ما يشبه كتب التدريبات اللغوية، والصرفية، والبلاغية، وينصرف أصحابها إلى تشريح ألفاظ القرآن تشريحا دقيقا، دون عناية تذكر بمقاصده وغاياته وهداياته الكلية.

إنَّ وقوف المفسر عند دراسة الألفاظ والتراكيب، وعدم تجاوزها إلى النظر في المعاني والمقاصد والهدايات، يجعله أشبه بمن يريد معرفة أخلاق إنسان من خلال وضعه على جهاز للأشعة السينية التي تفحص العظام! أو بمن يريد أن يتعرَّف إلى فكر شخص بتمزيق جسده وتشريحه تحت مجهر الكتروني!!

نعم، ربما كان هذا البناء العظمي هو ما يحمل جسد الإنسان كله، لكن الإنسان شيء أكثر من مجرد هيكل عظمي، إنه كائن حي، فيه جسد وروح، وحياة وحركة، وجمال وكمال، وعقل وضمير، له فكر وأخلاق، وآمال وآلام. ومثل هذه الإنسان لا يمكن أن يتعرف عليه بتشريحه تحت مجهر لا يظهر منه إلا مجموعة من الأعصاب والخلايا، وصفائح دموية بيضاء أو حمراء.

ويلاحظ المتتبع لمسيرة التفسير أن هذا التشقيق لم يظهر في كتب التفسير المتقدمة؛ بل سلمت منه القرون الأولى، فلا نكاد نرى أحدًا من مفسريها يتساءل عن مثل هذه الدقائق؛ بل كانوا يكتفون بما يُفهَم به المعنى ويُدرَك به المقصود دون تكلُّف وتعمُّق. قال الشاطبي: «علم التفسير مطلوبٌ فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلومًا؛ فالزيادة على ذلك تكلف، ويتبين ذلك في مسألة عمر»[(١)]، فعن أنس بن مالك:

(١) الموافقات في أصول الشريعة (١/ ٥٧).

قرأ عمر: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ [عبس: ٣١]، فقال: قد علمنا الفاكهة، فما الأبّ؟ ثم أحسبه قال: إن هذا لهو التكلف.[١] قال ابن كثير: وهذا كله محمول على أنه، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، إنما أراد استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتًا من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧﴾ [عبس: ٢٧]»[٢].

ولعل هذا ما أشار إليه ابن القيم حين قال: «وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم»[٣].

ولا ريب أن السابقين الأولين كانوا أكثر الناس انتفاعًا بالقرآن، وإدراكًا لهديه، والتزامًا به، لا يجادل في هذا إنسان.

فعلى من يريد الانتفاع بالقرآن أن يجعل همه المعاني، ووجْهَه شَطْرَ المقاصد، ولا يشغل نفسه إلا بما يخدمها ويدل عليها، يقول الغزالي: وسر القرآن، ولُبَابه الأصفى، ومقصده الأقصى، دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السماوات العلى، والأرضين السُّفلى، وما بينهما وما تحت الثرى، فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع، ثلاثة منها: هي السوابق والأصول المهمة، وهي:

(١) تعريف المدعو إليه بذاته وصفاته وأفعاله.

---

(١) جامع البيان للطبري (٢٤/ ٢٢٩).

(٢) -تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ١١).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٩).



(٢) وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه.

(٣) وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وثلاثة منها مغنية متمة وهي:

أولها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم؛ وسره ومقصوده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة، وكيفية قمع الله لهم وتنكيله لهم؛ وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب.

ثانيهما: حكاية أحوال الجاحدين، وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمُحاجَّة على الحق، وسرُّه ومقصودُه في جنب الباطل الإفضاح والتنفير، وفي جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقهير[(١)].

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأُهبة والاستعداد»[(٢)].

(١) لعله يعني بالتقهير جعلهم قاهرين لعدوهم، ولم أقف على هذا المصدر في شيء من دواوين اللغة، إلا أنه ورد عرضًا في أبيات للأَضْبط بن قُرَيْع بن عوف، وكَانَ أغار عَلَى أَهْل صَنْعاء وبَنَى بِهَا حصنا، وَقَالَ:

وشَفَيْتُ نَفْسِي، مِنْ ذوِي يَمَنٍ ... بالطَّعنِ فِي اللَّبَّات والضربِ
قَتَّلتهـمْ وأَبَحـتُ بَلْـدَتَهـم ... وأَقَمْـتُ حَوْلًا كاملًا أَسْبي
وبَنَيـْتُ أُطْماً فِي بِلَادِهِـمُ ... لأُثَبِّـتَ التَّقْهِيرَ بالغَضْـبِ

انظر: لسان العرب - (أط م)، (١٢/ ١٩).

(٢) جواهر القرآن (ص: ٢٣).



خامسًا : العجلة في اعتماد المعاني قبل استفراغ الوسع في التدبر :

وهو ألَّا يتدبر القرآن حق تدبره، «فيفسره بما يخطر له من بادئ الرأي دون إحاطة بجوانب الآية، مقتصرًا على بعض الأدلة دون بعض، كأن يعتمد على ما يبدو من وجه في العربية فقط»[١]، فإن اعتبار المعاني ليس بحُسنها ورُوائها وطَرَب النفوس لها، ولكن بصدقها وصحتها، وعدم مصادمتها لأصول الدين وقواعده التي ثبتت قبلُ بالقرآن والسنة والإجماع. ولذا ترى بعض المفسرين تقع إليه بعض المعاني المستطرفة التي يستحليها الذوق، غير أنها لا تثبت بمقاييس العلم، فيعلق عليها بتعليق طريف قائلا «هي كالورد يُشم ولا يدعك» قاصدًا بذلك أنها رغم طلاوتها ضعيفة خفيفة، لا تصمد في الاختبار، ولا تثقل في الميزان.

....

(١) -التحرير والتنوير (١/ ٣٠).


مجلة تدبر



الخَاتِمَة

وبعد، فقد عرَضتُ في هذه الورقات نظرات خاطفة حول أساليب التدبر عند العلماء، هي ما أَذِن به الوقت والحال. وليست بالتأكيد مُنتهى الأمل، أو غاية الرجاء؛ ذلك أن دراسة الأساليب الفنية للتدبر موضوع كبير نظرًا لأمرين:

الأول: ضخامة التراث التدبري الذي نملكه، وتوزُّعه في مصادر شتَّى، وهو ما ينتظر جُهدًا جماعيًا جادًّا يقوم على جمعه وتنقيحه وترتيبه.

والثاني: تنوع أساليب العلماء في التدبر ودقتها وغموضها؛ لدرجة دفعت بعضهم إلى أن يذهب إلى أنها مجرد مواهب إلهية وفتوحات ربانية، لا تنضبط بضابط، ولا يمكن تعلمها فضلا عن تعليمها![1].

فلتكن هذه الصفحات التي سطَّرْتُها خطوة على الطريق تدفع نحو مزيد من البحث والدراسة.

نتائج البحث :

ظهرت للباحث عدة نتائج من أهمها ما يلي:

١. التدبر عمل قلبي يقوم على التأمل في آيات الله تعالى والنظر في تطبيقها على الفرد والمجتمع.

---

(١) ونحن كما نؤمن ونوقن بأنه لا علم لنا إلا ما علمنا الله، ولا فهم إلا ما رزقنا الله، وأن الخلق لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، نوقن أيضا بأن العلم بالتعلم والفهم بالتفهم، وأن فضل الله إنما يتنزل على العاكفين في محاريب العلم يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، هؤلاء هم الذين يتنزَّل عليهم فضل الله وهدايتهم وتحفهم ملائكته.



٢. ثَـمَّـة فـروق دقيقة بين التدبر، والتفكر، والـتـذكـر، والتفسير، والاستنباط.

٣. التدبر واجب شرعي على كل سامع وقارئ للقرآن الكريم، بحيث لا يُغْني فيه أحد عن أحد.

٤. الأمر بالتدبر غير مختص بالمسلمين ولا بالعلماء منهم، بل هو متوجِّه لكل من يسمع ويعقل من مسلم وكافر.

٥. للتدبر نوعان: كُلِّي، يتأمل في القرآن كله باعتبار دلالته على صدق محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وجزئي ينظر في آيات القرآن لِيسْتَلهِم هداياته في شئون الحياة تفصيلًا.

٦. هناك موانع تحول بين الإنسان وبين التدبر من أهمها: انشغال القارئ بتحقيق الحروف عن النظر في المعاني، والتقليد الذي يَحْجُر على العقول فيمنعها التفكير والتأمل، والذنوب التي تَغْشَى القلوب فتفسد فطرتها، واعتقاد المرء أن لا معنى للقرآن إلا ما نُقِل عن السلف، وأنه ما ترك الأول للآخر شيئًا.

٧. ثَمَّة أساليب منهجية يستعملها العلماء في تدبرهم لكتاب الله تعالى، بعضها قد نصُّوا عليه، وبعضها يمكن فهمه استنباطًا من كلامهم.

٨. هناك أخطاء منهجية قد تقع في عملية التدبر، أهمها: الاكتفاء بالتفكر عن التعلم إعجابًا بالعقل، والاكتفاء بالتعلم عن التفكر وقوفًا عند حدِّ النقل، والتفلُّت من قواعد اللغة ودلالتها، والانشغال بالدقائق اللفظية عن المعاني الكلية، والعجلة في اعتماد المعاني قبل استفراغ الوِسْع في التدبر.



التوصيات:

هـذا، ووصيتـي لمـن يتصـدّى لتعليم القـرآن وتفهيمـه أن يُحْيي سُـنَّة التـدارس الجماعـي، الذي يقوم على اسـتثارة العقول وتلاقـح الأفكار، وأن يبتعـد عن تلقين المعلومـات الجاهزة، فإن تلقين الفكـرة يحجر على العقل، ويلقيه في العجز، ويُعَوِّده الكسلَ والخمول.

إنَّ ما يستطيع الطالب أنْ يُحَصِّله بنفسه، لا ينبغي للأستاذ أن يُلقيه إليه سهلًا أبدًا؛ بل عليه أن يتركه يسعى لتَقْوَى قدمُه، ويتعبَ ليشتدَّ ساعدُه، ويفكرَ ليَشْحذَ ذهنَه.

ولقد جرَّبتُ هذا الأمر مع طلبة الكليات الشرعية، فكنت أطرح عليهم كثيرًا من المسائل المتعلقة بالقرآن وتفسيره ومُشكله ومتشابهه، فلم أَعْدَم يومًا منهم جوابًا عن سؤال، أو حَلًّا لإشكال. بل ربما كانت عدة أجوبة تطابق أحيانًا ما ذكره أئمة التفسير الكبار، أو تزيد عليها. فلو نظر إليَّ أحدُهم حينها لرأى أستاذًا يُمسِك بقلمه؛ ويُدوِّن بإعجابٍ أفكارَ طلابه الحية، وآراءهم الرائعة.

إنَّ عطاء الله لا يختصُّ بشيخ أو شاب، أو رجل أو امرأة، وعلينا أن نُحَوِّلَ التدبر القرآني إلى ثقافة مجتمع، وأنْ نستثمر عقول الجميع في تأمل معانيه، واستنباط فوائده، واستخراج حِكَمِه وأحكامه، تحت رعاية علمية متخصصة، ترسُم منهجه، وتتابع خطواته، وتروي شجرته الطيبة؛ فتؤتي أُكُلَها كل حينٍ بإذن ربِّها.

ونصيحتي لمن تعلم القرآن أن يقرِن العلم بالعمل، وألا يغترَّ بما حصل من علم فيظنه غاية المراد ونهاية المقصود، فإن العلم لا يقصد لنفسه، ولا



يُراد لذاته؛ بل للعمل به والسلوك على منهاجه، يقول محمد بن كعب القرظي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: من بلَغه القرآن فكأنما كلَّمه الله. قال أبو حامد الغزالي: وإذا قَدَّر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمَّله، ويعمل بمقتضاه.

ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قِبَل ربّنا عَزَّوَجَلَّ بعهوده، نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات.

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ أحقَّ الناس بهذا القرآن من رُؤِيَ في عمله.

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يجالس أحدٌ هذا القرآنَ إلا قام بزيادة أو نقصان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وكان مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ما زَرَعَ القرآنُ في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إنَّ القرآنَ ربيعُ المؤمن، كما أنَّ الغيثَ ربيعُ الأرض!»[(١)].

....

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٥) بتصرف يسير.





المراجع

❁ **القرآن العظيم.**

١. **أحكام القرآن**، الجصاص، أحمد بن علي، أبو بكر الرازي، تح: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥ هـ.

٢. **أحكام القرآن**، المعافري، محمد بن عبد الله، أبو بكر بن العربي، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ.

٣. **الإحكام في أصول الأحكام**، الظاهري، أبو محمد علي بن حزم، تح: أحمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

٤. **إحياء علوم الدين**، الغزالي، أبو حامد، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٥. **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، ابن مفلح المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

٦. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٧. **إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول**، الشوكاني، محمد بن علي، تح: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٨. **أساس البلاغة**، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، تح:محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ.

٩. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.



١٠. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي**، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

١١. **البحث العلمي: أساسياته النظرية وممارسته العملية**، دويدري، رجاء وحيد، دار الفكر المعاصر–بيروت، ١٤٢١ هـ.

١٢. **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٣. **البرهان في علوم القرآن**، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٦هـ.

١٤. **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**، ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١، ١٤٢٦هـ.

١٥. **البيان والتبيين**، الجاحظ، عمرو بن بحر، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

١٦. **تاج العروس من جواهر القاموس**، الزبيدي، محمد مرتضى، منشورات مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، د.ت.

١٧. **تاريخ دمشق**، ابن عساكر، علي بن الحسن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥ هـ.

١٨. **تأويلات أهل السنة**، الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور، تح: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦ هـ.

١٩. **التبيان في أقسام القرآن**، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، دار المعرفة، بيروت، د.ت.





٢٠. **التحرير والتنوير**، ابن عاشور، محمد الطاهر، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٢١. **التذكار في أفضل الأذكار**: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٠٦ هـ.

٢٢. **تفسير الإمام الشافعي**، جمع وتحقيق ودراسة: الفرَّان، د. أحمد بن مصطفى، دار التدمرية – المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٧هـ.

٢٣. **التفسير البسيط**، الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠ هـ.

٢٤. **تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم**، السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد، تح: علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٣هـ،

٢٥. **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تح: سامي سلامة، دار طيبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٢٦. **تفسير القرآن**، السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي، تح: ياسر إبراهيم وآخر، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٧. **التفسير الكبير**، الرازي، فخر الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثالثة، ١٤٢٠ هـ.

٢٨. **التفسير والمفسرون**، الذهبي، محمد السيد حسين، مكتبة وهبة، القاهرة، د.ت.

٢٩. **تهذيب الأسماء واللغات**، النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ت.



٣٠. **تهذيب اللغة**، الأزهري، محمد بن أحمد، أبو منصور، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٣١. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تح: عبدالرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٣٢. **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، الطبري، محمد بن جرير، تح: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٣. **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسننه وأيامه**، البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٤. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، محمد بن أحمد، تح: أحمد البردوني وآخر، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ.

٣٥. **جواهر القرآن ودرره**، الغزالي، أبو حامد، دار إحياء العلوم، بيروت، ط الثانية، ١٤٠٦ هـ.

٣٦. **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، الجرجاني، عبد القاهر، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ.

٣٧. **روائع إقبال**، الندوي، أبو الحسن على الحسني، دار الفكر دمشق، ط١، ١٣٧٩هـ.

٣٨. **زاد المسير في علم التفسير**، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٩. **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، عياض بن موسى اليحصبي، دار الفيحاء، عمان، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٤٠. **الصحاح أو تاج اللغة وصحاح العربية**، الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ.

٤١. **صيد الخاطر**، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، دار القلم – دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ.

٤٢. **الطيوريات**، انتخبها السِّلَفي، أبو طاهر أحمد بن محمد من أصول: الطيوري، أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي، تح: دسمان يحيى معالي، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ١٤٢٥ هـ.

٤٣. **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، دار ابن كثير، دمشق، ط: الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٤٤. **العزفُ على أنوار الذِّكر- معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة**، د. محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة – القاهرة، د.ت.

٤٥. **العقل وفهم القرآن**، المحاسبي، الحارث بن أسد، تح: حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ.

٤٦. **غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني**، الكوراني، أحمد بن إسماعيل بن عثمان، من أول سورة النجم إلى آخر سورة الناس، دراسة وتحقيق: محمد مصطفي كوكصو، رسالة دكتوراه- جامعة صاقريا- كلية العلوم الاجتماعية – تركيا، ١٤٢٨ هـ.

٤٧. **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، النيسابوري، الحسن بن محمد، تح: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ.

٤٨. **غريب الحديث**، ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، تح: عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ.



٤٩. **غريب الحديث**، الخطابي، أبو سليمان حَمْد بن محمد بن الخطاب البستي، تح: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.

٥٠. **الفروق اللغوية**، العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.

٥١. **فصول في أصول التفسير**، د. مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٣هـ.

٥٢. **فضائل القرآن**، المستغفري، أبو العباس جعفر بن محمد، تح: أحمد بن فارس السلوم، دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٨ م

٥٣. **فضائل القرآن**، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، تح: مروان العطية وآخرين، دار ابن كثير دمشق، ط١، ١٤١٥ هـ.

٥٤. **الفوز الكبير في أصول التفسير**، الدهلوي، أحمد بن عبد الرحيم، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، دار الصحوة – القاهرة، ط٢، ١٤٠٧ هـ.

٥٥. **كتاب الاعتقاد**، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، تح: أختر جمال محمد لقمان، رسالة ماجستير بكلية الشريعة – جامعة أم القرى بمكة المكرمة، سنة ١٤٠٢هـ بإشراف أ.د: محيي الدين الصافي.

٥٦. **كتاب تفسير القرآن**، ابن المنذر النيسابوري، أبو بكر محمد بن إبراهيم، تح: سعد بن محمد السعد، دار المآثر – المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٣ هـ.

٥٧. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ.





٥٨. **اللباب في علل البناء والإعراب**، أبو البقاء العكبري، عبد الله بن الحسين، تح: د. عبد الإله النبهان، دار الفكر - دمشق، ط١، ١٤١٦هـ.

٥٩. **لطائف الإشارات**، القشيري، عبد الكريم بن هوازن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الثالثة، بدون.

٦٠. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ضياء الدين بن الأثير، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٦١. **مجالس القرآن**، فريد الأنصاري، دار السلام، القاهرة، ط٣، ١٤٣٤هـ.

٦٢. **مجموع الفتاوى**، بن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحليم، تح: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ.

٦٣. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عطية الأندلسي عبد الحق بن غالب، تح: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٦٤. **المحكم والمحيط الأعظم**، ابن سيده المرسي، أبو الحسن علي بن إسماعيل، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٦٥. **مختصر قيام الليل**، المروَزِي، أبو عبد الله محمد بن نصر، اختصره: العلامة أحمد بن علي المقريزي، حديث أكادمي، فيصل اباد - باكستان، ط١، ١٤٠٨ هـ.

٦٦. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٤١٦ هـ.



٦٧. **مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، المباركفوري، أبو الحسن عبيد الله بن محمد، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية، بنارس الهند، ط٣، ١٤٠٤ هـ.

٦٨. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ابن حنبل الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٦٩. **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**، مسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٧٠. **معاني القرآن**، أبو جعفر النحاس، تح: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٧١. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، دار الكتب العلمية – بيروت، د.ت.

٧٢. **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، تح: صفوان عدنان، دار القلم بيروت، ١٤١٢هـ.

٧٣. **مفهوم التدبر تحرير وتأصيل**، أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم، نشر: مركز تدبر، الرياض، ١٤٣٠هـ.

٧٤. **ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل** لابن حزم، تلخيص الذهبي، تح: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٩ هـ.

٧٥. **مناهل العرفان في علوم القرآن**، الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، د.ت.

٧٦. **الموافقات في أصول الشريعة**، الشاطبي، إبراهيم بن موسى، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.





٧٧. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، البقاعي، إبراهيم بن عمر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ.

٧٨. **نقد الخطاب الديني**، نصر أبو زيد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م.

٧٩. **النكت في معاني القرآن الكريم وإعرابه**، المُجَاشِعِي، علي بن فَضَّال بن علي بن غالب، تح: عبد الله عبد القادر الطويل، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٨ هـ.

٨٠. **النكت والعيون**، الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، تح: السيد عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت.


مجلة تدبر





المحتوى










مجلة تدبر



أستاذ مساعد وباحث في الدراسات القرآنية بمركز
تفسير للدراسات القرآنية بالرياض

- حصل على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان بأطروحته: (منهج القرآن في مدح القلة وذم الكثرة) .
- حصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان بأطروحته:(الإصلاح و الإفساد في ضوء القرآن) .

النتاج العلمي:

المنهج البلاغي في تدبر القرآن، أثر التفسير الموضوعي في الارتقاء بالعلوم الطبيعية، الفوز والخسران في ضوء القرآن، إعجاز النظم القرآني في اقتران السنن الاجتماعية بالسنن الكونية، نحو ختمة قرآنية تدبرية ارتقائية في الفكر والسلوك، تميز المؤمنين رؤية قرآنية، كيف تكون مباركًا أينما كنت؟

البريد الإلكتروني: towfeekali@hotmail.com


مجلة تدبر



مستخلص البحث

۞ أهداف البحث :

تهدف الدراسة إلى الكشف عن أفانين السورة القرآنية في الدلالة على مقصدها من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية:

١- ما المقصود بمقصد السورة؟

٢- ما المراد من أفانين السورة القرآنية؟

٣- هل للقصص، وأسماء الله الحُسْنى، والفرائد القرآنية، والآيات الكونية، والسنن الإلهية، ومشاهد القيامة في السورة دلالة على مقصدها؟

۞ منهج البحث :

تقتضي طبيعة البحث تعدد المناهج؛ ولذلك فإن الباحث جمع في هذه الدراسة بين الاستقراء والتحليل للنصوص، أما المنهج الاستقرائي: ففي تتبع الآيات القرآنية في السورة المتعلقة بموضوع البحث، والمنهج التحليلي؛ وذلك بتحليل النصوص المستقراة.

۞ أهم النتائج :

١- أن مقصد السورة هو مغزى السورة الذي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها.

٢- توجد عدة طرق للكشف عن مقصد السورة أهمها: اسم السورة،



فضائل السورة، التأمل في أوائل السورة وأواخرها، إمعان النظر في الكلمات المكررة، النظرة الشاملة للسورة من أولها إلى أخرها.

٣- تتنوع أساليب السورة في دلالتها على المقصد والتي منها: القصص، وأسماء الله الحسنى، الفرائد القرآنية، والآيات الكونية، وسنن الله في الأنفس، ومشاهد القيامة، وغير ذلك مما تتميز به كل سورة.

التوصيات:

أوصي الباحثين: بضرورة الاهتمام بالبحث بتوسع في أفانين السور القرآنية ودلالتها في تحقيق مقاصدها.

الكلمات المفتاحية: (أفانين- السورة - الدلالة- المقصد).





إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، أما بعد:

فالقرآن الكريم كتاب جُعِلَت آياته محكمة النظم والتأليف، واضحة المعاني بليغة الدلالة والتأثير، فهي كالحصن المنيع، والقصر المشيد الرفيع، في إحكام البناء، وما يقصد به من الحفظ والإيواء مع حسن الرواء، فهي لظهور دلالتها على معانيها ووضوحها لا تقبل شكًّا ولا تأويلًا، ولا تحتمل تغييرًا ولا تبديلًا، ثم جُعلت فصولًا متفرقة في سوره ببيان حقائق العقائد، والأحكام والحكم والمواعظ، وسائر ما أنزل الكتاب له من الفوائد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: ١].

وتأتي آيات هذا الكتاب باختلاف أنواعها مرة بحجج من مشاهدات في السماوات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس، ومرة بحجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها الله.



وتأتي أساليبه مستجمعة درجات الفهم، وفيها الغاية -كل الغاية- لكل عقل صحيح، يقرؤها العالم؛ فيستشف من خلالها علل الأشياء، ويقرؤها الحكيم؛ فيلتمس منها أسرار الوجود، ويقرؤها غيرهما من الناس فتنقاد لها قلوبهم وعقولهم، لم يجعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعًا واحدًا، بل وعدًا، ووعيدًا، ومحكمًا، ومتشابهًا، ونهيًا، وأمرًا، وأخبارًا، وأمثالًا، وقصصًا ومواعظَ؛ تناسب اختلاف طبائع الناس، ومستويات قُدراتِ الفهم لديهم، وهذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعباده وتلطُّفه بهم؛ لتحبيبهم في أحكامه ودينه، وأن يشرح لهم الأمر من كل زواياه ومن كل أبعاده، حتى يُقبل الناس على دين الله عن ثقة واقتناع ورضا.

وفي هذا البحث سأتحدث عن **(أفانين السورة القرآنية في دلالتها على مقصدها)** بأساليب متنوعة لا يحول بينها وبين الولوج إلى العقول مانع، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جاء القرآن بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائلٌ، ولا يغادر مسلكًا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضًا أو تحذيرًا، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه»(١).

۞ مشكلة البحث:

تتحدد مشكلة البحث في إبراز أفانين السورة القرآنية في الدلالة على مقصدها.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٥/ ٤٠.





۞ أهداف البحث :

تهدف الدراسة إلى الكشف عن أفانين السورة القرآنية في الدلالة على مقصدها من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ما المقصود بمقصد السورة؟
٢. ما المراد من أفانين السورة القرآنية؟
٣. هل للقصص في السورة دلالة على مقصدها؟
٤. هل لأسماء الله الحُسْنى في السورة دلالة على مقصدها؟
٥. هل للفرائد القرآنية في السورة دلالة على مقصدها؟
٦. هل للآيات الكونية في السورة دلالة على مقصدها؟
٧. هل للسنن الإلهية في الأنفس في السورة دلالة على مقصدها؟
٨. هل لمشاهد القيامة في السورة دلالة على مقصدها؟

۞ أسباب اختيار الموضوع :

تحدث جمع من العلماء والباحثين عن الوحدة الموضوعية للسورة وكيف أن السورة تخدم موضوعًا رئيسًا، وإنْ تعدَّدت الموضوعات الفرعية فيها، لكنها مشدودة إلى موضوع واحد تأخذ آياته بعنق بعضها لتحقيق الموضوع الرئيس، ولم يتطرق أحدٌ لبيان تنوع أساليب السورة القرآنية في تحقيق مقصدها وتأكيده في صورة معجزة بصورة مستقلة، وإن وُجد له إشارات في كتب التفسير؛ لذلك عزمت مستعينًا بالله لإبراز هذا الموضوع.

أهمية الموضوع :

١- خدمة كتاب الله الكريم.

٢- بيان إعجاز القرآن الكريم في نظمه وبيان معانيه.

٣- إبراز أساليب السورة القرآنية المتنوعة في بيان مقصدها.

الدراسات السابقة :

تحدثت البحوث والدراسات عن أساليب القرآن الكريم على مستوى القرآن كله، وكيف تنوعت في الحديث عن موضوعاته، مثل: أساليب القرآن في الحديث عن الوحدانية والتوحيد[1]، لكن لم يفرد بحث للحديث عن أساليب السورة القرآنية في بيان مقصدها -حسب علمي-.

لكن من الدراسات التي لها علاقة ببحثنا (علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية نظرية تطبيقية)، للباحث: إبراهيم صلاح السيد الهدهد، وتحت إشراف الدكتور محمد جلال الشيخ الذهبي، وهي رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة الأزهر في مصر، عام ١٩٩٣م، والرسالة تركز على علاقة المطالع بالمقاصد، لكن البحث الذي بين يدينا يركز على دلالة أساليب السورة على مقصدها، ولا شك أن الباحث سيُفيد من هذه الرسالة.

---

(١) راجع: المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبد الستار فتح الله صـ١١٦ وما بعدها، الطبعة الثانية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.





منهج البحث :

تقتضي طبيعة البحث تعدد المناهج، ولذلك فإن الباحث جمع في هذه الدراسة بين الاستقراء والتحليل للنصوص.

أما المنهج الاستقرائي: ففي تتبع الآيات القرآنية في السورة المتعلقة بموضوع البحث.

والمنهج التحليلي: وذلك بتحليل النصوص المستقراة، والوقوف على المعاني الدقيقة التي تحتملها ولها علاقة وثيقة بموضوع البحث.

وكانت خطة البحث على النحو التالي:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره والدراسات السابقة وهيكليته.

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات البحث وأهم طرق الكشف عن مقصد السورة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بمصطلحات عنوان البحث.

المطلب الثاني: أهم الطرق العملية للكشف عن مقصد السورة.

المبحث الثاني: سورة مريم دراسة تطبيقية، وفيه مطالب:

المطلب الأول: مقدمات عن السورة.

المطلب الثاني: طرق الكشف عن مقصد سورة مريم.



المبحث الثالث: أفانين سورة مريم في الدلالة على مقصدها، وفيه مطالب:

المطلب الأول: القصص ودلالتها على مقصد السورة.

المطلب الثاني: أسماء الله الحسنى ودلالتها على مقصد السورة.

المطلب الثالث: الفرائد ودلالتها على مقصد السورة.

المطلب الرابع: الآيات الكونية ودلالتها على مقصد السورة.

المطلب الخامس: سنة الله في ثواب المؤمنين وعاقبة المجرمين ودلالتها على مقصد السورة.

المطلب السادس: سنة الله في إمهال المجرمين ودلالتها على مقصد السورة.

المطلب السابع: مشاهد القيامة ودلالتها على مقصد السورة (كرامة المؤمنين وإهانة الكافرين).

الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات.





المبحث الأول:
التعريف بمصطلحات البحث
وأهم طرق الكشف عن مقصد السورة

۞ المطلب الأول: التعريف بمصطلحات عنوان البحث:

أفانين:

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فن: الفاء والنون أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تَعْنِيَة، والآخر على ضرب من الضروب في الأشياء كلها.

فالأول: الفن، وهو التعنية والإطْراد الشديد. يقال: فَنَنْتُه فنًّا، إذا أطردته وعنَّيته.

والآخر الأفانين: أجناس الشيء وطرقه. ومنه الفنن، وهو الغصن، وجمعه أفنان[1].

والمعنى الثاني هو الـمُراد.

وأفانين الكلام: أساليبه وطُرقه وأجناسه[2].

وأفانين القرآن الكريم هو أسلوبه وطريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه.

السُّورَةُ: المنزلة الرفيعة، وسُورُ المدينة: حائطها المشتمل عليها، وسُورَةُ القرآن تشبيهًا بها؛ لكونه محاطًا بها إحاطة السّور بالمدينة، أو لكونها

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: ٤/ ٤٣٥.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر: ٣/ ١٧٤٦.

منزلة كمنازل القمر[١].

فكل سورة من القرآن بمنزلة درجة رفيعة ومنزل عال يرتفع القارئ منها إلى درجة أخرى ومنزل آخر إلى أن يستكمل القرآن[٢].

واصطلاحًا: قرآن يشتمل على آي، ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات»[٣].

المقصد: (قصد) القاف والصاد والدال أصول ثلاثة، يدل أحدها على إتيان شيء وأمه، والآخر على اكتناز في الشيء[٤].

والمعنى الأول هو المقصود.

والقصد: استقامة الطريق. قصد يقصد قصدًا، فهو قاصد. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ ٩﴾ [سورة النحل الآية ٩]؛ أي على الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة[٥].

ومقاصد الشريعة: الأهداف التي وضعت لها، ومقاصد الكلام: ما وراء السطور أو ما بينها[٦].

(١) مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٤٣٤.

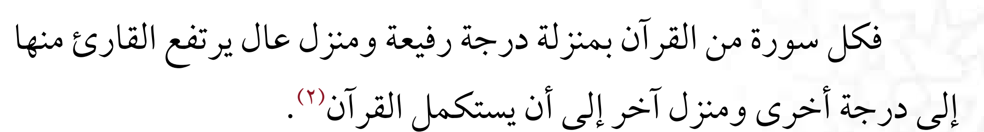
(٢) الكليات، للكفوي: ٤٩٤.

(٣) مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، ص: ٤١.

(٤) مقاييس اللغة، لابن فارس: ٥/ ٩٥

(٥) لسان العرب، لابن منظور: ٣/ ٣٥٣.

(٦) معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر: ٣/ ١٨٢٠.





ومقصد السورة:

هو مغزى السورة الذي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها[(١)].

ويمكن أن نضع تعريفًا ملخصًا لعنوان البحث فنقول:

أسلوب السورة وطريقتها التي انفردت بها في الدلالة على مقصدها الجامع لمعانيها ومضمونها.

المطلب الثاني: أهم الطرق العملية للكشف عن مقصد السورة:

توصل العلماء المهتمون بالكشف عن مقاصد السور بعد تأمل عميق، وفهم دقيق، وتطبيق أنيق وطول نَفَس؛ إلى عدة طرق للكشف عن مقصد السورة، سوف نكتفي بذكر أهمها:

١- معرفة فضائل السورة:

قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلى قدر المقصود من كل سورة، تكون عظمتها، ويعرف ذلك مما ورد في فضائلها ويؤخذ من ذلك أسماؤها، ويدل على فضلها كثرتها»[(٢)].

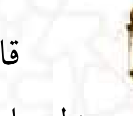
مثال تطبيقي:

سورة الفاتحة من السور ذات الأسماء الكثيرة، أنهاها صاحب «الإتقان» إلى نيف وعشرين بين ألقاب وصفات جرت على ألسنة القراء من عهد السلف:

---

(١) علم مقاصد السور وأثره في تدبر القرآن الكريم، عبد المحسن بن زبن المطيري: ٨.

(٢) مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور، للبقاعي: ١/ ٢١٠.



قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد وقفت لها على نيف وعشرين اسمًا؛ وذلك يدل على شرفها؛ فإن كثرة الأسماء دالة على شرف المسمى:

أحدها: فاتحة الكتاب.

ثانيها: فاتحة القرآن.

وثالثها، ورابعها: أم الكتاب وأم القرآن.

خامسها: القرآن العظيم، روى أحمد عَن أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ: «**هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَهِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ**»[(١)]، وسُميت بذلك؛ لاشتمالها على المعاني التي في القرآن.

سادسها: السبع المثاني.

سابعها: الوافية، كان سفيان بن عيينة يسميها به؛ لأنها وافية بما في القرآن من المعاني.

ثامنها: الكنز.

تاسعها: الكافية، لأنها تكفي في الصلاة عن غيرها ولا يكفي عنها غيرها.

عاشرها: الأساس؛ لأنها أصل القرآن وأول سورة فيه.

حادي عشرها: النور.

ثاني عشرها وثالث عشرها: سورة الحمد وسورة الشكر.

(١) مسند الإمام أحمد: مسند أبي هريرة، (٩٧٨٧)، قال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطبري في «تفسيره» ١٤/ ٥٩ من طريق يزيد بن هارون وحده، بهذا الإسناد، وأخرجه الدارمي (٣٣٧٤).





رابع عشرها وخامس عشرها: سورة الحمد الأولى وسورة الحمد القصرى.

سادس عشرها وسابع عشرها وثامن عشرها: الرقية والشفاء والشافية.

تاسع عشرها: سورة الصلاة؛ لتوقُّف الصلاة عليها.

العشرون: وقيل إن من أسمائها الصلاة أيضًا؛ لحديث أبي هريرة «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»(١)، أي السورة؛ لأنها من لوازمها، فهو من باب تسمية الشيء باسم لازمه، وهذا الاسم العشرون.

الحادي والعشرون: سورة الدعاء، لاشتمالها عليه في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا﴾.

الثاني والعشرون: سورة السؤال.

الثالث والعشرون: سورة تعليم المسألة؛ لأن فيها آداب السؤال؛ لأنها بُدئت بالثناء قبله.

الرابع والعشرون: سورة المناجاة؛ لأن العبد يناجي فيها ربه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة، الآية: ٥].

الخامس والعشرون: سورة التفويض؛ لاشتمالها عليه في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة، الآية: ٥] فهذا ما وقفت عليه من أسمائها(٢).

---

(١) رواه أحمد: مسند أبي هريرة، (٧٨٣٧)، قال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير العلاء بن عبد الرحمن وأبي السائب، فهما من رجال مسلم.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ١/ ١٩١.



قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولم يثبت في السنة الصحيحة والمأثور من أسمائها إلا فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن، أو أم الكتاب»[(١)].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**»[(٢)].

وسميت فاتحة؛ لأنها جُعلت أول القرآن لمن يريد أن يقرأ القرآن من أوله، ويستفتح بها الصلاة.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحمدُ لِله رب العَالمين أُمُّ القرآن، وأُمُّ الكتاب، والسبعُ المثاني** »[(٣)].

وجه تسميتها بأم الكتاب أو أم القرآن:

ذكر العلماء لتسمية الفاتحة أم القرآن وجوهًا ثلاثة:

أحدها: أنها مبدؤه ومفتتحه، فكأنها أصله ومنشؤه، يعني أن افتتاحه الذي هو وجود أول أجزاء القرآن قد ظهر فيها، فجعلت كالأم للولد في أنها الأصل

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ١٣١.

(٢) رواه مسلم، كِتَاب صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، باب فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، (٨٠٦).

(٣) رواه أبو داود، باب: فاتحة الكتاب، (١٤٥٧)، قال الألباني صحيح، انظر: (صحيح أبي داود: ٥/ ١٩٨).



والمنشأ، فيكون أم القرآن تشبيهًا بالأم التي هي منشأ الولد لمشابهتها بالمنشأ من حيث ابتداء الظهور والوجود.

الثاني: أنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن، وهي ثلاثة أنواع: الثناء على الله ثناءً جامعًا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص، ولإثبات تفرده بالإلهية وإثبات البعث والجزاء، وذلك من قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، والأوامر والنواهي من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والوعد والوعيد من قوله: ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ ۝٧﴾ إلى آخرها، فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكملات لها.

الثالث: أنها تشتمل معانيها على جملة معاني القرآن من الحكم النظرية والأحكام العملية؛ فإن معاني القرآن إما علوم تقصد معرفتها، وإما أحكام يقصد منها العمل بها، فالعلوم كالتوحيد والصفات والنبوءات والمواعظ والأمثال والحكم والقصص، والأحكام إما عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات، وإما عمل القلوب أي العقول، وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة، وكلها تشتمل عليها معاني الفاتحة(١).

ووجه الوصف بالمثاني أن تلك الآيات تثنى في كل ركعة؛ لأن معناه أنها تُضم إليها السورة في كل ركعة.

وقيل: لأنها تثنى في الصلاة، أي تكرر، فتكون التثنية بمعنى التكرير(٢).

فمقصد السورة: توجه العباد لربهم بتحقيق كمال العبودية.

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ١٣٤.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٣٥.



٢- التأمل في اسم السورة:

يقول البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «. . . وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مُتَرجِم عن مقصودها؛ لأنّ اسم كلّ شيءٍ تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدالّ إجمالًا على تفصيل ما فيه[١].

مثال تطبيقي:

عن ابنِ عَابِسٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: « **يَا ابْنَ عَابِسٍ أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ:﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ**»[٢].

فمقصد السورتين التعوذ بالله من الشرور.

٣- إمعان النظر في أوائل السورة وأواخرها:

يقول أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقد تتبعت أوائل السور المطولة؛ فوجدتها يناسبها أواخرها، بحيث لا يكاد يَنْخرم منها شيء»[٣].

مثال تطبيقي:

فمقصد سورة الشورى: حقيقة الوحي والرسالة المحمدية.

---

(١) مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور، للبقاعي: ١/ ١٩.

(٢) رواه أحمد: حديث عقبة بن عامر الجهني، (١٧٣٨٩)، قال الألباني: صحيح، انظر السلسلة الصحيحة، (١١٠٤).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان: ٢/ ٧٥٥.



ففي أولها تحدثت عن الوحي: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ [الشورى: ٣].

وفي أواخرها تحدثت عن الوحي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢].

فاتفق الافتتاح مع الخاتمة، ودل ذلك على أن مقصد السورة « حقيقة الوحي والرسالة المحمدية».

٤- التأمل في الكلمات المكررة في السورة:

تكرار بعض الكلمات في السورة؛ دليل على أهمية هذه الكلمات في بيان مقصدها.

مثال تطبيقي:

مقصد سورة مريم: شمول رحمة الله لعباده.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد تكرر في هذه السورة -سورة مريم- صفة الرحمن ست عشرة مرة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات، فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمن، والرد على المشركين الذين تقعَّروا بإنكار هذا الوصف، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩﴾ [الفرقان: ٦٠]»[١].

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٦٠



٥- النظرة الكلية للسورة، ومراعاة سياقها العام:

يقول الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طريقة الكشف عن مقصد السورة: «اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالاقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها»[1].

ويقول الشيخ دِراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وملاك الأمر في ذلك أن تنظر إلى النظام المجموعي الذي وضعت عليه السورة كلها[2].

مثال تطبيقي:

مقصد سورة البقرة: إعداد الأمة لحمل أمانة الخلافة في الأرض بعد نكول بني إسرائيل عن حملها.

يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ «هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطًا شديدًا. . فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى. . وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها،

---

(١) الموافقات، للشاطبي: ٣/ ٤١٥.

(٢) النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز: ١٩٦.

وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم.. وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين»[١].

هذه أهم الوسائل العملية للكشف عن مقصد السورة.

....

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ١/ ٢٨.



المبحث الثاني :
سورة مريم مقدمات وطرق الكشف عن مقصدها .

تمهيد :

سورة مريم ذات ظلال، وأساليبها ذات أفنان، يرى المتدبرُ فيها حضورَ الرحمة في كثير من مشاهدها وأشخاصها الذين ذكروا فيها: ففيها ظهور رحمة الله في زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وزوجه برزقهما بيحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على حين حاجة، ورحمة الله في يحيى بإعطائه ما أعطاه من النعم، ورحمة الله مريمَ باصطفائها ورفع منزلتها وإبعادها عن قومها حتى ولدت، وتسهيل رزقها عند ولادتها، وإظهار براءة ساحتها، ورحمته في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بجعله رسولًا له، والإنعام عليه بنعم عاجلة وآجلة، ورحمته بني إسرائيل بإرسال عيسى إليهم، ورحمته تعالى في بيان توحيده لعباده، وإنذارهم بلقائه حتى يستعدوا له، ورحمته إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بجعله صديقا نبيًّا، وإنجائه من كيد قومه، ورزقه بإسماعيل وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والإنعام عليه بالذكر الحسن من الأمم، ورحمته موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بتصييره مخلَصا ورسولًا، وتأييده بأخيه هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورحمته هارون بجعله نبيًّا، ورحمته إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بجعله صادق الوعد ورسولًا، ورحمته إدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بجعله صديقا نبيًّا ورفعه مكانًا عليًّا، ورحمته النبيين ومَنْ تلاهم في الذكر بالاجتباء والرفعة، وظهور رحمته بالتوبة على عباده، وإثابة صالحي عباده بالجنة وإنجائهم من النار، وزيادة المهتدين منهم هدى، وجعل المحبة والقبول لهم في قلوب عباده الصالحين. ورحمته عباده بإنزال



الوحي الذي يتضمن الخير الكثير لهم، ورحمته خلقه ببعثهم بعد موتهم؛ لينال كل عامل جزاء ما عمل، ورحمته في إمهاله العاصين وحلمه عليهم، ورحمته رسولَه محمدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بإنزال القرآن عليه، ورحمته صالحي عباده بإهلاك المكذبين للرسل عقوبة لهم، وإنجاء المؤمنين، وجعل ذلك عبرة للمعتبرين من بعدهم.

والمتأمل في السورة يكاد يجد أنها تفصيل وبيان لقوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف: ١٥٦]، حيث فصَّل فيها رحمته بالمتقين وسادتهم من الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ورحمته بالصديقة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ.

وهذه السورة كانت رحمة على المهاجرين إلى الحبشة حيث كانت سببًا في عدم تسليمهم إلى وفد قريش بقيادة عمرو بن العاص، وبذلك نجوا من أذاهم، وكذلك كانت رحمة على النجاشي وقساوسته بأنها كانت سببًا في إسلامهم.

ومختصر القصة أنه لما قدم وفد قريش إلى النجاشي ملك الحبشة في طلب من هاجر إليها من المسلمين، ودار حوار بين جعفر بن أبي طالب الذي كان متحدثًا باسم المهاجرين وبين النجاشي والقساوسة وبين وفد قريش وكان المتحدث عنهم عمرو بن العاص، وكان مما دار في هذا الحوار مما رواه الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: «. . . فَقَالَ لَهُ -أي لجعفر بن أبي طالب- النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾ [مريم: ١]



قَالَتْ: فَبَكَى وَاللهِ النَّجَاشِيُّ، حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا[1].

فحقًّا إن هذه السورة الكريمة سورة الرحمة؛ حيث تجلّت فيها وبها رحمة الله تعالى على عباده.

المطلب الأول: مقدمات عن السورة:

أسماء السورة:

اسم هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وأكثر كتب السنة سورة مريم، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سماها سورة ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾، وكذلك وقعت تسميتها في «صحيح البخاري» في كتاب التفسير.

وهي مكية عند الجمهور.

وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه.

ووجه التسمية أنها بسطت فيها قصة مريم وابنها وأهلها قبل أن تفصل في غيرها، ولا يشبهها في ذلك إلا سورة آل عمران التي نزلت في المدينة.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، تحقيق أحمد شاكر: ٢/ ٣٥٨، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، والحديث كله بطوله في مجمع الزوائد ٦: ٢٤ - ٢٧ وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحق، وقد صرح بالسماع.

وعدت آياتها في عدد أهل المدينة ومكة تسعًا وتسعين. وفي عدد أهل الشام والكوفة ثمانًا وتسعين[١].

فضائل السورة:

وردت فضائل هذه السورة ضمن فضائل زمرة من السور:

١- منها: عن عبد الله ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «**فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالكَهْفِ، وَمَرْيَمَ: إِنَّهُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي**»[٢].

٢- ومنها: عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**»[٣].

والمثاني: كل سورة دون المئين، والمئين: كل سورة بلغت مائة آية فصاعدًا.

من مقاصد السورة:

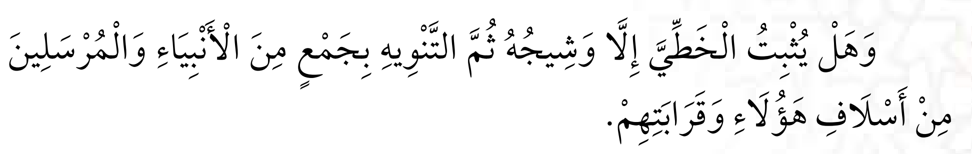
«وَيَظْهَرُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ لِلرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ فِيمَا اقْتَرَفُوهُ مِنَ الْقَوْلِ الشَّنِيعِ فِي مَرْيَمَ وَابْنِهَا، فَكَانَ فِيهَا بَيَانُ نَزَاهَةِ آلِ عِمْرَانَ وَقَدَاسَتِهِمْ فِي الْخَيْرِ.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٥٨.

(٢) رواه البخاري، كِتَاب فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، باب تأليف القرآن، (٤٩٩٤)، قوله: (العتاق): جمع عتيق وهو ما بلغ الغاية في الجودة يريد تفضيل هذه السور؛ لما يتضمن مفتتح كل منها أمرًا غريبًا، والأولية باعتبار حفظها أو نزولها. قوله: (تلادي): هو ما كان قديمًا. انظر: (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: ٢٠/ ٢٣).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند: (١٦٩٨٢)، قال محققه: إسناده حسن، عمران بن القطان- وهو ابن داود- حسن الحديث، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير أبي داود الطيالسي، فمن رجال مسلم، وأخرج له البخاري تعليقًا.



وَهَلْ يُثْبِتُ الْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ثُمَّ التَّنْوِيهِ بِجَمْعٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ أَسْلَافِ هَؤُلَاءِ وَقَرَابَتِهِمْ.

وَالْإِنْحَاءِ عَلَى بَعْضِ خَلَفِهِمْ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا عَلَى سُنَنِهِمْ فِي الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ وَأَتَوْا بِفَاحِشٍ مِنَ الْقَوْلِ إِذْ نَسَبُوا لِلَّهِ وَلَدًا، وَأَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ مِنْهُمُ الْبَعْثَ وَأَثْبَتَ النَّصَارَى وَلَدًا لِلَّهِ تَعَالَى.

وَالتَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ فِي تَبْشِيرِهِ وَنِذَارَتِهِ، وَأَنَّ اللهَ يَسَّرَهُ بِكَوْنِهِ عَرَبِيًّا لِيُسْرِ تِلْكَ اللُّغَةَ.

وَالْإِنْذَارُ مِمَّا حَلَّ بِالْمُكَذِّبِينَ مِنَ الْأُمَمِ من الاستيصال.

وَاشْتَمَلَتْ عَلَى كَرَامَةِ زَكَرِيَّاءَ إِذْ أَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ فَرَزَقَهُ وَلَدًا عَلَى الْكِبَرِ وَعُقْرِ امْرَأَتِهِ.

وَكَرَامَةُ مَرْيَمَ بِخَارِقِ الْعَادَةِ فِي حَمْلِهَا وَقَدَاسَةِ وَلَدِهَا، وَهُوَ إِرْهَاصٌ لِنُبُوءَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَمِثْلُهُ كَلَامُهُ فِي المهد.

والتنزيه بِإِبْرَاهِيمَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَمُوسَى، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِدْرِيسَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَوَصْفِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِهَا.

وَحِكَايَةِ إِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ الْبَعْثَ بِمَقَالَةِ أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ وَالْعَاصِي بن وَائِل وتبجحهم عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِمَقَامِهِمْ وَمَجَامِعِهِمْ.

وَإِنْذَارِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ أَصْنَامَهُمُ الَّتِي اعْتَزُّوا بِهَا سَيَنْدَمُونَ عَلَى اتِّخَاذِهَا.

وَوَعْدِ الرَّسُولِ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِهِ.

وَذِكْرِ ضَرْبٍ مِنْ كُفْرِهِمْ بِنِسْبَةِ الْوَلَدِ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَالتَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ وَلِمِلَّتِهِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنَّهُ بَشِيرٌ لِأَوْلِيَائِهِ وَنَذِيرٌ بِهَلَاكِ مُعَانِدِيهِ كَمَا هَلَكَتْ قُرُونٌ قَبْلَهُمْ »[1] .

مناسبة سورة مريم لسورة الكهف:

لما قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ ﴾ [الكهف: ٩]، ثم أورد خبرهم وخبر الرجلين وموسى والخضر عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ وقصة ذي القرنين، أتبع سبحانه ذلك بقصص تضمنت من العجائب ما هو أشد عجبًا وأخفى سببًا، فافتتح سورة مريم بيحيى بن زكريا وبشارة زكريا به بعد الشيخوخة وقطع الرجاء وعقر الزوج حتى سأل زكريا مستفهمًا ومتعجبًا قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ ﴾ [مريم: ٨] فأجابه تعالى بأن ذلك عليه هين، وأنه يجعل ذلك آية للناس، وأمر هذا أعجب من القصص المتقدمة، فكان قد قيل: أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا، نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية، وهو قصة زكريا في ابنه يحيى عليهما الصلاة والسلام، وقصة عيسى في كينونته بغير أب؛ ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله، وإنما الفعل له سبحانه لا بسبب، وإلى هذا أشار قوله تعالى لزكريا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ ﴾ [مريم: ٩]،

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٥٩-٦٠.



ثم أتبع سبحانه بشارة زكريا بيحيى بإتيانه الحكم صبيًّا، ثم بذكر مريم وابنها عليهما الصلاة والسلام، وتعلقت الآي بعد إلى انقضاء السورة[1].

المطلب الثاني: طرق الكشف عن مقصد سورة مريم[2]:

تنوعت طرق الكشف عن مقصد سورة مريم ومن أهم هذه الطرق:

الطريقة الأولى: معرفة فضائل السورة:

من فضائل السورة ما ورد عن عبد الله ابْنِ مَسْعُودٍ، يَقُولُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالكَهْفِ، وَمَرْيَمَ، وَطه، وَالأَنْبِيَاءِ: «**إِنَّهُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي**»[3].

فسورة مريم من العتاق؛ لأنها تضمنت من المستغربات ما كان رحمة على من غشيتهم، ومن هذه المستغربات رحمة الله بزكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه برزقهما بيحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع كبر سن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعقر زوجته، ورحمة الله مريمَ برزقها بالولد من غير أب، واصطفائها ورفع منزلتها.

الطريقة الثانية: التأمل في اسم السورة:

قال البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ ومقصودها: بيان اتصافه سبحانه بشمول الرحمة بإضافة جميع النعم على جميع خلقه، المستلزم للدلالة على اتصافه بجميع

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، لأبي جعفر الغرناطي: ٢٥١.

(٢) تم التركيز على أهم الطرق من وجهة نظر الباحث.

(٣) رواه البخاري، كِتَاب فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، باب تأليف القرآن، (٤٩٩٤)، قوله: (العتاق): جمع عتيق وهو ما بلغ الغاية في الجودة يريد تفضيل هذه السور؛ لما يتضمن مفتتح كل منها أمرًا غريبًا، والأولية باعتبار حفظها أو نزولها. قوله: (تلادي): هو ما كان قديمًا. انظر: (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: ٢٠/ ٢٣).



صفات الكمال، المستلزم لشمول القدرة على إبداع المستغرب، المستلزم لتمام العلم، الموجب للقدرة على البعث، . . . وعلى هذا دلت تسميتها بمريم؛ لأن قصتها أدل ما فيها على تمام القدرة، وشمول العلم[1].

الطريقة الثالثة: إمعان النظر في أوائل السورة وأواخرها:

حيث افتتحت سورة مريم برحمة الله لعبد من خُلَّص عباده وهو زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: ٢]، وختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦]، وهذا سبيل أهل رحمته وثوابهم في الدنيا؛ حيث جعل لهم محبة في قلوب عباده.

قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومقصود سورة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ: شمول الرحمة. . . فبعد أن افتتح السورة بذكر الرحمة لعبدٍ من خُلَّص عباده، وختمها بأن كل من كان على نهجه في الخضوع لله يجعل له وُدًّا»[2].

وأيضًا ختمها: بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ۝٩٧﴾ [مريم: ٩٧]، يسَّر ألفاظه ومعانيه؛ ليحصل المقصود منه والانتفاع به، وهذا من رحمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ برسوله والمؤمنين به، ومعلوم أن القرآن رحمة للمؤمنين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف: ٥٢]، وخص المؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون به.

---

(١) مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور، للبقاعي: ٢/ ٢٥٧.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٥٣.

وأيضًا ختمها: بقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: ٩٨]، وهو مناسب لمفتتحها؛ حيث رحمتُه سبقت غضبَه، روى البخاري بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[(١)].

وأيضًا تطهير الأرض من المجرمين رحمة بأهل الأرض جميعًا.

الطريقة الرابعة: التأمل في الكلمات المكررة في السورة:

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد تكرر في هذه السورة -سورة مريم- صفة الرحمن ست عشرة مرة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات، فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمن، والرد على المشركين الذين تقعروا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله تعالى عنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠]»[(٢)].

وقال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كرر الوصف بالرحمن -وما يقرب منه من صفات الإحسان من الأسماء الحسنى- في أثناء السورة تكريرًا يلائم مقصودها، ويثبت قاعدتها وعمودها»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، كِتَاب التَّوْحِيدِ، باب قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ١٧١]، (٧٤٥٣).

(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٦٠.

(٣) مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور، للبقاعي: ١/ ١٥٣.



الطريقة الخامسة: النظرة الكلية للسورة، ومراعاة سياقها العام:

المتأمل في سورة مريم يجد أن القصص هو مادة هذه السورة، فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى، فقصة مريم ومولد عيسى، فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه.. ثم تعقبها إشارات إلى النبيين: إسحاق ويعقوب، وموسى وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وآدم ونوح. ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة، ويستهدف هذا القصص بيان مظاهر رحمة الله بأنبيائه وأوليائه، والأسباب التي نالوا بها رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

.....:::::::::.....



المبحث الثالث :
أفانين سورة مريم في بيان مقصدها.

تمهيد :

كل سورة لها أسلوبها الخاص في معالجة مقصدها، يقول البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من عرف المراد من اسم السورة؛ عرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها، عرف تناسب آيها، وقصصها، وجميع أجزائها»[(١)].

ويقول: «كل سورة لها مقصد معين، تكون جميع جمل تلك السورة دليلًا على ذلك المقصد»[(٢)].

ويقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة، وملامحها المميزة، ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعًا.. ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها، تبرز فيه ملامحها، وتتميز به شخصيتها. كالكائن الحي المميز السمات والملامح، وهو -مع هذا- واحد من جنسه على العموم! ونحن نرى في هذه السورة -نكاد نُحس- أنها كائن حي، يستهدف غرضًا معينًا، ويجهد له، ويتوخَّى تحقيقه بشتى الوسائل، والفقرات والآيات والكلمات في السورة، هي الوسائل التي تبلغ بها ما تريد!»[(٣)].

---

(١) مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور، للبقاعي: ١/ ١٤٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ١/ ٥٥٥.

ومن المعينات على كشف أفانين السورة القرآنية وطرقها في دلالتها على مقصدها: فهم معهود العرب وافتنانها في الأساليب: يقول ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما يعرف فضل القرآن مَن كَثُر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات»(١).

ويقول الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأمّيين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عُرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثَمَّ عُرف، فلا يصح أن يُجرى في فهمها على ما لا تعرفه، وهذا جارٍ في المعاني والألفاظ والأساليب»(٢).

وبالتدبر في السورة من افتتاحها إلى خاتمتها نجد أنها تناولت أساليبَ متنوعةً في الدلالة على مقصدها، منها القصص؛ حيث يمثل القصص فيها ما يقرب من ثلثي السورة، وكذلك أسماء الله الحسنى الدالة على الإحسان والإفضال على العباد مثل (الرحمن)، و(الرب)، وكذلك الفرائد القرآنية، مثل: اشتعل ووفدا وغيرها، ومشاهد القيامة، وسنة الله في الذين أعرضوا عن الإيمان برسالته؛ فحرموا أنفسهم من رحمته الخاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة.

وسوف نتناول نماذج من هذه الأساليب في الصفحات التالية.

---

(١) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ١٧.

(٢) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ١٣١.



۞ المطلب الأول: القصص في سورة مريم ودلالتها على مقصد السورة:

يجيء القصص المختار في السورة بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق؛ ويجيء مادة لتربية النفوس.

۞ القصة الأولى: قصة زكريا ويحيى عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ.

تمهيد:

الرحمة قوام هذه القصة، والرحمة تظلِّلُها، ومن ثَمَّ يتقدمها ذكر الرحمة: «ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا»، إنه يناجي ربه بعيدًا عن عيون الناس، بعيدًا عن أسماعهم. في عزلة يُخلِص فيها لربه، ويكشف له عما يُثْقِلُ كاهلَه ويكرب صدرَه، ويناديه في قُرْبٍ واتصال، والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر، فيَستجِب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم، ثم ترتسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى. فالرب ينادي عبده من الملأ الأعلى: «يا زَكَرِيَّا»، ويعجل له البشرى: «إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ»، ويغمره بالعطف، فيختار له اسم الغلام الذي بشره به: «اسْمُهُ يَحْيى»، وهو اسم فَذٌّ غير مسبوق: «لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا»؛ إنه فيض الكرم الإلهي يغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة، وناجاه في خُفْيَةٍ[1].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٠٢ باختصار.

﴿خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ٢-١٥].

التفسير الإجمالي:

هذا ذِكْرُ رحمةِ ربِّك بعبدِه زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، نقصُّه عليك للاعتبارِ به. إذ دعا ربَّه - سبحانه - دعاءً خفيًّا؛ ليكونَ أقربَ إلى الإجابة. قال: يا ربِّ، إني ضعُفتْ عظامي، وكثُر شيبُ رأسي، ولم أكن خائبًا في دعائي لك، بل كلما دعوتُك أجبتَني. وإني خفتُ قرابتي ألا يقوموا بعد موتي بحقِّ الدين لانشغالِهم بالدنيا، وكانتِ امرأتي عقيمًا لا تلدُ، فأعطني من عندك ولدًا مُعِينًا. يرث النبوّةَ عني، ويرثها من آلِ يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وصيِّرْه ربِّ مرضيًّا في دينه وخلقه وعلمه. فاستجاب اللهُ دعاءَه، وناداه: يا زكريا، إنا نخبرُك بما يسرُّك، فقد أجبْنا دعاءَك، وأعطيناك غلامًا اسمُه يحيى، لم نجعل لغيره من قبله هذا الاسمَ. قال زكريا متعجِّبًا من قدرة الله: كيف يولد لي ولدٌ وامرأتي عاقرٌ لا تلدُ، وقد بلغتُ نهايةَ العمر من الكبرِ وضَعْفِ العظام؟!

قال المَلَكُ: الأمرُ كما قلتَ من أنّ امرأتَك عاقرٌ، وأنك قد بلغتَ نهايةَ العمر من الكِبَر وضعف العظام، لكنْ ربُّك قال: خلْقُ ربِّك ليحيى من أمٍّ عاقر،



ومن أبٍ بلغَ نهايةَ العمر سهْلٌ، وقد خلقتُك يا زكريا من قبل ذلك، ولم تكنْ شيئًا يذكر؛ لأنك كنتَ عَدَمًا. قال زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يا ربِّ، اجعل لي علامةً أطمئنُّ بها تدلُّ على حصولِ ما بشّرْتني به الملائكةُ، قال: علامتُك على حصولِ ما بُشِّرْتَ به ألا تستطيعَ كلامَ الناس ثلاثَ ليالٍ من غيرِ عِلَّة، بل أنت صحيحٌ مُعافًى. فخرج زكريا على قومِه من مُصَلَّاه، فأشار إليهم من غيرِ كلام: أن سبِّحوا اللهَ -سبحانه- أولَ النهار وآخرَه. فولد له يحيى، فلما بلغ سنًّا يُخاطَبُ فيها، قلنا له: يا يحيى، خذِ التوراةَ بجدٍّ واجتهاد، وأعطيناه الفهمَ والعلمَ والجِدَّ والعزمَ وهو في سنِّ الصبا.

ورحمناه رحمةً من عندنا، وطهَّرْناه من الذنوب، وكان تقيًّا يأتمرُ بأوامرِ الله، ويجتنب نواهيَه. وكان بَرًّا بوالدَيه، لطيفًا بهما، محسنًا إليهما، ولم يكن متكبِّرًا عن طاعةِ ربه ولا طاعتِهما، ولا عاصيًا لربِّه أو لوالدَيه.

وسلامٌ عليه من الله، وأمانٌ له منه يوم وُلد، ويوم يموتُ ويخرجُ من هذه الحياة، ويوم يُبعَث حيًّا يوم القيامة، وهذه المواطن الثلاثةُ هي أوحشُ ما يمرُّ به الإنسان، فإذا أمنَ فيها فلا خوفَ عليه فيما عداها(١).

الأسباب الجالبة للرحمة في القصة:

١- **العبادة**: على قدر عبودية العبد تكون رحمة الله به، فالعبودية طريق الرحمة، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾.

٢- **الدعاء**: كان دعاء زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خفيًّا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾؛ لأنه رأى أنه أدخل في الإخلاص مع رجائه أن الله يجيب دعوته؛ لئلا تكون استجابته مما يتحدث به الناس؛ فاختار لدعائه السلامة من مخالطة الرياء.

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم، لمركز تفسير: ٣٠٥-٣٠٦.

٣- التوسل:

- توسَّل إلى الله - تعالى - بضعفه وعجزه (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)، وهذا من أحب الوسائل إلى الله؛ لأنه يدل على التبري من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته؛ وهذه الحال من الضعف والعجز أحق بالاسترحام لحاله.

- توسَّل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)، فسأل الذي أحسن سابقًا، أن يتمم إحسانه لاحقًا[1].

٤- المداومة على ذكر الله، أمر الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بألا يترك الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه (قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)، قال محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو رُخِّصَ لأحد في ترك الذكر لرُخِّصَ لزكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لما حُبِسَ لسانه عن كلام الناس»[2].

٥- التقوى: قال في حق يحي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (وَكَانَ تَقِيًّا)، ويوجد تلازم بين الرحمة والتقوى؛ حيث إن الرحمة تفيض على أهل التقوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

مظاهر رحمة الله في القصة:

١- الولد الصالح: من رحمة الله بعبده، أن يرزقه ولدًا صالحًا، جامعًا لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم؛ فرحم الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واستجاب دعوته،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) تفسير القرطبي: ٤/ ٨٢.



وسمّاه الله له «يحيى» ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى﴾، وكان اسمًا موافقًا لمسمّاه: يحيا حياة حِسِّيَّة، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنويَّة، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعِلْم والدين.

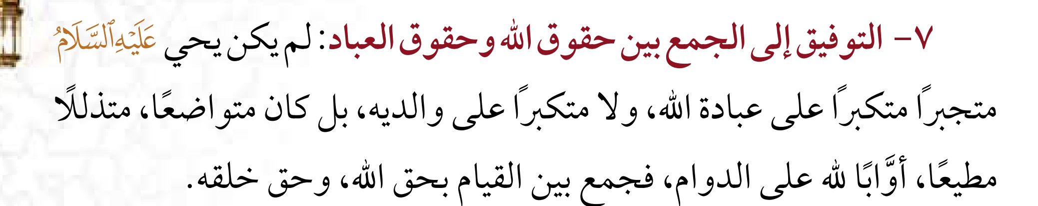
٢- تحقيق عين اليقين بعد عِلْم اليقين: لما طلب زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ زيادة العِلْم ﴿قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين؛ أجابه الله إلى طلبه رحمة به.

٣- التوفيق إلى معرفة أحكام الله والحكم بها؛ حيث أنعم الله على يحي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وآتاه معرفة أحكام الله، والحكم بها وهو في حال صغره وصباه ﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

٤- تيسير الأمور وصلاح الأحوال: أعطى الله يحي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله، ﴿وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا﴾.

٥- التوفيق إلى الإحسان إلى الوالدين قولا وفِعْلا: لم يكن يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عاقًّا، ولا مسيئًا إلى أبويه، بل كان محسنًا إليهما بالقول والفعل؛ ﴿وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

٦- العناية بيحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أوحش ما يمر به الإنسان: عناية الله بيحيى في الأطوار الثلاثة: طور الورود على الدنيا، وطور الارتحال عنها، وطور الورود على الآخرة، ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.



٧- **التوفيق إلى الجمع بين حقوق الله وحقوق العباد**: لم يكن يحي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ متجبرًا متكبرًا على عبادة الله، ولا متكبرًا على والديه، بل كان متواضعًا، متذللًا مطيعًا، أوَّابًا لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه.

۞ القصة الثانية: ميلاد عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ .

تمهيد:

هذه القصة تبرز قدرة الله التي تقول للشيء كن فيكون، تبرز أن كل شيء هيِّن عليه، سواء جرت به السنة المعهودة أو جرت بغيره، والله أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته، ورحمة لبني إسرائيل أولًا وللبشرية جميعًا، بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ



لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ١٦-٤٠].

التفسير الإجمالي:

واذكر أيها الرسول في القرآنِ المنزَّلِ عليك خبرَ مريمَ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ إذ تنحّتْ عن أهلِها، وانفردتْ بمكانٍ على جهة الشرق منهم؛ فاتخذتْ لنفسِها من دون قومِها ساترًا يسترُها؛ حتى لا يروها حالَ عبادتِها لربِّها، فبعثْنا إليها جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتمثلَ لها في صورةِ إنسانٍ سَوِيِّ الخلقة، فظنّتْ أنه يريدُها بسوء، فلما رأتْه في صورةِ إنسانٍ سَوِيِّ الخَلْقِ يتّجه إليها قالت: إني أستجيرُ بالرحمنِ منك أن ينالَني منك سوءٌ يا هذا إن كنتَ تقيًّا تخافُ الله. قال جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أنا لستُ بشرًا، إنما أنا رسولٌ من ربِّكِ، أرسلَني إليكِ لأهبَ لك ولدًا طيّبًا طاهرًا. قالتْ مريمُ متعجِّبة: كيف يكون لي ولدٌ ولم يَقربْني زوجٌ ولا غيرُه، ولستُ زانيةً حتى يكونَ لي ولدٌ؟! قال لها جبريلُ: الأمرُ كما ذكرتِ من أنك



لم يمسسْكِ زوجٌ ولا غيرُه، ولم تكوني زانيةً، لكنّ ربَّكِ -سبحانه- قال: خَلْقُ ولدٍ من غيرِ أبٍ سهلٌ عليّ، وليكونَ الولدُ الموهوبُ لك علامةً للناس على قدرةِ الله، ورحمةً منا بهم لما ينالونه بسببه من الخير، وكان خَلْقُ ولدِك هذا قضاءً من الله مقدّرًا، مكتوبًا في اللوحِ المحفوظ. فحملتْ به بعد نفخِ الملك، فتنحّتْ به إلى مكانٍ بعيدٍ عن الناس. فضربَها المخاضُ، وألجأَها إلى ساقِ نخلةٍ، قالتْ مريمُ عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ: يا ليتَني متُّ قبل هذا اليوم، وكنتُ شيئًا لا يُذْكَر؛ حتى لا يُظَنَّ بي السوءُ. فناداها جبريلُ من أسفلِ الوادي بقولِه: لا تحزَني، قد جعل ربُّك تحتك جدولَ ماءٍ تشربين منه. وأمسكي بجذعِ النخلةِ وهُزّيه تُساقطْ عليك رطبًا طريًّا جُنيًّا من ساعته. فكلي من الرُّطَب، واشربي من الماء، وطيبي نفسًا بمولودِكِ ولا تحزَني، فإن رأيتِ من الناس أحدًا، فسألَكِ عن خبرِ المولود؛ فقولي له: إني أوجبتُ على نفسي لربي صمتًا عن الكلام، فلن أكلِّمَ اليومَ أحدًا من الناس. فجاءتْ مريمُ بابنِها إلى قومِها تحملُه، قال لها قومُها مستنكرين: يا مريمُ، لقد جئتِ أمرًا عظيمًا مُفتَرًى؛ حيث جئتِ بولدٍ من غير أب.

يا شبيهةَ هارونَ في العبادة -وَهُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ- ما كان أبوك زانيًا، ولا كانتْ أمُّك زانيةً، فأنتِ من بيتٍ طاهرٍ معروفٍ بالصلاح، فكيف تأتين بولدٍ من غير أب؟!فأشارت إلى ابنِها عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وهو في المهدِ، فقال لها قومُها متعجِّبين: كيف نكلّمُ صبيًّا وهو في المهد؟! قال عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: إني عبدُ الله، أعطاني الإنجيلَ، وجعلني نبيًّا من أنبيائِه. وجعلني كثيرَ النفعِ للعباد أينما كنتُ، وأمرَني بأداءِ الصلاةِ وإعطاءِ الزكاةِ طيلةَ حياتي. وجعلني بَرًّا بأمّي، ولم يجعلْني متكبِّرًا عن طاعةِ ربي، ولا عاصيًا له. والأمانُ من الشيطانِ وأعوانِه عليّ يومَ



ميلادِي ويومَ موتي ويومَ بَعْثي حيًّا يومَ القيامة، فلم يتخبّطْني الشيطانُ في هذه المواقفِ الثلاثةِ المُوحِشة. ذلك الموصوفُ بتلك الصفاتِ هو عيسى ابنُ مريم، وهذا الكلامُ هو قولُ الحقِّ فيه، لا ما يقوله الضالّون الذين يشكّون في أمرِه ويختلفون. ما ينبغي للهِ أن يتخذَ من ولدٍ، تقدَّس عن ذلك وتنزّهَ، إذا أراد أمرًا، فإنما يَكفيه سبحانه أن يقول لذلك الأمر: (كنْ)، فيكونُ لا محالة، فمن كان كذلك فهو مُنَزَّهٌ عن الولد. وإنّ اللهَ -سبحانه- هو ربي وهو ربُّكم جميعًا، فأخلِصوا له العبادةَ وحده، هذا الذي ذكرتُ لكم هو الطريقُ المستقيمُ الموصلُ إلى مرضاةِ الله. فاختلفت طوائفُ اليهودِ والنصارى في شأنِ عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقال عنه اليهودُ: هو ساحرٌ، وقال عنه بعضُ النصارى: هو ابنُ الله، فويلٌ للمختلفين في شأنه من شهودٍ يومَ القيامة العظيمَ بما فيه من مشاهدَ وحسابٍ وعقاب. ما أقبحَ ما يسمعون ويُبصرون يومَ القيامة، وما أشدَّه عليهم، وما أعجبَ ما ترى من أحوالهم، لكنِ الظالمون في الحياةِ الدنيا في ضلالٍ واضحٍ عن الصراط المستقيم، فلا يستعدّون للآخرةِ حتى تأتيَهم بغتةً وهم على ظلمهم. وأنذر أيها الرسولُ الناسَ يوم الندامة حين يندمُ المسيءُ على إساءتِه، والمحسنُ على عدمِ استكثارِه من الطاعة، إذ طُوِيتْ صحفُ العباد، وفُرِغ من حسابِهم، وصار كلٌّ إلى ما قدَّم، وهم في حياتهم الدنيا مُغْتَرُّون بها، لاهون عن الآخرة، وهم لا يصدِّقون بيوم القيامة. إنا نحن الباقون بعد فناءِ الخلائق، نرثُ الأرضَ، ونرث من عليها لفنائِهم وبقائنا بعدهم، ومُلْكِنا لهم، وتصرُّفِنا فيهم بما نشاءُ، وإلينا وحدنا يُرجَعون يوم القيامة للحساب والجزاء[1].

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم: ٣٠٦ – ٣٠٨.





الأسباب الجالبة لرحمة الله في القصة:

١- **العبادة؛** اتخذت مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ الحجاب؛ لتعتزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتَقْنُت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

٢- **الاعتصام بربها والاستعاذة به؛** فقالت له: {إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ} أي ألتجئ به وأعتصم برحمته أن تنالني بسوء {إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا} أي إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه؛ فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفَّة والبعد عن الشر وأسبابه، وهذه العفة -خصوصًا مع اجتماع الدواعي وعدم المانع- من أفضل الأعمال؛ ولذلك أثنى الله عليها، فقال: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} [التحريم: ١٢]، {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٩١].

٣- **الاستسلام والإذعان لأمر الله تعالى** بعد أن أخبرها جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أنه قضاء الله وقد أُبْرِم، (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا).

٤- **الأخذ بالأسباب؛** لما قال الله لها: (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ)؛ فأذعنت ونفَّذَت.



٥- **التوسل بعفتها وطهارتها**؛ قالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

مظاهر رحمة الله في القصة:

١) **الذكر الحسن**: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، من أعظم فضائل مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ؛ أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء؛ جزاءً لعملها الفاضل، وسعيها الكامل؛ ليقتدي بها المؤمنون والمؤمنات على مدار التاريخ.

٢) **إرشادها إلى النخلة**؛ ليُطعِمَها منها الرطب الذي هو مَنْفَعَة للنفساء؛ فكانت رحمة بها وكرامة، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾.

٣) **الإعانة على الصبر والصدق**: حيث أعان الله مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ على الصبر والصدق في تلقي البلوى التي ابتلاها تعالى؛ ولذلك كانت في مقام الصديقية.

٤) **تأيدها بالمعجزات**: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، لم تقع التسلية بالرطب والسري من حيث أنهما طعام وشراب، ولكن من حيث أنهما معجزتان تُريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد عن الريبة، وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل، وأن لها أمورًا إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا.

٥) **أمرها الله بأن تنذر الصوم**: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾؛ لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها في الكلام لمعنيين، أحدهما:



أن عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها. والثاني: كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم. وفيه أن السكوت عن السفيه واجب.

٦) بشارة مريم العظيمة بالولد وزكائه ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة.

٧) قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾، أما رحمة الله بعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لما خصَّه الله بوحيه ومَنَّ عليه بما مَنَّ به على أولي العزم؛ وأما رحمته بوالدته؛ فلِما حصل لها من الفخر، والثناء الحسن، والمنافع العظيمة، وأما رحمته بالناس؛ فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولًا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة.

٨) البركة التي جعلها الله في عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ وهي: تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

٩) من فضل الله وكرمه على عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أن حصلت له السلامة يوم ولادته، ويوم موته، ويوم بعثه، من الشر والشيطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال، ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، على أنه رسول الله، وعبدُ الله حقًّا.

١٠) من مظاهر الرحمة في عيسى؛ أن الله أرسله برحمة لبني إسرائيل؛ ليُحل لهم بعض الذي حُرِّمَ عليهم، وليدعوهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم وغيروا من دينهم، فهذه أعظم بركة تقارنه. ومن بركته أن جعل الله حلوله في المكان سببًا لخير أهل تلك البقعة من خصبها واهتداء أهلها



وتوفيقهم إلى الخير، ولذلك كان إذا لقيه الجهلة والقساة والمفسدون؛ انقلبوا صالحين، وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة، ولذلك ترى أكثر الحواريين كانوا من عامة الأمِّيِّين من صيادين وعشارين، فصاروا دعاة هدى، وفاضت ألسنتهم بالحكمة، وهو حيثما حلّ تحل معه البركة.

١١) خصَّ الله تعالى عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **بالبر، (وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)**؛ لأن بر الوالدين كان ضعيفًا في بني إسرائيل يومئذ، وبخاصة الوالدة؛ لأنها تستضعف، لأن فرط حنانها ومشقتها قد يجرِّئان الولد على التساهل في البر بها.

١٢) قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ إلى آخره؛ تنويه بكرامته عند الله، أجراه على لسانه؛ ليعلموا أنه بمحل العناية من ربه.

١٣) مراعاة رحمة الله بالناس إذا تعارضت مع المصالح الخاصة، ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ توجيه بأن ما اشتكَتْهُ من توقع ضد قولها، وطعنهم في عرضها، ليس بأمر عظيم في جانب ما أراد الله من هدى الناس لرسالة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبأن الله تعالى لا يصرِفُه عن إنفاذ مراده ما عسى أن يَعْرِضَ من ضُرٍّ في ذلك لبعض عبيده؛ لأن مراعاة المصالح العامة تُقدَّم على مراعاة المصالح الخاصة.

....





القصة الثالثة: قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

تمهيد:

تعرض الآيات حلقة من قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ تكشف عما في عقيدة الشرك من نكارة وكذب وضلال، وتتجلى في القصة رحمة الله بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تَنْسِلُ أمة كبيرة، فيها الأنبياء وفيها الصالحون.

والرحمة تذكر في هذه القصة؛ لأنها السمة البارزة في جو السورة؛ ولأنها هبة الله التي تُعَوِّضُ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن أهله ودياره، وتؤنسه في وحدته واعتزاله.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤١-٥٠].

التفسير الإجمالي:

واذكر أيها الرسول في القرآنِ المنزّلِ عليك خبرَ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إنه كان كثيرَ الصِّدقِ والتصديقِ بآيات الله؛ إذ قال لأبيه آزر: يا أبتِ؛ لِمَ تعبدُ من دون الله



صنمًا لا يَسمع دعاءَك إنْ دعوتَه، ولا يُبصر عبادتَك إن عبدتَه، ولا يكشفُ عنك ضرًّا، ولا يجلبُ لك نفعًا، يا أبتِ، إني قد جاءني من العِلمِ عن طريق الوحي ما لم يأتِك، فاتبِعْني أرشدْك إلى طريقٍ مستقيم، يا أبت، لا تعبدِ الشيطانَ بطاعتك له، إنّ الشيطانَ كان للرحمن عاصيًا، حيث أمرَه بالسجود لآدمَ فلم يسجد، يا أبت، إني أخافُ أن يصيبَك عذابٌ من الرحمن إن مِتَّ على كفرِك، فتكون قرينًا له في العذابِ لمُوالاتِك له، قال آزرُ لابنه إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أمُعرِضٌ أنت عن أصنامي التي أعبدُها يا إبراهيم؟! لئن لم تكفَّ عن سبِّ أصنامي لأرمينَّك بالحجارة، وفارقْني زمانًا طويلًا فلا تكلّمْني، ولا تجتمعْ معي، قال إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه: سلامٌ عليك مني، لا ينالُك ما تكرهُ مني، سأطلبُ لك المغفرةَ من ربي والهدايةَ، إنه سبحانه كان كثيرَ اللطف بي، وأفارقُكم وأفارقُ معبوداتِكم التي تعبدونها من دون الله، وأدعو ربّي وحده لا أشركُ به شيئًا، عسى أن لا يمنعَني إذا دعوتُه، فأكونَ بدعائه شَقيًّا، فلما تركَهم وترَك آلهتَهم التي يعبدونها من دون الله، عوّضْناه عن فَقْدِ أهلِه؛ فوهبْنا له ابنَه إسحاق، ووهبنا له حفيدَه يعقوبَ، وكلّ واحدٍ منهما جعلناه نبيًّا، وأعطيناهم من رحمتِنا مع النبوةِ خيرًا كثيرًا، وجعلنا لهم ثناءً حسنًا مستمرًّا على ألسنةِ العباد[1].

الأسباب الجالبة للرحمة في القصة:

١- الدعوة إلى الله؛ حيث دعا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه، مهما أمكنه؛ فتدرَّج معه بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنك إن أطعتني، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم: ٣٠٦-٣٠٨.





عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضارِّ، ثم حذَّره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون بذلك وليًّا للشيطان.

٢- الصبر في مقام الدعوة إلى الله، على ما ناله من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعلي.

٣- اعتزال الشرك وأهله ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾؛ عندما أيِسَ ممن دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجع فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون.

٤- مفارقة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لوطنه ومألفه وأهله وقومه؛ إرضاءً لله وإيثارًا لما عنده.

٥- اعتزاز إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بربوبية الله إياه ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾، والتشريف لنفسه بذلك.

مظاهر الرحمة في القصة:

١- ذكر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ رحمة؛ لأن في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والاقتداء بهم؛ مما يكون سببًا في رحمة المتأسين بهم.

٢- جمع الله لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بين الصديقية والنبوة ﴿إِنَّهُ كانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾، فالصديق: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به؛ وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثِّر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل.



٣- وهب الله إبراهيم وبنيه عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ من رحمته العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، كما قال: ﴿وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا﴾.

٤- الثناء الحسن ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾؛ لأن الله وعد كل محسن، أن ينشر له ثناء صادقًا بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير الخفي، فذكرهم ملء الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وفاضت بها الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين.

۞ القصة الرابعة: موسى وإسماعيل وإدريس عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

تمهيد:

ظلُّ الرحمة هو الذي يظلِّل جو السورة كله؛ فتذكر السورة رحمة الله بموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في مساعدته بإرسال أخيه هارون معه حين طلب إلى الله أن يعينه به {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ} [القصص: ٣٤].

كما تثبت السورة أن إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان عند ربه مرضيًّا، والرضى سمة من سمات هذه السورة البارزة في جوها وهي شبيهة بسمة الرحمة، وبينهما قرابة.

كما تصف السورة إدريس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بأنه كان صدِّيقًا نبيًّا، وتسجل له أن الله رفعه مكانًا عليًّا، فأعلى قدره ورفع ذكره، وهذا من مظاهر رحمته به؛ حتى يتأسى به المؤمنون؛ فتصيبهم رحمة الله تعالى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾ [مريم: ٥١ - ٥٨].

التفسير الإجمالي:

«واذكر -أيها الرسول- في القرآنِ المنزَّلِ عليك خبرَ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، إنه كان مختارًا مصطفًى، وكان رسولًا نبيًّا، وناديناه من جانبِ الجبل الأيمنِ بالنسبة لموقعِ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقرّبناه مناجيًا؛ حيث أسمعَه اللهُ كلامَه، وأعطيناه من رحمتِنا وإنعامِنا عليه أخاه هارونَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ نبيًّا؛ استجابةً لدعائه حين سأل ربَّه ذلك، واذكر -أيها الرسولُ- في القرآنِ المنزَّلِ عليك خبرَ إسماعيلَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، إنه كان صادقَ الوعد، لا يَعِدُ وعدًا إلا وفَّى به، وكان رسولًا نبيًّا، وكان يأمرُ أهلَه بإقامةِ الصلاة، وبإعطاءِ الزكاة، وكان عند ربِّه مرضيًّا.

واذكر -أيها الرسولُ- في القرآنِ المنزّلِ عليك خبرَ إدريس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، إنه كان كثيرَ الصدقِ والتصديقِ بآيات ربه، وكان نبيًّا من أنبياء الله، ورفعْنا ذكرَه بما أعطيناه من النبوةِ، فكان عاليَ المنزلة، أولئك المذكورون في هذه السورةِ ابتداءً بزكريا، وختامًا بإدريسَ عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ هم الذين أنعمَ اللهُ عليهم بالنبوةِ من أبناءِ آدمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ومن أبناءِ من حملنا في السفينةِ مع نوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ومن



أبناءِ إبراهيمَ وأبناءِ يعقوبَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وممن وفَّقنا للهداية إلى الإسلام، واصطفيناهم وجعلناهم أنبياءَ، كانوا إذا سمعوا آياتِ الله تُقرأُ سجدوا لله باكين من خشيته»[1].

الأسباب الجالبة للرحمة في القصص:

١- الإخلاص: كان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مخلصًا لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونيّاته؛ لذا استخلصه ربه لرسالته، وخص موسى بعنوان (المُخْلص) على الوجهين؛ لأن ذلك مزيته، فإنه أخلص في الدعوة إلى الله، فاستخفَّ بأعظم جبار وهو فرعون، وجادله مجادلة الأكفاءكما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

٢- النصح: من أكبر فضائل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولًا مثله.

٣- صدق في الوعد: من شمائل إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه صادق الوعد مع الله ومع العباد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾.

٤- دعوة الأهل للإحسان للمعبود والإحسان إلى العبيد: كان إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مقيمًا لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾، فكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصًا أخص الناس عنده وهم أهله؛ لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

---

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم: ٣٠٦-٣٠٨.

٥- **التصديق التام**، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح.

٦- **الخضوع لآيات الله**، والخشوع لها، والبكاء عند سماعها، والإنابة والسجود لله تعالى.

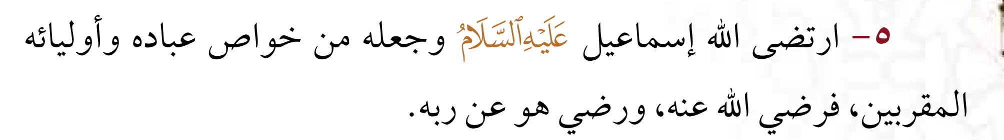
مظاهر رحمة الله في القصص:

١- جمع الله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، والنبوة تقتضي إيحاء الله إليه، وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق؛ وكانت رسالته رحمة على بني إسرائيل؛ حيث حرَّرهم من عبودية فرعون، ورحمة للأمة المحمدية باقتدائها بسيرة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الدعوة إلى الله ومقاومة الطغاة.

٢- خص الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها؛ وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجيًا لله تعالى، وبهذا اخْتُصّ من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن.

٣- وهب الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من رحمته أخاه هارون نبيًّا؛ فساعده على أمره، وأعانه عليه.

٤- جمع الله لإسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين الرسالة والنبوة التي هي أكبر مِنَنِ الله على عبده، وأهلها من الطبقة العليا من الخلق؛ وبذلك تحقَّقت الرحمة به، وبأهله وبقومه؛ حيث أرشدهم إلى ما فيه نفعهم في الدنيا والآخرة، وقدَّم للأمة الإسلامية نموذجًا عظيمًا في دعوة أهل البيت وحملهم على الحق.



٥- ارتضى الله إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي هو عن ربه.

٦- جمع الله لإدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين الصدِّيقيَّة، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفائه لوحيه، واختياره لرسالته.

٧- رفع الله لإدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

٨- ذِكْر الله لهؤلاء الأنبياء والرسل؛ لبيان اجتهادهم في عبادتهم لربهم، ودعوتهم لأقوامهم وصبرهم على أذاهم؛ ليقتدي بهم الدعاة إلى الله، ولبيان نماذج من الذين أنعم الله عليهم، الذين ندعو في كل صلاة أن يهدينا طريقهم، بقولنا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

....





المطلب الثاني : أسماء الله الحسنى في السورة، ودلالتها على مقصد السورة :

تمهيد:

الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومعرفتها يتضمّن أنواع التوحيد الثلاثة؛ توحيد الربوبيّة، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي رَوح الإيمان وأصله وغايته، فكلّما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته؛ ازداد إيمانه، وقوي يقينه.

وقد اشتملت سورة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ على التعريف بالمعبود تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى، والصفات العليا إليها، ومدارها عليها؛ وهي: (الله، والرَّب، والرَّحمنُ)، وبُنيت السورة على الألوهية، والربوبية، والرحمة، وآثارها على العباد مؤمنهم وكافرهم.

وقد تضمنت السورة أيضًا إثبات النبوات التي هي أعظم وأجل مظاهر رحمته، والتي بها حياة القلوب والأرواح من جهات عديدة:

١- من اسم «الرب». فلا يليق به أن يترك عباده سُدًى هَمَلًا لا يُعرِّفُهم ما ينفعهم في معاشهم، ومعادهم، وما يضرهم فيهما، فهذا هَضْمٌ للربوبية، ونسبة الرب -تعالى- إلى ما لا يليق به، وما قَدَرَه حق قدرِه مَن نسبه إليه، وقد ورد اسم الرب (٢٣) مرةً في سيقات مختلفة بدلالات مختلفة.

٢- من اسم «الله»، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله عليهم الصلاة والسلام، وقد ورد اسم الله (٩) مراتٍ في سياقات مختلفة بدلالات متنوعة.



٣- من اسمه «**الرحمن**»، فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم.

فمن أعْطى اسم «**الرحمن**» حقَّه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث، وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظّ البهائم والدواب. وأدرك منه أُولُو الألباب أمرًا وراء ذلك(١).

وقد ذكر اسم الرحمن (١٦) مرةً في السورة.

وقد ذكرت السورة جمعًا من الأنبياء والرسل الذين هم رحمة للعالمين؛ وهم: زكريا، ويحيى، وعيسى، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس -عليهم الصلاة والسلام-.

وسوف أتناول هذه الأسماء في السطور التالية:

۞ أولًا: الرحمن جَلَّ وَعَلَا:

الرحمن الرحيم: «اسمان دالان على أنه -تعالى- ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمَّت كل مخلوق، وكتب الرحمة الكاملة للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية، ومن عداهم محروم من هذه الرحمة الكاملة؛ لأنه الذي دفع هذه الرحمة، وأباها بتكذيبه للخبر، وتولِّيه عن الأمر، فلا يلومن إلا نفسه»(٢).

---

(١) مدارج السالكين، ١/ ٨، بتصرف. هذا الكلام عند حديث ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سورة الفاتحة، وبالتأمل في سورة مريم؛ نجد أنها اشتركت مع الفاتحة في هذه المزايا.

(٢) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي: ص٢٠٠، ٢٠٣.

والله خلق الخلق برحمته، وأرسل إليهم الرسل برحمته، وأمرهم ونهاهم وشرع لهم الشرائع برحمته، وأسبغ عليهم النعمة الظاهرة، والباطنة برحمته، ودبَّرهم أنواع التدبير وصرفهم بأنواع التصريف برحمته، وملأ الدنيا والآخرة من رحمته، فلا طابت الأمور، ولا تيسرت الأشياء، ولا حصلت المقاصد، وأنواع المطالب إلا برحمته، ورحمته فوق ذلك، وأجل وأعلى. وللمحسنين المتقين من رحمته النصيب الوافر والخير المتكاثر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦][1].

تكرار اسم الرحمن في السورة:

تكرر اسم (الرحمن) ١٦ مرةً، والرحمة ٤ مراتٍ، وهذا الاسم يفيض بالرحمة ومعانيها في جو السورة وظلالها.

ومن نماذج ذكر اسم الرحمن في السورة ودلالته على مقصد السورة:

النموذج الأول:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: ١٨].

استعاذت مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ باسم الله الرحمن دون سواه؛ ليرحم ضعفها فينجيها من هذا الطارق الغريب عليها، والمعنى: إن كنتَ تتَّقي الله، فستنتهي بتعوُّذي منك[2]؛ لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي، فالتقيّ ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، ويرجع عن دَفْعَةِ الشهوة ونزغ الشيطان.

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص٦٤).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي: ٣/ ١٢٤.

«واختارت عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ اسم: ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ١٨] ولم تقل: «بالله» أي: بالذي يرحمني فيحفظني منك[١]؛ ربي الذي رحمته عامة لجميع عباده في الدنيا والآخرة، وله بنا خصوصية في إسباغ الرحمة وإتمام النعمة؛ فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه، وهذه العفة -خصوصًا مع اجتماع الدواعي وعدم المانع- من أفضل الأعمال؛ ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]؛ فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله، ورسولًا من رسله»[٢].

النموذج الثاني:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: ٢٦].

خَصَّت مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ اسم الرحمن هنا؛ لما يتضمنه من الرحمة الواسعة التي تحفظها من أذى قومها، وتخرجها من حزنها، فقولها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: الذي عمت رحمته فأدخلني فيها على ضعفي، وخصني بما رأيت من الخوارق، «أمرها الله رحمة منه بها أن تنذر الصوم؛ لئلا تشرع مع البشر

(١) لطائف الإشارات: ٢/ ٤٢٣.

(٢) تفسير السعدي: ٤٩١.




المتهمين لها في الكلام لمعنيين؛ أحدهما: أن عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها. والثاني: كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم. وفيه أن السكوت عن السفيه واجب»[1].

النموذج الثالث:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [مريم: ٤٤].

جاء الاختيار لاسم الرحمن في هذا الموضع؛ تنبيهًا على أن الشيطان يأمر بما ينافي الرحمة، ولبيان شناعة عصيان مَن هو عظيم الرحمة الذي يمهل من عصاه ولا يهمله، قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٤] المنعم بجميع النعم القادر على سلبها، ولم يقل: للجبار؛ لئلا يتوهم أنه ما أملى لعاصيه مع جبروته إلا للعجز عنه[2].

و قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن؛ إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته»[3].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختير وصف الرحمن من بين صفات الله تعالى؛ تنبيهًا على أن عبادة الأصنام توجب غضب الله؛ فتُفضي إلى الحرمان من رحمته، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يُتَّبَع»[4].

---

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ١٤.

(٢) نظم الدرر: ١٢/ ٢٠٦.

(٣) تفسير السعدي: ٤٩٤.

(٤) التحرير والتنوير: ١٦/ ١١٧.

النموذج الرابع:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾ [مريم: ٤٥].

اختار إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في هذا المقام اسمَ الرحمن؛ ترحُّمًا بوالده، وترغيبًا له في نيل رحمة الرحمن الذي يقبل توبة عباده، وللإشارة إلى أن رحمة الله لا تمنع تعذيب من عصاه بعد الإعذار، ولبيان أن من صفته الرحمة الواسعة ألا يعذب أحدًا إلا لعظم جريرته، حتى لم يجد ذلك المعذَّب مدخلًا لنفسه إلى رحمة الرحمن لتنجيه من العذاب، «وفي قوله (إني أخاف)، نسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه.

وقال: (يمسَّك) فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكَّر العذاب، ثم ذكر الرحمن، ولم يقل الجبار ولا القهار، فأي خطاب ألطف وألين من هذا»[(١)]، وهذا منه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رحمة وشفقة على والده أن يناله عذاب الله.

وعبر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ «عن الجلالة بوصف الرحمن؛ للإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنه أن يرحم إنما يكون؛ لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه مِنْ رحمته مَنْ شأنه سعة الرحمة»[(٢)].

النموذج الخامس:

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

(١) بدائع الفوائد: ٣/ ١٣٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ١١٨.

«في إضافة الآيات إلى اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم؛ حيث هداهم بها إلى الحق، وبصَّرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلَّمهم من الجهالة»[1].

النموذج السادس:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ [مريم: ٦١].

نسب تعالى هذا الوعد الأكيد إلى اسمه الرحمن؛ إشارة إلى أن وعده بذلك مظهر من مظاهر رحمته بهم؛ ليستعدوا لها بالإيمان والعمل الصالح، قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتعرض لعنوان الرحمة؛ للإيذان بأن وعده وإنجازه لكمال سعة رحمته»[2].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أضاف الجنة إلى اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ لأن فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسماها تعالى رحمته، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٧]، وأيضًا ففي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته، التي هي أثرها وموجبها»[3].

النموذج السابع:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩﴾

---

(١) تفسير السعدي: ٤٩٦.

(٢) تفسير أبي السعود: ٥/ ٢٧٢.

(٣) تفسير السعدي: ٤٩٦.

[مريم: ٦٩].

غمرتهم بالشكر والإيمان، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر صفة الرحمن هنا؛ لتفظيع عتوهم؛ لأن شديد الرحمة بالخلق حقيق بالشكر له والإحسان لا بالكفر به والطغيان»[(١)].

ذكر اسم الرحمن في قوله: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨﴾؛ لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه[(٢)]؛ فحرموا من رحمته وإنعامه.

۞ ثانيًا: الرب جَلَّ وَعَلَا:

الرب: هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، «وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، وبهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل؛ لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة»[(٣)].

وهو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يُؤَلَّه لأجلها، وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها له، والفضل كله، والإحسان كله، وإنه لا يشارك الله أحد في معنى من معاني الربوبية ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]، لا بشر ولا ملك، بل هم جميعًا عبيد مربوبون لربهم بكل أنواع الربوبية، فبربوبيته سبحانه يربي الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم؛ خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وإحياءً وإماتةً، وهم يشكرونه على ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ١٤٨.

(٢) المرجع السابق: ١٦/ ١٧٠.

(٣) تفسير السعدي: ٥/ ٦٢٠.





تكرار الاسم في السورة:

تكرر اسم (الرب) في السورة (٢٣) مرةً، وهو يأتي في سياق التربية، والإنعام والإحسان، والإفضال.

نماذج دلالة اسم (الرب) في السورة على مقصدها:

١- قوله تعالى:﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم: ٢٤]، الذي يصل منه إليك كل ما ينفعك ويصلحك، ويرقيك في القرب منه، «والتعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميرها؛ لتشريفها وتأكيدِ التعليل وتكميلِ التسلية»[١].

٢- قوله تعالى:﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴿٢١﴾ ﴾[مريم: ٢١]، التعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميرها؛ لتشريفها وتسليتِها والإشعارِ بعِلة الحُكم؛ فإن هبةَ الغلامِ لها من أحكام تربيتها[٢]، وإحسانه إليها وفضله الكبير عليها.

٣- قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم: ٦]، مرضيًّا عندك قولًا وفعلًا، وتوسيطُ ربِّ بين مفعولي اجعَلْ؛ للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه[٣]، ولعلمه اليقيني أن ما يأتي من الرب فيه من الكمال الإنساني ما يليق بعطاء الكريم المنان.

٤- قوله تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ [مريم: ٤]، التعرض في الموضعين لوصفِ

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ٢٦١.

(٢) المرجع السابق: ٥/ ٢٦٠.

(٣) المرجع السابق: ٥/ ٢٥٥.



الربوبيةِ المُنبئةِ عن إضافة ما فيه صلاحُ المربوبِ، مع الإضافة إلى ضميره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لا سيما توسيطُه بين كان وخبرها؛ لتحريك سلسلةِ الإجابةِ بالمبالغة في التضرّع؛ ولذلك قيل إذا أراد العبدُ أن يُستجابَ له دعاؤُه فليدعُ الله -تعالى- بما يناسبه من أسمائه وصفاتِه[1].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: ٨]، خاطب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربه سبحانه، ولم يخاطب الملك المنادي؛ طرحًا للوسائط، ومبالغة في التضرع، وجِدًّا في التبتل[2]، وأنسًا في خطاب الرب الحبيب لأوليائه، فالحبيب يحب التسرية بالحديث مع محبوبه.

٦- قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨﴾ [مريم: ٤]، عبَّر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه؛ للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله -تعالى- فهو ربه وحده من بينهم، فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي، مع ما تتضمنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إياه والتشريف لنفسه بذلك[3].

ثالثًا: الله جَلَّ وَعَلَا:

الله عَزَّوَجَلَّ هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال، وهذا

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ٢٥٤.

(٢) تفسير الآلوسي: ٢/ ١٤٣.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ١٢٢.

الاسم ترجع إليه جميع الأسماء، فيُقال: الرحمن من أسماء الله، ولا يُقال: الله من أسماء الرحمن، وهكذا في جميع الأسماء، واسم الله -تعالى- هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى، والصفات العُلا[١].

تكرار الاسم في السورة:

تكرر اسم الله في السورة (٩) مراتٍ، وهو يرد في سياق التأليه.

من نماذج دلالة اسم (الله) في السورة على مقصد السورة:

١- النموذج الأول:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾ [مريم: ٣٠].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وبربوبيته، ردًّا على من غلا من بعده في شأنه»[٢]، وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى، وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه»[٣].

وهكذا يعلن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبوديته لله، فليس هو ابنه كما تدعي فرقة، وليس هو إلهًا كما تدعي فرقة، وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعي فرقة، ويعلن أن الله جعله نبيًّا، لا ولدًا ولا شريكًا[٤].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ٢/ ٢٤٩.

(٢) تفسير القرطبي، للقرطبي: ١١/ ١٠٢.

(٣) تفسير ابن كثير، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٠٨.



دلالة اسم (الله) في الآية على مقصد السورة:

أنطق الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أول ما نطق بذلك؛ ليبطل قول من ادّعى فيه الربوبية، رحمة بقومه حتى لا يقعوا في الضلال، ويحرموا من رحمة الله الخاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة؛ لذا قدَّم عَلَيْهِ السَّلَامُ إقراره بالعبودية بإلهام الله إياه؛ لعِلْم الله بما سوف يتقوَّله الغالون فيه مستقبلًا.

٢- النموذج الثاني:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم:٣٦].

أي: ومما أمر عيسى به قومه وهو في مَهْدِهِ، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربهم وربه، وأمرهم بعبادته[١]، وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والاستدلال بالأول على الثاني[٢].

دلالة اسم (الله) في الآية على مقصد السورة:

عرَّفهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بطريق رحمة الله؛ وهي العبودية عن طريق ربوبيته سبحانه، فالعبودية سبيل لتحصيل رحمة الله في الدنيا بإنعامه وإحسانه على عباده المؤمنين، وفي الآخرة بدخول رحمته؛ وهي جنته التي أعدها لعباده المؤمنين.

٣- النموذج الثالث:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

(١) تفسير ابن كثير، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨.

(٢) تفسير السعدي، للسعدي: ٤٩٣.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ذكره لنبيه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هؤلاء الذين اقتصصتُ عليك أنباءهم في هذه السورة يا محمد، الذين أنعم الله عليهم بتوفيقه، فهداهم لطريق الرشد من الأنبياء من ذرّيّة آدم، ومن ذرّيّة من حملنا مع نوح في الفُلك، ومن ذرّيّة إبراهيم خليل الرحمن، ومن ذرّيّة إسرائيل، وممن هدينا للإيمان بالله والعمل بطاعته، وممن اصطفينا واخترنا لرسالتنا ووحينا، فالذي عنى به من ذرية آدم إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمه مريم، ولذلك فرَّق -تعالى ذكره- أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، وإدريس جدُّ نوح»[(١)].

دلالة اسم(الله) في الآية على مقصد السورة:

معلوم أن الرحمة إنعام من الله جَلَّ وَعَلَا على عباده، فذكر سبحانه في هذه السورة الذين أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومنة لا تسبق؛ حيث أنعم عليهم بنعمة الهداية إلى الإيمان بالله والعمل بطاعته، وهذه النعمة رحمة خاصة بهم، ونعمة الاصطفاء بالرسالة والوحي، وهي نعمة خاصة بهم، ورحمة بأقوامهم؛ لأنهم بينوا لهم الطريق الموصِلَة إلى رحمة الله في الدنيا، ورحمة الله في الآخرة؛ وهي إدخال المؤمنين منهم الجنة، ورحمة بالأمة المحمدية؛ حيث أمرنا الله أن نتأسى بهم، وندعو الله أن يوفقنا إلى طريقهم التي سلكوها؛ وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم.

---

(١) تفسير الطبري، لأبي جعفر الطبري، ت. شاكر: ١٨/ ٢١٤.



«وتلك وإن كانت نعمًا وهداية واجتباء، فقد زادت هذه الآية بإسناد تلك العطايا إلى الله تعالى؛ تشريفًا لها، فكان ذلك التشريف هو الجزاء عليها، إذ لا أزيد من المجازى عليه إلا تشريفه»[1].

فتأمل براعة النَّظْم، وكيف أن اسم (الله) في هذه الآية دل على مقصدها؛ وهو شمول رحمته سبحانه لعباده، وخَصَّ هنا النبيين؛ لأنهم رحمة على الخلق كما قال تعالى في حق نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

النموذج الرابع:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝٧٦﴾ [مريم: ٧٦]، لما ذكر عَزَّوَجَلَّ ضلالة الكفَرَة، وارتباكهم في الافتخار بنعم الدنيا، وعماهم عن الطريق المستقيم؛ عقَّب ذلك بذكر نعمته على المؤمنين في أنهم يزيدهم هُدًى في الارتباط إلى الأعمال الصالحة، والمعرفة بالدلائل الواضحة وزيادة العلم دأبًا[2].

دلالة اسم (الله) في الآية على مقصد السورة:

ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه من فضله ورحمته أنه يزيد المهتدين هداية، والتي تشمل توفيقهم إلى العِلْم النافع، والعمل الصالح. فكل من سلك طريقًا في العلم والإيمان والعمل الصالح؛ زاده الله منه، وسهَّله عليه، ويسَّره له، ووهب له أمورًا أُخَرَ لا تدخل تحت كسبه.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٣٣.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية: ٤/ ٣٠.



المطلب الثالث: الفرائد في السورة ودلالتها على مقصد السورة.

اتسمت الفريدة القرآنية باتساقها الكامل مع المعنى المـُـراد منها في السياق القرآني بما لا تغني عنها لفظة أخرى، والمتأمل في الفرائد الواردة في سورة مريم يلحظ اتساق الفرائد فيها مع معنى الرحمة بصورة دقيقة ورائقة.

وفي هذا المطلب نوضِّح دلالة الفريدة القرآنية في السورة لمقصدها، فسبحان من اتسقت مباني كلامه، وانتظمت معانيه بصورة معجزة.

تعريف الفرائد في اللغة والاصطلاح:

لغة: فرد: الفاء والراء والدال أصل صحيح يدل على وحدة... والفريد: الدر إذا نظم وفصل بينه بغيره[(١)].

والفريد، بغير هاء، الجوهرة النفيسة كأنها مفردة في نوعها، والفريدة وهي الشذر من فضة كاللؤلؤة[(٢)].

اصطلاحًا: «إتيان المتكلم بلفظة تتنزل من كلامه منزلة الفريدة من حَبِّ العِقْدِ، تدل على عِظَمِ فصاحته، وقوَّة عارضته، وشدة عربيته؛ حتى إن هذه اللفظة لو سقطت من الكلام لعَزَّ على الفصحاء غرامتها»[(٣)]؛ أي خسارتها وفقدانها.

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: ٤/ ٥٠٠.

(٢) لسان العرب لابن منظور: ٣/ ٣٣٢.

(٣) تحرير التحبير، ابن أبي الأصبع، تحقيق د. حفني شرف ص٥٧٨، ٥٧٦، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م.



ومن التعريف اللغوي والاصطلاحي:

نستخلص أن الفريدة: هي الشيء النفيس الذي لا نظير له، سواء أكان ماديًّا كالذهب والدر، أو معنويًّا كالكلام الفريد المفصَّل.

وإلى الحديث عن الفرائد ودلالتها على مقصد السورة:

١) الْمَخَاضُ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣].

معنى المخاض:

مخض:

الميم والخاء والضاد: أصل صحيح يدل على اضطراب شيء في وعاء مائع، والماخض: الحامل إذا ضربها الطَّلْق، وهذا أيضًا على معنى التشبيه؛ كأن الذي في جوفها شيء مائع يتمخض[(١)].

والمخاض: «الطَّلْقُ وشدة الولادة وأوجاعها»[(٢)].

دلالة الفريدة على مقصد السورة:

عبَّر ربُّنا بهذا اللفظ الذي لم يغنِ غيرُه غناءه؛ لأنه المناسب والموائم لحركة الطفل من خوض ودوران ولفٍّ من أجل الخروج من بطن أمه، وهذا يبدأ عندما تنتهي مدة أجله داخل الرحم.

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: ٥/ ٣٠٤.

(٢) المحرر الوجيز: ٤/ ١٠.

وكان المخاضُ رحمة من الله لمريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ؛ حيث اضطرها وألجأها المخاض بقوَّته وسيطرته عليها إلى جذع النخلة؛ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، ولعله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ألهمها ذلك؛ ليريها من آياته ما يسكِّن روعتها، فتطعم منه الرطب الذي هو خُرْسَةُ النفساء أي طعامها، وغاية في نفعها.

٢) حَتْمًا:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ﴾ [مريم: ٧١].

الحتم: مصدر حتم الأمر إذا أوجبه، فسمي به الموجب، أي: كان ورودهم واجبًا على الله، أوجبه على نفسه وقضى به، وعزم على أن لا يكون غيره[(١)].

دلالة الفريدة على مقصد السورة:

في الآية إدماج ببشارة المتقين الذين وسعتهم رحمة الله، في أثناء وعيد المشركين الذين حُرِموا منها بسبب شركهم، قال ابن عاشور رَحِمَهُٱللَّهُ: «المعنى: وما منكم أحد ممن نزع من كل شيعة وغيره إلا وارد جهنم، حتمًا قضاه الله، فلا مبدل لكلماته، أي فلا تحسبوا أن تنفعكم شفاعتهم، أو تمنعكم عزة شيعكم، أو تلقون التبعة على سادتكم وعظماء أهل ضلالكم، أو يكونون فداء عنكم من النار.

وليس الخطاب في قوله﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ٧١ ﴾ [مريم: ٧١] لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم على معنى ابتداء كلام، بحيث يقتضي أن المؤمنين

---

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٣٥.



يردون النار مع الكافرين، ثم ينجون من عذابها؛ لأن هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة؛ ولأن فضل الله على المؤمنين بالجنة، وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مساقًا واحدًا، كيف وقد صدر الكلام بقوله:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، وهو صريح في اختلاف حشر الفريقين(١).

٣) ضِدًّا:

قال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢].

الضِّدُّ: العون. يقال من أضدادكم: أى أعوانكم، وكأن العون سُمّي ضدًّا؛ لأنه يضاد عدوك، وينافيه بإعانته لك عليه(٢).

أي سيكفر المشركون بعبادة الأصنام، ويدخلون في الإسلام، ويكونون ضدًّا على الأصنام، يهدمون هياكلها ويلعنونها(٣).

دلالة الفريدة على مقصد السورة:

١- فيها بشارة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد المتقين، وخير من وسعته رحمة ربه؛ بأنَّ دينه سيظهر على دين الكفر.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٤٩، ١٥١.

(٢) تفسير الكشاف، للزمخشري: ٣/ ٤١.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٦٤.



٣- لما تعلق المشركون بغير الله تعالى؛ وكَلَهُمُ الله إلى ما تعلَّقوا به، وخذلهم من جهة ما تعلقوا به، وفاتهم تحصيل مقصودهم من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بتعلقهم بغيره، والتفاتهم إلى سواه، فلا على نصيبهم من رحمة الله حصلوا، ولا إلى ما أمَّلوه ممن تعلقوا به وصلوا.

٤) وَفْدًا:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ [مريم: ٨٥].

وفد:

يقال: وَفَدَ القومُ تَفِدُ وِفَادَةً، وهم وَفْدٌ ووُفُودٌ، وهم الذين يقدمون على الملوك مستنجزين الحوائج[١].

دلالة الفريدة على مقصد السورة:

كرامة المتقين عند وفودهم على الرحمن يوم القيامة، وخذلان المجرمين وحرمانهم من رحمة الله.

يخبر - تعالى - عن تفاوت الفريقين؛ المتقين، والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مُكرَمين، مُبجَّلين، مُعظَّمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفودًا عليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء، وحسن الظن بالوافد عليه ما هو معلوم، فالمتقون يِفدون على الرحمن، راجين منه رحمته وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع

(١) مفردات غريب القرآن للأصفهاني: ٨٧٧.



مراضيه، وإن الله قد عهد إليهم بذلك الثواب على ألسنة رسله، فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم وردًا، أي: عطاشًا، وهذا أبشع ما يكون من الحالات؛ سَوْقُهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة؛ وهو جهنم، في حال ظمئهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم[1].

٥) إِدًّا:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ [مريم: ٨٩]، أي: أمرًا منكرًا يقع فيه جلبة[2].

والإدُّ بالكسر والفتح: العظيمُ المنكر، والإدّةُ: الشدةُ، وأدَني الأمرُ وآدَني: أثقلني وعظُم عليّ، أي فعلتم أمرًا منكرًا شديدًا لا يقادَر قدره[3].

دلالة الفريدة على مقصد السورة:

في الفريدة من التشنيع والتفظيع؛ لما افتروا على الله الكذب بقولهم﴿ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾[مريم: ٨٨]، وهذا من أسباب حرمانهم من رحمة الرحمن التي وسِعَتْ رحمته كل شيء.

---

(١) تفسير السعدي: ٥٠٠.

(٢) مفردات غريب القرآن: ٦٩.

(٣) تفسير أبي السعود: ٥/ ٢٨٢.



٦) رِكْزًا:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: ٩٨].

الرِّكْزُ: الصَّوْتُ الخَفِيُّ.

وهو كناية عن اضمحلالهم، كنّى باضمحلال لوازم الوجود عن اضمحلال وجودهم[١].

لما ذكروا بالعناد والمكابرة، أتبع بالتعريض بتهديدهم على ذلك؛ بتذكيرهم بالأمم التي استأصلها الله لجبروتها وتعنتها؛ لتكون لهم قياسًا ومثلًا؛ لأن في التعريض بالوعيد نذارة لهم، وبشارة للمؤمنين باقتراب إراحتهم من ضرهم[٢].

تصوير سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ للهلاك:

«وهو مشهد يبدؤك بالرجّة المدمِّرة، ثم يغمرك بالصمت العميق. وكأنما يأخذ بك إلى وادي الرّدى، ويقفك على مصارع القرون، وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد يحدُّه البصر، يسبح خيالك مع الشخوص التي كانت تدب وتتحرك، والحياة التي كانت تنبض وتمرح. والأماني والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع. . ثم إذا الصمت يخيم، والموت يجثُمُ، وإذا الجُثَثُ والأشلاء والبِلى والدّمار، لا نأمة[٣]، لا حس، لا حركة، لا صوت. . ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ؟﴾ انظر وتلفَّت ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ تسمَّع وأنصت.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ١٧٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) نأم: النون والهمزة والميم أصيل يدل على صوت (مقاييس اللغة: ٥/ ٣٧٧).



ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب. وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت»[1].

٧) اشْتَعَلَ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤﴾ [مريم: ٤].

شعل: الشَّعْلُ: التهاب النّار، يُقالُ: شُعْلَةٌ من النّار، وقد أَشْعَلْتُهَا، والشَّعِيلَةُ: الفتيلة إذا كانت مُشْتَعِلَةً، وقيل:

بياض يَشْتَعِلُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]؛ تشبيهًا بِالاشْتِعَالِ من حيث اللّونُ[2].

شبه الشيب بشُوُاظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشَّعر، وفشوّه فيه، وأخذه منه كل مأخذ، باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس. وأخرج الشيب مميزًا ولم يُضِف الرأس: اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا[3].

«ويشكو إليه اشتعال الرأس شيبًا، والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل، ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد. ووَهَنُ العَظْمِ، واشتعال الرأس شيبًا، كلاهما كناية عن

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٤٥٧.

(٣) الكشاف للزمخشري: ٣/ ٤.





الشيخوخة، وضعفها الذي يعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه، وهو يعرض عليه حاله ورجاءه»[1].

وشبَّه عموم الشيب شعرَ رأسِه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامعٍ في جسم أسود، تشبيهًا مُرَكَّبًا تمثيليًّا قابلًا لاعتبار التفريق في التشبيه، وهو أبدع أنواع المُرَكَّبِ. فشبَّه الشَّعْر الأسود بفحم، والشَّعْرَ الأبيض بنار على طريق التمثيلية المكنية، ورمز إلى الأمرين بِفِعْل اشتعل.

والخبران من قوله: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ مستعملان مجازًا في لازم الإخبار، وهو الاسترحام لحاله»[2].

دلالة الفريدة على مقصد السورة:

أخبر بحاله؛ طلبًا لرحمة ربه سبحانه، ووَصَفَ من حاله ما تشتد معه الحاجة إلى الولد حالًا ومآلًا، فكان اشتعال الرأس بالشيب حالًا مقتضيًا للاستعانة بالولد.

....

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٠٢.

(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٦٤.



المطلب الرابع : دلالة الآيات الكونية على مقصد السورة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣].

تأمَّل انتفاضة الكون وغضبه وغيرته من المساس بقداسة الذات العلية، وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والتنقص به، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته وغناه إليه.

وتكرير اسم الرحمن في هذه الآيات أربع مرات؛ إيماء إلى أن وصف الرحمن الثابت لله، والذي لا ينكر المشركون ثبوت حقيقته لله، وإن أنكروا لفظه، ينافي ادعاء الولد له؛ لأن الرحمن وصفٌ يدل على عموم الرحمة وتكثُّرِها، ومعنى ذلك: أنها شاملة لكل موجود، فذلك يقتضي أن كل موجود مفتقر إلى رحمة الله تعالى، ولا يتقوم ذلك إلا بتحقق العبودية فيه؛ لأنه لو كان بعض الموجودات ابنًا لله تعالى لاستغنى عن رحمته؛ لأنه يكون بالبنوة مساويًا له في الإلهية المقتضية الغنى المطلق، ولأن اتخاذ الابن يتطلب به متخذه بر الابن به ورحمته له، وذلك ينافي كون الله مفيض كل رحمة.

فذكر هذا الوصف عند قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، وقوله: ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾؛ تسجيلًا لغباوتهم، وذكَرَه عند قوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾؛ إيماء إلى دليل عدم لياقة اتخاذ الابن بالله، وذكره عند قوله:



﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾؛ استدلال على احتياج جميع الموجودات إليه، وإقرارها له بملكه إياها[1].

موضع الدلالة في الآيات:

١- التعبير باسم الرحمن في هذه الآيات إشارة إلى صبره تعالى على أذاهم وإمهاله لهم؛ رحمة بهم، لعلهم يرجعون ويتوبون عن هذا القول الشنيع. روى البخاري بسنده عن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ليس أحد، أو: ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم»[2].

أن السموات والأرض تعبد ربها، وتسبح له بما يليق به، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ ولذلك لما سمعت بمقولة الكفار في حق معبودهم؛ انتفضت انتفاضة الغاضب؛ غيرةً عليه سبحانه، وكأنها تقول أَمَرنا بتسبيحه فسبَّحانه حق التسبيح، وأمرت أنت بعبادته؛ فأعرضت استكبارًا، فلا تنتظر أن يعمَّك برحمته الواسعة، وإن شملتك برزقه ومعافته إياك، وإمهاله لك.

....

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ١٧٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب: باب الصبر على الأذى، (٦٠٩٩).



المطلب الخامس: دلالة سنة الله في ثواب المؤمنين وجزاء المجرمين على مقصد السورة:

أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه سيجعل للمؤمنين محبة منه تعالى، ومحبة في قلوب عباده المؤمنين؛ فيحب بعضهم بعضًا، فيتراحمون، ويتعاطفون بما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض من المحبة كرامة منه ورحمة بهم؛ لتفردهم في عبادته سبحانه، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]، والمعنى: سيُحْدِثُ لهم في القلوب مودَّة، ويزرعها لهم فيها، من غير تودُّدٍ منهم، ولا تعرُّضٍ للأسباب التي توجب الودَّ ويكتسب بها الناس مودات القلوب، من قرابة أو صداقة أو اصطناع بِمَبَرَّةٍ أو غير ذلك، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصًا منه لأوليائه بكرامة خاصة، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظامًا لهم وإجلالًا لمكانهم(١).

وللتعبير بالود في هذا الجو نداوة رخيَّة تمس القلوب، وروح رضى يلمس النفوس، وهو ود يشيع في الملأ الأعلى، ثم يفيض على الأرض والناس؛ فيمتلىء به الكون كله ويفيض(٢).

وفي هذا المعنى روى مسلم بسنده عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّى أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ - قَالَ - فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى فِى السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ - قَالَ - ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى الأَرْضِ»(٣).

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري: ٣/ ٤٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢١.

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، (٢٦٣٧).

وأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه أهلك كثيرًا من المجرمين الذين أعرضوا عن طريق الحق، وآذوا أهل الحق بصنوف الإيذاء؛ ليشفي قلوب قوم مؤمنين، ويذهب غَيْظَ قلوبهم، وتطهيرًا للأرض منهم ومن خبثهم وفسادهم؛ رحمةً بجميع المخلوقات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: ٩٨].

المعنى أهلكناهم بالكلية، واستأصلناهم؛ بحيث لا يُرى منهم أحدٌ، ولا يسمع منهم صوتٌ خفيّ[1]، ولم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وأسمارهم عِظَةٌ للمتعظين، ونذارة للمجرمين في كل عصر وحين، وبشارة للمؤمنين باقتراب إراحتهم من ضرهم.

.....:::::::::.....

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ٢٨٤.



المطلب السادس : دلالة سنة الله في إمهال المجرمين على مقصد السورة :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: ٨٤].

أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، إنما نُؤَخِّرُهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله[١]، لا يتقدَّمون عنه ولا يتأخَّرون، نُمْهِلُهُمْ ونحلم عليهم مدة؛ ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينجع فيهم ذلك؛ أخذناهم أخذ عزيز مقتدر[٢]؛ فلا يضيق صدرُك بهم فإنهم مُمهَلون إلى أجل قريب، وكل شيء من أعمالهم محسوب عليهم ومعدود.

وهذا الإمهال رحمة منه بهم؛ لأن رحمته سبقت غضبه.

(١) تفسير ابن كثير: ٥/ ٢٦٢

(٢) تفسير السعدي: ٥٠٠.



المطلب السابع: دلالة مشاهد القيامة على مقصد السورة (كرامة المؤمنين وإهانة الكافرين):

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم: ٨٥-٨٧].

يخبر - تعالى - عن تفاوت الفريقين؛ المتَّقينَ، والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرَّمين، مبجَّلين معظَّمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنّان، وفودًا إليه، فالمتقون يفدون إلى الرحمن، راجين منه رحمته وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدَّموه من العمل بتقواه، واتباع مراضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب على ألسنة رسله، فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم عطاشًا، وهذا أبشع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة؛ وهو جهنم، في حال ظمئهم ونصبهم، يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يُستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم[1].

عن عليّ، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، قال: أما والله ما يحشر الوفد على أرجلهم، ولا يساقون سوقًا، ولكنهم يؤتون بِنُوقٍ لم

(١) تفسير السعدي: ٥٠٠، باختصار يسير.



يرُ الخلائق مثلها، عليها رحال الذهب، وأزمتها الزبرجد، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة[1].

وذِكْر المتقين بلفظ التبجيل، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته، وخصهم برضوانه وكرامته، كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم[2].

أما الذين حُرِموا رحمته في الآخرة بإعراضهم عن طريق العبودية في الدنيا؛ فيساقون إلى جنهم عطاشًا، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾، يقول: عطاشًا.

ويحرمون من الشفاعة؛ لأنهم لم يأتوا الله بإيمان، أما المؤمنون فيشفعون في بعضهم بعضًا، عن ابن جريج رَحِمَهُ اللَّهُ، قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، قال: المؤمنون يومئذ بعضهم لبعض شفعاء[3].

فتأمَّل رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكرامته وحسن الاستقبال لأهل الإيمان، أما المجرمون فمسوقون إلى جهنم وِردًا كما تُساقُ القطعان.

وبهذا أكون قد انتهيت من البحث.

أَسْأَلُ اللهَ الْقَبُولَ الْحَسَنَ.

....

(١) تفسير الطبري: ١٨/ ٢٥٤.

(٢) تفسير الكشاف: ٣/ ٤٢.

(٣) المرجع السابق: ١٨/ ٢٥٦.





الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد. .

فبعد هذا التطواف والبحث في موضوع (أفانين السورة القرآنية في دلالتها على مقصدها)؛ نخرج بالنتائج الآتية:

١- إن مقصد السورة، هو مغزى السورة الذي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها.

٢- تعدد طرق الكشف عن مقصد السورة؛ والتي من أهمها: اسم السورة، فضائل السورة، التأمل في أوائل السورة وأواخرها، إمعان النظر في الكلمات المكرَّرة، النظرة الشاملة للسورة من أولها إلى آخرها.

٣- تتنوع أفانين السورة في دلالتها على المقصد؛ والتي منها: القصص، أسماء الله الحسنى، الفرائد القرآنية، الآيات الكونية، سنن الله في الأنفس، مشاهد القيامة، وغير ذلك مما تتميَّز به كل سورة.

٤- ظهر من خلال التأمل والتدبر في سورة مريم أن لها أفانين اختصت بها تدل على مقصدها.

٥- اتضح أن كل كلمة، وكل جملة، وكل قصة، وكل فريدة، وكل سُنَّة كونية، وكل اسم من أسماء الله الحسنى في السورة له دلالة على مقصدها.



التوصيات :

أوصي الباحثين بما يلي:

١) ضرورة الاهتمام بالبحث في أفانين السور القرآنية ودلالتها في تحقيق مقاصدها؛ لأن وراء ذلك عِلْمٌ غزير يجب أن يُبحَثَ ويُنْشَرَ.

٢) البحث في أفانين القرآن في تحقيق مقاصده.

.....:::::::::::.....





المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د. ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، المحقق: صدقي محمد جميل، د. ط، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

٣. بدائع الفوائد، ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، د. ط، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، د. ت.

٤. البرهان في تناسب سور القرآن، الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تحقيق: محمد شعباني، د.ط، المغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٥. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدَّيْنَوَرِيّ، أبو محمد عبد الله بن مسلم، المحقق: إبراهيم شمس الدين، د. ط، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، د. ت.

٦. تحرير التحبير، ابن أبي الأصبع المصري، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر، تحقيق: د. حفني شرف، د. ط، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٨٣م.

٧. التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، د. ط، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.



٨. تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى، د. ط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.

٩. تفسير أسماء الله الحسنى، السعدي، أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد، المحقق: عبيد بن علي العبيد، د. ط، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، العدد ١١٢ – السنة ٣٣ –١٤٢١هـ.

١٠. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية، القاهرة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م.

١٢. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، المحقق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م.

١٣. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ.

١٤. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، تحقيق: أحمد





البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، المحقق: علي عبد الباري عطية، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

١٦. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

١٧. سنن أبي داود، أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، د. ط، بيروت، د. ن، د. ت.

١٨. سنن الترمذي، الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الطبعة الثانية، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

١٩. عِلْمُ مقاصد السور وأثره في تدبر القرآن الكريم، المطيري، عبد المحسن بن زبن المطيري، د. ط، الكويت، جامعة الكويت، د. ت.

٢٠. في ظلال القرآن، قطب، سيد إبراهيم حسين الشاربي، ط (١٧)، بيروت - القاهرة، دار الشروق، ١٤١٢هـ.



٢١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

٢٢. الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني القريمي، أبو البقاء الحنفي، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، د. ط، بيروت، مؤسسة الرسالة، د. ت.

٢٣. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤١٤هـ.

٢٤. لطائف الإشارات = تفسير القشيري، القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، المحقق: إبراهيم البسيوني، الطبعة الثالثة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ت.

٢٥. مباحث في إعجاز القرآن، مسلم، مصطفى، الطبعة الثالثة، دمشق، دار القلم، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الاولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

٢٧. المختصر في تفسير القرآن الكريم، جماعة من علماء التفسير، الطبعة الثالثة، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ١٤٣٦هـ.

٢٨. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.



٢٩. المدخل إلى التفسير الموضوعي، سعيد، عبد الستار فتح الله، الطبعة الثانية، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، د. ت.

٣٠. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، د. ط، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٣١. مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ، ويُسَمَّى: «المَقْصِدُ الأَسْمَى في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَّ»، البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٣٢. معجم اللغة العربية المعاصرة، عمر، أحمد مختار عبد الحميد، بمساعدة فريق عمل، الطبعة الأولى، بيروت، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٣٣. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، المحقق: عبد السلام محمد هارون، د. ط، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٤. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى، بيروت، دار القلم، ١٤١٢هـ.

٣٥. الموافقات، الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولى، السعودية، دار ابن عفان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٦. المواهب الربانية من الآيات القرآنية، السعدي، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر، جمعها: عبد الرحمن سمير الماضي، د. ط، د. ن، د. ت.



٣٧. النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، دراز، محمد بن عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدَّم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، د. ط، بيروت، دار القلم للنشر والتوزيع، طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٣٨. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، د. ط، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د. ت.





المحتوى







البحث الثالث

التَّدبُّرُ فِي رَسَائِلِ النُّورِ للنُّورَسِيِّ

د. هَاشِمُ بْنُ عَلِي بْنِ أَحْمَدَ الأَهْدَل

رئيس قسم الشريعة بكلية الحرم المكي
بمكة المكرمة

۞ رئيس قسم الشريعة بكلية الحرم المكي الشريف بمكة المكرمة

۞ حصل على درجة الماجستير من كلية التربية بجامعة أم القرى بأطروحته: (التربية الذاتية في الكتاب والسنة).

۞ حصل على درجة الدكتوراه من كلية العلوم الاجتماعية بجامعة أم القرى بأطروحته: (أصول التربية الحضارية في الإسلام).

النتاج العلمي:

تعليم تدبر القرآن - أساليب عملية ومراحل منهجية - معالم تربوية وتعليمية في المصحف الشريف- استماع القرآن الكريم، معلمات القرآن والتحضير المنزلي للدرس القرآني - تعليم القرآن في الهند- تعزيز الأمن الفكري - معلم القرآن والأسس النفسية في منهج التدبر.

البريد الإلكتروني: Haahdal@hotmail.com


مجلة تدبر



مستخلص البحث

❁ التدبر من النصيحة لكتاب الله، والقيام بحق من حقوق القرآن، وقراءة آية بتدبر خير من قراءة آيات بلا تدبر، ولا يقتصر مفهوم التدبر على مجرد التلاوة، بل إنه يشمل تفهم الكلمات والعبارات والمعاني، ومباشرة الأعمال وتنفيذها، ومن التدبر الوقوف على الآيات والتفكر فيها.

❁ من أهمية التدبر أنه اقتداءٌ واتساءٌ بنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي كانت سيرته مليئة بالمواقف التي تبين حسن تدبره لكتاب الله.

❁ وفي رسائل النور، يصرح الأستاذ النورسي بمفهوم التدبر، ويبين أنه ضروري لبني الإنسان، ويؤكد على أن طريق القرآن الكريم هو أقصر وأقرب وأشمل طريق إلى الله، وإلى معرفته.

❁ وتنوعت مجالات التدبر في رسائل النور للنورسي، وهي تنطلق من اعتقاد مؤلف الرسائل أن القرآن جامع لأشتات العلوم.

❁ وتدعو رسائل النور المسلمين إلى تدبر القرآن، وتحث المستفيدين من رسائل النور إلى أن يرجعوا إلى القرآن ويتدبروه، ويتفكروا في إرشاداته ودلالاته.

❁ من مجالات التدبر في رسائل النور مناقشة وحدانية الله وإفراده بالعبادة، والرد على الملحدين، وما يتعلق بالرسالة الإسلامية والنبي الخاتم، والإشارة إلى علاج القرآن لكل الأمراض والشبهات، وإزالة الأوهام والأفكار السلبية.



❁ كما تحوي رسائل النور الكثير من الأساليب التي تشير إلى كيفية التدبر، وتعين عليه، ومن هذه الأساليب تكرار تلاوة الآيات، والعناية بمقاصد القرآن، وحسن الاستماع للقرآن، والاستفادة من منهج السلف الصالح.

❁ ورغم كثرة الجوانب الجيدة عن التدبر في رسائل النور، إلا إنها لا تخلو من الملاحظات التدبرية التي تحتاج إلى مراجعة وتنبيه، وعلى قراء رسائل النور أن يتنبهوا لتلك الملاحظات والمؤاخذات، التي تخالف ما اتفق عليه علماء التفسير والاستنباط، وصولاً للحق وحمايةً أن يقال في كلام الله ما ليس بحق.

الكلمات المفتاحية:

القرآن – التدبر – النورسي – مجالات التدبر – أساليب التدبر – رسائل النور.



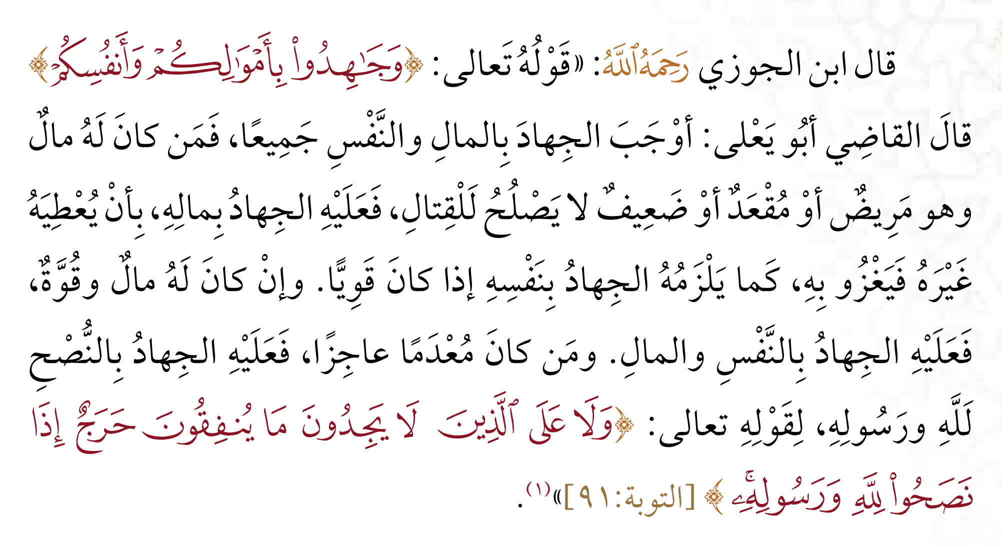


الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

للدعاة والمصلحين دور بارز في نهضة أبناء الأمة، وإرجاعهم إلى دينهم، كلما حادوا عن المنهج الحق، وتنكبوا الجادة. والعودة الحقيقية تكون بالرجوع إلى المصدرين الأصيلين؛ الكتاب والسنة. والدعاة الناصحون يوجهون الشعوب والمجتمعات للحفاظ على هويتهم، والتمسك بمنهجهم، ويسعون لنشره في العالمين، وهم بذلك يرفعون راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتحقيق الخيرية للأمة، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن رحمة الله بالأمة أن يهيئ لها من الدعاة والمصلحين، من يعيدها لدينها، رجوعًا للقرآن وتمسكًا بسنة الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهؤلاء الدعاة والأئمة، ينيرون الدرب للحائرين، ويبصرون الشعوب حين تضل الطريق، ويجاهدون في سبيل ذلك بأموالهم وأنفسهم، وبألسنتهم وأقلامهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]. يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالصَّحِيحُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ النَّاسَ أُمِرُوا جُمْلَةً أَيِ انْفِرُوا خَفَّتْ عَلَيْكُمُ الْحَرَكَةُ أَوْ ثَقُلَتْ»(١).

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج١٠ ص٢٢١.


قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ قالَ القاضِي أَبُو يَعْلى: أَوْجَبَ الجِهادَ بِالمالِ والنَّفْسِ جَمِيعًا، فَمَن كانَ لَهُ مالٌ وهو مَرِيضٌ أَوْ مُقْعَدٌ أَوْ ضَعِيفٌ لا يَصْلُحُ لَلْقِتالِ، فَعَلَيْهِ الجِهادُ بِمالِهِ، بِأَنْ يُعْطِيَهُ غَيْرَهُ فَيَغْزُو بِهِ، كَما يَلْزَمُهُ الجِهادُ بِنَفْسِهِ إذا كانَ قَوِيًّا. وإِنْ كانَ لَهُ مالٌ وقُوَّةٌ، فَعَلَيْهِ الجِهادُ بِالنَّفْسِ والمالِ. ومَن كانَ مُعْدَمًا عاجِزًا، فَعَلَيْهِ الجِهادُ بِالنُّصْحِ لَلَّهِ ورَسُولِهِ، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩١]»[1].

ولقد تفضَّل المولى على الأمة، بظهور الإصلاح الديني، أو ما يُسمَّى بالمصطلح النبوي: التجديد في الدين، حيث يبعث الله الدعاة والأئمة والمصلحين على رأس كل قرن من الزمان، يُجدِّدون أمور الدين، ويعيدون الناس إلى المنهج، وتكون لهم آثار دعوية إيجابية في مجتمعاتهم. وقد يكون التجديد في مجال فأكثر، وقد يتعدد في البلدان، بل قد يكون في البلد الواحد أكثر من مُجدِّد.

واستمر العلماء والدعاة منذ فجر الإسلام إلى عصرنا الحاضر، وهم يؤكدون على الالتزام بالقرآن الكريم، علمـًا وعملاً، ودعوةً ومنهجًا، وألفوا في ذلك المصنفات والكتب، وظهروا في مختلف البلدان.

ويُعد عالم التُّرك سعيد النورسي، من هؤلاء الدعاة الذين جاهدوا بأقلامهم، واعتنَوا بالقرآن الكريم، ومارسوا الدعوة الإصلاحية من خلال

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، ج٣ ص٤٤٣.





القرآن، وكتبوا - خصوصـًا - في رسالة القرآن، وكان ثمرة هذا الاهتمام أن ألَّف مجموعة رسائل النور، التي يمكن اعتبارها كتبًا تطبيقيةً لتدبر القرآن.

ومن خلال التأمل في تلك الرسائل، يجد الباحث أن الأستاذ النورسي قد تأثر بالقرآن روحًا، وعقلًا، وكان القرآن مصدره الأصيل في ذلك، وتدور كلماته وألفاظه حول معاني القرآن، ويرى أن العلاج في العمل بالقرآن، ومن أقواله: «عصر مريض، وعنصر سقيم، وعضو عليل، وَصْفَتُه الطِّبية هي اتباع القرآن»[١].

ويبدو أن الفترة التي سبقت كتابة رسائل النور، برزت الحضارة الغربية، والتيارات الفكرية، والمذاهب الإلحادية، وابتعد كثير من المسلمين عن القرآن، وعن قيمه الحضارية، وفي ذلك الوقت كان الهجوم على الشعائر الدينية أكثر من ذي قبل، وقد استعمل الداعية سعيد النورسي فكره وتدبره للقرآن لإبراز الإسلام ومبادئه، وبيان حقائق القرآن، وعلاقة العلم بالإيمان، وضرورة الرجوع للقرآن، وإثبات معجزات الأنبياء، وكمال النبوة في بعثة سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «فقام لأجل ذلك يحدد طريقة مواجهة تلك الأحداث وأسلوبها، دفاعًا عن القرآن، وحمايةً لنور الإيمان، ولِيتجلَّى بذلك الربط البديع للفقه بقضايا العصر ومشكلاته، وتنزيل النص، بحكمة، على أرض الواقع»[٢]، وكان يعتبر رسائل النور أنها «تفسير قَيِّم، وحقيقيّ للقرآن الكريم»[٣].

---

(١) سيرة ذاتية، ج١ ص٤٨٢.

(٢) إعجاز القرآن، ص١٧.

(٣) سيرة ذاتية، ج١ ص٤٨٢.



وسنحاول في هذا البحث النظر في رسائل النور، لاستخراج دلالات تدبر القرآن الكريم، وبيان دعوة النورسي للرجوع للقرآن، لحل المشكلات وتخطي الصعوبات، والتأكيد على أن يستفيد المسلم من إضاءات القرآن في حياته العلمية والعملية. ولا بد أن نبين في هذه المقدمة أن الأستاذ النورسي كان على الطريقة الصوفية الماتريدية، التي كانت سائدة أيام الخلافة العثمانية، لكن البحث سيتجاوز الاستنباطات العقدية المخالفة لمنهج السلف، فلها مجال آخر، وسيركز على مجال تدبر القرآن، فيما لا يخرج عن مفاهيم أهل السنة والجماعة.

أهمية الدراسة:

- تعلق موضوع الدراسة بالقرآن الكريم، وشرف الموضوع من شرف العلم الذي يدرسه.
- انتشار رسائل النور للنورسي في شتى بقاع الأرض، وتأثر كثير من المسلمين بها.
- العودة بالأمة إلى منهج تدارس القرآن وتدبره، من أجل العمل به.

أهداف الدراسة:

- حث طلاب مدرسة النور على الإفادة من منهج النورسي في تدبر القرآن.
- بيان علاقة رسائل النور بتدبر القرآن.
- إبراز الدعوة لتدبر القرآن في رسائل النور.





- عرض لبعض مجالات التدبر في رسائل النور.
- استخراج بعض أساليب التدبر في رسائل النور.

منهج الدراسة:

يستخدم البحث المنهج الاستنباطي لاستخراج دلالات تدبر القرآن في رسائل النور، ويرجع إلى المنهج الوصفي لعرض أدبيات مفهوم تدبر القرآن.

مباحث الدراسة:

المبحث الأول: مفهوم تدبر القرآن وأهميته وتطبيقاته في حياة المصلحين.

المبحث الثاني: رسائل النور وعلاقتها بالقرآن الكريم.

المبحث الثالث: الدعوة للتدبر في رسائل النور.

المبحث الرابع: مجالات التدبر في رسائل النور

المبحث الخامس: أساليب التدبر في رسائل النور.

النتائج والتوصيات.


مجلة تدبر





المبحث الأول:
مفهوم تدبر القرآن وأهميته وتطبيقاته في حياة المصلحين

مفهوم التدبر:

التدبر كلمة جذرها الدال والباء والراء، وفي لغة العرب: «دبّر الأمر وتدبره، أي نظر في عاقبته، وعُرف الأمر تدبرًا أي بآخره، فتدبر الكلام أي النظر في أوله وآخره، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة، والتدبر في الأمر: التفكر فيه»(١). وبدراسة دلالة المادة (دبر) يمكن جمعها في سمات محددة هي: «النظر في المقاصد والغايات، والتدرج والحدوث والتجدد، وبذل الجهد، والصبر والتحمل»(٢).

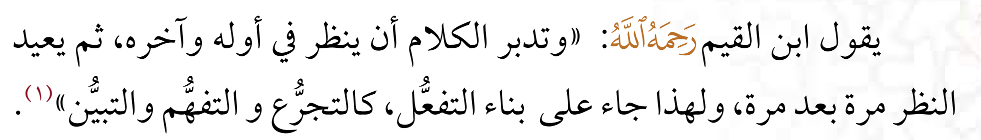
والتدبر وتفهم المعاني فرع من تعلم القرآن، وهو ليس التلاوة أو الحفظ، وقد أشار إليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ، فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ**»(٣).

---

(١) لسان العرب، ج٤ ص٢٦٨.

(٢) مفهوم التدبر، ص٣٤.

(٣) رواه مسلم، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه.



يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره، ثم يعيد النظر مرة بعد مرة، ولهذا جاء على بناء التفعُّل، كالتجرُّع و التفهُّم والتبيُّن»(١).

وعُرِّف التدبر بأنه: «التفكر الشامل، الواصل إلى أواخر دلالات الكلم، ومراميه البعيدة»(٢). وبين بعض الباحثين أن: «كلمة التدبر لآي الله في القرآن تدور حول معانٍ منها: التأمل، التفكر، الاعتبار، التعقل، الامتثال، التفهم»(٣).

وبين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تدبر القرآن: «هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر»(٤).

ولا يقتصر مفهوم التدبر على مجرد التلاوة، بل إنه يشمل تفهم المعاني، ومباشرة الأعمال، قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تدبر آيات هذا القرآن العظيم: أي تصفحها، وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها»(٥).

وعُرِّف تدبر القرآن بأنه: «تفهم معاني ألفاظه، والتفكر فيما تدل عليه آياته مطابقة، وما دخل في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به، مما لم يُعرِّج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بذلك، بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه»(٦).

---

(١) مفتاح دار السعادة، ج١ ص١٨٣.

(٢) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، ص١٠.

(٣) التكوين العقدي لشخصية المسلم، ص٦.

(٤) مدارج السالكين، ج١ ص٤٥١.

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج٧ص٤٢٩.

(٦) تدبر القرآن، السنيدي، ص١١.





إن مقصود تنزل هذا القرآن المبارك هو التدبر، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]. وجاء السياق القرآني بالحث على التدبر والترغيب فيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ المؤمنون: ٦٨. كما جاء الحث عليه في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] .

وجاء الترهيب من ترك تدبر الآيات، والإعراض عنها، وعدم التأثر بها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وبين القرآن أن ذلك من صفات المتكبرين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: ٧]، يقول ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا : أي أدبر إدبارَ مستكبرٍ عنها، رادٍ لها، ولم تدخل قلبه، ولا أثّرت فيه، بل أدبر عنها»[1].

والتدبر من النصيحة لكتاب الله، والقيام بحق من حقوق القرآن، يقول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[2].

ومن أهمية التدبر أنه اقتداءٌ واتساءٌ بنبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي كانت سيرته مليئة بالمواقف التي تبين حسن تدبره لكتاب الله، فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ قراءةً مُتَرَسِّلةً كأنه يفسرها للسامعين، وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم الليل متدبرًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٦٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة. .



بآية واحدة، وكان يتلو القرآن في الصلاة، أو مِن على المنبر، فيتأثر وتدمع عينه، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمع إلى قراءة أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويثني عليها، وربما بكى أثناء استماعه»[١].

والتدبر الصحيح للقرآن يدفع لليقين بأخباره، والتصديق بقصصه، والعمل بأحكامه، ومن أبرز أهدافه أنه يدفع صاحبه للعمل الفوري بالآيات، بدون تردد ولا تلكؤ، يقول السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وَتُسَنُّ الْقِرَاءَةُ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ، وَالْمَطْلُوبُ الْأَهَمُّ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وقال : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وَصِفَةُ ذَلِكَ أَنْ يَشْغَلَ قَلْبَهُ بِالتَّفْكِيرِ فِي مَعْنَى مَا يَلْفِظُ بِهِ، فَيَعْرِفُ مَعْنَى كُلِّ آيَةٍ، وَيَتَأَمَّلُ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ، وَيَعْتَقِدُ قَبُولَ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ مِمَّا قَصَّرَ عَنْهُ فِيمَا مَضَى؛ اعْتَذَرَ وَاسْتَغْفَرَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ اسْتَبْشَرَ وَسَأَلَ، أَوْ عَذَابٍ أَشْفَقَ وَتَعَوَّذَ، أَوْ تَنْزِيهٍ نَزَّهَ وَعَظَّمَ، أَوْ دُعَاءٍ تَضَرَّعَ وَطَلَبَ» [٢].

ومن ثمرات التدبر ونتائجه: «يورث اليقين، ويزيد الإيمان، وهو سبيل إلى الاعتبار والاتعاظ بأمثاله وقصصه، ويحمل على محاسبة النفس ومراجعتها، وهو الطريق إلى معرفة محابِّ الله ومساخطه، وأوصاف أوليائه وصفات أعدائه، وهو أقوى الأسباب لترقيق القلب وتليينه»[٣].

(١) تعليم تدبر القرآن الكريم، ص١٣٠ (بتصرف).

(٢) الإتقان في علوم القرآن، ج١ ص١٢٧.

(٣) الخلاصة في تدبر القرآن الكريم، ص٢٥.

تطبيقات التدبر في حياة المصلحين:

اهتم المصلحون والدعاة منذ فجر الإسلام بالقرآن الكريم، تعلُّمًا وتعليمًا، وتفهُّمًا وتفهيمًا، واعتنوا -خصوصًا- بالتدبر لأنه مقدمة للعمل بالقرآن، وجعْلَه منهج حياة في سلوكهم، وتنوعت دعواتهم بالتصريح المباشر وغير المباشر، أو بذكر آثاره وثماره، ودلَّت أقوالهم وأحوالهم على عظيم أثر التدبر على سلوكهم وحياتهم. وكان في مقدمة هؤلاء الدعاة، صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين. عن عبدالله بن عروة بن الزبير، قال: قلت لجدتي أسماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: كيف كان يصنع أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قرأوا القرآن؟ قالت: «**كانوا كما نعتهم الله تعالى، تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم**»[1].

وأورد شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ [2] الحديث السابق عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

وكان صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتأثرون جداً بتدبرهم للآيات التي يقرأونها أو يسمعونها، يقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكان حالهم، يعني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، عند المواعظ: الفهم عن الله، والبكاء خوفًا من الله، ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند

---

(١) الزهد لابن المبارك، برقم١٠١٦.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ص٤٦١.



سماع ذكر الله وتلاوة كتابه، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣﴾ [المائدة:٨٣]، فهذا وصف حالهم، وحكاية مقالهم، فمن كان مستنًا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة»[١].

ومما ورد عن صديق هذه الأمة، أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، في تأثره لسماع القرآن، وتفاعله مع آياته، وتدبره لما يسمع، أنه: «لما قدم أهل اليمن زمن أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسمعوا القرآن، جعلوا يبكون، قال أبوبكر: **(هكذا كنا)**»[٢]. ومن أخبار عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في تدبره للقرآن، وتأثره به، أنه «كان يمر بالآية في ورده، فتخنقه، فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد، يحسبونه مريضًا»[٣].

وكان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ، يحثون طلابهم على التدبر، ويبينون أهميته في قراءة القرآن، ويعتبرونها من أسس القراءة الصحيحة للقرآن الكريم، يقول علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **(ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا خير في فقه ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر)**[٤].

ومن تدبرهم، التأني والترسل، وعدم السرعة في قراءة الآيات، وعدم تجاوز السورة إلى غيرها، حتى تنال حظها من الترتيل والتفهم والتفكر،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج٧ص٣٦٦.

(٢) حلية الأولياء، ج١ص٢٤٤.

(٣) حلية الأولياء، ج٥ص٥١.

(٤) جامع بيان العلم، ج٢ص٨١١.

يقول حَبْر الأمة وترجمان القرآن، عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **(لأن أقرأ البقرة فأرتلها وأتدبرها أحب إليّ من أن أقرأ هَذْرَمة[1])**[2].

وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(لا تنثروه نثر الدَّقل[3]، ولا تَهُذُّوه هذَّ الشِّعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هَمُّ أحدكم آخر السورة)**[4].

ومن أكثر الصحابة علماً وفهماً لمعاني القرآن: الصحابي القارئ عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والذي تعلم القرآن وعلمه، وبذل جهدًا كبيرًا لتحصيل هذه المعرفة القرآنية، وأخذ كثيرًا من سوره وآياته عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرةً، يقول عن نفسه: «**والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزِلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل؛ لركبت إليه**»[5].

وحدَّث بعض علماء التابعين رَحِمَهُمُ اللَّهُ، الذي كان يرى حال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع القرآن، ومدى تأثره به، يقول أبو ذئب عن صالح: «كنت جارًا لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان يتهجَّد من الليل فيقرأ الآية ثم يسكت قدر ما حدثتك، وذاك طويل، ثم يقرأ، قلت: لأي شيء فعل ذلك؟ قال: من أجل التأويل يتفكر فيه»[6].

---

(١) الهذرمة: السرعة في القراءة والكلام والمشي، انظر لسان العرب، حرف الهاء.

(٢) فضائل القرآن لابن ضريس، رقم٣٢.

(٣) الدقل: رَدِيء التمر ويابسه، انظر لسان العرب، حرف الدال.

(٤) أخلاق أهل القرآن، ص١١ .

(٥) صحيح البخاري، كتاب الفضائل، باب من فضائل عبدالله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) مختصر قيام الليل، ص١٤٩ .



وكان للسلف -عمومًا-، وللصحابة -خصوصًا- اهتمام بكتاب الله الكريم، «ومن قراء الصحابة الذين كانت لهم عناية بتلاوة القرآن، وترتيله، وحفظه، مع العلم بمعانيه وأحكامه، أبو المنذر أبي بن كعب الخزرجي الأنصاري، كان سيد القراء، أثنى عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث عدَّه من القراء الأربعة الذين تؤخذ عنهم القراءة»[1].

واعتبر الدعاة الأوائل، من سلف الأمة وعلمائها، أن قراءة آيات قليلة، وسور قصيرة، بتدبر وتأنٍّ وتمهل، أولى من قراءة الآيات الكثيرة بدون التفكر والتأمل، يقول محمد بن كعب القرظي:"لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح: {إذا زلزلت} و{القارعة}، لا أزيد عليهما، أرددهما وأتفكر فيهما، أحب إليَّ من أن أهُذَّ القرآن ليلتي هذًّا، أو قال:أنثره نثرًا»[2].

واعتبر الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قراءة القرآن الخالية من التدبر، تحرم القارئ من التلذذ بجمال القرآن وعجائبه، يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يَلْتَذُّ بقراءته»[3].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فليس للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر، وتُثَبِّت قواعد الإيمان في قلبه»[4].

(١) منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم، ص٦٦.

(٢) الزهد، لابن المبارك، ص٢٨٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن، ج٢ص١٧١.

(٤) مدارج السالكين، ج١ص٤٥١.

ويقول أبوبكر بن الآجُرِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ حثَّ خلقه على أن يتدبروا القرآن، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، ألا ترون -رحمكم الله- إلى مولاكم الكريم، كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب عَزَّوَجَلَّ، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضُّله على المؤمنين...»(١).

ومن دعوة الأوائل للتدبر، ما كانوا يفعلونه ويحثون عليه من ترديد آية واحدة فقط، في الصلاة وفي خارجها، يقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح»(٢). ويقول ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليعلم أن ما يقرأه ليس كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه، فإن التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترديد الآية؛ فليرددها»(٣).

وجاء في سيرة الإمام المقرئ يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ (ت١٠٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه كان حسن الصوت بالقرآن، والتغني بالقراءة يساعد على التدبر، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقراءته يلفت الأنظار والأسماع إليه، يقول الأعمش: «كان يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ من أحسن الناس قراءة، ربما اشتهيت أن أُقَبِّل رأسه من حُسن قراءته، وكان إذا قرأ لا تسمع في المسجد حركة، كأنْ ليس في المسجد أحد»(٤).

(١) أخلاق أهل القرآن، ص٢.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، ص٨٣.

(٣) مختصر منهاج القاصدين، ص٥٧.

(٤) سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٨١.



المبحث الثاني :
رسائل النور وعلاقتها بالقرآن الكريم والتدبر

قبل أن نتحدث عن التدبر في رسائل النور، نلقي الضوء على مؤلف هذه الرسائل، ونبين جانبًا من علاقة هذه الرسائل بالقرآن الكريم. والمؤلف هو بديع الزمان سعيد النورسي الذي: «انتشرت دعوته في أنحاء العالم برسائله المسماة برسائل النور، والبالغة أكثر من مائة وثلاثين رسالة، وبجماعته طلاب النور، الذين يتدارسون هذه الرسائل، وينشرونها في آفاق الأرض فتُقرأ في تركيا، في مدنها كلها بل في أقضيتها وقُراها، كما تُقرأ في أنحاء شتى من العالم الإسلامي والإنساني»(١).

وذكر النورسي أن رسائله تعتمد على التفاسير المتداولة التي خلفها العلماء الأوائل، يقول في رسائله: «التفسير نوعان، الأول: التفاسير المعروفة، التي تبين وتوضح وتثبت معاني عبارات القرآن الكريم وجمله وكلماته. القسم الثاني من التفسير: هو إيضاح وبيان وإثبات الحقائق الإيمانية للقرآن الكريم، إثباتًا مدعمًا بالحجج الرصينة، والبراهين الواضحة، ولهذا القسم أهمية كبيرة جداً. أما التفاسير المعروفة والمتداولة، فإنها تتناول هذا النوع الأخير من التفسير تناولًا مجملًا أحيانـًا، إلا أن رسائل النور اتخذت هذا القسم أساسًا لها مباشرة، فهي تفسير معنوي للقرآن الكريم، بحيث تُلزِم أعتى الفلاسفة وتسكتهم»(٢).

(١) سيرة ذاتية، ج٩ص٥.

(٢) سيرة ذاتية، ج٩ص٤٨٢.

من مؤلفات النورسي: المثنوي العربي النوري، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، الكلمات، اللمعات، الشعاعات، المكتوبات، المحاكمات، سيرة ذاتية، قطوف من أزاهير النور، (من كليات رسائل النور)، الآية الكبرى، الملاحق، صيقل الإسلام، ومؤلفات عديدة أخرى.

ترجم إحسان الصالحي رسائل النور إلى العربية، وسجل فيها استلهامات النورسي الإيمانية من معاني القرآن الكريم، وإظهار مقاصده في النفوس والعقول والأرواح، وخاصةً أمام تخطيط المنظمات الإلحادية السرية، التي كانت تستهدف إزالة الشعائر الإسلامية ورفعها الواحدة تلو الأخرى[1].

وقال الأستاذ النورسي عن ظروف تأليف هذه الرسائل: «لقد تحقق لدي يقينًا أن أكثر أحداث حياتي، قد جرت خارجة عن طوق اقتداري وشعوري وتدبيري إذ أُعطي لها سَيْرٌ مُعَيَّنٌ، ووُجّهت وجهةً غريبةً لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم. بل كأن حياتي العلمية جميعها بمثابة مقدمات تمهيدية لبيان إعجاز القرآن ب»الكلمات«، حتى إنه في غضون هذه السنوات السبع من حياة النفي والاغتراب وعزلي عن الناس -دون سبب أو مبرر، وبما يخالف رغبتي- أمضي أيام حياتي في قرية نائية خلافًا لمشربي، وعازفًا عن كثير من الروابط الاجتماعية التي أَلِفتُها سابقًا. كل ذلك ولَّد لي قناعة تامة لا يداخلها شك من أنه تهيئة وتحضير لي للقيام بخدمة القرآن وحده، خدمة صافية لا شائبة فيها، بل إنني على قناعة تامة من أن المضايقات التي يضايقونني في أغلب الأوقات، والعنت الذي أرزح تحته ظلمًا، إنما هو لدفعي

(١) سيرة ذاتية، ج٩ ص٦ (بتصرف).



- بيد عناية خفية رحيمة - إلى حصر النظر في أسرار القرآن دون سواه، وعدم تشتيت النظر وصرفه هنا وهناك. وعلى الرغم من أنني كنت مغرمًا بالمطالعة، فقد وهبت لروحي مجانبةً وإعراضًا عن أي كتاب آخر سوى القرآن الكريم. فأدركت أن الذي دفعني إلى ترك المطالعة -التي كانت تسليتي الوحيدة في مثل هذه الغربة- ليس إلا كون الآيات القرآنية وحدها أستاذًا مطلقًا لي»[١].

وقد بالغ بعض طلابه في مدحه والثناء عليه، يقول أحدهم: «إنَّ لأستاذنا ما لا يُعد ولا يُحصى من خوارق الأحوال، وفي مقدمتها رسائل النور، نعم إننا نعترف أن أستاذنا كان يقرأ خواطر قلوبنا، أدق وأكثر منا، وكثيرًا ما كان ينبهنا إليه، ثم ننتبه، نسأل الله أن يحضرنا مع أستاذنا بديع الزمان وكنز العلوم والعرفان، وعلامة العصر الذي نشر حقائق الإيمان والقرآن»[٢].

عقيدة الأستاذ النورسي:

أَسَّسَ أتباع بديع الزمان النورسي جماعة النورسية، وهي جماعة دينية إسلامية تنتسب لأهل السنة، وهي أقرب في تكوينها إلى الطرق الصوفية منها إلى الحركات المنظمة، «ركز مؤسسها على الدعوة إلى حقائق الإيمان، والعمل على تهذيب النفوس؛ مُحْدِثًا تيارًا إسلاميًا، في محاولة منه للوقوف أمام المد العلماني الماسوني الكمالي، الذي اجتاح تركيا عقب سقوط الخلافة العثمانية، واستيلاء كمال أتاتورك على دفة الحكم فيها. وهذه الجماعة لم تُعن بنشر عقيدة السلف والتوحيد الخالص بين أتباعها وبين عوام المسلمين ممن

(١) الكلمات، ج١ ص٤٨٤.

(٢) سيرة ذاتية، ج٩، مقدمة الكتاب.

يحتاجون إلى تصحيح عقائدهم قبل شغلهم بأمور أخرى، بل تبنت عقيدة الماتريدية التي كانت تُدعَم من قبل الدولة العثمانية، فلم تحاول التخلص من هذه العقيدة البدعية، وسلكت الجماعة طريق التربية، وعملت على حفظ الإيمان في النفوس، وعليه فإنها تُشَبّه بالطرق الصوفية من بعض الوجوه»[(١)].

والماتريدية: «من الطوائف التي في أقوالها حق وباطل ومخالفة للسنة، ومعلوم أن هذه الطوائف تتفاوت في مدى القرب والبعد من الحق، فإن كل من كان أقرب إلى السنة كان أقرب إلى الحق والصواب. فمنهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة»[(٢)].

رسائل النور والتفسير الإشاري :

للعقيدة الصوفية أثر قوي في تفسير القرآن وتدبره، وقد أكد الباحث سلوك النورسي الطريقة الصوفية، وهذه الطريقة لها أسلوبها ومنهجها في تأملاتها القرآنية، وتتصف بسلوك المنهج الإشاري في فهم القرآن الكريم، وقد يفسر أتباعها القرآن بمعاني تخالف منهج السلف، وقد يوردون شرحًا لكلمات القرآن بألفاظ ليست من معهود لغة العرب، وإن كانت المعاني المذكورة صحيحة في الغالب، يقول الزرقاني: «تكلم السادة الصوفية على المعاني الباطنة، وغالب ما تكلموا فيه من إرجاع المعاني في الآيات إلى التوحيد الصِّرف، والتعظيمات الإلهية، والنعوت الربانية»[(٣)].

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج١ ص٣٢٨- ٣٣٣، (بتصرف).

(٢) الماتريدية، ص٥١٠.

(٣) الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ج٧ ص٣٦٣.

والتفسير الإشاري: «هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضًا، وقد اختلف العلماء في التفسير المذكور، فمنهم من أجازه ومنهم من منعه»[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة:١٧]، يقول النورسي: «وأما ﴿أَضَآءَتۡ﴾ فإشارةٌ إلى أن الإيقاد للاستنارة لا للاصطلاء، وفيه رمز إلى شدة الدهشة، وأما ﴿مَا حَوۡلَهُۥ﴾ فإشارةٌ إلى إحاطة الدهشة من الجهات الأربع، وإلى لزوم التحفظ بالإضاءة عن هجوم الضرر عن الجهات الست»[(٢)].

ومن أمثلة تفسير النورسي للآيات، ويبين تأثره بالفكر الصوفي، ما ذكره في «المكتوب الأول» باسمه سبحانه ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ جواب مختصر عن أربعة أسئلة: السؤال الأول: هل سيدنا الخضر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على قيد الحياة؟ فإن كان على قيد الحياة، فَلِمَ يعترض على حياته عدد من العلماء الأجلاء؟ الجواب: إنه على قيد الحياة، إلا إن للحياة خمس مراتب، وهو في المرتبة الثانية منها، ولهذا شك عدد من العلماء في حياته. الطبقة الأولى: هي حياتنا نحن، التي هي مقيدة بكثير من القيود. الطبقة الثانية من الحياة: هي طبقة حياة سيدنا الخضر وسيدنا إلياس عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، والتي فيها شيء من التحرر من القيود، أي يمكنهما أن يكونا في أماكن كثيرة في وقت واحد، ... ويروي أهل الكشف والشهود من الأولياء بالتواتر حوادث واقعة عن هذه

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، ج٢ ص٧٨.

(٢) إشارات الإعجاز، ج٥ ص١٢٧.

الطبقة، فهذه الروايات تثبت وجود هذه الطبقة من الحياة وتنورها، حتى إن في مقامات الولاية مقامًا يُعبر عنه بمقام الخضر، ...إلخ»[1].

ويعتمد كثير من الصوفية على مفهوم الظاهر والباطن للآيات القرآنية، وهو ما روي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في حديث مرسل قوله: **(لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مُطَّلَع)**[2]، وبين العلماء المقصود بالظاهر والباطن على أوجه، وذكر السيوطي[3] عددًا منها:

أ - أنك إذا بحثت عن باطنها، وقِسْته على ظاهرها، وقفت على معناها.

ب - أنه ما من آية إلا عمل بها قوم، ولها قوم سيعملون بها.

ج - أن ظاهرها لفظها، وباطنها تأويلها.

د - الظاهر التلاوة، والباطن الفهم.

هـ - أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي اطلع عليها أرباب الحقائق.

والحد: المنتهى فيما أراد الله من معناه، وقيل: أحكام الحلال والحرام، أما المطلع: الإشراف على الوعد والوعيد، وقيل: لكل غامض من المعاني والأحكام مُطلع يُتَوصل بها إلى معرفته، ويوقف على المراد به.

(١) المكتوبات، ج٢ص ٥و٦ (بتصرف). ويلاحظ أن هذا النموذج حافل بالعبارات والمصطلحات الصوفية، وما لا دليل عليه من كتاب أو سنة، والله أعلم.

(٢) رواه أبو عبيدة في فضائل القرآن، ج١ ص٢٧٧ برقم٨٢، وهو حديث مرسل، إسناده صحيح إلى الحسن.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، ج٦ ص٢٣١١ إلى ٢٣١٣ (بتصرف).



ولا شك أن هذه الأوجه تؤكد ضرورة معرفة المعنى الصحيح للكلمات القرآنية، والاعتماد على طرق التفسير عند السلف، بدءًا من تفسير القرآن بالقرآن، وسنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقوال الصحابة والتابعين، ولغة العرب، كما هو دأب المفسرين المقبولين، ومن سار على هديهم، ولكن يلاحظ أن رسائل النور تخلو غالبًا من هذه الطرق التفسيرية المعتبرة، والواجب ألا يَغْفل عن هذه الطرق مَن تكلم عن الآيات القرآنية، أو كتب في التفسير، حتى يسلم من الخطأ والانحراف في فهم كلام الله، ولذلك يقول السيوطي: «قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم، فهذا يدل على أن في فهم معاني القرآن مجالًا رحبًا ومُتَسعًا بالغًا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس ينتهي الإدراك فيهه بالنقل، والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير ليُتَّقى به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط، ولا يجوز التهاون في حفظ التفسير الظاهر، بل لا بد منه أولًا، إذ لا يُطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يُحكم التفسير الظاهر؛ فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب»[(١)].

وقد اجتهد النورسي في استنباطاته وتأملاته القرآنية، وحرص على تجنب ما يخالف التفسير الصحيح، وهو أيضًا يُقَدِّر اجتهادات علماء التفسير، وكان «ينتقد مسلك المفسرين الذين حاولوا أن يُميلوا ظاهر الآيات لتوافق مذهب الفلاسفة»[(٢)]. ومن آرائه الفكرية نحو كتاب الله: « أن القرآن كنز عظيم لا ينفذ،

(١) الإتقان في علوم القرآن، ج٦ ص٢٣١٤.

(٢) اللمعات، ج٣ص١٠٤.

وأن كل عصر يأخذ حظه من حقائقه الخفية، وهو لا يعني إلقاء ظل الشبهة على ما بينه السلف الصالح من حقائق القرآن الظاهرة. ومن زعم غير ذلك فهو صديق أحمق، يفسد أكثر مما يصلح، أو أنه عدو ذو دهاء شيطاني يريد صد الأحكام الإسلامية، ومعارضة الحقائق الإيمانية، وإثارة الشبهات حولها»[(١)].

وخلاصة القول أن التفسير الإشاري المعتمِد على المعنى الباطن، إذا كان يستنبط من القرآن ما هو غير جارٍ على اللسان العربي، أو ما يخالف المعلوم من الدين بالضرورة، فلا يُقبل، ولا يعتبر من التفسير، وينبغي التنبه له، لأنه لا بد من صحة المدلول، و«المعنى الباطن لا يكفي فيه الجريان على اللسان العربي وحده، بل لا بد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان، يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمرًا خارجًا عن مدلول اللفظ القرآني، ولهذا اشترطوا لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين: أولهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب، بحيث يجري على المقاصد العربية، وثانيهما: أن يكون له شاهد نصًا أو ظاهرًا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض»[(٢)].

ضوابط في دراسة رسائل النور:

توجد جوانب إشراقية كثيرة عن التدبر في رسائل النور، ورغم ذلك فهناك الكثير من الملاحظات التدبرية التي تحتاج إلى مراجعة وتنبيه، وعلى قُرَّاء رسائل النور أن يتنبهوا لتلك الملاحظات والمؤاخذات، التي تخالف ما

(١) المكتوبات، ج٢ص ٥٠٠ (بتصرف يسير).

(٢) التفسير والمفسرون، ج٢ ص٣٥٨.



اتفق عليه علماء التفسير والاستنباط، وصولًا للحق، وحمايةً أن يقال في كلام الله ما ليس بحق.

والمستحسن لمن يقرأ في رسائل النور أن يتزود بالأصول العامة التي اتفقت عليها الأمة في تفسير القرآن الكريم، وأن يتعرف على أقوال الصحابة والتابعين في التفسير، وعلى المآخذ التي قد توجد لدى المفسرين، ليتجنبها. ومن الواجب أيضًا: التعرف على شروط الاستنباط من القرآن، لتصحيح مسار التدبر؛ «ومن هذه الشروط: صحة الاعتقاد، ومعرفة التفسير الصحيح، والعلم باللغة العربية، ومعرفة المناهج المخالفة للمنهج الصحيح، وسلامة المعنى المُستنبَط من معارِض شرعي راجح، وأن يكون بينه وبين اللفظ ارتباط صحيح، وأن يكون مما للرأي فيه مجال»(١).

ويلاحظ في رسائل النور قلة الرجوع إلى كتب اللغة والتفسير، وضعف العناية بالتفسير بالمأثور عن الصحابة والتابعين، ولذا كان التوسع أحيانًا في القول بالإشارات، والدخول في تأويل ظاهر الآيات عن معناها الحقيقي إلى معنى باطني، لا صلة لفظية أو معنوية بها، ومن ذلك ما ذكره النورسي عند قوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾(٢) [الأحزاب:٣٣]، وفي تدبره لهذه الآية، يشير إلى نظرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لعالم الغيب المستقبلي الذي لا يعلمه إلا الله، ويذكر قولًا لم يَرِد فيه نص صريح، ولا حديث صحيح، بقوله: «من حِكَمه التي تتعلق بالرسالة: أن الرسول

(١) منهج الاستنباط من القرآن الكريم، ص١٩٩ إلى ٢٨١، (بتصرف).

(٢) في التفسير: «الرِجْسُ» اسم يقع على الإثم وعلى العذاب، وعلى النجاسات والنقائص، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت» تفسير ابن عطية، ج٧ص١١٧.



الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رأى بنظر النبوة الأنيس بالغيب، النافذ إلى المستقبل، أنه بعد نحو ثلاثين أو أربعين سنة، ستقع فتن عظيمة في صفوف الصحابة والتابعين»(١).

ومن المهم في التدبر الرجوع لتحريرات أهل اللغة العالمين بها، والاستفادة من تفاسير السلف المعتمدة على الصحيح من أسباب النزول، والخالية من الشبهات والأقوال المبتدعة أو المؤولة. ففي سورة الفاتحة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، لم يُشِر إلى مفهوم الصراط في القرآن والسنة، ولا عند أهل اللغة، يقول النورسي: «الصراط المستقيم هو العدل الذي هو ملخص الحكمة والعفة والشجاعة، اللاتي هي أوساطٌ للمراتب الثلاث للقوى الثلاث. توضيحه: أن الله عَزَّوَجَلَّ لما أسكن الروح في البدن المتحول، المحتاج، المعروض للمهالك، أودع لإدامتها فيه قوًى ثلاثًا. إحداها: القوة الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع، وثانيتها: القوة الغضبية السبعية الدافعة للمضرات والمخرِّبات، وثالثتها: القوة العقلية الملكية المميزة بين النفع والضر»(٢).

كما يلاحظ في تلك الرسائل إيرادها لبعض المصطلحات والآراء الصوفية التي لا تعتمد على نص شرعي أو دليل صحيح، كقوله: «إن ابن عربي يعد مسألة وحدة الوجود أرفع مرتبة إيمانية، حتى إن قسمًا مِن أولياءَ عظامَ من أهل العشق اتبعوه في مسلكه»(٣)، وقوله أيضًا: «أما وحدة الشهود فلا ضرر

(١) اللمعات، ج٣ص١٣١.

(٢) إشارات الإعجاز، ج٥ص٣٠.

(٣) اللمعات، ج٣ص٥٦.



فيها، وهي مَشْرَب عالٍ لأهل الصحو»[1]. وقوله: «إن قراءة المولد النبوي وقصيدة المعراج عادة إسلامية حسنة، ونافعةٌ جدًا»[2]، والواجب تقييد جميع جوانب التدبر بما ورد في الشرع، وتوخِّي الحذر من الوقوع في المبتدَعات والأقوال الباطلة، وذلك لأن «اتباع ما ورد في الشرع وعدم الابتداع، هو أصل أصيل من أصول أهل السنة والجماعة، وهذا عام في جميع العبادات، وهو في التدبر آكد»[3].

وهناك بعض الضوابط، التي تُفتقد فيمن يقتصر على التفسير الإشاري في التدبر، وينبغي استحضارها ومراعاتها في تدبر وفهم القرآن[4]، ومن ذلك ما يلي:

أ- جمع الآيات القرآنية أو بعضها ذات العلاقة بالآية المراد فهمها وتدبرها.

ب- جمع الأحاديث النبوية الثابتة أو بعضها ذات العلاقة بالآية المراد فهمها وتدبرها.

ج- الرجوع إلى أقوال العلماء عند تدبر الآيات.

د- معرفة مدلولات ألفاظ الكلمة القرآنية.

ه- مراعاة السياق التي وردت به اللفظة والجملة القرآنية.

---

(١) اللمعات، ج٣ص٥٩.

(٢) المكتوبات، ج٢ص٣٨٤.

(٣) تدبر القرآن الكريم، ص٨٣.

(٤) مقرر تدبر القرآن الكريم للدراسات العليا، ص٣٦٦ إلى ٣٧٣ (بتصرف).





و- معرفة أسباب النزول تعين على فهم النص القرآني.

ز- معرفة الناسخ والمنسوخ يعين على فهم القرآن فهمًا دقيقًا.

ح- التجرد من الأهواء والتصورات والنظريات السابقة.

.....:::::::::::.....



المبحث الثالث :
الدعوة للتدبر في رسائل النور

تحوي رسائل النور نداءات متعددة تدعو المسلمين إلى تدبر القرآن، وتحث المستفيدين من رسائل النور إلى أن يرجعوا إلى القرآن ويتدبروه، ويتفكروا في إرشاداته ودلالاته، وأن يستفيدوا من آيات القرآن كما استفاد الأستاذ بديع الزمان، وهي دعوة لجميع طلابه، ولمن يقرأون في رسائل النور، وأن يرجعوا إلى المصحف الشريف يتأملوا في سوره وآياته، وأن يستفيدوا من المنهج الذي سار عليه الأستاذ النورسي، وهو التدبر في القرآن وفهم معانيه.

والأستاذ النورسي يُصرِّح بمفهوم التدبر، ويُورِدُه في رسائله، ويبين أنه ضروري لبني الإنسان، ويؤكد على أن طريق القرآن الكريم هو أقصر وأقرب وأشمل طريق إلى الله، وإلى معرفته، ولبلوغ هذه المعرفة؛ «هناك أربع وسائل: الإلهام، والتعليم، والتزكية، والتدبر»[1].

ولابد من ترك الإلف والعادة في النظر إلى الكون والكائنات، واستحضار التدبر في الآيات القرآنية، يقول النورسي: «الألفة –التي هي أخت الجهل المركب وأم النظر السطحي–، هي التي عصَّبت عيون المبالغين، ولا يفتح تلك العيون المعصوبة إلا أمر القرآن الكريم بالتدبر، والتأمل في الآفاق والأنفس المألوفتين. نعم، إن نجوم القرآن الثاقبة هي التي تفتح الأبصار، وترفع ظلام الجهل وظلمات النظرة العابرة، إذ تمزق الآيات البينات بيدها

(١) المثنوي العربي النُّورى، ج٦ ص٤١٧





البيضاء حجاب الألفة والنظرَ السطحي، وأستار التشبث بالظاهر المحسوس، فتوجّه العقول وترشدها إلى حقائق الآفاق والأنفس»[1].

وكان النورسي يجاهد نفسه لكي يتدبر القرآن، ويتأمل في معانيه، ويقول عن تجربته في ذلك: «بِتُّ في مجاهدة مستديمة مع روحي ووجداني، انفردت إلى عالمي الروحي رافعًا شعار: أعوذ بالله من الشيطان والسياسة، صرفت كل همي ووقتي إلى تدبر معاني القرآن الكريم، ...، وفي هذه الأثناء تولَّدَت من صميم قلبي معانٍ جليلة، نابعة من فيوضات القرآن الكريم»[2].

وكان يهتم بالتفكر، و«اعلم أن التفكر يذيب نور الغفلة الباردة الجامدة»[3]، ويتفكر في الآيات، وذكر عن نفسه أنه «سلك مسلك التفكر، وبحث عن سر (تفكر ساعة خير من عبادة سنة)[4]»[5].

فمما يخاطب به طلابه، توضيحه لمقامات ووظائف القرآن، والتي تستلزم دوام التأمل والتفكر، وهو يقول لكل منهم: «اعلم أنك قد تفهَّمت من الدروس السابقة أن القرآن الذي جاء من خالق هذه السماوات والأجرام العلوية، وهذه الأرض والموجودات السفلية، ويُعرّف لنا رب العالمين له مقامات ووظائف....، - فالقرآن - هو للإنسان كما أنه كتاب شريعة، كذلك

---

(١) صيقل الإسلام، ج٨ص٥٧.

(٢) الشعاعات، ج٤ص٥١٤.

(٣) المثنوي العربي النوري، ج٦ص٢٥٦.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ج٧ص١٩٠، والإمام أحمد في الزهد ج١ص١٣٩ .

(٥) سيرة ذاتية، ج٩ص٢٠٨



كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر»[١].

فمن دعوته للتدبر: ذكر بعض خصائص القرآن ووظائفه، التي تبين أنه ثروة متجددة عبر العصور والأزمان، يقول النورسي لطلاب النور: «إن القرآن الكريم كنز عظيم لا ينفَد، وإن كل عصر يأخذ حظه من حقائقه الخفية التي هي من قبيل التتمات، مع التسليم بنصوص القرآن ومحكماته، من دون أن يتعرض أو يمس ما خفي من الحقائق من حظ أهل العصور الأخرى»[٢].

وهو يدعو إلى التدبر حتى يستفيد القارئ من القرآن فائدة شاملة، فهو ليس مجرد كتاب يحوي قصصًا وأخبارًا، بل هو كلام رب العالمين، الذي يحتاج منا المزيد من العناية والاهتمام، ويتطلب الحرص على فهم المعاني، كما أن القراءة السريعة الخالية من روح التدبر، ستكون فائدتها قليلة أو معدومة، وذلك لأن «النظرة السطحية العابرة لا تستطيع أن ترى ما يورده القرآن الكريم من حقائق ذات أهمية»[٣].

وفي رسائل النور يدعو النورسي المثقفين وغير المثقفين، في كل عصر ومصر، للعيش في رحاب الإيمان، والأخذ من مائدة القرآن، لأن «القرآن يدعو جميع طبقات الجن والإنس إلى الإيمان، ويعلم جميعهم علوم الإيمان، ويثبتها لهم جميعًا، ولذا يستمع إلى درس القرآن وإرشاده أغبى الأغبياء من

---

(١) المثنوي العربي النُّوري، ج٦ص٨٤.

(٢) المكتوبات ج٢ص٤٩١.

(٣) الشعاعات، ج٤ص٢٩٢.

عامة الناس، مع أخص الخواص جنبًا إلى جنب متكاتفين معًا. أي إن القرآن مائدة سماوية، تجد فيها آلافٌ من مختلف طبقات الأفكار والعقول والقلوب والأرواح غذاءهم، كل حسب ما يشتهيه ويلبي رغباته، حتى إن كثيرًا من أبواب القرآن ظلت مغلقة لِتُفتح في المستقبل من الزمان»(١).

وهو يبين لتلاميذه أن مما يساعد على تدبر القرآن أسلوبه السهل الميسر لكل فكر ولكل عقل، مهما كان مستواه الثقافي، «أما بيان القرآن في الإفهام والتعليم فهو خارق وذو لطافة وسلاسة، حتى إن أبسط شخص عامي يفهم بتلك البيانات أعظم حقيقة وأعمقها بيسر وسهولة. نعم إن القرآن يرشد إلى كثير من الحقائق الغامضة، ويُعلِّم الناسَ إياها بأسلوب سهل وواضح، وبيان شافٍ يراعي نظر العوام، من دون إيذاء لشعور العامة، ولا إرهاق لفكر العوام، ولا إزعاج له، فكما إذا حاور إنسان صبيًا فإنه يستعمل تعابير خاصة به، كذلك الأساليب القرآنية والتي تُسَمَّى بالتَنَزُّلات الإلهية إلى عقول البشر، خطاب ينزل إلى مستوى مدارك المخاطبين، ...، فمثلا: الآية الكريمة ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ [طه:٥]، تبين الربوبية الإلهية وكيفية تدبيرها لشؤون العالم في صورة تمثيل وتشبيه لمرتبة الربوبية، بالسلطان الذي يعتلي عرشه ويدبر أمر السلطة»(٢).

وفي دعوته للتدبر: كان النورسي يربط الآيات بالواقع الذي يعيشه الناس، «فسارعوا إلى العمل الجاد، واسعوا سعيًا حثيثًا كي تحولوا الأرض

(١) الكلمات، ج١ ص٤٤٩.
(٢) الكلمات، ج١ ص٤٤٧.



إلى ما يشبه حديقةً صغيرةً غَنَّاء، تجولون فيها وترون جهاتها كلها، وتسمعون أحداثها وأخبارها من كل ناحية منها، غير ناسين وظيفة عبوديتكم، تدبروا الآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥]، وهكذا نرى كيف تُومِئُ الآية الكريمة المتصدرة لهذا المثال إلى إثارة همة الإنسان وبعث اهتماماته»[1].

والنورسي في رسائله يحث طلابه على عدم إضاعة أوقاتهم، وحصر اهتماماتهم في وظيفتهم المقدسة، وخدمتهم لكتاب الله، «وألا ينشغلوا فيما الْتَهى به أهل الضلالة، الذين يكافحون في سبيل حياة دنيوية مؤقتة، فهم لا يتنازلون –ببلاهتهم– ويربأون بأنفسهم عن التدخل في مسائلنا العظمى، فلِم نتتبع بلهفة مسائلهم الصغيرة على حساب وظيفتنا المقدسة؟، «تدبروا في هذه الآية الكريمة: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، بمعنى أن ضلال الآخرين لا يضر هدايتكم، فلا تنشغلوا بها»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤]، ذكر أن في السياق القرآني حقائق ثلاث عن تلك الأحجار الصَمَّاء، هذه الحقائق هي تفجر الأنهار منها، وخروج الماء بعد تَشَقُّقِها، وهبوطها من خشية الله، يقول النورسي: «تدبروا في لطافة بيان القرآن العظيم، وفي إعجاز بلاغته الرفيعة،

(١) الكلمات، ج١ ص٢٨٤.

(٢) الملاحق، ج٧ ص٢٣٤، بتصرف.

كيف يبين طرفًا وجزءًا من هذه الحقائق الثلاث المذكورة، هي حقائق جليلة وواسعة جدًا، يبينها في ثلاث فقرات، وفي ثلاث حوادث مشهورة مشهودة، وينبه إلى ثلاث حوادث أخرى لتكون مدار عبرة لأولي الألباب، فانظر كيف لُبِسَت هذه الحقائق الثلاث حُلل البلاغة الجميلة، ودقِّق النظر في بلاغة الإرشاد لترى مدى القساوة والغلظة التي تملك القلوب ولا تنسحق خشيةً أمام ذلك الإرشاد البليغ»(١).

وعند قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة:٣١]، يقول النورسي: «تأمل في خاصية المعجزة الكبرى التي هي خاصية الناطقية، التي هي خاصية الإنسانية، وهي الأدب والبلاغة، ثم تدبر في أن أعلى ما يُرَبِّي روح البشر، وألطف ما يُصَفِّي وجدانه، وأحسن ما يُزَيِّن فكره، وأبسط ما يُوسِّع قلبه، إنما هو نوع من الأدبيات، ولأمر ما ترى هذا النوع أبسط الفنون، وأوسعها مجالًا، وأنفذها وأشدها تأثيرًا، وألصقها بقلوب البشر حتى كأنه سلطانها، فتأمل»(٢).

ويدعو إلى استحضار القلوب، وإعداد الأذهان للتصديق، من خلال صنع الله في هذا الكون، وربط ذلك بما يحدث يوم القيامة، يقول النورسي: «فإن القرآن الكريم قد يذكر من أفعال الله الدنيوية العجيبة والبديعة، كي يعدَّ الأذهان للتصديق، ويُحضِّر القلوب للإيمان بأفعاله المعجزة في الآخرة، أو أنه يصور الفعال الإلهية العجيبة التي ستحدث في المستقبل والآخرة بشكل نقنع ونطمئن إليه بما نشاهده من نظائرها العديدة، فمثلًا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ

(١) الكلمات، ج١ ص٢٧٥.

(٢) إشارات الإعجاز، ج٥ ص٢٣٦.

أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ [يس: ٧٧]، هنا في قضية الحشر، يثبت القرآن الكريم ويسوق البراهين عليها، بسبع أو ثماني صور مختلفة متنوعة، إنه يقدم النشأة الأولى أولًا، ويعرضها للأنظار...»[١].

ولم يكتف الأستاذ بالدعوة القولية للتدبر في الآيات المتلوَّة، بل كان يمارسها ميدانيًا، ويدعو للتفكر في الآيات المنظورة في الكون، يقول أحد طلابه: «كان الأستاذ يرتقي التِّلال التي تشرف على مدينة إسبارطة ليشاهد فيما حواليها من مناظر الفطرة ومشاهد الطبيعة، وكانت الطريق مكسوة بأشجار الفواكه وخاصة العنب، فيمسك الأستاذ بعنقود منها، دون أن يقطعه، ويعد حباته مبينًا لنا ما فيه من بدائع الصنعة الإلهية والإتقان الرباني، فيقول: انظروا وتأملوا في حلويات القدرة الإلهية هذه، فكان يعلمنا بهذا كيف نفكر في مخلوقات الله المبثوثة في معرض الله، وهكذا كنا نتلقى دروسًا إيمانية في التدبر، وفق منهج القراءة في كتاب الكون المفتوح أمامنا»[٢].

....

(١) الكلمات، ج١ص١٢١.

(٢) سيرة ذاتية، ج٩ص٥٩٨.



المبحث الرابع:
مجالات التدبر في رسائل النور

القرآن حمَّال أوجه، وذو اتجاهات عديدة، مناسبة لكل زمان ومكان، وملائمة للأحوال والظروف، وفيه الهداية لكل المشكلات والأزمات، ويبين النورسي أن العلماء «قد اتفقوا جميعًا أنَّ لكل آية كريمة وجوهًا عدة للإرشاد، وجهات كثيرة للهداية»[(١)].

إن مجالات تدبر القرآن لا حصر لها، فالمسلم يُعْمِل ذهنه، ويفكر في السور وآياتها، وينظر في الكلمات وحروفها، ويستنبط المعاني التدبرية بحسب ما لديه من خلفيات ثقافية وعلمية ولغوية، ويكون الاستنباط منضبطًا بضوابطه المعروفة، ويتوج ذلك بسؤال العلماء، والرجوع إلى كتب أهل العلم، لئلا يقع في تحميل معاني القرآن ما لا تحتمل، أو القول على الله بغير علم.

ومن خلال التدبر في الآيات القرآنية، ذكر النورسي أن «رسائل النور قد حلَّت أكثر من مائة من أسرار الدين والشريعة والقرآن الكريم[(٢)]، ووضحتها وكشفتها، وألْجمت أعتى المعاندين الملحدين وأفحمتهم، وأثبتت بوضوح كوضوح الشمس ما كان يُظن بعيدًا عن العقل من حقائق القرآن»[(٣)].

الأستاذ النورسي يشير إلى أنه لا حصر لمجالات التدبر في القرآن، فهو تبيان لكل شيء، وشامل لكل خير، «والقرآن الكريم فيه جميع ما يلزم السعادة

(١) الكلمات، ج١ ص٢٨٠.

(٢) لم يذكر في هذا الموضع أي سر من هذه الأسرار المائة.

(٣) الملاحق، ج٧ ص ٢٣٥.



الدنيوية والأخروية»[1]. ومن المجالات التي أشار إليها النورسي في رسائله، ما يلي:

١ - تقرير عقيدة التوحيد:

ومن التدبر في رسائل النور؛ مناقشة وحدانية الله وإفراده بالعبادة، والرد على الملحدين، والذين يشركون مع الله غيره، وسرد المواقف والقصص، لتقرير عقيدة التوحيد، ونفي الشرك. وعند قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]، يقول النورسي في تدبره: «إن التجَلِّي الأعظم للفردية قد طَبع على وجه الكون كله طابعًا مميزًا للتوحيد، وختمًا واضحًا للوحدانية، وضوحًا حول الكون كله بحكم الكل الذي لا يقبل التجزئة مطلقًا، بحيث إن مَن لا يقدر على أن يتصرف في الكون كله لا يمكن أن يكون مالكًا مُلكًا حقيقيًا لأي جزء منه»[2]، ومفهوم التفرد والوحدانية «واضح وضوح الشمس، فهو مقبول في الأعماق إلى حد السهولة المطلقة، وهو مستساغ عقلًا ومنطقًا إلى حدِّ الوجوب والبداهة، وبعكسه الشرك المنافي لذلك التجَلِّي، فهو مُعقَّد إلى أقصى حدود التعقيد، وغير منطقي إطلاقًا»[3].

والتعلق بالقوة العظمى لا يعدِلها شيء، يقول النورسي: «أجل، إن الوحدانية والتفرد تجعل كل شيء منتسبًا ومستندًا إلى الذات الإلهية الواحدة، ويصبح هذا الانتساب والاستناد قوة لا حد له لذلك الشيء، حتى يمكنه أن

(١) الكلمات، ج١ص٢٩٤.

(٢) اللمعات، ج٣ص٤٩٠.

(٣) اللمعات، ج٣ص٤٩٤.





ينجز من الأعمال الجسيمة، ويولد من النتائج العظيمة ما يفوق قوته الذاتية ألوف المرات»[١].

والمسلم بما أودع الخالقُ في فطرته من إيمان بالله وباليوم الآخر، يتدبر في ملكوت السماوات والأرض من خلال القرآن، يقول النورسي: «فإن القرآن الكريم قد يذكر من أفعال الله الدنيوية العجيبة والبديعة، كي يُعِدَّ الأذهان للتصديق، ويَحُضَّ القلوب للإيمان بأفعاله المعجزة في الآخرة. أو أنه يصور الأفعال الإلهية العجيبة التي ستحدث في المستقبل والآخرة، بشكل نقْنَع ونطمئن إليه بما نشاهده من نظائرها العديدة، فمثلًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ إلى آخر سورة يس.. هنا في قضية الحشر، يثبت القرآن الكريم ويسوق البراهين عليها بسبع أو ثماني صور مختلفة متنوعة»[٢].

٢- الأسماء الحسنى ومعانيها:

وللأسماء الحسنى في رسائل النور إشارات تدبرية كثيرة، وخصوصًا حين ورودها في ختام الآيات المباركات، يقول النورسي: «فالقرآن الكريم يذكر في أكثر الأحيان قسمًا من الخلاصات والفذلكات[٣] في خاتمة الآيات، فتلك الخلاصات إما أنها تتضمن الأسماء الحسنى أو معناها، وإما أنها تحيل قضاياها إلى العقل، وتحثه على التفكر والتدبر فيها، أو تتضمن قاعدة كلية من

(١) اللمعات، ج٣ص٤٩٥.

(٢) الكلمات، ج١ ص١٢١.

(٣) فذلكات، جمع فذلكة، وهي مجمل ما فصل وخلاصته (انظر معجم تاج العروس)



مقاصد القرآن فتؤيد بها الآية وتؤكدها، ففي تلك الفذلكات بعضُ إشارات من حكمة القرآن العالية، وبعض رشاشات من ماء الحياة للهداية الإلهية، وبعض شرارات من بوارق إعجاز القرآن»[1].

ويبين النورسي علاقة تلك الأسماء الحسنى بالعبارات القرآنية، ومتدبرا في معناها الإجمالي، «فالقرآن الحكيم ببيانه الإعجازي، يبسط الآثار وأفعال الصانع للنظر، ثم يستخرج منها الأسماء، أو ثبوت الحشر، أو التوحيد، كأمثال: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ... وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩]، وقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ ... إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ:٦-١٧]. وكذا ينشر للبشر منسوجات صنعه ثم يطويها في الأسماء، أو الحوالة على العقل كأمثال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ [يونس٣١-٣٢]، و﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة١٦٤]، وكذا يفصِّل أفاعيله ثم يجملها بأسمائه أو بصفته، كأمثال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ...إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف٦]، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ... إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران٢٦]، ....، وكذا قد يَعُد عجائب أفعاله تعالى، ليُعِدَّ الذهن ويُحضِّره لقبول خوارق أفعاله الأخروية، أو يَذْكُر أفعاله الاستقبالية الأخروية، بصورة تشير إلى نظائرها المشهودة لنا كأمثال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ... وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس:٧٧-٨١]، ....، وكذا قد يذكر مقاصد جزئية ثم

(١) الكلمات، ج١ ص٤٧٨.

يقررها ويحققها بأسماء هي كالقواعد الكلية كأمثال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة:١]»[1].

ويقول النورسي: «إن الآية القرآنية ١٤الشورى:١١، قد أوقفت وكفت وردت على تصورات العقول البشرية، بقصورها ومحدوديتها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ...، والآية بحد ذاتها، إشارة إلى أن المسألة أجل وأعظم من أن تترك للأمزجة والخيالات والعقول القاصرة لكي تخوض فيها، وترى فيها رأيها من غير هُدًى يهديها من الله الذي هو أعلم بنفسه، وأعلم بخلقه»[2].

٣- اتباع المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنته المطهرة :

ومن مجالات التدبر في رسائل النور ما يتعلق بالرسول الخاتم، نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، وعند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال النورسي: «سنبين إحدى عشرة نكتة دقيقة، بيانًا مجملًا، من بين مئات المسائل الدقيقة التي تتضمنها هاتان الآيتان العظيمتان»[3]. ومن هذه النكت التي بينها ما يلي:

(١) المثنوي العربي النوري، ج٦ ص٤٤٦ إلى ص٤٤٩، بتصرف.

(٢) المثنوي العربي النوري، ج٦ص١٦.

(٣) اللمعات، ج٣ص٧٣.



«النكتة الأولى: اتباع السنة المطهرة لهو حتمًا ذو قيمة عالية، ولا سيما اتباعها عند استيلاء البدع وغلبتها...، النكتة الخامسة: تعلن هذه الآية العظيمة إعلانًا قاطعًا عن مدى أهمية اتباع السنة النبوية ومدى ضرورتها...، النكتة السادسة: بعد أن كَمُلت قواعد الشريعة الغرَّاء ودساتير السنة المطهرة وأخذت تمام كمالها، فإن عدم استحسان تلك الدساتير بمحدثات الأمور، أو إيجاد البدع التي تشعر كأن تلك القواعد ناقصة – حاشا لله – ضلال ليس له مستقر إلا النار...، النكتة السابعة: إن السنة النبوية المطهرة في حقيقة أمرها لهي أدب عظيم... إلخ»[1].

وفي تدبره لقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، قال النورسي: «هذه الآية صريحة في معناها من أن الصحابة الكرام هم أفضل بني الإنسان بعد الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، لما يتحلَّون به من سجايا سامية، ومزايا راقية، وفي الوقت نفسه تبين ما تتصف به طبقات الصحابة في المستقبل من صفات ممتازة مختلفة، خاصة بهم، كما تبين بالمعنى الإشاري[2]– لدى أهل التحقيق – إلى ترتيب الخلفاء الذين سيخلفون مقام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته، فضلًا عن إخبارها عن أبرز صفة خاصة بكل منهم مما اشتهروا به[3]».

ويحث على اتباع السنة والعمل بها، ويقول مخاطبًا نفسه: «فيا نفس: إن كنتِ حقًا تريدين أن تنالي عملًا أخرويًا خالدًا في عُمرٍ قصير؟ وإن كنتِ حقًا

(١) اللمعات، ج٣ ص ٧٣-٧٧ (بتصرف).

(٢) التفسير الإشاري المفتقر إلى دليل، ليبين صحة المدلول.

(٣) المعات، ج٣ص٤٠.



تريدين أن ترَيْ فائدةً في كل دقيقة من دقائق عمرك كالعمر الطويل؟ وإن كنتِ حقًا تريدين أن تُحَوِّلي العادة إلى عبادة، وتُبَدِّلي غفلتك إلى طمأنينة وسكينة؟ فاتبعي السنة النبوية الشريفة»[١].

٤- علاج القرآن للشبهات والأوهام :

ومن مجالات التدبر في رسائل النور الإشارة إلى علاج القرآن لكل الأمراض والشبهات، وإزالة الأوهام والأفكار السلبية، يقول النورسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا شك أن صيدلية[٢] القرآن المقدَّسة زاخرةٌ بعلاج كل مرض من أمراضكم، ودواء كل سُقْم من أسقامكم، فإذا استطعت مراجعتها بالإيمان، وقمتم بالتداوي والعلاج بالعبادة، فلا بد أن تخف وطأة ما تحملون على كاهلكم من أثقال»[٣].

وفي رسائل النور «رد شبهات أعداء الدين الذين يبخسون الإسلام حقه، بإظهار الطريق المستقيم الذي عليه الإسلام، ودفع أوهام أهل الإفراط والغلو»[٤].

وفي ميدان معرفة الله والخالق الكريم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، يعارض النورسي منهج علماء الصوفية، وطريقة علماء الكلام، ومسلك الفلاسفة، لأن فيها الشبهات والأوهام، المُؤَسَّسَة على فكر البشر، ويختار المعراج الرباني المبني

(١) الكلمات، ج١ ص٤١٤.

(٢) عبارة: صيدلية القرآن، قد لا تكون مناسبة.

(٣) اللمعات، ج٣ص٣٤٦.

(٤) صيقل الإسلام، ج٨ص٢٢.



على الدليل والبرهان، وفيه بيان أن «جميع الآيات الكريمة التي تعدد منافع الأشياء، تومئ إلى هذا الدليل، وتنظم هذا البرهان، ...، وإظهار المصالح المتعلقة بسلسلة الموجودات بوساطة العلوم، وبيان فوائد الثمرات المتدلية منها، وإبراز الحكم والفوائد، يشهد شهادة صادقة على قصد الصانع الحكيم ويشير إليه، ويطرد شياطين الأوهام كالنجم الثاقب»[(١)]. ثم يستشهد النورسي بقوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك:٣]، ويقول: «كلا، فالمبصر لا يرى نقصًا، إلا إن كان أعمى البصر والبصيرة، أو مصابًا بقصر النظر! فإن شئت فراجع القرآن الكريم، تجد دليل العناية بأكمل وجه في وجوه الممكنات، لأن القرآن الكريم الذي يأمر بالتفكر في الكون، يعدد أيضًا الفوائد ويُذَكِّر بالنعم الإلهية، فتلك الآيات الجليلة مظاهر لهذا البرهان»[(٢)].

٥ – التحذير من شياطين الإنس والجن:

ومن مجالات التدبر في رسائل النور، ما يتعلق بالشيطان ووسوسته، وإشارات إلى بعض الأدوية العلاجية لداء الوسوسة، وفي قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ۝٩٨﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨]، يقول النورسي: «بينما أنت تناجي ربك في الصلاة بخشوع وتضرع وحضور قلب، مستقبلًا الكعبة المعظمة، إذا بتداعي الأفكار هذا يسوقك إلى أمور مشينة مخجلة لا تعنيك بشيء، فإذا كنت يا أخي مُبْتَلى

(١) صيقل الإسلام، ج٨ص١١٣.

(٢) صيقل الإسلام، ج٨ص١١٤.





بتداعي الأفكار، فإياك إياك أن تقلق أو تجزع، بل عُد إلى حالتك الفطرية حالما تنتبه لها»[1].

ويشير النورسي إلى أحابيل ودسائس شياطين الإنس والجن، ويحذر أهل القرآن منها، كي لا تصرفهم عن العمل بالقرآن، أو تُعِيقَهم عن العمل للقرآن، وعند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، يحذر خصوصًا من حب الجاه والشهرة، يقول النورسي: «يحاول شياطين الإنس، بما استوحوه من شياطين الجن، أن يخدعوا خُدَّام القرآن، ويصرفوهم عن ذلك العمل المقدس، وذلك الجهاد المعنوي الرفيع، وذلك بتزيين حب الجاه والشهرة لهم، ....، فهذا الشعور هو في غاية الخطورة على أهل الآخرة، وهو في منتهى الإثارة والنشوة لأهل الدنيا، فضلًا عن أنه منبع كثير من الأخلاق الرذيلة»[2].

٦ – العبادات الإسلامية:

ومن المجالات التي أولاها النورسي تدبرًا: أركان الإسلام المتمثلة في العبادات، ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، يقول النورسي: «اعلم أن العبادة هي التي ترسخ العقائد، وتصيرها حالًا وملَكة، إذ الأمور الوجدانية والعقلية إن لم تنمِّها وتربِّها بالعبادة، التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، تكن آثارها وتأثيراتها ضعيفة، وحال الإسلام (العالم الإسلامي) الحاضرة شاهدة، واعلم أيضًا أن العادة سبب

(١) الكلمات، ج١ ص٣٠٦.

(٢) المكتوبات، ج٢ ص٥٢٣.



لسعادة الدارين، وسبب لتنظيم المعاش والمعاد، وسبب للكمال الشخصي والنوعي، وهي النسبة الشريفة العالية بين العبد وخالقه»[1].

أ - الصلاة:

فمن تدبره في موضوع الصلاة، يقول النورسي: «فإن شئت إلى مثال واحد من بين ألوف الأمثلة على محاسن العبودية التي جاء بها النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو: أن النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يوحد بالعبادة قلوب الموحدين في صلاة العيد والجمعة والجماعة، ويجمع ألسنتهم جميعًا على كلمة واحدة، ...، بحيث يظهر الجميع عبوديةً واسعةً جدًا إزاء عظمة ألوهية المعبود الحق، فكأن كرة الأرض بِرُمَّتها هي التي تنطق بذلك الذكر، وتدعو بذلك الدعاء، وتصلي لله بأقطارها، وتمتثل بأرجائها الأمر النازل بالعزة والعظمة من فوق السماوات السبع: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]»[2].

ومن تدبره لسورة الفاتحة، يقول النورسي: «وأنا أتلو: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، نظرت إلى قوافل البشرية الراحلة إلى الماضي، فرأيت أن ركب الأنبياء المُكْرَمين والصديقين والشهداء والأولياء والصالحين، أنورُ تلك القوافل وأسطعُها، حتى إن نوره يبدد ظلمات المستقبل، إذ إنهم ماضون في جادة مستقيمة كبرى تمتد إلى الأبد، وإن هذه الجملة تبصرني طريق اللحاق بذلك الركب الميمون، بل تلحقني به. فقلت: يا سبحان الله! ما أفدح خسارة، وما أعظم هلاك من ترك الالتحاق بهذه القافلة

(١) إشارات الإعجاز، ج٥ص١٤٤.

(٢) اللمعات، ج٣ص١٧٨.

النورانية العظمى، والتي مضت بسلام وأمان وأزالت حجب الظلمات، ونورت المستقبل. إن من يملك ذرة من شعور لا بد أن يدرك هذا، وإن من ينحرف عن طريق تلك القافلة العظمى بإحداث البدع، أين سيلتمس النور ليستضيء، وإلى أين سيسلك؟ فلقد قال قدوتنا الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[(١)]، فالذين استحقوا أن يُطلق عليهم اسم علماء السوء، أولئك الشقاة، أية مصلحة يجدونها إزاء هذا الحديث في فتوى يفتونها، يعارضون بها بديهيات الشعائر الإسلامية، بما فيه ضرر ومن غير ضرورة، ويرون أن تلك الشعائر قابلة للتبديل!»[(٢)].

ب- الصيام:

وفي عبادة الصيام، يتكلم النورسي عن رسالة رمضان، والحِكَم التي تخص صيام شهر رمضان، يقول تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول: «إن أكثر الحِكَم المُتَمَخِّضَة عن صوم رمضان؛ تتوجه إلى إظهار ربوبية الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولصوم رمضان حِكَمًا كثيرة من حيث توجهه إلى تهذيب النفس الأمارة بالسوء، وتقويم أخلاقها، وجعلها تتخلى عن تصرفاتها العشوائية، إن العالم الإسلامي في رمضان المبارك يتحول إلى ما يشبه المسجد، ويا له من مسجد عظيم تعُجُّ كل زاوية من زواياه، بل كل ركن من أركانه، بملايين الحفاظ

---

(١) رواه مسلم، في كتاب الصلاة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ولفظه: (وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة).

(٢) المكتوبات، ج٢ص ٥٠٠.



للقرآن الكريم، يرتلون ذلك الخطاب السماوي على مسامع الأرضيين، ويظهرون بصورة رائعة براقة مصداق الآية الكريمة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾»[1].

ج-الزكاة و الصدقة:

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٣]، يقول النورسي: «كما أن الصلاة عماد الدين وبها قوامه، كذلك الزكاة قنطرة الإسلام وبها التعاون بين أهله، أي الزكاة جسر يغيث المسلمُ أخاه المسلم بالعبور عليها، إذ هي الواسطة للتعاون المأمور به، بل هي الصراط في نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر، ...، وفي وجوب الزكاة، وحرمة الربا، حكمة عظيمة، ومصلحة عالية، ورحمة واسعة»[2].

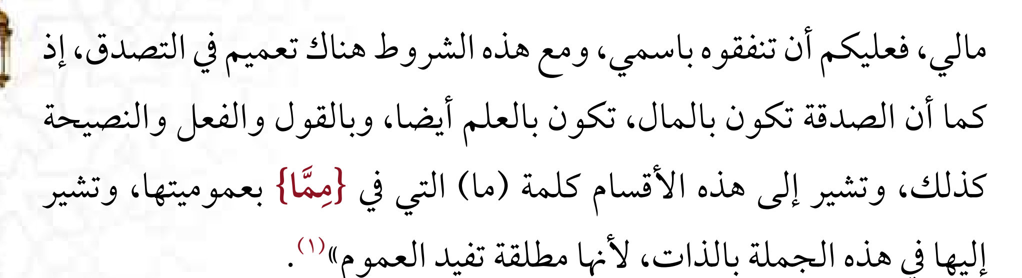
وفي ميدان الصدقة يبين النورسي متدبراً قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٣]، بقوله: «فهيئات هذه الآية تشير إلى خمسة شروط[3] لقبول الصدقة: المستفاد من (من) التبعيضية في لفظ {مِمَّا}، أي لا يبسط المتصدق يده كل البسط، فيحتاج إلى الصدقة، ...، والمستفاد من لفظ (نا) {رزقنا}، أي لا يَمُنُّ فيستكثر، أي لا مِنَّة لكم في التصدق، فأنا أرزقكم، وتنفقون من مالي على عبدي، ....، والمستفاد من {رزقناهم}، أي يكون التصدق باسم الله، أي المال

(١) المكتوبات، ج٢ص٥٠٦، بتصرف.

(٢) إشارات الإعجاز، ج٥ص٥٠ (بتصرف).

(٣) هذه مجالات للصدقة، وليست شروطًا لقبول الصدقة، والله أعلم.





مالي، فعليكم أن تنفقوه باسمي، ومع هذه الشروط هناك تعميم في التصدق، إذ كما أن الصدقة تكون بالمال، تكون بالعلم أيضا، وبالقول والفعل والنصيحة كذلك، وتشير إلى هذه الأقسام كلمة (ما) التي في {مِمَّا} بعموميتها، وتشير إليها في هذه الجملة بالذات، لأنها مطلقة تفيد العموم»[١].

د- الحج لبيت الله الحرام:

وعن الحج يقول النورسي: «كذلك الحاج، مهما كان من العوام، فهو متوجه إلى ربه الجليل بعنوان رب العالمين، فهو مشرف بعبودية كلية، فلا بد أن المراتب الكلية للربوبية التي تفتح بمفتاح الحج، وآفاق عظمة الألوهية التي تشاهد بمنظار الحج، ودوائر العبودية التي تتوسع في قلب الحاج وخياله، كلما قام وأدَّى مناسك الحج»[٢].

وفي موضع آخر، يبين النورسي العلاقة بين تكبيرات عيد الأضحى المبارك تتعالى، ويوم القيامة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تُرى ما وجه العلاقة بين الآخرة وهذه الكلمة المقدسة (الله أكبر)، فتذكرت فورًا أن هذه الكلمة مع الكلمات الطيبات الباقيات الصالحات: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله)، وأمثالها من كلمات شعائر الإسلام، تُذكِّر بلا شك بالآخرة، سواءً بصورة جزئية أو كلية، وتشير إلى تحقيقها»[٣].

(١) الكلمات، ج١ ص٤٢٧ (بتصرف).

(٢) الكلمات، ج١ ص٢١٨.

(٣) الشعاعات، ج٤ ص٢٧٦.



واجتماع خمس البشرية في صعيد واحد، إشارة إلى حشر الناس يوم العرض الأكبر، يقول النورسي: «إن أحد أوجه معاني (الله أكبر) هو: أن قدرة الله وعلمه، هي فوق كل شيء، وأكبر وأعظم من كل شيء، فلن يخرج أي شيء كان من دائرة علمه، ولن يهرب من تصرفه وقدرته، ...، فهو أكبر من أي شيء نعجب به، ومن أي شيء خارج نطاق عقلنا، إذ يقول سبحانه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، فصراحة هذه الآية الكريمة تبين أن حشر البشرية ونشرهم جميعًا سهل وهين على القدرة الإلهية، كإيجاد نفس واحدة»[١].

....

(١) الشعاعات، ج٤ ص٢٧٦.





تحوي رسائل النور الكثير من الأساليب التي تشير إلى كيفية التدبر، وتعين عليه، ونشير إلى بعض هذه الأساليب، ومنها تكرار تلاوة الآيات، والعناية بمقاصد القرآن، وحسن الاستماع للقرآن، والاستفادة من منهج السلف الصالح، والتعرف على إعجاز القرآن.

١- تكرار تلاوة الآيات:

مما يعين على التدبر واستيعاب الحقائق القرآنية، أن يكرر القارئ النظر في الآيات القرآنية، والتأمل في معانيها، وإعادة قراءتها المرة بعد المرة، ولمَّا كان الأسلوب القرآني يخاطب طبقات متباينة، ومسلمين ذوي خلفيات متعددة، ومن بقاع شتى، فإنه يكرر حقائق الدين، ليتكرر تلاوتها وتستوعبها الأذهان المتباينة، ويركز القرآن خصوصًا على حقيقة توحيد الله وإفراده بالعبادة، والإيمان بيوم البعث، «بل لا تنقطع الحاجة إلى تكرار تلاوتها في القرآن الكريم، حيث ليس هناك أهم ولا أعظم مسألة في الوجود من التوحيد والآخرة»[١].

ولتثبيت هذه العقيدة في النفوس تكررت الآيات الدالة على ذلك، واحتاج الأمر إلى أن يكرر المسلم الآيات، وخاصة تلك التي يتجاوب معها

---

(١) الشعاعات، ج٤ ص٢٩٤.



قلبه، وتلامس واقعه، حتى تؤثر فيه ويستفيد منها، وللتكرار فوائد كثير ومنافع جمة، يقول النورسي: «اعلم أن القرآن لأنه كتاب ذكر وكتاب دعاء، وكتاب دعوة، يكون تكراره أحسن وأبلغ بل ألزم، إذ الذكر يُكرَّر، والدعاء يُردَّد، والدعوة تُؤكد، إذ في تكرير الذكر تنوير، وفي ترديد الدعاء تقرير، وفي تكرار الدعوة تأكيد»[١].

والتكرار لأي مادة أو معلومة يصيب النفوس عادةً بالملل، وتكرار قراءة الكتب البشرية لا تحتملها الأذهان، لكن تكرار قراءة كلام الله تستلذه النفوس، وله أثر عجيب وروحانية فريدة، ويؤكد النورسي ذلك بقوله: «إن القرآن الكريم قد أظهر عذوبةً وحلاوة، ذات أصالة وحقيقة، بحيث إن التكرار الكثير، المسبب للسآمة حتى من أطيب الأشياء، لا يورث المِلال عند من لم يفسد قلبه ويبلد ذوقه، بل يزيد تكرار تلاوته من عذوبته وحلاوته، وهذا أمر مسلم به عند الجميع منذ ذلك العصر، حتى غدا مضرب الأمثال»[٢]. ويقول أيضًا: «فاعلم أنه: كما أن القرآن بمجموعه قوتٌ وقوة للقلوب لا يُملّ على التكرار، بل يُستحلى على الإكثار منه، كذلك في القرآن ما هو روح لذلك القوت، كلما تكرر تلألأ، وفارت أشعة الحق والحقيقة من أطرافه»[٣].

ويضرب النورسي مثالًا لتكرار كلمة قرآنية، هي {الظَّالمين} وأثرها في النفوس المتدبرة: يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كثرة تكراره: { الظَّالمين }، وزجره العنيف

(١) المثنوي العربي النُّوي، ج٦ص٨٤.

(٢) الشعاعات، ج٤ص١٦٧.

(٣) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ج٥ص٣٧.

لهم، وإنذاره الرهيب من نزول مصائب سماوية وأرضية بذنوبهم ومظالمهم، فيلفت الأنظار بهذا التكرار، إلى مظالم لا نظير لها في هذا العصر، بعرضه أنواعًا من العذاب والمصائب النازلة على قوم عاد وثمود وفرعون؛ وفي الوقت نفسه يبعث السلوان والطمأنينة إلى قلوب المؤمنين المظلومين، بذكر نجاة رسل كرام، أمثال إبراهيم وموسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ»[١].

٢ - العناية بمقاصد القرآن:

مقاصد السور القرآنية هي موجز مختصر لموضوعاتها، ودليل لقضاياها الكبرى، وهي من مفاتيح التدبر، وكثيرًا ما يشير إليها النورسي، ويبين أهميتها لفهم القرآن، جاء في رسائل النور: «إن أغلب السور المطولة والمتوسطة - التي كل منها قرآن على حدة - لا تكتفي بمقصدين أو ثلاثة من مقاصد القرآن الأربعة، وهي: التوحيد، النبوة، الحلال والحرام، العدل مع العبودية، بل كل منها يتضمن القرآن كلها، والمقاصد الأربعة معًا»[٢]. ويذكر النورسي في موضع آخر: «فكما تتراءى هذه المقاصد الأربعة في كله، قد تتجلّى في سورة سورة»[٣].

ويرى النورسي أن أكثر المقاصد القرآنية مبثوثة في عدد من سور القرآن، وفي ذلك مراعاة لاختلاف الناس في قراءتهم وتدبرهم لكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن القرآن خطاب ودواء لجميع طبقات البشر، من أذكى الأذكياء إلى أغبى الأغبياء، ومن أتقى الأتقياء إلى أشقى الأشقياء، ومن الموفقين

(١) الكلمات، ج١ص٥١٩.

(٢) الشعاعات، ج٤ص٢٩٤.

(٣) إشارات الإعجاز، ج٥ص٢٣.



المُجِدِّين الفارغين من الدنيا إلى المخذولين المتهاونين المشغولين بالدنيا، فإذن لا يمكن لكل أحد في كل وقت قراءةُ تمام القرآن، الذي هو دواء وشفاء لكل أحد في كل وقت، فلهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر السور، لا سيما الطويلة، حتى صار كل سورة قرآنًا صغيرا، فسهّل السبيل لكل أحد، وينادي مشوقًا: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: ١٧]»[(١)].

وأشار النورسي إلى أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هو أفضل من بيَّن المقاصد في القرآن، وهو مرجع أساس في توضيح تلك المقاصد، «وأنه هو كذلك - بالبداهة- أحسن من كشف بحقائق القرآن عن مغزى القصد من تحولات الكائنات والغاية منها، وأكمل من حل اللغز المحير في الموجودات، وهو أسئلة ثلاثة معضلة: من أنت؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ فلبَّى إرادته سبحانه في الكشف عن ذلك الطلسم المغلق لذوي الشعور بوساطة مبعوث. وأنه هو كذلك - بالبداهة-أكمل من بَيَّن المقاصد الإلهية بالقرآن الكريم، وأحسن من وضَّح السبيل إلى مرضاة رب العالمين، فلبَّى إرادته سبحانه في تعريف ما يريده من ذوي الشعور، وما يرضاه لهم»[(٢)].

ويبين النورسي لطلابه أهمية العناية بالمقاصد، ويضرب لهم مثلًا من نفسه، وعنايته بالتدبر والفهم لما يقرأ من آيات، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقراءتي تختلف عن قراءتكم، فأنتم تقرؤون قراءة سطحية كقراءة الجرائد، ولكنني أقرأ مع فهم المعاني والمقاصد»[(٣)].

(١) المثنوي العربي النوري، ج٦ص٨٥.

(٢) المكتوبات، ج٢ص٢٦٢.

(٣) سيرة ذاتية، ج٩ص٥٩٧، في هذه العبارة تزكية للنفس، والتقليل من شأن الآخرين، وهذا لا يصح.

٣ - حسن الاستماع للقرآن:

الاستماع الحسن للقرآن، يكون بحضور القلب، والتفكر في الآيات والتأمل في معانيها، واستلهام التطبيقات العملية التي تطالب بها الآيات الكريمات، والتي هي مرسلة من رب العالمين للثقلين، يأمر عباده بما ينفعهم، وينهاهم عما يضرهم، فيستجيبون فيسعدون، وإن لم يذعنوا فيشقون، وعند قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٦]، يقول النورسي: «استمع لهذه الآيات وتدبر ما تقول؟ إنها تقول: أيها الإنس والجان، أيها المغرورون المتمردون، المتوحّلون بعجزهم وضعفهم، أيها المعاندون الجامحون، المُتَمَرِّغُون في فقرهم وضعفهم! إنكم إن لم تطيعوا أمري، فهيا اخرجوا من حدود ملكي وسلطاني إن استطعتم! فكيف تتجرؤون إذن على عصيان أوامر سلطان عظيم»(١).

وحسن الاستماع علامة حياة القلب، ودليل تجاوبه الإيماني مع الآيات القرآنية، وحسن الاستماع يُذَكِّر المسلم بما ينبغي عليه فعله، وما ينبغي عليه تركه، «فإذا أردت أن لا تبقى أشقى وأذل، وأحمق وأضل من جميع الحيوانات، فأنصت واستمع بسمع الإيمان، بشارة القرآن، بإعلان: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

---

(١) الكلمات، ج١ ص٤٢٩.



﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤] »[١].

واستماع القرآن يحتاجه كل مسلم، ليتذوق ألفاظه عباراته، ويتأثر به ويعتبر بما يسمعه، وقد يكون أكثر فائدة لصنف من الناس، الذين لا يعرفون اللغة العربية، ومع ذلك يدركون إعجاز القرآن وتفرده عن غيره من الكتب، وهم «الذين يدركون الإعجاز بأسماعهم، إذ الشخص العامي - من عوام الناس- لا يستمع للقرآن إلا بإذنه، ولا يفهم إعجازه إلا بالسمع، أي أنه يقول: إن هذا القرآن الذي أسمعه لا يشبه أي كتاب آخر»[٢].

٤- الإفادة من تراث السلف وتفسيرهم للقرآن:

ومن الأساليب المعينة على تدبر القرآن، الاستفادة من منهج السلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، من الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعين الأبرار رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فيما خلَّفوه من تراث عظيم، وكنوز علمية جمة، والرجوع إلى استنباطاتهم والإفادة من تدبراتهم، وهي مبثوثة في كتب التفسير بالمأثور، كتفسير الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتفسير الإمام إسماعيل بن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتفسير الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيرها، يقول النورسي: «لما كان القرآن يخاطب جميع الطوائف البشرية في كل وقت وحين، فهو يتضمن من المعاني المتنوعة، والوجوه الكثيرة الجامعة، ما يكون حظ كل طائفة في كل عصر من العصور، وإنَّ أصفى المعاني والوجوه، هي تلك التي بينها السلف الصالح بيانًا واضحًا»[٣].

(١) المنوى العربي النوى، ج٦، ص٣٥٤.

(٢) المتوبات، ج٢ص٥١٤.

(٣) المكتوبات، ج٢ص٤٩٣.

وحيث إن القرآن صالح لكل زمان ومكان، وتستفيد منه الأجيال تلو الأخرى، إلا أنه لا يمكن أن يُغفل تراث السلف الصالح من المفسرين وأهل اللغة العربية وغيرهم، يقول النورسي: «أهل الحق والعلم والتدقيق يقولون: إن القرآن كنز عظيم لا يَنْفَد، وإن كل عصر يأخذ حظه من حقائقه الخفية، التي هي من قبيل التتمات، مع التسليم بنصوص القرآن ومحكماته، ...، وحقًا إن حقائق القرآن تتوضح أكثر كلما مضى الزمان، ولا يعني هذا أبدًا إلقاء ظل الشبهة على ما بيَّنه السلف الصالح من حقائق القرآن الظاهرة، لأنها نصوص قاطعة وأسس وأركان لا بد من الإيمان بها. وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، يوضح أن معنى القرآن واضح مبين. فالخطاب الإلهي من أوله إلى آخره يدور حول تلك المعاني ويقويها حتى يجعلها بدرجة البداهة. لذا فإن رفض تلك المعاني المنصوص عليها يؤدي إلى تكذيب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (حاش لله)، وإلى تزييف فهم الرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (حاشاه)، ...، بمعنى أن المعاني المنصوص عليها قد استُقِيت من منبع الرسالة مسندة متسلسلة، حتى إن ابن جرير الطبري قد ألف تفسيره الكبير الجليل، مسنِدًا معاني القرآن جميعها إلى منبع الرسالة»[(١)].

وتدبر الفرد يكون لنفسه أولًا، ولكن نشره على الآخرين يحتاج إلى مؤكدات من أهل العلم والفهم، والرجوع إلى أهل التخصص في التفسير وعلوم القرآن، يقول النورسي: «لما كان القرآن جامعًا لأشتات العلوم، وخطبةً لعامة الطبقات في كل الأعصار، لا يتحصل له تفسير لائق من فهم الفرد، الذي

(١) المكتوبات، ج١ ص٤٩١.



قلما يخلص من التعصب لمسلكه ومشربه...، ولا يكون حجةً على الغير إلا بإجماع»[١].

إن التأكد من صحة التدبر وسلامة الاستنباط، تستلزم الرجوع إلى أهل الذكر، والاستناد على علم غزير، ينبثق من الوحي بمصدريه الكتاب والسنة، فمن أخذ بهذين المصدرين ورجع إليهما، كان تدبره على الجادة، وقدوته محمد بن عبدالله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الذي أتى بالمحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، ولا ينحرف عن منهجها إلا مكابر، ولا يستغني عن نورها إلا جاهل، لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ «جعل الإنسان يحتاج إلى شريعة إلهية حية خالدة، تحقق له سعادة الدارين معًا مادةً ومعنى، وتتوسع حسب قامة استعداداته ونموها، فالذي أتى بالشريعة هو النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ»[٢].

والنورسي يؤكد أن أولياء الله الصالحين، هم أتباع السنة، كما هو منهج سلف الأمة، وهي الطريق الأجمل والألمع الموصلة إلى مرتبة الولاية، «لذلك فإن اتباع السنة المطهرة هو طريق الولاية الكبرى، وهو طريق ورثة النبوة من الصحابة الكرام والسلف الصالح»[٣]، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣٠]، يقول رَحِمَهُٱللَّهُ: «تعلن هذه الآية العظيمة إعلانًا قاطعًا عن مدى أهمية اتباع السنة النبوية ومدى ضرورتها، نعم، إن هذه الآية الكريمة أقوى قياس وأثبتُه من قسم القياس الاستثنائي، ضمن المقاييس

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ج٥ص١٩.

(٢) صيقل الإسلام، ج٨ص١٢٨.

(٣) المكتوبات، ج٢ص٥٧٣.

المنطقية، إذ يرِد على وجه المثال: إذا طلعت الشمس فسيكون النهار، ....، وكذلك الأمر في الآية الكريمة، فتقول: إن كان لديكم محبة الله، فلا بد من الاتباع لـ(حبيب الله)، وإن لم يكن هناك اتباع، فليس لديكم إذن محبة الله، فلا بد من الاتباع لحبيب الله، إذ لو كانت هناك محبة حقًا فإنها تولد حتمًا اتباع السنة الشريفة لـ(حبيب الله)، ...، الخلاصة: أن محبة الله تستلزم اتباع السنة المطهرة وتُنتجه، فطوبى لمن كان حظه وافرًا من ذلك الاتباع، وويل لمن لا يقدر السنة الشريفة حق قدرها، فيخوض في البدع»[1].

ويعتبر النورسي أن اتباع الهوى ومخالفة اجتهادات السلف الصالح من الابتداع، وفي تدبره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، يقول النورسي: «إن الضروريات الدينية التي لا مجال فيها للاجتهاد لقطعيتها وثبوتها، والتي هي في حكم القوت والغذاء، قد أُهملت في العصر الحاضر وأخذت بالتصدُّع، فالواجب يحتِّم صرف الجهود، وبذل الهمم جميعًا لإحياء هذه الضروريات وإقامتها، حيث إن الجوانب النظرية للإسلام قد استثْرت بأفكار السلف الصالحين، وتوسعت باجتهاداتهم الخالصة، حتى لم تعد تضيق بالعصور جميعًا، لذا فإن ترك تلك الاجتهادات الزكية والانصراف عنها إلى اجتهادات جديدة اتباعًا للهوى، إنما هو خيانة مبتدعة»[2].

(١) -اللمعات، ج٣ص٧٦.

(٢) الكلمات، ج١ص٥٥٤.



٥ - التعرف على إعجاز القرآن :

إن إعجاز القرآن لا ريب فيه، وله جوانب متعددة، ومجالات كثيرة، أهمها الإعجاز اللغوي، وقد أشار النورسي إلى ذلك في مواطن عديدة من رسائل النور.

وتشير رسائل النور إلى أن في التعرف على الإعجاز، توجيه لكل متدبر أن يستثمر معارفه الشخصية، ويستخرج من الآيات ما يناسب مجاله وتخصصه، يقول النورسي: «اعلم أن من لطائف إعجاز القرآن، ومن دلائل أنه رحمة عامة للكافة: أنه كما أن لكل أحد من العالم عالمًا يخصه، كذلك لكلٍ باعتبار مَشربه من القرآن قرآنٌ يخصه ويربيه ويداويه. ومن مزايا لطف إرشاده: أن آياته مع كمال الانسجام وغاية الارتباط وتمام الاتصال بينها، يتيسر لكل أحد أن يأخذ من السور المتعددة آيات متفرقة لهدايته وشفائه»[(١)].

وأشارت رسائل النور إلى أن من أقوى طرق التعرف على الإعجاز: الفهم اللغوي، والبلاغة القرآنية، ومن هنا تتعدد المعاني، وتتفاوت الأذهان في التدبر، وعند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾، يقول النورسي: «اعلم أن القرآن أرسل النظم، أي لم يعين بوضع أمارةٍ وجهًا من وجوه التراكيب، في كثير من أمثال هذه الآية، لسرٍ لطيف، هو منشأ الإيجاز الذي هو منشأ الإعجاز، وهو: أن البلاغة هي مطابقة مقتضى الحال، والحال أن المخاطبين بالقرآن على طبقات متفاوتة، وفي أعصار مختلفة، فلمراعاة هذه الطبقات، ولمجاراة هذه الأعصار، ليستفيد مخاطَب

(١) المثنوي العربي النوري، ج٦ص٢٥٠.

كل نوع ما قُدِّر له من حصته، حَذَف القرآنُ في كثيرٍ للتعميم والتوزيع، وأطلق في كثيرٍ للتشميل والتقسيم، وأرسل النظم في كثيرٍ لتكثير الوجوه، وتضمين الاحتمالات المستحسنة في نظر البلاغة والمقبولة عند العلم العربي، ليفيض كل ذهن بمقدار ذوقه، فتأمل!»[١].

فمن التدبر النظر في الكون والمخلوقات، فهي تبين الإعجاز القرآني في أجلى صوره، يقول النورسي: «أما إجمال القرآن الكريم بعض المسائل الكونية وإبهامه في بعض آخر، فهو لمعة إعجاز ساطع، وليس كما توهَّمه أهل الإلحاد من قصور ومدار نقد»[٢].

وفي دراسة قصص الأنبياء، يتبين الإعجاز في الدروس والعبر المستفادة منها، والحث على التأمل في قصص الأنبياء ومعجزاتهم، لبناء الحضارة، وبذل الأسباب لنفع البشرية، «ومستندًا إلى أن التنزيل كما يفيدك بدلالاته ونصوصه، كذلك يعلمك بإشارته ورموزه، لَأَفهمُ من إشارات أستاذية إعجاز القرآن في قصص الأنبياء ومعجزاتهم، التشويق والتشجيع للبشر على التوسل للوصول إلى أشباهها. كأن القرآن بتلك القصص يضع إصبعه على الخطوط الأساسية ونظائر نتائج نهايات مساعي البشر، للترقي في الاستقبال الذي يُبنى على مؤسسات الماضي الذي هو مرآة المستقبل، وكأن القرآن يمسح ظهر البشر بيد التشويق والتشجيع قائلاً له: اِسْعَ واجتهد في الوسائل التي توصلك إلى بعض تلك الخوارق...، وإن شئت فانظر: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، وإلى

(١) إشارات الإعجاز، ج٥ ص٥٣.

(٢) المكتوبات، ج٢ ص٢٥٢.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾، وإلى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾، وإلى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، وإلى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾، ثم تأمل فيما مخّضه تلاحق أفكار البشر واستنبطه من ألوف فنونٍ ناطقٍ كل منها بخواص وصفات وأسماء نوع من أنواع الكائنات، حتى صار البشر مظهر ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، ثم فيما استخرجه فكر البشر من عجائب الصنعة من السكة الحديدية والآلة البرقية وغيرهما بواسطة تليين الحديد وإذابة النحاس، حتى صار مظهر ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ الذي هو أم صنائعه، وفيما أفرخه أذهان البشر من الطيارات التي تسير في يوم شهرًا حتى كاد أن يصير مظهر ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾»[1].

ومن تأمل القرآن في سبكه ونظمه، وتدبر في ألفاظه وعباراته ومعانيه، وعلم قوة إعجازه، واستحالة مجاراته، تبين له أن «إعجاز القرآن حفظ القرآن عن التحريف، فلا يتيسر لكلام مفسر أو مؤلف، أو مترجم، أو محرف وغيرهم، أن يلتبس بالآيات، أو يُلبِّس زيها، كما الْتبست واختلطت سائر الكتب المنزَّلة، حتى صارت مُحرَّفة»[2].

والتعرف على إعجاز القرآن يعين كل متدبر على تلمس احتياجاته الشخصية، فيأخذها من القرآن، يقول النورسي: «اعلم أن من لطائف إعجاز القرآن، ومن دلائل أنه رحمة عامة للكافة: أنه كما أن لكل أحد من العالم

---

(١) إشارات الإعجاز، ج٥ص٢٣٦.

(٢) المثنوى العربي النوري، ج٦ص١٩٤.

عالَمًا يخصه، كذلك لكلٍّ باعتبار مشربه من القرآن، قرآن يخصه ويربيه ويداويه. ومن مزايا لطف إرشاده: أن آياته مع كمال الانسجام وغاية الارتباط وتما الاتصال بينها، يتيسر لكل أحد أن يأخذ من السور المتعددة آيات متفرقة لهدايته وشفائه، كما أخذها عموم أهل المشارب وأهل العلوم»[1].

٦ - الدعاء:

فهو وسيلة لجلب كل ما يحتاجه العبد المؤمن، «كما أن الإيمان يقتضي الدعاء، ويتخذه وسيلة قاطعة، ووساطةً بين المؤمن وربه، وكما أن الفطرة الإنسانية تتلهف إليه بشدة وشوق، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضًا يدعو الإنسان إلى الأمر نفسه بقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، وبقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، إن استجابة الدعاء شيء، وقبوله شيء آخر، فكل دعاء مستجاب، إلا أن قبوله وتنفيذ المطلوب نفسه، منوط بحكمة الله سبحانه»[2].

والدعاء طريق العابدين لنيل المرغوبات، والدعاء بالحمد والثناء، كما في أول آية من القرآن الكريم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، «ورحمة الربوبية الواسعة، تتطلب أيضًا أن يظهر العبد حاجاته الخاصة وحاجات جميع المخلوقات وفقرَها، بلسان السؤال والدعاء، وأن يعلن إحسان ربه وآلائه العميمة، بالشكر والثناء والحمد، بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾"[3].

---

(١) المثنوى العربي النوري، ج٦ ص٢٥٠.

(٢) الكلمات، ج١ ص٣٥٦.

(٣) الكلمات، ج١ ص٤٠.



والدعاء بالتعوذ من صوارف التدبر، للانطلاق في فهم وتدبر القرآن، يقول النورسي: «ولذلك قلت: أعوذ بالله من الشيطان والسياسة، لكي أحافظ على نور القرآن، واعتصمت بكلتا يدي بذلك النور، ملقيًا مطرقة السياسة جانبًا، ...، وحمدًا لله فإنني بسبب تجردي عن التيارات السياسية لم أبخس قيمة حقائق القرآن، التي هي أثمن من الألماس»[1].

وكثيرًا ما كان النورسي يدعو طلابه لخدمة القرآن، ويحثهم على التضحية في سبيل ذلك، ويبين لهم ما كان يقوم به من قراءة وتدبر، ويثني على الله لتوفيقه لهذه النعمة، ومن أقواله: «الحمد لله، لقد قرأت اليوم هذا القدر فاستفدت كثيرًا، فاليوم انشرح صدري وتوسع إيماني كثيرًا.. أو يقول: سبحان الله! استفدت من هذه الرسالة استفادة جمة، حتى كأنني لم أرها من قبل أبدًا»[2].

وطلب الاستعانة المشار إليها في سورة الفاتحة، دعاء للترقي في مدارج الكمال، «فيا أيها الإنسان العاجز الفقير! إياك أن تتخلَّى عن مفاتيح خزائن رحمة واسعة، ومصدر قوة متينة، ألا وهو الدعاء، فتشبَّث به لترتقي إلى أعلى علِّيي الإنسانية، واجعل دعاء الكائنات جزءًا من دعائك، ومن نفسك عبدًا كليًا، ووكيلًا عامًا بقولك: «﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وكن أحسن تقويم لهذا الكون»[3].

..........:::::::.........

(١) سيرة ذاتية، ج٩ص٢٣٩.

(٢) سيرة ذاتية، ج٩ص٥٩٧.

(٣) الكلمات، ج١ص٣٥٨.





الخاتمة

أولاً- النتائج:

١. الأمة مطالبة بالسير على منهج رسولها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وظيفة الدعوة إلى الله، ولذا استمر المصلحون والدعاة بجهود متوالية لنشر الدين والذب عنه، والأمة بحاجة ماسة للدعاة في كل زمان ومكان، وهذه الحاجة من أهم الحاجات الإنسانية.

٢. التدبر من النصيحة لكتاب الله، والقيام بحق من حقوق القرآن، وقراءة آية بتدبر خير من قراءة آيات بلا تدبر.

٣. لا يقتصر مفهوم التدبر على مجرد التلاوة، بل إنه يشمل تفهم الكلمات والعبارات والمعاني، ومباشرة الأعمال وتنفيذها، ومن التدبر الوقوف على الآيات والتفكر فيها.

٤. من أهمية التدبر أنه اقتداءٌ واتساءٌ بنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي كانت سيرته مليئة بالمواقف التي تبين حسن تدبره لكتاب الله.

٥. يصرح الأستاذ النورسي بمفهوم التدبر، ويوردها في رسائله، ويبين أنه ضروري لبني الإنسان، ويؤكد على أن طريق القرآن الكريم هو أقصر وأقرب وأشمل طريق إلى الله، وإلى معرفته.

٦. تنوعت مجالات التدبر في رسائل النور للنورسي، وهي تنطلق من اعتقاد مؤلف الرسائل أن القرآن جامع لأشتات العلوم.



٧. رسائل النور تدعو المسلمين إلى تدبر القرآن، وتحث المستفيدين من رسائل النور إلى أن يرجعوا إلى القرآن ويتدبروه، ويتفكروا ما فيه من إرشادات ودلالات.

٨. من مجالات التدبر في رسائل النور مناقشة وحدانية الله وإفراده بالعبادة، والرد على الملحدين، وما يتعلق بالرسالة الإسلامية والنبي الخاتم، والإشارة إلى علاج القرآن لكل الأمراض والشبهات، وإزالة الأوهام والأفكار السلبية.

٩. تحوي رسائل النور الكثير من الأساليب التي تشير إلى كيفية التدبر، وتعين عليه، ومن هذه الأساليب تكرار تلاوة الآيات، والعناية بمقاصد القرآن، وحسن الاستماع للقرآن، والاستفادة من منهج السلف الصالح.

١٠. رغم كثرة الجوانب الجيدة عن التدبر في رسائل النور، إلا إنها لا تخلو من الملاحظات التدبرية التي تحتاج إلى مراجعة وتنبيه، وعلى قُرَّاء رسائل النور أن يتنبهوا لتلك الملاحظات والمؤاخذات، التي تخالف ما اتفق عليه علماء التفسير والاستنباط، وصولًا للحق، وحمايةً أن يقال في كلام الله ما ليس بحق.

۞ ثانياً – التوصيات:

١. القيام بسرد تراث علماء الإسلام والدعاة والمصلحين، من مختلف أنحاء العالم، وعرض جوانب عنايتهم بتدبر القرآن الكريم.

٢. إجراء المزيد من الدراسات والرسائل العلمية في جوانب التدبر التي ذكُرت في رسائل النور.





٣. إبراز جوانب ومجالات تدبرية أخرى، من خلال الاستعراض المفصل والبحث الدقيق في رسائل النور.

٤. حث طلاب ومرتادي مجالس النور على التطبيق العملي لأساليب التدبر في رسائل النور، التي ذكرت في هذه الدراسة، من خلال اللقاءات النورانية التي يعقدونها.

٥. عرض حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تدبره للقرآن، ومقارنتها بالمجالات التدبرية المختلفة، التي تحويها رسائل النور.

٦. حصر المخالفات التدبرية في رسائل النور.


مجلة تدبر

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ

١. الإتقان في علوم القرآن، للحافظ السيوطي، أبي الفضل جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٦هـ.

٢. أخلاق حملة القرآن، الآجري، أبوبكر محمد بن الحسين، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ١٤١٢هـ.

٣. أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، الطبعة الثالثة، بغداد، دار البيان، ١٣٩٦هـ.

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤ هـ.

٥. إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي، عرض وتحليل، الدغامين، زياد خليل محمد، إزمير، دار النيل، ١٤١٩هـ.

٦. التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، أبو زكريا يحي بن شرف، الطبعة الرابعة، تحقيق: محمد الحجار، بيروت، دار ابن حزم، ١٤١٧هـ.

٧. تدبر القرآن، السنيدي، سلمان بن عمر، الرياض، المنتدى الإسلامي، ١٤٢٢هـ.

٨. تدبر القرآن الكريم، التويجري، د. عبداللطيف بن عبدالله، الرياض، مكتبة دار المنهاج، ١٤٣٦ هـ.

٩. تعليم تدبر القرآن الكريم .. أساليب عملية ومراحل منهجية. إصدار خاص بمسابقة البحرين الكبرى الرابعة عشر لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، تأليف، الأهدل، د. هاشم بن علي، البحرين، وزارة العدل والشئون الإسلامية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٣٠هـ.



١٠. تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبدالحق، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٨هـ.

١١. التفسير والمفسرون، بحث تفصيلي عن نشأة التفسير، تطوره وألوانه ومذاهبه، الذهبي، الدكتور محمد حسين، القاهرة، ١٣٩٦هـ.

١٢. التكوين العقدي لشخصية المسلم، الجندي، د. محمد عبد الدايم، البحوث الإضافية، المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن، قطر، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، ١٤٣٤هـ.

١٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكريم المنان، السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، قدم له فضيلة الشيخ عبدالله بن عقيل، وفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، تحقيق عبدالرحمن بن معلا اللويحق، الرياض، مجلة البيان، د.ت.

١٤. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي.

١٥. جامع البيان عن تأول آي القرآن، الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير، القاهرة، مركز هجر، ١٤٢٢هـ.

١٦. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد، تحقيق: أحمد البردوني، بيروت، دار الفكر، د.ت.

١٧. جوانب التربية الإسلامية، أ.د. مقداد يالجن، الرياض، دار المعارف، د.ت.

١٨. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصفهاني، الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ.

١٩. الخلاصة في تدبر القرآن الكريم، السبت، د. خالد بن عثمان، طبع بإشراف مركز تدبر للدراسات والاستشارات، ومؤسسة العلم والتأصيل، الرياض، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٧هـ.

٢٠. الدعوة، العمار، أ.د. حمد بن ناصر، الرياض، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ.

٢١. دعوة إلى تدبر القرآن الكريم.. كيف ولماذا؟ كمال، مختار شاكر، عَمَّان، دار البشير، ١٤١٥هـ.

٢٢. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، الإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي (٥٠٨-٥٩٧)، الطبعة الثالثة، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

٢٣. الزيادة والإحسان في علوم القرآن، بن عقيلة المكي، الإمام محمد بن أحمد (ت١١٥٠)، تحقيق فهد العندس وإبراهيم المحمود ومصلح السعدي وخالد اللاحم ومحمد حقي، الطبعة الثانية، الرياض، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ١٤٣٦هـ.

٢٤. الزهد، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن إسحاق، رواية ابن الأعرابي عنه، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، القاهرة، دار المشكاة، ١٤١٤هـ.

٢٥. الزهد، ابن المبارك، عبدالله بن المبارك المروزي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

٢٦. سير أعلام النبلاء، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ.



٢٧. صحيح الإمام مسلم بشرح النووي، النووي، يحي بن شرف الدين (ت٦٧٦)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ.

٢٨. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، محمد بن علي (ت١٢٥٥)، بيروت، محفوظ العسلي، د.ت.

٢٩. فضائل القرآن، الضريس، أبو عبدالله محمد بن أيوب. تحقيق: عروة بدير، دمشق، دار الفكر، ط ١٤١٨هـ.

٣٠. الفكر الأدبي والديني عند الداعية الإسلامي بديع الزمان النورسي، د. سمير رجب، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة المدني، ١٤١٦هـ.

٣١. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٨هـ.

٣٢. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله تعالى، الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة، الطبعة الثانية، دمشق، دار القلم، ١٤٠٩هـ.

٣٣. كليات رسائل النور(١)، الكلمات، النورسي، بديع الزمان سعيد، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مكة المكرمة، دار لوامع الأنوار، ١٤٣٥هـ.

٣٤. كليات رسائل النور(٢)، المكتوبات، النورسي، بديع الزمان سعيد، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مكة المكرمة، دار لوامع الأنوار، ١٤٣٥هـ.

٣٥. كليات رسائل النور(٣)، اللمعات، النورسي، بديع الزمان سعيد، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مكة المكرمة، دار لوامع الأنوار، ١٤٣٥هـ.

٣٦. كليات رسائل النور(٤)، الشعاعات، النورسي، بديع الزمان سعيد، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مكة المكرمة، دار لوامع الأنوار، ١٤٣٥هـ.



٣٧. كليات رسائل النور(٥)، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، النورسي، بديع الزمان سعيد، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مكة المكرمة، دار لوامع الأنوار، ١٤٣٥هـ.

٣٨. كليات رسائل النور(٦)، المثنوي العربي النوري، النورسي، بديع الزمان سعيد، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مكة المكرمة، دار لوامع الأنوار، ١٤٣٥هـ.

٣٩. كليات رسائل النور(٧)، الملاحق، النورسي، بديع الزمان سعيد، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مكة المكرمة، دار لوامع الأنوار، ١٤٣٥هـ.

٤٠. كليات رسائل النور(٨)، صيقل الإسلام، النورسي، بديع الزمان سعيد، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مكة المكرمة، دار لوامع الأنوار، ١٤٣٥هـ.

٤١. كليات رسائل النور(٩)، سيرة ذاتية، النورسي، بديع الزمان سعيد، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مكة المكرمة، دار لوامع الأنوار، ١٤٣٥هـ.

٤٢. كليات رسائل النور(١٠)، الفهارس، النورسي، بديع الزمان سعيد، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مكة المكرمة، دار لوامع الأنوار، ١٤٣٥هـ.

٤٣. كيف نتدبر القرآن، زمرلي، فواز أحمد، الطبعة الخامسة، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٤هـ.

٤٤. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، بيروت، دار صادر، د.ت.

٤٥. الماتريدية.. دراسةً وتقويمًا، الحربي، د. أحمد عوض الله، الطبعة الثانية، الرياض، دار الصميعي، ١٤٢١هـ.



٤٦. مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله، جمع: محمد الشويعر، الرياض، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، ١٤٠٨هـ.

٤٧. مختصر قيام الليل للمروزي، المقريزي، أحمد بن علي، بيروت، مكتبة المنار، ١٤١٣هـ.

٤٨. مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن، تحقيق: عبدالحميد الدرويش، ١٤١٩هـ.

٤٩. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ.

٥٠. مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة، اللاحم، خالد بن عبد الكريم، الرياض، ١٤٢٥هـ.

٥١. مفتاح دار السعادة، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الرياض: الرئاسة العامة للإفتاء، د.ت.

٥٢. مفهوم التدبر: تحرير وتأصيل، (أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم) الرياض، مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، ١٤٣٠هـ.

٥٣. مقرر تدبر القرآن الكريم للدراسات العليا، رئيس فريق إعداد المنهج، العواجي، أ.د. محمد بن عبدالعزيز، مكة: دار طيبة الخضراء، ١٤٣٨هـ.

٥٤. مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، محمد عبدالعظيم، القاهرة، دار الفكر، د.ت.

٥٥. منهج الاستنباط من القرآن الكريم، الوهبي، فهد بن مبارك، جدة، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، ١٤٢٨هـ.

٥٦. منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم، البدر، د. بدر بن ناصر، بريدة، دار الضياء الخيرية، ١٤٢٨هـ.

٥٧. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة الجهني، د. مانع بن حماد، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الطبعة الثالثة، الرياض، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ.





المحتوى



مجلة تدبر



البحث الرابع

الأساليب التربوية للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم

د. عبد الرحمن بن علي الجهني

الأستاذ المشارك بقسم التربية بكلية الدعوة وأصول الدين
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

- حصل على درجة الدكتوراه من كلية الدعوة - قسم التربية بالجامعة الإسلامية بأطروحته: منهج التربية الإسلامية في بناء كفاءة الأداء في العمل وآثاره التنموية .

- حصل على درجة الماجستير من كلية الدعوة - قسم التربية بالجامعة الإسلامية بأطروحته: الحوافز في الإدارة المدرسية من منظور التربية الإسلامية .

النتاج العلمي: تدبر القرآن الكريم ودوره في تكوين المسؤولية المهنية لدى المعلم - واقع برامج التنمية المهنية لأعضاء هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية في ضوء أدوارهم المهنية المعاصرة - سمات المعلم المتميز كما يراها طلاب الدبلوم العام في التربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - الكفايات اللازمة لمعلمي العلوم الشرعية (دراسة تأصيليّة).

البريد الإلكتروني: aljohani222@gmail.com





مستخلص البحث

۞ أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى إبراز الأساليب التربوية للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم.

وقد استخدم الباحث المنهج الاستنباطي والمنهج الوصفي التحليلي لمناسبتهما لتحقيق أهداف البحث. وقد تكوَّن البحث من المباحث التالية:

تحرير مفهوم المباهاة الاجتماعية وأنواعها وصورها، وبيان الآثار المترتبة عليها، كما أظهر منهج القرآن الكريم في التحذير من المباهاة الاجتماعية، مع بيان الأساليب التربوية للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية في القرآن الكريم، كما اشتمل البحث على أهم النتائج والتوصيات.

۞ أهم النتائج:

أشار القرآن الكريم إلى جملة من الأساليب التربوية العظيمة من شأن التمسك بها وتطبيقها، المحافظة على السلوك الاجتماعي، والبعد عن المباهاة الاجتماعية والتفاخر المذموم.

۞ أبرز التوصيات:

تقديم مشروع علمي تربوي يستند إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يهدف إلى رعاية السلوك الاجتماعي والرقي به وضبطه بالضوابط الشرعية، كما يهدف إلى التصدي للسلوكيات الاجتماعية





المنحرفة؛ كالمباهاة والتفاخر ونحوها، وفق آلية عمل واضحة ومتدرجة، ويتم تنفيذ هذا المشروع وتطبيقه عبر وسائل التواصل الاجتماعي، والقنوات الفضائية وغيرها من المنابر الإعلامية.

الكلمات المفتاحية: المباهاة، التفاخر، الأساليب التربوية، أساليب القرآن الكريم.



المقدمة

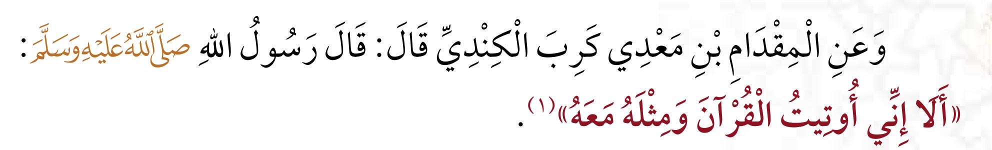
التمهيد:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن من المشكلات الاجتماعية التي برزت في الوقت الحاضر، والتي تمثل بمجموع صورها وتنوع درجاتها ظاهرة اجتماعية هي: المباهاة والتفاخر بالنفس، والحسب، والنسب، والمال، والممتلكات، بالأقوال والأفعال، والسلوكيات المختلفة، حتى وصلت في بعض صورها حدودًا خطيرة وتجاوزًا كبيرًا للحدود الشرعية، والقيم الاجتماعية والدينية، لاسيما في ظل انتشار وسائل التواصل الاجتماعي وسهولة تداول ذلك من خلالها، وانتشاره على نطاق واسع، وقد حذر المختصون والكتّاب في مقالاتهم من هذه الظاهرة وخطورتها وأثرها على المجتمع من زوايا مختلفة؛ مما يدفعنا للبحث عن الحلول الناجعة للتصدي لهذه الظاهرة والوقاية منها.

ولا شك أن أقوم سبيل، وأنجع طريق في بناء المجتمعات ورقيها وتقدمها، ومعالجة مشكلاتها هو: تدبرُ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ والعمل به، وجعلُه دستور الحياة كلها، فإن العصمة والنجاة فيما جاء في كتاب الله تعالى وسنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تعاقب السنين واختلاف المجتمعات. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].



وَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»(١).

ومن هنا تبرز أهمية البحث عن الأساليب التربوية للوقاية من هذه الظاهرة وتحجيمها والحدِّ منها، من خلال تدبر القرآن الكريم والتأمل في معانيه، فهو الشفاء من كل داء، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف: ٥٤].

«يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنه صُرِّف فيه من كل مثل؛ أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادًا وطمأنينة ونورًا، وهذا ما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور»(٢).

فإذا عدنا للمجتمعات المباركة في القرون الأولى ممن تربوا على هدي الكتاب والسنة، نجد حرص السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى على الابتعاد عن هذا الخلق الذميم والتحذير منه، سواء كانت المباهاة في المأكل والمشرب، أو الملبس، أو القول، أو الفعل، فعن عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إني لَأدَعُ كثيرًا من الكلام مخافة المباهاة»(٣).

(١) سنن أبي داود، كتاب السنة باب في لزوم السنة «١٢ / ٢٣١» برقم «٤٥٩١» وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير «١ / ٥١٦» برقم «٢٦٤٣».

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي «٥ / ٥٠ ».

(٣) الزهد، أحمد بن حنبل «١/ ٢٤٤».

وهذا ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في لفتة تربوية هامة يقول: «نُهِينا أن نجيب دعوة من يُباهي بطعامه. وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة»[(١)].

وفي وصية تربوية عظيمة لإدارة شؤون الإنسان المادية يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن البَلِية أن يُبَذِّر في النفقة ويباهي بها ليَكْمِد الأعداء، كأنه يتعرض بذلك -إن أكثر- لإصابته بالعين، وينبغي التوسط في الأحوال، وكتمان ما يصلح كتمانه، وإنما التدبير حفظ المال، والتوسط في الإنفاق، وكتمان ما لا يصلح إظهاره»[(٢)].

وانطلاقًا من خطورة هذه الظاهرة على الأفراد والمجتمعات، ويقينًا بما جاء في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كانت هذه الدراسة للوقوف على أبرز الأساليب التربوية النافعة للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم، والتي يحسب الباحث أنها من أوائل الدراسات العلمية التي تناقش هذا الموضوع، وفق رؤية تربوية إسلامية، تنطلق من مصدرها الأول: كتاب الله تعالى.

أسأل الله أن يبارك في هذا العمل وينفع به، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على نبينا محمد وآله وصحبه.

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي «٢/ ١٧».

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي ص٤٢٣.



موضوع البحث وتساؤلاته :

يدور موضوع البحث حول الأساليب التربوية الواردة في كتاب الله تعالى للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية، ويجيب البحث على التساؤل الرئيس التالي:

ما الأساليب التربوية للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم؟

ويَتفرَّع عنه الأسئلة التالية:

١. ما مفهوم المباهاة الاجتماعية وما صورها؟

٢. ما منهج القرآن الكريم في التحذير من المباهاة الاجتماعية؟

٣. ما الأساليب التربوية الواردة في القرآن الكريم للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية؟

مشكلة البحث :

تدور إشكالية هذا البحث حول ظاهرة المباهاة الاجتماعية والمفاخرة بالقول والفعل والسلوك، وهي إحدى الظواهر الاجتماعية الخطيرة التي تهدد الأمن الاجتماعي وتماسك المجتمع واستقراره، وتأخذ هذه الظاهرة صورًا عدة، وأشكالًا مختلفة، تدور كلها حول معاني التباهي والتفاخر، والاعتداد بالنفس والمال والممتلكات، وكلها من المهلكات التي حذر الله تعالى منها في كتابه الكريم، لما تؤدي إليه من البطر، وكفر النعمة، والتبذير والإسراف،



والخُيَلاء والتعالي، وهي آفات تَوَعَّد الله تعالى عليها أشد العقوبات، وبين أنها من أسباب البلاء والهلاك للأفراد والمجتمعات.

وقد زاد من انتشار صور هذه الظاهرة وسائل التواصل الاجتماعي بأنواعها، لما تتميز به من سعة الانتشار، وسهولة الوصول، وخصائص الجذب، وعناصر التشويق.

والمتأمل في الواقع الاجتماعي يدرك حجم خطر هذه الظاهرة، وتأثيرها السلبي على المجتمع بأسره، لما فيها من مخالفة لمنهج القرآن الكريم والسنة النبوية، ولما تُحْدِثَه على المدى القريب والبعيد من آثار يصعب التخلص منها؛ كتعزيز السلوك الاستهلاكي، والنزعة الفردية، والأنانية وحب الذات، والانشغال عن العمل الجاد والتنمية الوطنية، وهدم قيم التربية الإسلامية واستجلاب أسباب عقاب الله تعالى.

ولذا؛ جاء هذا البحث لإبراز منهج القرآن الكريم وأساليبه التربوية في التصدي لهذه الظاهرة والوقاية منها، والمساهمة في حماية المجتمع من خطرها.

أهمية البحث:

تبرز أهمية هذا البحث في ثلاثة جوانب:

أولا: مناقشته لإحدى أشد الظواهر تأثيرًا سلبيًا على المجتمع، وأكثرها خطرًا، نظرًا لما تؤدي إليه من آثار وخيمة على المجتمع، فالمباهاة الاجتماعية تنطوي على الإسراف والتبذير، والتفاخر المذموم، والبطر على نعم الله تعالى،



وانشغال القلب عن شكر الله تعالى عليها، وهي صور حذَّر القرآن الكريم منها، وضرب الأمثال والقصص للتنفير منها، وذكر عواقبها التي حصلت للأمم قبلنا تحذيرًا وتخويفًا منها، وحثًّا على البعد عنها.

ثانيًا: استناد هذا البحث في تتبع هذه الظاهرة والبحث عن أساليب الوقاية منها إلى مصدر عظيم وهو القرآن الكريم، كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يُصلِح الخلق في معاشهم ومعادهم، والذي حوى الدلالة على كل خير وفضيلة، والتحذير من كل شر وبلية، فهو المصدر الأصيل للتربية والإصلاح لشؤون الأفراد والمجتمعات.

ثالثًا: تزايد انتشار هذه الظاهرة، وتعدد صورها وأشكالها في العصر الحاضر؛ استجابة للعولمة الثقافية، وتقارب الحدود والفضاءات، وبروز النزعة الاستهلاكية؛ مما أدى إلى تزايد رقعة انتشارها، خصوصًا في ظل وسائل التواصل الاجتماعي، والعالم الافتراضي الذي أصبح مؤثرًا جدًا في عقول الناس وقلوبهم، ومصدر تلقي لِقِيَمهم وأخلاقهم وسلوكياتهم، والواقع يشهد على مدى انتشار هذه الظاهرة من خلال تلك الوسائط على شكل صور وتسجيلات وتوثيق ونحو ذلك.

أهداف البحث :

أولًا: إبراز مفهوم المباهاة الاجتماعية وصورها وآثارها.

ثانيًا: إظهار منهج القرآن الكريم في التحذير منها وذكر عواقبها.

ثالثًا: بيان الأساليب التربوية للوقاية من هذه الظاهرة في ضوء القرآن الكريم.



حدود البحث:

يقتصر هذا البحث على دراسة الأساليب التربوية للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم.

مصطلحات البحث:

المباهاة الاجتماعية: يُعرَّف التباهي بأنه: «حب الظهور، ورغبة الإنسان في الكشف عن صفاته ومزاياه، وفي عرض ما يلفت الانتباه إليه»[(١)].

والمباهاة: «المفاخرة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغير ذلك، إما في المتكلم أو في آبائه»[(٢)].

ويعرف الباحث المباهاة الاجتماعية إجرائيًا بأنها:

المفاخرة بالمزايا، والصفات القولية والفعلية والسلوكية، والعادات والتقاليد، وسائر الممارسات الاجتماعية؛ بغية لفت الانتباه والظهور على الآخرين بما يخالف الضوابط الشرعية والقيم الاجتماعية.

الأساليب التربوية: الأساليب جمع أسلوب وهو في **اللغة:** الطريق والوجه والمذهب، والأسلوب: الطريق تأخذ فيه[(٣)].

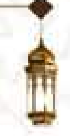
وفي الاصطلاح: «الإجراء المحدد لنقل المعلومات أو المعارف أو المهارات أو الاتجاهات والقيم بغرض تحقيق هدف تربوي مرغوب فيه»[(٤)].

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، «١/ ٤٣٣».

(٢) المصباح المنير، الفيومي، ص ١٧٦.

(٣) لسان العرب، ابن منظور «٦ / ٣١٩».

(٤) القيم الإسلامية والتربية، مصطفى خليل أبو العينين ص ١٣٠.



وعرفت بأنها: «الطرق التربوية التي يستخدمها المربي لتنشئة المتربي تنشئة صالحة»[١].

ويعرف الباحث الأساليب التربوية إجرائيًا بأنها: السبل التربوية المستخدمة لغرس القيم النبيلة، وتعزيز السلوك الحميد، والحد من السلوك السيئ والقيم الرديئة.

الظاهرة: تُعَرَّف بأنها حدث أو موضوع أو واقعة؛ يمكن ملاحظتها أو إدراكها عن طريق الحواس.

أو: هي معطيات موضوعية خارجية لها وجودها الحقيقي، وهي لا تستمد هذا الوجود من وحدة الشعور أو الذات، وإنما من وحدة خارجية خاصة بها، تتمثل في العلاقات المتبادلة بين مختلف الظواهر[٢].

كما أن الفعل السلبي المنتشر يُعَبَّر عنه بالظاهرة، كظاهرة أطفال الشوارع ونحوها[٣].

بينما تُعَرَّف الظاهرة الاجتماعية بأنها الوقائع التي يمكن ملاحظتها في الحياة الاجتماعية للإنسان.

أو: هي نتائج تأثير شخص أو جماعة، على شخص أو جماعة أخرى، وتتضمن هذه النتائج جميع نماذج السلوك الذي يحدث بين الناس، وجميع المواقف الاجتماعية[٤].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي ص ٣٧٧.

(٢) الشامل «قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية». مصلح الصالح، ص ٣٩٦.

(٣) الموسوعة الحرة Wikipedia. تم استرجاعها بتاريخ ١٣ / ١٢ / ١٤٣٨هـ.

(٤) انظر: الشامل «قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية». مصلح الصالح، ص ٥٠٤، مبادئ علم الاجتماع، أحمد رأفت عبد الجواد. ص ١٩





كما يُعَبَّر عن الظاهرة الاجتماعية بأنها: سلوك يمارسه جموع من البشر، أو يتعرضون له، أو يعانون منه، أو من نتائجه[١].

منهج البحث:

يستخدم الباحث المنهج الاستنباطي: وهو «الطريقة التي يقوم فيها الباحث ببذل أقصى جهد عقلي ونفسي عند دراسة النصوص؛ بهدف استخراج مبادئ تربوية مُدَعَّمة بالأدلة الواضحة»[٢].

والمنهج الوصفي التحليلي: وهو«المنهج الذي يقوم على وصف وتحليل ما حصل عليه الباحث من معلومات تحليلاً كَمِّيًا أو تحليلاً كيفيًا »[٣].

الدراسات السابقة:

لم يقف الباحث على دراسة علمية ذات علاقة مباشرة بموضوع البحث، وإنما هناك بعض الدراسات ذات العلاقة الغير مباشرة ومنها:

الدراسة الأولى: «وفاء الحسني ١٤٢٩هـ»[٤]، وهدفت إلى بيان خُلُق الإسراف ومدى تَفَشِّيه في المجتمع، وكشف آثاره، وعلاجه من خلال آيات القرآن الكريم وتفسيرها الموضوعي.

(١) الموسوعة الحرة Wikipedia تم استرجاعها بتاريخ ١٣ / ١٢ / ١٤٣٨هـ.

(٢) المرشد في كتابة البحوث، حلمي فوده، عبد الرحمن صالح عبد الله ص ٤٢

(٣) المدخل للبحث في العلوم السلوكية، صالح العساف ص٢٠٦.

(٤) الإسراف في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية في التفسير، وفاء يحيى الحسني، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الدراسات الإسلامية، تخصص التفسير وعلوم القرآن، كلية التربية للبنات « الأقسام الأدبية » جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢٩هـ.



استخدمت الباحثة المنهج الاستقرائي التتبعي، المنهج التحليلي، المنهج الاستنباطي.

أهم النتائج: أن الأصل في الإسراف مجاورة الحد في أي فعل كان، وأن الإسراف لا يختص فقط بالناحية المادية وإنما يشمل جميع نواحي الحياة الدينية والدنيوية.

أهم التوصيات: إطالة النظر في كتاب الله تعالى للتعرف على موضوعاته التي فيها وبها دائمًا تخدم الأمة؛ من خلال التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم، ودراستها دراسة منهجية أصيلة.

الدراسة الثانية: «العلياني ١٤٢٧هـ»[(١)]، وهدفت إلى التعرف على بعض معالم التربية الاقتصادية في القرآن الكريم، وكيف يمكن تفعيلها من خلال المؤسسات التربوية. وقد استخدم الباحث المنهج الوصفي، والمنهج الاستنباطي.

أهم النتائج: أن التربية الاقتصادية في القرآن الكريم تقوم على أهداف وأسس ومبادئ مثالية؛ وذلك لكونها ربانية المصدر.

أهم التوصيات: تربية الإنسان الذي هو محور عملية التنمية تربية اقتصادية إسلامية سليمة تجعل منه مُنتجًا يحترم العمل ويستغل الوقت ويُرَشِّد الاستهلاك.

(١) التربية الاقتصادية في القرآن الكريم وتطبيقاتها في الأسرة والمدرسة، سعد هاشم العلياني، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٧هـ.



الدراسة الثالثة: «الحسني ١٤٣٠هـ»[١]، وهدفت إلى أهمية ضبط الإنفاق في الأسرة المسلمة من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وإبراز التحديات والمخاطر المعاصرة، والتطبيقات التربوية لترشيد الإنفاق. وقد استخدم الباحث المنهج الوصفي.

أهم النتائج: أن البناء الصحيح للأسرة يشكل قوة للمجتمع المسلم، كما أن تطبيق ضوابط إنفاق الأسرة المسلمة منهج حياة متكامل يَقِي الأمة من الأزمات التربوية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية.

أهم التوصيات: يوصي الباحث الأسر المسلمة بالتناصح فيما بينها للقضاء على المظاهر السلبية في المجتمعات المسلمة، والقناعة بمبدأ الوسطية والاعتدال، وتجنب مظاهر الترف والبذخ والإسراف.

التعليق على الدراسات السابقة:

أوجه الاتفاق: اتفقت الدراسة الحالية مع الدراسات السابقة في مناقشة بعض الجزئيات البحثية التي تمثل نقطة اشتراك بينها؛ فالدراسة الأولى: ناقشت موضوع الإسراف في ضوء نصوص القرآن والسنة، والذي يمثل أحد مكونات المباهاة الاجتماعية.

والدراسة الثانية: ناقشت موضوع التربية الاقتصادية في القرآن الكريم، ومنها موضوع الاستهلاك وضوابطه في الإسلام، وهو أحد الجوانب ذات العلاقة بموضوع المباهاة الاجتماعية.

---

(١) ضوابط إنفاق الأسرة في الإسلام وتطبيقاتها التربوية، الباحث: حسن أحمد الحسني، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى ١٤٣٠هـ.



كما أن الدراستين الأولى والثانية ناقشتا الموضوعين في ضوء القرآن الكريم، كما هي الدراسة الحالية.

بينما عُنِيَت الدراسة الثالثة بضوابط إنفاق الأسرة في الإسلام وتطبيقاته التربوية، والتي أشارت إلى أهمية عدم مجاوزة الحد في إنفاق المال ونحوه، وهو أحد الجوانب ذات العلاقة بموضوع المباهاة الاجتماعية.

أوجه الاختلاف: تميزت الدراسة الحالية بالتركيز على تحرير مفهوم المباهاة الاجتماعية، وبيان صورها وأنواعها وآثارها، ومنهج القرآن الكريم في التحذير منها، كما أبرزت السبل والأساليب التربوية للوقاية من هذه الظاهرة في ضوء القرآن الكريم، وهو مالم تتطرق له الدراسات السابقة.

خطة البحث:

يتكون البحث مما يلي:

مقدمة البحث: وتشمل: موضوع البحث وتساؤلاته، ومشكلة البحث، وأهميته، وأهدافه، وحدوده، ومصطلحات البحث، ومنهجه، والدراسات السابقة.

المبحث الأول: ظاهرة المباهاة الاجتماعية وأبعادها، ويندرج تحته المطالب التالية:

المطلب الأول: مفهوم المباهاة الاجتماعية.

المطلب الثاني: صور المباهاة الاجتماعية.





المطلب الثالث: التحذير من المباهاة الاجتماعية في القرآن الكريم.

المطلب الرابع: الآثار المترتبة على المباهاة الاجتماعية.

المبحث الثاني: الأساليب التربوية للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية في القرآن الكريم؛ ويندرج تحته المطالب التالية:

المطلب الأول: أسلوب الترهيب والتحذير.

المطلب الثاني: التربية بالقصد والتوسط والاعتدال.

المطلب الثالث: ترسيخ قيمة التواضع عند استقبال النعم.

المطلب الرابع: أسلوب الامتنان بنعم الله.

المطلب الخامس: تربية النفس على دوام الشكر.

المطلب السادس: ذم السلوكيات المنحرفة.

المطلب السابع: أسلوب النمذجة « الايجابية والسلبية ».

المطلب الثامن: أسلوب الخطاب الوجداني.

الخاتمة:

١) النتائج.

٢) التوصيات.





المبحث الأول :
ظاهرة المباهاة الاجتماعية وأبعادها

يناقش هذا المبحث تحرير مفهوم المباهاة الاجتماعية في اللغة والاصطلاح، وأبرز المصطلحات ذات العلاقة بها، وصورها التي تظهر عليها في المجتمع.

المطلب الأول : مفهوم المباهاة الاجتماعية وصورها :

المباهاة في اللغة: المفاخرة، يقال: تَبَاهى القوم إذا تفاخروا، وفي حديث عرفة: «**يُباهِي بهم الملائكة**»[(١)].

قال الحُميدي: المباهاة: المفاخرة، وهي من الله تعالى ثناءٌ وتفضيل[(٢)]، ومنه حديث: «من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد»[(٣)].

والَبْهو وهو البيت المُقَدَّم أمام البيوت، والبهاء: الحُسن والجمال[(٤)].

ونلاحظ أن هذه المعاني اللغوية تتضمن معاني الفخر والبروز والظهور

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن (١٧/ ٢٥) برقم (٦٧٩٧).

(٢) تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، (١/ ٤١٩).

(٣) سنن النسائي، كتاب المساجد باب المباهاة في المساجد (٢ / ٣٢) برقم (٦٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ١٠٢٥) برقم (٥٨٩٥).

(٤) لسان العرب، ابن منظور، (١/ ٥٢٩)، القاموس المحيط، الفيروز آبادي (٤/ ٤٤٣) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون (١/ ٧٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير الجزري ص ٩٦.



والتمييز عن الغير، وهي معانٍ ذات دلالات تربوية ستظهر في المعنى الاصطلاحي.

المباهاة في الاصطلاح:

يُعرَّف التباهي في الاصطلاح بأنه: «حب الظهور ورغبة الإنسان في الكشف عن صفاته ومزاياه، وفي عرض ما يلفت الانتباه إليه»[(١)].

«**والمباهاة**: المفاخرة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغير ذلك، إما في المتكلم أو في آبائه»[(٢)].

والقصد والنية مؤثرة في تحديد المباهاة المنهي عنها، قال بعض السلف: «وأما المباهاة بالدنيا؛ فَبِأَنْ يزيد على أبناء جنسه بالأبنية، والمآكل والمشارب، والملابس والمناكح، والأثاث والخدم، لا يريد بذلك إلا أن يَفُوق غيره، وأن يُعَرِّفَه أنه أفضل منه في ذلك»[(٣)].

وعلى هذا، فالمباهاة هي: المفاخرة بإظهار المزايا والصفات في الأقوال والأفعال والسلوك وسائر الأحوال؛ بغية لفت الانتباه.

الاجتماعية: نسبة إلى المجتمع وهو «عبارة عن جماعات من البشر يعيشون معًا فوق رقعه من الأرض؛ تفاعلوا مع مُقَوِّماتها، واستثمروها لخيرهم، كما تفاعلوا فيما بينهم ومع مَنْ حولهم، مُكَوِّنين تاريخًا خاصًا بهم،

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، (١/ ٤٣٣).

(٢) المصباح المنير، الفيومي، ص ١٧٦.

(٣) مختصر رعاية المحاسبي، العز بن عبد السلام (١ / ٨٢).



كما أن لهم نُظُمًا اجتماعية خاصة بهم، وثقافة مشتركة تجمع بينهم، وكل ذلك في ظل دين يحكم حركة الحياة مِن حولِهِم ويُوجِّه سلوكهم، وتَنْبُع منه قيمُهُم ومُثُلُهم»[1].

ومن خلال ما سبق يُعَرِّف الباحث المباهاة الاجتماعية اصطلاحًا بأنها:

المفاخرة بالمزايا، والصفات القولية والفعلية والسلوكية، والعادات والتقاليد، وسائر الممارسات الاجتماعية؛ بُغْيَةَ لَفْت الانتباه والظهور على الآخرين، بما يخالف الضوابط الشرعية والقيم الاجتماعية.

كما يُفهم من النصوص السابقة أن المباهاة تأتي على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: المباهاة من الله عَزَّوَجَلَّ، وهي تشويقٌ للعبد، وثناءٌ عليه، وتفضيلٌ له على غيره، وإظهارُ حالِهِ للملائكة عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، كما ورد في حديث عرفة السابق الذكر.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذا الحديث: «إن الله يباهي بهم الملائكة معناه: يظهر فضلكم لهم ويُرِيهِم حُسْنَ عملكم ويثني عليكم عندهم، وأصل البهاء: الحُسن والجمال، وفلان يباهي بماله أي: يفخر ويتجمل بهم على غيرهم ويظهر حسنهم»[2].

وهي مِنَّة عظيمة، ونعمة كبرى من تعالى لعباده المؤمنين الموحدين الطائعين له سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، الممتثلين أوامره، والمجتنبين نواهيه.

---

(١) فصول في اجتماعيات التربية، مصطفى عبد القادر زيادة وآخرون، ص ٣٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، محي الدين النووي (١٧ / ٢٥).

النوع الثاني: المباهاة المأذون فيها بالضوابط الشرعية.

وهي أن يذكر الإنسان ما هو فيه من المحامد لبيانه للناس على وجه الإخبار بنعم الله، أو لأجل التشجيع على الاقتداء به.

وقد عدَّه العلماء من التحدث بنعم الله، والضابط فيه: أن لا يخالطه تَرَفُّع وتكبُّر على الناس، مع صلاح القصد وحسن النية.

ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرٌ»**[(١)]، وقول سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «إِنِّي لأَوَّلُ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ»[(٢)].

وفي حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ النَّاسُ، مَقْفَلَهُ[(٣)] مِنْ حُنَيْنٍ، فَعَلِقَهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **«أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ[(٤)] نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلًا وَلاَ كَذُوبًا وَلاَ جَبَانًا»**[(٥)].

(١) سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة (٢ / ١٤٤٠) برقم (٤٣٠٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١ / ٣٠٩) برقم (١٤٦٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة باب مناقب سعد بن أبي وقاص الزهري (٧ / ١٠٤) برقم (٣٧٢٨).

(٣) مَقْفَلَهُ: بفتح الميم وسكون القاف وفتح الفاء واللام يعني زمان رجوعه. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (٦ / ٤٢).

(٤) هو شجر ذو شوك. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (٦ / ٤٣).

(٥) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الشجاعة في الحرب والجبن، (٦ / ٤٢) برقم (٢٨٢٠).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه جواز وصف المرء نفسه بالخصال الحميدة عند الحاجة، كخوف ظنِّ أهلِ الجهلِ به خلاف ذلك، ولا يكون ذلك من الفخر المذموم»[١].

وقال الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي حديث عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ «**قد علمت أي ساعة هي**» [٢]دليل على أن للعالم أن يقول: قد علمت كذا، وأنا أعلم كذا، إذا لم يكن على سبيل الفخر والسمعة، وما الفخر بالعلم إلا حديثٌ بنعمة الله، قاله ابن عبد البر[٣].

النوع الثالث: المباهاة من المخلوقين على سبيل الاستطالة على الناس والترفع عليهم، مقرونة بالفخر والتعالي وحب الظهور.

وهي المفاخرة المذمومة والتي تنطوي على إظهار التميز والبروز، والحَظْوة بالصفات والمزايا -وهي في الأصل نعم الله- على حساب الآخرين، مع فساد الباطن وسوء القصد.

وهذا النوع مخالف لمعتقد أهل السنة والجماعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تقرير معتقد أهل السنة والجماعة: «ويَنْهَون عن الفخر والخُيَلاء والبغي، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق » [٤]، فإن كانت

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (٦ / ٢٩٣).

(٢) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، (٣ / ٢٥٨) برقم (١٠٤٢).

(٣) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي الزرقاني (١ / ٣٩٨).

(٤) العقيدة الواسطية، ابن تيمية (١ / ١٣١).



المباهاة بما يملكه الإنسان وله وجود في الواقع فهو الفخر، وإن كانت بما لا يملكه الإنسان وليس فيه وإنما يتباهى به باطلًا فهو البغي[(١)].

وقد تواترت النصوص الشرعية في التحذير من هذا النوع من المباهاة والمفاخرة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان: ١٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦]، «أي مختالًا في نفسه، مُعجبًا مُتكبرًا فخورًا على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض، يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك»[(٢)].

وعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ**»[(٣)].

الفخر: أي الافتخار، وهو المباهاة والتمدُّح بالخصال والمناقب والمكارم، إما فيه، أو في أهله، قال في الفائق: الفخر تعداد الرجل من مآثره ومآثر آباءه. ومعنى الفخر بالأحساب هو التكبر والتَعَظُّم بعدِّ مناقبه ومآثر آباءه، وهذا يستلزم تفضيل الرجل نفسه على غيره لِيَحْقِرَه، وهو لا يجوز[(٤)].

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفخر؛ التعالي والتعاظم، والباء للسببية، أي: يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه، والحسب ما يحتسبه الإنسان من شرف

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٤ / ٢٢١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٠١).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، (٦/ ٣٧٥) برقم (٢١٥٧).

(٤) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي (٣/ ١٢٣٤).




وسُؤْدَد، كأن يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة فيفتخر بذلك، وهذا من أمر الجاهلية، لأن الفخر في الحقيقة يكون بتقوى الله، الذي يمنع الإنسان من التعالي والتعاظم، والمتقي حقيقة هو الذي كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد تواضعًا للحق وللخلق »[١].

وهذه الصورة من المباهاة هي موضوع هذا البحث، وسيأتي الحديث عن هذه النصوص وغيرها مفصلاً في المباحث التالية بإذن الله.

المطلب الثاني : صور المباهاة الاجتماعية :

تتخذ المباهاة الاجتماعية صورًا وأشكالًا متنوعة؛ يجمع بينها حب الظهور والتميز والاستعلاء على الناس، واستعراض التميُّز في الملابس والمأكل والمشارب والمقتنيات ونحو ذلك، ويُعلن على الملأ، وخصوصًا في وسائل التواصل الاجتماعي التي ضجَّت بمثل هذه الممارسات؛ نظرًا لكثرة متابعيها وسهولة استخدامها. وقد قام الباحث بحصر أبرز صور المباهاة الاجتماعية من خلال توظيف خبرته العلمية، إضافة إلى الأدبيات التربوية والاجتماعية في هذا المجال، إلى جانب استفادة الباحث من المقالات والكتابات المتنوعة التي ناقشت هذا الموضوع من خلال الصحف والمواقع الالكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي، في تكوِّن تصوِّر واضح حول أبرز صور المباهاة الاجتماعية، ومن تلك الصور:

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح بن عثيمين (٢ / ١٢٠).



التباهي بالحسب والنسب وتمجيد الذات:

وذلك بتجاوز الحد في تمجيد الذات ومدح الفعال والتشدق بذلك سواء كان ذلك في المتباهي أو بأسرته وعشيرته، ونحو ذلك مما نسمعه أو نراه على شكل قصائد، أو مقاطع مصورة أو كتابات هنا وهناك.

التباهي بالممتلكات والمقتنيات:

وذلك بعرض ممتلكات الإنسان على الملأ من سيارات وقصور ومساكن ومشتريات، حتى وصل الأمر إلى عرض التوافه وسَقْط المتاع مما يقتنيه الرجال والنساء على حد سواء، وإبراز ذلك في الوسائل والتقنيات الحديثة، حتى تجاوز ذلك إلى مقتنيات الأطفال وملابسهم وغرفهم، وتفاصيل حياتهم منذ ولادتهم.

التباهي بالولائم والمناسبات:

ويظهر ذلك في المبالغة بتلك الولائم والإسراف فيها، وتجاوُز الحد المشروع في ذلك، واستعراض أنواع المطاعم والمأكل والمشارب، وإظهار ذلك للناس مصورًا وموثقًا، وربما يتم ذلك في ساعته وحينه، والتفاخر بهذه الولائم والمناسبات لاستجلاب مدح الناس وثناءهم وإعجابهم.

وربما تجاوز ذلك كله إلى ارتكاب المخالفات الشرعية الكبيرة وإظهار البَطَر والتكبُّر، والعبث بنعم الله وإهدارها على وجه مخالف لأوامر الله تعالى.

التباهي بالعادات الاجتماعية:

ويظهر ذلك في ما يقوم به البعض من استعراض أسفارهم ورحلاتهم، ووسائل تسليتهم المختلفة، وإقامتهم بأفخم الفنادق والمنتجعات، وبرامجهم




ورحلاتهم، ونحو ذلك مما يُنْشَر على الملأ.

ومن التباهي بالعادات الاجتماعية؛ البذخ بالهدايا والهبات والعطايا، سواء بمناسبة نجاحٍ أو مولودٍ أو ترقيةٍ أو نحو ذلك، وتوثيق ذلك ونشره على نطاق واسع وجَعْلُه حديثَ القاصي والداني.

التباهي بمجاراة الآخرين في مستوى المعيشة:

وهو من أبرز صور المباهاة الاجتماعية؛ حيث يعْمَد البعض إلى التَطَلُّع إلى الآخرين، ومجاراتهم في مسكنهم ولباسهم وسياراتهم وطريقة عيشهم، وتقليدهم في كل شؤونهم، ولو كان ذلك بتحَمُّلِه مشاقَّ الديون والتكلُّف في ذلك. وغياب القناعة والرضى بما عنده، بل إنك تجد الفقير الذي لا يملك قُوته يتطلع إلى مثل هذه الأمور مدفوعًا برغبته وطموحاته الخيالية، أو بتأثير أسرته وأهل بيته، مما لا يناسب حاله، ولا يتوافق مع قدراته و إمكاناته.

وقد حث الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على القناعة عمَّا في أيدي الناس، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه: ١٣١].

«وفي هذه الآية يقول تعالى لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه: لا تنظر إلى هؤلاء المُتْرَفين وأشباههم ونظرائهم، وما هم فيه من النعم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور»[(١)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥ / ٣٢٦)



قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحًا إلى زينة الدنيا و إقبالًا عليها، أن يذكر ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا»[(١)].

فهذه الصور وغيرها تمثل ظاهرة المباهاة الاجتماعية وأشكالها، والقاسم المشترك بينها اشتمالها على العديد من المحاذير الشرعية، ومخالفة القيم الاجتماعية والدينية، بل ربما يتعدى الأمر إلى محادة الله تعالى والمجاهرة بالمعاصي، وكفران النعم والتبذير والإسراف والخيلاء والتكبر، ونحو ذلك من الأمور العظيمة والمحاذير الكبيرة المترتبة على المباهاة الاجتماعية، والتي رتَّب الله تعالى عليها العقوبات الكبيرة في الدنيا والآخرة.

ويتضح للباحث من خلال هذه الصور وتنوعها وتدرجها من الصور البسيطة للمباهاة الاجتماعية إلى تلك التي تتسم بالغلو والتطرف، وما بينهما من صور تختلف درجاتها، تمثل بمجموعها فعلًا تنطبق عليه خصائص الظاهرة الاجتماعية، وقد أوضح دور كاييم وغيره من علماء الاجتماع، أن من خصائص الظاهرة الاجتماعية أنها سلوك جماعي، يأخذ شكلًا إنسانيًا، يتميز بالتلقائية وترابط عناصره ببعضها، كما أنها نسبية تتغير من مجتمع لآخر، ومن وقت لآخر، كما أنها مكتسبة[(٢)].

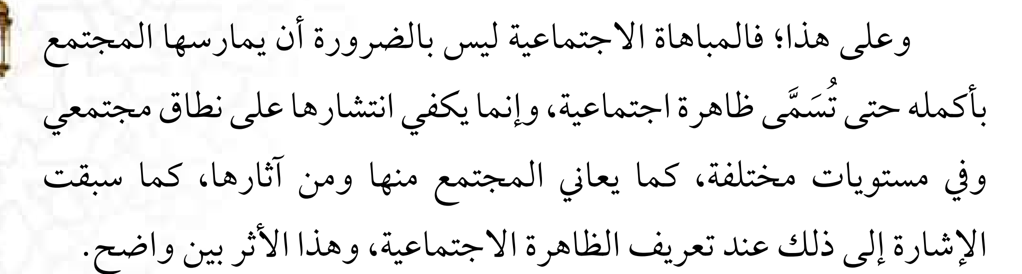
فإذا أخذت الظاهرة بُعْدًا سلبيًا -كما في المباهاة الاجتماعية-، قد تتحول إلى مشكلة اجتماعية معقدة ذات أبعاد يصعب حلها وتجاوزها.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي (٥/ ٢٠٢)

(٢) مبادئ علم الاجتماع، أحمد رأفت عبد الجواد. ص ١٩.





وعلى هذا؛ فالمباهاة الاجتماعية ليس بالضرورة أن يمارسها المجتمع بأكمله حتى تُسَمَّى ظاهرة اجتماعية، وإنما يكفي انتشارها على نطاق مجتمعي وفي مستويات مختلفة، كما يعاني المجتمع منها ومن آثارها، كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند تعريف الظاهرة الاجتماعية، وهذا الأثر بين واضح.

كما أن هذه الظاهرة لا تُقاس فقط من خلال تلك الحالات الأكثر تطرفًا من صور المباهاة الاجتماعية؛ فهذه وإن كانت قليلة إلا أنها تمثل أحد مستويات المباهاة الاجتماعية، فإذا اجتمعت مع الصور الأخرى الأقل تطرفًا؛ شكَّلت بمجموعها ظاهرة اجتماعية جديرة بالمعالجة والبحث.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة هذه الظاهرة ومعالجتها، سواء في ضوء مصادر التربية الإسلامية التي تمثل المرجعية القطعية للمجتمع المسلم، أو من خلال المنهج العلمي الذي يهتم برصد هذه الظاهرة وتَتَبُّع أسبابها ومظاهرها من خلال الرصد الميداني.

المطلب الثالث: التحذير من المباهاة الاجتماعية في القرآن الكريم:

سبق الحديث عن صور المباهاة الاجتماعية واشتمالها على معاني التبذير والإسراف والاستعلاء على الآخرين والتكبر والخيلاء والاعتداد بالنفس، والفخر بالحسب والنسب والممتلكات، ومجانبة التوسط والاعتدال، والمجاهرة بما يغضب الله عَزَّوَجَلَّ، والكفر بنعم الله تعالى.

وقد جاء القرآن الكريم بالتحذير من هذه الأفعال الشنيعة والأخلاق الذميمة.



ومن أوجه تحذير القرآن الكريم من المباهاة الاجتماعية ما يلي:

أولاً: اشتمال المباهاة الاجتماعية على الإسراف والتبذير.

وقد حذر القرآن الكريم أشد التحذير من هذين المسلكين في آيات كثيرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾[الأنعام: ١٤١].

«نهى الله تعالى عن جميع معاني الإسراف، ولم يخصص منها معنى دون معنى»[(١)].

«والإسراف هو مجاوزة الحد والعادة»[(٢)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإسراف في المباحات هو مجاوزة الحد، وهو من العدوان المحرم»[(٣)].

«فوجْه عدم محبة الله إياهم؛ أن الإفراط في تناول اللذَّات والطيبات، والإكثار من بذل المال في تحصيلها؛ يفضي غالبًا إلى استنزاف الأموال والشَّرَه إلى الاستكثار منها، فإذا ضاقت على المسرف أمواله تَطَلَّب تحصيل المال من وجوه فاسدة؛ ليخمد بذلك نهمته إلى اللذَّات، فيكون ذلك دأبه. فربما ضاق عليه ماله فشقَّ عليه الإقلاع عن مُعتَاده، فعاش في كرب وضيق، وربَّما تَطَلَّب المال من وجوه غير مشروعة، فوقع فيما يُؤَاخَذ عليه في الدنيا أو في الآخرة،

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري (١٢ / ١٧٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي (٢/ ٤٨٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢ / ١٣٤).



ثم إن ذلك قد يُعْقِب عيالَه خَصَاصةً، وضَنْكَ معيشةٍ، وينشأ عن ذلك مَلام وتوبيخ وخصومات، تُفضِي إلى مالا يُحمَد في اختلال نظام العائلة»[1].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾ [الشعراء: ١٥١ – ١٥٢].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذين تجاوزوا الحد. ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾، أي: الذين وصْفُهم ودأْبُهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها، إفسادًا لا إصلاحَ فيه، وهذا أضرُّ ما يكون، لأنه شر محض»[2].

«والعلة من تحريم الإسراف؛ أنه يبدد الأموال بدون منفعة معتبرة شرعًا، ومن المنظور الاقتصادي قد يقود الإسراف إلى التضخم، والاعتداء على حقوق الأجيال القادمة، ومن المنظور الطبي فإنه يؤدي إلى الإضرار بالبدن، ومن المنظور الاجتماعي يقود الإسراف إلى الفساد الاجتماعي، فإن كان عند المسرف سَعَة من المال فليوجِّهْا إلى الفقراء الذين لا يجدون الضروريات والحاجيات، في صورة زكاة أو صدقة أو وقف أو وصية»[3].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ٢٧﴾ [الإسراء: ٢٦ – ٢٧].

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٨/ ١٢٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي (٥/ ٥٣٨).

(٣) ضوابط إنفاق الأسرة في الإسلام وتطبيقاتها التربوية، حسن بن أحمد الحسني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية التربية، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، ١٤٣٠هـ ص ٩٨.

﴿وَلَا تُبَذِّرۡ﴾ أي: لا تسرف في الإنفاق في غير حق.

وعن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه، وهو الإسراف، وهو محرم لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ ﴾ أي: في حكمهم؛ فهو يفسد كإفسادهم -يعني أنهم في حكمهم-، إذ المبذر ساعٍ في إفساد كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تُسَوِّل لهم أنفسهم، أو أنهم يُقْرَنون بهم غدًا في النار»[(١)].

قال الشوكاني: «التبذير؛ تفريق المال كما يُفَرق البذر كيفما اتفق من غير تعمُّد لمواقعه، وهو الإسراف المذموم لمجاوزته للحدِّ المُستحسَن شرعًا في الإنفاق، أو هو الإنفاق في غير الحق وإن كان يسيرًا»[(٢)].

ويتضح من هذه النصوص؛ التحذير الشديد من المباهاة الاجتماعية لما فيها من التبذير والإسراف والبذخ، وهي مما حذَّر الله تعالى منه، وجعله من أسباب هلاك المجتمعات، مما يوجب الحذر منها، ويردع النفس عن مقارعتها.

ثانيًا: المباهاة الاجتماعية فيها استعلاء وتكبر على الآخرين:

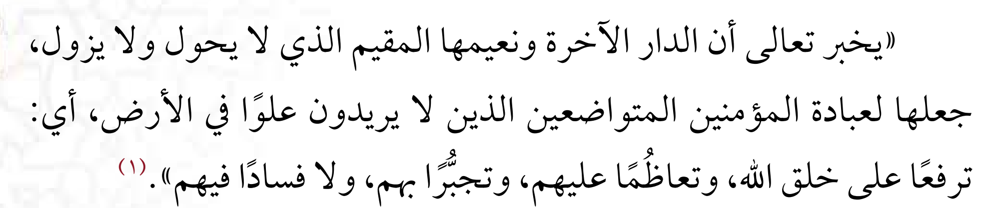
فتفاخر الإنسان بنفسه أو ماله أو ممتلكاته أو حسبه أو نسبه استطالة على الخلق، واستعلاء عليهم، وتَنَقُّص من قدرهم، وقد حذر الله تعالى من هذه الأخلاق أشد التحذير.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣ ﴾ [القصص: ٨٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٢٤٨).

(٢) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٢٦٣).





«يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعبادة المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوًا في الأرض، أي: ترفعًا على خلق الله، وتعاظمًا عليهم، وتجبرًا بهم، ولا فسادًا فيهم».(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ٣٧﴾ [الإسراء: ٣٧]. أي: لا تمش في الأرض مختالًا مستكبرًا(٢).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا نهي عن الخيلاء، وأمر بالتواضع»(٣).

«كما أن فيه تهكُّم بالمُختال المتكبر، أي: ولن تبلُغَ قدرتُك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عِظَمُ جثتك حاملًا لك على الكبر والاختيال، فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشي عليها، ولا عِظَمَ في بدنك حتى تُطَاول الجبال، فما الحامل لك على ما أنت فيه»(٤).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨﴾ [لقمان: ١٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تتكبر فتحقر عباد الله وتُعْرِض عنهم بوجهك إذا كلَّموك ... وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جذلًا متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك يبغضك الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال مُعْجَب في نفسه، فخور على غيره»(٥).

---

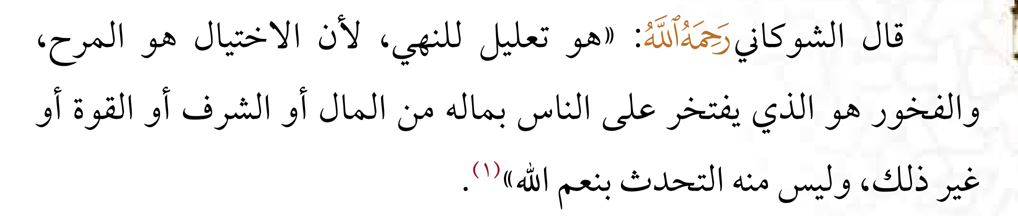
(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦/ ٢٥٨).

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري (١٧/ ٤٤٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠ / ٢٦٠).

(٤) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٢٧١).

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦ / ٣٣٨).



قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو تعليل للنهي، لأن الاختيال هو المرح، والفخور هو الذي يفتخر على الناس بماله من المال أو الشرف أو القوة أو غير ذلك، وليس منه التحدث بنعم الله»(١).

ويَبْرُز هنا أهمية تربية النفس على أدب القرآن، والتمسك بالأخلاق السامية التي دعا إليها وحث عليها، والبعد عن الأخلاق الذميمة التي نفّر منها، وبالتالي الابتعاد عن التباهي والتفاخر لما يشتمل عليه من تلك الأخلاق الذميمة، ولما فيه من بعد عن الأخلاق الرفيعة.

ثالثًا: المباهاة الاجتماعية فيها اعتداد بالنفس وتزكية لها.

فالتفاخر بالأقوال والأفعال وتمجيد الذات، وذكر صنيعها ونشره على الملأ، لا يخلو من اعتداد بالنفس وتزكية لها، وطلب للرياء والسمعة. وقد نهى القرآن الكريم عن تزكية النفس، ورؤية الأفعال والأقوال، بل حضَّ وحثَّ على هضم النفس وازدرائها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

«أي: تمدحوها وتشكروها وتَمُنُّوا بأعمالكم»(٢)، «فلا تُثْنُوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصي بالكلية، أو بزكاء العمل وزيادة الخير، بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته جل شأنه»(٣).

(١) فتح القدير، الشوكاني (٤/ ٢٧٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٧/ ٤٦٢).
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٤/ ٦٣).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويشمل ذلك ذكر المرء أعماله الصالحة للتفاخر بها، أو إظهارها للناس، ولا يجوز ذلك إلا إذا كان فيه جلب مصلحة عامة»[١].

ولعل من أوجه هذه المصلحة الاقتداء به في مجال الخير والبر، مع ضرورة حسن القصد وسلامته.

كما بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تزكية النفوس شأنه هو -جل وتعالى- .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء: ٤٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا اللفظ عام في ظاهرة، ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد اليهود، وقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه»[٢].

وقال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي معناهم؛ من زكَّى نفسه وأثنى عليها بغير غرض صحيح، كالتحدث بالنعمة ونحوه»[٣].

«فتزكية النفس من أخطر الأمراض القلبية، وهو من أكبر العوائق أمام صلاح الفرد والمجتمع، فالنظر إلى النفس بعين الكمال يُعمي القلب عن رؤية عيوبها وأمراضها التي يجب معالجتها، وهو منبع العجب والكبر والحسد،

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢٧ / ١٢٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥ / ٢٤٦).

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٣ / ٥٣).



لأن الناظر إلى نفسه بعين الكمال يشعر أنه يستحق من تقدير الناس وتعظيمهم وثنائهم أكثر مما أخذه، فيترتب على ذلك احتقارهم وازدرائهم، لكونهم لم يعطوه حقه ولم يقدروه حق قدره»[1].

المطلب الرابع: الآثار المترتبة على ظاهرة المباهاة الاجتماعية:

يترتب على انتشار ظاهرة المباهاة الاجتماعية عواقب وخيمة وآثارٌ كبيرة على الفرد والمجتمع، مما يمسُّ وجوده وتماسكه وقيمه ومعتقداته، وكذلك اقتصاده ونماءه، ومن تلك الآثار:

أولًا: التعرض لغضب الله تعال وعقابه.

وذلك حالَ كانت صور التباهي والافتخار مقرونة بالإسراف والتبذير، وكفر نعمة الله تعالى والبطر عليها.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها»[2].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استغنى بـ ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ عن قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[النمل: ٢١]، لكونه أعمْ وأوجز، ولكون إفادة الوعيد

(١) تزكية النفس في ضوء الكتاب والسنة وأقوال السلف، ماجد البنكاني، مقالة إلكترونية استرجعت من العنوان«alukah.net» بتاريخ ٢٠ / ٩ / ١٤٣٨هـ.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٤٧٩).



بضرب من التعريض أوقع في النفس»[1].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

«فجعلها الله تعالى مثلًا لأهل مكة، أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فجُوزوا بما جُوزوا. وفي إيثار جمع القلة إيذان بأن كفران نعم قليلة أوجبت هذا العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة»[2].

فنعم الله تعالى على الإنسان في ماله وبدنه وأهله، تُحفظ بالشكر والتواضع لله تعالى وتزول بالجحود والتباهي بها، والبذخ والتبذير فيها، وصرفها على الوجه الذي يغضب الله تعالى.

ثانيًا: كسر قلوب المساكين باستعراض النعم أمام من حرم منها.

ومن الآثار المترتبة على التباهي والتفاخر ومجاوزة الحد، وإظهار ذلك على الوسائل المرئية والمسموعة ونشره في الآفاق على وسائل التواصل الاجتماعي ليراه القاصي والداني، ومنهم الفقير والمسكين والمُشرَّد والمُعدَم، ومن لا يجد أبسط متطلبات الحياة، ثم يرى مثل هذه المشاهد؛ ينكسر قلبه ويحزن ويصاب بالهم؛ لما يرى من حال هؤلاء وهم يشاركونه في الدين والملة، ثم لا يكون له حظ ولا نصيب من صدقاتهم، أو برهم أو إحسانهم، ثم إن في هذا مخالفة لمقاصد الشرع التي جاءت بوجوب الإحسان إلى المسكين واليتيم ونحوهم.

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١٣/ ١٩٤).

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (٧/ ٤٧٦- ٤٧٧).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦]

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من البر والإكرام الواجب والمسنون ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ آتِهِ حقه من الزكاة ومن غيرها لتزول مسكنته»[1].

ثالثًا: التباهي بالنعم قد يسبب الضر لصاحبه.

فالمباهاة على الملأ بالحال والمال والممتلكات ونحو ذلك، ونشرها أمام الناس على نطاق واسع قد يسبب الضرر المادي لصاحبه، وذلك من جهة استجلاب الحُسَّاد وضعاف النفوس، وربَّما حقد من لم يجد مثل ما يستعرضه المتباهي من سائر النعم والممتلكات ونحوها.

وقد أشار أهل العلم في ذلك إلى قول يعقوب لنبي الله يوسف -عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم-، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ [يوسف: ٥]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥].

«وتاسعها: أن أعظم النعمة الإقبال والتعبُّد، ولكل نعمة حاسد على قدرها دَقَّت أو جَلَّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفُس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته على الحاسد»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي (٤ / ٢٧٢).

(٢) الفتاوى، ابن تيمية (١٥ / ١٨).





قال ابن حزم الأندلسي -رحمة الله-: «كم رأينا من فاخر بما عنده من المتاع، كان ذلك سببًا لهلاكه، فإياك وهذا الباب الذي هو ضُرٌ مَحْضٌ لا منفعة فيه أصلًا»(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن البَلِيَّة أن يُبَذِّر في النفقة ويُباهِي بها ليَكْمِد الأعداء، كأنه يتعرض بذلك -إن أكثر- لإصابته بالعين»(٢).

كما أن الواقع يشهد لذلك؛ فكم من أناس تعرضوا للأذى والضر بسبب المبالغة في المباهاة والمفاخرة، واستعراض ما أنعم الله تعالى عليهم أمام الملأ، وعبر القنوات ووسائل التواصل المختلفة.

رابعًا: ترسيخ السلوك الاستهلاكي للمجتمع.

فإن المباهاة والتفاخر والتبذير بالمال والمتاع، وإشهار ذلك عبر منصَّات التواصل الاجتماعي مع ما فيه من المحاذير الشرعية؛ فإنه يؤثر كذلك على قيم المجتمع، ويُعَزِّز في شخصية الناشئةِ السلوكَ الاستهلاكي المُتْرَف، ذلك أنه حينما يشاهد من يرمي النقود للإبل لكي تأكلها كما نُشر عبر مقاطع الفيديو، أو يفرشها للضيف، ونحو ذلك من المواقف، يُرَسِّخ في مُخَيِّلَته قيم التبذير والتباهي بالمال، والتساهل في ذلك، وفي المقابل تتلاشى عنده قيم الجِدِّ والبذل والاجتهاد والإحسان، ونحو ذلك من قيم السلوك الإنتاجي، وقد أكدت دراسة «قمره ٢٠٠٣» وجود علاقة بين قيم الأفراد

---

(١) الأخلاق والسير (رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل)، ابن حزم، ص ١٧٨.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي ص٤٢٤.



وسلوكهم الاستهلاكي، بعد أن أُجْرِيَت الدراسة على عينة مكونة من «٢٠٠» أسرة سعودية، وتوصلت إلى وجود علاقة ارتباطية مُوجَبَة بين القيم الدينية والسلوك الاستهلاكي الرشيد، مما يدل على أن تمسك المستهلك بالقيم الإسلامية يزيد من رشد سلوكه الاستهلاكي[١].

والمؤكد أن المباهاة الاجتماعية والتفاخر ليس من السلوك الاستهلاكي الرشيد، بل هو ضد ذلك لما فيه من البذخ والإسراف، والاستهانة بالنعم ما لا يخفى، وهي أمور عظيمة تخالف ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من إعلاء شأن العمل والإنتاج، والحث على الإحسان والإتقان فيهما، والبعد عن كل ما من شأنه تعزيز السلوك الاستهلاكي السلبي، وما يَحْوِيه من مفاخرة وتبيد للمال سواء للأفراد أو المجتمعات.

خامسًا: إهدار المال على وجه غير مشروع.

فالتباهي والتفاخر بالمطاعم والمشارب والولائم والأسفار ونحو ذلك مما يجاوز الحد؛ استهلاك للمال في غير موضعه الذي أمر الله تعالى به، فالمال نعمة من الله تعالى والإنسان مستخلف فيه ومؤتمن عليه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۝٧ ﴾ [الحديد: ٧].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالى ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ دليل على أن أصل المُلك لله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي

(١) أنظر: القيم الإسلامية وعلاقتها بأنماط السلوك الاستهلاكي للأسرة السعودية، هنادي محمد قمرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، مكة المكرمة، قسم الاقتصاد المنزلي ١٤٢٤هـ، ص ١٣٨.

يرضي الله، فيُثِيبه على ذلك بالجنة... قال الحسن: ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ بوِراثَتِكم إيّاه عمَّن كان قبلكم. وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النواب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تُزَال عنكم إلى مَن بعدَكم»[(١)].

ولا شك أن الإسراف والتبذير والبذخ وصرف المال بهذه الطرق إهدار للمال وضياع له، وعدم حفظ للأمانة التي أُتْمِنَ الإنسان عليها.

سادسًا: تكوين صورة نمطية للمجتمع بأكمله.

فانتشار صور المباهاة والمفاخرة وتداولها على نطاق واسع عبر وسائل التواصل الاجتماعي لتصل إلى أصقاع الدنيا، من شأنه تكوين أفكار مغلوطة وصور نمطية عن ذلك المجتمع الذي تنتشر فيه مثل هذه المظاهر، وإظهاره بأنه مجتمع مترف مبذِّر؛ لا همَّ لأفراده سوى البذخ والتباهي والمفاخرة، وهذه صورة نمطية سيئة، تُرسَّخ في أذهان من لم يعرف المجتمع على حقيقته، وخاصة كون المجتمع مسلمًا محافظًا ينبغي أن يتربى أفراده على العبادة والإيمان، والعمل الجاد، والقيم الأصيلة.

....

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧ / ٢٣٨).



المبحث الثاني :
الأساليب التربوية للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم

إن بناء وتطوير أي مجتمع من المجتمعات ومعالجة مشكلاته تبدأ من تربية أفراد ذلك المجتمع وتنشئتهم تنشئة سوية، وبناء معتقداتهم وقيمهم وأفكارهم وعقولهم وتهذيب سلوكهم بما يمثل بمجموعه صياغة مجتمع قوي متماسك؛ تربَّى على القيم والأخلاق والمُثُل العليا، ولا ريب أن هذا مُتيَسّر متى استُخدِمَت الأساليب الصحيحة في ذلك وهو مُبْتَغَى المربين والعقلاء.

والمتأمل فيما أحدثه القرآن الكريم في بناء أفراد المجتمع في عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى أضحى أمثل المجتمعات على الإطلاق. ذلك أن القرآن الكريم حوى أفضل الأساليب، وأصدق المناهج، وأزكى الوسائل، كيف لا؟ وهو وحي من عند الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وعند البحث في أساليب القرآن الكريم، وهي الطريقة الخاصة التي انفرد بها القرآن الكريم في إفادة المعاني بالألفاظ[1] نجد التربية الحقة والتميُّز الفريد؛ حيث يقدم القرآن الكريم النماذج المختلفة في موضوعات شتى لأخذ العظة والعبرة، ومن ذلك تنوع أساليب القرآن الكريم في الوقاية من المباهاة والتفاخر، مابين ذم السلوك المنحرف والتقليل منه، والحث في المقابل على السلوك النبيل وتعزيزه، وكذلك تربية النفس على الشكر والتواضع عند التعامل مع نعم

(١) القرآن الكريم رؤية تربوية، سعيد اسماعيل علي (ص١٥٩).





الله تعالى، وأسلوب ترسيخ مبدأ الوسطية والاعتدال في أمور الدين والدنيا، وغير ذلك من الأساليب التربوية القرآنية، ولعل هذا المبحث يأتي لإبراز هذه الأساليب التي قدمها القرآن الكريم للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية.

المطلب الأول: أسلوب الترهيب والتحذير:

والترهيب يكون بالوعيد والتخويف بآثار مترتبة على العمل المنهي عنه؛ سواء كان هذا الوعيد بالشيء القريب أو البعيد. والأصل في الترهيب أن يكون بالتخويف من غضب الله وسخطه وعقابه الأليم في الآخرة[(١)].

«وهذا الأسلوب يتوافق مع طبيعة النفس البشرية، حيث إن من الدوافع الأساسية التي تحرِّك سلوك الإنسان الدوافع الفطرية، ومنها دافع اتِّقاء الألم الذي يمكن إثارته بالترهيب، لأن الإنسان يبذل جهده ليتجنب ما يسبب له الألم سواء كان ذلك نفسيًا أو جسديًا، وفي سبيل ذلك يتجاوب مع المؤثرات التي تحرك في داخله دافع الخوف من الإصابة بالألم، مما يدعو العقل إلى التأمل والتفكير، ثم اتخاذ موقف للنجاة والفرار من ذلك»[(٢)].

«كما أن من الناس من يتأثر بالمخاوف أكثر من تأثرهم بالمُرَغِّبات والخيرات مهما كانت جليلة. ومن أجل ذلك يضعف لديهم أثر الترغيب بالثواب الجزيل على فعل الخير وترك الشر، لكنهم إذا مَثُلَت المخاوف المحققة في نفوسهم تيقَّظوا وحَذِروا واستقاموا»[(٣)].

---

(١) أنظر: من أساليب التربية في القرآن الكريم، زينب بشارة يوسف، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المدينة العالمية، كلية العلوم الإسلامية ص٥٢.

(٢) تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس، محمد السيد الزعبلاوي ص١٩٤.

(٣) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، زياد محمد العاني، ص ١٢٥.



ومما جاء في القرآن الكريم للوقاية من المباهاة الاجتماعية التربية بالترهيب والتحذير مما يترتب على تلك الأخلاق الذميمة من مفاسد عظيمة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾ [لقمان: ١٨ - ١٩].

وكذلك من صور أسلوب الترهيب والتحذير في كتاب الله، التربية بالترهيب من مُمَاثلة الشيطان ومُشَابهتِه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧ ﴾ [الإسراء: ٢٧].

«وفي الآية تعليل للنهي عن التبذير ببيان أنه يجعل صاحبه ملزوزًا في قرن الشياطين، ...، أي أنهم أصدقاؤهم وأتباعهم فيما ذكر من التبذير والصرف في المعاصي، فإنهم كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها، ويبذرون أموالهم في السمعة، وسائر ما لا خير فيه من المناهي والملاهي»(١).

وقال ابن سِعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن الشيطان لا يدعوا إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعوا الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه دعاه إلى الإسراف والتبذير»(٢).

«وفي تخصيص هذا الوصف بالذكر من بين صفاته القبيحة، إيذانٌ بأن التبذير الذي هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غير مَصْرَفِها؛ من باب الكفران المقابل للشكر الذي هو صرفها إلى ما خلقت له»(٣).

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي(٨/ ٦٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سِعدي(٤/ ٢٧٣).
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي(٨/ ٦٢).





ولا شك أن المباهاة الاجتماعية والتفاخر بالأموال والممتلكات، ينطوي على كثير من التبذير الذي ذمَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أهلَه، وحذرهم من مشابهة ومماثلة الشيطان. نسأل الله السلامة والعافية.

ويشمل أسلوب الترهيب في القرآن الكريم، التربية بالتحذير من جزاء المباهين والمسرفين في الدنيا والآخرة، وقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى لبيان جزاء المسرفين بأنواع الإسراف كلها في الدنيا والآخرة، ومن ذلك؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه: ١٢٧].

ومن أسلوب القرآن الكريم في الترهيب من المباهاة وما تنطوي عليهم من إسراف، التربية بالتحذير من ضلال المسرف وعدم هدايته في الدنيا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر: ٣٤].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر: ٢٨].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي وصْفُه السَّرف والكذب -لا ينفك عنهما- لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه ردَّ الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه بأن يمنعه الهُدى»(١).

فهذه النصوص القرآنية العظيمة وغيرها تُبْرِز أحد أهم الأساليب التربوية في القرآن الكريم للوقاية من ظاهرة المباهاة الاجتماعية، عن طريق التحذير والترهيب من الأخلاقيات الذميمة التي تنتج عن التفاخر والمباهاة كالإسراف والتبذير والفخر والخيلاء ونحو ذلك، وعواقبها الوخيمة في الدنيا والآخرة.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي (٦/ ٥٢٨).



ويبرز أسلوب الترهيب والتخويف كأحد الأساليب التربوية النافعة؛ لأن الإنسان مفطور على حُبِّ جَلْبِ الخير لنفسه، وكُرْه الشقاء والشر ودفعه عن نفسه، مما يدعوه للاستجابة للمؤثرات الترغيبية والترهيبة بشكل قوي. حيث إن الترغيب والترهيب يقومان على الخوف والرجاء، وهما خطان متقابلان في النفس البشرية[1].

۞ المطلب الثاني: التربية بالقصد والتوسط والاعتدال:

وهو منهج قرآني عظيم يحيط حياة المسلم كلها ويحفظها من غوائل الإفراط والغلو والتنطُّع، ومن التفريط والتساهل والفوضى، والوسطية من أعظم سمات أمة محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشَّرِيعَةُ جَارِيَةٌ فِي التَّكْلِيفِ بِمُقْتَضَاهَا عَلَى الطَّرِيقِ الْوَسَطِ الْأَعْدَلِ، الْآخِذِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ بِقِسْطٍ لَا مَيْلَ فِيهِ، الدَّاخِلِ تَحْتَ كَسْبِ الْعَبْدِ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ عَلَيْهِ وَلَا انْحِلَالٍ، بَلْ هُوَ تَكْلِيفٌ جارٍ عَلَى مُوَازَنَةٍ تَقْتَضِي فِي جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ غَايَةَ الِاعْتِدَالِ»[2].

وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب التربوي العظيم في التحذير من المباهاة والمفاخرة في أمور الدنيا، وحثَّ المؤمنين على التوسط والاعتدال، والقصد في المآكل والمشارب والمراكب والملابس وغير ذلك، دون إفراط أو تفريط.

(١) أنظر: أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي ص٣٩٢.

(٢) الموافقات، الشاطبي (٢/ ٢٧٩).



قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧].

«قال يزيد بن أبي حبيب: أولئك أصحاب محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كانوا لا يأكلون طعامًا للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوبًا للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسُدُّ عنهم الجوع، ويقوِّيهم على عبادة الله، ومن اللباس ما يستر عوراتهم، ويَقِيهم الحر والبرد»(١).

«وَالْقَوَامُ بِفَتْحِ الْقَافِ: الْعَدْلُ وَالْقَصْدُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَضَعُونَ النَّفَقَاتِ مَوَاضِعَهَا الصَّالِحَةَ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ فَيَدُومُ إِنْفَاقُهُمْ، وَقَدْ رَغَّبَ الْإِسْلَامُ فِي الْعَمَلِ الَّذِي يَدُومُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ، وَلِيَسِيرَ نِظَامُ الْجَمَاعَةِ عَلَى كِفَايَةٍ دُونَ تَعْرِيضِهِ لِلتَّعْطِيلِ، فَإِنَّ الْإِسْرَافَ مِنْ شَأْنِهِ اسْتِنْفَادُ الْمَالِ فَلَا يَدُومُ الْإِنْفَاقُ، وَأَمَّا الْإِقْتَارُ فَمِنْ شَأْنِهِ إِمْسَاكُ الْمَالِ فَيُحْرَمُ مَنْ يَسْتَأْهِلُهُ»(٢).

قال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: «وَإِنَّمَا التَّأْدِيبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ فِي نَفَقَةِ الطَّاعَاتِ فِي الْمُبَاحَاتِ، فَأَدَبُ الشَّرْعِ فِيهَا أَلَّا يُفَرِّطَ الْإِنْسَانُ حَتَّى يُضَيِّعَ حَقًّا آخَرَ أَوْ عِيَالًا وَنَحْوَ هَذَا، وَأَلَّا يُضَيِّقَ أَيْضًا وَيَقْتُرَ حَتَّى يُجِيعَ الْعِيَالَ وَيُفْرِطَ فِي الشُّحِّ، وَالْحَسَنُ فِي ذَلِكَ هُوَ الْقَوَامُ، أَيِ الْعَدْلُ، وَالْقَوَامُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ عِيَالِهِ وَحَالِهِ، وَخِفَّةِ ظَهْرِهِ وَصَبْرِهِ وَجَلَدِهِ عَلَى الْكَسْبِ، أَوْ ضِدِّ هَذِهِ الْخِصَالِ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا»(٣).

(١) فتح القدير، الشوكاني (٤/ ١٠١).
(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور(١٩/ ٧٢).
(٣) الجامع لإحكام القرآن، القرطبي(١٣/ ٧٣).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

«ففي الآية تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذِر، نهى عنهما آمرًا بالاقتصاد بينهما الذي هو الكرم، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصير ملومًا عند الله وعند الناس بالإسراف وسوء التدبر»(١).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ مَثَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَالَ الشَّحِيحِ بِحَالِ مَنْ كَانَتْ يَدُهُ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِهِ بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ التَّصَرُّفَ بِهَا، وَمَثَّلَ حَالَ مَنْ يُجَاوِزُ الْحَدَّ فِي التَّصَرُّفِ بِحَالِ مَنْ يَبْسُطُ يَدَهُ بَسْطًا لَا يَتَعَلَّقُ بِسَبَبِهِ فِيهَا شَيْءٌ مِمَّا تَقْبِضُ الْأَيْدِي عَلَيْهِ، وَفِي هَذَا التَّصْوِيرِ مُبَالَغَةٌ بَلِيغَةٌ»(٢).

قال الرازي: «لِكُلِّ خُلُقٍ طَرَفَيْ إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ وَهُمَا مَذْمُومَانِ، فَالْبُخْلُ إِفْرَاطٌ فِي الْإِمْسَاكِ، وَالتَّبْذِيرُ إِفْرَاطٌ فِي الْإِنْفَاقِ وَهُمَا مَذْمُومَانِ، وَالْخُلُقُ الْفَاضِلُ هُوَ الْعَدْلُ وَالْوَسَطُ»(٣).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَهَذَا النَّهْيُ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مُكَلَّفٍ، سَوَاءٌ كَانَ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْرِيضًا لِأُمَّتِهِ وَتَعْلِيمًا لَهُمْ، أَوِ الْخِطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصْلُحُ لَهُ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ، وَالْمُرَادُ النَّهْيُ لِلْإِنْسَانِ بِأَنْ يُمْسِكَ إِمْسَاكًا يَصِيرُ بِهِ مُضَيِّقًا عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أَهْلِهِ، وَلَا يُوَسِّعُ فِي الْإِنْفَاقِ تَوْسِيعًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (٣/ ٢٥٣).

(٢) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٢٦٤).

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي (٢٠/ ٣٢٩).





بِحَيْثُ يَكُونُ بِهِ مُسْرِفًا، فَهُوَ نَهْيٌ عَنْ جَانِبَيِ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ. وَيَتَحَصَّلُ مِنْ ذَلِكَ مَشْرُوعِيَّةُ التَّوَسُّطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي نَدَبَ اللهُ إِلَيْهِ»[1].

فهذه الآيات العظيمة وغيرها تربية ربانية على القصد والاعتدال، والتوسط في العطاء والمنع والإنفاق، والبعد عن المباهاة والبذخ والتفاخر والإسراف، فهي أخلاق ذميمة وسلوكيات منحرفة عن منهج الله الذي أمر به عباده.

وكذلك فإن من أوجه القصد والاعتدال والتوسط، المُبْعِد عن الفخر والخيلاء والتباهي، هو الاعتدال في اللباس والزينة والقصد في ذلك، حيث إن كثيرًا من صور المباهاة الاجتماعية تَبرُز في السلوكيات المتعلقة باللباس والزينة، وقد جاءت النصوص صريحة في وجوب الاعتدال والتوسط، ولزوم القصد في ذلك.

فقد ثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَةٌ**»[2].

«وَالْإِسْرَافُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي كُلِّ فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ، وَهُوَ فِي الْإِنْفَاقِ أَشْهَر، ....، والمَخِيلَةُ بمعنى الْخُيَلَاء وهو التَّكَبُّر، وَقَالَ الرَّاغِب: الْخُيَلَاء التَّكَبُّر يَنْشَأ عَنْ فَضِيلَة يَتَرَاءَاهَا الْإِنْسَان مِنْ نَفْسه، وَالتَّخَيُّل تَصْوِير خَيَال الشَّيْء فِي النَّفْس»[3].

(١) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٢٦٤).

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب اللباس باب ألبس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة، (٢/ ١١٩٢) برقم (٣٦٠٥)، وحسَّن إسناده الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٢/ ١٢٥٢).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر (١٠/ ٢٦٥).



قَالَ الْمُوَفَّق -عَبْد اللَّطِيف الْبَغْدَادِيّ-: هَذَا الْحَدِيث جَامِعٌ لِفَضَائِل تَدْبِير الْإِنْسَان نَفْسه، وَفِيهِ تَدْبِير مَصَالِح النَّفْس وَالْجَسَد فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، فَإِنَّ السَّرَف فِي كُلّ شَيْء يَضُرُّ بِالْجَسَدِ وَيَضُرُّ بِالْمَعِيشَةِ فَيُؤَدِّي إِلَى الْإِتْلَاف، وَيَضُرّ بِالنَّفْسِ إِذْ كَانَتْ تَابِعَة لِلْجَسَدِ فِي أَكْثَر الْأَحْوَال، وَالْمَخِيلَة تَضُرّ بِالنَّفْسِ حَيْثُ تُكْسِبهَا الْعُجْبَ، وَتَضُرُّ بِالْآخِرَةِ حَيْثُ تُكْسِب الْإِثْمَ، وَبِالدُّنْيَا حَيْثُ تُكْسِب الْمَقْتَ مِنْ النَّاس»[(١)].

فهذه النصوص وغيرها؛ تؤكد القيمة التربوية الكبيرة لهذا الأسلوب القرآني الفريد الذي يربي المجتمع على سلوك القصد والاعتدال، والتوسط في المباحات كلها، فلا سبيل إلى حرمان النفس من مُتَعِ الدنيا ولذاتها، ولا إسراف وخيلاء ومباهاة، وإنما مراعاة التوسط والاعتدال وحُسْن القصد من اللباس وغيره إظهارًا لنعمة الله وشكرًا لها، بعيدًا عن المباهاة والفخر والخيلاء، وقد أكد العلماء على أهمية التوسط والاعتدال في الملبس والزينة ونحوها.

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُرُوءَةَ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُعْتَدِلَ الْحَالِ فِي مُرَاعَاةِ لِبَاسِهِ مِنْ غَيْرِ إكْثَارٍ وَلَا اطِّرَاحٍ، فَإِنَّ اطِّرَاحَ مُرَاعَاتِهَا وَتَرْكَ تَفَقُّدِهَا مَهَانَةٌ وَذُلٌّ، وَكَثْرَةَ مُرَاعَاتِهَا وَصَرْفَ الْهِمَّةِ إلَى الْعِنَايَةِ لَهَا دَنَاءَةٌ وَنَقْصٌ»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وَكَذَلِكَ لُبْسُ الدَّنِيءِ مِنَ الثِّيَابِ يُذَمُّ فِي مَوْضِعٍ وَيُحْمَدُ فِي مَوْضِعٍ، فَيُذَمُّ إِذَا كَانَ شُهْرَةً وَخُيَلَاءَ، وَيُمْدَحُ إِذَا كَانَ تَوَاضُعًا

---

(١) المرجع السابق (١٠/ ٢٦٥).

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي(١/ ٣٥٤).



وَاسْتِكَانَةً، كَمَا أَنَّ لُبْسَ الرَّفِيعِ مِنَ الثِّيَابِ، يُذَمُّ إِذَا كَانَ تَكَبُّرًا وَفَخْرًا وَخُيَلَاءَ، وَيُمْدَحُ إِذَا كَانَ تَجَمُّلًا وَإِظْهَارًا لِنِعْمَةِ اللهِ»(١).

المطلب الثالث: ترسيخ قيمة التواضع عند استقبال النعم:

وهو أسلوب تربوي عظيم دعا إليه القرآن الكريم، فكلما زادت نعم الله تعالى للعبد قابلها بالتواضع والتذلل لله تعالى والتواضع لخلق الله.

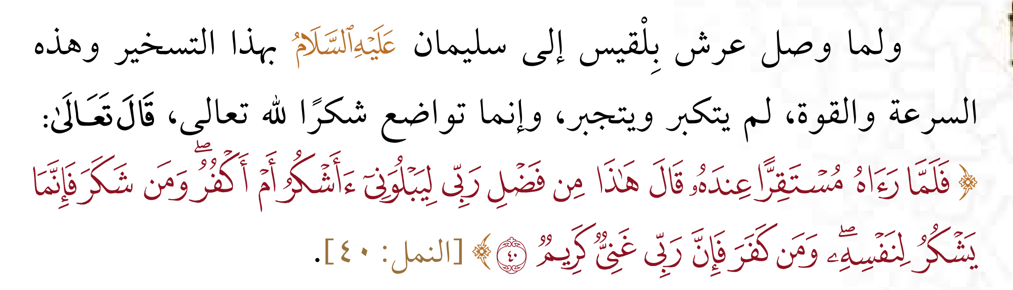
وقد تمثَّل هذا الخلق أنبياء الله تعالى -عليهم الصلاة والسلام-، فقد وهب الله تعالى أنبياءه داود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ النبوةَ والعلمَ والحكمةَ والملكَ وكثرةَ المال وغير ذلك من أصناف النعم، ومع ذلك اعترفا بنعمة الله شكرًا وتواضعًا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

﴿وَقَالَا﴾ شاكرَين لربهما مِنَّته الكبرى بتعليمهما، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بالعلم والنبوة وتسخير الطير والجن والإنس، ولم يفضِّلوا أنفسهم على الكل تواضعًا منهم(٢).

قال ابن سِعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وهذا عنوان سعادة العبد أن يكون شاكرًا لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكرًا كثيرًا»(٣).

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم(١/ ١٤٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي (٥/ ٥٦٦)، فتح القدير الشوكاني (٤/ ١٤٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي (٥/ ٥٦٧).



ولما وصل عرش بِلْقيس إلى سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بهذا التسخير وهذه السرعة والقوة، لم يتكبر ويتجبر، وإنما تواضع شكرًا لله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾ [النمل: ٤٠].

قال: تلقيًا للنعمة بالشكر، على شاكلة المخلصين من عباد الله تعالى ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ تفضل به عليَّ من غير استحقاق، والإشارة إلى التمكُّن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطَّرف[١].

والمعنى: أنه لا يرجع نفعُ ذلك إلا إلى الشاكر، ومن كفر بترك الشكر فإن ربي غنيٌّ عن شكره، كريمٌ في ترك المُعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه، وسَلْبه ما أعطاه منها[٢].

وأما المتباهي والمتعالي والمتكبر هو من يجحد نعمة الله تعالى، وينسبها إلى قوته وجبروته، كما ذكر تعالى عن قارون. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ٧٨﴾ [القصص: ٧٨].

وقد ضَرَبَ نبيُّنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أروع المثل في التواضع والانكسار بين يدي الله تعالى في مقابلة نعمه العظيمة، وكان ذلك يوم فتح مكة، وهو الفتح الأعظم حيث دخل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مكة وهو راكب على ناقته، وعلى رأسه المِغْفَر، ورأسُه يكاد يمسُّ مُقدِّمة الرَّحْل من تواضعه لربه عَزَّ وَجَلَّ[٣].

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (٤/ ١٦١).

(٢) فتح القدير، الشوكاني (٤/ ١٦١).

(٣) الفصول في سيرة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ابن كثير، ص٢٠١.

ولهذا «شُرِعَ لَهَا سُجُودُ الشُّكْرِ؛ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَيْهَا، وَخُضُوعًا لَهُ وَذُلًّا، فِي مُقَابَلَةِ فَرْحَةِ النِّعَمِ وَانْبِسَاطِ النَّفْسِ لَهَا، وَذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ أَدْوَائِهَا؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَلَا الْأَشِرِينَ؛ فَكَانَ دَوَاءُ هَذَا الدَّاءِ الْخُضُوعَ وَالذُّلَّ وَالِانْكِسَارَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكَانَ فِي سُجُودِ الشُّكْرِ مِنْ تَحْصِيلِ هَذَا الْمَقْصُودِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ»[(١)].

۞ المطلب الرابع: أسلوب الامتنان بنعم الله:

ذلك أن تَذكُّر نعم الله تعالى واستحضارها دومًا؛ يردع النفس عن التباهي والتفاخر على الآخرين، بل يحثُّها على التواضع والبعد عن هذا الخلق الذميم، ونعم الله تعالى على العبد لا تعد ولا تحصى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

«يمتَنُّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها وعدم الغفلة عنها. وَإِسْبَاغُ النِّعَمِ: إِكْثَارُهَا...وَالنِّعْمَةُ: الْمَنْفَعَةُ الَّتِي يَقْصِدُ بِهَا فَاعِلُهَا الْإِحْسَانَ إِلَى غَيْرِهِ»[(٢)].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

أي: «وإن يتعرضوا لِتَعْداد النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم إجمالًا، فضلًا عن التفصيل، لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه، ولا تقوموا بحصرها

(١) إعلام الموقعين على رب العالمين، ابن القيم (٢/ ٢٩٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي (٦/ ١٦١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢١/ ١٧٤).



على حال من الأحوال ... ومن المعلوم أنه لو رَامَ فرد من أفراد العباد أنه يحصي ما أنعم الله به عليه في خلق عضو من أعضائه، أو حاسَّة من حَواسِّه لم يقدر على ذلك قط، ولا أمكنه أصلًا، فكيف بما عدا ذلك من النعم، في جميع ما خلقه الله في بدنه، فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه في كل وقت على تنوعها واختلاف أجناسها»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة مُنتَظَرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده، عرَّفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدًا يُقيِّدُها به حتى لا تَشرُد، فإنها تَشرُد بالمعصية وتُقيَّد بالشكر، ووفقه لعمل يَسْتَجلِب به النعمةَ المنتظرة، وبَصَّره بالطرق التي تسدُّها وتقطع طريقها، ووفقه لاجتنابها، وَإذا بها قد وافَت إليه على أتمِّ الوُجُوه وعرَّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها»[2].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١].

«يذكر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع»[3].

«فإنه سبحانه قد مَنَّ على عباده بصُنوف النعم المذكورة هاهنا وبغيرها، وهو بفضله وإحسانه سيُتِمُّ لهم نعمة الدين والدنيا»[4].

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق القنوجي (٧/ ١١٩-١٢٠).
(٢) الفوائد، ابن القيم ص٢٤٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير(٤/ ٥٩١).
(٤) فتح القدير، الشوكاني(٣/ ٢٢١).



قال قتادة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هذه السورة تسمى سورة النِّعَم[1].

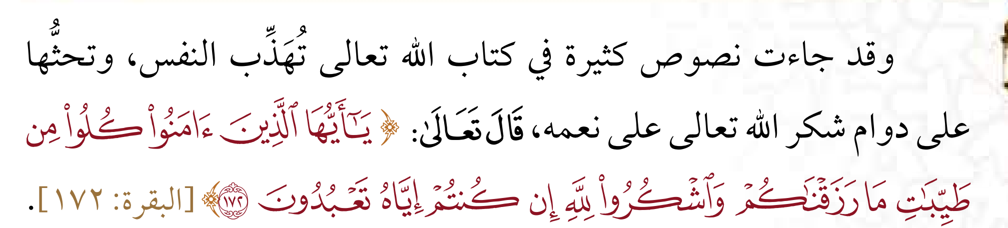
والعاقل هو من يتَّعِظ بهذه الآيات، ويتمسك بدلالاتها التربوية العظيمة؛ ذلك أن تذكر الإنسان لمن أمتن عليه بهذه النعم كلها يدفعه يقينًا لعدم المباهاة بها والتفاخر على الآخرين بوجودها، فهي هبة من الله تستوجب الشكر والعرفان، ومن ذلك تجنُّب مثل هذه الأخلاق الرديئة من التباهي والتفاخر بالمال أو الجاه أو الملبس أو المسكن أو غيرها، فهي بيد المنعم -سبحانه- إن شاء سلبها، وإن شاء أدامها.

وهذا أسلوب تربوي نافع، جاء به القرآن الكريم لتطهير النفوس ووقايتها من المباهاة والمفاخرة وسائر الأخلاق الذميمة، حيث إنه يخاطب النفس الإنسانية، ويذكِّرها بالمُنعم المُتَفَضِّل -سبحانه- لعلها تتَّعظ وتتذكر.

المطلب الخامس: تربية النفس على دوام الشكر:

من أساليب القرآن الكريم للوقاية من المباهاة والمفاخرة بين أفراد المجتمع؛ ترسيخ مبدأ الشكر والثناء على المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتربية النفس على ذلك، وهو ضمانة ربانية للبعد عن هذا الخلق الذميم، فالشاكر لنعم الله بعيد كل البعد عن التفاخر والتباهي والإسراف والتبذير، يستحضر على الدوام فضل الله تعالى ونعمته ولزوم شكره.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٥٩١).



وقد جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله تعالى تُهَذِّب النفس، وتحثُّها على دوام شكر الله تعالى على نعمه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

«وهذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم. فأمر بأكل الطيبات من الرزق والشكر لله على إنعامه، باستعمالها لطاعته، والتَقَوِّي بها إلى ما يوصل إليه»[(١)].

«فدلت الآية على أن من لم يشكر الله لم يعبده وحده، كما أن من شكره فقد عبده، وأتى بما أُمر به، ويدل أيضًا على أنَّ أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عُقَيب النعم، لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلِب النعم المفقودة، كما أن الكفر يُنفِّر النعم المفقودة، ويُزيل النعم الموجودة»[(٢)].

وقد كان دأب الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ دوام الشكر لله تعالى، فهذا سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يدعوا ربه أن يلهمه الشكر على نعمه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩].

أي: «ألهمني أن أشكر نعمتك التي مَنَنْتَ بها عليَّ؛ من تعليمي مَنْطِقَ الطير والحيوان، وعلى والديَّ بالإسلام لك، والإيمان بك»[(٣)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي (١/ ٢٠٤).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٠٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦/ ١٨٤).



والمعنى: «اجعلني ملازمًا شكر نعمتك. وإنما سأل الله الدوام على شكر النعمة لما في الشكر من الثواب ومن ازدياد النعم»(١).

وحقيقة الشكر: «ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»(٢).

كما بيَّن الله تعالى أن دوام الشكر سبب لزيادة النعم وحفظها والتنعم بها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]

أي:«لئن شكرتم إنعامي لأزيدنَّكم من فضلي، أو لئن شكرتم نعمتي لأزيدنَّكم من طاعتي، والمعنى متقارب في هذه الأقوال، والآية تنص على أن الشكر سبب المزيد»(٣).

المطلب السادس: ذم السلوكيات المنحرفة:

تمثل المباهاة الاجتماعية إحدى صور السلوك المُتْرَف المُبَذِّر، أو السلوك المتكبر المُتَبَخْتِر، المجاوز للحد البعيد عن الضوابط الشرعية والقيم الاجتماعية.

ولعل من أهم الأساليب التربوية في القرآن الكريم للوقاية من هذه الآفة؛ تصوير هذه السلوكيات الذميمة، وتَجْلِيَة أثرها على الفرد والمجتمع، وكيف تكون سببًا في الضر والهلاك، ليرتدع أفراد المجتمع عن سلوكها إدراكًا لعاقبتها، وهو أسلوب تربوي غير مباشر عظيم النفع والفائدة.

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١٩ / ٢٤٤).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم (٢ / ٢٣٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٣٤٣).



ومن السلوكيات الذميمة التي حذر القرآن منها وذمَّ أهلها هو الترف، وهو أعظم الأسباب المؤدية إلى التباهي والتفاخر والاعتزاز بالنفس والمال ونحو ذلك.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: ١٦].

والمُترَفون هم المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش[١].

فالترف هو الإغراق في التنعم، والتوسع في أسباب الرفاهية، والمترف: المتنعم الذي أبطرته النعمة وسعة العيش، وللترف جانبان أحدهما مادي، وهو التنعم، وآخر معنوي، وهو البطر[٢].

«وتعليق الأمر بخصوص المترفين مع أن الرسل يخاطبون جميع الناس، لأن عصيانهم للأمر الموجَّه إليهم هو سبب فسقهم وفسق بقية قومهم؛ إذ هم قادة العامة وزعماء الكفر، فالخطاب في الأكثر يتوجه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر أتبعهم الدهماء فعمَّ الفسق أو غلب على القرية فاستحقت الهلاك»[٣].

ومن سمات المترفين أنهم يزدرون نعم الله تعالى، ويبالغون في التباهي بها وصرفها في غير موضعها طلبًا للفخر والمباهاة والخيلاء، أو يمسكونها عن مستحقيها ويبخلون بها عليهم.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (١٣/ ١٦).

(٢) موقف القرآن الكريم من الترف والمترفين، محمد فتحي حسان، مقالة الكترونية تم استرجاعها من العنوان « «alukah.net بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٤٣٨هـ.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١٥/ ٥٥).

ومن السلوكيات الذميمة المتعلقة بالمباهاة الاجتماعية والتي حذر القرآن الكريم منها أشد التحذير خلق البَطَر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨﴾ [القصص: ٥٨].

أي: «من أهل قرية كانوا في خَفْضِ عيش، ودَعَةٍ ورخاء، فوقع منهم البطر فأُهلِكوا، و البَطَر: الطغيان عند النعمة»[(١)].

«وفي الآية تخويف لقريش من سوء عاقبة أقوام كانوا في مثل حالهم من الأمن والرزق، فغمطوا النعمة وقابلوها بالبطر»[(٢)].

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «البَطَر: دَهَشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحقها، وصرفها إلى غير وجهها»[(٣)].

ومن السلوكيات المتعلقة بالمباهاة الاجتماعية والتي جاء ذمها في كتاب الله تعالى التبذير. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦].

أي: لا تسرف في الإنفاق في غير حق. قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو إنفاق المال في غير حقه[(٤)].

قال الجرجاني: «التبذير هو تفريق المال على وجه الإسراف»[(٥)].

(١) فتح القدير، الشوكاني (٤ / ٢٠٨).

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور(٢٠/ ١٥٠).

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (١/ ١٢٩).

(٤) الجامع لإحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٢٤٧).

(٥) التعريفات، الجرجاني (١/ ٥١).



وهذا الجزاء له أثر بالغ في توجيه النفوس إلى ضرورة العمل بأحكام الدين، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، والالتزام بالضوابط الشرعية الخاصة بالاستهلاك(١).

ففي ذم القرآن الكريم لهذه السلوكيات وغيرها، حماية لمكونات المجتمع من الوقوع فيها، وموعظة تنبه الغافلين الذين ألهتهم الدنيا وزخرفها فأخذوا في التباهي والتفاخر والبطر، وتحذرهم من عاقبة ذلك ومغبته، وهو أسلوب تربوي نافع للوقاية من مثل هذه الظواهر التي تُنْذِر بهلاك المجتمع.

ومن السلوكيات الذميمة التي حذر منها القرآن الكريم: المرح والتبختر، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ٣٧﴾ [الإسراء: ٣٧].

أي: كبرًا وتِيهًا وبطرًا، متكبراً على الحق، ومُتعاظِمًا في تكبرك على الخلق(٢).

والمراد بالمرح في هذه الآية التكبر في المشي وتجاوز الإنسان قَدرَه، والخيلاء والفخر(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(٤).

---

(١) التربية البيئية في الوطن العربي، إبراهيم عصمت مطاوع، ص ١٢٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي (٤/ ٢٧٨).
(٣) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٢٧١).
(٤) صحيح مسلم، كتاب (اللباس والزينة)، باب (تحريم التبختر في المشي) (١٤/ ٢٩٠) برقم (٥٤٣٤)





فهذه النصوص واضحة في تربية النفس على البعد والحذر من هذه السلوكيات الذميمة، والتي لا تخلوا منها المباهاة الاجتماعية أو من بعضها.

المطلب السابع : أسلوب النمذجة الإيجابية والسلبية :

وهذا الأسلوب التربوي من أعظم الأساليب التي اتخذها القرآن الكريم لتربية نفوس المؤمنين، وتنشئتهم على السلوك القويم وتحذيرها من ضده.

فضرب مثلًا للشاكرين الحامدين لنعم الله المتواضعين له ولخلقه، كما ضرب المثل للمتباهين المتفاخرين الأَشِرِين.

والمقصود بالنمذجة هنا: الأمثال التي يضربها الله تعالى للناس في كتابه الكريم للتفكر والتعقل وفهم الأوامر والنواهي، والمثل في القرآن الكريم يطلق ويراد به ذكر نموذج أو أكثر لنوع من الأنواع أو عمل من الأعمال، أو سنة من سنن الله نظرًا للتشابه الموجود بين أفراد النوع الواحد[(١)].

وللمثل والنموذج غايات تربوية وآثار عميقة تصل إلى المتلقي وتُرسَّخ في نفسه ومن تلك الغايات: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير، وترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر[(٢)].

---

(١) النعم في ضوء سورة النحل، إدريس حامد محمد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية قسم الثقافة الإسلامية، جامعة الملك سعود، ١٤١٦ه ص٣٦٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (١/ ٤٨٧).



من النماذج التي جاء بها القرآن الكريم ذكر الشاكرين الحامدين لنعم الله تعالى، وكذلك ذكر من كفر بنعم الله وبطر، وركن إلى الملذات والشهوات، واغتر بما عنده للتفاخر والتباهي، لتكون عبرة وعظة للمؤمنين.

وقد ضرب الله تعالى المثل بأنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- وهم أشرف الخلق، وجعل منهم القدوة والأسوة في التعامل مع نعم الله وآلاءه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢١].

«فيخبر الله تعالى عما فضَّل به خليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وخصَّه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة»(١).

«ومنها كونه شاكرًا لله تعالى؛ أي قائمًا بشكر نعم الله عليه، ولو كانت قليلة، كما يدل عليه جمع القلة، فهو شاكر لما كَثُر منها بالأولَى»(٢).

وكذلك للتصريح بأنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى، حسبما أشير إليه بضرب المثل(٣).

فهذا النموذج الرائع لمقابلة نعم الله تعالى وإحسانه بالشكر والعرفان بعيدًا عن البطر والأشر والتباهي والتفاخر، عبرة لكل مسلم، وقدوة لكل فرد من أفراد المجتمع في التعامل مع نعم الله كبيرها وصغيرها.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي(٤/ ٢٥٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير(٤/ ٦١١)، فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٢٤١).

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (٧/ ٤٨٤).

«والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب، فلا يكون العبد شاكرًا إلا بهذه الأشياء الثلاثة»[١].

النموذج الثاني للحامدين الشاكرين لنعم الله وآلائه هو: نبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣].

فقد وصفه الله تعالى بكثرة الشكر، وجعله كالعلة لما قبله، إيذانًا بكون الشكر من أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات حثًّا لذريته على شكر الله تعالى[٢].

فنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان عبدًا شكورًا، يحمد الله تعالى على مجامع حالاته، وفيه إيماءٌ بأنَّ إنجاءَه ومن معه كان ببركة شكره، وحثٌّ لذريته على الاقتداء به[٣].

وكذلك هو حال نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كان من الشاكرين، كما ثبت في الصحيح من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقوم من الليل حتى تَتَفَطَّرَ قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا[٤].

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم (١/ ١٧٤)

(٢) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٢٨٤).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (٣/ ٢٨٤).

(٤) البخاري، كتاب التفسير(تفسير سورة الفتح)باب: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر (٨/ ٤٤٨) برقم (٤٨٣٧).



فهذه نماذج رائعة للتحفيز والحثِّ على الاقتداء بهم، والتمسك بهديهم في التعامل مع نعم الله تعالى.

كما ذكر الله تعالى في كتابه نماذج بطرت نعمة الله، وكفرت بها، وتجاوزت الحد في ذلك، فكان لهم أشد العقاب، وهي نماذج للحذر من تلك السلوكيات التي أدت بهم إلى ذلك والبعد عن أسبابها.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

أي جعل الله القرية التي هذه حالها مثلًا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولَّوا، فأنزل الله بهم نقمته[١].

والمعنى: جعلها الله تعالى مثلًا لأهل مكة، أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا، فجُوزوا بما جُوزوا[٢].

«وفي الآية أن كون النعمة واصلة إليهم يوجب أن يكون كفرانها سببًا للتبديل»[٣].

وكذلك من النماذج التي أبرزها القرآن الكريم للمتباهين الجاحدين لنعم الله: أهل سبأ.

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (٢/ ٦٣٨).
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي(٧/ ٤٧٦).
(٣) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي(٣/ ٤٧٧).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧].

فلما بيَّن الله تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ بيَّن حال الكافرين بأنْعُمه، بحكاية أهل سبأ[(١)].

ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التي أنعم بها عليهم، حيث أعرضوا عن الشكر، وكفروا بالله، وكذبوا أنبياءه، فلما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل الله عليهم نقمة سَلَبَ بها ما أنعم به عليهم[(٢)].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن نعم الله ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصوصًا، أنه قصَّ في القرآن أخبار المُهْلَكين والمُعَاقَبين، ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدْعَى إلى التصديق وأقرب للموعظة»[(٣)].

«فهذه القصة تمثيلُ أُمةٍ بأُمةٍ، وبلاد بأخرى، وذلك من قياسٍ وعبرة، وهي فائدة تدوين التاريخ وتقلبات الأمم، فسَوق هذه القصة تعريضٌ بأشباه سبأ»[(٤)].

(١) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي(٢٥/ ٢٠٠).
(٢) فتح القدير، الشوكاني(٤/ ٣٦٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي(٦/ ٢٦٨).
(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢٢/ ١٦٥).



«فهذا إذا سمع بقصتهم، وما جرى منهم وعليهم، عرف بذلك أن تلك العقوبة جزاءً لكفرهم نعمة الله، وأن من فعل مثلهم فُعِل به كما فعل بهم، وأن شكر الله تعالى حافظ للنعمة، دافع للنقمة»[(١)].

المطلب الثامن : أسلوب الخطاب الوجداني :

ذلك أن النفس البشرية كلما توالت عليها النعم وتعددت، قد تُصاب بالنشوة والفرح، وربما البطر والإعجاب بالنفس، والتعالي على الآخرين، والشعور بالأفضلية عليهم؛ وهو شعور وجداني داخلي يقود الإنسان إلى التباهي والتفاخر، متناسيًا المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُعْتَدًا بنفسه.

ولذا جاء القرآن الكريم بتوجيه تربوي عظيم، يخاطب القلب والعقل تذكيرًا بالمنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتحصينًا للنفس من الآفات المهلكة.

فبعد غزوة الأحزاب كان التوجيه الرباني العظيم للصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩].

«يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين؛ في صرفه أعدائهم وهزمه إياهم عام تَأَلَّبُوا عليهم، وتحزَّبوا وذلك عام الخندق»[(٢)].

«فأُمِروا أن يتذكروا هذه النعمة ولا ينسوها، لأن في ذكرها تجديدًا للاعتزاز بدينهم، والثقة بربهم، والتصديق لنبيهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٣)].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي(٦/ ٢٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦/ ٣٨٣).

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (٢١/ ٢٧٧).

وكذلك في غزوة بدر يُذَكِّر صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن المنعم هو الله. قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: ٦٢].

يُنَبِّه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين -حال مقامهم بمكة- قليلين مستخفين مضطرين، يخافون أن يتخطَّفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يَزَلْ ذلك دأبُهم حتى أذِنَ الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقيَّض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره، وآسَوا بأموالهم، وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله»[(١)].

وبعد؛ فهذه أبرز الأساليب التربوية الواردة في كتاب الله تعالى للوقاية من المباهاة الاجتماعية، وحماية الأفراد والمجتمعات من آثارها وأخطارها، والعبرة بعد هذا بالتمسك بكتاب الله تعالى، وامتثال ما جاء به من أساليب عظيمة في واقعنا الاجتماعي، وضبط سلوك الأفراد وأقوالهم وأفعالهم بالضوابط الشرعية، والقيم الاجتماعية، التي من شأنها الارتقاء بسلوكهم الاجتماعي وإكسابهم القيم الحميدة، والنأْي بهم عن التفاخر والمباهاة والزهو والبطر، وغيرها من الأخلاق الذميمة .

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٤٠).







الخاتمة

وفي ختام هذا البحث، وهذه الجولة الماتعة في كتاب الله تعالى، يَخلُص الباحث إلى أهم النتائج والتوصيات، وهي كالتالي:

أهم النتائج:

١) أبرز البحث أن المباهاة في النصوص اللغوية والاصطلاحية والشرعية تأتي على ثلاثة أنواع.

٢) تتنوع وتتعدد صور المباهاة الاجتماعية، ويجمع بينها معاني الظهور والبروز والفخر والتعالي على الآخرين.

٣) للقرآن الكريم منهج واضح في التحذير والتنفير من صور المباهاة الاجتماعية، وبيان المفاسد المترتبة عليها.

٤) أشار القرآن الكريم إلى جملة من الأساليب التربوية العظيمة من شأن التمسك بها وتطبيقها، المحافظة على السلوك الاجتماعي، والبعد عن المباهاة الاجتماعية والتفاخر المذموم.

٥) تنوعت أساليب القرآن الكريم في الوقاية من المباهاة الاجتماعية ما بين أساليب تخاطب العقل، وأخرى تخاطب الوجدان، وثالثة تقدم النموذج للتأسي والاقتداء، أو الحذر والابتعاد، وغير ذلك من الأساليب العظيمة.



أهم التوصيات :

١) إجراء دراسة لبناء إستراتيجية عملية للتصدِّي لمظاهر المباهاة الاجتماعية من خلال وسائل التواصل الاجتماعي.

٢) تقديم مشروع علمي تربوي يستند إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يهدف إلى رعاية السلوك الاجتماعي والرقي به، وضبطه بالضوابط الشرعية، كما يهدف إلى التصدي للسلوكيات الاجتماعية المنحرفة كالمباهاة والتفاخر ونحوها، وفق آلية عمل واضحة ومتدرجة، ويتم تنفيذ هذا المشروع وتطبيقه عبر وسائل التواصل الاجتماعي، والقنوات الفضائية وغيرها من المنابر الإعلامية.

....





المصادر والمراجع

١. إحياء علوم الدين – الغزالي، محمد بن محمد، (د.ط) بيروت، دار المعرفة، (د: ت).

٢. الأخلاق والسير (رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل)، ابن حزم الأندلسي، تحقيق إيفا رياض وعبد الحق التركماني، الطبعة الأولى، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢١هـ.

٣. أدب الدنيا والدين، الماوردي، علي بن محمد، (د.ط)، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

٤. أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، العاني، زياد محمد، (د.ط)، عمَّان، دار عمار، ١٤٢٠هـ.

٥. أصول التربية الإسلامية، الحازمي، خالد بن حامد، الطبعة الثانية، المدينة المنورة، دار الزمان، ١٤٢٦هـ.

٦. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ.

٧. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، عبدالله بن عمر، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

٨. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين، تحقيق: محمد أبو الفضل، الطبعة الأولى، بيروت، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م.



٩. التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، (د:ط)، تونس، الدار التونسية، للنشر، ١٩٨٤م.

١٠. التربية البيئية في الوطن العربي، مطاوع، إبراهيم عصمت، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤١٥هـ.

١١. تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس، الزعبلاوي، محمد السيد، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة التوبة، ١٤١٤هـ.

١٢. التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.

١٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الطبعة الثالثة، الرياض، دار طيبة، ١٤٢٦هـ.

١٤. تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، الحميدي، محمد بن فتوح، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة السنة، ١٤١٥هـ.

١٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي، عبد الرحمن بن ناصر، الطبعة الثانية، عنيزة، مركز صالح بن صالح الثقافي، ١٤١٢هـ.

١٦. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، محمد بن جرير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.

١٧. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفشي، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ.





١٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، محمود بن عبدالله، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

١٩. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، عبد الرحمن أبو الفرج، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

٢٠. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، الطبعة الخامسة والعشرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ.

٢١. الزهد، ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ.

٢٢. سنن النسائي، النسائي، أحمد بن شعيب، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثانية، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦هـ.

٢٣. سنن ابن ماجه، القزويني، محمد بن يزيد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د:ط)، بيروت، دار إحياء الكتب العربية، (د:ت).

٢٤. سنن أبي داود، السجستاني، سليمان بن الأشعث، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

٢٥. الشامل(قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية)، مصلح الصالح، الطبعة الأولى، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٢٠هـ.

٢٦. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، الزرقاني، محمد بن عبد الباقي، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، الأولى، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٤هـ.



٢٧. صحيح البخاري مع الفتح، البخاري، محمد بن إسماعيل، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٩هـ.

٢٨. صحيح مسلم، القشيري، مسلم بن الحجاج، تحقيق: خليل مأمون شيحا، الطبعة الخامسة عشرة، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٩هـ.

٢٩. صيد الخاطر، ابن الجوزي، عبد الرحمن أبو الفرج، تحقيق: محمد عبدالرحمن عوض، الطبعة الخامسة، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ.

٣٠. العقيدة الواسطية، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، تحقيق: أشرف عبد المقصود، الطبعة الثانية، الرياض، أضواء السلف، ١٤٢٠هـ.

٣١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٩هـ.

٣٢. فتح البيان في مقاصد القرآن، القِنّوجي، محمد صديق خان، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاري، بيروت، المكتبة العصرية للنشر، ١٤١٢هـ.

٣٣. فتح القدير، الشوكاني، محمد بن علي، الطبعة الأولى، دمشق، دار ابن كثير، ١٤١٤هـ.

٣٤. فصول في اجتماعيات التربية، زيادة، مصطفى عبد القادر وآخرون، الطبعة السادسة، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٧هـ.

٣٥. الفصول في سيرة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تحقيق: محمد العيد الخطراوي ومحي الدين مستو، الطبعة الثالثة، المدينة المنورة، مكتبة دار التراث، ١٤١٣هـ.





٣٦. الفوائد، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، تحقيق: محمد عثمان الخشت، الطبعة الرابعة، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ.

٣٧. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، الطبعة الأولى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩١م.

٣٨. القرآن الكريم رؤية تربوية، علي، سعيد إسماعيل، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤٢١هـ.

٣٩. القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين، محمد بن صالح، تحقيق: سليمان أبا الخيل وخالد المشيقح، (د.ط)، الرياض، دار العاصمة، ١٤٢٦هـ.

٤٠. القيم الإسلامية والتربية، أبو العينين، مصطفى خليل، (د:ط)، المدينة المنورة، مكتبة الحلبي، ١٤٠٨هـ.

٤١. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، الطبعة الثالثة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م.

٤٢. مبادئ علم الاجتماع، أحمد رأفت عبد الجواد، (د:ط)، القاهرة، دار نهضة الشرق، ١٤٠٢هـ.

٤٣. مجموع الشضفتاوى، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (د: ط)، المدينة المنورة، مجمع طباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ.

٤٤. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٦هـ.



٤٥. المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، العساف، صالح حمد، الطبعة الثانية، الرياض، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٠م.

٤٦. المرشد في كتابة البحوث، فوده، محمد حلمي، وعبدالله، عبدالرحمن صالح. الطبعة السادسة، جدة، دار الشروق، ١٤١٠هـ.

٤٧. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا الهروي، أبو الحسن نور الدين، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢هـ.

٤٨. المصباح المنير، الفيومي، أحمد بن محمد، (د:ط)، بيروت، مكتبة لبنان، (د:ت).

٤٩. معجم اللغة العربية المعاصرة، عمر، أحمد مختار، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ.

٥٠. المعجم الوسيط، الزيات، أحمد حسن وآخرون، الطبعة الثانية، تركيا، المكتبة الإسلامية، ١٩٧٢م.

٥١. مفاتيح الغيب، الرازي، محمد بن عمر، الطبعة الثالثة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٥٢. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإدارة، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، (د:ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، (د:ت).

٥٣. المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، الراغب، تحقيق: صفوان عدنان الراوي، الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، ١٤١٢هـ.

٥٤. الموافقات، الشاطبي، إبراهيم بن موسى، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، الطبعة الأولى، دار ابن عفان، ١٤١٧هـ.





٥٥. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق: علي بن حسن الأثري، الطبعة الأولى، الدمام، دار ابن الجوزي، ١٤٢١هـ.

الرسائل العلمية:

٥٦. الإسراف في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية في التفسير، الحسني، وفاء يحيى، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الدراسات الإسلامية، تخصص التفسير وعلوم القرآن، كلية التربية للبنات (الأقسام الأدبية)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢٩هـ.

٥٧. التربية الاقتصادية في القرآن الكريم وتطبيقاتها في الأسرة والمدرسة، العلياني، سعد هاشم، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٧هـ.

٥٨. ضوابط إنفاق الأسرة في الإسلام وتطبيقاتها التربوية، الحسني، حسن أحمد، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى ١٤٣٠هـ.

٥٩. القيم الإسلامية وعلاقتها بأنماط السلوك الاستهلاكي للأسرة السعودية، هنادي محمد قمرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، مكة المكرمة، قسم الاقتصاد المنزلي ١٤٢٤هـ.

٦٠. من أساليب التربية في القرآن الكريم، زينب بشارة يوسف، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المدينة العالمية، كلية العلوم الإسلامية.

٦١. النعم في ضوء سورة النحل، إدريس حامد محمد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية قسم الثقافة الإسلامية، جامعة الملك سعود، ١٤١٦هـ.



المقالات الالكترونية:

١. تزكية النفس في ضوء الكتاب والسنة وأقوال السلف، البنكاني، ماجد (مقالة إلكترونية)، استرجعت من العنوان (alukah.net) بتاريخ ٢٠ / ٩/ ١٤٣٨هـ.

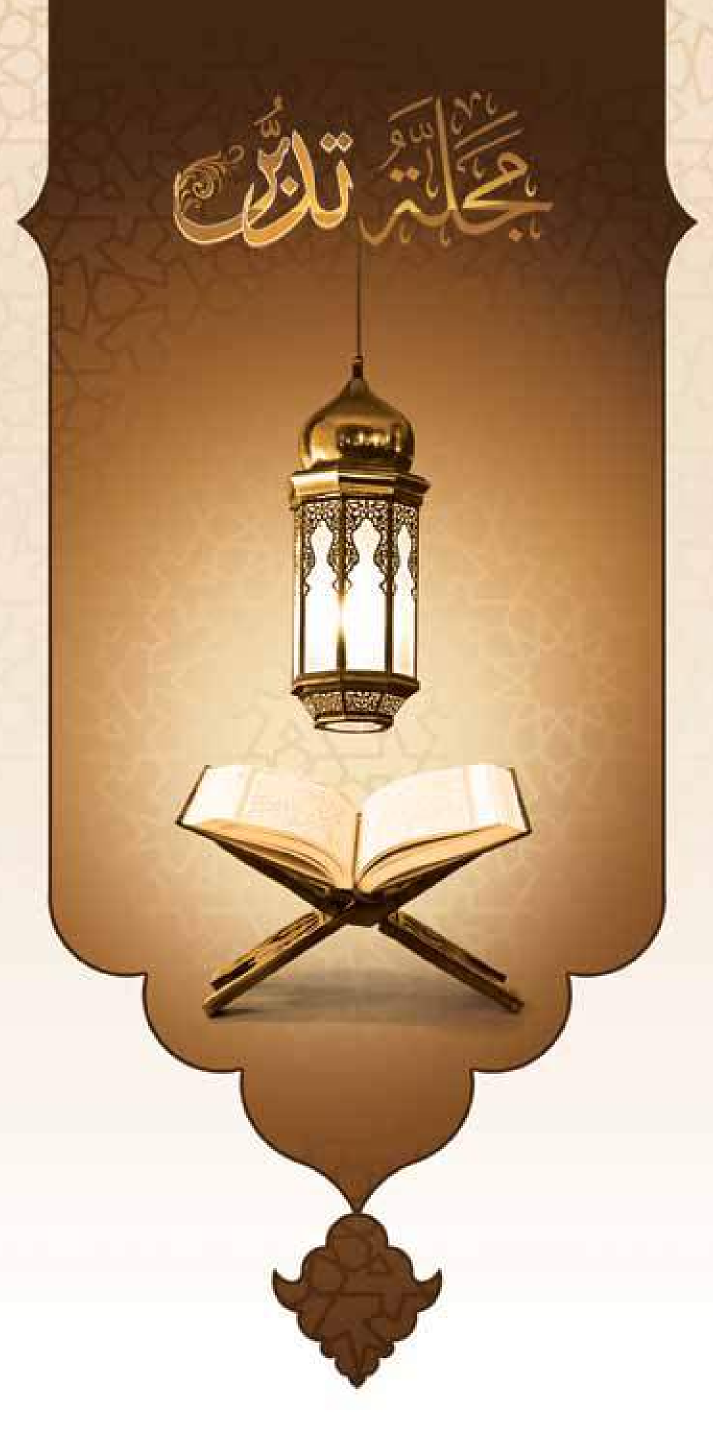
٢. موقف القرآن الكريم من الترف والمترفين، حسان، محمد فتحي، مقالة الكترونية تم استرجاعها من العنوان (alukah.net) بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٤٣٨هـ.





المحتوى





ثانيًا: مُستخلصات المشَارِيع والرّسَائِل العِلْمِيّة


مجلة تدبر



تَقْرِيرُ

مَشْرُوعُ ٱلقُرآنِ تَدَبُّرٌ وَعَمَلٌ

إِعْدَادُ: مَرْكَزُ ٱلمِنْهَاجِ لِلإِشْرَافِ وَٱلتَّدْرِيبِ ٱلتَّرْبَوِيّ


مجلة تدبر





مُقَدِّمَة

حظيت المكتبة القرآنية خلال الأعوام الثلاثة الماضية بمشروع قرآني فريد في الهدف والمضمون، وقد ظهر هذا المشروع على هيئة كتاب مطبوع، وموقع الكتروني، وتطبيق للأجهزة الذكية، ألا وهو مشروع: **(القرآن تدبر وعمل)**.

وقد بنيت فكرة هذا المشروع ليعالج قضية مهمة ويجيب على تساؤل مهم؛ وهو: كيف يكون القرآن منهج حياة؟

وبالنظر إلى النصوص الواردة في الأمر بالاستماع للقرآن الكريم، وتلاوته، وحفظه، وتدبره، والعمل به -وهي مراتب أخذ القرآن وتلقيه-، كانت الساحة القرآنية بحاجة إلى منهج عملي تدريبي في التدبر والعمل يرفد المناهج والمشاريع القائمة في إقراء القرآن وتحفيظه.

فكان مشروع: **(القرآن تدبر وعمل)** منهجًا متكاملًا محكَّمًا ومتخصصًا في التدريب على تدبر القرآن الكريم والعمل به، وفق منهج أهل السنة والجماعة.

مكونات المشروع:

صدر المشروعُ في كتابٍ يضمَ سِتَّمائةٍ وأربعَ وَحَداتٍ دراسيةٍ، كلُّ وِحْدةٍ وجهٌ منَ المصحفِ مضافٌ إليه أربعُ فِقْرَاتٍ رئيسةٍ هي:

أولًا: سبع وقفات تدبرية منتقاة من ستة عشر كتابًا من أمهات كتب التفسير، التزم فيه فريق العمل بنص كلام المفسر، وأتبعت كل وقفة بسؤال يعد نشاطًا مهاريًا، أو معرفيًا يُنَمِّي الملكة التدبرية.



- **ثانيًا**: العمل بالآيات، حيث تم اقتراح ثلاثة أعمال تطبيقية مستنبطة من آيات الوجه.
- **ثالثًا**: التوجيهات، ذكرت ثلاثة توجيهات مُستقاة من آيات الوجه.
- **رابعًا**: ذكر معاني الكلمات الغريبة.

فريق العمل والمراجع العلمية:

وقد انتُخِب لهذا المشروع فريقُ عملٍ متخصِّص في الدراسات القرآنية، كان له الفضل -بعد الله- في جمع الوقفات، وصياغة الأسئلة والأعمال والتوجيهات وتحريرها، ثم صياغتها وتحكيمها.

وقد حرص الفريق إلى الرجوع إلى أشهر كتب التفاسير المتقدمة والمعاصرة المعتبرة عند أهل الفن، وهي:

١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري.

٢- المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي.

٣- معالم التنزيل للبغوي.

٤- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

٥- الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير.

٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

٧- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي.

٨- بدائع التفسير لابن القيم.



٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي.

١٠- فتح القدير للشوكاني.

١١- تيسير الكريم الرحمن للسّعدي.

١٢- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي.

١٣- التحرير والتنوير لابن عاشور.

١٤- محاسن التأويل للقاسمي.

١٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي.

١٦- أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري.

وقد قام بتحكيم المشروع وتزكيته ثُلَّة من أهل العلم المتخصصين في الدراسات القرآنية وهم:

- أ.د. مصطفى مسلم: أستاذ الدراسات القرآنية في جامعة الإمام محمد بن سعود وجامعة الشارقة.

- د. محمد بن عبد العزيز الخضيري: عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود في قسم القرآن الكريم وعلومه.

- د. محمد بن عبد الله الربيعة: عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم في قسم القرآن الكريم وعلومه.

- د. خالد بن عثمان السبت: عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام عبدالرحمن بن فيصل في قسم القرآن الكريم وعلومه.



وقد حقق المشروع نجاحًا واسعًا، وانتشارًا كبيراً في كثير من الأوساط العلمية والمجامع التعليمية والمقارئ القرآنية شملت :

- ١٥٠ دولة حول العالم.
- مليوني استفادة عبر الموقع الالكتروني، والتطبيقات الذكية.
- ثلاثمائة ألف كتاب مطبوع خلال عامين.
- عشرات الشراكات مع جامعات وكليات ومعاهد.
- أربعمائة جهة تعليمية وتربوية عالمية اعتمدته منهجًا دراسيًا.

والحمد لله أولًا وآخرًا.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وآله وصحبه أجمعين.





المشرفة: د. حبه بنت أحمد محمد أكرم.

سنة الإجازة : ١٤٣٨هـ.

الوصف المادي: عدد صفحات الرسالة ١٥٧ صفحة.


مجلة تدبر





مُقَـدِّمَـة

في ضوء ما تشهده الدراسات الأكاديمية في الجامعات من اهتمام بالبحوث الميدانية والتطبيقية، تأتي هذه الدراسة في توظيف المنهج التجريبي في خدمة القرآن الكريم وتدبره، وتطبيقه بشكل عملي على واقع الطالبات في المدارس، وهي دراسة تقدَّمت به الباحثة لنيل درجة **(الماجستير)** في (قسم المناهج وطرق التدريس _علوم شرعية).

لمحة عامة عن الرسالة:

هي عبارة عن بحث يهدف إلى قياس أثر الوحدة المقترحة في تنمية أسس تدبر القرآن الكريم لدى طالبات الصف الأول المتوسط بمدارس تحفيظ القرآن الكريم بجدة.

وقد استُخدِم في هذا البحث منهج الدراسات التجريبية، حيث قامت الباحثة ببناء وحدة لتنمية أسس تدبر القرآن الكريم قائمة على استراتيجية المنظمات المتقدمة، وإعداد الدليل المصاحب لتدريس الوحدة المقترحة، ثم تمَّ تطبيق أداة البحث قبل وبعد التجربة على العينة التجريبية، وقد بلغ عدد أفراد العينة (٢٩) طالبة.

وتمثَّلت أداة البحث في اختبار تحصيل لمفاهيم تدبر القرآن الكريم وأسسه، وقد أشارت نتائج البحث إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط درجات طالبات العينة التجريبية في القياس القَبْلي والقياس البَعْدي في اختبار التحصيل لصالح القياس البَعْدي.



فصول البحث:

تكوَّن البحث من: ستة فصول وملاحق، على النحو التالي:

الفصل الأول: مدخل البحث وفيه المقدمة، مشكلة وفرض البحث، أهداف وأهمية وحدود ومصطلحات البحث.

الفصل الثاني: يحتوي هذا الفصل على الأدب النظري المتعلق باستراتيجية المنظمات المتقدمة، وأسس تدبر القرآن الكريم، بالإضافة لمنهج القرآن الكريم للصف الأول المتوسط بمدارس تحفيظ القرآن الكريم.

الفصل الثالث: يحتوي الدراسات السابقة وفق المحاور التالية: دراسات متعلقة بتدبر القرآن الكريم، دراسات تتعلق باستراتيجية المنظمات المتقدمة. حيث يتم عرض الدراسات في كل محور من خلال: هدف الدراسة ومنهجها، وأهم نتائجها التي توصَّلت إليها، ومن ثَمَّ التعقيب عليها.

الفصل الرابع: في هذا الفصل تم شرح الإجراءات التي تم اتباعها لتحقيق الأهداف شرحًا مفصلًا، وتوضيح منهجية البحث، وتحديد مجتمعه، واختيار عينته، كما تم وصف أداة البحث وطريقة إعدادها، والخطوات الإجرائية لتطبيق البحث والأساليب الإحصائية المستخدمة لمعالجة وتحليل البيانات.

الفصل الخامس: يعرض هذا الفصل نتائج البحث وفقًا لأسئلته وفرضه، مع ربط النتائج التي توصلت إليها الدراسة الحالية بنتائج الدراسات السابقة ومناقشتها.



- **الفصل السادس:** في هذا الفصل ملخص مشكلة البحث وخطواته ونتائجه التي تم التوصل إليها، والتوصيات والمقترحات التي يمكن الإفادة منها.

أبرز مزايا الرسالة ما يلي:

- تعرض الرسالة تجربة تعليم أسس تدبر القرآن الكريم من خلال وحدة مقترحة قائمة على المنظمات المتقدمة تُدرَس مصاحبة لمادة القرآن الكريم.

- لتحقيق هدف البحث تم بناء الوحدة مقترحة لتنمية أسس تدبر القرآن الكريم بما يلائم طالبات الصف الأول المتوسط، بحيث تم فيها تنظيم الموضوعات بشكل خاص، ومتدرج، بحيث تكتسب الطالبة المعارف من خلال الأنشطة التعليمية المتنوعة، كما تم إعداد دليل للمعلمة للاسترشاد به أثناء التدريس يتضمن الوسائل والمراجع المعينة الخاصة بتدريس الوحدة.

- استخدام المنهج شبه التجريبي لدراسة أثر الوحدة المقترحة في تنمية أسس تدبر القرآن الكريم؛ وذلك لأهمية التجربة في إبراز الواقع وتوضيح الأثر.

أبرز نتائج الرسالة:

قد انتهى البحث بعدة نتائج على النحو التالي:

١. وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط درجات طالبات العينة التجريبية في القياس القَبْلي والقياس البَعْدي في اختبار التحصيل لصالح القياس البَعْدي بعد تطبيق الوحدة المقترحة واستخدام دليل المعلمة في تدريس



الوحدة، وهذا يتفق مع نتائج دراسة كلٍّ من دراسة عسيري (٢٠١٣م)، ودراسة متولي (٢٠١٣م)، والتي توصَّلت نتائجها إلى تفوُّق المجموعة التجريبية في التحصيل، كما أسفرت نتائج دراسة فورة (٢٠١٥م) على ارتفاع التحصيل للمجموعة التجريبية، وكذلك نتائج دراسة الناجي (٢٠٠٩م) التي توصلت إلى تفوق المجموعة التجريبية في اختبار التحصيل.

٢. كما وضحت النتائج أن قيمة مربع إيتا (η^2) بلغت (٠,٨١) وهي قيمة كبيرة، وتدل على أن نسبة كبيرة من الفروق تُعْزَى إلى فروق حقيقية بين الاختبارين وتفسر ما نسبته ٨٠,٧٪ من التباين بين الاختبارين القَبْلي والبَعْدي، حيث تم الاعتماد في قياس حجم التأثير على قيمة مربع إيتا، بحيث إذا كانت قيمة مربع إيتا (٠,٢٠ فأقل) فهي تمثل حجم أثر ضئيل أو ضعيف، وإذا كانت قيمته (من ٠,٢٠ إلى ٠,٧٩) فحجم الأثر ذو قيمة تأثير متوسطة، أما إذا كانت قيمة مربع إيتا تبلغ (٠,٨٠ فأعلى) فهي تمثل حجم أثر كبير.

من أبرز التوصيات التي أوصت بها الباحثة ما يلي:

١. إعداد برامج تدريبية لمعلمات القرآن الكريم لتأصيل منهجية تدبر القرآن الكريم.

٢. بناء دليل لمعلمة القرآن الكريم، يتضمن أسس تدبر القرآن الكريم ووسائله، وكيفية تفعيلها في حصص القرآن الكريم.

٣. الاهتمام بتنمية تدبر القرآن الكريم، وتعليمه في مدارس التعليم العام ومدارس تحفيظ القرآن الكريم مع مراعاة خصائص المرحلة التعليمية.





٤. الحرص على توضيح الارتباط في ذهن الطالبة بين تلاوة الآيات واستحضارها، والإفادة منها والعمل بها.

٥. إعادة النظر في درجة التقويم النهائي لمادة القرآن الكريم، بحيث تشمل جزءًا من الدرجة تطبيقَ مهارات تدبر القرآن الكريم وأسسه بحسب خصائص المرحلة التعليمية.

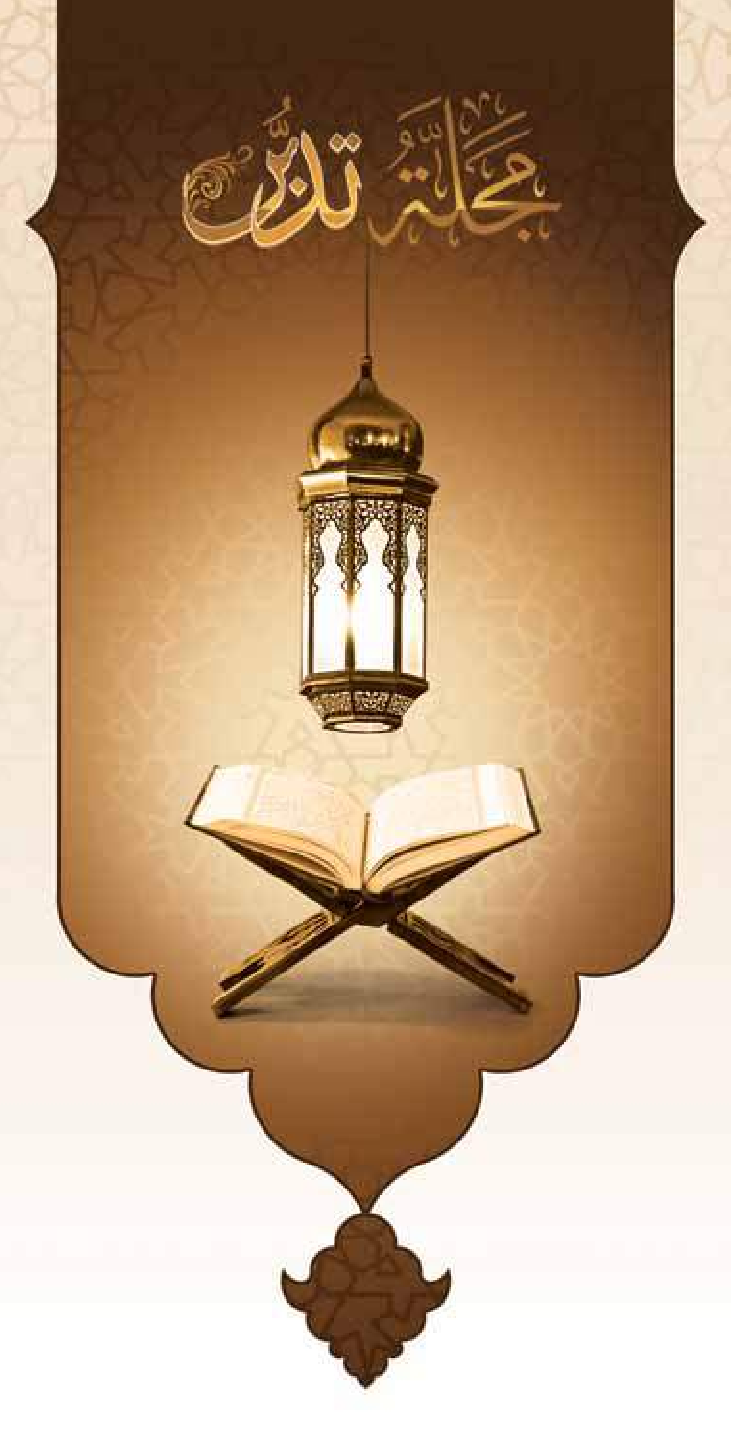
٦. توجيه معلمات القرآن الكريم، ومعلمات العلوم الشرعية بشكل عام إلى استخدام استراتيجية المنظمات المتقدمة في التدريس.

٧. عقد دورات تدريبية لمعلمات القرآن الكريم، في كيفية التدريس باستخدام استراتيجية المنظمات المتقدمة.

ولِمَا تميزت به هذه الدراسة من مُخْرَجَات فقد حصلت الدارسة فيها - بفضل الله وتوفيقه - على درجة (الماجستير).




مجلة تدبر



ثالثًا: تقارير المؤتمرات العلميّة


مجلة تدبر



والذي أقيم خلال الفترة

من ١٥-١٧ شوال من عام ١٤٣٦ هـ

الموافق ٣١ يوليو-٢ أغسطس ٢٠١٥ م







مقدمة

في إطار ما تشهده الساحة القرآنية على المستوى العالمي من اهتمام وحظوة بالقرآن الكريم والعمل به؛ شهدت مدينة مانشستر ببريطانيا مؤتمرًا قرآنيًا تحت عنوان: الدراسات القرآنية والمسلمون في الغرب، بتنظيم من الأكاديمية الأوروبية للدراسات القرآنية والجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه تبيان، وذلك في رحاب مركز التراث الإسلامي ببريطانيا.

وقد دعت الحاجة إلى إقامة المؤتمر لما تبنته الأكاديمية الأوروبية للدراسات القرآنية، التي عُنيت بالتعريف بالقرآن وتدبره، وتدريسه وخدمة أبحاثه، والكشف عن كنوزه للمجتمع المسلم وغير المسلم في الغرب، والتعرف عليه عن قرب؛ ليثبتوا للجميع أن القرآن صالح ومصلح لكل زمان ومكان.

ويأتي المؤتمر امتدادًا لما حققه المؤتمر الأول والثاني من نجاح أكسبه أهمية في طرح قضايا معاصرة، وتسليط الضوء عليها من خلال ربطها بمنهج القرآن الكريم.

وقد انعكس ذلك على أهداف المؤتمر وهي:

١. إلقاء الضوء على جوانب الدراسات القرآنية، والإشارة إلى مدى مواكبتها للعلوم المعاصرة.

٢. استخدام الدراسات القرآنية كوسيلة لتربية الأسرة المسلمة والنشء المسلم في الغرب.



٣. التعريف بطرق البحث العلمي في مجال الدراسات القرآنية.

٤. التفاعل الإيجابي بين الجالية المسلمة وغير المسلمة في الغرب، وبين العلماء المتخصصين في مجال الدراسات القرآنية.

٥. ربط الباحثين في مجال الدراسات القرآنية ببعضهم، وإطلاعهم على أحدث مناهج التدريب والبحث العلمي في الغرب.

كما انتظم المؤتمر ثمانية محاور وهي كما يلي:

١. المحور الأول: القيم القرآنية وأثرها في التربية.

٢. المحور الثاني: مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم والشريعة الإسلامية.

٣. المحور الثالث: حقوق المرأة في التشريع الإسلامي كما يصورها القرآن الكريم.

٤. المحور الرابع: تدبر القرآن الكريم والعوامل المؤثرة فيه.

٥. المحور الخامس: نماذج من العوامل المؤثرة في التدبر.

٦. المحور السادس: نماذج عملية للتدبر.

٧. المحور السابع: أساليب عصرية لتعليم القرآن الكريم وتدبره.

٨. المحور الثامن: بناء الحياة وعمارتها من خلال القرآن الكريم.





وقد قُدِّمت في هذا المؤتمر أربعٌ وأربعون ورقةً علمية، قام بإعدادها نخبة من الباحثين والباحثات، وِفْق منهجيَّة عِلْميَّة محدَّدة عالجت محاور المؤتمر الثمانية، وهي:

١. الحوار في القرآن الكريم وأثره كوسيلة حضارية: د.ابتهال محمد علي البار.

٢. الإنسان وحقه في العدالة الاجتماعية من خلال القرآن: د.معتوقة بنت محمد حسن بن زيد الحساني.

٣. الحوار بين المسلم وغير المسلم في ضوء القرآن: د.عبد الله بن صالح السيف.

٤. أدب العالم والمتعلم في ضوء قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: د.وفاء بنت عبد العزيز بن حمد الزامل.

٥. الحوار القرآني ودوره في محاورة الأجيال القادمة: د.منال بنت عمار بن ابراهيم مزيو.

٦. منهج القرآن الكريم في مراعاة حقوق الإنسان: أ.د.محمد ناصر القرني.

٧. رعاية حقوق الإنسان ومظاهر تكريمه: د.سلطان بن سعد السيف.

٨. حقوق الإنسان ما بين الإسلام والنظام العالمي: دراسة فقهية وتأصيلية لقواعده ومقاصده وتطبيقاتها من القرآن الكريم والسنة النبوية: أ.د.أحمد بن هلال الشيخ.



٩. حقوق الإنسان في القرآن الكريم: د.كامل بن سعود بن مطيران الجعفري العنزي.

١٠. أهمية التأصيل من القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى وضرورته: أ.د.علي بن محمد الطالب الأمين الشنقيطي.

١١. حقوق الإنسان في الإسلام: د.دوحة عبد القادر.

١٢. حقوق المرأة في الميزان: دراسة بمنهج التفسير الموضوعي في القرآن الكريم: ميادة عكاوي.

١٣. الرعاية للمرأة في الخطاب القرآني: د.نعمات محمد الجعفري.

١٤. البعد الفلسفي والعقدي لحقوق الإنسان في القرآن الكريم ومواثيق حقوق الإنسان الدولية: ليلى ابراهيم العدواني.

١٥. حق المرأة في الزواج بين القرآن الكريم وميثاق الأمم المتحدة: د.فاطمة بنت محمد الكلثم.

١٦. الآثار الحسية للقرآن الكريم في حياة السلف وعلاقته بالتدبر: أ.د.ناصر بن محمد المنيع.

١٧. وسائل التزكية بالقرآن الكريم: أ.د.إبراهيم بن صالح الحميضي.

١٨. التزكية بالقرآن وسائلها ومناهجها: دراسة تطبيقية على سورة الأعلى: د.عادل بن عمر بن عمر يسلم بصفر.

١٩. طبيعة التدريس بالممارسة في ضوء التربية القرآنية: أ.د.عبد الرحمن بن عبد الله المالكي.

٢٠. نشأة الحلقات العلمية عند المفسرين: وأثرها في تدبر القرآن الكريم: د.عبد الرحيم الحقيب الغامدي.

٢١. صور من أثر تدبر السلف للقرآن الكريم: د.نواف بن معيض بن جمعان الحارثي.

٢٢. المناسبات وأثرها في التدبر من خلال تفسير التحرير والتنوير: د.محسن بن حامد المطيري.

٢٣. مقاصد القرآن من خلال القَسَم في القرآن الكريم: أ.د.فلوة بنت ناصر الراشد.

٢٤. السعادة: أسبابها وأهميتها في تكوين الشخصية الإبداعية من خلال تدبر سورة طه: أساليب تشويقية لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام: د.فوزية بنت صالح الخليفي.

٢٥. البناء القصصي القرآني في سورة النمل: د.فايزة أحمد الحربي.

٢٦. أثر الحوار السليم في الدعوة إلى عالم إنساني متعاون: أ.د.هيا بنت إسماعيل آل الشيخ.

٢٧. الدلالات التربوية في قصة الذبيح من سورة الصافات: د.ريم بنت عبد المحسن السويلم.

٢٨. موقف المسلم من الفتن في ضوء القرآن: أ.د.علي بن عبد الله الصياح.

٢٩. مشاهد الكون في القرآن الكريم وأثرها في تزكية النفوس: سورة الشمس أنموذجًا: د. فهد بن محمد بن عبد الله الماجد.



٣٠. الدلالات العقدية للسنن الكونية في القرآن: د.إبراهيم بن عبد الله المعثم.

٣١. قلب الإسناد في القرآن الكريم وأثره في المعنى: د.عبد المجيد بن صالح الجار الله.

٣٢. الكناية عن المجاز بأسماء الله الحسنى في فواصل الآيات: نموذج للتربية القرآنية: د.رباب صالح جمال.

٣٣. الدراسات القرآنية ومواكبتها للتخصصات الإنسانية والتطبيقية المعاصرة: د.عائشة سعيد صالح العطوي.

٣٤. دور تقنية المعلومات في نشر القرآن الكريم: د.نورة العلي.

٣٥. واقع توظيف التقنيات الحديثة في تدريس القرآن الكريم ومعوقاتها من وجهة نظر المعلمين بسلطنة عمان: د.ميمونة بنت درويش الزدجالي.

٣٦. معايير الجودة والتميز في المؤسسات التعليمية الأكاديمية المتخصصة ببرامج الدراسات القرآنية بالسعودية: جامعة الملك سعود أنموذجًا: د. نوف بنت خلف الحضرمي.

٣٧. التقنية في خدمة القرآن الكريم: المقارئ الإلكترونية أنموذجًا: د. سعاد بنت جابر محمد الفيفي.

٣٨. فعالية استخدام خرائط المفاهيم في تدريس القرآن الكريم وعلومه لبقاء أثر التعلم: د.ريم بنت عبد العزيز بن محمد العلي.

٣٩. الحكمة من تكريم الإنسان في القرآن الكريم: أ.د.هدى بنت دليجان الدليجان.

٤٠. التسخير في القرآن الكريم: حصة بنت محمد العكروش.





٤١. بلاغة استدلال القرآن على السنن الكونية: د.زينب بنت عبد اللطيف بن كامل كردي.

٤٢. تنمية القدرات العقلية من خلال عملية تدبر القرآن الكريم: إيمان بنت زكي عبد الله أسرة.

٤٣. التدبر في القرآن الكريم وأثره على الاستقامة وتصحيح السلوك الاجتماعي: آيات الإيمان بالغيب أنموذجًا: د.شاه ناز بنت الموفق.

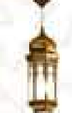
٤٤. تدبر السنن الإلهية في الأمم والأفراد في ضوء السنة النبوية: د.منى بنت أحمد القاسم.

وسعيًا في تحقيق أهداف المؤتمر؛ وبعد عرض أبحاثه وأوراقه من خلال جلسات علمية وورش عمل متخصصة، خلص المشاركون إلى التوصيات التالية:

١. الدعوة إلى إنشاء مراكز متخصصة لمتابعة أحوال المسلمين في الغرب، مهمتها دراسة المشكلات، وإيجاد الحلول للمستجدات العلمية والثقافية والاجتماعية التي يعاني منها المسلمون في بلاد الغرب من خلال الهدايات القرآنية، وربطها بالواقع المعاصر.

٢. توعية الأسرة المسلمة في الغرب بمبادئ الإسلام الصحيح، والعمل على نشرها وتوضيحها للناس بصورة صحيحة من خلال الهدايات القرآنية.

٣. دعم وتوعية المرأة المسلمة بحقوقها وواجباتها في الشريعة الإسلامية.



٤. تَبَنِّي القيام بدراسات للقيم التربوية في القرآن وبثِّها في النشء.

٥. تعليم فنون الحوار حسب المنهج القرآني؛ كوسيلة تربوية ودعوية بإقامة برامج ودورات للمعنيين بهذا الشأن.

٦. تطوير أساليب فهم القرآن الكريم وتفسيره وتدبره، والإفادة من التقنيات الحديثة والمتجددة، وتوظيفها في تيسير فهم القرآن لغير الناطقين بالعربية وعرضه بأساليب تشويقية ميسرة.

٧. ضرورة العناية ببيان المنهج الوسطي للقرآن الكريم في حفظ حقوق الإنسان وبيان خصائصه ومزاياه، والفرق بينه وبين النظام العالمي لحقوق الإنسان في العقائد والعبادات والمعاملات.

٨. تنظيم جوائز ووضع حوافز مشجعة لحثِّ المسلمين الجُدُد وغيرهم على فهم القرآن وتدبره.

٩. إيجاد آلية تنظم تعاون مؤسسات القرآن والمراكز الإسلامية في أوروبا؛ بما فيه مصلحة نشر الإسلام بصورة صحيحة.

١٠. إنتاج تطبيقات متنوعة لتقريب فهم القرآن وتدبره، على الأجهزة الذكية بمختلف أنواعها بالعربية، ومترجمة الى اللغة الإنجليزية.

١١. طبع وترجمة ونشر الكتب والبحوث المتخصصة بتدبر القرآن الكريم، وتوزيعها في المساجد والمراكز الإسلامية.

١٢. التواصل مع الجهات المعنية بتعليم أبناء المسلمين في أوروبا في





المدارس والمساجد لإقرار مناهج متخصصة في فهم القرآن الكريم وتدبره.

١٣. عقد المؤتمر العالمي الرابع العام القادم (١٤٣٧هـ) تحت عنوان: العدل والاحسان في القرآن الكريم والسنة النبوية.

هذا وقد لاقى الملتقى صدًى طيِّبًا في الأوساط العِلميَّة والقرآنيَّة، حيث شارك في الافتتاح عضو البرلمان الأوروبي لشمال غرب إنجلترا نائب رئيس لجنة الدفاع والأمن للبرلمان الأوروبي، ونائب مجلس أمناء مركز التراث الاسلامي، وجمع من المسؤولين في بريطانيا، وحضر المؤتمر جمع من أساتذة الجامعات والباحثين من عدة دول من: السعودية، ومصر، والجزائر، والإمارات، وبريطانيا.







والذي أقيم خلال الفترة

من ١٠-١٢ شوال من عام ١٤٣٧ هـ

الموافق ١٥-١٧ يوليو ٢٠١٦ م.





مقدمة

في إطار ما تشهده الساحة القرآنية على المستوى العالمي من اهتمام وحظوة بالقرآن الكريم والعمل به، شهدت مدينة مانشستر ببريطانيا مؤتمرًا قرآنيًا حول مفهوم العدل والإحسان في القرآن الكريم والسنة النبوية، بتنظيم من الأكاديمية الأوروبية للدراسات القرآنية، والجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه تبيان، وذلك في رحاب مركز التراث الإسلامي ببريطانيا.

وقد دعت الحاجة إلى إقامة المؤتمر لاستقراء ما جاء في القرآن والسنة من دلائل ومسائل وأحكامٍ وآداب؛ تَستقصي أطراف هذا الموضوع وتَستوفي دقائقه وتَستخرج حقائقه وتبثُّ كنوزه.

ويأتي المؤتمر امتدادًا لمؤتمرات سابقة؛ أكسبه أهمية وحاجة في علاج واقع المجتمع وربطه بالقرآن الكريم، وقد اتضح ذلك بجلاء من خلال أهدافه السامية، وهي:

١. إبراز عالمية الإسلام وسموِّه ومصدره الإلهي، من خلال عدالة تشريعاته الاجتماعية والسياسية والجنائية وغيرها، وما فيها من الإحسان والإشارة لإعجازها.

٢. تدبر نصوص القرآن الكريم، وعمل السلف الصالح بها لإبراز قيم العدل والإحسان والترغيب فيهما.



٣. استقصاء النصوص الشرعية، والسنن الكونية، والتطبيقات العملية، من الكتاب العزيز، والسنة المشرفة، وعمل السلف الصالح، الدّالة على عِظم قيم العدل والإحسان والترغيب فيهما.

٤. تجلية المفاهيم اللفظية المتعلقة بالعدل والإحسان، وبيان معانيها ومراميها، ومعاييرها في الإسلام، والأنظمة المعاصرة.

٥. بيان منهج القرآن الكريم في تقرير العدل والإحسان وتحقيقهما في كافة الميادين.

٦. بيان العدل والإحسان مع الخلق في الإسلام من خلال الشعائر التعبدية والتكاليف الشرعية.

٧. إيضاح التدابير الشرعية الواردة في الوحيين؛ لتطهير المجتمعات من الظلم والجور وحمايتها من الوقوع فيه.

كما انتظم المؤتمر أربعة محاور وهي كما يلي:

١. المحور الأول: تأصيل مفهوم العدل والإحسان بالانفراد والاقتران وتدبر الآيات الواردة في ذلك.

٢. المحور الثاني: العدل والإحسان في العقائد.

٣. المحور الثالث: العدل والإحسان في الشعائر التعبدية، والتكاليف الشرعية.

٤. المحور الرابع: العدل والإحسان في ميدان الحقوق.





٥. المحور الخامس: نماذج وتطبيقات للعدل والإحسان بين المسلمين، ومع غير المسلمين، في السلم و الحرب (وثائق تاريخية ومعاصرة وقدوات).

٦. المحور السادس: آثار العدل والإحسان ومن ذلك: الآثار التي يحققها العدل والإحسان في الرقي العلمي، والنمو الحضاري، والعلاقات الدولية، وفي السلامة البيئية.

وقد قُدِّمت في هذا المؤتمر اثنتا عشرة ورقة علمية قام بإعدادها نخبة من الباحثين والباحثات، وِفْق منهجيَّة عِلْميَّة محدَّدة عالجت محاور المؤتمر الستة، وهي:

١. صور العدل في آيات المواريث: د. نورة عبد العزيز علي.

٢. مفهوم الإحسان في التصور السالمي كمدخل لإتقان ومؤشر لجودة الأداء في إدارة الموقف الصفي لدى معلمي التربية الإسلامية: د.ميمونه الزدجالي.

٣. حرية الإنسان بين العدل والإحسان مقصد قرآني وميثاق دولي: السيدة ميادة عكاوي.

٤. مفهوم الإحسان وصوره المتعلقة بالتعامل مع الآخرين في القرآن الكريم: د. سعاد بنت جابر الفيفي.

٥. العدل والإحسان بين المفهوم اللغوي والاصطلاح القرآني: د. خيره غانم.

٦. العدل و الإحسان مع غير المسلمين: نماذج تطبيقية من السنة: أ.د سعيد بن نزال العنزي.



٧. مشروع العدل والإحسان بين اجتهاد السلف وتجديد الخلف: د.يونس توفيق.

٨. اتصاف الله بالعدل وتسميه بالمحسن: د. منى بنت عبد الرحمن الشنيفي.

٩. العدل والإحسان في القرآن الكريم: د.عادل بن عمر بصفر.

١٠. تدبر آيات القران في العدل الإحسان وتطبيقاته على المسلمين في الغرب: د.فهد الوهبي.

١١. العدل الإحسان في الشرائع التعبدية و التكاليف الشرعية: د. أحمد بن هلال الشيخ.

١٢. العدل في العقائد عند ابن تيمية تقريرات وتطبيقات :د.إبراهيم بن عبد الله المعثم.

۞ وسعيًا في تحقيق أهداف المؤتمر؛ وبعد عرض أبحاثه وأوراقه في ثمان جلسات وحلقة نقاش، خلص المشاركون إلى التوصيات التالية:

١. إبراز عالمية الإسلام وسموّه ومصدره الإلهي من خلال عدالة تشريعاته في مختلف جوانب الحياة .

٢. إشاعة قيم العدل والاحسان والحريّة في المجتمعات البشرية مستمدة من نصوص الوحيين .





٣. الدعوة إلى إثبات آثار تحقيق العدل والإحسان في نيل الحقوق وتوطيد العلاقات، واستتباب الأمن والتمكين، وبناء الحضارات.

٤. العناية بدراسة نصوص التراث الإسلامي الغزيرة المتضمنة لمعاني العدل والإحسان، وتطبيقاتها في المجتمعات البشرية.

٥. تشجيع الباحثين على استنطاق النصوص والقصص الدالة على العدل والإحسان.

٦. الدعوة الى تضمين المواثيق الدولية قيم العدل والإحسان المستمدة من الشريعة الإسلامية.

٧. مواجهة الإرهاب من خلال الممارسة الحقيقة لقيم الإحسان والعدل في المجتمعات.

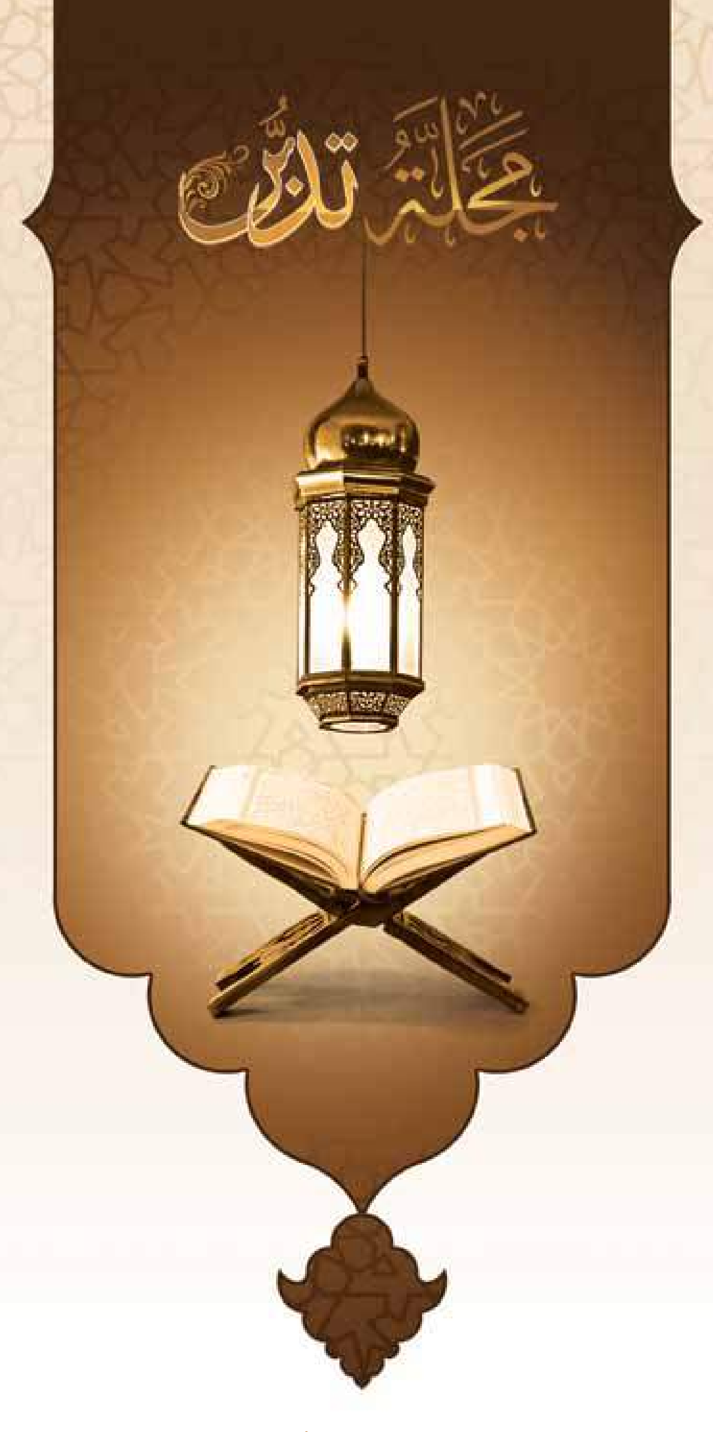
٨. عقد لقاءات علمية دورية في الدراسات القرآنية، ونقل هدايات القرآن للمسلمين وغير المسلمين في الغرب، بالتعاون مع الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه«تبيان»، والمؤسسات والجامعات في العالم العربي والإسلامي.

٩. عقد المؤتمر العالمي الخامس للدراسات القرآنية في أوروبا عام ١٤٣٩ الموافق ٢٠١٨م.



هذا وقد لاقى الملتقى صدًى طيِّبًا في الأوساط العِلميَّة والقرآنيَّة، حيث شارك في الافتتاح عضو البرلمان الأوروبي لشمال غرب إنجلترا نائب رئيس لجنة الدفاع والأمن للبرلمان الأوروبي، ونائب مجلس أمناء مركزالتراث الاسلامي وجمع من المسئولين في بريطانيا، وحضر المؤتمر جمع من أساتذة الجامعات والباحثين من عدة دول من: السعودية، ومصر، والجزائر، والإمارات، والمغرب، وبريطانيا.





رابعًا: المُلَخَّصَاتُ باللُّغَةِ الإِنجِلِيزِيَّة


مجلة تدبر

TADABBOR MAGAZINE

Periodical, Scientitic and Arbitral Magazine specializes in arbitration and dissemination studies and searches related to Holy Quran, biannual issued

Volume II, Issue number 3: Muharram 1439 AH, October 2017

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

﴿ص﴾ ٢٩

TADABBOR MAGAZINE Index:









TADABBOR MAGAZINE

Periodical, Scientitic and Arbitral Magazine specializes in arbitration and dissemination studies and searches related to Holy Quran, biannual issued

Volume II, Issue number 3: Muharram 1439 AH, October 2017

تمت الترجمة في مركز أصول العالمي







Tadabbur Magazine

A reviewed academic periodical dedicated to the review and publication of research and academic studies in the field of promoting the understanding of the Qur'an. It is published twice a year.

The magazine is licensed by the Ministry of Culture and Information, Saudi Arabia.

Mission: To be researchers' first choice for the publication of their research and studies in the field of understanding the Qur'an.

Vision: The magazine will provide an academically reviewed facility for researchers to publish their academic studies in the in-depth understanding of the Qur'an and related areas, observing professional publishing international standards.

Aims:

- Encourage academic studies leading to in-depth understanding of the Qur'an.
- Publish academic research and studies in the field of understanding the Qur'an.
- Ensure inter-communication between academics dedicated to Qur'anic studies and promote exchange of experience.
- Open up new areas of academic studies in the field of in-depth understanding of the Qur'an.



One: Research and studies in the field of in-depth understanding of the Qur'an.

1. The formulation of academic principles applicable to the understanding of the Qur'an.
2. Teaching methods of in-depth understanding the Qur'an.
3. Deduction from the Qur'an.
4. Objectives of the Qur'an.
5. The inimitability of the Qur'an.
6. The superior excellence of the Qur'an style.
7. Qur'anic themes.

Two: Reports of academic meeting and conferences related to the in-depth understanding of the Qur'an.

Three: Summaries of theses of distinction focused on the in-depth study of the Qur'an.

Four: Issues raised by the Editorial Board so as to request essays by specialists in the understanding of the Qur'an.



Editorial Board:



Consultative Committee



Conditions for Publication

One: material to be published:

The magazine aims to provide a forum for researchers all over the world to publish their academic studies in the area of in-depth understanding of the Qur'an, provided that such research reflects originality and conforms to the ethics and methodology of academic research.

The magazine will publish material that has not been already published in Arabic, in any of the following areas:

- Original research
- Academic debate
- Summaries of academic theses of distinction
- Reports of academic seminars and conferences.

Two: Format guidelines

1. Studies must not be more than 50 pages or less than 25 pages, 17x24 cm, including abstracts in Arabic and English, as well as a bibliography.
2. Two centimetres margins should be left on all four sides of the page, with single spacing between the lines.
3. For Arabic, the font Linotype Lotus should be used, size 16 for the research itself, 12 for footnotes and the abstract, and 11 for figures and tables.
4. For English, Times New Roman should be used, size 12, and size 10 for the footnotes, abstract, figures and tables.



5. Qur'anic verses cited should be written as in the electronic copy published by King Fahd Complex for the Publication of the Qur'an, size 16, not bold.

6. Footnotes should be page by page, with separate numbers for each page. Footnotes should be automatically, not manually, entered.

7. Every submitted contribution should be accompanied by the following details in both Arabic and English: The title; the author with his or her biodata; the author's contact details; themes of his or her previous research.

8. The abstract should not exceed 250 words, and should include: the theme of the contribution, its aims, methodology, main findings and recommendations. Special attention should be given to the writing of abstracts.

9. Every abstract in Arabic and English should give at the end no more than six key words that clearly identify the topic and the main issues it addresses.

10. Contributions must be free of grammatical mistakes.



Structure of contributions

Submitted contributions should be structured according to the requirements of academic research, in the following order:

1. The introduction should define the subject matter, its limits, objectives, methodology, strategy and plan.
2. Literature review, if any, and what the submitted research adds.
3. The submitted research should address certain inter-related aspects, in accordance with the research plan.
4. Each aspect should address a particular topic that forms a part of the overall theme of the research.
5. The submitted research should be written in proper academic style, free of grammatical mistakes, and with accurate citations.
6. A proper conclusion should be added, which includes the main findings and recommendations.
7. Footnotes citing works of reference should follow the proper standard used in Islamic and Arabic language research: "The work; the author; volume; page". E.g. *Lisan al-Arab*; Ibn Manzur; 2/233. Quoted Qur'anic verses should be followed in the main text by the name of the Qur'anic surah and the number of the verse. E.g. (Women: 55)
8. References should be added at the end of the research according to the following system:

i. If the reference work is a book: the title; the author's surname; the author's first name(s); the name of the editor, if any; the edition number, city of publication, the publisher, year of publication. E.g. *Al-Jami' al-Sahih*; al-Tirmidhi, Abu Isa



Muhammad ibn Isa; edited by Ahmad Muhammad Shakir, et al; 2nd edition, Beirut; Dar Ihya' al-Turath al-Arabi, 2004.

ii. If the reference work is an unpublished dissertation: the title of the dissertation; the author's surname; the author's first name(s); the degree for which it is submitted (Masters or Doctorate); the country; the faculty; the university; year of submission. E.g. *Ya'qub ibn Shaybah al-Sadusi: Atharuh wa Minhajuh fi al-Jarh wal-Ta'dil*; Matiri al-, Ali ibn Abdullah; M.A. Saudi Arabia; Faculty of Education; King Saud University; 1418 AH.

iii. If the reference work is an essay published in a periodical: the title; the author's surname; the author's first name(s); the name of the periodical; place of publication; volume and number; year of publication; pages in the periodical x-xx. E.g. *Imam 'Affan ibn Muslim al-Saffar wa Minhajuh fi al-Talaqqi wal-Ada' wal-Naqd*; Matiri al-, Ali ibn Abdullah; Majallat Jami'at al-Qasim [Al-Qasim University Magazine]; Islamic Studies Section; al-Qasim. Vol. 3, No. 1; 1431 AH; pp. 35-85.

iv. Certain abbreviations should be used where entries are unavailable. These are:

n.p. where the publisher is not mentioned

n.e. where the edition is not mentioned

n.d. where the date of publication is not mentioned.

- To submit a contribution through the magazine's website or by post implies that the author confirms that the research was not published anywhere else and is not, and will not be, submitted for publication elsewhere until it has been peer-reviewed by the magazine.



- The Editorial Board has the right to decide, on initial reading, whether it should be sent for review or rejected.
- The author is entitled to receive summaries of the reports of the reviewers so as to make the necessary amendments and to respond to any points that he or she finds unacceptable. The Editorial Board has the final say with regard to any ensuing dispute between the author and the reviewers.
- Authors will receive a letter to inform them whether their contributions have been accepted for publication in the magazine or a letter of apology if the contribution is rejected.
- Authors may publish their research that are published in the magazine after six months of the date of the magazine, but in any future publication, they must mention its publication in the magazine.
- Submission of a contribution through the magazine website or its email constitutes acceptance by the author of the magazine's conditions for publication. The Editorial Board determines the priorities of research publication.
- Views expressed in the published contributions reflect the views of the authors, and they are not necessarily shared by the magazine.
- The magazine adopts the University of Chicago referencing system in citing foreign sources.
- The author of a published contribution is given five copies of the magazine number in which his or her research is published.



No. (1)

Abstract
Towards a Methodology of Understanding the Qur'an

By: Dr Usamah Abd al-Rahman al-Marakibi

Lecturer at the al-Azhar University

Abstract

This treatise aims to give a definitive answer to the major question: 'How to achieve an in-depth understanding of the Qur'an?' It uses the inductive method and examines the relevant heritage in an attempt to identify a proper method and a clear way, in an attempt to add to what our predecessors did so as to continue the creative process that aims to achieve a better understanding of the Qur'an.

This treatise aims to define certain methods of meditation that enable the reciter of the Qur'an and its students to gain a better understanding of it. It will help scholars and the public at large in their approach to the Qur'an to understand its message and infinite wisdom. The treatise starts by explaining the concept of in-depth understanding and how it is different from other terms that are close to it in meaning, such as commentary, contemplation, consideration, deduction, etc. It briefly explains the importance of understanding the Qur'an, its status, conditions, types,



benefits, how to achieve it, and what prevents it. It goes on to explain in a little more detail some methodologies of achieving a good understanding of the Qur'an, and concludes by mentioning the most common mistakes in the process of meditation over the Qur'an.

Key words: The Qur'an – in-depth understanding - deduction.



No. (2)

Abstract
Different Styles in a Qur'anic Surah to Express its Message
An applied study taking the case of Surah 19 “Maryam”

By: Dr Tawfeeq Ali Ali Murad Zabadi

Assistant Professor and Researcher in Qur’anic Studies at The Tafseer Centre for Qur’anic Studies, Riyadh

Subject:

Aims of the study

The study aims to identify the different styles used in a Qur’anic surah to illustrate its message, through providing answers to the following questions:

1. What is meant by ‘the message of the surah’?
2. What is meant by ‘styles of the Qur'anic surah’?
3. Do stories, God’s fine names, Qur'anic maxims, cosmic signs, divine laws and scenes of the Day of Resurrection portrayed in the surah refer to its message?

Methodology

The nature of this research requires a two-pronged approach. Therefore, the researcher used surveying and analysis of the texts. He surveyed the surah to identify



its verses related to the study. He then used the analytic method to analyse the identified texts.

Main findings

1. The message of the surah is the theme on which it focuses.
2. Several ways may be used to identify the message of the surah. Most important of these are: the surah's name, its merits, contemplation of its beginnings and ends, careful consideration of words that repeatedly occur in the surah, and a comprehensive look at the surah as a whole.
3. The surah employs different approaches in putting its message. These include: stories, God's fine names, Qur'anic maxims, cosmic signs, divine laws that apply to people, scenes of the Day of Resurrection, and other approaches that distinguish every surah.

Recommendations

I recommend that researchers should undertake further studies of the styles used in Qur'anic surahs and how they serve their messages.

Key words

Approaches – surah – identify – message.



No. (3)

Abstract
In-Depth Understanding in Al-Noor Essays by al-Nawrasi

By Dr Hashim ibn Ali al-Ahdal

Head, Department of Islamic Law, al-Haram al-Makki College, Makkah

To endeavour to achieve an in-depth understanding of the Qur'an is an aspect of the sincerity we are required to have in our approach towards God's book. It fulfils a duty incumbent on us towards the Qur'an. To read one verse with meditation is better than reading several verses without it. Understanding the Qur'an is not achieved through its mere recitation. It involves understanding its words and phrases, and the implementation of what it requires. It further requires meditation and contemplation of the Qur'anic verses. Its importance is reflected in the fact that when we do it, we are following the practice of Prophet Muhammad (peace be upon him) whose conduct reflects numerous ways of fine understanding of God's book.

In his essays, al-Nawrasi highlights the concept of in-depth understanding and shows that it is necessary. He stresses the fact that the Qur'anic method is the shortest and most comprehensive way of knowing God and aiming to gain His pleasure. The essays suggest various ways and methods of achieving such in-depth understanding. The author starts by stating that the Qur'an combines different disciplines.



The essays call on all Muslims to study the Qur'an in depth and urge their readers to reflect and meditate on the Qur'an, and to understand its message and guidelines.

The al-Noor essays discuss God's oneness and the need to address all worship to Him alone. They refute the arguments of atheists and unbelievers, and provide clear information about the Islamic message and Prophet Muhammad (peace be upon him). They show that the Qur'an clear all misconceptions and refutes false thoughts and ideas.

The al-Noor essays outline several methods of achieving in-depth understanding of the Qur'an, such as repeated recitation of Qur'anic verses, identifying objectives of the Qur'an, attentive listening to its recitation and following the example of the noble early Muslim generations.

Although the al-Noor essays include many good aspects of achieving good understanding of the Qur'an, they suffer from a few flaws that need to be revised and corrected. Readers should be aware of these, as they are contrary to what is agreed by scholars of Qur'anic commentary and deductive methodology. Readers should aim to arrive at the truth and guard against errors in approaching the Qur'an.

Key words

The Qur'an – understanding – Nawrasi – areas of understanding the Qur'an – methods of understanding – al-Noor essays.



No. (4)

Abstract

Educational Approaches to Guard against the Phenomenon of Ostentation in the light of the Qur'an

By Dr Abd al-Rahman ibn Ali al-Juhani

Associate Professor, Department of Education,

Faculty of Islamic Advocacy and Religious Fundamentals

At the Islamic University, Madinah

This study aims to highlight the educational approaches used in the Qur'an to guard against the phenomenon of ostentation.

The researcher used the deductive method and the descriptive analytical method as both are most suited to achieve the aims of the study. The study tackles the following aspects:

Illustration of the concept of ostentation, its types and different forms, as well as its likely consequences. Highlighting the Qur'anic methodology of warning against ostentation and identifying the educational approaches used in the Qur'an to guard against this phenomenon. The study lists its main findings and suggests recommendations.



Main findings

The Qur'an points out a number of highly important educational methods which, if implemented, will maintain sound social behaviour that shuns showiness, ostentation and boasting.

Main recommendations

Urges the presentation of an academic educational project, based on the Qur'an and the Prophet's Sunnah, promoting sound social behaviour that observes Islamic values and principles. The project should aim to discourage unhealthy social behaviour such as showiness and boasting. It should incorporate a clear and gradual application mechanism. The project should be carried out and implemented through the social media, satellite television and other information media.

Key words

Ostentation – boasting – educational approaches – Qur'anic methodology



Table of Contents



